



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

موسوعة
أعلام من أئمة
السنة والجماعة

في مصادر أهل السنة

« ٢ »

ناصر ربيعى المحمدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

موسوعه ام المومنين السيده خديجه عليها السلام في مصادر اهل السنه

كاتب:

ناصر رفيعي

نشرت في الطباعة:

جامعة المصطفي (صلي الله عليه وآله) العالمية

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
15	موسوعه ام المومنين السيده خديجه عليها السلام في مصادر اهل السنه المجلد 2
15	اشارة
16	اشارة
20	الفهرس الاجمالي
23	كلمة المدير العلمي للمؤتمر
25	المقدمة
25	اشارة
27	1. محاربة النظرة الجاهلية المُهينة للمرأة
27	2- طرح مباحث معرفية والدفاع عن الهوية الإنسانية للمرأة
28	3. طرح القدوات والأمثلة الإيجابية
29	4- تغيير وتعديل قوانين عهد الجاهلية بخصوص المرأة
33	1. حديث تزويج رسول الله(صلي الله عليه وآله) خديجة
33	اشارة
33	ملخص البحث
34	سنه(صلي الله عليه وآله) حين زواجه
34	خروجه(صلي الله عليه وآله) إلى التجارة بمال خديجة
35	خديجة ترغب في الزواج منه(صلي الله عليه وآله)
36	نسب خديجة(عليها السلام)
36	الرسول(صلي الله عليه وآله) يتزوج من خديجة بعد استشارة أعمامه
37	أولاده(صلي الله عليه وآله) من خديجة
37	ورقة يتنبأ له(صلي الله عليه وآله) بالنبوة
39	الرسول(صلي الله عليه وآله) يخبر خديجة بنزول جبرئيل عليه

40	تَبَيَّنَتْ خَدِيجَةٌ مِنَ الْوَحْيِ
41	ابتداء تنزيل القرآن
42	إسلام خديجة بنت خويلد
42	تبشير خديجة ببيت من قصب
42	جبرئيل يُقرئ خديجة السلام
42	تعليم الرسول (صلي الله عليه وآله) خديجة الوضوء والصلاة
44	فهرس المصادر
45	2. ذكر خروج رسول الله (صلي الله عليه وآله) إلي الشام في المرة الثانية
45	اشارة
45	ملخص البحث:
47	3. ذكر تزويج رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة بنت خويلد
47	اشارة
48	ذكر أولاد رسول (صلي الله عليه وآله) وتسميتهم
51	ذكر تزويج النبي (صلي الله عليه وآله) خديجة
51	ملخص البحث:
55	4. ذكر الحوادث التي كانت في سنة خمس وعشرين من مولده (صلي الله عليه وآله)
55	اشارة
55	ملخص البحث:
59	فهرس المصادر
61	5. ذكر نكاح النبي (صلي الله عليه وآله) خديجة- ابن الأثير
61	ملخص البحث:
63	6. تزويجه (عليها السلام) خديجة بنت خويلد بن أسد بن العُزَي بن قصي
69	7. باب سفره إلي الشام ثانياً - ابن برهان الحلبي
69	ملخص البحث:
78	باب تزوجه خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزَي بن قصي

86	فهرس المصادر
87	8. خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الأولى ووزير النبي (صلي الله عليه وآله) .
87	اشارة
87	ملخص البحث:
88	ذكرى أليمة
90	لقاء
92	زواج سعيد
96	مع المصطفى في ليلة القدر
100	عام الحزن
102	ملء الحياة
108	فهرس المصادر
111	9. خديجة بنت خويلد - هاشم معروف الحسني
111	ملخص البحث:
124	فهرس المصادر
125	10. أم المؤمنين خديجة بنت خويلد- عبد الحميد العبادي
125	ملخص البحث:
137	11. خديجة بنت خويلد- علي محمد علي دخيل
137	ملخص البحث:
138	الإهداء
138	هذا الكتاب
139	في سطور
141	إسلامها
142	في عهد الرسالة
143	سيرتها
145	مكاتها عند الرسول الأعظم

146	في أحاديث الرسول الأعظم ..
149	كلمات العلماء والعظماء ..
154	نهاية المطاف ..
155	فهرس المصادر ..
158	12. فضائل خديجة، والفضائل عند قومها- عبد الحميد الزهراوي ..
158	ملخص البحث:
170	13. أم المؤمنين الطاهرة خديجة بنت خويلد ..
170	اشارة ..
170	ملخص البحث:
171	اسمها وكنيتها ولقبها ..
173	وأما كنيته ..
174	وأما لقبها ..
174	فضائلها ومناقبها ..
190	في كلمات الأعلام ..
190	شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ..
190	عبد السلام ..
190	قاضي القضاة السُّبكي ..
192	كيفية إسلامها ..
195	زواجها ..
196	كيفية زواجها من رسول الله(صلي الله عليه وآله) ..
206	اعتزال النبي(صلي الله عليه وآله) عنها ..
209	أولادها من رسول الله(صلي الله عليه وآله) ..
210	وأما القاسم ..
210	وأما عبدُ الله ..
211	وأما إبراهيم ..

- 212 وأما زينب
- 213 وأما رقية
- 219 وأما فضائلها:
- 231 وأما شهادتها
- 234 وفاة خديجة الطاهرة:
- 241 فهرس المصادر
- 252 14. خديجة الكبرى مثل أعلى للمرأة المسلمة
- 252 إشارة
- 256 الهوية الشخصية، من هي السيدة خديجة أم المؤمنين؟
- 257 لسان الحق يتحدّث عن خديجة
- 258 الله يُقرنها السلام ويُسرّها
- 259 زُرقتُ حبّها
- 259 النبي (صلي الله عليه وآله) يعدّد بعض خصائص خديجة
- 262 خديجة والحياة الجديدة
- 262 مقدّمة تاريخية ضرورية
- 264 وتحقّق أمل خديجة
- 269 أوّل النساء تصديقاً برسول الله (صلي الله عليه وآله)
- 270 أ -- كان نبياً قبل أن يكون رسولاً
- 272 ب - علي وخديجة أوّل المصدّقين بالنبوة
- 275 الإيمان الممتحن
- 280 وعاء الكوثر
- 284 خصوصيات ميلاد الزهراء
- 287 عام الحزن والنهائية الأليمة
- 290 ثناء أهل العلم علي السيدة خديجة (عليها السلام)
- 293 وفي الختام

294	فهرس المصادر
300	15- خديجة من تكون؟
300	اشارة
301	1. خديجة شريفة بني أسد
308	2. خديجة التاجرة
313	3. خديجة في مكة الوثنية
326	فهرس المصادر
330	16- خديجة بنت خويلد
330	اشارة
331	خديجة التاجرة
332	شريكة التجارة تصبح شريكة الحياة
333	زواج مثالي
334	خديجة المؤمنة
336	وفاء... ووفاء
338	17- خديجة بنت خويلد
338	اشارة
341	زواجها من النبي (صلي الله عليه وآله)
342	إسلامها
343	وقوفها إلي جنب النبي (صلي الله عليه وآله)
345	مكاتها عند الرسول
345	في أحاديث الرسول
349	فهرس المصادر
354	18- خديجة سيده نساء قريش
354	اشارة
355	اسمها خديجة

- 371 هل تزوّجت خديجة قبل النبي(صلي الله عليه وآله)؟
- 372 القائلون بتزوّجها قبل رسول الله(صلي الله عليه وآله)
- 373 القول بأنّها لم تتزوّج قبله
- 376 ابن عمّها ورقة بن نوفل
- 385 وممّا يُستفاد من هذه الشخصية
- 386 أموال خديجة من أين؟
- 389 خديجة تبحث عن الصادق الأمين لتجارته
- 394 وممّا يُستفاد من رغبتها في الزواج ما يلي:
- 396 خطوطها
- 402 وممّا يُستفاد من خطبة أبي طالب ما يلي:
- 408 مهرها
- 409 وممّا يُستفاد من مهرها ما يلي:
- 411 عمرها يوم زواجها
- 412 أولادها
- 419 ووفات تأمّل
- 421 وممّا يُستفاد من ذكر بنات خديجة الثالث الأنفة الذكر ما يلي:
- 424 لِمَ هذا الاختلاف في ولادتها؟
- 428 لِمَ فاطمة(عليها السلام) أفضل بنات رسول الله(صلي الله عليه وآله)؟
- 432 وممّا يُستفاد من ذكر فاطمة(عليها السلام) ما يلي:
- 433 إيمان خديجة وإسلامها
- 450 19- أمّ المؤمنين خديجة الكبرى
- 450 إشارة
- 450 ملخص البحث:
- 457 الزواج المبارك
- 464 في شعب أبي طالب

465	مكائنها في قلب الرسول
467	عام الحزن
469	فهرس المصادر
472	20- السيدة خديجة(عليها السلام)
472	اشارة
480	مع النبي (صلي الله عليه وآله) في شعب أبي طالب
481	الله يرعاه
481	فضل خديجة
485	فهرس المصادر
488	21- السيدة خديجة: جهاد وتضحيات
488	اشارة
489	السيدة خديجة(عليها السلام) في سطور
490	ولادتها وظروف نشأتها
491	ربّ صدقة خير من ميعاد
492	الأنوار تتحد وتلاحم
493	السيدة خديجة الزوجة المخلصة والمجاهدة
494	مشاركتها في الدعوة
494	سنوات الجهاد والتضحيات
496	فهرس المصادر
498	22- السفر الثاني إلي الشام
498	اشارة
498	ملخص البحث:
502	خطبة أبي طالب
502	نظرة في كلمات أبي طالب
503	ودين شائع

- 504 مهر خديجة(عليها السلام)
- 506 عمر خديجة حين الزواج
- 507 يتيم قرش، أكلوبة مفضوحة
- 509 هل تزوج خديجة طمعاً في مالها؟
- 510 خديجة مثل أعلي
- 510 خديجة بين نساء قرش
- 511 هل تزوجت خديجة بأحد قبل النبي(صلي الله عليه وآله)؟
- 514 زوجتا عثمان، هل هما بنات النبي(صلي الله عليه وآله)؟!
- 516 هل زينب بنت الرسول أم ربيته؟
- 518 منافسون لعلي
- 519 خولة هند بن أبي هالة للإمام الحسن
- 526 23- السفر الثاني للنبي(صلي الله عليه وآله) إلي الشام وزواجه بخديجة
- 526 اشارة
- 526 ملخص البحث:
- 527 الخاطب أبو طالب
- 529 من تولي تزويج خديجة؟
- 530 خديجة تعرض نفسها علي النبي(صلي الله عليه وآله)
- 532 هل كان النبي(صلي الله عليه وآله) أجيراً لخديجة أو مضارباً؟
- 534 أوهام واهية
- 535 دوافع زواج النبي(صلي الله عليه وآله)
- 535 عمر خديجة ومهرها
- 537 هل كانت خديجة متزوجة؟
- 539 أولاد خديجة من النبي(صلي الله عليه وآله)
- 544 فهرس المصادر
- 550 24- الوضع المالي للسيدة خديجة

550	اشارة
550	ملخص البحث:
555	أدارة السيدة خديجة(عليها السلام) للتجارة
556	عمل رسول الله(صلي الله عليه وآله) في تجارة السيدة خديجة
569	موارد إنفاق أموال السيدة خديجة(عليها السلام)
578	فهرس المصادر
584	25- عناوين هامة في ترجمة السيدة خديجة: ومصادرها
584	اشارة
584	ملخص البحث:
587	تهمة تزويجها من أبيها وهو سكران، من الزهري
589	ومن هذا الباب ذكرهم تعدد أزواجها
590	موقف الرسول منها وموقفها من الرسول
591	فضائلها
604	وفاتها وموقف الرسول وفاطمة
605	المؤلفات حولها
606	من مصادر ترجمتها
607	تعريف مركز

موسوعه ام المومنين السيده خديجه عليها السلام في مصادر اهل السنه المجلد 2

اشارة

عنوان و نام پديدآور: موسوعه ام المومنين السيده خديجه عليها السلام في مصادر اهل السنه/ ناصر رفيعي المحمدي، مع مجموعته من المؤلفين.

مشخصات نشر: قم: مركز بين المللي ترجمه و نشر المصطفي (ص)، 1441ق. = 1398.

مشخصات ظاهري: 2ج.

فروست: مجتمع العليا التاريخ والسيره والحضاره الاسلاميه؛ 1619.

شابك: دوره: 978-600-429-662-5 ؛ 830000 ريال: ج. 1: 978-600-429-661-8 ؛ 880000 ريال: ج. 2: 978-600-429-663-2

وضعيته فهرست نويسي: فايا (چاپ دوم)

يادداشت: عربي.

يادداشت: چاپ دوم.

موضوع: خديجه (س) بنت خويلد، 68 - 3 قبل از هجرت.

موضوع: زنان مقدس مسلمان

Muslim wmen saints: موضوع

موضوع: احاديث اهل سنت -- قرن 14

موضوع: Hadith (Sunnites) -- Texts -- 20th century*

شناسه افزوده: رفيعي محمدي، ناصر، 1344 -

شناسه افزوده: جامعة المصطفي (ص) العالمية. مركز بين المللي ترجمه و نشر المصطفي (ص)

شناسه افزوده: Almustafa Internatinal University Almustafa Internatinal Translatin and Publicatin center

رده بندي كنگره: BP26/2

رده بندي ديويي: 297/9722

شماره کتابشناسی ملی: 6052531

وضعیت رکورد: فاپا

ص: 1

اشاره

موسوعه ام المومنين السيده خديجه عليها السلام في مصادر اهل السنه

ناصر رفيعي المحمدي، مع مجموعه من المؤلفين

ص: 3

الفهرس الإجمالي

- ٧..... كلمة المدير العلمي للمؤتمر.....
- ٩..... المقدمة.....
- ١٧..... ١. حديث تزويج رسول الله^١ خديجة.....
ابن هشام
- ٢٨..... ٢. ذكر خروج رسول الله^١ إلى الشام في المرة الثانية.....
ابن سعد
- ٣٤..... ٣. ذكر تزويج النبي^١ خديجة.....
محمد بن جرير الطبري
- ٣٨..... ٤. ذكر الحوادث التي كانت في سنة خمس وعشرين من مولده^١.....
محمد بن الجوزي
- ٤٤..... ٥. ذكر نكاح النبي^١ خديجة.....
ابن الأثير
- ٤٦..... ٦. تزويجه^٣ خديجة بنت خويلد بن أسد بن العزى بن قصي.....
أبو الفداء إسماعيل بن كثير
- ٥٢..... ٧. باب سفره إلى الشام ثانياً.....
ابن برهان الحلبي
- ٧٠..... ٨. خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين الأولى ووزير النبي^١).....
الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)
- ٩٤..... ٩. خديجة بنت خويلد.....
هاشم معروف الحسني
- ١٠٨..... ١٠. أم المؤمنين خديجة بنت خويلد.....
عبد الحميد العبادي
- ١٢٠..... ١١. خديجة بنت خويلد.....
علي محمد علي دخيل

معرفة خديجة	٦
١٢٠.....	١٢. فضائل خديجة، والفضائل عند قومها..... عبد الحميد الزهراوي
١٥٠.....	١٣. أم المؤمنين الطاهرة خديجة بنت خويلد..... الشيخ جعفر عباس الحائري
٢١٥.....	١٤. خديجة الكبرى مثل أعلى للمرأة المسلمة..... عز الدين سليم
٢٦٣.....	١٥. خديجة من تكون؟..... د. سلوي بالحاج صالح العايب
٢٩١.....	١٦. خديجة بنت خويلد..... يوسف عبد الله
٢٩٩.....	١٧. خديجة بنت خويلد..... محمد حسون / أم علي مشكور
٣١٥.....	١٨. خديجة سيدة نساء قریش..... محمدرضا الأنصاري
٣٩٩.....	١٩. أم المؤمنين خديجة الكبرى..... محمد سلمان
٤٢١.....	٢٠. السيدة خديجة ^٣ حمزة النشري / الخفيظ فرغلي / عبد الحميد مصطفى
٤٣٧.....	٢١. السيدة خديجة: جهاد وتضحيات..... إبراهيم السباعي
٤٤٧.....	٢٢. السفر الثاني إلى الشام..... السيد جعفر مرتضى العاملي
٤٧٥.....	٢٣. السفر الثاني للنبي إلى الشام وزواجه بخديجة..... محمد هادي اليوسفي الغروي
٤٩٩.....	٢٤. الوضع المالي للسيدة خديجة..... حسين علي الشرهاني
٥٣٣.....	٢٥. عناوين هامة في ترجمة السيدة خديجة ومصادرها..... التحرير مجلة علوم الحديث
٥٣٣.....	الفهرست التفصيلي.....

إنّ البحث حول الجوانب المختلفة لشخصية أمّ المؤمنين السيّدة خديجة الكبرى، من الموضوعات المهمّة الجديرة بالتحقيق والتنقيب؛ فإنّ الفحص والمطالعة في تاريخ حياة هذه السيّدة العظيمة سواء قبل البعثة أو بعدها، ترينا بوضوح أنّها كانت مجمعاً للفضائل الإنسانيّة والكمالات المعنويّة، بحيث صارت قدوة للمرأة في مختلف الأعصار، ومثلاً للاحتذاء بسلوكها القيم في الإيثار والتضحية، والنزاهة والنجابة، والفهم والمعرفة والبصيرة، والعزم والكرم والحلم، والمحبة والمودّة، والصبر والاستقامة، والاهتمام بالفقراء والضعفاء.

كانت السيّدة خديجة أوّل من لبّت الرسالة من النساء، وأوّل وأفضل أزواج الرسول (صلي الله عليه وآله) وصاحبة سرّه وأنيس وحدته وغربته، ومستودع أمّ أبيها وأمّ المؤمنين. ولم يخف علي أحد دورها الهامّ والبنّاء في تثبيت الإسلام ونشره في فجر الإسلام وبداية أمره، فموافقها الصريحة والثابتة في دعم الأفكار التوحيدية التي جاء بها الرسول الكريم في غاية الوضوح.

قال قائد الثورة الإسلاميّة - مدّ ظلّه - : «إنّ السيّدة خديجة (عليها السلام) لا زالت مظلومة؛ وذلك أنّ أمومتها للأمة كانت في فترة حسّاسة وظروف صعبة، لا تشاركها في تلك الفترة واحدة من أمّهات المؤمنين فيما تحمّلتها من أذيٍّ ومتاعب إلي جانب النبي (صلي الله عليه وآله) عند انبثاق الدعوة».

وبالرغم ممّا كتبت من بحوث قيّمة في التعريف بهذه الشخصية السماوية، فلا زالت هناك حاجة ملحة إليّ تحقيقات جديدة وعميقة للكشف عن أبعاد

شخصيتها وفضائلها، وإزاحة الستار عن ملامح جوانب حياتها النورانية، وإمطة اللثام عن مظلوميتها وعدم معرفتها.
وما تقدمه هنا في مؤتمر الحفل التكريمي لصدف الكوثر، خطوة قصيرة للتعريف بهذه السيدة الجليلة، ويشتمل علي:

1. مجموعة مقالات المؤتمر، في ثلاث مجلدات.

2. ما كُتب حول السيدة خديجة(عليها السلام) بالفارسية، في ثلاث مجلدات.

3. ما كُتب حول السيدة خديجة(عليها السلام) بالعربية، في مجلد واحد.

4. أم المؤمنين خديجة(عليها السلام) في مصادر أهل السنة، في مجلد واحد.

ونأمل أن تنال هذه المجموعة التراثية القبول عند الله، وأن ننال بها جميعاً عناية رسول الله(صلي الله عليه وآله) وزوجته الكريمة أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى(عليها السلام)، وشفاعتهم.

وفي الختام نتقدم بالشكر لكافة الأساتيد والمحققين الذين ساهموا في تدوين هذه المجاميع، وخاصة السادة: مهدي مهريزي، ومحمد اسفندياري، وهادي ربّاني، ووحيدرضا نوربخش.

وكذلك نشكر رئيس جامعة المصطفى العالمية آية الله عليرضا أعرافي، وحجة الإسلام والمسلمين الدكتور محمد جواد زارعان رئيس مجمع الإمام الخميني العالي، واللجنة العلمية لهذا المؤتمر؛ بما قدموه من دعم وإسناد لإنجاح هذه المهمة. ربّنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

المدير العلمي لمؤتمر صدف الكوثر

ناصر رفيعي المحمّدي

12/ربيع الأول/1438هـ

ص: 8

قبل الدخول في صلب البحث، نودّ ابتداءً عرض مجموعة من الملاحظات التمهيدية؛ من أجل تكوين رؤية أوضح عن الموضوع الذي نريد طرحه هاهنا.

أولاً: إذا أردنا معرفة رأي الإسلام في المرأة، علينا الرجوع إلى المصادر الخمسة للإسلام، ومن الطبيعي أنّ النظر إلى هذه المصادر إلى جانب بعضها، يمكن أن يقدّم لنا صورة شاملة وجامعة لرأي الإسلام والتعاليم الإسلامية في المرأة. وأمّا الفصل بين هذه المصادر والنظرة التجزئية إليها، والأخذ بكلّ واحدٍ منها علي حدة وبمعزلٍ عن المصادر الأخرى، فلا يقدّم لنا إلا رؤية ناقصة، بل وأحادية الجانب أحياناً. وهذه المصادر الخمسة هي:

1. القرآن الكريم.

2. السُّنة القولية لرسول الله (صلي الله عليه وآله) وأئمة الشيعة:.

3. السُّنة والسيرة العملية لرسول الله (صلي الله عليه وآله) وأئمة الشيعة:.

4. الأعلام والشخصيات الإسلامية البارزة والمشهورة.

5. الرموز والمعالم في الشعائر المذهبية والدينية.

هنالك مؤلفات كثيرة ومتعدّدة المرامي والمقاصد كُتبت حول القرآن والسُّنة القولية، بينما لم تحظ السيرة والسُّنة العملية لرسول الله (صلي الله عليه وآله) والأئمة في ما يخصّ المرأة إلا بالقليل من الاهتمام والبحث. بالنسبة إلى المصدر الرابع (الأعلام والشخصيات)، دُونت علي مدي القرون الماضية إلى يومنا هذا الكثير من الكتب

والمؤلفات التي تتناول هذا الموضوع بشكل مستقل أو مزجّي مع موضوعات أخرى، إلا أنّ ما تقتقر إليه الكتب التي ألفت في هذا المجال، هو انعدام التحليل والنظرة الشاملة والجامعة.

وفي ما يخصّ باب الرموز والمعالم، لم نعثر حتّى الآن علي عملٍ أو كتاب في هذا الخصوص. والمراد من الرموز في الشعائر الدينية، بعض الأحكام والتكاليف في عباداتٍ مثل الحجّ، ممّا يمكن أن يعكس صورة للمجتمع الإسلامي المثالي، ومن ذلك مثلاً في المسجد الحرام وأعمال الحجّ والعمرة، هناك بعض الأحكام الخاصّة التي تتجلّي بين المذاهب الفقهية والإسلامية الرائجة علي نحوٍ آخر في غير المسجد الحرام وفي ظروفٍ أخرى غير الحجّ والعمرة. في صلاة الجماعة في المسجد الحرام، عدم رعاية تقدّم وتأخّر الرجل والمرأة في صفوف الصلاة غير مبطل لها، مع أنّ جميع المذاهب الإسلامية تعدّ تأخّر المرأة شرطاً لصحّة الصلاة في غير المسجد الحرام.

أوفي حالة الإحرام لا ينبغي أن يكون وجه المرأة مغطّي، في حين أنّ فتوي ستر الوجه أمام غير المحرم واحد من الآراء المتداولة في هذا المجال بين الفقهاء من الشيعة وأهل السنّة. وكذلك يمكن أن يُستنتج من جواز إتمام الصلاة في المسجد الحرام، أنّ المسجد الحرام وطن لكلّ المسلمين.

وكذلك الحال في ما يتعلّق بنوع ثياب الإحرام، حيث يمكن الاستنتاج منها إلغاء التمييز بين الأقوام والشعوب وبين الفقراء والأغنياء. ويمكن أن يُستفاد من هذه الأحكام أيضاً ما يدلّ علي نظرة الإسلام إلي المرأة في المجتمع المثالي المنشود.

ثانياً: القرآن كتاب الله، وهو المصدر الأوّل والأصيل للتعاليم الإسلاميّة، وقد تعامل مع قضية المرأة بمنتهي الحكمة وبنظرة نبيلة وسامية. فقد جاء في هذا الكتاب السماوي ما يقارب 350 آية تتناول قضية المرأة وشؤونها المختلفة، بصور وأساليب شتّى، وينصبّ قسم كبير منها علي محاولة تغيير النظرة التي كانت رائجة يومذاك عن المرأة.

بدأ نزول الآيات المتعلقة بالمرأة منذ السنة الأولى للبعثة في مكّة، واستمرّت إلي السنة

الأخيرة من حياة رسول الله (صلي الله عليه وآله) في المدينة. يمكن من خلال نظرة عامة وكلية، تقسيم مراحل طرح قضية المرأة في القرآن الكريم إلى أربعة مراحل، نلخصها في ما يلي:

1. محاربة النظرة الجاهلية المهيمنة للمرأة

بدأ هذا التوجه منذ السنة الأولى للبعثة النبوية، وتكرّر في السنوات: الثانية، والتاسعة، والعاشر، والحادية عشر؛ في ما نزل من الآيات المكيّة (1). ومن أمثلة هذه الآيات نستعرض ما يلي:

- السنة الأولى للبعثة: (وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمُؤَدَّةُ سُئِلَتْ * بَأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) (2).

- السنة الثانية للبعثة: (الْكُفُّ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى) (3).

- السنة الحادية عشر للبعثة: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) (4).

2- طرح مباحث معرفية والدفاع عن الهوية الإنسانية للمرأة

يتناول القرآن الكريم في هذا الخصوص التعريف بالهوية الإنسانية للمرأة والرجل، وكيفية خلق كل واحدٍ منهما، مع بيان للقدرات والمؤهلات التي يتصف بها الرجال والنساء. بدأ طرح هذا الموضوع مع طرح مسألة خلق الذكر والأنثى منذ السنة الأولى للبعثة، واستمرّ

علي هذا المنوال في السنوات: الثانية، والثالثة، والخامسة، والعاشر، والحادية عشرة، والثالثة عشر، في ما نزل من الآيات المكيّة، وكذلك في السنوات: الأولى، والخامسة للهجرة، في السور المدنية (5). ومن الأمثلة علي هذه الآيات إليكم ما يلي:

ص: 11

1- . نسق هذه الآيات حسب ترتيب تاريخ نزولها، كالاتي: التكوير: 7 - 9، النجم: 21 - 22 و27، الصافات: 149 - 153، الزخرف: 16، النحل، 58.

2- . التكوير: 7 - 9.

3- . النجم: 21 - 22.

4- . النحل: 58.

5- . نسق هذه الآيات حسب ترتيب تاريخ نزولها، كالاتي: الليل: 3، النجم: 45، الأعراف: 19، طه: 117، النحل: 58، الروم: 21، النساء: 1.

- السنة الثالثة للبعثة: (وَقَلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)(1).

- السنة العاشرة للبعثة: (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)(2).

3. طرح القدوات والأمثلة الإيجابية

المرحلة الثالثة التي واصل فيها القرآن الكريم إظهار وتركيز النظرة الإيجابية إلى المرأة، تجسّد في ما عرضه من أمثلة وقدوات إيجابية للمرأة في أدوار قديمة من التاريخ. وقد بدأ هذا التوجّه منذ السنة الرابعة للبعثة، بطرح شخصية مريم ابنة عمران، وفي السنة الخامسة صوّر جهود نساء لهن صلة بقصة موسى (أمّه وأخته)، وفي السنة السادسة طرح من جديد قصّة المرأتين اللتين كان لهما دور في قصّة النبي موسى، مع ذكر قصّة ابنتي شعيب، وسلطة ملكة سبأ وحكمها لهذا البلد، وفي السنة الثانية عشر أعاد الكلام عن زوجة النبي زكريا ومريم (عليها السلام)، وفي السنوات: الثالثة، والخامسة، والثامنة، والتاسعة، حيث كان نزول الآيات في المدينة المنورة أيضاً، كشف عن جوانب من حياة مريم(3). ومن الأمثلة علي هذه الآيات إليكم ما يلي:

- السنة الرابعة للبعثة: (وَإِذْ ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)(4).

- السنة السادسة للبعثة: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ)(5).

- السنة السادسة للبعثة: (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتِ اسْتِ-أَجْرَةَ)(6).

- السنة السادسة للبعثة: (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)(7).

ص: 12

1- .الأعراف: 19

2- .الشوري: 11.

3- . نسق هذه الآيات حسب ترتيب تاريخ نزولها كالاتي: مريم: 16 - 29، طه: 38 - 40، القصص: 7 و26، النحل: 23، الأنبياء: 90، المؤمنون: 50، آل عمران: 37 - 36، النساء: 171، التحريم: 11.

4- . مريم: 16

5- . القصص: 7.

6- . القصص: 26.

7- . النمل: 23.

- السنة الثامنة للهجرة: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ) (1).

4- تغيير وتعديل قوانين عهد الجاهلية بخصوص المرأة

الحقل المتعلق ببيان الأحكام والمقررات المتعلقة بالمرأة علي صعيد مجالات الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية، بدأ منذ السنة الأولى لحياة المسلمين في المدينة، وتواصل في السنوات: الرابعة، والخامسة، والسابعة، والثامنة، والتاسعة، والعاشر؛ حيث طُرحت في هذه السنوات الموضوعات التالية (2): الطلاق، الشهادة، القصاص، الظهار، الزواج، الحجاب، تعدد الزوجات، الإرث، الزنا، السرقة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر. وتقدم في ما يلي أمثلة من هذه الآيات كالاتي:

- السنة العاشرة: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) (3).

- السنة العاشرة للهجرة: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) (4).

ثالثاً: في المصادر الإسلامية بشكل عام والشيعية علي وجه الخصوص؛ أي الكتاب والسنة، نلاحظ وجود نساء المعيات وذوات أسماء بارزة، يتصفن بكمالات معنوية وإنسانية وأخلاقية رفيعة، وهذا ما جعل منهنّ قدوات وعَدَوْنَ موضع تكريم من قِبَل الأئمة: بحيث اتَّخَذْنَ كَمِثَالٍ يُحْتَذَى بِهِ، مثل: مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة، وزينب، وفاطمة المعصومة، وحكيمة (عمّة إمام الزمان)، ونرجس (أم إمام الزمان)، وغيرهنّ الكثير من النساء الأخر.

إنّ هذا التكريم والاحترام بلغ حدّاً بحيث إنّ بعض هؤلاء النساء سُدَّيْت علي أضرحتهن قِبابٌ وأبنية، وغدت هذه الأضرحة مزارات معنوية يَأْمَهَا المسلمون وخاصّة

ص: 13

1- . التحريم: 11.

2- . نسق هذه الآيات حسب ترتيب تاريخ نزولها، كالاتي: الأحزاب: 4-6، 28-37، 49-53، النساء: 1، 7، 6، 4، 3، ... ، الطلاق: 1، 2، 4، 6، النور: 2، 4، 6، 11، 23، 12، 26، 29، 31، 58، 61.

3- . التوبة: 71.

4- . النساء: 19.

العلماء والصالحون منهم. ومن الأمثلة التي يُشار إليها بالبَنان في هذا المجال: روضة السيِّدة زينب في دمشق وفي القاهرة، وروضة السيِّدة المعصومة في قم.

إنَّ ما لقيته هؤلاء النسوة من تربية وما وصلن إليه من درجات التكامل من ناحية، والدعوة إلي تكريمهنَّ والتأسّي بهنَّ من ناحية أُخري، يعكس لنا رؤية الإسلام عن المرأة وطبيعة نظرة التعاليم الإسلامية إليها. فالتعاليم الإسلامية جاءت علي النحو الذي يُنشئ نساءً من أمثال خديجة وفاطمة وزينب، ويجعل منهنَّ مثلاً جديراً بالاقْتداء به في السير والسلوك المعنوي والأخلاقي.

رابعاً: السيِّدة خديجة أُولي زوجات رسول الله(صلي الله عليه وآله) وسيِّدة الإسلام الأُولي، وأوّل امرأة آمنت برسول الله(صلي الله عليه وآله)، عملت طيلة حياتها علي مناصرة رسول الله(صلي الله عليه وآله) ونشر رسالته بكلِّ ما أُوتيت من قوّة ماليّة وقبليّة، حتّي جاء وصفها في الروايات الإسلاميّة تارةً بأنّها إحدِي النساء البارزات في الجَنّة(1)، وتارةً أُخري بأنّها واحدة من النساء اللّاتي اصطفاهنَّ الله(2)، ووُصفت في مواقف أُخري بأنّها من النساء اللّاتي بلغن الكمال(3).

أبلغ رسول الله(صلي الله عليه وآله) خديجة سلام الله وجبرئيل لها في الليلة التي عرج بها إلي السماء، كما جاء في رواية وردت في تفسير العيّاشي(4)، كما بشرها رسول الله(صلي الله عليه وآله) عدّة مرّات بالجَنّة(5).

وخلاصة الكلام: أنّ خديجة هي سيِّدة الإسلام الأُولي، وجميع الفرق والمذاهب الإسلاميّة، تكرّمها وتقرّ بعلوّ مكانتها وتشير إليها كواحدة من الشخصيات النسوية البارزة.

جاء تدوين هذا الكتاب بهدف تخليد المكانة الشامخة لهذه السيِّدة الجليلية من جهة، ولأجل التعريف بقدوات أفرزتها الثقافة والهويّة الدينيّة من جهة أُخري. ولغرض

ص: 14

1- . بحار الأنوار: ج16، ص 2، ج 3 و4 (نقلاً عن الخصال).

2- . بحار الأنوار: ج 5 (نقلاً عن الخصال).

3- . صحيح البخاري: ج 4 ص 62 و63 وح 7 ص 142، سنن ابن ماجه: ج 2 ص 191 ح 2280.

4- . بحار الأنوار: ج 4 ص 2 ح 11 (نقلاً عن تفسير العيّاشي).

5- . بحار الأنوار؟؟؟؟: ص 7، ح 12.

الوصول إلى هذه الغاية أجرينا عملية مسح وتقصُّ شامل نسبياً للتحري عن كل ما كُتب وكل مدونة حول هذه السيدة باللغتين العربية والفارسية. ومن بعد التعرّف علي تلك المصادر وتقييمها، وقع الاختيار علي ثمانين مدونة، كانت ستون منها باللغة الفارسية، وعشرون باللغة العربية، وجمعت كلها في أربع مجلّدت؛ ثلاث مجلّدت منها باللغة الفارسية، ومجلّد واحد باللغة العربية.

وجد بر بالذكر أنّ ترتيب المقالات في هذا المجلّد علي حسب زمان تأليف المصدر، ولهذا بدأ بنقل من سيرة أبي هشام وبعده من طبقات ابن سعد، وعلي هذا الترتيب.

خامساً: في الختام نوّد تقديم الشكر والثناء للإخوة الذين ساهموا بشكل أو آخر في الإعداد لمؤتمر تخليد ذكرى السيدة خديجة، ونخصّ منهم بالذكر الأمين المشرف علي المؤتمر سماحة حجة الإسلام والمسلمين الدكتور ناصر رفيعي، ثمّ الإخوة أصحاب الفضيلة والعلم الذين كان لهم دور في مراحل جمع وتنقيح وصياغة هذه المجموعة،

ونذكر منهم: محمّد باقر النجفي، ومحمّد ربّاني، وسيد رضا باقریان موحد، ومحمّد پورصبّاغ، وخلييل عصامي، وحسين أفخميان، ومهدي خوشرفتار أكرم.

مهدي مهريزي - هادي ربّاني

13 جمادي الثاني 1439هـ

2 مارس 2018م

ص: 15

1. حديث تزويج رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة

إشارة

* حديث تزويج رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة (1)

ابن هشام

ملخص البحث

هذا النص يحكي قصة خروج رسول الله (صلي الله عليه وآله) إلى بلاد الشام مضارباً بمال خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي. وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم. وكانت قريش قوماً تجاراً. فلما بلغها ما بلغها من صدق حديث النبي وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً. وبعد ما بلغها ما كان من كراماته عرضت عليه نفسها. وكانت خديجة يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً علي الزواج منها لو يقدر عليه. ثم يواصل سرد مجربات الخطبة والزواج، وذكر أنها ولدت لرسول الله ولده كلهم إلا إبراهيم. وكان أكبر بنيه القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر. وأكبر بناته رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة. فأما القاسم، والطيب، والطاهر، فهلكوا في الجاهلية. وأمّ بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه. وبعد نزول الوحي عليه آمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته علي أمره. فهي أول من آمن بالله وبرسوله.

وكانت أول امرأة تزوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت. وقد

ص: 17

1- السيرة النبوية، حَقَّقها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، بيروت، دار الإحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1415هـ / 1995م: ج 1 ص 224 - 229.

أخبرها في مواقف عديدة أنّها من أهل الجنّة، وبشّرها أنّ لها في الجنّة بيت من قصب، لا لغو ولا نصب.

سنّه (صلي الله عليه وآله) حين زواجه

قال ابن هشام: «فلما بلغ رسول الله (صلي الله عليه وآله) خمساً وعشرين سنة (1)، تزوّج خديجة (2) بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، فيما حدّثني غير واحد من أهل العلم عن أبي عمرو المدني».

خروجه (صلي الله عليه وآله) إلي التجارة بمال خديجة

قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم (3) إيّاه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجّاراً، فلما بلغها عن رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلي الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجّار، مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله (صلي الله عليه وآله) منها وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة، حتّي قدم الشام».

حديثه (صلي الله عليه وآله) مع الراهب: فنزل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب (4) من

ص: 18

- 1- . وقيل: كان سنّه إحدى وعشرين سنة، وقيل: ثلاثين، كما قيل: سبعاً وثلاثين، وقيل غير ذلك (راجع: شرح المواهب والاستيعاب).
- 2- . وكان عمر خديجة إذ ذاك أربعين سنة، وقيل: خمساً وأربعين. وكانت تُدعى في الجاهلية بالطاهرة؛ لشدة عفائها وصيانتها، وكانت تحت أبي هالة بن زرارة التميمي، ومات أبو هالة في الجاهلية وقد ولدت له خديجة هنداً الصحابي، راوي حديث صفة النبي، وقد شهد بدرًا، وقيل: أحداً، وقد روي عنه الحسن بن علي، فقال: «حدّثني خالي»؛ لأنّه أخو فاطمة لأُمّها. وكان هند فصيحاً بليغاً وصافاً، وكان يقول: أنا أكرم الناس أبا وأماً وأخاً وأختاً؛ أبي رسول الله، وأخي القاسم، وأختي فاطمة، وأُمّي خديجة (عليها السلام). وقُتل هند مع علي يوم الجمل، وقيل: مات في البصرة بالطاعون، ويقال: إنّ الذي مات بالطاعون ولده، واسمه هند أيضاً. كما ولدت خديجة أيضاً لأبي هالة: هالة بن أبي هالة، وكان له صحبة، وبعد أن مات أبو هالة عن خديجة، تزوّجها عتيق بن عابد المخزومي، فولدت له بنتاً اسمها هند، وقد أسلمت وصحبت (راجع: شرح المواهب، والاستيعاب).
- 3- . تضاربهم: تقارضهم. والمضاربة: المقارضة.
- 4- . وكان اسم هذا الراهب نسطورا، وليس هو بحيري المتقدّم ذكره.

الرهبان، فأطلع الراهب إلي ميسرة فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي(1).

ثم باع رسول الله(صلي الله عليه وآله) سلعته التي خرج بها، واشتري ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلي مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة - فيما يزعمون - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يري ملكين يظلاله من الشمس وهو يسير علي بعيره، فلما قدم مكة علي خديجة بمالها، باعت ما جاء به، فأضعف أو قريبا(2)، وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعمّا كان يري من إضلال الملكين إياه.

خديجة ترغب في الزواج منه(صلي الله عليه وآله)

وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامته، فلما أخبرها ميسرة ممّا أخبرها به، بعثت(3) إلي رسول الله(صلي الله عليه وآله) فقالت له -

فيما يزعمون - : يابن عمّ، إني قد رغبت فيك؛ لقربتك وسطتك(4) في قومك وأمانتك، وحسن خلقك

ص: 19

1- . يريد: ما نزل تحتها هذه الساعة إلا نبيّ، ولم يرد: ما نزل تحتها قط إلا نبيّ؛ لبعث العهد بالأنبياء قبل ذلك، وإن كان في لفظ الخبر «قط»، فقد تكلم بها علي جهة التوكيد للنفي، والشجرة لا تُعمّر في العادة هذا العمر الطويل حتّي يدري أنّه لم ينزل تحتها إلا عيسي أو غيره من الأنبياء؛ ويعد في العادة أن تكون شجرة تخلو من أن ينزل تحتها أحد حتّي يجيء نبيّ، إلا أن تصحّ رواية من قال في هذا الحديث: «لم ينزل تحتها أحد بعد عيسي بن مريم»، وهي رواية عن غير ابن إسحاق، فالشجرة علي هذا مخصوصة بهذه الآية (راجع: الروض الأنف).

2- . وروي الزرقاني عن الواقدي وابن السكن في اختيار خديجة لرسول الله: «إنّ أبا طالب قال: يابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدّ الزمان علينا، وألحّت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادّة ولا تجارة، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلي الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتّجرون في مالها ويصييون منافع، فلو جئتها لفضّلتك علي غيرك؛ لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد من ذلك بدأً. فقال: لعلّها ترسل إليّ في ذلك، فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولّي غيرك. فبلغ خديجة ما كان من محاوره عمّه له، ثمّ كان أن أرسلت إليه؛ لعلها قبل هذا بصدقه وأمانته».

3- . هذا قول ابن إسحاق: أنّها عرضت عليه نفسها من غير وساطة، ويذهب غيره إلي أنّها عرضت عليه نفسها بوساطة، وأنّ ذلك كان علي يد نفيسة بنت منية، والجمع ممكن، فقد تكون بعثت نفيسة أولاً؛ لتعلم أيرضي أم لا؟ فلمّا علمت بذلك كلمته بنفسها (راجع: شرح المواهب).

4- . كذا في أ، وشرح المواهب، وشرح السيرة، والروض، والطبري. وسطتك: شرفك؛ مأخوذة من الوسط، مصدر، كالعدّة والزنة؛ والوسط من أوصاف المدح والتفضيل، وفي سائر الأصول: «وسطتك»، وهو تحريف.

وصدق حديثك. ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهنّ شرفاً، وأكثرهنّ مالاً، كلّ قومها كان حريصاً علي ذلك منها لو يقدر عليه.

نسب خديجة (عليها السلام)

وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وأمّها: فاطمة بنت زائدة بن الأصمّ بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر.

وأمّ فاطمة: هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر.

وأمّ هالة: قلابة بنت سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

الرسول (صلي الله عليه و آله) يتزوّج من خديجة بعد استشارة أعمامه

فلما قالت ذلك لرسول الله (صلي الله عليه و آله) ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمّه حمزة(1) بن عبد المطلب حتّي دخل علي خويلد(2) بن أسد، فخطبها إليه، فتزوّجها.

صداق خديجة: قال ابن هشام: «وأصدقها رسول الله (صلي الله عليه و آله) عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوّجها رسول الله (صلي الله عليه و آله)، ولم يتزوّج عليها غيرها حتّي ماتت (عليها السلام)».

ص: 20

1- . ويقال: إنّ الذي نهض معه هو أبو طالب، وهو الذي خطب خطبة النكاح، وقيل: لعلّهما خرجا معها جميعاً، وخطب أبو طالب الخطبة؛ لأنّه كان أسنّ من حمزة (راجع: شرح المواهب والروض).

2- . وذكر الزهري أنّ خويلداً أبرم هذا الزواج وهو سكران، فلمّا أفاق أنكر ذلك، ثمّ رضيه وأمضاه، وفي ذلك يقول راجز من أهل مكّة: لا ترهدي خديج في محمّد نجم يضيء كإضاء الفرقد وذكر غير ابن إسحاق أنّ خويلداً كان إذ ذاك قد هلك، وأنّ الذي نكح خديجة (عليها السلام) هو عمّها عمرو بن أسد، كما يقال أيضاً أنّ الذي أنكحها هو أخوها عمرو بن خويلد (راجع: شرح المواهب، والروض).

أولاده (صلي الله عليه وآله) من خديجة

قال ابن إسحاق: «فولدت لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ولده كلهم إلا إبراهيم: القاسم، وبه كان يُكْنَى (صلي الله عليه وآله) والظاهر والطيب (1)، وزينب ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة:».

ترتيب ولادتهم: قال ابن هشام: «أكبر بنيه: القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر. وأكبر بناته: رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة».

قال ابن إسحاق: «فأمّا القاسم والطيب والظاهر، فهلكوا (2) في الجاهلية. وأمّا بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه (صلي الله عليه وآله)».

إبراهيم وأمه: قال ابن هشام: «وأمّا إبراهيم، فأمه مارية القبطية. حدّثنا عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة، قال: أم إبراهيم مارية، سرية النبي (صلي الله عليه وآله) التي أهداها إليه المقوقس من حفن من كورة أنصنا».

ورقة يتنبأ له (صلي الله عليه وآله) بالنبوة

قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة (3) بن نوفل بن أسد بن عبد العزّي - وكان ابن عمّها، وكان نصرانياً قد تتبّع الكتب وعلم من علم الناس - ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان يري منه، إذ كان الملكان يظللانه، فقال ورقة: لئن كان هذا حقّاً يا خديجة، إنّ محمداً لنبيّ هذه الأمة، وقد عرف أنّه كائن لهذه الأمة نبيّ يُنتظر، هذا زمانه، أو كما قال:

شعر

لورقة: فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتّي متي؟ فقال ورقة في ذلك:

ص: 21

1- . يُشعر سياق الحديث هنا وفيما سيأتي أنّ الطاهر والطيب شخصان، والمعروف أنّهما لقبان لعبد الله، وبهما كان يُلقب (راجع: زاد المعاد، والروض الأنف، والمعارف).

2- . في موت القاسم في الجاهلية خلاف، فقد ذكر السهيلي عن الزبير أنّ القاسم مات رضيعاً، وأنّ رسول الله دخل علي خديجة بعد موت القاسم وهي تبكي، فقالت: يا رسول الله، لقد درّت لُبينة القاسم (اللينة تصغير لبنة، وهي قطعة من اللبن) فلو كان عاش حتّي يستكمل رضاعه لهوّن عليّ. فقال: إن شئتِ أسمعك صوتك في الجذّة، فقالت: بل أُصدّق الله ورسوله. وفيما روي الزبير دليل علي أنّ القاسم لم يهلك في الجاهلية.

3- . أم ورقة: هند بنت أبي كبير بن عبد بن قصي، ولا عقب لورقة هذا، وهو أحد من آمن بالنبي قبل البعث (راجع: الروض).

لججتُ وكنْتُ في الذكري لَجوجاً

لَهُمَّ طالما بعث النشيجا(1)

ووصفٌ من خديجة بعد وصفٍ

فقد طال انتظاري يا خديجا

ببطن المكنّين علي رجائي

حديثك أن أري منه خروجاً(2)

بما خبرتنا من قول فسّ

من الرهبان أكره أن يعوجا

بأنّ محمداً سيسودُ فينا

ويخصم من يكون له حجاجا

ويظهرُ في البلاد ضياءَ نورٍ

يُقيم به البريةَ أن

تموجاً(3)

فيلقي من يُحاربه خساراً

ويلقي من يُساله فُلوجاً(4)

فيا ليتي إذا ما كان ذاكم

شهدتُ فكنْتُ أولهم وُلوجاً(5)

وُلوجاً في الذي كرهت قريش

ولو عجت بمكّتها عجيجاً(6)

أرجي بالذي كرهوا جميعاً

بمن يختار من سمك البروجا

وهل أمر السفالة غير كفرٍ

إلي ذي العرش إن سفلوا عرجاً(7)

فإن يبقوا وأبق تكن أمورٌ

يضج الكافرون لها ضجيجا

وإن أهلك فكل فتى سيلقي

من الأقدار متلفة(8) حرجاً»

الرسول (صلي الله عليه و آله) يخبر خديجة بنزول جبرئيل عليه

«وانصرفت راجعاً إلي أهلي حتى أتيت خديجة، فجلست إلي فخذها مضيفاً(9) إليها، فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثتُ رُسلي في طلبك حتى بلغوا مكة

ص: 22

- 1- . النشيج: البكاء مع صوت.
- 2- . الهاء في «منه» راجعة علي الحديث، وحرف الجر متعلق بالخروج.
- 3- . تموج: تضطرب.
- 4- . الفلوج: الظهور علي الخصم والعدو.
- 5- . كذا في أ، وفي سائر الأصول: «أكثرهم».
- 6- . عجت: ارتفعت أصواتها.
- 7- . العروج: الصعود والعلو.
- 8- . المتلفة: المهلكة. والحروج: الكثيرة التصرف.
- 9- . مضيفاً: ملتصقاً، يقال: أضفت إلي الرجل؛ إذا ملت نحوه ولصقت به، ومنه سمي الضيف ضيفاً.

ورجعوا لي. ثم حدّثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عمّ واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إنّي لأرجو أن تكون نبّي هذه الأمة».

خديجة(عليها السلام) تخبر ورقة بن نوفل: ثمّ قامت فجمعت عليها ثيابها، ثمّ انطلقت إلي ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّي بن قصي، وهو ابن عمّها، وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله(صلي الله عليه وآله) أنّه رأي وسمع، فقال ورقة بن نوفل: قُدُوسٌ قُدُوسٌ (1)، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدّقتيني يا خديجة، لقد جاءه الناموس (2) الأكبر الذي كان يأتي موسي، وإنّه لنبيّ هذه الأمة، فقولني له فليثبت.

فرجعت خديجة إلي رسول الله(صلي الله عليه وآله) فأخبرته بقول ورقة بن نوفل.

فلمّا قضى رسول الله(صلي الله عليه وآله) جواره وانصرف، صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت. فأخبره رسول الله(صلي الله عليه وآله)، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبيّ هذه الأمة، وقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسي، ولتكدّبته ولتؤذيته ولتخرجه ولتقاتلته، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصرّاً يعلمه. ثمّ أدني رأسه منه فقبّل يافوخه (3)، ثمّ انصرف رسول الله(صلي الله عليه وآله) إلي منزله

تثبت خديجة من الوحي

قال ابن إسحاق: «وحدّثني إسماعيل بن أبي حكيم (4) مولي آل الزبير، أنّه حدّث عن خديجة(عليها السلام) أنّها قالت لرسول الله(صلي الله عليه وآله): أي ابن عمّ، أنتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: فإذا جاءك فأخبرني به، فجاءه جبرئيل كما كان يصنع، فقال رسول الله(صلي الله عليه وآله) لخديجة: يا خديجة هذا جبرئيل قد جاءني، قالت: قم

ص: 23

1- . قُدُوس قُدُوس: أي طاهر طاهر، وأصله من التقديس؛ وهو التطهير.

2- . الناموس (في الأصل): صاحب سرّ الرجل في خيره وشره، فعبر عن الملك الذي جاءه بالوحي به.

3- . اليافوخ: وسط الرأس.

4- . هو إسماعيل بن أبي حكيم القرشي، روي عن سعيد بن المسيّب والقاسم بن محمّد وعبيدة بن شعبان الحضرمي وغيرهم، وعنه مالك وابن إسحاق وإسماعيل بن جعفر وأبو الأسود وغيرهم. وكان عاملاً لعمر بن عبد العزيز. وتوفي سنة 130 (راجع: تهذيب التهذيب).

يا ابن عمّ فاجلس علي فخذي اليسري. قال: فقام رسول الله (صلي الله عليه وآله) فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوّل فاجلس علي فخذي اليمني. قالت: فتحوّل رسول الله (صلي الله عليه وآله) فجلس علي فخذي اليمني، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فتحوّل فاجلس في حجري. قال: فتحوّل رسول الله (صلي الله عليه وآله) فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال: نعم. قال: فتحوّلت وألقت خمارها ورسول الله (صلي الله عليه وآله) جالس في حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: لا، قالت يا ابن عمّ، أثبت وأبشر، فوالله إنّه لمَلِكٌ وما هذا بشيطان».

قال ابن إسحاق: «وقد حدّث عبد الله (1) بن حسن هذا الحديث، فقال: قد سمعت أمي فاطمة بنت حسين تحدّث بهذا الحديث عن خديجة، إلّا أنّي سمعتها تقول: أدخلت رسول الله (صلي الله عليه وآله) بينها وبين درعها، فذهب عند ذلك جبرئيل، فقالت لرسول الله (صلي الله عليه وآله): إنّ هذا لمَلِكٌ وما هو بشيطان».

ابتداء تنزيل القرآن

متي نزل القرآن: قال ابن إسحاق: «فأبّئ دئ رسول الله (صلي الله عليه وآله) بالتنزيل في شهر رمضان، بقول الله عزّ وجلّ: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) (2)، وقال الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ) (3)، وقال الله تعالى: (حَمْدٌ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ * إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) (4)، وقال تعالى: (إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ) (5)، وذلك ملتقي رسول الله (صلي الله عليه وآله) والمشرّكين ببدر».

ص: 24

- 1- . هو عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وأمّه فاطمة بنت الحسين أخت سكينه، واسمها آمنة، وسكينه لقب لها، التي كانت ذات دعابة ومزح.
- 2- . البقرة: 185.
- 3- . القدر: 1-5.
- 4- . الدخان: 1-5.
- 5- . الأنفال: 41.

تاريخ وقعة بدر: قال ابن إسحاق: «وحدثني أبو جعفر محمد بن علي بن حسين: أن رسول الله (صلي الله عليه وآله) النبي هو والمشركون بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان».

قال ابن إسحاق: «ثم تتام الوحي إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله، وتحمل منه ما حملة علي رضا العباد وسخطهم والنبوة أقال ومؤونة لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل، بعون الله تعالى وتوفيقه؛ لما يلقون من الناس وما يرد عليهم مما جاؤوا به عن الله سبحانه وتعالى».

قال: فمضي رسول الله (صلي الله عليه وآله) علي أمر الله علي ما يلقي من قومه من الخلاف والأذي».

إسلام خديجة بنت خويلد

وقوفها بجانبه (صلي الله عليه وآله): وأمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته علي أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدقت بما جاءه منه، فخفف الله بذلك عن نبيه (صلي الله عليه وآله)، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبتته وتخفف عليه وتصدقته وتهون عليه أمر الناس رحمها الله تعالى.

تبشير خديجة ببيت من قصب

قال ابن إسحاق: «وحدثني هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال: قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

قال ابن هشام: «القصب: اللؤلؤ المجوف».

جبرئيل يقرئ خديجة السلام

قال ابن هشام: «وحدثني من أثق به أن جبرئيل أتى رسول الله (صلي الله عليه وآله) فقال: أقرئ خديجة السلام من ربها، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): يا خديجة، هذا جبرئيل يُقرئك السلام من ربك، فقالت خديجة: الله السلام ومنه السلام وعلي جبرئيل السلام».

...

تعليم الرسول (صلي الله عليه وآله) خديجة الوضوء والصلاة

فجاء رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة فتوضأ لها؛ ليربها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبرئيل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم صلّى بها رسول الله عليه

الصلاة والسلام كما صلّي به جبرئيل، فصلّت بصلاته.

ص: 26

1. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبرّ النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ.
2. تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ابن حجر) (ت852هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، وعمر السلامي، وعلي بن مسعود، بيروت: دار المعرفة، ودار الفكر، الطبعة الأولى، 1404هـ، و1417هـ.
3. الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي (ت581هـ)، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ.
4. زاد المعاد، أبو عبدالله محمّد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت751هـ)، القاهرة: مؤسّسة المختار، 1427هـ.
5. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م.
6. المعارف، أبو محمّد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، تحقيق: ثروت عكاشة، القاهرة: دار المعارف.

2. ذكر خروج رسول الله (صلي الله عليه وآله) إلي الشام في المرّة الثانية

إشارة

* ذكر خروج رسول الله (صلي الله عليه وآله) إلي الشام في المرّة الثانية (1)

ابن سعد

ملخص البحث:

يرتكز هذا النصّ علي نقل المرويّات التاريخية حول موضوع السيّدة خديجة بنت خويلد الأُسدي، وقصّة عمل رسول الله معها في التجارة حين كان في عزّ أيّام شبابه، وما ورد في ذلك من آراء. وما حصل أثناء ذلك من حوادث ومعجزات جعلت خديجة تلك المرأة الشريفة والثرية وذات المكانة العليّة بين أبناء قومها، تفكّر في الزواج من هذا الشابّ الذي كان يُعرف بين أوساط المجتمع المكي يومذاك باسم الصادق الأمين. وجاء في وصفه لهذه المرأة ونسبها أنّها: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصيّ، امرأة حازمة جلدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذٍ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكلّ قومها كان حريصاً علي نكاحها لو قدر علي ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال. وذكر أيضاً كيفية الخطبة والزواج، ومن ولدتهم من الأولاد لرسول الله (صلي الله عليه وآله).

قال: «أخبرنا محمّد بن عمر بن واقد الأسلمي، أخبرنا موسى بن شيبة عن عميرة بنت عبيد الله بن كعب بن مالك، عن أمّ سعد بنت سعد بن الربيع، عن نفيسة بنت منية أخت يعلي بن منية، قالت: لمّا بلغ رسول الله (صلي الله عليه وآله) خمساً وعشرين سنة، قال له أبو

ص: 28

طالب: أنا رجلٌ لا مال لي، وقد اشتدَّ الزمان علينا، وهذه غير قومك وقد حضر خروجها إلي الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها، فلو جنتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك.

وبلغ خديجة ما كان من محاوره عمّه له، فأرسلت إليه في ذلك وقالت له: أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجالاً من قومك».

قال: «أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي، حدّثني أبو المليح عن عبد الله بن محمّد بن عقيل، قال: قال أبو طالب: يا بن أخي، قد بلغني أنّ خديجة استأجرت فلاناً بكرين ولسنا نرضي لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن تكلمها؟ قال: ما أحببت.

فخرج إليها فقال: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمّداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً بكرين، ولسنا نرضي لمحمّد دون أربع بكار. قال: فقالت خديجة: لو سألت ذاك لبعيدٍ بغيضٍ فعلنا، فكيف وقد سألت لحبيبٍ قريبٍ؟»

قال: «أخبرنا محمّد بن عمر، أخبرنا موسى بن شيبه عن عميرة بنت عبيد الله بن كعب بن مالك، عن أمّ سعد بنت سعد بن الربيع، عن نفيسة بنت منية، قالت: قال أبو طالب: هذا رزق قد ساقه الله إليك. فخرج مع غلامها ميسرة، وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتّى قدما بصري من الشام، فنزلا في ظلّ شجرة، فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلا نبي. ثمّ قال لميسرة: أفي عينه حمرة؟ قال: نعم لا تفارقه، قال: هو نبي وهو آخر الأنبياء.

ثمّ باع سلعته، فوقع بينه وبين رجل تلاح، فقال له: احلف باللات والعزّي، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما حلفت بهما قطّ، وإني أمرّ فأعرض عنهما، فقال الرجل: القول قولك. ثمّ قال لميسرة: هذا والله نبيّ تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم.

وكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ يري ملكين يظلان رسول الله (صلي الله عليه وآله) من الشمس، فوعي ذلك كلّ ميسرة. وكان الله قد ألقى عليه المحبّة من ميسرة، فكان كأته عبد له، وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون، فلما رجعوا فكانوا بمرّ

الظهران، قال ميسرة: يا محمّد، انطلق إلي خديجة فأخبرها بما صنع الله لها علي وجهك، فإنّها تعرف لك ذلك.

فتقدّم رسول الله (صلي الله عليه وآله) حتّى دخل مكّة في ساعة الظهيرة وخديجة في عليّة لها، فرأت رسول الله (صلي الله عليه وآله) وهو علي بعيره وملكان يظللان عليه، فأرته نساءها، فعجبن لذلك. ودخل عليها رسول الله (صلي الله عليه وآله) فخبرها بما ربحوا في وجههم، فسرت بذلك، فلمّا دخل ميسرة عليها أخبرته بما رأت، فقال ميسرة: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام. وأخبرها بما قال الراهب نستور وبما قال الآخر الذي خالفه في البيع، وقدم رسول الله (صلي الله عليه وآله) بتجارتهما، فربحت ضعف ما كانت تربح وأضعفت له ضعف ما سمّت له.

3. ذكر تزويج رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة بنت خويلد

إشارة

قال: «أخبرنا محمّد بن عمر بن واقد الأسلمي، أخبرنا موسى بن شيبة عن عميرة بنت عبيد الله بن كعب بن مالك، عن أمّ سعد بنت سعد بن الربيع، عن نفيسة بنت منية، قالت: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذٍ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكلّ قومها كان حريصاً علي نكاحها لو قدر علي ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال.

فأرسلتني دسيساً إلي محمّد بعد أن رجع في غيرها من الشام، فقلت: يا محمّد، ما تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ قالت: قلت: عليّ، قال:

فأنا أفعل. فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليّ أن ائت لساعة كذا وكذا، وأرسلت إليّ عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها، فحضر ودخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في عمومته، فزوّجه أحدهم، فقال عمرو بن أسد: هذا البضع لا يُقرع أنفه.

وتزوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله) وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذٍ بنت أربعين سنة؛ ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة».

قال: «أخبرنا محمّد بن عمر عن محمّد بن عبد الله بن مسلم، عن أبيه، عن محمّد

بن جبير بن مطعم، وعن ابن أبي الزناد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، وعن ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قالوا: إنَّ عمَّها عمرو بن أسد زوّجها رسول الله (صلي الله عليه و آله)، وإنَّ أباهما مات قبل الفجر». .

قال: «أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، قال: أخبرني أبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: زوّج عمرو بن أسد بن عبد العزّي بن قصي خديجة بنت خويلد النبي (صلي الله عليه و آله) وهو يومئذ شيخ كبير لم يبق لأسد لصلبه يومئذ غيره، ولم يلد عمرو بن أسد شيئاً، قال: أخبرنا خالد بن خُدّاش بن عجلان، أخبرنا معتمر بن سليمان، قال: سمعت أبي يذكر أنّ أباً مجلز حدّث أنّ خديجة قالت لأختها: انطلقني إلي محمد فاذكريني له. أو قال: وسنت علي الشيخ حلّة، فلمّا صحا قال: ما هذه الحلّة؟ قالوا كساكها ختنك محمد، فغضب وأخذ السلاح، وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا: ما كانت لنا فيكم رغبة. ثمّ إنهم اصطلحوا بعد ذلك».

قال: «أخبرنا محمد بن عمر بغير هذا الإسناد: أنّ خديجة سقت أباهما الخمر حتّى ثمل، ونحرت بقرة، وخلّقته بخلوق، وألبسته حلّة حبرة، فلمّا صحا قال: ما هذا العقير وما هذا العبير وما هذا الحبير؟ قالت: زوّجتني محمدًا، قال: ما فعلت، أنا أفعل هذا وقد خطبتك أكابر قريش فلم أفعل؟ قال: وقال محمد بن عمر: فهذا كلّ عندنا غلط ووهل، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أنّ أباهما خويلد بن أسد مات قبل الفجر، وأنَّ عمَّها عمرو بن أسد زوّجها رسول الله (صلي الله عليه و آله).

ذكر أولاد رسول (صلي الله عليه و آله) وتسميتهم

قال: «أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: كان أوّل من وُلد لرسول الله (صلي الله عليه و آله) بمكّة قبل النبوة القاسم، وبه كان يُكْتَب، ثمّ وُلد له زينب ثمّ رقيّة ثمّ فاطمة ثمّ أمّ كلثوم، ثمّ وُلد له في الإسلام عبد الله، فسوّى الطيّب والطاهر، وأمّهم جميعاً خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي، وأمّها فاطمة بنت زائدة بن الأصمّ بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن

عامر بن لؤي، فكان أول من مات من ولده القاسم، ثم مات عبد الله بمكة، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده فهو أبت، فأنزل الله تبارك وتعالى: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)».

قال: «أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني عمرو بن سلمة الهذلي بن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: مات القاسم وهو ابن سنتين».

قال: «وقال محمد بن عمر: وكانت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب تقبل خديجة في ولادها، وكانت تحق عن كل غلام بشاتين وعن الجارية بشاة، وكان بين كل ولدين لها سنة، وكانت تسترضع لهم، وتعد ذلك قبل ولادها».

ذكر تزويج النبي (صلي الله عليه وآله) خديجة

* ذكر تزويج النبي (صلي الله عليه وآله) خديجة (1)

محمد بن جرير الطبري

ملخص البحث:

في هذا النص نقل لما جاء من روايات وأخبار حول زواج النبي (صلي الله عليه وآله) من خديجة بنت خويلد، وكم كان عمر كل واحد منهما في ذلك الوقت. ومما جاء في الأخبار أنّ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه. وكانت قريش قوماً تجّاراً، فلما بلغها عن رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلي الشام تاجراً، فقبله منها، وخرج في مالها ذلك. ودون بأسلوب السرد التاريخي ما كان في هذا السفر من معجزات وكرامات شاهدتها منه غلام السيدة خديجة ونقله لها، فازداد إعجابها به، وعرضت عليه الزواج. وكانت خديجة يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهنّ مالاً، كلّ قومها كان حريصاً علي ذلك منها لو يقدر عليها. فلما قالت ذلك لرسول (صلي الله عليه وآله)، ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب عمّه، حتّي دخل علي خويلد بن أسد، فخطبها إليه، فترّوجها فولدت له ولده كلّهم إلا إبراهيم.

ص: 34

1- تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار سويدان: ج2 ص 280-282.

قال هشام بن محمّد: «نكح رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة.

حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش قوماً تجّاراً، فلما بلغها عن رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلي الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجّار، مع غلامٍ لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة، حتّى قدما الشام، فنزل رسول الله في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان(1)، فأطلع الراهب رأسه إلي ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلا نبّي(2).

ثمّ باع رسول الله (صلي الله عليه وآله) سلعته التي خرج بها، واشتري ما أراد أن يشتري، ثمّ أقبل قافلاً إلي مكّة ومعه ميسرة، فكان ميسرة فيما يزعمون إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ يري ملكين يظّلانه من الشمس وهو يسير علي بعيره، فلما قدم مكّة علي خديجة بمالها، باعت ما جاء به فأضعفت أو قريباً من ذلك. وحدّثها ميسرة عن قول الراهب وعمّا كان يري من إضلال الملكين إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة، مع ما أراد الله بها من كرامته، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها، بعثت إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فقالت له - فيما يزعمون - : يا ابن عمّ، إني قد رغبت

فيك؛ لقرابتك وسطّتك(3) في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثمّ عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط

ص: 35

1- . هو نسطورا، وليس هو بحيري المتقدّم ذكره، كذا قاله السهيلي.

2- . قال السهيلي: يريد: ما نزل تحتها هذه الساعة إلا نبّي؛ لبعد العهد بالأنبياء قبل ذلك.

3- . السطة مثل الوسيط؛ وهو من أوصاف المدح والتفضيل.

نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهنّ مالاً، كلّ قومها كان حريصاً عليّ ذلك منها لو يقدر عليها.

فلما قالت ذلك لرسول الله، ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب عمّه، حتّى دخل عليّ خويلد بن أسد(1)، فخطبها إليه، فتزوّجها فولدت له ولده كلّهم إلا إبراهيم: زينب ورقية وأمّ كلثوم وفاطمة والقاسم، وبه كان يُكنّى (صلي الله عليه وآله)، والطاهر والطيب؛ فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلّهنّ أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه (صلي الله عليه وآله).

حدّثني الحارث، قال: حدّثنا محمّد بن سعد، قال: حدّثنا محمّد بن عمر، قال: حدّثنا معمر وغيره عن ابن شهاب الزهري، وقد قال ذلك غيره من أهل البلدان: خديجة إنّما كانت استأجرت رسول الله (صلي الله عليه وآله) ورجلاً آخر من قريش إليّ سوق حُباشة بتهامة، وكان الذي تزوّجها إيّاه خويلد، وكان التي مشت في ذلك مولاة مولّدة من مولّدات مكّة.

قال الحارث: قال محمّد بن سعد: قال الواقدي: فكلّ هذا غلط.

قال الواقدي: ويقولون أيضاً إنّ خديجة أرسلت إليّ النبي (صلي الله عليه وآله) تدعوه إليّ نفسها؛ تعني التزويج، وكانت امرأة ذات شرف، وكان كلّ قريش حريصاً عليّ نكاحها، قد بذلوا الأموال لو طمعوا بذلك، فدعت أباها فسقته خمراً حتّى ثمل، ونحرت بقرة وخلّفته بخلوق وألبسته حلّة حبرة، ثمّ أرسلت إليّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) في عمومته، فدخلوا عليه فزوّجه، فلما صحا قال: ما هذا العقير وما هذا العبير وما هذا الحبير؟ قالت: زوّجتني محمّد بن عبد الله، قال: ما فعلت، إنّني أفعل هذا وقد خطبتك أكابر قريش فلم أفعل؟

قال الواقدي: وهذا غلط، والثبت عندنا المحفوظ من حديث محمّد بن عبد الله بن مسلم، عن أبيه، عن محمّد بن جبير بن مطعم. ومن حديث ابن أبي الزناد عن هشام

ص: 36

1 - قال السهيلي: «وذكر غير ابن إسحاق أنّ خويلداً كان إذ ذاك قد هلك، وأنّ الذي أنكح خديجة (عليها السلام) هو عمّها عمرو بن أسد؛ قاله المبرّد وطائفة معه». وقال أيضاً: «إنّ أبا طالب هو الذي نهض مع رسول الله، وهو الذي خطب خطبة النكاح».

بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. ومن حديث ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنّ عمّها عمرو بن أسد زوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وأنّ أباهما مات قبل الفجر.

قال أبو جعفر: وكان منزل خديجة يومئذٍ المنزل الذي يُعرف بها اليوم، فيقال: منزل خديجة، فاشتراه معاوية فيما ذكر، فجعله مسجداً يصلي فيه الناس، وبناه علي الذي هو عليه اليوم لم يغيّر، وأمّا الحجر الذي علي باب البيت عن يسار من يدخل البيت، فإنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) كان يجلس تحته ويستتر به من الرمي إذا جاءه من دار أبي لهب ودار عدي بن حمراء الثقفي خلف دار ابن علقمة، والحجر ذراع وشبر في ذراع.

ص: 37

4. ذكر الحوادث التي كانت في سنة خمس وعشرين من مولده (صلي الله عليه وآله)

إشارة

* ذكر الحوادث التي كانت في سنة خمس وعشرين من مولده (صلي الله عليه وآله) (1)

محمد بن الجوزي

ملخص البحث:

تنقل هذه النصوص الأخبار التي تحدّثت عن السفر الثاني للنبي محمد (صلي الله عليه وآله) إلى بلاد الشام، وكان فيه منتدباً من قبل خديجة بنت خويلد للتجارة بمالها. وقد تناهي إلي سماع خديجة ما كان في ذلك السفر من كرامات، وبعد العودة من ذلك السفر أرسلت إليه من يدعوه إلي الزواج منها، رغم أنّ كبار قومها كانوا قد عرضوا عليها الزواج، لكنّها رفضتهم. ونقل فيه أيضاً مجريات الخطبة وما دار فيها من الكلام، ومن بعد الزواج كان أول ولد ولد لرسول الله (صلي الله عليه وآله) بمكة قبل النبوة: القاسم وبه كان يُكنّى، ثمّ ولد له زينب، ثمّ رقية، ثمّ فاطمة، ثمّ أمّ كلثوم. ثمّ ولد له في الإسلام عبد الله، فسُمّي الطيب والطاهر، وأمّهم جميعاً خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي.

فمن ذلك: « خروجه إلي الشام في المرّة الثانية في تجارة لخديجة وتزويجه بها (عليها السلام) ».

أخبرنا أبو بكر بن أبي طاهر البرّاز، قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري،

ص: 38

1- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1412هـ/1992م: ج2 ص313-317.

قال: أخبرنا أبو عمرو بن حيويه، قال: أخبرنا أحمد بن معروف الخشاب، قال: أخبرنا الحارث بن أبي أسامة، قال: أخبرنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني موسى بن شيبة، عن عميرة بنت عبيد الله بن كعب بن مالك، عن أم سعد بنت سعد بن الربيع، عن نفيسة بنت منية أخت يعلي بن منية، قالت: لما بلغ رسول الله (صلي الله عليه وآله) خمساً وعشرين سنة، قال له أبو طالب: أنا رجل فقير لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلي الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في غيراتها، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك. فبلغ خديجة ما كان من محاوره عمه له، فأرسلت إليه في ذلك، وقالت: أنا أعطيك ضعف ما أعطى رجالاً من قومك. فقال له أبو طالب: هذا رزق قد ساقه الله إليك.

فخرج مع غلامها ميسرة، وجعل عمومته يوصون به أهل العير، حتى قدما بصري من أرض الشام، فنزلا في ظل شجرة، فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه قط إلا نبي. ثم قال لميسرة: أفي عينه حمرة؟ فقال: نعم لا تفارقه، قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء.

ثم باع سلعته، فوقع بينه وبين رجل تلاح، فقال له: احلف باللآل والعزّي، فقال له رسول الله (صلي الله عليه وآله): ما حلفت بهما قط، وإني لأمر فأعرض عنهما، فقال الرجل: القول قولك. ثم قال لميسرة: هذا والله نبي تجده أخبارنا منعوتا في كتبهم.

وكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحرّ، يري ملكين يظلان رسول الله (صلي الله عليه وآله) من الشمس، فوعي ذلك كله ميسرة، وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون، ودخل مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في عليّة لها، فرأت رسول الله وهو علي بعيره وملكان يظلان عليه، فأرته نساءها فعجبين لذلك، ودخل عليها رسول الله فخبّرها بما ربحوا في تجارتهم ووجههم، فسرت بذلك، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت، فقال: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام. وأخبرها بما قال الراهب نسطور، وبما قال الآخر الذي خالفه في البيع.

وكانت خديجة امرأة حازمة جادة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي

يومئذٍ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكلّ قومها كان حريصاً علي نكاحها لو قدر علي ذلك، قد طلبوا ذلك وبذلوا الأموال، فأرسلتني دسيساً إلي محمّد (صلي الله عليه وآله) بعد أن رجع من الشام، فقلت: يا محمّد، ما يمنعك أن تزوّج؟ قال: ما بيدي ما أتزوّج به، قلت: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلي الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ قال: قلت: عليّ، قال: أفعّل.

فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ات الساعة كذا وكذا. فأرسلت إلي عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها، فحضر ودخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في عمومته، فتزوّجها وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذٍ بنت أربعين سنة (1).

وقد روي قوم: أنّ خديجة سقت أبها الخمر، فلما صحا ندم.

قال الواقدي: هذا غلط والصحيح عندنا المحفوظ عند أهل العلم أنّ عمّها زوّجها، وأنّ أبها مات قبل الفجار. وذكر ابن فارس: أنّ أباً طالب خطب يومئذٍ فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ (2) معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكّام علي الناس. ثمّ إنّ ابن أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، وإن كان في المال قلّ فإنّ المال ظلّ زائل وأمر حائل، ومحمّد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل.

فتزوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وكانت خديجة قد ذكرت أول ما ذكرت

للأزواج لورقة بن نوفل، فلم يقض بينهما نكاح، فتزوّجها أبو هالة، واسمه: هند، وقيل: مالك بن النباش، فولدت له هند وهالة وهما ذكران، ثمّ خلف عليها بعده عتيق بن عائذ المخزومي، فولدت له جارية اسمها: هند، وبعضهم يقدّم عتيقاً علي أبي هالة. ثمّ تزوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله).

ص: 40

1- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 129-132، الوفا لابن الجوزي: رقم: 171، 172.

2- . الضئضئ: الأصل.

قال ابن إسحاق: فولدت له ولده كلهم إلا إبراهيم: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم، وبه كان يُكنّى، والطاهر، والطيب؛ وهلك هؤلاء الذكور في الجاهلية، وأدرك الإنث الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه. وقال غيره: الطيب والطاهر لقبان لعبد الله، وولد في الإسلام.

وأما منزل خديجة فإنه يُعرف بها اليوم، اشتراه معاوية فيما ذكر، فجعله مسجداً يصلي فيه الناس، وبناه علي الذي هو عليه اليوم ولم يغيّره.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، قال: أخبرنا أحمد بن معروف، قال: أخبرنا الحارث بن أبي أسامة، قال: أخبرنا محمد بن سعد، قال: أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: كان أول ولد لرسول الله (صلي الله عليه وآله) بمكة قبل النبوة: القاسم، وبه كان يُكنّى، ثم ولد له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الإسلام عبد الله، فسُمي الطيب والطاهر، وأمهم جميعاً خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم.

وكان أول من مات من ولده: القاسم، ثم مات عبد الله بمكة، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده فهو أبتري، فأنزل الله: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) (1).

قال محمد بن سعد: وأخبرنا محمد بن عمر قال: حدّثني عمرو بن أبي سلمة، عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: مات القاسم وهو ابن سنتين (2).

وقال محمد بن عمر: وكانت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب تقبل خديجة في ولادها، وكانت تعق عن كل غلام شاتين وعن الجارية شاة، وكان بين كل ولدين لها سنة، وكانت تسترضع لهم، وتعدّ ذلك قبل ولادتها (3).

ص: 41

1- . الكوثر: 3.

2- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 133.

3- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 133-134.

1. الطبقات الكبرى (الطبعة الخامسة من الصحابة)، محمد بن سعد الزهري (كاتب الواقدي) (ت230)، تحقيق: محمد بن صامل السلمي، بيروت: دار صادر، و الطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ .
2. المنتظم في تاريخ الملوك و الأُمم، عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1412هـ .
3. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، نور الدين علي بن أحمد السمهودي (ت911هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، 1401هـ .

5. ذكر نكاح النبي (صلي الله عليه وآله) خديجة - ابن الأثير

ملخص البحث:

يحتوي النص الذي بين أيدينا علي ما نقله الرواة بشأن زواج النبي (صلي الله عليه وآله) من خديجة بنت خويلد، وذكر فيه أنّ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصيّ كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال، وتستأجر في مالها وتضاربههم إيّاه بشيء تجعله لهم منه. فلمّا بلغها عن رسول الله صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلي الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره مع غلامها ميسرة. ثمّ أنّها بعد ذلك أرسلت إلي النبي (صلي الله عليه وآله) عارضة عليه الزواج منها، فأخبر أعمامه بالأمر، وخرج معه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب، وغيرهما من عمومته، حتّي دخل علي خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوّجها، فولدت له أولاده كلّهم إلّا إبراهيم: زينب، ورقية، وأمّ كلثوم، وفاطمة، والقاسم وبه كان يُكْتَب. وعبد الله والطاهر والطيب. وقيل إنّ عبد الله وُلد في الإسلام هو والطاهر والطيب؛ فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكنّ أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه.

ونكح رسول الله خديجة بنت خويلد وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذٍ ابنة أربعين سنة؛ وسبب ذلك أنّ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصيّ

كانت امرأة تاجر ذات شرف ومال، وتستأجر في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم

منه، وكانت قريش تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلي الشام تاجراً وتُعطيه أفضل ما كانت تُعطي غيره، مع غلامها ميسرة، فأجابها وخرج معه ميسرة حتى قدم الشام، فنزل رسول الله في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب، فأطلع الراهب رأسه إلي ميسرة فقال: من هذا؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.

ثم باع رسول الله واشتري وعاد، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة يري ملكين يظللانه من الشمس وهو علي بعيره، فلما قدم مكة ربحت خديجة ربحاً كثيراً، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وما رأي من إضلال الملكين إياه.

وكانت خديجة امرأة حازمة عاقلة شريفة، مع ما أَرادَه الله من كرامتها، فأرسلت إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فعرضت عليه نفسها (1)، وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأكثرهن مالاً وشرفاً، وكل قومها كان حريصاً علي ذلك منها لو يقدر عليه، فلما أرسلت إلي النبي قال لأعمامه، وخرج معه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب وغيرهما من عمومته، حتى دخل علي خويلد بن أسد فخطبها إليه، فتزوجها فولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم، وبه كان يُكني، وعبد الله والطاهر والطيب. وقيل: إن عبد الله وُلد في الإسلام، هو والطاهر والطيب، فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه.

وقيل: إن الذي زوجها عمها عمرو بن أسد، وأن أباه مات قبل التجارة. قال الواقدي: وهو الصحيح؛ لأن أباه توفي قبل الفجار، وكان منزل خديجة يومئذ المنزل الذي يُعرف بها اليوم، فقال: إن معاوية اشتراه وجعله مسجداً يصلّي فيه. وكان الرسول بين خديجة وبين النبي، نفيسه بنت منية أخت يعلي بن منية، وأسلمت يوم الفتح فبرها رسول الله وأكرمها.

ص: 45

1- . عرضت نفسها بواسطة نفيسة بنت منية، أخت يعلي بن منية، كما سيذكره المصنّف.

6. تزويجه (عليها السلام) خديجة بنت خويلد بن أسد بن العزّي بن قصي

* تزويجه (عليها السلام) خديجة بنت خويلد بن أسد بن العزّي بن قصي (1)

أبو الفداء إسماعيل بن كثير (701 - 747هـ)

ملخص البحث:

يقتصر هذا البحث علي نقل نصوص تاريخية عن كتب أُخري سابقة عليه من كتب التاريخ والسيرة، من غير أن يبدي رأياً في تأييد تلك النصوص أو رفضها، أو إبداء ملاحظات أو اعتراضات عليها. كما أنه يتحاشي التشكيك في أيّ من تلك النصوص، ولم يتوقّف عند أيّ منها، ولم يوجّه نقداً ولم يأت بما يتعارض حتّي مع تلك المرويات التي تتعارض مع ما هو مشهور في كتب التاريخ. فهذا النصّ الذي بين أيدينا مجرد نقل وتكرار لنصوص سابقة عليه، ولا يختلف عنها في شيء سوي التقديم والتأخير، وفقاً لما يرثيه من تبويبه للموضوعات.

قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال علي مالها مضاربةً، فلما بلغها عن رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج لها في مالٍ تاجراً إلي الشام وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، مع غلامٍ لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله (صلي الله عليه وآله) منها، وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة، حتّي نزل الشام، فنزل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فأطلع الراهب إلي ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل

ص: 46

1- السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت: دار إحياء التراث: ج 1 ص 262 - 267.

الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي (1).

ثم باع رسول الله (صلي الله عليه وآله) سلعته يعني تجارته التي خرج بها، واشتري ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة. فكان ميسرة فيما يزعمون إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يري ملكين يظللانه من الشمس وهو يسير علي بعيره.

فلما قدم مكة علي خديجة بمالها، باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً، وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعمّا كان يري من إظلال الملائكة إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامتها، فلما أخبرها ميسرة ما أخبرها، بعثت إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عمّ، إنني قد رغبت فيك لقرابتك ووسطتك (2) في قومك وأماتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثم عرضت نفسها عليه. وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً، كلّ قومها كان حريصاً علي ذلك منها لو يقدر عليه.

فلما قالت ذلك لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمّه حمزة حتّي دخل علي خويلد بن أسد، فخطبها إليه، فتزوجها عليه الصلاة والسلام.

قال ابن هشام: فأصدقها عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوّجها، ولم يتزوّج عليها غيرها حتّي ماتت.

قال ابن إسحاق: فولدت لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ولده كلّهم إلا إبراهيم: القاسم وكان به يُكنّي، والطيب، والطاهر، وزينب، ورقية، وأمّ كلثوم، وفاطمة.

قال ابن هشام: أكبرهم القاسم، ثمّ الطيب، ثمّ الطاهر. وأكبر بناته رقية، ثمّ زينب، ثمّ أمّ كلثوم، ثمّ فاطمة.

قال البيهقي عن الحاكم: قرأت بخطّ أبي بكر بن أبي خيثمة: حدّثنا مصعب بن عبد

الله الزبيري، قال: أكبر ولده عليه الصلاة والسلام القاسم، ثمّ زينب، ثمّ عبد الله، ثمّ أمّ

ص: 47

1- . يريد: ما نزل الآن، وإلا فلم يخل أن ينزل تحتها كثير من الناس غير أنبياء.

2- . وسِطتك: توسّطك في قومك وكونك من أعرفهم. وتُروي: وصيتك.

كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. وكان أول من مات من ولده القاسم، ثم عبد الله.

وبلغت خديجة خمساً وستين سنة، ويقال خمسين، وهو أصح. وقال غيره: بلغ القاسم أن يركب الدابة والنجبية، ثم مات بعد النبوة، وقيل: مات وهو رضيع، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): «إن له مرضعاً في الجنة يستكمل رضاعه». المعروف أن هذا في حق إبراهيم.

وقال يونس بن بكير: حدّثنا إبراهيم بن عثمان عن القاسم، عن ابن عباس، قال: ولدت خديجة لرسول الله (صلي الله عليه وآله) غلامين وأربع نسوة: القاسم، وعبد الله، وفاطمة، وأم كلثوم، وزينب، ورقية.

وقال الزبير بن بكار: عبد الله هو الطيب وهو الطاهر؛ سمي بذلك لأنه وُلد بعد النبوة. [وأما الباقر] فماتوا قبل البعثة، وأما بناته فأدركن البعثة ودخلن في الإسلام، وهاجرن معه (صلي الله عليه وآله).

قال ابن هشام: وأما إبراهيم، فمن مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية من كورة أنضاء(1).

وستكلم علي أزواجه وأولاده عليه الصلاة والسلام في باب مفرد لذلك في آخرة السيرة إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

قال ابن هشام: «وكان عمر رسول الله (صلي الله عليه وآله) حين تزوّج خديجة خمساً وعشرين سنة، فيما حدّثني غير واحد من أهل العلم، منهم أبو عمرو المدني». وقال يعقوب بن سفيان: «كتب عن إبراهيم ابن المنذر: حدّثني عمر بن أبي بكر المؤملي، حدّثني غير واحد أن عمرو بن أسد تزوّج خديجة من رسول الله (صلي الله

عليه وآله) وعمره خمس وعشرون سنة، وقريش تبني الكعبة». وهكذا نقل البيهقي عن الحاكم أنه كان عمر رسول الله (صلي الله عليه وآله) حين تزوّج خديجة خمساً وعشرين سنة، وكان عمرها إذ ذاك خمساً وثلاثين، وقيل: خمساً وعشرين سنة.

ص: 48

وقال البيهقي «باب ما كان يشتغل به رسول الله (صلي الله عليه وآله) قبل أن يتزوج خديجة»: «أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر بن عبد الله، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدّثنا سويد بن سعيد، حدّثنا عمرو بن أبي يحيى بن سعيد القرشي، عن جدّه سعيد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): "ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم"، فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: "وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط". رواه البخاري عن أحمد بن محمد المكي عن عمرو بن يحيى به».

ثم روي البيهقي من طريق الربيع بن بدر وهو ضعيف عن أبي الزبير عن جابر، قال: «قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): "آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص"».

وروي البيهقي من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عمّار بن أبي عمّار، عن ابن عباس: «إنّ أبا خديجة زوج رسول الله (صلي الله عليه وآله) وهو أخته قال سكران».

ثم قال البيهقي: «أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطّان، أنبأنا عبد الله بن جعفر، حدّثنا يعقوب بن سفيان، قال: حدّثني إبراهيم بن المنذر، حدّثني عمر بن أبي بكر المؤملي، حدّثني عبد الله بن أبي عبيد بن محمد بن عمّار بن ياسر عن أبيه، عن مقسم بن أبي القاسم مولي عبد الله بن الحارث بن نوفل، أنّ عبد الله بن الحارث حدّثه أنّ عمّار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدّث به الناس عن تزويج رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة وما يكثرون فيه، يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إيّاها، إنّي كنت له ترباً، وكنت له إلفاً وخذناً، وإنّي خرجت مع رسول الله (صلي الله عليه وآله) ذات يوم حتّي

إذا كنّا بالحرزرة أجزنا علي أخت خديجة وهي جالسة علي آدم تبعها، فنادتني فأنصرفت إليها، ووقف لي رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟

قال عمّار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: بلي لعمرى. فذكرت لها قول رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا. فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلّة وصدّقت لحيته، وكلمت أباها فكلّم أباه وقد سقى خمرأ، فذكر له رسول الله (صلي الله عليه وآله) ومكانه، وسأله أن يزوجه، فزوجه خديجة، وصنعوا من البقرة طعاماً، فأكلنا منه،

ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً، فقال: ما هذه الحلة وما هذه الصفرة وهذا الطعام؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلّمت عمّاراً: هذه حلة كساکها محمّد بن عبد الله ختنك، وبقرة أهداها لك، فذبحناها حين زوّجته خديجة. فأنكر أن يكون زوّجه، وخرج يصبح حتّى جاء الحجر، خرج بنو هاشم برسول الله (صلي الله عليه وآله) فجأؤوه فكلموه، فقال: أين صاحبكم الذي تزعمون أنّي زوّجته خديجة؟ فبرز له رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فلمّا نظر إليه قال: إن كنت زوّجته فسيبيل ذلك، وإن لم أكن فعلت فقد زوّجته».

وقد ذكر الزهري في سيره أنّ أباه زوّجها منه وهو سكران. وذكر نحو ما تقدّم.

حكاه السهيلي.

قال المؤملي: «المجتمع عليه أنّ عمّها عمرو بن أسد هو الذي زوّجها منه، وهذا هو الذي رجّحه السهيلي، وحكاه عن ابن عبّاس وعائشة، قالت: وكان خويلد مات قبل الفجار، وهو الذي نازع تّبعا حين أراد أخذ الحجر الأسود إلي اليمن، فقام في ذلك خويلد وقام معه جماعة من قريش، ثم رأي تبع في منامه ما رّعه، فنزع عن ذلك وترك

الحجر الأسود مكانه».

وذكر ابن إسحاق في آخر السيرة أنّ أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فالله أعلم.

ص: 50

7. باب سفره إلي الشام ثانياً - ابن برهان الحلبي

ملخص البحث:

هنا سردٌ لقصة سفر النبي (صلي الله عليه وآله) إلي بلاد الشام مضارباً بأموال خديجة التي انتدبته إلي هذا العمل بعدما سمعت عن أمانته واستقامته. وقد حصلت لمحمد (صلي الله عليه وآله) في هذا السفر كرامات، وجاءت بشأنها أخبار يندرج بعضها في سياق المعقولات، والآخر منها يدخل في عداد الأساطير والمبالغات. وهو هنا يجري تمحيصاً سطحياً وغربلة للأخبار، ومقارنة بينها لاستجلاء حقيقة الأمر. أمّا بالنسبة إلي خديجة، فقد كانت امرأة حازمة جلدة، وهي يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهنّ مالاً وأحسنهنّ جمالاً، وكانت تُدعى في الجاهلية بالطاهرة. بعدما عرضت علي النبي (صلي الله عليه وآله) الزواج منها، جاء مع عمومته خاطبين، وتمّ الزواج، وأنجبت له أولاده كلهم ما عدا إبراهيم الذي كانت أمّه مارية القبطية. ونقل الآراء المختلفة في عمر خديجة يوم زواجها من رسول الله (صلي الله عليه وآله).

وذلك مع ميسرة غلام خديجة بنت خويلد (عليها السلام)، لما بلغ رسول الله (صلي الله عليه وآله) خمساً وعشرين سنة؛ أي علي الراجح من أقوال ستة (1)، وعليه جمهور العلماء، وتلك أقوال

ص: 52

1- والتي ترجّحت فيها سنّه بين إحدى وعشرين وثلاثين.

ضعيفة لم تقم لها حجة علي ساق، وليس له (صلي الله عليه وآله) اسم بمكة إلا الأمين؛ لما تكامل فيه من خصال الخير كما تقدّم. وسبب ذلك أن عمّه أبا طالب قال له: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي وقد اشتدّ الزمان (1) - أي القحط - وألحّت علينا - أي أقبلت ودامت - سنون منكورة - أي شديدة الجذب - وليس لنا مادة - أي ما يمدّنا وما يقومنا ولا تجارة، وهذه غير قومك - وتقدّم أنّها الإبل التي تحمل الميرة، وفي رواية عيرات جمع غير - قد حضر خروجها إلي الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها فيتّجرون لها في مالها ويصييون منافع، فلو جنتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك وفصدّلتك علي غيرك؛ لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت لأكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا تجد لك من ذلك بدءاً. فقال له رسول الله (صلي الله عليه وآله): فلعلّها ترسل إليّ في ذلك، فقال أبو طالب: إنّي أخاف أن تولّي غيرك فتطلب أمراً مدبراً.

فافترقا، فبلغ خديجة (عليها السلام) ما كان من محاوره عمّه أبي طالب له، فقالت: ما علمت أنّه يريد هذا. ثم أرسلت إليه (صلي الله عليه وآله) فقالت: إنّي دعاني إلي البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك. ففعل رسول الله، ولقي عمّه أبا طالب فذكر له ذلك، فقال: إنّ هذا لرزق ساقه الله إليك. فخرج (صلي الله عليه وآله) مع غلامها ميسرة؛ أي يريد الشام، وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً. وجعل عمومته يوصون به أهل العير؛ أي ومن حين سيره (صلي الله عليه وآله) أظلمته الغمامة.

فلما قدم (صلي الله عليه وآله) الشام نزل في سوق بُصري في ظلّ شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا؛ أي بالقصر، فأطلع الراهب إلي ميسرة - وكان يعرفه - فقال: يا ميسرة، من هذا الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلا نبي؛ أي صانها الله تعالى عن أن ينزل تحتها غير نبي، ثم قال له: أفي عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم لا تفارقه، فقال الراهب: هو هو،

ص: 53

وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أنني أدركه حين يؤمر بالخروج؛ أي يبعث، فوعي ذلك ميسرة؛ أي والحمرة كانت في بياض عينيه، وهي الشكلة (1)، ومن ثم قيل في وصفه (صلي الله عليه وآله): أشكل العينين، فهذه الشكلة من علامات نبوته في الكتب القديمة؛ أي وقد تقدّم ذلك.

قال: وفي الشرف للنيسابوري: فلما رأى الراهب الغمامة تظلله فرح وقال: ما أنتم عليه؟ - أي أي شيء أنتم عليه - قال ميسرة غلام خديجة (عليها السلام): فدنا إلي النبي سرّاً من ميسرة وقبل رأسه وقدمه، وقال: آمنتُ بك وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة (2). ثم قال: يا محمّد، قد عرفت فيك العلامات كلّها؛ أي العلامات الدالة علي نبوتك المذكورة في الكتب القديمة، خلا خصلة واحدة، فأوضح لي عن كتفك. فأوضح له فإذا هو بخاتم النبوة يتلألاً، فأقبل عليه يقبله ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، النبي الأمي الذي بشّر بك عيسى بن مريم، فإنه قال: لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلا النبي الأمي الهاشمي العربي المكي، صاحب الحوض والشفاعة، وصاحب لواء الحمد. انتهى.

أقول: قال في النور (3): ولم أجد أحداً عدّ هذا الراهب الذي هو نسطورا في الصحابة؟ رضهم؟، كما عدّ بعضهم فيها بحيرا الراهب، ونبغي أن يكون هذا مثله، هذا كلامه. وقد قدّمنا أنه سيأتي أنّ بحيرا ونسطورا ونحوهما ممّن صدّق بآله (صلي الله عليه وآله) نبيّ هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام، فضلاً عن كونه صحابياً؛

لأنّ المسلم من أقرّ برسالته (صلي الله عليه وآله) بعد وجودها، إلي آخر ما يأتي.

ومن ثمّ ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة أنّ بحيرا ممّن دُكر في كتب الصحابة غلطاً. قال: لأنّ تعريف الصحابي لا ينطبق عليه، وهو مسلم لقي النبي مؤمناً به ومات علي ذلك. قال: فقولي «مسلم» يُخرج من لقيه مؤمناً به قبل أن يُبعث كهذا الرجل؛

ص: 54

1- الشكلة: الحمرة في بياض، جمعها: سُكُل.

2- جاء ذكره في الإنجيل، ولما كان الكتابان يُدعيان «الكتاب المقدّس»، فقد توهموا بالاسم.

3- نور الحديقة للسيوطي.

يعني بحيرا. هذا كلامه ومراده ما ذكرنا.

ولعلّ نسطورا هذا هو الذي تُنسب إليه النسطورية من النصارى (1)، فإنّ النصارى افتقرت ثلاث فرق: نسطورية (2)، قالوا: «عيسى ابن الله»، ويعقوبية (3)، قالوا: «عيسى هو الله هبط إلي الأرض ثمّ صعد إلي السماء»، وملكانية (4)، قالوا: عيسى عبد الله ونبّه». زاد بعضهم فرقة رابعة وهم إسرائيلية، قالوا: «هو إله وأمه إله والله إله».

هذا وفي القاموس: النسطورية - بالضمّ ويُفتح - : أمة من النصارى تخالف بقيّتهم، وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في أيام المأمون وتصرّف في الإنجيل برأيه، وقال: إنّ الله واحد ذو أقانيم (5) ثلاثة، وهو بالرومية نسطورس. كما افتقرت اليهود ثلاث فرق، فإنّها افتقرت إلي قرآنية وربّانية وسامرية.

ولا يخفي أنّ بقاء تلك الشجرة هذا الزمن الطويل قبل عيسى وبعده إلي زمن نبينا (صلي الله عليه وآله) علي خلاف العادة، وصرف غير الأنبياء عن النزول تحت تلك الشجرة، وكذا صرف الأنبياء الذين وجدوا بعد عيسى علي ما تقدّم عن النزول تحت تلك الشجرة بعد عيسى الذي دلّت عليه الرواية الأولى والرواية الثانية، ممكن، وإن كانت الشجرة لا تبقي في العادة هذا الزمن الطويل (6)، ويبعد في العادة أن تكون شجرة تخلو عن أن ينزل تحتها أحد غير الأنبياء؛ لأنّ هذا الأمر مع كونه خارقاً للعادة والأنبياء لهم خرق

ص: 55

1- هذا غير صحيح؛ لأنّ نسطور هو بطريك القسطنطينية بين 428-430، وعاش في القرن الخامس الميلادي، وقد حرّمه المجمع المسكوني عام 431م.

2- النسطورية والنساطرة: طائفة من المسيحيين الآشوريين ينتسبون إلي نسطور بطريك القسطنطينية.

3- يعقوبية أو يعاقبة: طائفة قالت بالطبيعة الواحدة، وينتسبون إلي يعقوب البردعي أسقف الرّها، ويُسمّون السريان القديم أو الأرثوذكس؛ تمييزاً عن السريان الكاثوليك.

4- ملكانية أو ملكيون: المسيحيون الذين خضعوا للمجمع الخلقيدوني عام 451م، الذي انحاز إليه الملك مرقيانوس، وهم في طاعة بطريك إنطاكية.

5- الأقتوم: كلمة سريانية؛ معناها الشخص والأصل.

6- واحتمال بقائها أنّها كانت شجرة زيتون؛ لأنّ شجر الزيتون يُعمّر ثلاثة آلاف سنة. هذا ما جاء في السيرة النبوية والآثار المحمّدية: ج 1 ص 102.

العوائد سيّما نبينا(صلي الله عليه وآله).

وبهذا يُردّ قول السهيلي: يريد ما نزل تحت هذه الشجرة الساعة إلا نبيّ، ولم يرد: ما نزل تحتها قطّ إلا نبيّ؛ لبعده العهد بالأنبياء: قبل ذلك، وإن كان في لفظ الخبر «قطّ»؛ أي كما تقدّم، فقد تكلم بها علي جهة التأكيد للنفي، والشجرة لا تُعمّر في العادة هذا العمر الطويل حتّى يُدري أنّه لم ينزل تحتها إلا عيسى أو غيره من الأنبياء، وبعده في العادة أيضاً أن تكون شجرة تخلو من أن ينزل تحتها أحد حتّى يجيء نبيّ. هذا كلامه.

وقد يقال: يجوز أن تكون تلك الشجرة كانت شجرة زيتون، فقد ذكر أنّ شجرة الزيتون تُعمّر ثلاثة آلاف سنة. علي أنّ في بعض الروايات: ونزل رسول الله(صلي الله عليه وآله) تحت شجرة يابسة نحر عودها، فلمّا اطمأنّ تحتها اخضرت وتورت واعشوشب ما حولها، وأينع ثمرها وتدلت أغصانها ترفرف علي رسول الله.

قال بعضهم: المختار عند جمهور المحقّقين من أهل السنّة أنّ كلّ ما جاز وقوعه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المعجزات، جاز للأولياء مثله من الكرامات، بشرط عدم التحديّ؛ لأنّ المعجزة يعتبر فيها التحديّ وأن تكون بعد النبوة وما قبل النبوة، كما هنا يقال له: إرهاب(1).

وحينئذٍ لا يُستبعد ما ذكر عن الشيخ رسلان أنّه كان إذا استند إلي شجرة يابسة قد ماتت، تورق ويخرج ثمرها في الحال، علي أنّه سيأتي في الكلام علي غزاة الخندق، أنّ كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم.

ولمّا رأى الراهب ما ذكر، لم يتمالك الراهب أن انحدر من صومعته وقال له: باللات والعزّي ما اسمك؟ فقال له: إليك عني ثكلتك أمّك! ومع ذلك الراهب رقّ مكتوب، فجعل ينظر في ذلك الرقّ، ثمّ قال: هو هو ومنزل التوراة! فظنّ بعض القوم أنّ الراهب يريد بالنبي مكرّاً، فانتضي سيفه وصاح: يا آل غالب يا آل غالب، فأقبل الناس يهرعون إليه من كلّ ناحية يقولون: ما الذي راعك؟ فلمّا نظر الراهب إلي ذلك أقبل

ص: 56

يسعي إلي صومعته، فدخلها وأغلق عليه بابها، ثم أشرف عليهم فقال: يا قوم، ما الذي راعكم مني؟ فوالذي رفع السماوات بغير عمدٍ إني لأجد في هذه الصحيفة أنّ النازل تحت هذه الشجرة هو رسول ربّ العالمين، يبعثه الله بالسيف المسلول وبالريح الأكبر، وهو خاتم النبيين، فمن أطاعه نجا، ومن عصاه غوي.

ثم حضر رسول الله (صلي الله عليه وآله) سوق بُصري، فباع سلعته التي خرج بها واشترى. قال: ولم أقف علي تعيين ما باعه وما اشتراه. انتهى.

وكان بينه (صلي الله عليه وآله) وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل لرسول الله: احلف بالآلات والعزّي، فقال النبي (صلي الله عليه وآله) و آله): ما حلفت بهما قطّ، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال الرجل لميسرة وقد خلا به: يا ميسرة، هذا نبيّ، والذي نفسي بيده إنّه لهو الذي تجده أحبارنا منعوتاً؛ أي في الكتب. فوعي ميسرة ذلك.

وقبل أن يصلوا إلي بُصري عبي بعيران لخديجة وتخلّف معهما ميسرة، وكان رسول الله (صلي الله عليه وآله) في أوّل الركب، فخاف ميسرة علي نفسه وعلي البعيرين، فانطلق يسعي إلي رسول الله، فأخبره بذلك، فأقبل رسول الله إلي البعيرين، فوضع يده

علي أخفافهما وعودهما، فانطلقا في أوّل الركب ولهما رغاء (1).

قال: وفي الشرف: أنّهم باعوا متاعهم وربحوا ربحاً ما ربحوا مثله قطّ. قال ميسرة: يا محمّد، اتّجرنا لخديجة أربعين سنة ما ربحنا ربحاً قطّ أكثر من هذا الريح علي وجهك. انتهى.

أقول: لا يخفي ما في قول ميسرة: «اتّجرنا لخديجة أربعين سنة»، ولعلّها مصحّفة عن سفرة، أو هو علي المبالغة، والله أعلم.

ثم انصرف أهل العير جميعاً راجعين مكّة، وكان ميسرة يري ملكين يظللانه (صلي الله عليه وآله) من الشمس وهو علي بعيره إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ، وهذا هو المعنيّ بقول الخصائص الصغري: وحُصّ (صلي الله عليه وآله) بإظلال الملائكة له في سفره. ويحتمل أنّ المراد في كلّ

ص: 57

1- رغاء الإبل: صوتها.

سفر سافره، لكن لم أقف علي إضلال الملائكة له في غير هذا السفرة.

وقد ألقى الله تعالي محبة رسول الله(صلي الله عليه و آله) في قلب ميسرة، فكان كأنه عبده، فلما كانوا بمَرّ الظهران - أي وهو واد بين مكة وعسفان، وهو الذي تسميه العامة بطن مرو، وهو المعروف الآن بوادي فاطمة - قال ميسرة للنبي: هل لك أن تسبني إلي خديجة فتخبرها بالذي جري؛ لعلها تزيدك بكرةً إلي بكرتيك؛ أي وفي رواية تخبرها بما صنع الله تعالي لها علي وجهك.

فركب النبي(صلي الله عليه و آله) وتقدم حتي دخل مكة في ساعة الظهرية، وخديجة في عليّة(1) - أي في غرفة مع النساء - فرأت رسول الله حين دخل وهو راكب علي بعيره وملكان يظللان عليه، فأرته نساءها فعجبن لذلك، ودخل عليها رسول الله فخبرها بما ربحوا، وهو ضعف ما كانت تريح، فسرت بذلك وقالت: أين ميسرة؟ قال:

خلفت في البادية، قالت: عجل إليه ليعجل بالإقبال؛ وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره؟ فركب رسول الله(صلي الله عليه و آله)، وصعدت خديجة تنظر، فرأته علي الحالة الأولي، فاستيقنت أنه هو، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت، فقال لها ميسرة: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام.

وإلي ذلك أشار الإمام السبكي في تائيته بقوله:

وميسرة قد عاين الملكين إذ

أظلاك لما سرت ثاني سفرة

وأخبرها ميسرة بقول الراهب نسطورا، وقول الآخر الذي حالفه؛ أي استحلفه في البيع، وقصة البعيرين، وحينئذ أعطت خديجة له(صلي الله عليه و آله) ضعف ما سمته له؛ أي وما سمته له ضعف ما كانت تعطيه لرجل من قومه، كما تقدم. وقول ميسرة له(صلي الله عليه و آله) فيما تقدم: «لعلها تزيدك بكرةً إلي بكرتيك»، يدل علي أنها سمّت له بكرتين، وكانت تُسمي لغيره بكرةً، وفي كلام بعضهم: وفي الروض الباسم(2): استأجرته علي أربع بكرات. وفي الجامع الصغير ما نصّه: «آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوصين(3)»، ثم رأيت في الإمتاع ما يوافق ذلك، ونصّه: آجر(صلي الله عليه و آله)

ص: 58

1- العليّة: الغرفة العالية.

2- الروض الباسم لأبي حيان الأندلسي، توفي سنة 745هـ.

3- القلوص من الإبل، أو ما يُركب من إناثها.

نفسه من خديجة سفرتين بقلوصين، وفي السفرة الأولى أرسلته مع عبدها ميسرة إلي سوق حُباشة؛ وهو مكان بأرض اليمن بينه وبين مكة ستّ ليالٍ، كانوا يتناعون فيه ثلاثة أيام من أول رجب في كلّ عام، فابتاعا منه بُزاً ورجعا إلي مكة، فربحا ربحاً حسناً، وفي السفرة الثانية أرسلته مع عبدها ميسرة إلي الشام.

وفيه: إنّ سفره مع ميسرة إلي الشام سفرةٌ ثالثةٌ، فعن مستدرك الحاكم وصحّحه وأقرّه الذهبي: عن جابر: أنّ خديجة استأجرتَه (صلي الله عليه و آله) سفرتين إلي جُرش - بضمّ الجيم وفتح الراء: موضع باليمن - كلّ سفرة بقلوص؛ وهي الشابة من الإبل؛ وهو يفيد

أنّه (صلي الله عليه و آله) سافر لها ثلاث سفرات كما تقدّم. ولعلّ سوق حُباشة هو جُرش، وإلا لزم أن يكون (صلي الله عليه و آله) سافر لها خمس سفرات؛ أربعة إلي اليمن وواحدة إلي الشام، وما تقدّم عن الروض الباسم من أنّها استأجرتَه في سفرة إلي الشام بأربع بكرات، لا يناسب ما تقدّم عن ميسرة.

قد جاء في بعض الروايات أنّ أبا طالب جاء لخديجة وقال لها: هل لك أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرتِ فلاناً ببكرتين، وليس نرضي لمحمّدٍ دون أربع بكرات، فقالت خديجة: «لو سألت لبعيدٍ بغيضٍ، فكيف وقد سألت لحبيبٍ قريبٍ؟»

ثمّ لا يخفي أنّ كون سفره مع ميسرة بسوق حُباشة قبل سفره معه إلي الشام، مخالف لظاهر ما تقدّم من قول عمّه أبي طالب: «وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلي الشام، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها»، وقول خديجة: «ما علمت أنّه يريد هذا»، وإثما قلنا: «ظاهر»؛ لأنّه يجوز أن يكون بعد قول أبي طالب، وقولها المذكور أرسلته مع ميسرة إلي سوق حُباشة؛ لقرب مسافته وقصر زمنه، ثمّ أرسلته مع ميسرة إلي الشام، أو كانت خديجة لا تجوّز أنّ أبا طالب يرضي بسفره إلي الشام، وأنّه يوافق علي ذلك، فليتأمل.

وتقدّم أنّه من حين سيره - أي من مكة - صارت الغمامة تظّله، فإن كانت غير الملكين فالغمامة كانت تظّله في الذهاب والملكين يظّلانه في العود، ولعلّ عدم ذكر ميسرة لخديجة تظليل الغمامة له في ذهابه، أنّه لم يفتن لها مثلاً، ولكن سيأتي في

كلام صاحب الهمزية ما يدلّ علي أنّ الملكين هما الغمامة، وفيه وقوع رؤية البشر غير نبينا للملائكة غير جبرئيل، وسيأتي رؤية جمع من الصحابة لجبرئيل.

وفي المنقذ من الضلال للغزالي: أنّ الصوفية يشاهدون الملائكة في يقظتهم؛ أي لحصول طهارة نفوسهم وتزكية قلوبهم وقطعهم العلائق، وحسمهم موادّ أسباب الدنيا من

الجاه

والمال، وإقبالهم علي الله تعالي بالكلفة علماً دائماً وعملاً مستمراً، والله أعلم. قال: ولم أقف علي اسم الرجل الذي حالفه؛ أي استخلفه. وقال الحافظ ابن حجر: لم أقف علي رواية صحيحة صريحة فيه بأنه - أي ميسرة - بقي إلي البعثة. انتهى.

ثمّ إنّ خديجة ذكرت ما رآته من الآيات وما حدّثها به غلامها ميسرة لابن عمّها ورقة بن نوفل، وكان نصرانياً - أي بعد أن كان يهودياً علي ما يأتي قد تبع الكتب - فقال لها: إن كان هذا حقاً يا خديجة إنّ محمّداً نبيّ هذا الأمة، وقد عرفت أنّه كائن لهذه الأمة نبيّ منتظر هذا زمانه.

أي وكان يتّجر قبل النبوة قبل أن يتّجر لخديجة، وكان شريكاً للسائب بن أبي السائب صيفي(1)، ولما قدم عليه السائب يوم فتح مكّة، قال له: مرحبا بأخي وشريكي، كان لا يداري - أي لا يراني - ولا يماري - أي يخاصم صاحبه - ، وهذا يدلّ علي أنّ قوله كان: لا «يداري... إلخ» من مقوله.

وقد قال فقهاؤنا: والأصل في الشركة خبر السائب بن يزيد(2) أنّه كان شريكاً للنبي قبل البعثة، وافتخر بشركته بعد المبعث؛ أي قال: كان نعم الشريك، لا يداري ولا يماري ولا يشاري؛ والمشاركة المشاحة في الأمر واللجاج فيه، وهو يدلّ علي أنّ ذلك كان من مقول السائب، ولا مانع أن يكون كلّ من النبي والسائب قال في حقّ الآخر: «كان لا يداري ولا يماري»، وبهذا يندفع قول بعضهم: اختلفت الروايات في هذا

ص: 60

- 1- . كان شريك النبي قبل المبعث بمكّة، وقيل: بل إنّ أبوه صيفي شريكه. واختلفوا في إسلامه، ولكن لأولاده صحبة.
- 2- . لم يكن السائب بن يزيد شريكاً للنبي (أسد الغابة: ج2 ص257)، فقد وُلد في السنة الثانية للهجرة، وهو ترب ابن الزبير والنعمان بن بشير، دعا له النبي حين مرض، ورأي يومها خاتم النبوة.

الكلام الذي هو كان خير شريك، كان لا يشاري ولا يماري، فمنهم من يجعله من قول النبي (صلي الله عليه وآله) في السائب، ومنهم من يجعله من قول السائب في حق النبي.

ويمكن أن لا يكون مخالفة بين السائب بن أبي السائب صيفي، وبين السائب بن يزيد؛ لأنه يجوز أن يكون صيفي لقباً لوالده ولا سمه يزيد.

وفي الاستيعاب: وقع اضطراب، هل الشريك كان أبا السائب، أو ولده السائب بن أبي السائب، أو ولد السائب، وهو قيس بن السائب بن أبي السائب، لا أخوا السائب وهو عبد الله بن أبي السائب. قال: وهذا اضطراب لا يثبت به شيء، ولا تقوم به حجة.

والسائب بن أبي السائب من المؤلفة، أعطاه يوم الجعرانة من غنائم حنين، وبه يرد قول بعضهم أن السائب بن أبي السائب قُتل يوم بدر كافراً. ومما يدل على أن الشركة كانت لقيس بن السائب، قوله: «كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) في الجاهلية شريكاً، فكان خير شريك، كان لا يشاريني ولا يماريني»، ووجه الدلالة أنه سمع قوله: «كان شريكاً»، وأقره عليه.

وذكر في الإمتاع: أن حكيم بن حزام اشترى من رسول الله (صلي الله عليه وآله) بُزاً من بُزّ تهامة بسوق حباشة، وقدم به مكّة، فكان ذلك سبباً لإرسال خديجة له مع عبدها ميسرة إلى سوق حباشة؛ ليشتري لها بُزاً.

وفي سفر السعادة: أنه وقع منه أنه باع واشترى، إلا أنه بعد الوحي وقبل الهجرة، كان شراؤه أكثر من البيع، وبعد الهجرة لم يبع إلا ثلاث مرّات، وأمّا شراؤه فكثير. وأجر واستأجر، والاستئجار أغلب، ووكل وتوكل، وكان توكله أكثر.

باب تزوجه خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي

فهي تجتمع معه في قصي. قال الحافظ ابن حجر: وهي من أقرب نسائه إليه في

النسب، ولم يتزوج من ذرية قصي غيرها، إلا أم حبيبة. هذا كلامه.

وعن نفيسة بنت منية (عليها السلام) - وهي أخت يعلي بن منية (1)، ففي الإمتاع: منية أخت يعلي بن منية، وعليه يكون ضمير «وهي» راجع لمنية لا لنفيسة - . قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة - أي ضابطة - جلدة - أي قوية - شريفة - أي مع ما أراد الله تعالى لها من الكرامة والخير - وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً - أي وأحسنهم جمالاً - وكانت تدعي في الجاهلية بالطاهرة. وفي لفظ كان يقال لها: «سيدة قريش»؛ لأن الوسط في ذكر النسب من أوصاف المدح والتفضيل، يقال: فلان أوسط القبيلة؛ أعرفها في نسبها، وكل قومها كان حريصاً علي نكاحها لو قدر علي ذلك، قد طلبوها وذكروا لها الأموال، فلم تقبل، فأرسلتني دسيساً - أي خفية - إلي محمّد بعد أن رجع في غيرها من الشام، فقلت: يا محمّد، ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به، قلت: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلي المال والجمال والشرف والكفاية، ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك - بكسر الكاف لأنّه خطاب لنفيسة - قلت: بلي، وأنا أفعل.

فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليّ أن ات لساعة كذا وكذا، فأرسلت إلي عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها، فحضر، ودخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في عمومته، فزوّجه أحدهم، وهو أبو طالب علي ما يأتي، وقال في خطبته: وابن أخي له في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك. فقال عمرو بن أسد: هذا الفحل لا يُدع أنفه - بالقاف والبدال المهملة - ؛ أي لا يُضرب أنفه؛ لكونه كريماً؛ لأنّ غير الكريم إذا أراد ركوب الناقة الكريمة يضرب أنفه ليرتدع، بخلاف الكريم.

وكون المزوّج لها عمّها عمرو بن أسد، قال بعضهم: هو المجمع عليه. وقيل:

ص: 62

1- . اسمه يعلي بن أمية بن أبي عبيدة التيمي، ومنية أمّه، وهي بنت غزوان وأخت عتبة بن غزوان، وقيل غير ذلك. شهد بدرًا، وقيل: بل أسهم يوم الفتح، وشهد حنيناً والطائف وتبوك، استعمله عمر علي بعض اليمن وعثمان علي صنعاء.

المزوّج لها أخوها عمرو بن خويلد(1). وعن الزهري: أنّ المزوج لها أبوها خويلد بن أسد، وكان سكران من الخمر، فألقت عليه خديجة حلّة؛ وهي ثوب فوق ثوب؛ لأنّ الأعلى يحل فوق الأسفل، وضمّخته بخلوق؛ أي لطّخته بطيب مخلوط بزعفران، فلمّا صحا من سكره قال: ما هذه الحلّة والطيب؟ فقيل له: لأنّك أنكحت محمّداً خديجة، وقد ابنتي بها، فأنكر ذلك، ثمّ رضيه وأمضاه؛ أي لأنّ خديجة استشعرت من أيّها أنّه يرغب عن(2) أن يزوّجها له، فصنعت له طعاماً وشراباً، ودعت أباهاً ونفراً من قريش، فطعموا وشرّبوا، فلمّا سكر أبوها قالت له: إنّ محمّداً بن عبد الله يخطنني، فزوّجني إياه، فزوّجها، فخلّفته وألبسته؛ لأنّ ذلك إلباس الحلّة، وجعل الخلق به، كان عاداتهم أنّ الأب يفعل به ذلك إذا زوّج بنته، فلمّا صحا من سكره قال: ما هذا؟ قالت له خديجة: زوّجتني من محمّد بن عبد الله، قال: أنا أزوّج يتيم أبي طالب؟ لا لعمرى! فقالت له خديجة: ألا تستحي؟ تريد أن تُسّفّه نفسك عند قريش تخبرهم أنّك كنت سكران؟ فلم تزل به حتّى رضي؛ أي وهذا ممّا يدلّ علي أنّ شرب الخمر كان عندهم ممّا يُتنزّه عنه، ويدلّ له أنّ جماعة حرّموا علي أنفسهم في الجاهلية، منهم من تقدّم ومنهم من يأتي.

وفي رواية: أنّها عرضت نفسها عليه فقالت: يا ابن عمّ إنّني قد رغبت فيك؛ لقربتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، فذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمّه حمزة بن عبد المطلب(2)، حتّى دخل علي خويلد بن أسد فخطبها إليه، فزوّجها.

أقول: قال في النور: ولعلّ الثلاثة - أي أباه وأخاه وعمّاه - حضروا ذلك، فنُسب الفعل إلي كلّ واحد منهم. هذا كلامه. وفي كون المزوّج لها أبوها خويلد أو كونه حضر تزويجها نظر ظاهر؛ لأنّ المحفوظ عن أهل العلم أنّ خويلد بن أسد مات قبل حرب الفجار المتقدّم ذكرها. قال بعضهم: وهو الذي نازع تُبّعاً؛ أي حين أراد أخذ

ص: 63

1- . كانت خديجة أولاً زوجة لعتيق بن عائذ، وولدت له ولداً هو عبد مناف، وبنّتاً هي هند، ثمّ تزوّجت هند بن زرارة، فولدت له ابنة اسمها هند أيضاً، وولداً اسمه هند كذلك، ولها من هند صبيان: الطاهر وهالة.

2- . رغب عنه: لم يرصّ به.

الحجر الأسود إلى اليمن(1)، فقام في ذلك خويلد، وقام معه جماعة من قريش، ثم رأى تُبّع في منامه ما رده عن ذلك، فترك الحجر الأسود مكانه.

وعلي كون المزوج له عمّه حمزة، اقتصر ابن هشام في سيرته(2)، وذكر أنّ رسول الله(صلي الله عليه وآله) أصدقها عشرين بكرة. وعبرة المحبّ الطبري: فلمّا ذكر ذلك لأعمامه، خرج معه منهم حمزة بن عبد المطلب، حتّى دخل علي خويلد بن أسد فخطبها إليه ففعل، وحضره أبو طالب ورؤساء مضر، فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله... القصّة، والله أعلم.

قال: وعن ابن إسحاق: أنّها قالت له: يا محمّد، ألا تتزوج؟ قال: ومن؟ قالت: أنا، قال: ومن لي بك؟ أنتِ أيم قريش(3) وأنا يتيم قريش، قالت: اخطبني... الحديث؛ أي وفيه: إطلاق اليتيم علي البالغ، وذلك بحسب ما كان، والمراد به المحتاج، وإلّا فالعرف الشرعي واللغوي خصّه بغير البالغ ممّن مات أبوه الحقيقي.

وعن بعضهم قال: مررت أنا ورسول الله(صلي الله عليه وآله) علي أخت خديجة، فنادتني فانصرفتُ إليها، ووقفت لي رسول الله(صلي الله عليه وآله) فقال: أما لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ فأخبرته فقال: بلي لعمرى. فذكرت ذلك لها، فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا. فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا خديجة حلّة. الحديث.

وفي الإمتاع، بعد أن ذكر أنّ السفير بينهما نفيسة بنت منية، ذكر أنّه قيل: كان السفير بينهما غلامها، وقيل: مولاة مولدّة، وقد يقال: لا منافاة؛ لجواز أن يكون كلّ ممّن ذكر كان سفيراً. وفي الشرف أنّ خديجة(عليها السلام) قالت للنبي(صلي الله عليه وآله): اذهب إلي عمّك فقل له: تعجّل إلينا بالغداة، فلمّا جاءها معه رسول الله(صلي الله عليه وآله)، قالت له: يا أبا طالب، تدخل علي عمّي فكلمه يزوّجني من ابن أخيك محمّد بن عبد الله، فقال أبو طالب: يا

ص: 64

1- . يروي ياقوت أنّ تُبّعاً أوّل من كساها الخصف؛ وهي حصر من خوص النخل، ثمّ كساها الأنطاع، ثمّ المعافر والوصائل؛ وهي ثياب يمانية، كلّ ذلك كان يراه في منامه، وردعه عن أخذ الحجر.

2- . وكذلك ابن الأثير في ترجمة خديجة.

3- . أم الرجل من زوجته أو المرأة من زوجها: فقدّها أو فقدته؛ فهي وهو أيم.

خديجة، لا تستهزئي، فقالت: هذا صنع الله. فقام فذهب وجاء مع عشرة من قومه إلي عمّها. الحديث.

وفي رواية: ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر، ولا مخالفة؛ لجواز أن يكون المراد ببني هاشم أولئك العشرة، وأنهم كانوا هم المراد برؤساء مضر في ذلك الوقت.

وذكر أبو الحسين بن فارس وغيره: أنّ أبا طالب خطب يومئذٍ فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئني معد - أي معدنه - وعنصر مضر - أي أصله - وجعلنا حصنة بيته - أي المتكفلين بشأه - وسواس حرمه - أي القائمين بخدمته - وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا حكّام الناس. ثم إنّ ابن أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يُوزن به رجلٌ إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قلّ، فإنّ المال ظلٌّ زائلٌ وأمْرٌ حائلٌ وعاريةٌ مسترجعةٌ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتي عشرة أوقية ونشاً (1)؛ أي وهو عشرون درهماً، والأوقية أربعون درهماً؛ أي وكانت الأوقية والنش من ذهب، كما قال المحبّ الطبري؛ أي فيكون جملة الصداق خمسمائة درهم شرعي. وقيل: أصدقها عشرين بكرة؛ أي كما تقدّم.

أقول: لا منافاة؛ لجواز أن تكون البكرات عوضاً عن الصداق المذكور، وقال بعضهم: يجوز أن يكون أبو طالب أصدقها ما ذكر وزاد من عنده تلك البكرات في صداقها، فكان الكلّ صداقاً، والله أعلم.

قال: وما قيل: إنّ عليّاً 2 ضمن المهر، فهو غلط؛ لأنّ عليّاً لم يكن وُلد علي جميع الأقوال في مقدار عمره، وبه يرد قول بعضهم، وكون علي ضمن المهر غلط؛ لأنّ عليّاً كان صغيراً لم يبلغ سبع سنين؛ أي لأنّه وُلد في الكعبة وعمره ثلاثون سنة فأكثر، وسنّه

ص: 65

1 - . النش: وزن نواة من ذهب، وقيل: هو وزن خمسة دراهم، وقيل: هو ربع أوقية؛ والأوقية أربعون درهماً. عن ابن منظور: «إنّ النبي لم يُصدق امرأة من نسائه أكثر من اثنتي عشرة أوقية ونش، الأوقية أربعون والنش عشرون، فيكون الجميع خمسمائة درهم». ويذكر الجوهري: النش عشرون درهماً، وهو نصف أوقية... ويسمّون الخمسة نواة.

حين تزوّج خديجة كان خمساً وعشرين سنة علي ما تقدّم، أو زيادة بشهرين وعشرة أيام، وقيل: خمسة عشرة يوماً علي ما يأتي.

وقيل: الذي وُلد في الكعبة حكيم بن حزام، قال بعضهم: لا مانع من ولادة كليهما في الكعبة، لكن في النور حكيم بن حزام وُلد في جوف الكعبة، ولا يُعرف ذلك لغيره، وأمّا ما روي أنّ علياً وُلد فيها، فضعيف عند العلماء. قال النووي: وعند ذلك قال عمّها عمرو بن أسد: هو الفحل لا يُقدح أنفه، وأنكحها منه. وقيل: قائل ذلك ورقة بن نوفل؛ أي فإنّه بعد أن خطب أبو طالب بما تقدّم، خطب ورقة فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضّلنا علي ما عدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كلّ، لا ينكر العرب فضلكم، ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم، ورغبتنا في الاتّصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ معاشر قريش أنّي قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبد الله.

وذكر المهر، فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمّها، فقال عمّها: اشهدوا عليّ معاشر قريش أنّي قد أنكحت محمّد بن عبد الله خديجة بنت خويلد.

وأولم عليها، نحر جزوراً، وقيل: جزورين، وأطعم الناس، وأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويضربن الدفوف. وفرح أبو طالب فرحاً شديداً، وقال: الحمد لله الذي أذهب عنّا الكرب ودفع عنّا الغموم. وهي أوّل وليمة أولمها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، أقول: ولا ينافي هذا ما تقدّم من قوله: فوجدناهم قد ذبحوا بقرةً وألبسوا خديجة

حلّة؛ لجواز أن يكون ذلك كان عند العقد، وهذا عند إرادة الدخول، ولا ينافي ذلك ما تقدّم من قوله: «وقد ابنتي بها»؛ لأنّ تلك الرواية غير صحيحة، ولا ينافي كون المزوّج له عمّه أبو طالب ما تقدّم أنّ المزوّج له عمّه حمزة؛ لجواز أن يكون حضر مع أبي طالب فنُسب التزويج إليه أيضاً، والله أعلم.

والسبب في ذلك - أي في عرض خديجة (عليها السلام) نفسها عليه أيضاً مع ما أراد الله تعالى بها من الخير - ما ذكره ابن إسحاق، قال: كان لנסاء قريش عيد يجتمعن فيه في

المسجد، فاجتمعن يوماً فيه، فجاءهنَّ يهودي وقال: أيا معشر نساء قريش، إنَّه يوشك فيكنَّ نبيَّ قرب وجوده، فأيتكنَّ استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبته النساء - أي رمينه بالحصباء - وقبَّحنَّ وأغلظن له، وأغضت خديجة علي قوله، ووقع ذلك في نفسها، فلمَّا أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هي؛ أي وما قاله لها ورقة لمَّا حدَّثته بما حدَّثها به ميسرة ممَّا تقدَّم، قالت: إن كان ما قاله اليهودي حقًّا ما ذاك إلا هذا.

وذكر الفاكهي عن أنس 2: أنَّ النبي (صلي الله عليه وآله) كان عند أبي طالب، فاستأذن أبا طالب في أن يتوجَّه إلي خديجة؛ أي ولعلَّه بعد أن طلبت منه الحضور إليها، وذلك قبل أن يتزوَّجها، فأذن له وبعث بعده جارية له يقال لها نبعة، فقال: انظري ما تقول له خديجة. فخرجت خلفه، فلمَّا جاء إلي خديجة، أخذت بيده فضمَّتْها إلي صدرها ونحرها، ثمَّ قالت: بأبي أنت وأمي، واللَّه ما أفعل هذا الشيء، ولكنِّي أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيُبعث، فإن تكن هو فاعرف حقِّي ومنزلي، وادعُ الإله الذي سيُبعثك لي، فقال لها: واللَّه لئن كنتُ أنا هو، لقد اصطنعتِ عندي ما لا أُضِيعه أبداً، وإن يكن غيري، فإنَّ الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيِّعك أبداً. فرجعت نبعة وأخبرت أبا طالب بذلك.

وكان تزويجه بخديجة (عليها السلام) بعد مجيئه من الشام بشهرين أو خمسة عشر يوماً، وعمره إذا ذاك خمس وعشرون سنة علي ما هو الصحيح الذي عليه الجمهور،

كما تقدَّم. زاد بعضهم علي الخمسة والعشرين سنة شهرين وعشرة أيام، وقد أشار إلي ما تقدَّم صاحب الهمزية بقوله:

ورأته خديجة والتَّقي والزه-

د فيه سجيَّة والحياء

وأتاها أنَّ الغمامة والسر

ح أظلَّته منهما أفياء

وأحاديث أنَّ وعد رسول الله

بالبعث حان منه الوفاء

فدعته إلي الزواج وما أح-

سن ما يبلغ المني الأذكيا

أي وعلمته خديجة (عليها السلام) ذات الشرف الطاهر والمال الوافر الظاهر والحسب الفاخر والحال، أنَّ التَّقي والزهد والحياء فيه سجيَّة وطبيعة، وأتاها الخبر بأنَّ الغمامة

والشجر أظلته أفياء؛ أي أظلال، حالة كون تلك الأفياء من الغمامة والشجر، وفيه: أن هذا يدلّ علي أنّ الملكين هما الغمامة.

قال بعضهم: وتظليل الغمامة له كان قبل النبوة، تأسيساً لها، وانقطع ذلك بعد النبوة، وأتى خديجة الأحاديث والأخبار من بعض الأخبار بأنّ وعد الله لرسوله بالبعث والإرسال إلي الخلق قرب الوفاء به منه تعالي لرسوله، فسبب ذلك خطبته إلي أن يتزوج بها، وعرضت نفسها عليه، وما أحسن بلوغ الأذكىاء ما يتمونه، وتزوجها رسول الله (صلي الله عليه وآله) وهي يومئذ بنت أربعين سنة. قال: وقيل: خمس وأربعين سنة، وقيل: ثلاثين، وقيل: ثمان وعشرين، وقيل: خمس وثلاثين، وقيل: خمس وعشرين.

وتزوجت قبله برجلين: أولهما عتيق بن عابد - بالموحدة والمهمل، وقيل بالمشثاة تحت والمعجمة - فولدت له بنتاً اسمها هند، وهي أمّ محمّد بن صيفي المخزومي. وثانيهما أبو هالة، واسمه هند، فولدت له ولداً اسمه هالة وولداً اسمه هند أيضاً، فهو

هند بن هند، وكان يقول: أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً؛ أبي رسول الله (صلي الله عليه وآله) - لأنّه زوج أمّه - ، وأمّي خديجة، وأخي القاسم، وأختي فاطمة.

قتل هند هذا مع علي يوم الجمل 2. وفي كلام السهيلي أنّه مات بالطاعون بالبصرة، وكان قد مات في ذلك اليوم نحو من سبعين ألفاً، فشغل الناس بجنائزهم عن جنازته، فلم يوجد من يحملها، فصاحت نادبته: واهنداه بن هنداه، واريب رسول الله، فلم تبقى جنازة إلا تُركت واحتُملت جنازته علي أطراف الأصابع؛ إعظاماً لريب رسول الله (صلي الله عليه وآله) هذا.

هذا وفي المواهب أنّها كانت تحت أبي هالة أولاً، ثمّ كانت تحت عتيق ثانياً، وستأتي بقيّة ترجمتها (عليها السلام) في أزواجه.

1. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمّد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجَزَري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ.
2. تراجم سيّدات البيت النبوي، عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطي)، القاهرة: دار الحديث، 1423هـ.
3. سيرة الأئمّة الاثني عشر، السيّد هاشم معروف الحسني (ت1984م)، بيروت: دار التعارف، 1406هـ.
4. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفي، الطبعة الأولى، 1355هـ.
5. السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ.
6. الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضي العاملي (معاصر)، بيروت: دار الهادي، الطبعة الرابعة، 1415هـ.
7. موسوعة التاريخ الإسلامي، محمّد هادي يوسف الغروي، قم: مجمع الفكر الإسلامي، 1417هـ.

8. خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الأولى ووزير النبي (صلي الله عليه و آله)

إشارة

الدكتورة عائشة عبدالرحمن

(بنت الشاطي)

ملخص البحث:

استهلت الكاتبة بحثها هذا بحديث نبوي روته عائشة نفسها، نقله أحمد في مسنده، وهو قوله صلوات الله عليه: «... والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، واستنني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء»، للاستدلال به علي جلاله قدر السيدة خديجة ومكانتها عند رسول الله (صلي الله عليه و آله)، وأنه ما من زوجة أُخري من أزواجه تضاهيها في المنزلة. عموم هذا البحث ذو طابع وصفي خيالي، وبعض مشاهدته موثقة بنصوص منقولة من بطون كتب التاريخ والسير. تزوجت خديجة قبل زواجها من رسول الله (صلي الله عليه و آله) مرتين، بائنين من سادات العرب وأشرفهم: عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي، وأبي هالة هند بن زرارة التميمي. وقد وجدت في هذا الشاب الذي كان لا يُعرف في مكة إلا بالأمين، صفات لم تعهد لها في غيره من الرجال الذين خبرتهم وبلتهم. وبعد الإسهاب في سرد وقائع زواج النبي من خديجة،

ص: 70

انطلق البحث لتسليط الضوء علي ما تلا ذلك من أحداث نزول الوحي علي النبي الذي كان يسارع إلي إنباء زوجته المخلصة به، فما كان منها إلا أن آمنت بدعوته

وعاضدته علي إبلاغ الرسالة. ومن الأمور التي يتطرق إليها هذا البحث، الآراء التي طرحها المستشرقون في ما يخصّ زواج النبي (صلي الله عليه وآله) من خديجة، مع السعي لتفنيد بعض الآراء والتفسيرات المغلوطة.

«... والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، واستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء».

من حديث السيّدّة عائشة، مرفوعاً، أخرجه الإمام أحمد في مسندها، وابن عبد البرّ في ترجمتها بالاستيعاب.

ذكرى أليمة

أينع صباه واكتمل شبابه في بيئة تعد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاؤوا من ملذّات، لكنّه كان يجد طعم الحياة في مذاقه مرّاً كلّما عاودته ذكرى بعيدة.

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده وتردّه إلي لحظة طواها الزمن منذ ثمانية عشر عاماً، وما يزال يذكر موقفه في بقعة موحشة من الصحراء بين مكّة ويثرب أمام أمّه آمنة، والحياة تتسرّب من جسدها رويداً ثمّ تنطفئ إلي الأبد....

ثمانية عشر عاماً، وما يزال المشهد الأليم يتراءي له عبر السنين، فيري نفسه مكبّاً علي الحفرة التي ألقوا فيها جثمان الغالية بالأبواء، ضائع الحيلة مهيبض الجناح، لا يملك أن يستبقي أمّه لحظة واحدة بعد أن حال أجلها، ولا أن يرد عنها عاديّات الوحشة والبرد والظلام، بعد أن هالوا عليها الرمال.

وربّما شغلته شواغل العيش حيناً عن أشجانه، وصرفته دواعي الحياة فترة عن تمثّل ذاك الموت الذي غال أعزّ من له أمام عينيه وبين يديه، لكنّه لا يلبث أن يُنتزع من حاضره مُستثار الحزن، فإذا قلبه يخفق بين جوانحه شعوراً بعالم بعيد، في طريق الشمال، ليطوف بمرقد الثاوية في جوف الصحراء، ثمّ ينثني مثقلاً بالآسي والشجن.

ما أكثر ما كان يمرّ في مكّة بالبيت المهجور الذي ضمّه وأمه زمناً، ثمّ أوحش من بعدها وخلا... ما أكثر ما كان ينطلق إلي المراعي خارج مكّة، فإذا حان المساء وأن له أن يثوب إلي منزله، تلبّث برهة عند مدخل البلد الحرام، وتمثّل نفسه عائداً من رحلته الأولى إلي يثرب، وحيداً محزوناً مضاعف اليتيم، يتبع جاريته «بركة» وآتي الخطوصامتاً واجماً، وهي تسعى به إلي بيت جدّه الشيخ عبد المطلب.

وكم حاول الجدّ الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤي الحزينة التي تروّع صباحه، كم جاهد - عامين كاملين - ليضمم بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامي في قلب حفيده الصغير العزيز!

لكنّ الزائر المرهوب الذي آلم بال الغلام فانتزع أباه ثمّ أمّه، عاد من جديد فطوّف بحيّ بني هاشم، وتلبّث برهة حول فراش عميدهم الشيخ عبدالمطلب، وينذر بالرحيل.

ووقف الغلام مرّة ثانية، يرقب الحياة وهي تنطفئ فيمن كان له أبا بعد أبيه... وأصغي في وجوم حزين إلي صوت الشيخ المحتضر، وهو يدني إليه ولده أبا طالب فيوصيه بمحمّد، ابن أخيه عبد الله، ثمّ يمضي... .

وانتقل الصبي من بعده إلي منزل جديد، ووجد في عمّه أبا ثالثاً، لكنّه ظلّ يفتقد الأمّ، وبقي قلبه علي الأيام والشهور والسنين، ينزع نحو مرقدّها الأخير في الأبواء... .

ولم يستطع ضجيج صبية بني هاشم في ملاعب حدائهم، أن يمحو من مسمعه صدي الحشرة الرهيبة التي صكّت أذنيه وقلبه في جوف البيداء، ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول البيت العتيق في أمّ القرى أن تطوي في متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمّه وموتها قرب الأبواء(1).

ص: 72

1- . بتفصيل في كتابنا أمّ النبي .

وهذا هو يقف في المساء الساجي عند مدخل مكة شارد البال، والكون من حوله موحش واجم، يلفه الغلس برداء أربد، ويتنفس فيه الصمّت العميق شجنًا وإعياءً، وتتكاثر الظلمة من حوله، فيجمع نفسه في جهد، ويأخذ طريقه إلى منزل عمّه، وفي نفسه إحساس مرهف بفراق وشيك، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذي آواه سبعة عشر عاماً، وحسب العمّ ما يحمل من أعباء بنيه الكثار... ولكن إلى أين؟ إلى الشام مؤقتاً كما أراد له عمّه في صباح يومه ذلك، فلقد حدّثه في مطلع الشمس عن رحلةٍ مرجوةٍ الخير، وقال له فيما قال:

«يا بن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدّ الزمان علينا، وألحّت علينا سيّد نونٍ منكراً، وليس لنا مال ولا تجارة، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً يتجرون في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضّدتك علي غيرك؛ لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود... وقد بلغني أنّها استأجرت فلاناً ببيكرين، ولسنا نرضي لك بمثل ما أعطته، فهل لك في أن أكلمها؟» (1).

قال محمّد: ما أحببت يا عمّ.

تري هل كلمها العمّ واستقرّ العزم علي الرحيل؟

إذن فليرحل تاركاً تدبير المستقبل للغد المطويّ في ضمير الغيب.

لقاء

القافلة تغدّ السير نحو أمّ القرى عائدة من رحلة الصيف إلى الشام، والحدادة يهزجون بأغانهم

التي تعدّ الإبل بالراحة والظلّ والري، وتمنّي الركب بالأنس في لقاء الأهل والأحباب.

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حالمة منذ بلغوا «مرّ الظهران» علي مقربة من

ص: 73

1- ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي: ج 1 ص 130، وابن سيّد الناس في عيون الأثر: ج 1 ص 57، والذي في السيرة الهاشمية: ج 1 ص 199، السمط الثمين للمحبّ الطبري: ص 13، ط حلب، تاريخ الطبري: ج 2 ص 196: أنّ السيّد خديجة هي التي عرضت عليه مباشرة أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً.

مكة، واشترأت أعناقهم إلي معالمها التي لاحت لهم من بعيد، تناديهم في لهفة واشتياق... لكنه وحده، من بين هؤلاء جميعاً، انطوي علي نفسه يكابد أشجانته التي هاجها مرور القافلة قريبة من الأبواء في طريق عودتها إلي مكة.

وعبثاً حاول تابعه المرافق أن يغريه بالتطلع إلي أمّ القري، أو يشغله بالحديث عمّا ينتظره هنالك من تقدير السيّدة الثرية الكريمة، التي اختارته ليخرج في مالها إلي الشام، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطي غيره ممّن استأجرتهم قبله... وقال مسيرة:

«أسرع أنا إلي سيّدتي فأخبرها بما صنع الله لها علي وجهك، فإنّها تعرف ذلك لك»(1).

فتركه محمّد يمضي، وفرغ لتأمّلاته:

أهذا كلّ ما ينتظر المسافر العائد من الشام؟ والحداة يمتّون الركب بالأنس في لقاء العشيرة والأحباب!

وكرّ بصره راجعاً إلي وراء، يتبع آثار طيف من أمّه آمنة، بدا كأنّما يملأ فضاء الصحراء.

وتذكّر رحلته الأولي في السادسة من عمره عائداً من يثرب بغير أم!

حتّي علا ضجيج الركب مختلطاً بهتاف المستقبّلين ورغاء الإبل التي أناخت علي ثري مكة مطمئنّة، فمضي محمّد علي بعيده قاصداً، دار خديجة بعد أن طاف بالبيت العتيق... وكانت خديجة الطاهرة هناك في دارها، ترقب الطريق من عليّة لها في لهفة مشوبة بشيء من القلق، وإلي جانبها غلامها ميسرة يملأ سمّعها بحديث مثير عن رحلته مع محمّد.

وإذ ظهر لها أخيراً يدنو من الدار بطلعتة الوسيمة وملامحه النبيلة، عجلت إليه تستقبله لدي الباب مرحة مهنئة بسلامة العودة، في صوت يفيض عذوبة ورقة وحناناً.

ورفع إليها وجهه شاكراً وقد غصّ من بصره، ثمّ مضى يقصّ عليها أبناء رحلته وربح

ص: 74

تجارته ما جاءها به من طيبات الشام... وأنصتت إليه شبه مأخوذة، حتّى إذا ودّعها ومضى، ظلّت واقفة حيث هي، تتبعه عيناها إلى أن تواري في منعطف الطريق.

واتّجه هو إلى منزل عمّه أبي طالب وهو يحسّ شيئاً من الرضي والارتياح، أن عاد إليه من رحلته موقفاً سالماً، لم يمسه أذىً من يهود... .

زواج سعيد

وسارت الحياة في مكّة علي وتيرتها أياماً، وقد عكف أصحاب الأموال علي مراجعة حساباتهم وإحصاء أرباحهم أو خسارتهم، وانصرف التجّار العائدون إلى أهلهم يستجمّون من آثار سفر شاقّ طويل محفوف بالأخطار... وصدّفي حساب القافلة أو كاد، وانقطع ما بين التجّار والأجّراء إلي حين، اللهمّ إلا ما كان بين السيّدة خديجة الطاهرة ومحمّد الصادق الأمين... .

لقد بلت خديجة الدنيا وعرفت الرجال، وتزوّجت مرّتين، باثنين من سادات العرب وأشرفهم: عتيق بن عانذ بن عبدالله المخزومي، وأبي هالة هند بن زرارة التميمي(1)، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبّان، فما رأت فيمن عرفت ذلك النمط الفريد من الرجال.

واستغرقت في تفكيرها، تستعيد صوته الفريد المميّز وهو يحدّثها عن رحلته، ويطالعهها مرآه وهو مقبل عليها ملء المهابة والجلال.

وفجأة، ألقت خواطرها تحوم حول الموضوع الذي التقت فيه بالشابّ الهاشمي، فهزّها شعور مباغت، خفق له قلبها: فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد؟

وانتفضت لا- تدري كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة، بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت - في حساب بيتها - من حياة الرجال؟ وكيف تلقي بها قومها وقد

ص: 75

1- . هذه رواية السيرة: ج 4 ص 193، تاريخ الطبري: ج 3 ص 175، السمط الثمين: ص 13، عيون الأثر: ج 1 ص 51. قابل علي رواية الاستيعاب، وعلي رواية ابن حبيب في المحبّر. وانظر ترجمة عتيق وأبي هالة (جمهرة أنساب العرب لابن حزم: ص 133 و 199).

ردت عن بابها الخطاب من سادة قريش وسراة مكة؟(1)

لقد فكرت في قومها دون أن تعرف رأي محمد فيها، أترأه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة في الأربعين من عمرها، وهو الذي انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بني هاشم الناضرات؟

وانتابها ما يشبه الخجل، فما هي في كهولتها بالقياس إلي محمد في شبابه غير خالة أو أم، ولو عاشت آمنة بنت وهب لما تجاوزت يومئذ سن الأربعين!... وهي بعد ليست خلية من هموم الأمومة، فقد ترك لها زوجها عتيق بن عائذ المخزومي ابنة أدركت سن الزواج، وخلف لها زوجها أبو هالة هند بن زرارة التميمي ولدها «هندا»، غلاماً لم يشب عن الطوق(2).

فأي طائل وراء هذه العاطفة التي تبدو يائسة عقيماً؟

وفيما هي في حيرتها، زارتها صديقتها نفيسة بنت منية، فلم يغب عنها الذي تجد صاحبته، فما زالت بها حتى كشفت لها عن سرها المطوي... وهوت نفيسة الأمر عليها، فما في نساء قريش من تفوقها نسباً وشرفاً، وهي بعد ذات غني وجمال، كل

قومها حريص علي الزواج منها لو يقدر عليه(3). ثم تركتها وقد اعتزمت أمراً... .

جاءت(4) محمداً فسألته فيم عزوفه عن الدنيا وقضاؤه علي شبابه بالحرمان؟... هلاً سكن إلي زوج تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته؟

ص: 76

- 1- . السيرة: ج 1 ص 201، السمط الثمين: ص 13.
- 2- . انظر ترجمة أم محمد بنت عتيق في جمهرة الأنساب: ص 133، وانظر ترجمة هند بن أبي هالة ربيب رسول الله في الاستيعاب: ج 4 ص 1545، وفي الجمهرة: ص 199.
- 3- . السيرة: ج 1 ص 201، طبقات ابن سعد: ج 1 ص 131.
- 4- . من طبقات ابن سعد عن الواقدي: ج 1 ص 131، والإصابة في ترجمتي خديجة ونفيسة، والذي في سيرة ابن هشام أن السيّد خديجة عرضت نفسها عليه من غير وساطة، وانظر: تاريخ الطبري: ج 2 ص 197، والروايتان في عيون الأثر: ج 1 ص 49.

فأمسك الشابّ دمة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمّه صبيّاً في السادسة من عمره، وتكلّف الابتسام ليردّ عليّ محدّثه:

- ما بيدي ما أتزوج به... .

قالت عليّ الفور:

- فإن دُعيتَ إليّ الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

فما مسّ سؤالها أذنيه حتّى أدرك من تعني:

تلك خديجة وربّ الكعبة، ومن سواها تدانيها شرفاً وجمالاً وكفاءة؟

ألا لو دعتّه لأجاب، ولكن هل تدعوه؟

وانصرفت نفيسة وتركته مشغول البال، يرنو في رقّة إليّ طيفٍ من خديجة، وقد تراءت له في وحدته طلقة المحيا بأشّة الأسارير، تشعّ لطفاً وبهاءً وحنوّاً... وأشفق من أن تبعد به أمانيه، إذ كان يعلم ردّها أشرف قريش وأغنياءها، فغالب نفسه ليستردّها إليّ واقعه، وانطلق يسعي نحو الكعبة، فإذا كاهنة تلقاه في طريقه فتستوقفه سائلة: جئتُ خاطباً يا محمّداً؟

أجاب غير كذاب: كلاً.

فتأمّلته برهة ثمّ هزّت رأسها وهي تقول: ولم؟... فوالله ما في قريش امرأة، وإن كانت خديجة، لا تراك كفتاً لها(1).

ثمّ لم تك إلا فترة قصيرة المدي، حتّى تلقى دعوة خديجة، فسارع إليها ملبياً وفي صحبته عمّاه أبو طالب وحمزة، ابنا عبدالمطلب، وهناك في بيتها ألفوا قومها ينتظرون، وكلّ شيء مهياً لزواج سريع... وتكلّم أبو طالب:

«أمّا بعد: فإن محمّداً ممّن لا يُوازن به فتنيّ من قريش، إلا رجح به شرفاً ونبلاً

ص: 77

1- . الروض الأنف: ج 1 ص 214، عيون الأثر: ج 1 ص 50، مع ترجمة نفيسة في نساء الإصابة: ج 8 ص 200، والاستيعاب: ج 4 ص 1919.

وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قلّ، فإنّما المال ظلّ زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك...».

فأثني عليه عمّها عمرو بن أسد بن عبد العزّي بن قصي، وأنكحها منه علي صدق قدره عشرون بكرة(1).

ولمّا انتهى العقد، نُحرت الذبائح ودُقّت الدفوف، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء، فإذا بينهم حليلة قد جاءت من بادية بني سعد لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته، ثمّ لتعود في الغداة ومعها أربعون رأساً من الغنم، هبةً من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت محمّداً زوجها الحبيب... .

وتندّت عينا محمّد وهو يتفكّد أمّه آمنة، فإذا يد لطيفة رقيقة تأسو الجرح القديم في حنان غامر، وإذا به يجد في خديجة عوضاً جميلاً عمّاً قاساه من طويل حرمان... .

ولم يعنِ مكّة من أمر الزوجين السعديين، سوي أنّ زواجاً ربط بين محمّد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم القرشي وخديجة بنت خويلد بن أسعد بن عبد العزّي بن قصي(2)، القرشية الطاهرة.

ولكنّ التاريخ تلبّث بعد بضع عشرة سنة، ليسترجع يوم العرس المشهود، ويُسجّله بين أيّامه الخالدات علي مرّ الزمان. وقد انصرف إلي حين، تاركاً هذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها «مكّة»، ويرتشفان علي مهل، رحيق ودّ صافٍ عميق، سيظلّ حديث التاريخ..

واستغرقا في هناءتهما خمسة عشر عاماً، ناعمين بالألفة والاستقرار، وقد أتمّ الله عليهما

ص: 78

1- . في رواية لابن إسحاق عن الزهري أنّ أباه هو الذي زوّجها، والتفصيل في عيون الأثر: ج 1 ص 50، مع السيرة: ج 1 ص 201، وهّمه الواقدي، وقال: والثابت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أنّ أباه خويلد ابن أسد مات قبل الفجار، وأنّ عمّها عمرو بن أسد هو الذي زوّجها (طبقات ابن سعد: ج 1 ص 133).

2- . وأمّ خديجة: فاطمة بنت زائدة بن الأصمّ بن هرم بن رواحة (راجع: الاستيعاب: ج 4 ص 1917، وتاريخ الطبري: ج 3 ص 175، ونسب قريش: ص 230، والمحبّر: ص 12 - 18).

نعمته، فرزقهما البنين والبنات: القاسم، وعبدالله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة(1).

وأرخي الزمن لهما في حياتهما تلك الرضية الهادئة أعواماً ذات عدد، ارتوي محمد خلالهما من نبع الحنان، معوضاً بذلك حرمان ماضٍ يتيم، ومرتوداً لغد مقبل، حافل بالكفاح المضني والشواغل الجسام، وقد ذاقا في تلك الفترة لوعة الشكل في الولدين العزيزين، فكان للزوجين في ونامهما وتصبرهما، ما أعانهما علي تجرّع الكأس التي تدور علي الناس جميعاً، فلا يعني من شربها أحد، وما كان ولداهما إلا وديعة، ولا بد يوماً أن تستردّ الودائع(2).

مع المصطفى في ليلة القدر

ثمّ كان الحادث الخطير، لا في حياة هذه الأسرة الوداعة فحسب، ولا في حياة قريش والعرب وحدهم، بل في حياة الإنسانية أجمع.

لقد تلقى محمد رسالة الوحي في ليلة القدر، واصطفاه الله تعالى خاتماً للنبيين، وبعثه في الناس بشيراً ونذيراً... .

وكانت الرسالة إيذاناً بحياة جديدة، شاقّة كادحة، وبدءاً لعهد ملؤه الاضطهاد والأذى والجهاد ثمّ النصر.

وفي الحقّ لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء إرهابات عن نبي جديد قد حان مبعثه، وما أكثر ما تحدّث السّمّار والكهّان والمتحنّفون عن رسالة سماوية منتظرة أن أوانها(3).

ص: 79

1- . انظر السيرة: ج 1 ص 202، وطبقات ابن سعد: ج 1 ص 133، وتاريخ الطبري: ج 3 ص 175، والمحرّ: ص 79، والاستيعاب: ج 4 ص 1817، ونسب قريش: ص 21.

2- . لم نطل الحديث هنا عن أبوة محمد وأمومة خديجة(عليها السلام)؛ لأنّ موضع هذا الحديث يأتي في كتابنا عن بنات النبي . وذكر الطبري أنّ هند بن أبي هالة كان عند أمّه خديجة بعد زواجها بمحمد، وفي ترجمة هند بطبقات الصحابة والحفّاظ وكتب الأنساب، أنّه ربيب رسول الله .

3- . انظر هذه المرويات بالتفصيل في الجزء الأوّل من سيرة ابن هشام، ط الحلبي، وطبقات ابن سعد، والشفا للقاضي عياض، وفي الجزء السادس عشر من نهاية الأرب للنويري، ط دار الكتب، وفي الجزء الأوّل من عيون الأثر ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسهمودي، ط السعادة بمصر.

ومكّة علي الخصوص، كانت الموضع الذي تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والبُشريات، وتتجمّع روافدها من هنا ومن هناك وهناك، لتصبّ حول البيت العتيق: مثابة الحجّ ومركز العبادة من قديم العصور والآباد... غير بعيد من دار المولد وما حفّ بها من ذكري قصّة الفداء، وبشريات الحمل والمولد والرضاعة، والرحلة إلي الشام.

لكنّ أحداً لم يكن يدري يقيناً كيف ومتي يكون المبعث المنتظر، ومن هنا كان لنزول الوحي علي المصطفي، وقع المفاجئة العنيفة التي جاوزت أبعاد التصوّر، كان منذ استقرّت به الحياة في رعاية الزوج الرؤوم، وأعفته ظروفه الماديّة من عناء الكفاح اليومي، قد أُتيح له أن يستجيب لما في نفسه من نزوع إلي التأمل، وميل إلي التفكير المستغرق، وهي نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا، ووجدت في ساعات فراغه - أيّام رعيه للغنم - مجالاً رحباً، ثمّ صرفه عنها كدح العيش، لتعود فتظهر من جديد، قوية

أصيلة، كأنّما هي فطرة فيه.

و كثيراً ما حامت تأملاته حول الكعبة، تلك التي صنعت تاريخ مكّة وتاريخ أسرته بوجه خاص (1)، ووصلت ما بين أبيه عبد الله وإسماعيل جدّ العرب، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها، فأحيت بحادث فداء عبد الله من الذبح، ذكري متناهية في القدم، لمشهد الذبيح الأوّل: ابن إبراهيم.

وانبلج له نور الحقّ، فرفض هذه الأصنام التي تكدّست في بيت الله، صمّاء عمياء، لا تملك لنفسها نفعاً ولا تردّ عن نفسها ضرراً، وأنكر أن تخف أحلام قومه، فيتعبّدوا لحجارة بالغة الهوان، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم، ثمّ جعلوا منها آلهة لهم وأرباباً.

وأرهف التأمل حسّه، فإذا هو يستشفّ أدقّ ما في الكون من أسرار، ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء، قوّة عظمي خفية، تدبّر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مطردة، (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ

ص: 80

1- . السيرة: ج1 ص153، وقرأ الفصل الخاصّ بمكّة في كتابنا أمّ النبيّ .

سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(1).

وما شارف الأربعين حتّى كان قد أُلّف الخلوة في غار حراء، واستطاب رياضته الروحية التي يحسّ خلالها كأنّما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلي السرّ الأعظم، ما كانت خديجة في وقار سنّها وجلال أُمومتها لتضيق بهذه الخلوات التي تبعد عنها أحياناً، أو تعكّر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء، بل حاولت ما وسّعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت، فإذا انطلق إلي غار حراء ظلّت عيناها عليه من بعيد، وربّما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه(2).

وهكذا بدا كأنّ شيئاً مهيباً لاستقبال الرسالة المرتقبة، لكنّها رغم هذا التهيؤ، زلزلت

حين جاءت أرجاء ذلك العالم الذي طالما أرهص بنبوّه وشيكة، وهزّت ذلك النبي المصطفي محمّد بن عبد الله الذي ما رضي قطّ عن موضع الأصنام بالكعبة، ولا ارتاب قطّ في أنّ حياة قومه لن تمضي هكذا علي سفه وضلال....

فلمّا نزل عليه الوحي في ليلة القدر وهو في غار حراء، انطلق يلتمس بيته في غبش الفجر خائفاً شاحباً يرجف فؤاده، حتّى بلغ حجرة زوجه وذهب عنه الروع، فحدّثها في صوت مرتجف عن كلّ ما كان، ونفض لديها مخاوفه، قال: «لقد خشيت علي نفسي».

أتراه يهذي حالماً؟ أم به جُنّة؟

وضمّته إلي صدرها، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأُمومة في قلبها، وهتفت في ثقة ويقين:

«الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا بن العمّ واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأُمّة، والله لا يُخزيك الله أبداً... إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتقرّي الضيف، وتعين علي نواب الحقّ»(3).

ص: 81

1- .يس: 40.

2- .السيرة: ج 1 ص 263، الدرر: ص 34، الإصابة ج 8 ص 200.

3- .متفق عليه من حديث بدء الوحي، ومعه السيرة: ج 1 ص 253، وشرحها في الروض الأنف: ج 1 ص 270، وابن سعد بإسناده من عدّة طرق: ج 1 ص 194، وتاريخ الطبري: ج 2 ص 205 - 207، والسمط الثمين: ص 10، وعيون الأثر، والإصابة: ج 8 ص 200 بألفاظ متقاربة.

وزايله روعه، فما هو بالكاهن ولا به جنة، وهذا صوت خديجة العذب الواثق ينساب مع ضوء الفجر إلي فواده، فيبت فيه الثقة والأمن والهدوء.

وأحس الراحة والطمأنينة وهي تقوده في رفق إلي فراشه فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالي، ثم تهدده بصوتها الأليف... .

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق في نومه الهادئ المطمئن، ورفرف عليه قلبها ملء الحب والإيمان، ثم قامت فتسللت من المخدع علي حذر، حتي إذا بلغت الباب اندفعت إلي الطريق الخالي تحت حُطاطها نحو ابن عمها ورقة بن نوفل، ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح، والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة.

وجاءت ورقة، فأفعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها، لكنه ما كاد يصغي إلي ما تحدثت به حتي اهتز منفعلًا، وتدققت الحيوية في بدنه الواهن، فانتفض يقول في حماسة:

«قُدوس... قُدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسي وعيسي، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولني له فليثبت»(1).

ولم تنتظر مزيداً من قوله، ولم تستعد كلمة واحدة منه، بل أسرع إلي زوجها الحبيب تعجل إليه بالبشري.

في حديث السيدة عائشة عن بدء الوحي، قالت: «فانطلقت به خديجة حتي أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصّر في الجاهلية... يكتب الإنجيل بالعبرانية، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك... فأخبره بخبر ما رأي وسمع، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل علي موسي، يا ليتني فيها جدعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يُخرجك قومك. فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): أو مُخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به

ص: 82

1- . السيرة: ج 1 ص 254، تاريخ الطبري: ج 2 ص 206، والحديث مخرج في الصحيحين عن عائشة، ومجال عرضه بتفصيل في كتابي: مع المصطفى .

إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»(1).

وطابت نفسه بما سمع، فانصرف إلى بيته مطمئنًا مع زوجته أم المؤمنين الأولى، لبدأ نضاله من أجل الدعوة، وليلقى في سبيلها أشق ما وعي التاريخ من أذى واضطهاد، فما كانت قريش لترضي أن يعيب دينها ويسفّه أحلامها ويحقّر آلهتها التي وجدوا آباءهم لها عابدين.

ووقفت زوجته المحبّة المؤمنة إلى جانبه، تنصر وتشدّ أزره، وتعيّنه علي احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددًا، فلمّا قضى علي بني هاشم وعبدالمطلب أن يخرجوا من مكّة لأئذين بشعب أبي طالب بعد أن أعلنت قريش عليهم حرباً مدنية لا تُرحم، وسجّلت مقاطعتها لهم في صحيفة علّقت في جوف الكعبة(2)، ولم تتردّد خديجة في الخروج مع زوجها، وهكذا تخلّت عن دارها الحبيبة، مغني صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها، وقامت تتبع رجلها ونبيّها، وقد علت بها السن وناءت بأثقال الشيخوخة والشكل والاضطهاد.

وأقامت هنالك في شعب أبي طالب ثلاث سنين، صابرة مع زوجها النبي (صلي الله عليه وآله) ومن معه من صحبه وقومه، علي عنت الحصار المنهك، وجبروت الوثنية العاتية العمياء(3).

عام الحزن

حتّي تهاوي الحصار أمام قوّة الإيمان الصادق والمجاهدة الباسلة، وأن للنبي (صلي الله عليه وآله) أن يعود إلى بيته في جيرة الحرم المكيّ مع زوجته المؤمنة الصابرة التي بذلت له في المنحة، ما

ص: 83

- 1- . متفق عليه، وانظر السيرة: ج 1 ص 254، وتاريخ الطبري: ج 2 ص 206، 207، مع فتح الباري: ج 1 ص 17، وعيون الأثر: ج 1 ص 80.
- 2- . السيرة: ج 1 ص 375، تاريخ الطبري: ج 2 ص 228.
- 3- . السيرة، والمحبّر لابن حبيب: ص 11، وفي رواية لابن سعد أنّهم أقاموا سنتين، ورواية أخرى بلفظ «مكثوا سِنين»، الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 210.

أبقي لها الزمن من طاقة في عامها الخامس والستين.

بعد نحو ستّة أشهر من انهيار الحصار، مات العمّ أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وقد كان لابن أخيه أباً صديقاً وكافلاً وحامياً، ومانعاً له من طواغيت قريش، قومه.

ولم تشهد مآتمه، كانت في فراشها توّدع الدنيا، وزوجها إلي جانبها يرعاها ويؤنس وحشة احتضارها ببشري ما لها عند الرفيق الأعلى، ويتزوّد منها لفراق لا لقاء بعده في هذه الدنيا، ثمّ أسلمت الروح بعد ثلاثة أيام بين يدي الزوج الذي تفانت في حبّه منذ لقيته، والنبي الذي صدّقته وآمنت برسالته من فجر ليلة القدر، وجاهدت معه حتّى الرمق الأخير من حياتها، وكانت له سكناً وأنساً وملاذاً، إلي أن رجعت نفسها المطمئنة إلي ربّها راضية مرضية، ودفنها بالحجون.

كانت وفاتها(عليها السلام)، قبل الهجرة بثلاث سنين علي الصحيح(1).

وتلقّت محمّد(صلي الله عليه وآله) حوله، فإذا الدار من بعدها موحشة خلاء، وإذا مكّة تنبوه بعد رحيلها، فليس له علي أرضها مكان... .

قال ابن إسحاق: «فتتبع علي رسول الله(صلي الله عليه وآله) المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق علي الإسلام»(2).

وأسند الواقدي عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير2، قال: «لما توفي أبو طالب وخديجة بنت خويلد، وكان بينهما شهر وخمسة أيام، اجتمعت علي رسول الله(صلي الله عليه وآله) مصيبتان، فلزم بيته وأقلّ الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به...».

وبلغت متاعبه أقسى مداها في عام موت خديجة الذي سمي عام الحزن، وخيّل إلي أعدائه المشركين أنّ الظلمات تكاثفت حوله، فما عاد يبدو علي الأفق شعاع من

ص: 84

1- ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير، عيون الأثر: ج1 ص130، والاصابة: ج8 ص62، والمحبر لابن حبيب: ص11.

2- السيرة: ج2 ص57، تاريخ الطبري: ج2 ص229، عيون الأثر: ج1 ص130.

ضياء، وكذبتهم أمانيتهم، فظنّوا أنّ الظفر به جدّ قريب، وما دروا أنّ الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر... .

ذلك أنّ خديجة لم تمض إلاّ وأمين الوحي يرعي النبي (صلي الله عليه وآله) غادياً رائحاً، يذود عنه اليأس والإحباط، والسابقون الأولون من المؤمنين يحيطون بنبيّهم مستبسلين، يفتدونهم بالمهيج والأرواح، ويرون الاستشهاد في سبيل دعوته مجداً وانتصاراً... .

لم تمت خديجة إلاّ والدعوة قد ذاعت وجاوزت مكّة إلي أطراف الحجاز، ثمّ إلي ما وراءها من بلاد العرب، وحملها فئة من صحابته عبر البيد والبحار إلي الحبشة، مهاجرين بدينهم، متخلّين عن ديارهم وأهلهم، عارضين علي الدنيا مشهداً رائحاً فريداً من مشاهد الإيمان البازل الصابر، مالئين الأسماع والقلوب بحديث مير عن صدق الجهاد ومحد التضحية وبطولة الاستشهاد.

لم تمت خديجة إلاّ وفي الموسم بمكّة رجال من يثرب لن يلبثوا أن يبايعوا الرسول ويعودوا فيعبّوا المدينة كلّها لنصرته، وأقصى أمانيتهم أن يخوض بهم المعركة الباسلة، ليظفروا بإحدي الحُسنين: النصري علي أعداء الله، أو الاستشهاد في سبيله... .

ملء الحياة

ولكن، هل ماتت خديجة حقّاً؟ كلاً... إنّها لمثالة في حياة زوجها الرسول، فما يسير إلاّ وطيف منها يتبعه، وما يسري إلاّ وسني مشرق منها بيدد من حوله حالك الغواشي... .

وستدخل بعدها في حياته نساء ذوات عدد، لكن مكانها من قبله وفي دنياه سيظلّ أبداً خالصاً لهذه الزوج الأولي، والحببية الرؤوم التي انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان، لم تشركها فيه أُخري، ولا لاح في أفقه ظلّ من شريكة سواها.

سوف تفقد علي هذا البيت بعدها أزواج أُخريات فيهنّ ذوات الصبا والجمال والحسب والجاه، ولكن واحدة منهنّ لن تستطيع أن ترحزح خديجة عن مكانها هناك، ولن تفلح في إبعاد طيفها الذي أقام أبداً يحوم حول الحبيب ويستأثر بإعزازة ما عاش.

وستشهد المدينة بعد أعوام عندما انتصر في بدر يتلقّى فداء الأسري من قريش، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها زينب في فداء زوجها الأسير أبي العاص ابن الربيع، حتّى يرقّ قلب البطل المصطفي من شجو وشجن، ويسأل أتباعه الظافرين في أن يردّوا علي زينب قلادتها ويفكّوا أسيرها(1).

وسيشهد بيت النبي عائشة بنت أبي بكر في عزة صباها ونصرة شبابها وحبّ النبي (صلي الله عليه وآله) لها، تشعلها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها إلي قلب محمّد واستأثرت به وحدها حتّى يومها الأخير، ثمّ ظلّت بعد موتها حيث كانت من قبله.

في الصحيحين من حديث عائشة، قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة علي رسول الله، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك فقال: اللهمّ هالة! فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر أبدلك الله خيراً منها؟»(2).

زادت في رواية الإمام أحمد بالمسند وابن عبد البرّ في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة من طريق أبي بشر الدولاني:

فتغيّر وجهه وزجر عائشة غاضباً، قال: «والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ آمنت بي حين كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء». وزاد الطبراني في روايته: «قالت: قلت: يا رسول الله،

اعف عني، ولا تسمعني أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشيء تكرهه».

وكانت قبل ذلك لا تكفّ عن الكلام فيها في الصحيحين من حديثها، قالت: «ما غرت علي أحد من نساء النبي (صلي الله عليه وآله) ما غرت علي خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي (صلي الله عليه وآله) يكثر ذكرها، وربّما ذبح الشاة ثمّ قطعها أعضاءً ثمّ يبعثها في صدائق خديجة، فرّبما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلاّ خديجة، فيقول: إنّها كانت وكانت، وكان لي

ص: 86

1- . السيرة: ج2 ص207، ولحديث القلادة فصل خاصّ في كتاب بنات النبي .

2- . متفق عليهما، من فضائلها(عليها السلام).

منها ولد...»(1).

وفي رواية صحيح مسلم، أنه قال: «إني قد رزقتُ حبَّها»(2).

وعن عائشة قالت: «ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة، وما تزوجني رسول الله(صلي الله عليه وآله) إلا بعدما مات»(3).

وحثي يوم الفتح - وقد مضى علي وفاة خديجة أكثر من عشر سنين حافلة بأجل الأحداث - زني رسول الله، يختار مكاناً إلي جوار القبر الذي ثوت فيه زوجه أم المؤمنين الأولى؛ ليشرف منه علي فتح مكة، وليقيم في قبة ضربت له هناك، تؤنسه روح خديجة، ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام، ملتفتاً بين آونة وأخرى إلي دارهما، حيث نهل من نبع الحب والحنان ما تزود به لذاك الجهاد المضني الطويل... .

وستدخل في الإسلام من بعد خديجة ملايين النساء، لكنّها ستظلّ منفردة دونهنّ بلقب المسلمة الأولى التي آثرها الله بالدور الأجل في حياة المصطفى، وسيدكر لها

المؤرخون - المسلمون وغير المسلمين - ذلك الدور، فيقول «بودلي»: «إنّ ثقتها في الرجل الذي تزوّجته - لأنّها أحبته - كانت تضفي جواً من الثقة علي المراحل الأولى للعقيدة التي يدين بها اليوم واحد في كلّ سبعة من سكّان العالم»(4).

ويؤرّخ «مرجليوث» حياة محمّد(صلي الله عليه وآله) باليوم الذي لقي فيه خديجة، «ومدّت يدها إليه تقديراً»، كما يؤرّخ حادث هجرته إلي يثرب باليوم الذي خلت فيه مكة من خديجة... .

ويطيل «درمنجم»(5) الحديث عن موقف خديجة حين جاءها زوجها من غار حراء

ص: 87

- 1- . متفق عليهما، من فضائلها(عليها السلام).
- 2- . صحيح مسلم: ح 2435 فضائلها(عليها السلام)، الإصابة: ج 8 ص 62.
- 3- . تاريخ الطبري: حوادث السنة الثامنة للهجرة: ج 3.
- 4- . الرسول لبودلي، الترجمة العربية لمحمّد فرج وعبد الحميد السّحّار.
- 5- . حياة محمّد لدرمنجم: ص 58، من الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتير.

«خائفاً مقروراً أشعث الشعر واللحية، غريب النظرات... فإذا بها تردّ إليه السكينة والأمن، وتسبغ عليه ودّ الحبيبة وإخلاص الزوجة وحنان الأمّهات، وتضمّه إلي صدرها، فيجد فيه حُضن الأمّ الذي يحتتمي به من كلّ عدوان في الدنيا».

وكتب عن وفاتها: «... فقدّم محمد بوفاة خديجة تلك التي كانت أول من علم أمره فصدّقته، تلك التي لم تكفّ عن إلقاء السكينة في قلبه... والتي ظلّت ما عاشت تشمله بحبّ الزوجات وحنان الأمّهات».

و«درمنجم» هنا يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين، فاتهم أن يقدّروا حاجة الشابّ اليتيم إلي الأمومة، حين تحدّثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة؛ فمرجليون يجعل لمال خديجة المكان الأوّل في زواج كهذا «بين شابّ فقير وأرملة كهذه كهلة، مات عنها زوجان من بني مخزوم، وتركها ثروة ذات شأن».

ثمّ يمضي فيكتب بكلمات تقطر حقداً وزُوراً: «إنّ دعوة خديجة جاءت محمّداً وهو يجترّ كلمات مريرة سمعها من عمّه أبي طالب حين خطب إليه ابنته أمّ هانئ، فردّه لفقره وزوجها لذي مال، واستشعر محمّد ذلّة الفقر ومهانته، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة في

الزواج منه حتّى أقبل متلهّفاً علي الشراء، يداوي به جرح كرامته التي أهدرها فقره»⁽¹⁾.

وليس هذا بمستغرب من مثله، فكذلك يلوون الأخبار في تفسيرهم لتاريخ الإسلام، وكلامه هنا مردود بما في مصادرنا الموثقة من حديث عبد الله بن عباس ابن عمّ أمّ هانئ، ذكر خطبته أمّ هانئ إلي أبيها، عمّه أبي طالب، وقد سبقه إلي خطبتها هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومي، وهو كفء كريم، فقال أبو طالب: يا بن أخي، إنّنا قد صاهرنا إليهم، والكريم يكافئ الكريم، «ثمّ فرّق الإسلام بين أمّ هانئ وهبيرة، فخطبها، فقالت: واللّه إني كنت لأحبّك في الجاهلية، فكيف في الإسلام؟ ولكنّي امرأة مصيبة - أي ذات صبية - فأكره أن يؤذوك»⁽²⁾. وفيها قال: «نساء قريش خير نساء

ص: 88

1- المصدر السابق.

2- ترجمتها بالإصابة، والحديث متفق عليه.

ركبن الإبل؛ أحناء علي طفل، وأرعاه علي زوج في ذات يده»(1).

وفي رواية من طريق الشعبي أن أم هانئ (عليها السلام) قالت: «يا رسول الله، لأنت أحب إلي من سمعي وبصري، حق الزوج عظيم، فأخشي إن أقبلت علي زوجي أن أضيع بعض شأنني وولدي، وإن أقبلت علي ولدي أن أضيع حق الزوج، فقال رسول الله (صلي الله عليه و آله): إن خير نساء ركنن الإبل نساء قريش، أحناء علي ولد في صغره، وأرعاه علي بعل في ذات يده»(2).

وفسّر «موير» في كتابه حياة محمّد وتاريخ الإسلام وفاء محمّد (صلي الله عليه و آله) لخديجة بتهيئه لمركزها المالي والاجتماعي، وخوفه من أن تطالبه بالطلاق!

وكان علي «موير» أن يفسّر لنا: فيم إذن كان وفاء محمّد (صلي الله عليه و آله) لخديجة بعد موتها؟... وهل كان يخاف أن تطالبه بالطلاق وهو يخاصم عائشة فيها

بعد وفاتها بسنين، ويأبي عليها أن تمسّ ذكراها؟!

لقد كانت خديجة ملء حياته حيّة وميتة، وما جاورت عائشة الحقّ حين قالت: «كأن لم يكن في الدنيا امرأة سواها».

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت أمّه بين يديه؟!

هل كان لأنثي غيرها أن تهيبّ له الجوّ المسعف علي التأمل، وأن تبذل له من نفسها - في إثثار نادر - ما أعدّه لتلقّي ختام الرسائل؟

هل كان لزواج عداها أن تستقبل عودته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار وعطف قيّاض وإيمان راسخ، دون أن يساورها في صدقه أدني ريب أو يتخلّي عنها يقينها في أنّ الله غير مخزيه أبداً؟!

هل كان في طاقة سيّدة غير خديجة غنية مترفة منعمة، أن تتخلّي راضية عن كلّ ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلي جانبه في أحلك أوقات المحنة، وتعيّنه علي

ص: 89

1- . ترجمتها بالإصابة، والحديث متفق عليه.

2- . طبقات ابن سعد: ج 8 ص 151، وانظر في نسب قريش أبناء هبيرة المخزومي من أم هانئ رضي الله عنها: ص 344.

احتمال أفدح ألوان الأذي وصنوف الاضطهاد في سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟

كلّآ ... بل هي وحدها التي مَنَّ الله تعالي عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة، وأن كانت أول الناس إسلاماً، كما مَنَّ بها علي رسوله، ملاذاً ومسكناً ووزيراً.

قال ابن إسحاق: «كان رسول الله(صلي الله عليه وآله) لا يسمع شيئاً يكرهه من ردِّ عليه وتكذيبٍ له فيحزنه ذلك، إلا فرَّج الله عنه بها؛ إذا رجع إليها تثبته وتخفّف عنه، وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس، حتّى ماتت(عليها السلام)» (1).

وتركت الراحلة من بعدها، بناتها الأربع ملء حياة أبيهنّ الرسول، وملء التاريخ الإسلامي، وقد أفردت لهنّ كتابي عن بنات النبي، وفيه تفصيل ما أجملتُ هنا عن

أمومة السيّدة خديجة، أمّ المؤمنين الأولى(2).

ومَنَّ الله عليها وعلي المسلمين، بأن حفظ في نسل الزهراء بنت الطاهرة ذرية نبيّه، فَبَساً من سدّنا نوره ونفحة من عطر شذاه، فهي أمّ آل بيت النبي(صلي الله عليه وآله).

ص: 90

1- . في السيرة: ج 1 ص 257، وانظر السمط الثمين: ص 23.

2- . وانظر فضائلها رضي الله عنها في: المناقب من صحيح البخاري والفضائل من صحيح مسلم.

1. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبرّ النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ.
2. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن الحجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ.
3. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م.
4. تراجم سيّدات بيت النبوي، عائشه عبدالرحمن (بنت الشاطي)، القاهرة: دار الحديث، 1423هـ.
5. جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ.
6. حياة محمد، محمد حسين هيكل (ت1956)، تعليق: عبدالرحيم الموسوي، قم: المجمع العالمي لأهل البيت، 1386.
7. الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي (ت581هـ)، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ.
8. السمط الثمين في مناقب أمّهات المؤمنين، محبّ الدين أحمد بن عبدالله الطبري (ت694هـ)، تحقيق: محمد علي قطب، القاهرة: دار الحديث، 1408هـ.
9. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفى، الطبعة الأولى، 1355هـ.

10. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى اليحصبي (القاضي عياض) (ت544هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية.
11. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1410هـ.
12. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولى، 1412هـ.
13. الطبقات الكبرى (الطبقة الخامسة من الصحابة)، محمد بن سعد الزهري (كاتب الواقدي) (ت230هـ)، تحقيق: محمد بن صامل السلمي، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ.
14. الطبقات الكبرى، ابن سعد، محمد بن سعد الزهري (كاتب الواقدي) (ت230هـ)، تحقيق: محمد بن صامل السلمي، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ.
15. بنات النبي أم ربابه، جعفر مرتضي العاملي، قم، 1413هـ.
16. عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير (السيرة النبوية لابن سيد الناس)، محمد عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس (ت734هـ)، بيروت: مؤسسة عز الدين، 1406هـ.
17. فتح الباري (شرح صحيح البخاري)، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: فؤاد عبد الباقي عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1379هـ.
18. المُحَبَّر، أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي (ت245هـ)، تحقيق: ايلزه ليختن شتير، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، مطبعة الدائرة، 1361هـ.
19. نسب قريش، مصعب بن عبد الله الزبيري (ت236هـ)، تحقيق: بروفنسل، القاهرة: دار المعارف.
20. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت733هـ)، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الطبعة الأولى، 1395 و1396هـ.
21. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، نورالدين علي بن أحمد السمهودي (ت911هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، 1401هـ.

ملخص البحث:

يمثل هذا البحث سرداً تاريخياً يبدأ بذكر نسب خديجة بنت خويلد من جهة الأب والأُم والأقارب والقبيلة، وزواجها قبل النبي (صلي الله عليه وآله). ويصف فيه أيضاً مواقفها الداعمة للنبي في جميع الظروف والأحوال، ومدى محبة النبي واحترامه لها وحفظه لذكراها. حين أخرجت قريش بني هاشم إلي شِعْب أبي طالب وفرضت عليهم الحصار هناك، تخلّت هذه المرأة عن دارها ومالها، وخرجت مع زوجها إلي الشَّعب. المنهج الذي انتهجه هذا البحث هو الطابع المكتبي، ويتَّصف بأسلوب السرد الأدبي الذي يستعين في بعض الحالات بتوثيق من مصادر تاريخية.

لقد رأيت قبل الحديث عن سيرة الأئمة الاثني عشر أن أتحدّث ولو يسيراً عن السيّدتين خديجة أم الزهراء وجدة الأئمة الاثني عشر التي ساهمت في بناء الإسلام بمالها وجاهها، وتحملت في سبيل ذلك كلّ أنواع الأذى والاضطهاد، واستقبلت الدعوة بقلبٍ مفتوح لكلّ تعاليمها، وإيمانٍ راسخ بأنّ الله لن يخذل نبيّه، وحينما جاءها في اللحظات الأولى من نزول الوحي عليه خائفاً غريب النظرات، حاولت أن تردّ إليه السكينة والأمن، وتسبغ عليه ودّ الحبيبة وإخلاص الزوجة، وتضمّمه إلي صدرها،

فيجد فيها حنان الأم الذي يحميه من كلّ عدوان في هذه الدنيا.

وفي ذلك أيضاً تقول الدكتورة بنت الشاطي: «هل كان لزوجها عداها أن تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته خديجة به من حنان مستثار، وعطف فيّاض، وإيمان قويّ، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب، أو يتخلّي عنها يقينها بأنّ الله غير مخزيه أبداً؟ وهل كان في طاقة سيّدة غير خديجة غنية مترفة منعمة أن تتخلّي راضية عن كلّ ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة، لتقف إلي جانب زوجها في أحلك أوقات المحنة، وتشاركه في أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد في سبيل ما تؤمن به، كلاً، بل هي وحدها التي أعدّتها الأقدار لتملاً حياة النبي (صلي الله عليه وآله)، ولتكون له ثقة وطمأنينة وسلاماً».

فمن الوفاء لحقّها العظيم علي جميع المسلمين أن نتحدّث عنها حسبما يسمح به الوقت، ونحن بصدد الحديث عن أحفادها الأئمة الاثني عشر الذين شاء الله أن تكون لهم أمّاً وزوجها العظيم أباً.

وعن ابنتها فاطمة الزهراء التي آثرها الله بالنعمة الكبرى، فحصر في ولدها ذرّيّة الرسول، وحفظ بها أشرف سلالة عرفها العرب في تاريخهم الطويل، فكانت وحدها الوعاء الطاهر للسلالة الطاهرة والمنبت الطيب لعترّة الرسول من أهله وذويه.

لقد ولدت خديجة بنت خويلد زوجة النبي الأوّلي من أبوين قرشيين؛ فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب.

وأُمّها فاطمة بنت زائدة ابن الأصمّ، وتنتهي في نسبها إلي لؤي بن فهر بن غالب، كما وأنّ أمّ فاطمة هالة بنت عبد مناف بن الحارث، وتنتهي أيضاً إلي فهر بن لؤي بن غالب، وبذلك كما يدّعي الأخباريون تكون خديجة قد وُلدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وقد اجتمع لها بالإضافة إلي هذا النسب الرفيع الذكر الطيب والخلق الكريم والصفات الفاضلة، وبلغ من علوّ شأنها أنّها كانت قبل أن تتزوّج بالنبي (صلي الله عليه وآله) تُعرف بالطاهرة وبسيّدة نساء قريش، وهي مع ذلك

من أثرياء قريش

وأوسعهم جاهاً ومفطورة عليّ التدينّ بعامل الوراثة والتربية؛ فأبوها خويلد هو الذي نازع (تبعاً الآخر) حين أراد أن يحمل الحجر الأسود معه إلي اليمن، فتصدّي له، ولم ترهبه قوّته وكثرة أنصاره؛ حرصاً منه عليّ هذا النسك من مناسك دينه.

وابن عمّهما ورقة بن نوفل كان يعكف عليّ دراسة كتب النصارى واليهود ويعمل بما يستحسنه منهما، لا لأنّه كان يعاشر النصارى واليهود، ولا لأنّ مكّة كانت مقرّاً لهما، بل لأنّه كان يسخر من عبادة الأصنام والتماثيل ويبحث عن دين يطمئنّ إليه.

ويحدّث الأخباريون والمؤلّفون في سيرة الرسول أنّ النبي (صلي الله عليه وآله) حينما رأى تبشير النبوة في غار حراء وسمع من يكلمه في الغار وعاد إلي بيته خائفاً غريب النظرات يقصّ عليّ زوجته الوفيّة الصادقة ما رأى وما سمع، أسرع إلي ابن عمّهما لتقصّ عليه ما جرى للنبي (صلي الله عليه وآله)، فبشّرها بمستقبله العظيم الذي سيهزّ العالم بأسره، ويحدّث تحوّلًا في تاريخ البشرية، وبما سيلاقيه من قومه من عنف وجور واضطهاد.

لقد تزوّجت السيّدة خديجة قبل الرسول مرّتين، الزواج الأوّل من أبي هالة النباش بن زرارة، فأولدت منه ولدًا أسمته هنداً، أدرك الإسلام وكان من السابقين إليه، وروي عنه الحسن بن عليّ 7 حديث وصف النبي، وتناقله عنه أكثر الرواة والمحدّثين، وشاع عنه أنّه كان يقول: «أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً».

وقد اشترك مع النبي (صلي الله عليه وآله) في جميع حروبه وغزواته، وكان مخلصاً للدعوة كأمّه، متفانياً في سبيلها إلي أبعد الحدود، ولازم عليّاً بعد وفاة النبي (صلي الله عليه وآله)، وقُتل معه في البصرة.

وبعد وفاة زوجها الأوّل أبي هند، تزوّجت من عتيق بن عايد المخزومي، ورزقت منه بنتاً أسمها هنداً أيضاً، بقيت في أحضان أمّها وأسلمت منذ ظهور الإسلام، وكانت من الصحابيات الكريّمات اللواتي أخلصن للإسلام.

وبعد وفاة زوجها الثاني عتيق بن عايد المخزومي، أعرضت عن الرجال وهي لا تزال في ريعان شبابها، فخطبها أشراف قريش، وقدموا لها العروض المغرية، فلم

تستجيب لأحدٍ منهم، وظلّت تعيش بعيدة عن الرجال ومشاكلهم، طيبة النفس مرتاحة الضمير؛ لأنّ أكثر الخاطبين كانوا يضعون في حسابهم ثروتها الواسعة، حتّى بلغت الأربعين من عمرها.

ويروي المحدثون والمؤلّفون في سيرة الرسول أنّها كانت ترسل في تجارتها إلى الشام جماعة بأجرٍ معيّن، وقبيل زواجها بالنبى أرسلت إليه ليذهب في تجارتها، وبذلت له ضعفي ما كانت تبذله لغيره؛ لأنّه كان حديث الناس رجالاً ونساءً في أمانته وصدقه واستقامته، فوافق علي طلبها بعد أن استشار عمّه أبا طالب، وأرسلت معه غلامها ميسرة لخدمة القافلة ورعايتها، وكانت الرحلة ناجحة وموفّقة نجاحاً لم تصادفه رحلة قبلها، وأسرع ميسرة قبل دخول القافلة مشارف مكّة ليخبرها بما جري وما حدث لمحمّد في طريقه مع بُحيرا وغيره من الأحداث التي لم يجدوا لها نظيراً من قبل.

وبدأت مكّة تسمع ضجيج الركب وهو يقترب منها، فخرج الناس لاستقباله، وامتزج رغاء الإبل بهتاف المستقبلين وضجيجهم، هذا والصدّيقة الكبرى خديجة في دارها تراقب طريق القافلة في لهفة ممزوجة بشيء في نفسها لا تجد له تفسيراً، وإلي جانبها الغلام يملأ أذنيها بنجاح الرحلة وما جري لمحمّد في الطريق من الغرائب.

وفيما هي غارقة في التفكير والتأمّل، وإذا بمحمّد (صلي الله عليه وآله) يدنو من دارها بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة، فاستقبلته مرحبةً بقدمه ومهتّئةً بسلامة العودة، بكلمات تفيض عذوبةً وحناناً، وردّ عليها شاكرّاً لها هذا الموقف، وعاد يقصّ عليها أبناء رحلته وربح تجارتها وما حمله معه من إنتاج بلاد الشام ممّا تقتقر إليه أسواق الحجاز، وأصغت إليه معجبةً بحديثه وبشخصه الكريم الذي وجدت فيه من النبل وكريم الصفات ما لم تجده عند غيره من كهول مكّة وشبابها المترفين، حتّى انتهى وخرج من دارها، وظلّت واقفة تتبعه عيناها إلي أن توارى في منعطف الطريق متّجهاً إلي حيث يقيم عمّه الكفيل أبو طالب، فاستقبله بلهفة وارتياح، وهنّاه بالعودة سالماً لم يمسه مكروه من أعدائه ولا من وعثاء السفر وبُعد المسافة.

وبعد هذه الرحلة الموقفة، يدعي المؤرخون أنّ خديجة التي أكبرت في محمّد نبلة وصدقه وجميع صفاته وما حدّثها به ميسرة من غرائب الأحداث التي حصلت له في طريقه، باتت ليلتها تفكّر في أمره وبما سيكون له من شأن في مستقبله القريب، وعادت تستعرض شمائله وسيرته الطيبة العطرة، وتمنّت لو أنّها تصبح شريكة له فيما بقي من عمرها بعد أن نقضت يديها من الرجال، وراحت تستعرض ما يحول بينها وبين ذلك، وهل يستجيب ابن عبد الله مع شبابه الغضّ وفتوّته الساحرة وصيته الذي ملأ القلوب والأسماع، لعاطفة أرملة كهلة بلغت الأربعين، وهو لا يزال في ريعان شبابه قد انصرف عن عذارى مكّة وزهرات بني هاشم، وما هي بالنسبة إليه إلا كخالة أو أمّ، ولو عاشت آمنة بنت وهب لذلك التاريخ لما تجاوزت سنّ الأربعين، فكيف بها وقد بلغت هذا السنّ وتزوّجت قبله مرّتين.

وفيما هي في تلك الغمرة الهائجة من القلق والصور تتزاحم في نفسها، وإذا بنفسية ابنة منبّه إحدي صديقاتها تدخل عليها زائرة، وعبثاً تحاول خديجة بنت خويلد أن تعود إلي طبيعتها، ولم يغب عن الزائرة ما في نفسها من القلق والاضطراب، فلم تتركها حتّى كشفت لها عمّا في نفسها، فهوتت عليها الأمر، وتعهّدت لها بأن تفتحه في الزواج منها وتعمل علي تحقيق أمنيتها الغالية بكلّ ما أوتيت من خبرة ودهاء.

فقصدته وهو يخلو بنفسه، وابتدأت حديثها معه تسأله عن أسباب عزوفه عن الزواج

وقد تجاوز العشرين من عمره وأصبح في أمس الحاجة إلي امرأة يسكن إليها وتملاً دنياه بهجةً وأنساً، فأمسك عن جوابها، وتراكت في نفسه صور عن مشاكل الزواج ويّتمه وفقره، واستمرّ في صمته وتفكيره، ولكنّها أعادت عليه الحديث لتسمع منه الجواب، وأخرجته في أسلوبها وإلحاحها، فابتسم وقال: واللّه ما بيدي شيء من المال لكي أتزوّج به. وهنا وجدت نفيسة منقداً للمصارحة، فردّت عليه تقول: إذا دُعيت إلي الجمال والشرف والمال والكفاءة، ألا تجيب؟ تلك هي خديجة التي لا يساويها أحد من القرشيات والمكّيات. فرحّب بتلك البادرة وعرضها علي عمّه أبي طالب، فأشرق

لها وجهه وغلبته ابتسامته، واطمأن علي مصير ابن أخيه الذي كان يفكر فيه أكثر من تفكيره بأعزّ أولاده عليه.

وفي فترة قصيرة من الزمن تمّ التفاهم بين الزوجين علي كل شيء، فأسرع إلي بيتها وفي صحبته عمّاه أبو طالب والحزمة، وكان كل شيء مهيباً لهذا الزواج الذي خطّطت له مشيئة الله ليكون عوناً لمحمّد علي أداء الرسالة التي تنتظره بعد سنوات قليلات.

وتمّ الزواج بينهما بعد كلمة قصيرة ألقاها أبو طالب جرياً علي المتعارف في مجلس الخطبة، كما يدّعي ذلك أكثر المؤرّخين والمؤلّفين في سيرة النبي (صلي الله عليه وآله)، كما روي جماعة منهم إلي جانب هذه الرواية الشائعة التي نصّت علي أنّ رحلته في تجارتها إلي الشام وما رافقها من نجاح وأحداث قد مهّدت لهذا الزواج علي النحو الذي صورناه.

إلي جانب ذلك روي جماعة منهم أنّ زواجه منها لم يكن من نتائج رحلته إلي الشام في تجارتها، ولم تكن الوساطة بينهما نفيسة بنت منبّه، بل كان بواسطة أختها هالة وبناءً لطلبها، فقد جاء في تاريخ يعقوبي عن عمّار بن ياسر أنّه قال: «أنا أعلم الناس بزواج خديجة بنت خويلد من رسول الله، لقد كنت صديقاً له، وإنا لنمشي يوماً بين الصفا والمروة، وإذا بخديجة وأختها هالة معها، فلما رأّت رسول الله جاءني أختها هالة وقالت: يا عمّار، ما لصاحبك رغبة في خديجة؟ فقلت لها: والله لا أدري. فرجعت إليه وذكرته ذلك

له، فقال لي: ارجع فواضعها وعدها يوماً نأيتها فيه، فلما كان ذلك اليوم أرسلت إلي عمّاه عمرو بن أسد، ودهنت لحيته وألقت عليه حبراً، ثمّ حضر رسول الله في نفر من أعمامه يتقدّمهم أبو طالب، فخطب في الحاضرين وتمّ الزواج بينهما».

وأضاف عمّار بن ياسر إلي ذلك أنّها لم تستأجره في تجارتها ولم يكن أجيراً لأحد أبداً، كما أورد حديث زواجه منها علي هذا النحو ابن كثير في تاريخه بعد أن أورد الصورة الأولى الشائعة بين المحدثين.

وجاء في تاريخ أبي الفداء أنّه بعد أن رجع من الشام وحدثها ميسرة بما حدث له في طريقه، تعرّضت له مباشرة وخطبته لنفسها، وتمّ الزواج بينهما علي عشرين بكرةً.

وقد عرضتُ في كتابي سيرة المصطفى مراحل حياة النبي منذ طفولته إلى زواجه من خديجة، والمرويات التي تحدّثت عن زواجه، ورجّحتُ رواية عمّار بن ياسر، وذكرتُ الأسباب التي أراها مرجّحة لها.

ومهما كانت الأسباب والملابس التي اقترنت بهذا الزواج، فمما لاشكّ فيه بأنّ زواجهما كان بناءً لطلبها ورغبتها بعد أن ردّت عن بابها الخطّاب من سادة قريش وأشرف مكّة، كما وأنّ محمّداً كان له من شبابه وفتوّته وشمائله وصفاته الكريمة التي عُرف بها في مكّة وجوارها، ما يوفّر له الزواج من أيّ فتاة أرادها من عذاري مكّة وزهراء بني هاشم، ولكنّ مشيئة الله سبحانه قد هيأت لهذا الزواج الذي لم تشهد مكّة زوجين ينعمان بحياتهما الزوجية ويرتشفان علي مهل رحيق ودّ صاف سيظلّ حديث الزمان، وظلاً خمسة عشر عاماً ناعمين بالألفة والاستقرار، وأتمّ الله عليهما نعمته بالبنين والبنات، كانت آخرهم الزهراء سيّدة نساء العالمين.

قال الأستاذ كتّاني في كتابه الزهراء: إنّ خمساً وعشرين سنة كانت مليئة بالحبّ والتفاني ذابت خديجة في حبّها لزوجها، وأخذت منه كلّ ما أعطها، وأعطته كلّ ما أخذ منها، لقد كان الأخذ والعطاء بنسبة واحدة بدون أيّ شعور من الطرفين بأنّ الأخذ

هو غير العطاء، أو أنّ العطاء هو غير الأخذ.

ومضى يقول: لقد أعطته خديجة زوجها حبّاً وهي لا تشعر بأنّها تُعطي، بل تأخذ منه هداية تفوق كنوز الأرض، وهو بدوره أعطها حبّاً وتقديراً رفعها إلى أعلي مرتبة، وهو لا يشعر بأنّه قد أعطها، بل قال: «ما قام الإسلام إلّا بسيف عليّ ومال خديجة»، وأعطها مع ذلك عمره وزهرة شبابه، ولم يتزوج بغيرها حتّى غابت عن الوجود وهو لا يشعر بأنّه أعطها، وكان يقول: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كذّبي الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس».

بعد خمسة عشر عاماً من تاريخ زواجهما الفريد من نوعه والذي كان وسيظلّ حديث الناس؛ لأنّه كان سخياً في البذل والعطاء والصبر والتضحيات في سبيل المبدأ

والعقيدة في أحلك الساعات وأقسي المراحل التي لا يقوي علي تحمّلها إنسان.

بعد هذه الأعوام التي أطلّ بعدها الزوج العظيم علي الأربعين، استقبل الزوجان ذلك الحدث الخطير لا في حياة تلك الأسرة الوادعة فحسب ولا في حياة قريش والعرب وحدهم، بل في حياة الإنسانية جمعاء، فقد تلقى الزوج العظيم رسالة السماء إيداناً بحياة جديدة شاقّة مليئة بالاضطهاد والمتاعب والنضال المرير.

وفي الحقّ أنّ ذلك الحادث الذي نريد أن نمرّ عليه مروراً خاطفاً لنشير إلي دور تلك الزوجة الفاضلة فيه، هذا الحادث لم يكن مفاجئاً لمحمّد بن عبد الله بكلّ ما في هذه الكلمة من معني، ولم يكن يستبعد أن ينتهي إلي شيء من تأملاته العميقة وتفكيره الطويل في خلواته بنفسه بعيداً عن الناس، ليجد المناخ الملائم للتفكير والتأمّل في الكون وتقلّباته وما فيه من الكائنات، ويستشفّ أدقّ ما فيه من أسرار ليلمح من ورائها قوّة عظمي خفية تدبّر وفق نظام دقيق ونواميس منتظمة متناسقة: (لَا الشَّمْسُ

يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (1).

وهو مع ذلك يستخفّ بقومه ويستبشع منهم تقديس تلك الأصنام التي كدّسوها حول الكعبة وقدّموا لها القرابين، وعبدوها من دون الله وهي لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنه سوءاً.

لقد كانت مواقفه تلك توحى إليه أنّه سيتهيء إلي شيء، ويحسّ من خلالها أنّه سيدنو من الحقيقة الكبرى، وسيتجلّي له السرّ الأعظم. وظلّ يتابع مواقفه هذه وقد أشرف علي الأربعين من عمره، وألف الخلوة في غار حراء واستطابها، وما كانت خديجة وقد قاربت السنين من عمرها لتضيق بهذه الخلوات التي تحول بينها وبينه في أكثر الأحيان، أو تحاول أن تعكّر عليه صفو تأملاته، بل كانت تحوطه بالرعاية والهدوء ما دام في بيتها، فإذا انطلق إلي حراء ظلّت عيناها تشخص إليه ولا تفكّر بشيء سواه، وترسل إليه من يحرسه ويرعاه، ولو من بعيد بدون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد عليه وحدته.

ص: 101

1- . يس: 41.

وهكذا كان يبدو علي الزوج العظيم وكأنه مهيباً لاستقبال تلك الرسالة، ولكنه بالرغم من ذلك فما جاءه الوحي وهو معتكف في الغار حتّى انطلق يلتمس بيته مع ظلمة الفجر مرتعد الأوصال، حتّى بلغ حجرة زوجته الوفية الصادقة، فأحسّ وكأنه قد بلغ مأمنه، وجلس إلي جانبها يحدثها بكلّ ما جري وما حدث معه في الغار، وقد بدأ عليه الإجهاد، فأقبلت عليه بلهفة الأمّ الرؤوف، وهتفت به في ثقة ويقين قائلة: «أبشر يا ابن العمّ، وثق بأنّ الله لا يخذلك أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلّ وتُفري الضيف وتُعين علي نوائب الدهر»، وما زالت به حتّى هدأ روعه وأحسّ بالراحة والطمأنينة، وهي تهبّي له فراشه وتأخذ بيده إليه كما تفعل أمّ بطفلها الوحيد.

وما زالت به حتّى اطمأنّ إلي النوم وغرق فيه، فانسلّت من الحجرة ثقيلة الخطأ،

حتّى إذا بلغت الطريق اندفعت تجري نحو ابن عمّها ورقة بن نوفل ومكّة لا تزال تنعم بغفوة الصبح، وقد بدأت تبشير الفجر تسير علي مهل نحو النهار. وجاءت ابن عمّها فأقعدته من فراشه وقد ظهر عليه الإعياء من آثار الشيخوخة، فأخذت تحدّثه وهو يصغي إلي ما تحدّث به من أنباء محمّد وما جري له في الغار، فاستعاد نشاطه وأشرقت أساريه لحديثها، وانتفض يقول: «قدّوس قدّوس، والذي نفس ورقة بيده، لنن صدّقتي يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسي وعيسي بن مريم، وأنّه لنبيّ هذه الأمة، قولي له فليثبت وليكن علي يقين من أمره».

فانطلقت نحو بيتها بسرعة من غير أن تنتظر منه المزيد من البيان، مطمئنّة وكأنّها تأخذ من وحي السماء، انطلقت لتزفّ إليه البشري بالنبوة التي كان يترقّب ظهورها في شبه الجزيرة ابن عمّها ورقة وعمرو بن نفيل، وغيرهما من المتألّهين والكهنة والرهبان، فإذا به لا يزال نائماً كما تركته، فوقفت إلي جنبه ووجهها يطفح بالبشر، وغابت عنها جميع الهواجس التي مرّت بخيالها حينما رأته بعد رجوعه من الغار خائفاً شاحب اللون.

وعزّ عليها أن توقظه من نومه، وظلّت واقفة إلي جانبه تنظر إليه بلهفة وحنان، وفيما هي غارقة في التفكير بمستقبله السعيد، وإذا به ينتفض في فراشه ويثقل تنفّسه ويتقاطر العرق

من جبهته، واستمرّ علي ذلك فترة من الوقت قبل أن يعود إلي حالته الطبيعية وكأنه يستمع إلي محدّث، كلّ ذلك والصدّيقة الكبرى تنظر إليه وقد عاودها القلق لحاله.

وانتبه بعد أن سرى عنه الوحي يتلو ما أوحى إليه: (يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ... فَمُ فَانذِرْ) (1)، ونظر إليها ملياً بنظرة تفيض بالشكر والامتنان، وقد بدا عليها القلق لحاله، فرغبت إليه أن يستمرّ في نومه، فقال لها: «لقد انتهي يا خديجة عهد النوم والراحة، هذا الأمين جبرئيل يأمرني أن أنذر الناس وأدعوهم إلي الله وعبادته، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب لدعائي؟»

فمضت به من ساعته إلي عمّها ورقة بن نوفل لتقصّ عليه ما جرى له، ولم يكد يراه حتّي صاح: «والذي نفسي بيده إنك لنبيّ هذه الأمة، ولتُكذّبن ولتُؤذبن ولتُخرجن وتُقاتلن، ولن أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله فيك». ثمّ دنا منه وقبّل يافوخه، فقال له النبي: «أو مخرجي هم؟» فقال له: «نعم، لم يأت رجلٌ بمثل ما جئت به إلا عودي، ليتني أكون جذعاً، ليتني أكون فيها حياً».

فطابت نفس النبي (صلي الله عليه وآله) بما سمع، وآب إلي بيته ليبدأ نضاله في سبيل الدعوة مهما كلفه ذلك من جهد وتضحيات، وهو يعلم أنّ قريش لا تتنازل عن كبريائها وجبروتها، وهي ترى أنّ محمّداً يسخر من الأصنام والأوثان التي وجدوا آباءهم لها عابدين من عشرات السنين، ويدعو إلي إله واحد لا شريك له ولا نظير، وإلي تحرير العبيد والمستضعفين من تسلّط السادة والمترفين.

ووقفت زوجته إلي جانبه من اللحظات الأولى، بنفسها ومالها وجاهاها، تنصره وتشدّ أزره، وتشاركه كلّ أنواع الأذى والاضطهاد والحرمان في جميع المراحل التي مرّ بها، كما اتّفق علي ذلك جميع المؤرّخين والمحدّثين.

ولمّا اتّفتت قريش علي مقاطعة الهاشميين والتصنيق عليهم وحرمانهم حتّي من ضرورات العيش، وأخرجتهم من مكّة إلي شعب أبي طالب وضيق عليهم الحصار حتّي يموتوا جوعاً أو يعودوا إلي قريش وآلهاها، لما اتّفتت قريش علي ذلك ونفذت

ص: 103

بنود الاتفاق، لم تتردد السيدة الجليلة في الخروج مع زوجها العظيم، وتخلت عن دارها ومالها تاركة كل ذلك بنفس طيبة مطمئنة بحسن المصير، وأن الفوز في النهاية سيكون للمؤمنين بحقهم والصابرين علي الأذي في سبيل الله.

وأقامت معه في الحصار نحواً من ثلاث سنوات، تشاركه أهوال الحصار ومرارة الجوع والحرمان، وقد أشرفت علي الشيخوخة المضنية تكافح الوهن الذي أخذ طريقه إلي جسمها وقد تخطت الستين، وظلت إلي جانب محمد(صلي الله عليه و

آله) والمحاصرين معه من القلّة المؤمنة التي صبرت علي كل أنواع الضيم وعلي صراخ الأطفال من الجوع والحرمان، وتحدثت قريشاً وغطرستها وعددها وعدتها.

وكان من المحكوم علي تخطيط قريش أن يفشل كما فشلت في التدابير التي اتخذتها من قبل، فدب الخلاف بين الذين تعاقدا علي الحصار، وأرسل الله الأرضة لتأكل الصحيفة ما عدا لفظ الجلالة، وأتفق جماعة من وجوه المكّيين علي رفع الحصار وإفساح المجال للهاشميين ليرجعوا إلي بيوتهم، وعادت قريش تجرّ من ورائها الخزي والعار والخذلان.

وتعاضم أمر النبي(صلي الله عليه و آله)، واتخذت دعوته طابعاً جديداً بعد فشل محاولات قريش وخذلانها. وشاءت الأقدار والدعوة في عامها العاشر أن يفقد النبي عمّه أبا طالب، أقوى أنصار الدعوة وأصلبهم عوداً في وجه محاولات قريش وأتباعها، وبعده بأيّام أو شهور حسب اختلاف الروايات فقد شريكته في الجهاد والبذل والتضحيات التي صدّقه وأمنت به منذ أن قصّ عليها حديث الوحي، وبذلت في سبيله كل مالها وراحتها، وظلّت تبذل وتعطيه ممّا تملك من إمكانياتها حتّي النفس الأخير، فعزّ ذلك علي النبي(صلي الله عليه و آله)، وتلّفت إلي مكّة فوجدها موحشة من عمّه المحامي والكفيل، وإلي داره فوجدها خالية موحشة من شريكته في البذل والعطاء والتضحيات.

واشتدّت قريش عليه في ذلك العام الذي سمّاه عام الأحزان، وظنّت قريش بأنّ الظلمات قد تكاثفت من حوله وأنّ آماله وأمانيه قد تحوّلت إلي يأس وخيبة، ولكن

سرعان ما تبددت أمانهم وخابت ظنونهم، وبدا محمد (صلي الله عليه وآله) ومن معه من المسلمين أشدّ ثباتاً وأكثر تصميمياً وأمضى عزيمةً من ذي قبل، يفتدون الدعوة بالمُهَج والأرواح، ويرون الاستشهاد في سبيلها مجداً وانتصاراً.

لم يمت أبو طالب وخديجة إلا بعد أن مرّت الدعوة بمراحل واسعة، وتخطّت مكّة

وجوارها إلي جميع أطراف الحجاز وإلي ما وراءها من البلاد المتاخمة لحدوده، وأصبحت حديث الناس في كلّ بقعة ومكان، وحملتها فئة من صحابته عبر البحار إلي الحبشة، تاركين أهلهم وديارهم ليعرضوا علي الدنيا صوراً من الإيمان والبطولات والتضحيات التي برزت في حياة محمد وصحبه الأكرمين، ليجمع الناس كلهم علي صعيد الإيمان بالواحد الأحد والمحبة والعمل لخير الناس أجمعين.

لقد ماتت خديجة وغابت عن دنيا الناس، ولكنها ظلّت ماثلة بين عيني زوجها العظيم الوفي، ودخلت في حياته من بعدها نساء عديدات حسبما يحدثت بذلك التاريخ، ولكن مكانها من قلبه وفي دنياه ظلّ خالياً لم تشغله امرأة غيرها، ولم تستطع واحدة منهنّ أن تحتلّ مكانها وأن تفلح في إبعاد طيفها من قلبه ونفسه، الذي كان يتبعه حيث يسير.

وشهد بيته عائشة بنت أبي بكر وهي في مطلع صباها ونصرة شبابها، تستبدّ بها الغيرة من خديجة التي سبقتها إلي قلبه؛ لأنّه ظلّ يردّد اسمها ووفاءها في كلّ صباح ومساء.

لقد وفدت علي المدينة أختها هالة، فما أن سمع محمد صوتها حتّي تذكّر صوت أختها الراحلة، فخفق لها قلبه وصاح: «مرحباً بك يا هالة»، فلم تملك عائشة نفسها حتّي هتفت به تقول: «ما زلت تذكر بحسرة وألم عجوزاً من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت من عدّة سنين، وقد أبدلك الله خيراً منها»⁽¹⁾.

ومع أنّه كان واسع الصدر صبوراً علي الأذي لا ينفعل لكلمات عابرة من هذا النوع، بدا عليه الانفعال وتغيّر لونه، والتفت إليها وقد استولي عليه الغضب وقال: «والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنّت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، وواستني

ص: 105

بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء»(1).

فأمسكت عائشة عن الكلام وهي تقول: «والله لا أذكرها بعد اليوم».

ولكنها الغيرة كانت تستبدّ بها في أكثر الأحيان، فلا تملك نفسها إذا ذكرها النبي (صلي الله عليه وآله) لمناسبة من المناسبات وما أكثر المناسبات التي كانت تذكره بها، فلا تملك نفسها أن تنال منها وتقول: «كأن لم يكن في الدنيا غيرها»، وعندما يسمع منها ذلك يأخذ في تعداد محاسنها ومواساتها له وبذلها السخي في سبيل الله والإسلام.

ويحدّث الرواة عنه أنه كان إذا ذبح شاة يقول: «ارسلوا إلي أصدقاء خديجة»، فيورّع عليهم منها، فإذا عاتبته عائشة علي ذلك يقول: «والله إنّي لأحبّ من كان يحبّها»(2).

وجاء عن عائشة أنّها قالت في أكثر من مناسبة: «ما حسدتُ أحداً كما حسدتُ خديجة، وما تزوّجني رسول الله إلا بعد أن ماتت». وأحياناً تقول: «ما غرتُ من امرأة لرسول الله كما غرت من خديجة حينما كنت أسمع رسول الله يذكرها، وما تزوّجني إلا بعد موتها بثلاث سنين».

وحثّي يوم الفتح وقد مضى علي وفاتها أكثر من عشر سنين حافلة بالأحداث، نري رسول الله وقد دخل مكة يختار مكاناً لينزل فيه قريباً من قبرها، في قبة بُنيت له إلي جوار القبر؛ ليشرف منها علي فتح مكة، كما جاء في حوادث السنة الثامنة في المجلد الثالث من تاريخ الطبري.

وستدخل في الإسلام بعد خديجة مئات الملايين من النساء، ولكنها ستبقي وحدها من تلك الملايين المسلمة الأولى التي آثرها الله بالدور العظيم في بناء الإسلام، رمزاً للوفاء والمحبة، والإيثار لزوجها الذي كانت أوّل من صدّقه وآمن به وبذلت له راحتها ومالها وهان عليها كلّ شيء في

سبيله.

وجاء في سيرة ابن إسحاق أنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) كان لا يسمع شيئاً يكرهه ويحزنه إلا فرّجه الله عنه بخديجة، تثبته وتخفف عنه وتهوّن عليه أمر الناس،

حتّي فارقت الدنيا.

ص: 106

1- المصدرين السابقين والاستيعاب لابن عبد البرّ.

2- نفس المصادر.

1. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبرّ النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ.

2. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968 م.

3. السمط الثمين في مناقب أمّهات المؤمنين، محبّ الدين أحمد بن عبدالله الطبري (ت694هـ)، تحقيق: محمد علي قطب، القاهرة: دار الحديث، 1408هـ.

ملخص البحث:

يرسم هذا البحث الواقع الذي كانت تعيشه جزيرة العرب في القرن السادس الميلادي، حيث أخذت تتهيأ للأحداث الجسام التي تمخض عنها القرن الذي تلاه. وقد بدأ ذلك التهيؤ في جميع مناحي الحياة العربية العامة، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية، وما يهمننا هنا الناحية الاجتماعية فيه، ويهمننا منها بصفة خاصة نظام الأسرة، فقد كان نظام الأسرة آخذاً بالتحوّل في حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة، إلي النحو الذي أقرّه بجملته الإسلام فيما بعد؛ فأخذت تتلاشي ضروب الازدواج القديمة التي اعتبرها الإسلام سفاحاً، ويحلّ محلّها نظام الزواج القائم علي التراضي والتعاقد. ورافق هذا التطور الخطير في بناء الأسرة، تطور خطير مثله في مكانة المرأة الاجتماعية، فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حقّ التملك ولا حقّ الإرث، بل بعد أن كانت هي نفسها تملك وتورث في بعض الحالات، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف في مالها، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم، هذه الحرّية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملاً فعالاً في الحياة المكيّة العامة قبيل ظهور الإسلام وفي عصر النبوة. ثمّ يستغرق هذا البحث في بيان صفات أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، فيقول:

إنّها كانت تتّصف بمناقب المرأة الكاملة، من جمال وطهر وعفاف وزوجية بارّة وأمومة صحيحة، ومواساة في أشرف معانيها، كما إنّها ورثت عن أبيها مزايا

السؤدد العربي، كالنبل وكرم الخلق والوفاء والشجاعة، كما لقفت عن عمومته تلك الاستنارة العقلية، وذلك السموّ الروحاني الذي أعدّها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر. ويسرد بأسلوب أدبي ما جاء من أخبارها في كتب التاريخ والسير. وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفيّة بزوجها، فإنّها كانت مثال الأمّ المعنية بأولادها، لقد رُزق محمّد منها كلّ أولاده غير إبراهيم؛ رُزق منها القاسم وبه كان يُكنّى، ثمّ ولدت له زينب ورقية وفاطمة وأمّ كلثوم، وكلّ هؤلاء وُلدوا قبل النبوة، ثمّ أنجبت له في الإسلام عبد الله الذي عُرف بالطيّب والطاهر، ومات الغلامان في صغرهما. وقد كان فضل خديجة الأكبر وفخرها الخالد خلود الزمن يتمثّل هو في موقفها من زوجها عندما نُبئ، ومن الدعوة الإسلامية التي أخذ يدعو إليها بعد خمس عشرة سنة من زواجه منها. ويمكن القول بايجاز إنّها سيرة أول امرأة وخير امرأة مسلمة يعرف فيها القارئ المثل الأعلى للمرأة كزوجة وأمّ، وعون علي جلائل الأمور، في غير خروج علي طبيعة الجنس ومواضع الناس منذ صار الإنسان إنساناً. الأسلوب الذي اتّبعه البحث هو الأسلوب المكتبي التوثيقي المقرون بسرد أدبي.

كم يودّ صاحب هذا المقال لو كان شاعراً وثّاب الخيال، مطلق العاطفة، جزل الألفاظ، سري المعاني، إذاً لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد قصيدة عصماء يضمّنّها مناقب تلك السيّدة الجليلة، وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال وطهر وعفاف وزوجية بارّة وأمومة صحيحة، ومواساة في أشرف معانيها، ولكنّ صاحب هذا المقال واأسفاه! ليس شيئاً من ذلك الشاعر الذي يتمنّى أن يكونه، إن هو إلا مؤرّخ يعرض لوقائع الحياة العامّة من ناحيتها الوضعية جهد طاقته، ويشدّ خياله الراكد إلى تلك الوقائع، فلا يأذن له ولا بمحاولة التطاير والتحليق، ويكتم عاطفته حتّى لا يطغي عليه سلطانها فيتكبّب سبيل المؤرّخ الذي همّه البحث والتحقيق، ثمّ العرض البسيط للأشياء، فليقع القارئ الكريم بالصورة المجملّة التي

أرسمها في هذا المقال، حتّى يتأذّن الله بظهور شاعر عظيم ينظم الألياذة العربية، فيطالع فيها إذ ذاك فصلاً عن تلك السيّدة يكون من أبلغ ما خطّه يراع شاعر وأروعه.

كانت جزيرة العرب في القرن السادس الميلادي قد أخذت تنهياً للأحداث الجسام التي تمخّض عنها القرن السابع، وقد بدأ ذلك التهيؤ في جميع مناحي الحياة العربية العامّة، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية، ونحن إنّما تهّمنا في هذا المقام الناحية الاجتماعية، وبهّمنا منها بصفة خاصّة نظام الأسرة، كان نظام الأسرة قد أخذ يتحوّل في حواضر الحجاز عامّة ومكّة خاصّة إلى النحو الذي أقرّه في جملته الإسلام فيما بعد، فأخذت تتلاشي ضروب الازدواج القديمة التي اعتبرها الإسلام سفاحاً، ويحلّ محلّها نظام الزواج القائم على التراضي والتعاقد.

وصاحب هذا التطوّر الخطير في بناء الأسرة، تطوّر خطير مثله في مكانة المرأة الاجتماعية، فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حقّ التملّك ولا حقّ الإرث، بل بعد أن كانت هي نفسها تملك وتورث في بعض الحالات أصبحت تستمتع بحقّ الملكية وحقّ الميراث وحقّ التصرف في مالها، وحقّ مفارقة الزوج عند اللزوم، هذه الحرّية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملاً فعّالاً في الحياة المكّية العامّة قبيل الإسلام وفي عصر النبوة.

ولدت خديجة بمكّة حوالي منتصف القرن السادس المذكور، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن العزّي بن قصي، وكان خويلد ممّن قاد قريشاً في حرب الفجار، ثمّ هي ابنة فاطمة بنت زائدة ابن الأصمّ من بني عامر بن لؤي، ولا نعرف عن فاطمة شيئاً غير أنّ الذهبي يقول في جدّها عمرو بن خنثر المزني أنّه كان من أبطال الجاهلية، فنسب خديجة لأبيها وأمّها يدلّ علي أنّها تنتمي إلى بيت من أعزّ بيوت قريش، وهو بيت عبد العزّي بن قصي، وإلى قبيلة من أعزّ قبائل مضر هي عامر بن لؤي.

واكتنفت عمود هذا النسب الجليل فروع وحواش زاهية زاهرة نعدّ منها عمّ خديجة عمرو بن أسد، وكان سيّداً من سادات قريش، وأبناء عمومتها حكيم بن حزام، وورقة بن نوفل، وأخته قتيلة بنت نوفل؛ فأما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلّي في صنيعه لبني هاشم والمطلب عندما حصرتهم قريش في الشّعب، وأمّا ورقة بن نوفل فكان معدوداً في تلك العصبة المستنيرة التي يعرف أحادها باسم «المتحقّفين» قد ترك الوثنية وتنصّر وقرأ التوراة والإنجيل وكتب العبرانية، وشاركته أخته قتيلة في ميوله الأدبية والدينية، فكانت «ممن ينظر في الكتب»، علي حدّ تعبير القدماء.

ومن هذه الفروع أخو خديجة العوامّ بن خويلد، وكان من رجال قريش، وهو والد الزبير بن العوامّ حواري رسول الله.

فخديجة من أوسط نساء قريش نسباً، كما يقول مؤرّخو العرب، وإذا جاز للمؤرّخ أن يلحظ عمل الوراثة في هذا المقام، فإننا نقول: إنّها ورثت عن أبيها مزايا السؤدد العربي، من نبيل وكرم خلق ووفاء وشجاعة، كما لقفت عن عمومته تلك الاستنارة العقلية، وذلك السموّ الروحاني الذي أعدّها لتقدير الدعوة الإسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر.

تزوّجت خديجة مرّتين في مستقبل حياتها وقبل تزوّجها من محمّد بن عبد الله؛ تزوّجت للمرّة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم، ثمّ مات عنها عتيق فتزوّجت بعده أبا هالة هند بن زرارة التميمي، ثمّ توفي أبو هالة فغدت أيماءً، وقد ورثت علي ما يظهر عن أبيها وزوجيها ميراثاً فيما رأت أن تقوم علي استغلاله في التجارة التي كانت مرتزق قريش في ذلك الزمان، فكانت كما يحدثنا الرواة تستأجر الرجال في الاتّجار لها بمالها لقاء نصيب تهبه لهم من الربح.

لكنّ خديجة الحسيبة النسبية الثرية الوسيمة لم تزل بعد نصفاً في النساء عواناً بين

الشباب والكهولة، قد شارفت الأربعين ولمّا تعدّها، وهي سنّ لها عند بعض النساء

جمال وروعة وملاحة وأخذه، وكان غير واحد من كبار قريش حريصاً علي خطبتها، ولكنّ خديجة كانت تتأبي علي الخطاب، لا رغبة منها في العزوبة، فهي أعمر قلباً وأنضر شباباً من أن ترغب فيها، ولكن لأنّ الأيدي التي كانت تمتدّ لخطبتها ليست من الطراز الذي يعجبها، لقد نضج عقلها وكبر قلبها وأصبح كلّ منهما ينشد الكفاء والمثيل، ومن لها بالعقل الراجح والقلب الكبير في مجتمع خشن كثيف غليظ؟ أصبحت لا يروقها ذلك السؤدد العربي الجاهلي بما ينطوي عليه في واقع الأمر من بداوة وأعرابية، لا يمكن أن تفيء منهما إلي ظليل.

وبينا خديجة تروّض النفس علي احتمال الحياة الجديدة، إذا بقلبها قد أخذت تنطبع عليه شيئاً فشيئاً صورة نجم شارق في أفق المجتمع المكّي، ويوشك أن ينكشف عن كوكب وقّاد يملأ الكون نوراً هادياً، وحرارة تبعث فيه الحياة قوية بعد أن لم يبق له منها إلاّ الدماء، ولقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة لا من الوهم ولا الخيال، إنّها كانت صورة فتية لا يزال مغموراً، ولكن كلّ مخايله كانت تؤذن في نظر خديجة بأنّه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجّهه وجهة جديدة، ذلك الفتية هو محمّد بن عبد الله.

كان محمّد إذ ذاك شاباً قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره، سويّ الخلقة مشرق الطلعة نبيل المظهر كريم المخبر، وكان يحيا حياة لعلّه لم يكن يحياها بمكّة أحد غيره، كان زاهداً في الناس، عزوفاً عنهم، إلاّ ما اقتضته ضرورة المعاشة والمساكنة، نزوعاً إلي التفكير، محبباً للعزلة، قاذعاً للشهوة رادعاً للنفس، فأوشك بذلك أن يستغني بنفسه عن غيره، وغداً أنه في وحشته وانبساطه في انقباضه، وغناه في إقلاله، قد حدّ ما بينه وبين الناس بحدّ واضح المعالم، ثمّ لم يأذن لعلاقته بهم أن يتجاوز هذا الحدّ فتغص عليه نعمة باله، وتفسد عليه هدوء سريره.

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقاناً شديداً عندما كانت تلمح هذا الفتية العجيب يروح

لطيّته ويغدو في طرق مكّة وأسواقها وأنديتها، وأدركت من فورها أنّها حاجة قلبها ومهوي فؤادها، ولكن كيف تقضي إليه بدخيلة نفسها، وتبّته لاعج حبّها؟ إنّ الحبّ والنسب والخفر

والحياء، كل ذلك كان يمنعها أن تكون هي التي تخطو في الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى، لقد كان الموقف دقيقاً كل الدقة حرجاً كل الحرج.

فلتسر في الأمر بحذر واحتياط محافظة علي نسبها وحسبها وتوفيراً لخبرها وقنية لحيائها.

إنها كانت تستأجر الرجال في الاتجار لها بمالها وتساهمهم بنصيب مسمي من الربح، فلم لا تستأجر محمداً وتضاعف له الجعل الذي كانت تجعله لغيره؟ وأنشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال، فوسّطت إلي محمداً من عرض عليه رغبتها، فقبل محمداً ما عرض عليه، وسافر إلي الشام في صيف عام (594) متجراً في مال السيدة، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينهي إلي السيدة عند عودته جملة حاله في السفر، فتلمّ بجملة حاله في السفر والحضر.

وباع محمداً واشتري، ولقي الرهبان ببادية الشام، وتحدّث إليهم وتحدّثوا إليه، ثم عاد وقد ربحت التجارة ربحاً وفيراً، وقصّ ميسرة علي السيدة ما رأي من محمداً في السفر من رقة الشئام وسهولة الخلق وصدق المعاملة، فعلمت السيدة عند ذلك أنّ قلبها لم يكذبها، فقطعت كل تردّد وأجمعت أن تخطو هي الخطوة الأولى وتقول هي الكلمة الأولى، وكانت لها صديقة تثقّ بها اسمها نفيسة بنت منية، فدسّتها إلي محمداً لتلّوَح له بالأمر وتعلم رأيه فيه:

نفيسة: يا محمداً، ما يمنعك أن تزوّج؟

محمداً: ما بيدي ما أتزوّج به.

نفيسة: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلي الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

محمداً: فمن هي؟

نفيسة: خديجة.

محمداً: وكيف لي بذلك؟

نفيسة: عليّ.

محمداً: فأنا أفعل.

ص: 113

لاشك أن محمداً لم يقل مقالته الأخيرة إلا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوه، وبعد أن أصبح يبادلها عطفاً بعطف وتقديراً بتقدير. نعم، إنها أسنّ منه، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلي محاسنها وفضائلها الكثيرة التي جعلته يري فيها رغبة نفسه وطلبة قلبه، وعرض محمّد الأمر علي عمومته كما عرضته خديجة علي عمّها، فكلّ وافق. وبني محمّد بها بعد أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون.

كان هذا الزواج لمحمّد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأروعها وأهنئها، ولم لا تكون كذلك؟ وكانت تقوم علي الكثير المتبادل من الحبّ والإخلاص والتقدير. كانت خديجة تقدّر في محمّد كرم الخلق ورقّة القلب وروحانية النفس، وكان هو يقدرّ فيها رجاحة العقل وكثرة العطف عليه والإعجاب به، والتوقير لأسباب راحته في منزله، ومطابقتها فيما يحبّ وما لا يحبّ.

ولا- ننسي أن محمداً لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق، فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه، ليس كلّ الطعام يطعم، ولا كلّ الشراب يشرب، ولا كلّ الملابس يلبس، ولا بكلّ الزينة يزدان، ثمّ هو ميّال بطبعه إلي العزلة، مؤثّر للصمت مطيل للفكر فعلي جلسه وعشيرته أن يعرف فيه كلّ ذلك ويرعاه له، وقد عرفت خديجة ذلك ورعته له أتمّ رعاية، فلا شكّ أنّها كانت تعدّ له ما يستطيعه من الدباء والعسل والتمر المنقوع في اللبن أو المخلوط بالقشّاء أحياناً، ولاشكّ أنّها كانت تقلّ في طعامه من البصل والثوم اللذين كانت تعاف كثرتهما نفسه، كما كانت تغني بنظافة ثيابه وأدوات طيبه

وإدائه، فقد كان محمّد يحبّ أن يبرز للناس عطر الجسم نظيف الملابس، ولاشكّ أنّها كان توفّر له الهدوء في المنزل، وإذا جنح إلي الخلوة أو التحدّث في الغار لم تقطع عليه سكونه، بل أعانته علي ذلك بأعداد الزاد الذي يحتاج إليه، فإذا طالت غيبته افتقدته في غير إعاج له، ولا تكدير لصفو نفسه.

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفوية بزوجها، فإنّها كانت مثال الأمّ المعنية

بأولادها، لقد رُزق محمّد منها كلّ أولاده غير إبراهيم؛ رُزق منها القاسم وبه كان يُكنّى، ثمّ وُلدت له زينب ورقية وفاطمة وأمّ كلثوم، وكلّ هؤلاء وُلدوا قبل النبوة، ثمّ وُلد له في الإسلام عبد الله الذي عُرف بالطيّب والطاهر، وقد مات الغلامان صغيرين.

أمّا البنات فكلهنّ أدركن الإسلام وتزوّجن وهاجرن، وقد انضمّ إلي هؤلاء علي بن أبي طالب، ضمّه النبي إلي أولاده تخفيفاً عن عمّه أبي طالب الذي كان فقيراً كثير العيال، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتشنهم، غير أنّ ما ورد من الأخبار علي قلته لا يخلو من الفائدة فيما نحن بصدده.

روي ابن سعد عن الواقدي قال: «وكانت سلمي مولاة صافية بنت عبد المطلب تقبل خديجة في ولادها، وكانت تعقّ عن كلّ غلام بشاتين، وعن الجارية بشاة، وكان بين كلّ ولد لها سنة، وكانت تسترضع لهم، وتعدّ ذلك قبل ولادها».

وكما كانت خديجة تعني بولادة أولادها ورضاعتهم وتشنهم، فقد كانت تتخيّر الأزواج لبناتها، فهي التي أشارت علي النبي بأن يزوّج سعد بن الربيع من بنتها زينب، فلمّا رُقت إليه أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن بعد سيرد ذكره.

ثمّ إنّ كلّ من أصهر إلي محمّد سعد بزواجه، فسعد بن الربيع أبي أن يفارق زينب عندما أرادت قريش حمله علي طلاقها نكايّة في محمّد، مع أنّ سعداً لم يكن قد أسلم بعد، وقد تزوّج عثمان بن عفّان رقية، فلمّا توفيت وراه النبي حزيناً مهموماً لهفان زوجه أختها أمّ كلثوم، وكانت فاطمة عند زوجها علي بن أبي طالب بالمحلّ الرفيع والمكان الممتاز.

لكن فضل خديجة الأكبر وفخرها الخالد خلود الزمن إنّما هو في موقفها من زوجها عندما تُبّي، ومن الدعوة الإسلامية التي أخذ يدعو إليها بعد خمس عشرة سنة من زواجه منها.

لقد أصبح محمّد بعد تزوّجه من خديجة هادئ السرب ناعم البال، وأصبح له منزل وأهل يسكن إليهما، فانصرف إلي ما كانت تصبو إليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر،

فكانت خديجة تعينه علي ذلك دون أن تري في مسلكه بأساً.

فلما فاجأ الوحي محمداً وأصابه ما أصابه أول الأمر من الدهول والحيرة، ورجع إلي منزله رعباً حائراً وقال لها: «لقد خشيت أن يكون بي جنن، لم يكن منها إلا أن تثبت فؤاده وسكنت خاطره بمقاتلتها المشهورة: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدم وتقري الضيف وتعين علي نواب الحق...» إلخ.

ثم إنها انطلقت من فورها إلي ابن عمها ورقة بن نوفل، وقصت عليه خبر زوجها، فبشّرها ورقة بأن الذي رآه محمداً إنما هو الناموس الأكبر الذي نزل علي عيسي وموسي، وقد أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها، فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به.

روي الطبري بإسناده إلي عفيف الكندي أنه قال: «كنت امرأة تاجراً، فقدمت أيام الحج فأتيت العباس، فبينما نحن عنده إذ خرج رجل يصلي، فقام تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلي، وخرج غلام فقام يصلي معه، فقلت: يا عباس، ما هذا الدين؟ قال: هذا محمداً بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به، وأن كنوز كسري وقصر سقّتح عليه، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به. قال عفيف: فليتي كنت آمنت يومئذ، فكنت أكون ثالثاً».

ولم يزد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخاً ولا يقينها إلا قوةً، ولا تعلقها بزوها إلا

شدةً، فكانت في السنوات العشر الأولى للبعثة وهي السنوات التي توالى فيها الأرزاء والمحن علي محمداً وأصحابه، واضطهدت فيها الدعوة أيما اضطهاد، كانت خديجة في تلك السنوات إلي جانب زوجها، تريّس بتأييدها جناحه، وتأسو بعطفها جراحه.

روي ابن الأثير بإسناده فقال: «وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدّق بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه، إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه، وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس».

ولم تتردد خديجة عندما جدّ الجدّ أن تشرك زوجها في محنته وتقاسمه مرّ العيش كما

قاسمته حلوه، وتعمل لنصرة دعوته صابرة محتسبة، فعندما اشتدت قريش علي بني هاشم والمطلب وحصرتهم في الشعب ومنعتهم حتي الماء والزاد، كانت خديجة في الشعب تقاسي ما يقاسيه زوجها وأقرباؤه علي كبر سننها واضمحلال بنيتها، فلما فاءت قريش إلي صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين، كان طول الحصار قد أضرّ بخديجة واخترم المرض جثمانها، فلم تعش إلا قليلاً، وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة، بالغة من العمر خمسة وستين عاماً، وقد دفنها الرسول بالحجون، وسوي عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقي عليها النظرة الأخيرة.

وقضي الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفي نفس العام عمّه أبا طالب، وهو الذي كان ينافح دونه ويتولّي حمايته من عدوان أعدائه، فاجتمع علي محمّد في وقت واحد خطبان فادحان، ورزآن بالغان، ولكن لاشكّ في أنّ داخل رأيه كان الأفدح وباطن جرحيه كان الأدمي، لقد تهدّم صرح سعادته المنزلية وغدت الحياة مشغلة له في الداخل والخارج، علي كثرة ما أعطاه الله في الداخل والخارج.

كان محمّد أكبر من أن ينسي لمحسن إحسانه، وأكرم من ألا يفني لحبيب صدقه الحبّ وإصفاء الودّ، ولو باعدت بينه وبينه أطباق الثري، وكذلك كان شأنه مع خديجة

بنت خويلد، لقد وفي لها في حالي الحياة والموت، أحبّها ولم يتزوّج عليها في حياتها، فلما لحقت برّبها لم تبرح صورتها خاطره، ولا فارق تذكّرها لسانه، وهم يروون في ثنائه عليها ودوام تذكّره لها أخباراً كثيرة يرون أنّه فضّلها هي ومريم بن عمران علي نساء العالمين، وأنّه بشرّها ببيت في الجنّة من قصب، ولا صخب فيه ولا نصب، وأنّه عندما أرسلت إليه ابنته زينب بقلادة قلّدتها إياها خديجة لتفتدي بها زوجها سعد بن الربيع وكان قد أُسر ببدر، رقى النبي لذلك رقّة شديدة، وطلب إلي أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها ومالها ففعلوا، وأنّه كان إذا ذبح شاةً تتبّع صديقات خديجة يهدي اليمن منها، وأنّه كان لا يكاد يخرج من منزله حتّي يذكر خديجة ويثني عليها، والحقّ

أن دوام تذكّره لها هاج غيرة عائشة وهي بعد أثر نساته لديه، وأجملهنّ، وأصغرن سنأ.

روي ابن الأثير بإسناده إلي عائشة أنّها قالت: «كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) لا يكاد يخرج من البيت حتّي يذكر خديجه فيحسن الثناء عليها. فذكرها يوماً من الأيام، فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلّا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها. فغضب حتّي اهتزّ مقدّم شعره من الغضب، ثمّ قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت إذ كفر الناس، وصدّقتني وكذّبتني الناس، واستنتني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء. قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بسينّة أبداً».

تلك بالاختصار سيرة أول امرأة مسلمة، وخير امرأة مسلمة يعرف فيها القارئ المثل الأعلى للمرأة زوجة، وأماً، وعوناً علي جلائل الأمور، في غير خروج علي طبيعة الجنس ومواضع الناس منذ صار الإنسان إنساناً.

ص: 118

ملخص البحث:

يجري هذا البحث علي غرار البحوث الأخرى، متتبّعاً وناقلاً للنصوص التاريخية. كان وجود خديجة عاملاً مهماً في حياة الرسول الأعظم، أو في حياة الإسلام وهو لا يزال في بدايته، ولو لم يكن لوجود خديجة إلي جنب الرسول الأعظم هذا الأثر الكبير، لما عزّ فقدها عليه وهذّ موتها ركنه، ولما كان عام فقدها عام الأحزان، ولما ظلّ يذكرها السنين المتطاولة يحنّ لذكرها ويبكي لفقدتها، ويذكر أياديها علي الرسالة ومساهماتها في تحقيق النصر.

عاش النبي (صلي الله عليه وآله) مع خديجة خمساً وعشرين سنة بأحسن عيش وأتمّ وفاق، وبقيت صورتها بعد موتها مرتسمة بمخيلته حتّي وفاته. وعاش من بعدها مع زيجات كثيرة، ولكن قلبه بقي متعلّقاً بها؛ لما رأى من إيمانها بالله وتصديقها لرسوله، وبذلها جميع ما تملك في سبيل الإسلام، ولما كان يجده عندها من الإكرام والتبجيل والحبّ. وقد قابل هذه العواطف وقدر هذا الشعور وهذه المودّة، فلم يتزوّج في حياتها؛ إكراماً لها وإعظماً لشأنها، فقد قضى ربيع حياته معها ولم يشرك به غيرها. وسَمّي عام وفاتها - ووفاة عمّه أبي طالب - عام الحزن؛ لما دهمه من موتها، فقد عزّ عليه فراقها وأوحشه فقدها. وحديث ثنائها عليها بعد موتها حديث طويل ذكره رواة الحديث وأصحاب التراجم. وخليق بامرأة تستأثر بحبّ النبي وإكرامه في حياتها ومماتها أن يخلّدها

التاريخ، وأن يعكف الباحثون علي دراسة سيرتها ومزاياها؛ ليستوحوا منها العقيدة

الصادقة والإيمان الثابت والمُثل الرفيعة.

وأجمل ما قيل فيها: إذا أردنا مثلاً للزوجة المخلصة الصالحة والمرأة الرزينة العاقلة، فقد لا نجد خيراً من خديجة أم المؤمنين، هذه السيّدة العظيمة في عقليتها، أدركت الجاهلية والإسلام، وكان لها في كليهما مركز ممتاز، حتّى سُمّيت: الطاهرة، فجمعت بين المال والجمال والكمال، وهذه الصفات الثلاث إذا اجتمعت - وقلّما تجتمع - فإنّها تصفي علي المرأة ألواناً من السمو والرفعة، وهكذا كان شأن خديجة. إنّ الحديث عن خديجة حديث عن الإسلام في نشوئه وارتقائه.

الإهداء

سيّدتي يا بنت رسول الله (صلي الله عليه وآله)، يشرفني أن أرفع إليك كتابي هذا مستعرضاً فيه سيرة أمك العظيمة خديجة وبعض مواقفها الجهادية في سبيل الدفاع عن الرسول الأعظم والإسلام. وأرجو منك يا سيّدتي القبول.

هذا الكتاب

تقدّم للقراء الكرام الكتاب الأول من هذه السلسلة: «خديجة بنت خويلد»، والحديث عن خديجة حديث عن الإسلام في نشوئه وارتقائه، فهي أول امرأة لبّت دعوة الرسول الأعظم، واستجابت لنداء السماء، ووقفت بجانب الرسول بكلّ ما تملك من حول وقوة.

أتبعت خديجة إسلامها بتقديم ثرواتها الطائلة وإمكانياتها المالية الكبيرة في سبيل الإسلام وتحت تصرف الرسول، ينفق منها علي جمهور المعوزين الذين استجابوا للدين الجديد، وفي الشؤون الأخرى التي يرتبها، حتّى نفذ مالها كلّها.

ومما تسالم عليه المؤرّخون والباحثون: إنّ أعظم مقومات هذا الدين الدفاعية هي: نصره أبي طالب وأموال خديجة وسيف علي بن أبي طالب، فبهذه العوامل استطاع الإسلام أن يقف أمام التيارات المعادية التي كادت أن تقضي عليه وهو لا يزال غضّاً في بداية حياته.

ولخديجة بعد هذا حلقات أخرى حريّة بالدرس، وجوانب كثيرة جديرة بالعناية.

وهذا الكتاب لا يدّعي الإحاطة، بل هو إمامة سريعة ببعض مآثر هذه المرأة العظيمة، وإشارة إلى جوانب من حياتها الكريمة ومن الله التوفيق.

في سطور

أبوها: خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي بن كلاب.

أمّها: فاطمة بنت زائدة ابن الأصمّ.

ولادتها: سنة 68 قبل الهجرة.

أزواجها: أبو هالة بن زرارة التيمي، عتيق بن عائذ المخزومي (1).

زواجها منه : وعمره الشريف خمس وعشرون سنة، وعمرها أربعون سنة.

أولادها: القاسم، عبد الله (يقال له الطيّب والطاهر؛ لولادته بعد النبوة).

بناتها: زينب، أمّ كلثوم، فاطمة، رقيّة (2).

أموالها: كانت أكثر قريش مالاً، وكان أهل مكّة يتّجرون بأموالها قبل زواجها به ، ثمّ وهبته صلوات الله عليه جميع ما تملك، فكانت هذه الثروة الطائلة من مقومات الدعوة الإسلامية.

ألقابها: الطاهرة.

إسلامها: هي أول امرأة أسلمت.

قربتها: هي أقرب أزواجه إليه نسباً.

في بيت الرسول: لم يتزوج غيرها في حياتها؛ إكراماً لها وتعظيماً لشأنها.

وفاتها: في شهر رمضان السنة العاشرة من البعثة، وبعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام.

ص: 122

1 - . جاء في المجلّد السادس من البحار في باب نساء النبي : «روي أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضي في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: إنّ النبي تزوّج بها وكانت عذراء، يؤكّد ذلك ما ذكره في كتاب الأنوار والبدع، أنّ رقيّة وزينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة». .

2- . أنكر صاحب الاستغاثة ذلك، وذكر أنّهنّ بنات أختها هالة، ألحقن بها لخموم هالة وسموّ خديجة، وعلي رأيه لم يكن لها إلا فاطمة(عليها السلام).

دفنها في الحجون، وأدخلها بنفسه القبر، سُمِّي عام وفاتها «عام الحزن»، عمرها 65 سنة.

إسلامها

هنيئاً لك يا محمّد بهذا النصر، فهب أن قريشاً هبّت تدافعك وتقهرك، لكنّ الدنيا كانت بأسرها في قبضتك، فهذا ابن عمّك وحبيبك أوّل من يتابعك علي دينك، ويصدّقك علي رسالتك، ويؤازرك علي نشر تعاليمك، وهذه زوجتك أوّل امرأة تؤمن بك وتناصرك، ومن ورائك عمّك شيخ الأباطح، فهو لا يسلمك ولا يتخلّي عنك، ويأمر نجله الآخر (جعفرًا) حينما رآك تصلّي وخلفك علي وخديجة أن يكون معهما ثالثاً، وتلا هؤلاء آخرون هم من أكثر الناس اتّصلاً بك، ورحماً منك، فقد أسلم مولاك زيد بن حارثة، وعمّك الحمزة، وزوجة عمّك فاطمة بنت أسد، وحاضنتك أمّ أيمن. فلو تابعتك من في المشرق والمغرب وكنت لم تحصل علي هؤلاء لكنت لم تحصل علي شيء.

أفلا- يستدلّون علي صحّة دينك بمتابعة أقرب الناس منك وأطلعهم علي أسرارك وأعلمهم بأحوالك؟ فلو كنت والعياذ باللّٰه مفترياً لكان لهؤلاء شأن آخر معك، ولما وجدناهم يسارعون إلي ندائك، ويبدلون في سبيلك النفس والنفس، ويتحمّلون المصاعب في سبيل إنجاح دعوتك ونشر مبادئك، ثمّ تكون خاتمة المطاف لبعضهم الشهادة.

والحديث عن إسلام خديجة هو الحديث عن بدء الإسلام في يومه الأوّل، فقد أجمعت الأمة بأسرها علي أنّها أوّل امرأة أسلمت.

عن أبي يحيى بن عفيف، عن أبيه، عن جدّه عفيف قال: «جنّت في الجاهلية إلي مكّة

وأنا أريد أن أبتاع لأهلي من ثيابها وعطرها، فأتيت العباس بن عبد المطلب وكان رجلاً تاجراً، فأنا عنده جالس حيث أنظر إلي الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت، إذ جاء شابّ فرمي ببصره إلي السماء، ثمّ قام مستقبل القبلة، ثمّ لم ألبث إلا يسيراً حتّي جاء غلام فقام عن يمينه، ثمّ لم ألبث إلا يسيراً حتّي جاءت امرأة فقامت خلفهما،

فركع الشاب فركع الغلام والمرأة، فسجد الشاب فسجد الغلام والمرأة.

فقلت: يا عباس، أمر عظيم! قال العباس: أمر عظيم، أتدري من هذا الشاب؟ قلت: لا، قال: هذا محمد بن عبد الله ابن أخي، أتدري من هذا الغلام؟ هذا علي ابن أخي، أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد زوجته، إن ابن أخي هذا أخبرني أن ربّ ربّ السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، ولا والله ما علي الأرض كلّها أحد علي هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة»(1).

في عهد الرسالة

هبت قريش في وجه الرسول الأعظم تدافعه عن أوثانها وتقاليدها واستغلالها، مجنّدة كلّ قواها في صدّه عند دعوته، ومنعه عن أداء رسالته، استعملت لذلك شتى الوسائل والسبل، وبلغت في إيذائها أقصى ما يتصوّر، حتّى قال عليه الصلاة والسلام: «ما أؤذي نبيّ بمثل ما أؤذيت».

ومن الغريب أن يكون محمد بالأمس الصادق الأمين، ويصبح اليوم الساحر الكذاب! هكذا يتنكر الإنسان لأخيه الإنسان عندما تصطدم مصالحه وتتضرّر منفعه.

وفي الوقت الذي كان فيه الرسول الأعظم يعاني الأذى ويكابد المصاعب، كان هناك من يطيب خاطره ويخفف عنه آلامه ويُنسيه همومه وأحزانه؛ إنّها خديجة، إنّها

المرأة المؤمنة، إنّها المرأة العظيمة، إنّها ناصرة محمد وشريكته.

كانت ابتسامتها تخفف عنه عناءه وأتعبه، وحبّها الطافي علي محياها يُنسيه آلامه وأتعبه، وقلبها الكبير المفعم بالعمق والإيمان يشرح صدره.

كان إيمانها يوحى للرسول بمستقبل الدعوة الزاهر، وكانت صلابة عقيدتها دليلاً علي بداية النصر.

أنا لا أقول: إنّ موقف خديجة كان يزيد من نشاط الرسول وجهاده ويدفع به إلي تحقيق أهدافه وآماله، فالرسل صلوات الله عليهم لا يزدحم كثرة الناس حولهم عزّة ولا

ص: 124

تفرّقهم عنهم وحشة، فهم يسرون وفق مخطّط رسمه لهم الجليل جلّ شأنه، ملتزمون من قبل الحقّ تبارك وتعالى، ومن كان الله ناصره كفاه أمره وألهمه رشده، فهم لا يستوحشون وإن وقعت الدنيا كلّها في وجوههم، ولا يخافون ولو تجنّدت الخلائق بأسرها لحربهم.

ولكنّي معتقد بأنّ وجود خديجة كان ضرورياً في حياة الرسول؛ بما لها من إيمان وعقيدة وتقان وإخلاص وحبّ وعطف وذهب وفضّة وتجارة وماشية وعبيد وإماء.

كان وجود خديجة عاملاً مهماً في حياة الرسول الأعظم، أو في حياة الإسلام وهو لا يزال في بدء نموه، ولو لم يكن لوجود خديجة إلي جنب الرسول الأعظم هذا الأثر الكبير لما عزّ فقدها عليه وهدّ موتها ركنه، ولما كان عام فقدها عام الأحزان، ولما ظلّ يذكرها السنين المتطاولة يحنّ لذكرها ويبكي لفقدها، ويذكر أياديها علي الرسالة ومساهمتها في تحقيق النصر.

إنّ كلّ من درس السنين العشر التي تلت البعثة النبوية يلمس جيّداً أثر هذه المرأة في نشر الإسلام، وما قدّمته من خدمات في سبيل إعلاء كلمة الحقّ. إنّ التاريخ لم يغفل موقفها البطولي وتضحياتها الكبيرة وما بذلته من أموال طائلة في نصره الدين الجديد.

فأعظم خطر واجهه الرسول الأعظم علي الرسالة «حصار الشّعب»، وكانت أموال

خديجة هي مفتاح الحصار، فكانت تشتري الموادّ الاستهلاكية بأضعاف أثمانها غذاءً لمن في الشّعب، حتّي مرّت سنوات الحصار بسلام علي من في الشّعب وأحبط تدبير قريش.

وليست مواقفها في المجالات الأخرى دون هذا الموقف، فيتّضح لك من هذا وغيره عظمة هذه المرأة وأثرها في نشر هذا الدين الحنيف.

سيرتها

للشخصيات الكبيرة التي استأثرت بالتاريخ قروناً طويلة، وستبقي إلي الأبد تحتلّ الصدارة فيه، سيرة كريمة ساروا عليها من بداية حياتهم وحتّي نهاية مطافهم، ولم تكن

هذه السيرة منهم وليدة الصدفة ولا هي ممّا تخلّقوا به في أوج عظمتهم، أو رداءً تَمَّصوه في عنفوان زعامتهم، بل جبلة طبعوا عليها وفطرة خيرة فُطروا عليها وغريزة صالحة نشأوا عليها.

فالرسول الأعظم كان يُعرف من بداية حياته بـ«الصادق الأمين»؛ لما ظهر من صدقه وأمانته. وشاء المهيمن أن تكون لخديجة سيرة مثلي تنفرد بها عن جميع النساء، وتمتاز بها من بين العقائل، فقد كانت تُعرف في الجاهلية بـ«الطاهرة»، وناهيك بهذا شرفاً وفخراً.

وفي هذه الصفات بعض ما ورد من سيرتها(عليها السلام):

1. قال ابن حجر العسقلاني: «ومن مزايا خديجة أنّها ما زالت تعظّم النبي(صلي الله عليه وآله) وتصدّق حديثه قبل البعثة وبعدها... ومن طواعيتها له قبل البعثة أنّها رأت ميله إلي زيد بن حارثة بعد أن صار في ملكها، فوهبته له، فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد من السبق إلي الإسلام»(1).

2. قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدّقت بما جاء به، فخفّف الله بذلك عن رسوله، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه، إلا فرّج الله عنه بها، إذا رجع إليها تتبّته وتخفّف عنه وتصدّقه، وتهوّن عليه أمر الناس،(عليها السلام)»(2).

3. قالت خديجة لابن عمّها ورقة بن نوفل: «اعلن بأنّ جميع ما تحت يديّ من مالٍ وعبيد فقد وهبته لمحمّد يتصرّف فيه كيف شاء»، فوقف ورقة بين زمزم والمقام ونادي بأعلي صوته: «يا معاشر العرب، إنّ خديجة تُشهدكم علي أنّها وهبت لمحمّد نفسها ومالها وعبيدها وجميع ما تملكه يمينها؛ إجلالاً له وإعظاماً لمقامه ورغبةً فيه». وأنفذت إلي أبي طالب غنماً كثيراً ودنانير ودراهم وثياباً وطيباً؛ ليعمل الوليمة. أقام أبو

ص: 126

1- . الإصابة: ص 275.

2- . أسد الغابة: ج 5 ص 437.

طالب لأهل مكة وليمة عظيمة ثلاثة أيام حضرها الحاضر والبادي(1).

4. قال الزهري: «بلغنا أنّ خديجة أنفقت علي رسول الله(صلي الله عليه وآله) أربعين ألفاً وأربعين ألفاً»(2).

مكانتها عند الرسول الأعظم

عاش النبي(صلي الله عليه وآله) مع خديجة خمساً وعشرين سنة بأحسن عيش وأتمّ وفاق، وبقيت صورتها بعد موتها مرتسمة بمخيلته حتّى انتقل إلي الرفيق الأعلى.

عاش من بعدها مع أزواج كثيرة، ولكن قلبه بقي متعلقاً بخديجة؛ لما رأى من إيمانها بالله وتصديقها لرسوله وبذلها جميع ما تملك في سبيل الإسلام وإعلاء كلمة الله، ولما كان يجده عندها من الإكرام والتبجيل والحب.

وكان يقابل هذه العواطف والشعور ويثمن هذه المودة، فهو لم يتزوج في حياتها؛ إكراماً لها وإعظماً لشأنها، فقد قضى ربيع حياته معها لم يشرك به غيرها، ويُسمّى عام وفاتها - ووفاة عمّه أبي طالب - عام الحزن؛ لما دهمه من موتها، فقد عزّ عليه فراقها وأوحشه فقدها.

وحديث ثنائه عليها بعد موتها حديث طويل ذكره رواة الحديث وأصحاب التراجم.

قالت عائشة: «كان رسول الله لا يكاد يخرج من البيت حتّى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً، فقد أبدلك الله خيراً منها.

فغضب حتّى اهتزّ مقدّم شعره من الغضب، ثمّ قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء.

قالت عائشة: فقلت في نفسي لا أذكرها بسينة أبداً»(3).

ص: 127

1- وفاة الزهراء للمقرّم: ص 7.

2- تذكرة الخواصّ: ص 314.

3- الاستيعاب: ج 2 ص 721، أسد الغابة: ج 5 ص 539.

وقالت أيضاً: «ما غرت علي أحدٍ من أزواج النبي ما غرت علي خديجة، وما بي أن أكون أدركتها؛ وما ذاك إلا لكثرة ذكر رسول الله (صلي الله عليه وآله) لها، وإن كان ممّا يذبح الشاة يتبع بها صدائق خديجة، فيهدئها لهن» (1).

وقالت أيضاً: «ما رأيت خديجة قط، ولا غرت علي امرأة من نساؤه أشدّ من غيرتي علي خديجة؛ وذلك من كثرة ما كان يذكرها» (2).

وتكلّمه أزواجه في زواج فاطمة، ويذكرن خديجة، تقول أم سلمة: «فلما ذكرنا خديجة بكى وقال: خديجة، وأين مثل خديجة؟ وأخذ في الشاء عليها».

وخليق بامرأة تستأثر بحب النبي (صلي الله عليه وآله) وإكرامه في حياتها ومماتها أن يخلّدها التاريخ، وأن يعكف الباحثون علي دراسة سيرتها ومزاياها؛ ليستوحوا منها العقيدة الصادقة والإيمان الثابت والمثل الرفيعة.

في أحاديث الرسول الأعظم

من تصفّح كتب الحديث ومعاجم الأخبار، وجد قسماً كبيراً من هذه الأحاديث في مناقب بعض الصحابة رضوان الله عليهم، حتّى أنّ المؤلفين أفردوا في كتبهم باباً مستقلاً للمناقب، وتختلف هذه الأحاديث كميّةً وكيفيةً حسب اختلاف الصحابة، وتفاضل حسب تفاضلهم، وهي إن دلّت علي شيء فإنّما تدلّ علي تكريم الرسول الأعظم للسلف، وتثمينه لجهودهم وجهادهم، وتقييم كلّ واحد منهم.

ومن المؤسف أن تزعم هذه الأحاديث بعض المتأخّرين من التابعين وغيرهم، إذ يجدونها خالية من ذكر بعض من يهونون من الصحابة، فعمدوا إلي الكذب علي الرسول الأعظم، والتقول عليه بأحاديث كثيرة نسبوها إليه ظلماً وافتراءً. والجدير بالذكر أنّ محتوي بعضها لا يتمشّي مع العقل السليم، وقد يشكّل طعنًا في قدسية الرسول.

وقد ذكرتُ في الكتاب التاسع من سلسلة الأئمة: أسئلة يحيى بن أكثم - قاضي القضاة في

ص: 128

1- . أسد الغابة: ج 5 ص 438.

2- . المستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 186. قال الحاكم: «صحيح علي شرط الشيخين، ولم يخرّجاه».

القرن الثالث - للإمام محمد الجواد عن بعض هذه الأحاديث، فيبين له زيفها وكذبها.

وقد تناول الشيخ الأميني رحمه الله في كتابه الغدير هذه الأحاديث بالبحث والتنقيب، وبيّن بطلانها للجمهور.

وفي هذه الصفحات بعض ما ورد عنه في خديجة رضوان الله عليها:

1. قال: «أتاني جبرئيل فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء فيه أدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومتي، وبشرها ببيت في

الجنة من قصب (1)، لا صخب فيه ولا نصب» (2).

2. روي من وجوه: أنّ النبي (صلي الله عليه وآله) قال: «يا خديجة، جبرئيل يُقرئك السلام». ومن بعضها: «يا محمد، اقرأ علي خديجة من ربها السلام» (3).

3. إنّ جبرئيل قال: «يا محمد، اقرأ علي خديجة من ربها السلام، فقال النبي (صلي الله عليه وآله): يا خديجة، هذا جبرئيل يُقرئك السلام من ربك. فقالت خديجة: الله هو السلام ومنه السلام وعلي جبرئيل السلام» (4).

4. قال: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة» (5).

5. عن عائشة: «إنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) بشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب» (6).

6. قال: «خديجة سابقة نساء العالمين إلي الإيمان بالله وبمحمد» (7).

7. قال ابن عباس: «خط رسول الله (صلي الله عليه وآله) في الأرض أربعة خطوط، ثم قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): أفضل نساء أهل الجنة أربع: خديجة بنت خويلد،

ص: 129

1- القصب: الزرجد الرطب المرصع بالياقوت.

2- أسد الغابة: ج 5 ص 438.

3- سير أعلام النبلاء: ج 2 ص 85.

4- الاستيعاب: ج 2 ص 719.

5- صحيح البخاري: ج 4 ص 164.

6- الإصابة: ج 4 ص 273.

7- المستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 184.

وفاطمة بنت محمّد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»(1).

8. قال: «خير نسائها خديجة بنت خويلد، خير نسائها مريم بنت عمران»(2).

9. قال: «أربع نسوة سيّدات سادات عالمهنّ: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، وأفضلهنّ عالماً فاطمة»(3).

10. قالت عائشة: «كان رسول الله(صلي الله عليه وآله) إذا ذكر خديجة لم يكذب يسأم من ثناءٍ عليها، واستغفارٍ لها، فذكرها يوماً فحملتني الغيرة، فقلت: لقد عوّضك الله من كبيرة السنّ.

قالت: فرأيتَه غضباً غضباً فأسقط في يدي، وقلت في نفسي: اللهمّ إن إذهبت غضب رسولك عتي لم أعد أذكرها بسوء، فلمّا رأى النبي ما لقيت قال: كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ كذّبتني الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، ورزقت منها الولد - أو - حرمته مني. قالت: فغدا وراح عليّ بها شهراً»(4).

11. قال: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد»(5).

12. قالت عائشة: «كان رسول الله(صلي الله عليه وآله) إذا ذبح الشاة يقول: ارسلوا إلي أصدقاء خديجة، فذكرت له يوماً، فقال: إنني لأحبّ حبيبها»(6).

13. قال رسول الله(صلي الله عليه وآله): «خير نساء العالمين: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد»(7).

14. قال رسول الله(صلي الله عليه وآله): «أفضل نساء أهل الجنّة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»(8).

ص: 130

1- . الاستيعاب: ج2 ص720.

2- . أسد الغابة: ج5 ص438.

3- . ذخائر العقبى: ص44.

4- . سير أعلام النبلاء: ج2 ص82.

5- . الفصول المهمّة: ص129.

6- . الإصابة: ج4 ص275.

7- . أسد الغابة: ج5 ص537.

8- . الاستيعاب: ج2 ص720.

ليس القصد من هذه الكلمات أن نرفع من مكانة أم المؤمنين رضوان الله عليها، فقد كفاها رفعةً وعلوًّا أحاديث الرسول الأعظم في فضلها وبيان منزلتها؛ إنَّ الغرض من هذه الكلمات أن يلمس المطالع الكريم تسالم العلماء والمؤرِّخين والكتَّاب - علي مرَّ العصور واختلاف المذاهب والنحل - علي تمجيد هذه المرأة وتقديسها وذكرها بكلِّ جميل؛ لما لمسوه من عقيدة صادقة وإيمان قويمة وتقانٍ في سبيل المبدأ، بينما نراهم يختلفون في تقييم غيرها من أزواج النبي (صلي الله عليه وآله)، فنراهم يغمزون بعضهنَّ ويذكرون لهنَّ مواقف لا يُحسدن عليها، وهذه من الفوارق والمميّزات التي بيّنتها وبينَّ بعض أزواجه عليه الصلاة والسلام.

نذكر من كلماتهم:

1. قالت أم سلمة للرسول: «إِنَّكَ لَا تَذَكُرُ مِنْ خَدِيجَةَ أَمْرًا إِلَّا وَقَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّهَا مَضَتْ إِلَيَّ رَبِّهَا فَهَيَّأَ اللَّهُ بِذَلِكَ وَجَمَعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا فِي جَنَّتِهِ» (1).

2. قال الزبير بن بكار: «كَانَتْ خَدِيجَةُ تُدْعَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ: الطَّاهِرَةَ» (2).

3. قال ابن إسحاق: «كَانَتْ خَدِيجَةُ وَزِيرَةَ صَدَقَ عَلَيَّ الْإِسْلَامُ» (3).

وقال: «وَكَانَتْ خَدِيجَةُ امْرَأَةً حَازِمَةً، شَرِيفَةً، لَبِيبَةً، مَعَ مَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَا مِنْ كَرَامَتِهِ» (4).

4. قال هشام بن محمّد: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) يُوَدِّعُهَا وَيَحْتَرِمُهَا وَيَشَاوِرُهَا فِي أُمُورِهَا كُلِّهَا، وَكَانَتْ وَزِيرَةَ صَدَقَ، وَهِيَ أَوَّلُ امْرَأَةٍ آمَنَتْ بِهِ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ فِي حَيَاتِهَا أَبَدًا، وَجَمِيعَ أَوْلَادِهِ مِنْهَا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ» (5).

5. قال ابن الأثير: «وَكَانَتْ خَدِيجَةُ امْرَأَةً حَازِمَةً عَاقِلَةً شَرِيفَةً، مَعَ مَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ

ص: 131

1- . أعيان الشيعة: ج15: ص79.

2- . سير أعلام النبلاء: ج2 ص82، أسد الغابة: ج5 ص435، الإصابة: ج4 ص273، السمط الثمين.

3- . أسد الغابة: ج5 ص439.

4- . السيرة النبوية لابن هشام: ج1 ص200.

5- . تذكرة الخواص: ص312.

كرامتها، فأرسلت إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فعرضت عليه نفسها، وكانت أوسط نساء قريش نسباً، وأكثرهنّ مالاً وشرفاً، وكلّ قومها كان حريصاً علي ذلك منها لو يقدر عليه»(1).

6. قال محمّد بن أحمد الذهبي: «أمّ المؤمنين وسيدة نساء العالمين في زمانها، أمّ القاسم، بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي بن كلاب، القرشية الأسدية، أمّ أولاد رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وأول من آمن به وصدّقه قبل كلّ أحد، وثبتت جأشه، ومضت به إلي ابن عمّها ورقة.

ومناقبها جمّة، وهي ممّن كمل من النساء، كانت عاقلة جلييلة دينة مصونة كريمة، من أهل الجنّة، وكان النبي (صلي الله عليه وآله) يثني عليها ويفضّلها علي سائر نساء المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها، بحيث إنّ عائشة كانت تقول: ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة؛ من كثرة ذكر النبي (صلي الله عليه وآله) لها

ومن كرامتها عليه أنّه لم يتزوّج امرأة قبلها، وجاءه منها عدّة أولاد، ولم يتزوّج عليها قطّ امرأة ولا تسري إلي أن قضت نحبها، فوجد لفقدها، فإنّها كانت نعم القرين، وكانت تنفق عليه من مالها، ويتّجر لها، وقد أمره الله أن يبشّر بها بيت في الجنّة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»(2).

7. قال جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي: «وجاءت النبوة فأسلمت، فهي أو امرأة آمنت به، ولم ينكح امرأة غيرها حتّي ماتت، وجميع أولاده منها سوي إبراهيم»(3).

8. قال عبد الملك بن هشام: «وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدّقت بما جاءه من الله ووازرته علي أمره، وكانت أوّل من آمن بالله ورسوله وصدّقت بما جاء منه، فحفّف

الله بذلك عن نبيّه، لا يسمع شيئاً ممّا يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلّا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها»(4).

ص: 132

1- . الكامل في التاريخ: ج 2 ص 14.

2- . سير أعلام النبلاء: ج 2 ص 81.

3- . صفوة الصفوة: ج 2 ص 2.

4- . السيرة النبوية: ج 1 ص 257.

9. قال الحافظ عبد العزيز الجنازدي الحنبلي في كتابه معالم العترة النبوية: «كانت خديجة(عليها السلام) امرأة حازمة لبيبة شريفة، وهي يومئذٍ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكلّ قومها قد كان حريصاً عليّ تزويجها فأبت، وعرضت نفسها عليّ النبي(صلي الله عليه وآله) وقالت: يا ابن عمّ، إني رغب فيك؛ لقربتك منّي وشرفك في قومك، وأمانتك عندهم وحسن خلقك، وصدق حديثك»(1).

10. قال أشرف عليّ الهندي: «وكانت من أفضل نسائه وأحبهنّ إليه، وكانت تنتظر نبوته، ويسألها ابن عمّها عن ذلك وعن دلائل تعرّفها فيه، فتخبره بذلك فيقول: هو والله النبي المنتظر»(2).

11. قال السيّد عبد الحسين شرف الدين: «صدّيقة هذه الأُمة وأولها إيماناً باللّهِ وتصديقاً بكتابه ومواساةً لرسول اللّهِ(صلي الله عليه وآله)... انفردت برسول اللّهِ(صلي الله عليه وآله) خمساً وعشرين سنة لم تشاركها فيه امرأة ثانية، ولو بقيت ما شاركها فيه أُخري، وكانت شريكته في محنته طيلة أيامها معه، تقوّيه بمالها، وتدافع عنه بكلّ ما لديها من قول وفعل، وتعزّيه بما يفاجئه به الكفّار في سبيل الرسالة وأدائها، وكانت هي وعليّ معه في غار حراء إذ نزل عليه الوحي أوّل مرّة»(3).

12. قال عبد اللّهِ العلايلي: «كانت تستقبل آلام الكفاح الذي خاضه قرينها النبيّ وخاصته معه، عاملة ماضية وصابرة محتسبة، لا ينبض عندها عرق بلين أو تخوّف، بل تقطع قناطر الدموع والخطوب المتغوّلة في بسمة كبرياء، لم يعهد مثلها إلا بعض نفر من صانعي التاريخ، بصدرها الرحب كانت تستقبل العاصفة، وشظاياها المشتعلة، لا ليكون في حسّها ذلك الرجوع المدمر، أو ذاك الواقع الصاعق...»(4).

13. قال عمر أبو النصر: «انتهى إليّ خديجة بنت خويلد السيّدة العربية الجليلة

ص: 133

1- الفصول المهمّة: ص 133.

2- رياض الجنان (الجنّة السادسة): ص 8.

3- عقيلة الوحي: ص 20.

4- مثلهنّ الأعليّ خديجة بنت خويلد: ص 98.

شرف النسب وكرم المحتد وسؤدد القبيل وعزّ العشيرة والغني الوفير، تتوفّر بواسطته علي إعالة المعدم وإطعام الجائع وكسوة العاري، فكانت خديجة في أخلاقها ونسبها وثروتها وحيدة بين قومها فريدة بين أترابها»(1).

14. قال الدكتور علي إبراهيم حسن: «إذا أردنا مثلاً للزوجة المخلصة الصالحة والمرأة الرزينة العاقلة، فقد لا نجد خيراً من خديجة أمّ المؤمنين، هذه السيّدة العظيمة في عقليتها، أدركت الجاهلية والإسلام، وكان لها في كليهما مركز ممتاز، حتّى سُمّيت الطاهرة، فجمعت بين المال والجمال والكمال، وهذه الصفات الثلاث إذا اجتمعت - وقلّما تجتمع - فإنّها تضفي علي المرأة ألواناً من السموّ والرفعة، وهكذا كان شأن خديجة.

وقالت: وهكذا كانت خديجة(عليها السلام)، أوّل امرأة انتقت الإسلام، ومن ذلك الحين كانت تصلّي مع زوجها وتواليه بتشجيعها، وتبثّ فيه من روحها ثباتاً وقوّة.

كان عليه السلام يخرج يبشّر قومه بالإسلام، فلا ينال منهم غير التكذيب والإهانة، فيرجع إلي بيته حزيناً يائساً فتزِيل خديجة حزنه وتحيل يأسه أملاً، وتهوّن عليه الأمر»(2).

15. قال عمر رضا كحالة: «ولدت سنة 68 قبل الهجرة، من بيت مجد وسؤدد ورئاسة، فنشأت علي التخلّق بالأخلاق الحميدة، واتّصفت بالحزم والعقل والعفة، حتّى دعاها قومها في الجاهلية: الطاهرة»(3).

16. قال «بودلي» في كتابه الرسول: «فكانت ثقتها في الرجل الذي أحبّته وصدّقته وآمنت به حتّى الرمق الأخير تضفي جواً من الثقة علي المراحل الأولى للعقيدة التي يدين بها اليوم واحد من كلّ ستّة من سكّان العالم»(4).

17. قال سليمان كئاني: «أعطت خديجة زوجها حباً وهي لا تشعر بأنّها تعطي، بل تأخذ منها حباً فيه كلّ السعادة، وأعطته ثروة وهي لا تشعر بأنّها تعطي، بل تأخذ منه

ص: 134

1- . فاطمة بنت محمّد: ص6.

2- . نساء لهنّ في التاريخ الإسلامي نصيب: ص 21 و23.

3- . أعلام النساء: ج 1 ص326.

4- . بطلة كربلاء: ص14.

هداية تفوق كنوز الأرض، وهو بدوره أعطاها حباً وتقديراً رفعاها إلي أعلي مرتبة، وهو لا يشعر بأنه أعطاها، بل يقول: ما قام الإسلام إلا بسيف علي وثروة خديجة. وأعطاها عمره وزهرة شبابه، ولم يبدل عليها امرأة حتّي غابت عن الوجود، وهو لا يشعر بأنه أعطاها وهو يقول: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كذّبي الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس»(1).

18. قالت الدكتورة بنت الشاطي: «خديجة بنت خويلد، أولي أمّهات المؤمنين، وأقرب زوجات النبي وأعزهنّ عليه حيّة وميتة، انفردت بحبه وإعزازه خمساً وعشرين سنة، لا تشاركها فيه امرأة أخرى، ووقفت إلي جانبه في سني الاضطهاد الأولي توازره وترعاه، وتهوّن عليه ما يلقي من قريش في سبيل رسالته»(2).

وقالت: «وستدخل في الإسلام من بعد خديجة ملايين النساء، ولكنّها ستظلّ منفردة دونهنّ بلقب المسلمة الأولي التي آثرها الله بالدور الأجلّ في حياة البطل الرسول، وسيذكر لها المؤرّخون - المسلمون منهم وغير المسلمين - ذلك الدور»(3).

19. قالت زينب بنت علي الفوّاز العاملي: «وكانت امرأة حاذقة عاقلة شريفة، من أوسط نساء قريش نسباً، وأكثرهنّ مالاً وشرفاً، وكان كلّ من قومها يتمني أن يتزوّج بها

فلم يقدروا»(4).

20. قالت سنية قراعة: «سيّدة قريش وثرّيتها الملحوظة، ذات المكانة العالية والنسب الرفيع.

وقالت: إنّ خديجة لم تكن هي التي سوف تحقّق للأمين أمنيته تلك؛ لأنّ الله تعالي أرادها وقدرها، وكانت في علمه منذ آماذ عديدة.

وقالت: إنّ التاريخ ليحني رأسه أمام عظمة أمّ المؤمنين خديجة، ويقف أمامها

ص: 135

1- . فاطمة الزهراء وتر في غمد: ص 112.

2- . بطلة كربلاء: ص 13.

3- . موسوعة آل النبي: ص 230.

4- . الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور: ص 180.

خاشعاً مكتوف اليدين، لا يدري أين يضعها في سجل العظماء»(1).

21. قالت الأميرة قدرية حسين: «سيدة النساء خديجة الكبرى، نموذج من أظهر نماذج الإسلام، وأعظمه خطراً، وأجله شأنًا...». إلخ(2).

نهاية المطاف

ذكرت في مقدّمة الكتاب: إنّ الحديث عن خديجة حديث عن الإسلام في نشوئه وارتقائه، وإذا كان الحديث عن الإسلام فهو بحاجة إلي مجلّدات، فضلاً عن كتاب صغير، وأستميح العذر من صاحب الرسالة في كتابي هذا، فالحديث عن قرينته وحببته ونصيرته، وأستميح القارئ الكريم عذراً إذ جاء كتابي بهذه الكيفية والكمّية.

وختاماً وكلي أمل أن تحذو المرأة المسلمة حذو هذه السيّدة العظيمة، وتترسّم خطاها وتنهج نهجها، والله وليّ التوفيق.

ص: 136

1- . نساء محمّد: ص 16 و 20 و 37.

2- . شهيرات النساء في العالم الإسلامي: ج 2 ص 5

1. الاستغائة، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت352هـ)، طهران: مؤسسه الأعلمي، الطبعة الأولى، 1373ش.
2. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبرّ النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ.
3. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجَزَري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ.
4. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن الحجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ.
5. أعلام النساء، علي محمد علي دخيل، لبنان: الدار الإسلامية، 1412هـ.
6. أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين، تحقيق: السيّد حسن الأمين، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، 1406هـ.
7. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار:، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت1110هـ)، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1412هـ.
8. تذكرة الخواصّ (تذكرة خواصّ الأئمة في خصائص الأئمة:)، يوسف بن فرغلي بن عبدالله، المعروف بسبط ابن الجوزي (ت654هـ)، تقديم: السيّد محمد صادق بحر العلوم،

1. تلخيص الشافي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (الشيخ الطوسي) (ت460هـ)، تحقيق: السيد حسين بحر العلوم، قم: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة، 1394هـ .
2. خصائص الإمام أميرالمؤمنين ، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت303هـ)، تحقيق: محمد هادي الأميني، طهران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، 1403هـ .
3. الدرّ المنثور في طبقات ربات الخدور، زينب بنت فواز العاملي، الكويت: مكتبة ابن قتيبة.
4. ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربي، أبو العباس أحمد بن محمد الطبري (ت694هـ)، تحقيق: أكرم البوشي، جدة: مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى، 1415هـ .
5. السمط الثمين في مناقب أمّهات المؤمنين، محبّ الدين أحمد بن عبدالله الطبري (ت694هـ)، تحقيق: محمد علي قطب، القاهرة: دار الحديث، 1408هـ .
6. سير أعلام النبلاء، أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسّسة الرسالة، الطبعة العاشرة، 1414هـ .
7. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفي، الطبعة الأولى، 1355هـ .
8. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1410هـ .
9. صفة الصفوة، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي (ابن الجوزي) (ت597هـ)، تحقيق: محمود فاخوري و محمد قلعة جي، حلب: دار الوعي، الطبعة الأولى، 1389هـ .
10. عقيلة الوحي، السيد عبدالحسين شرف الدين الموسوي، تحقيق: محمد رضا المامقاني، قم: دليل ما، 1426هـ .
11. فاطمة الزهراء وتر في غمد، سليمان كتّاني، بيروت: دار الكتاب العربي، 1399هـ .

1. الفصول المهمة في أصول الأئمة، الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت1104هـ)، تحقيق: محمد بن محمد الحسين القائني، مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا، الطبعة الأولى، 1418هـ.
2. الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني الموصلي (ت630هـ)، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ.
3. مثلهنّ الأعلي الخديجة، عبدالله العلايلي، بيروت: دار الجديد، 1371هـ.
4. المستدرك علي الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411هـ.
- موسوعة آل النبي، عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطي)، بيروت: دار الكتاب العربي، 1387هـ.

12. فضائل خديجة، والفضائل عند قومها - عبد الحميد الزهراوي

ملخص البحث:

يستعرض هذا البحث أحوال العرب قبل الإسلام، وما كان لهم من الأخبار والكرم والجود والمعارف والفصاحة والبلاغة، وما عرفوا به من الشجاعة وشدة البأس في الحروب والوقائع، ويستشهد علي ذلك بمعركة ذي قار. ثم يعرّج علي ذكر ما كان لقوم خديجة من صفات اشتهروا بها وماثر تفرّدوا بفعلها. وقد اجتمعت في خديجة صفات دالة علي سمو شخصيتها؛ فأينا في سيرتها ذلك المثل السني والكمال السمي، وعرفنا حسن استعدادها من حسن تربيتها، وعرفنا شيئاً آخر جديراً بالتنويه وقلماً رأينا من نوه به أو التفت إليه؛ فلذلك عنينا به نحن كثيراً في صدد متابعة هذه السيرة، وهو ارتقاء قوم خديجة ارتقاءً عظيماً، فإنّ التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية. ينتهج البحث الأسلوب المكتبي التوثيقي في الاستنتاج من الوقائع والمرويات التاريخية؛ ليخلص منها إلي الخصال والمكارم التي كان يميّز بها العرب عموماً وقوم السيدة خديجة من بني أسد خصوصاً. وينتهي من كلّ ذلك إلي أنّ تلك الصفات والمآثر والمكارم تجسّدت فيها خير تجسيد، وأنها كانت خليفة بأن تكون زوجة مثالية لنبيّنا صلوات الله عليه.

ص: 140

تبارك واهب الحياة، فقد أبدع لنا في «خديجة» المثال الأسني منها، وأطلع لنا في

شخصها زواهر الإنسانية الفضلي، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الأفق الأعلى، وتربيتهم الأدبية والعقلية في المنزلة العليا.

نحن معشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوي النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ، منقوص النصيب من القوي التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره، وقليل منا من رزقوا فضلاً من هذه القوي النافعة الآتية بالغبطة والحبور.

ولدي التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الأساس في حسن الحظ من هذه القوي النافعة، ثم للتربية دخل كبير، فإذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وتربية حسنة، كان حظّه عظيماً من فضائل النفس، وقد اجتمعتا في «خديجة»، فرأينا في سيرتها ذلك المثال السني، والكمال السمي.

عرفنا حسن استعدادها؛ لأنّ التربية وحدها لا تفعل شيئاً في جوهر النفس إذا كان غير صالح لفظها كما لا يصلح الماء لأن تطبع فيه ما تشاء، وعرفنا حسن تربيتها؛ لأنّ الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه إلي المرغوب في المجتمع.

ومن حسن استعداد هذه السيّدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر جديراً بالتنويه وقلماً رأينا من نوه به أو التفت إليه، فلذلك عنينا به نحن كثيراً في صدد هذه السيرة، وهو ارتقاء قوم «خديجة» ارتقاءً عظيماً، فإنّ التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية.

والمجتمع غالباً أشبه بالمرأة، يرينا من الأشياء مقبولاً ومردوداً ومسكوتاً عنه. وتشتهر المقبولات حتّي يُطلق عليها اسم المعروف، والمردودات حتّي يُطلق عليها اسم المنكر، ويضطرّ الناس إلي تقرير تربية عمومية هي أن لا يخالف المعروف ولا يوافق المنكر، ويبقى للناس سبع في المسكوت عنه من الأشياء حتّي يري كلّ منهم رأيه فيها، فهذا يستحسن شيئاً حتّي يوجهه علي نفسه، وذاك يستقبح شيئاً حتّي يحرمه عليها.

وأعقل الناس في هذه الأشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معياراً لها، فكلّ ما قرب من المعروف كان حسناً ويكون وجوبه علي حسبه درجة قربه من

المعروف، وكلّ ما قرب من المنكر كان مستزلاً ويكون حظه علي حسب درجة قربه من المنكر. والأصل في المنكر هو الأذى والعدوان، وعليه قيس الأصل في المعروف قياس الضدّ فالأصل فيه العدل والإحسان.

فعلي هذين الأصلين تقوم دعامة النظريات في التربية، وعليهما تُشاد الأعمال فيها، وأيّ باحث لا تأخذه هيبة إذا أطلع علي ما كان لقوم «خديجة» من التعمّق في دقائق هذا الفنّ من حيث النظر، وعلي بدائع النتائج فيه من حيث العمل. أي والله إنّ هؤلاء القوم لنازلين في ذلك البلد الصغير البعيد، وإخوانهم الآخريين للضاريين في تلك الفيافي، يدهش المطالع ما يراه لهم من الباع لتطويل في فنّ التربية علي مقتضي مجتمعهم ذلك. فتراهم مثلاً لما كانت السماعة ضرورية - ولا سيّما لذلك الاجتماع - جمّلوها في المنام الأول ولم يألوا بطبعها في النفوس، حتّي نبع فيهم أجواد ابتغوا بهمتهم في الجود الكواكب وازيّت الأرض بمناقب همّهم وإيثار أخيهم الإنسان علي أنفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي أثر رفيقه بمائه ومات هو عطشاً.

ولمّا كانت الشجاعة ضربة لازب لكلّ شخص وكلّ جماعة في كلّ زمان وكلّ مكان، تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج المناقب، وسيروا فيما ضربوه من الأمثال قولهم: «الشجاع موقى، والجبان ماقى»، وكا وأينما دحون بالموت قتلاً ويتهاجون بالموت علي الفراش؛ ولمّا بلغ عبد الله بن الزبير - وهو ابن أخي خديجة - قتل أخيه مصعب، خطب فقال: «إن يُقتل فقد قُتل أبوه وأخوه وعمّه، إنّنا لا نموت حتفاً، ولكن قطعاً بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف، وإن يُقتل المصعب فإنّ في آل الزبير خلفاً منه»؛ ذلك لأنّهم كانوا يكرهون الحياة إذا لم تشرف، ويرون الحياة الرذيلة معرضة للعدم أكثر من الحياة الشريفة، ولمثل هذا يقول علي بن أبي طالب: «بقية السيوف أنمي عدداً وأطيب ولدًا»، وتقول الخنساء؛ وهي إحدى الشهيرات في العرب:

نهين النفوس وبذل النفو

س يوم الكريهة أبقى لها

ص: 142

لا يستتكرنّ أحد إذا قيل له أنّ الشجاعة - وهي السجّية التي لا ترقى الأمم إذا خلت منها - كانت في العرب من الأخلاق الغاشية التي لا يعتدّون بأحد منهم ما لم تكن فيه، وقد سهل علي نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها؛ لأنّ أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان وإقدامهم في الشدائد، حتّى فضّلوا، والجنباء وإحجامهم فيها حتّى رذّلوا.

وهنالكَ من الشعر في الشجاعة والشجعان ما يفعل في النفوس فعل السحر فيستنزلها من الخوف علي الحياة والهرب بها إلي الخوف علي الشرف حتّى تهون النفوس في سبيله كقول عنترة وهو أحد مشهوري شجعانهم:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني

أصبحت عن غرض

الحتوف بمعزل

فأجبتها أنّ المنية منهل

لا بدّ أن أسقي بكأس المنهل

فاقتني حياء لا أبا لك واعلمي

أنّي امرؤ سأموت إن لم أقتل

وقد يظنّ ظان أنّ شجاعة العرب وبأسهم لم يكن إلّا فيما بينهم، ومثل هذا الظنّ من قلة الاطلاع علي جملة أخبارهم، فنحن لا نريد أن نأتي بآية علي شجاعته ممّا فعل هؤلاء القوم بعد إسلامهم، فإنّ ذلك مشهور، ولكن حسبنا أن ندلّ القارئ علي ما كان من بأس العرب يوم ذي قار، إذ أراد كسري أن يوقع سوءاً ببني بكر بن وائل لسببٍ لا محلّ لتفصيله، فجهّز عليهم جيشاً كثيفاً ليهلكهم به، وبلغهم خبره، فتجهّزوا له، وأعانهم قبائل أُخري، فتوافوا بوادٍ اسمه «ذوقار»، وكانت الهزيمة علي جيش كسري، حتّى تبعهم العرب إلي داخل البلاد الفارسية، وهي واقعة مشهورة كثرت فيها الأشعار، وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار وحمي الذمار وانقاء العار، وفي هذه الواقعة يقول الأعشي أعشي بني بكر:

وجند كسري غداة الحنو صبّحهم

منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا

لقوا ململمة شهباء يقدمها

طب

للموت لا عاجز متا ولا خوِّف

فرع نمته فروع غير ناقصة

موفق حازم في أمره أنف

فيها فوارس محمود لقاؤهم

مثل الأسنّة لا ميل ولا كُشف

لما رأونا كشفنا عن جماجمنا

ليعلموا أننا بكر فينصرفوا

قالوا البقيّة والهنديّ يحصدهم

ولا بقيّة إلاّ السيف فانكشفوا

لو أنّ كلّ معدّ كان شاركنا

في يوم ذي قار ما أخطأهم الشرف

لما أمالوا إليّ الشباب أيديهم

ملنا ببيضٍ لمثل الهام تختطف

إذا عطفنا عليهم عطفة صبرت

حتّى تولّت وكاد القوم ينتصفوا

بطارق وبني ملك مرازبة

من الأعاجم في آذانها الشُّنف

من كلّ مرجانة في البحر أحرزها

تتارها ووقاها طينها الصدف

كأنّما الال في حافات جمعهم

والبيض برق بدا في عارض يكف

ما في الحدود صدود عن سيوفهم

ولا عن الطعن في اللبّات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول العديل ابن الفرج العجلي:

ما أوقد الناس من نار لمكرمة

إلا اصطلينا وكنّا موقدي النار

وما يعدّون من يوم سمعت به

للناس أفضل من يوم بذي قار

جننا بأسلابهم والنخيل عابسة

لما استلبنا لكسري كلّ أسوار

وفيها يقول شاعر آخر من بني عجل:

إن كنت ساقيةً يوماً ذوي كرم

فاسقي الفوارس من

ذهل بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم

وأعلي مفارقهم مسكاً ورمجانا

وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكمل مظهر، وكان المنذر لهم بنىة كسري وعزمه لقيط الأيادي، إذ كتب إلي بني شيبان يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتحميس واستثارة العزائم، وفيه يقول:

قوموا جميعاً علي أمشاط أرجلكم

ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا

وقلّدوا أمركم لله درّكمو

رحب الذراع بأمر

الحرب مضطلعا

لا مسترفاً إن رخاء العيش ساعده

ولا إذا عصّ مكروه به خشعا

مازال يحلب هذا الدهر أشطره

يكون متبعاً طورا ومتّبعا

حتّي استمرّ علي شزر مويرته

مستحکم لرأي لا فحماء

لا ضرعا

وليس بشغله مال يثوره

عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

فعلي مثل ما ذكرنا كان نصيب العرب عامّة وقبيلة خديجة خاصّة من الشجاعة التي لا قوام للأُمم بدونها، وكانوا لا يعتمدون بالجبان ولا يعدّونه شيئاً مذكوراً. ينبئك بذلك قول أحد شعرائهم:

خرجنا نريد مغاراً لنا

وفينا زياد أبو صعصعة

فستة رهط به خمسة

وخمسة رهط به أربعة

ثمّ لم يكن نصيب قوم «خديجة» في فقه النفس والحكمة والمعارف بأقلّ من نصيبهم العظيم في الشجاعة، فقد كانوا يتناقلون المعارف

ويتدارسونها من غير كتب، وكان لهم إمام قليل بحركات الكواكب والأنواء التي تتبعها، وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب. وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب وحفظ الصحّة، سواء كان طبّ الإنسان أو طبّ الحيوان. والطبّ يقتضي أيضاً نصيباً من علم الخواصّ التي أودعها البارّي في المعدن والنبات والحيوان.

أمّا معرفتهم بالأخبار أي التاريخ، فحدّث عنها ولا حرج، وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب، فإنّ علم النسب في الحقيقة ليس عبارة عن معرفة نسب الأشخاص والقبائل، فإنّ هذه معرفة بسيطة لا تستحقّ أن تُسمّى علماً، وإنّما كان النسّابون يعرفون أخبار أولئك الأشخاص وأخبار تلك القبائل، وهذا هو التاريخ، وربّما كان السبب في اشتها هذه المعرفة باسم علم الأنساب أنّ عارفي الأخبار كان إليهم

المرجع في معرفة الأنساب التي من أهم فوائدها معرفة تفريع القبائل وإحقاق الفروع بأصولها علي شدة البعد بين الأصول وتلك الفروع أحياناً.

وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم، يلقون منه علي من يتحلّقون حولهم. قال

رؤية ابن العجاج: «قال لي النسابة البكري: يا رؤية، لملك من قوم إن سكت عنهم لم يسألوني، وإن حدّثتهم لم يفهموني؛ يعيب بذلك علي الذين لا يرغبون في تلقّي هذا العلم حقّ الرغبة. قال رؤية: فقلت له: إنّي أرجو أن لا أكون كذلك. قال: فما آفة العلم ونكرته وهجنته؟ قلت: تخبرني: قال آفة العلم النسيان، ونكرته الكذب، وهجنته نشره عند غير أهله».

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب علي حفظها ودراسة الكلم الجوامع فيها مبلغاً عظيماً ويمكنني أن أقول إنّها من أشهر ما اشتهر عنهم.

وهل يجد الباحث معنيّ من المعاني التي يخطر للنفس فيها الاستحسان أو الاستهجان إلاّ ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وإبرازه بأبداع حلّة، ولا يُبنيك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلمهم الجوامع التي سارت مسير الأمثال، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الأقوال، ولا نستطيع أن نأتي هنا بقليل من ذلك الكثير؛ لكيلا نبعد بالقارئ عن سياق السيرة، ولكنّا نذكر خبراً واحداً يدلّ علي مقدار عناية العرب بتذاكر

الحكم والآداب، وصياغتها بأبداع البيان، ومقدار ما وسعت منها تلك الأفكار:

«ذكروا أنّ عمرو بن الطرب العدواني وجمعة بن رافع الدوسي اجتماعاً عند ملك من ملوك حمير، فقال: تساءلا حتّي أسمع ما تقولان. فقال عمرو لجمعة أين تحبّ أن تكون أياديك؟ قال: عند ذي الرتبة العديم، وعند ذي الخلة الكريم، والمعسر العديم، والمستضعف الحلیم. قال: من أحقّ الناس بالمقت؟ قال: الفقير المختال، والضعيف الصوّال، والغني القوّال. قال: فمن أحقّ الناس بالمنع؟ قال: الحريص الكائد، والمستמיד(1) الحاسد، والمخلف الواجد. قال: من أجدر الناس بالصنيعة؟ قال: من إذا أعطى شكر، وإذا

ص: 146

1- . المستמיד هو: المستعطي.

مُنِعَ عذْر، وإذا مُطِّلَ صَبْر، وإذا قَدِمَ العَهْدَ ذَكَر. قال: من أكرم الناس عشرة؟ قال: من إذا قَرِبَ مَنَح، وإذا ظَلَمَ صَفَح، وإن ضَوِّقَ سَمَح. قال: من الأُمِّ الناس؟

قال: من إذا سَأَلَ خَضَعَ، وإذا سَمَّئِلَ مَنَعَ، وإذا مَلِكَ كَنَعَ(1)، ظَاهِرُهُ جَشَع، وبَاطِنُهُ طَبَعَ(2). قال: فَمَنْ أَجَلُّ النَّاسِ؟ قال: مَنْ عَفَا إِذَا قَدَرَ، وَأَجْمَلَ إِذَا انْتَصَرَ، وَلَمْ تَطْغُه عَزَّةُ الظُّفْرِ. قال: فَمَنْ أَحْزَمُ النَّاسِ؟ قال: مَنْ أَخَذَ رِقَابَ الأَسْوَدِ بِيَدَيْهِ، وَجَعَلَ العَوَاقِبَ نَصَبَ عَيْنِيهِ، وَنَبَذَ التَّهَيِّبَ دُبْرَ أُذُنِيهِ. قال: فَمَنْ أَخْرَقَ النَّاسِ؟ قال: مَنْ رَكِبَ الخَطَارَ، وَاعْتَسَفَ العِثَارَ، وَأَسْرَعَ فِي البِدَارِ قَبْلَ الاقْتِدَارِ(3). قال: مَنْ أَجْوَدُ النَّاسِ؟ قال: مَنْ بَذَلَ المَجْهُودَ، وَلَمْ يَأْسَ عَلَيِ المَفْقُودَ. قال: فَمَنْ أْبْلَغُ النَّاسِ؟ قال: مَنْ حَلَّى المَعْنِي العَزِيْزَ بِالْفِظِ الوَجِيْزِ، وَطَبَّقَ المَفْصَلَ قَبْلَ التَّحْزِيْزِ. قال: مَنْ أَنْعَمَ النَّاسَ عَيْشاً؟ قال: مَنْ تَحَلَّى بِالعَفَافِ، وَرَضِيَ بِالكِفَافِ، وَتَجَاوَزَ مَا يَخَافُ إِلَيَّ مَا لَا يَخَافُ.

قال: فَمَنْ أَشَقِي النَّاسِ؟ قال: مَنْ حَسَدَ عَلَيِ النِّعَمِ، وَسَخَطَ عَلَيِ القِسْمِ، وَاسْتَشْعَرَ النِّدَمَ عَلَيَّ مَا انْحَتَمَ. قال: مَنْ أَغْنَى النَّاسِ؟ قال: مَنْ اسْتَشْعَرَ اليَأْسَ، وَأَظْهَرَ التَّجَمُّلَ

لِلنَّاسِ، وَاسْتَكْتَرَّ قَلِيلَ النِّعَمِ، وَلَمْ يَسْخَطْ عَلَيِ القِسْمِ. قال: فَمَنْ أَحْكَمُ النَّاسِ؟ قال: مَنْ صَمَتَ فَأَذْكَرَ، وَنَظَرَ فَاعْتَبَرَ، وَوَعِظَ فَازْدَجَرَ. قال: مَنْ أَجْهَلُ النَّاسِ؟ قال: مَنْ رَأَى الخُرْقَ مَغْنَمًا، وَالتَّجَاوَزَ مَغْرَمًا.

وما ذكرناه من جهة معارف القوم الذين نشأت منهم هذه السيِّدة كافٍ في الدلالة علي أنه كان من جملة ما يعنون به من التربية ثقيف ناشتتهم بما عندهم من المعارف علي الطريقة التي ألفوها وتعودوها في التعليم، وهي الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والتفاصيل التي يحتاج إليها نفر قليلون، ويستغني عليها الآخرون. ولكل فرع أهله الذين بهم استعداد لا لتقاطه بسهولة، ولا يُكَلِّف البليد في شيء أن يكد في تفهمه مدرسته، أو ينضوي في حفظه ذاكرته، أو في توسيعه مخيلته.

ص: 147

- 1- . معني كنع هنا: انكمش.
- 2- . الطَّبَعَ - بفتحتيين - هو الدنس.
- 3- . يريد بالبدار: معالجة الخصم.

ثمّ قد كان ممّا عني به العقلاء من رهط خديجة التريية علي العدل، ولقد أسلفنا شيئاً عن ولعهم به وحرصهم علي حماية المظلوم ووقاية المهضوم، وكذلك ولعوا بتمداح العفاف وتشريف الإعفاف والمفائف، وإجلال الطهارة وأهلها، وكان من أكرم آلتهم وأجلّها لقب الطاهر، وقد حازت السيّدة «خديجة» هذا اللقب الشريف باستحقاق، إذ كان يُقال لها: «الطاهرة».

فإذا عرف المطالع الكريم أنّ لهؤلاء القوم حظّاً كبيراً من هذه الأشياء التي هي أصول الفضائل؛ نعني السماحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفّف، كان جديراً به أن لا ينظر إلي صغر شأن ذلك المجتمع إذا قورن ببلاد الحضارة، فإنّ الفضل الإنساني الممنوح من يد الفاطر المبدع، لا يتوقّف علي زخرف البيوت وكثرتها وفي البلد الواحد، بل يصل ذلك الفضل بإرسال ربّاني من يده سبحانه إلي الذرّات الصغيرة التي في الأدمغة، ويختصّ به سبحانه أفراداً ممّن عنوا بتوجيه العقول والقلوب إلي تصفية النفس وتزكيتها من النقائص وتحليتها بالفضائل، ممّن لم يجعلوا أكبر همّهم تجويد المأكل والملبس والمسكن والفراش.

فإذا كثرت من هؤلاء الأفراد في أمة ظهرت، وإن حلّ الخفاء بهم واستوفت وإن بخش الوزن لهم، ولم يكن الأفراد الذين تلقّوا هدية الفضل الإنساني من الإحسان الربّاني قليلين في قوم «خديجة» الفاضلة، بل كانت كثرتهم خير مقدّمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أكبر مميّزات جماعته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أولئك الذين وافاهم الوحي ينعتهم بما هم أهلُه قائلاً: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ).

الشيخ جعفر عباس الحائري⁽¹⁾

ملخص البحث:

يجري مؤلف هذا البحث دراسة تاريخية لنسب السيدة خديجة، ويتحرى المصادر التاريخية الموثقة؛ لغرض تسليط الضوء على الامتدادات التاريخية لأسرتها وتاريخ وظروف ولادتها ونشأتها، والألقاب التي وُصفت بها. ثم يأتي بعد ذلك علي شرح سيرة حياتها، وما كانت تمارسه من عمل التجارة، وما اشتهرت به من حسن السيرة، وما نالته من ثناء مَمَّن عرفها وعمل معها. ثم يستعرض بعد ذلك الظروف التي تعرّفت فيها علي النبي محمد (صلي الله عليه وآله) ودعته إلي الخروج في قافلة تجارتها المتوجهة إلي الشام برفقة غلامها ميسرة، وكيف انتهى الحال إلي زواجها منه. كما يبيّن كيفية إيمانها برسالة الإسلام لما بُعث بها الرسول نبياً، ودورها في مؤازرته في دعوته بكلّ ما أُوتيت من قوّة وجاه ومال وثروة.

وسرد في سياق هذا البحث أنّ رسول الله كان يشاورها في أموره، وقد بشّرها بالجدّة في مواقف متعدّدة، ومدي حزنه علي وفاتها. وكان المنهج الذي اتّبعه المؤلّف هو المنهج التوثيقي المكتبي.

ويتناول في هذا البحث ما ورد في ذكر السيدة خديجة علي لسان الأعلام

ص: 150

1- . علّق علي هذا البحث الشيخ علي أبو عمّار المعبودي الشطري، وميّزنا تعليقاته بكلمة (الشطري)، وميّزنا تعليقات المؤلّف بوضع كلمة (المؤلّف) بين قوسين في نهايتها.

والمؤرخين، وما ذكروه من فضائلها وتفضيلها علي سائر أزواج النبي (صلي الله

عليه وآله)، ويسهب في بيان كيفية إسلامها وإيمانها برسالته، وأنها كانت أول من آمن بدعوته، مع التأكيد علي إبراز مواقفها الداعمة للنبي ومؤازرته، وأنها قد كرسّت ثروتها لخدمة نشر الإسلام وتوطيد أركانه. ويذكر فيه أيضاً سائر أحوال هذه المرأة الجليلة وقصة زواجها بالنبي (صلي الله عليه وآله)، وما وُلد له منها من الأولاد. ويسرد فيه ما اختلف من الأقوال في عددهم، مع ذكر نبذة عن حياة كل واحدٍ منهم، ومدّة حياته وظروف وفاته وموضع دفنه. ومن الأمور التي تناولها هذا البحث قضية وفاة خديجة وتاريخ وفاتها، وتجهيزها وتكفينها ودفنها، وما جاء من أقوال المؤرخين في ذلك. المنهج الذي سار عليه الكاتب هو المنهج المكتبي التوثيقي حيث تقصّي فيه مختلف الآراء التي ذكرها المؤرخون بشأن السيّدة خديجة.

الحمد لله وسلامٌ علي عباده الذين اصطفى، محمّد وآله الأئمة الأئمّة، واللجنة الدائمة علي أعدائهم من الأولين والآخرين.

وبعد؛ فهذه نُتفّ أفرغتها في بوتقة التأليف، فجاءت سبائك ذهبيّة من حياة أمّ المؤمنين، وأحظي النساء بالفضيلة والشرف، والدة سيّدة نساء العالمين، خديجة بنت خويلد سلام الله عليها.

وتحرّيت في جمع ما أردت تأليفه أوثق المصادر، فتجلّت حقائق ناصعة يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار، وقد كلّفني ذلك متاعب ومصاعب، فاستسهلتها راجياً شفاعتها يوم الحشر، ومن الله أستمدّ التوفيق وأسأله المعونة. وإليك البيان:

اسمها وكنيتها ولقبها

قال العلامة سبط ابن الجوزي(1): أمّا خديجة، فهي بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي(2) بن قصي بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لويّ - ويقال بالهمزة - ... إلي أن ينتهي نسبها إلي عدنان.

ص: 151

1- . تذكرة الخواصّ: ص170. (المؤلف).

2- . عبد العزّي أخو عبد مناف أحد أجداد النبي، أبوهم قصي بن كلاب، فهي (عليها السلام) تلتقي مع رسول الله في الجدّ الرابع وهو قصي بن كلاب. (الشطري).

وأُمّها: فاطمة بنت زائدة بن الأصمّ، من وُلدِ فِهر بن مالك(1).

وأُمّ فاطمة: هالة بنت عبد مناف(2).

وأُمّ هالة: العرّقة، وهي قلابة بنت سعيد، من بني لؤيّ بن غالب(3).

قال الواقدي(4): وكانت خديجة - وهي بَكْرٌ - قد ذكرت لورقة بن نوفل، وكان ابن عمّها، فلم يُقبض بينهما نكاح، فتزوَّجها أبو هالة، واسمه هند بن النبّاش التميمي(5)، فولدت له هنداً وهالة، اسم رجلين، ثم تزوّجها عتيق بن عائذ المخزومي(6)، فولدت له

ص: 152

1- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 37. (المؤلف).

2- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 37 طبع النجف. (المؤلف).

3- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 37. (المؤلف).

4- . هو أبو عبدالله محمّد بن عمر ابن المدني، مولي بني هاشم. قال ابن النديم في الفهرست: كان يتشيع، حسن المذهب، يلزم التقية، توفي سنة 207هـ. (المؤلف).

5- . اختُلف في اسمه، ففي بعض المصادر: هند بن النبّاش بن زرارة التميمي (أبو هالة)، وفي بعضها: النبّاش بن زرارة. للاطلاع علي هذه الاختلافات وغيرها، راجع: الإصابة: ج 3 ص 611 - ص 612، نسب قريش لمصعب الزبيرى: ص 22، السيرة الحلبيّة: ج 1 ص 140، قاموس الرجال: ج 1 ص 431، أسد الغابة: ج 5 ص 12 - 13 ح 71، الصحيح من السيرة: ج 1 ص 121. (الشطري).

6- . هو عتيق بن عائذ بن عبد المخزومي. أقول: اختلف المؤرّخون في زوج خديجة الأوّل، من هو؟ عند من يقول إنّها تزوّجت قبل النبيّ، فبعض المصادر تشير إلي أنّ زوجها الأوّل هو عتيق بن عائذ بن عبد المخزومي، وزوجها الثاني هو أبو هالة، هند بن النبّاش بن زرارة (راجع: السيرة النبوية: ج 4 ص 193، تاريخ الطبري: ج 3 ص 175، المحبّر: ص 79، السمط الثمين: ص 13، عيون الأثر: ج 4 ص 51). بينما تشير مصادر أخرى إلي أنّ زوج خديجة الأوّل هو أبو هالة، وعتيق هو الثاني (راجع: الاستيعاب: ج 4 ص 10 وص 1817، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم: ص 133 وص 199 ط أولي سلسلة «من ذخائر العرب»، ففيه ترجمة الرجلين: عتيق، وأبي هالة. وهناك رأي ينفي زواج خديجة من أيّ شخص قبل رسول الله، يذهب إليه صاحب مناقب آل أبي طالب، قال: روي أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضي في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: «أنّ النبيّ تزوّج بها وهي عذراء» (راجع: الصحيح من السيرة: ج 1 ص 121، نقلاً عن مناقب آل أبي طالب: ج 1 ص 159، الاستغاثة: ص 70، بنات النبيّ أم ربّانته: ص 88 - ص 95). ومن الأدلّة علي نفي زواج خديجة قبل رسول الله، هو ما ذُكر في كتابي الأنوار والبدع: أنّ رقية وزينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة (الصحيح من السيرة: ص 121، بنات النبيّ أم ربّانته: ص 88 - 95، مناقب آل أبي طالب: ج 1 ص 159). (الشطري).

جارية اسمها هند، وكانت تُدعى أم هند.

وحكي ابن سعد(1) في الطبقات عن الواقدي، قال: كانت أسنّ من رسول الله(صلي الله عليه وآله) بخمسة عشر(2).

قال الواقدي: وكانت ذا شرفٍ ومالٍ كثيرٍ وتجارةٍ تبعث إلي الشام، فيكون عيُّها كعيير عامّة قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربةً، فلَمَّا بلغ رسول الله خمساً وعشرين سنةً - وليس له بمكّة اسم إلا الأمين - أرسلت إليه تسأله الخروج إلي الشام مع عيِّرها، مع مولاها ميسرة، فسافر رسول الله(صلي الله عليه وآله) بعييرها إلي الشام، فرأى غلامها ميسرة منه في الطريق العجائب، ورأى الغمامة تُظله، فلَمَّا قدم مكّة رأت الغمامة علي رأسه، وحكي لها ميسرة ما شاهد، فتزوَّجت بعد قدومه من الشام بشهرين ويومين، زوّجه إيّاها أبوها(3)، وقيل: أخوها عمرو بن خويلد، وقيل: إنّما زوّجها عمّها عمرو، وهي بنت أربعين سنة، وهو الأصحّ؛ لأنّها ولدت قبل عام الفيل بخمسة عشر(4).

قال الواقدي: مات أبو خديجة قبل الفجار الأول، أو في حرب الفجار.

وأما كنيّتها

فقد ذكر العلامة المجلسي(5) نقلاً عن كتاب معالم العترة النبويّة لأبي محمّد، عبدالعزيز بن الأخضر الجُنابذي الحنبلي(6): رُوي أنّ خديجة رضوان الله عليها كانت تكتبي بأمّ هند.

ص: 153

- 1- . هو أبو عبدالله محمّد بن سعيد الزهري، كاتب الواقدي، توفّي سنة 230 (راجع: الكني والألقاب للقمي). (المؤلف).
- 2- . تاريخ الخميس: ج 1 ص 264، السيرة الحلبيّة: ج 1 ص 140، سيرة مغلطي: ص 12، بحار الأنوار: ج 16 ص 12 وص 19، البداية والنهاية: ج 2 ص 295. (الشطري).
- 3- . نقله الواقدي. (المؤلف).
- 4- . كشف الغمّة للأربلي: ج 2 ص 139، وعنه بحار الأنوار: ج 16 ص 12 وص 19 عن الواقدي، وراجع: السيرة الحلبيّة: ج 1 ص 138. (الشطري).
- 5- . بحار الأنوار: ج 6 ص 120. (المؤلف).
- 6- . وُلد سنة 526هـ، وصنّف مصنّفات كثيرة في علم الحديث مفيدة، وأخذ من الخطيب كثيراً من كتبه، مات في 6 شوال سنة 111هـ، ودُفن بباب الحرب في بغداد (راجع: معجم الأدباء). والجُنابذي نسبة إلي جُنابذ - بالضم - : ناحية من نواحي نيسابور يقال لها كُناباد، يُنسب إليها جمع كثير. (المؤلف).

قال الخوارزمي(1): قال محمد: وكُنيت خديجة أم هند، وكان لها ابنٌ و بنت حين تزوّجها رسول الله(صلي الله عليه وآله)، وأمّ خديجة فاطمة بنت زائدة بن الأصم، وأمّها هالة بنت عبد مناف.

وأما لقبها

واللقب يعرفه النحويون بأنه هو: ما أشعر بمدح المسمّي أو وضعته. ومثال المشعر بالمدح: كجذل الطعان، وصياد الفوارس. ومثال المشعر بالذم: كالأعشي والأعمش.

وقال الرضي: الفرق بين اللقب والكنية معني: أنّ اللقب يُمدح الملقّب به أو يُذمّ بمعني ذلك اللفظ، بخلاف الكنية، فإنه لا يُعظّم المكّنّي بمعناها، بل بعدم التصريح بالاسم؛ فإنّ بعض النفوس تأنف أن تُخاطب باسمها(2).

ومن الألقاب التي تُشعر بالمدح هو ما لُقبت به خديجة:.

جاء في السيرة الحلبيّة(3) وابن عبد البر(4) وابن الأثير(5)، قالوا جميعاً: كانت تُلقّب بالطاهرة(6).

فضائلها ومناقبها

قال الشيخ العلامة، فقيه الحرمين، مفتي العراقين، محدّث الشام، صدر الحفاظ، أبو عبد الله، محمّد بن يوسف بن محمّد، القرشي الكنجي الشافعي، المتوفّي سنة 658(7): ومن مناقبها: سبق

ص: 154

- 1- مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 37، طبع النجف. (المؤلف).
- 2- لاحظ بحث «الكنية حقيقتها وأثرها في الحضارة والعلوم الإسلاميّة» للسيد محمّد رضا الحسيني الجليلي، مطبوع في مجلّة تراثنا العدد (17).
- 3- تأليف علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، صاحب إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف بالسيرة الحلبيّة. كان واسع العلم، غايةً في التحقيق، حادّ الفهم، قويّ الفكرة، متحرّياً في الفتوي، توفّي بالقاهرة سنة 1044، كما ذكر القمّي في الكني والألقاب. (المؤلف).
- 4- هو الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله الأندلسي المغربي الأشعري، صاحب كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، كان إمام عصره في الحديث والأدب، توفّي بشاطبة سنة 463هـ، كما في الكني والألقاب. (المؤلف).
- 5- هو عزّ الدين أبو الحسن علي بن المكرم، ولد بالجزيرة، وسكن الموصل، ولزم بيته منقطعاً علي النظر في العلم والتصنيف، وكان بيته مجمع الفضل، وكان حافظاً للأحاديث والتواريخ، وخبيراً بأيام العرب وأخبارهم، وصنّف مصنّفات، توفّي بالموصل سنة 630هـ، كما ذكر القمّي في الكني والألقاب. (المؤلف).
- 6- السيرة الحلبيّة: ج 1 ص 137، الاستيعاب، أسد الغابة، الإصابة في تمييز الصحابة، وانظر: تنقيح المقال: ج 3 ص 77، ولاحظ: الصحيح من سيرة النبي الأعظم: ج 1 ص 112. (الشطري).
- 7- كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب: ص 215، ط النجف. (المؤلف).

هدايتها(1)، وبشارتها للنبي(صلي الله عليه وآله)، ومشورتها مع ورقة بن نوفل في أمر رسول الله في بدء الوحي.

وهو ما أخبرنا به أئمة الأمصار وحفاظ الوقت:

شيخ الإسلام حجة العرب، أبو عبدالله محمد بن أبي الفضل المرسي، بمكة شرفها الله تعالى.

وأوحد دهره أبو عمرو، عثمان بن عبد الرحمن، أبو الصلاح.

وقدوة أهل الحديث، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الصريفي، بدمشق.

وبقية السلف، أبو عبدالله محمد بن عبد الواحد المقدسي، بجبل قاسيون.

وشيخ المذهب، علامة الزمان، أبو الثناء محمود بن أحمد الحصري، بدمشق أيضاً، ومولده ببخاري سنة ست وأربعين وخمسمائة، وتوفي يوم الأحد ثامن صفر سنة ست وثلاثين وستمائة.

وحجة الإسلام، شافعي الوقت، أبو سالم محمد بن طلحة النصيبي(2).

ومؤرخ العراق، أبو عبدالله محمد بن محمود بن الحسن، المعروف بابن النجار، ببغداد، ومولده ليلة الأحد ثالث عشر من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وتوفي بكرة الثلاثاء خامس شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وتقدم في الصلاة عليه شيخنا العلامة رئيس الأصحاب شرقاً وغرباً، أبو محمد عبدالله بن أبي الوفاء، الباذرائي، ودُفن بالشهداء من باب حرب.

قالوا جميعاً: أخبرنا المقرئ أبو الحسن المؤيد بن محمد بن علي، الطرسوسي، بنيسابور: أخبرنا أبو عبدالله بن محمد بن الفضل: أخبرنا أبو الحسين عبد الغافر، أخبرنا أبو أحمد محمد، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم، أخبرنا الحافظ مسلم بن الحجاج، أخبرنا أبو طاهر أحمد بن عمرو بن سرح، أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني يوسف بن شهاب، قال: حدثني ابن الزبير: أن عائشة زوج النبي(صلي الله عليه وآله) أخبرته أنها قالت: كان أول ما بدئ به رسول الله(صلي الله عليه وآله)

ص: 155

1- . لاحظ الصحيح من السيرة: ج 1 ص 245. (الشطري).

2- . هو كمال الدين محمد بن طلحة بن محمد بن الحسن النصيبي العدوي الشافعي، أحد الصدور والرؤساء المعظمين، له: مطالب السؤل والعقد الفريد، توفي بحلب سنة 652هـ (راجع الكني والألقاب للقمي). (المؤلف).

من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء(1) فيتحنّث فيه (وهو التعبد) الليالي أولات العدد، قبل أن يرجع إلي أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلي خديجة فيتزوّد لمثلها، حتّى فجأه الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني(2) حتّى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية، حتّى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، حتّى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني، فقال: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ

مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

فرجع بها رسول الله(صلي الله عليه وآله) يرجف فؤاده(3). حتّى دخل علي خديجة، فقال: زمّلوني زمّلوني! فزمّلوه حتّى ذهب منه الروح. ثمّ قال لخديجة: أي خديجة، مالي؟ وأخبرها الخبر، قال: لقد خشيتُ علي نفسي، قالت له خديجة: كلاً، ابشر، فوالله لا يُخزيك الله أبداً، والله إنك لتصلُ الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتكسر المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين علي نوائب الحقّ.

فانطلقت به خديجة حتّى أتت ورقة بن نوفل(4) بن أسد بن عبد العزّي، وكان امرأً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربيّ من الإنجيل بالعبريّة ما شاء الله، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك.

قال ورقة بن نوفل: يا بن أخي، ماذا تري؟ فأخبره رسول الله(صلي الله عليه وآله) خبر ما رآه.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل علي موسى، يا ليتني فيها جذعاً، يا ليتني أكون حين يُخرجك قومك، قال رسول الله(صلي الله عليه وآله) وآله: ألم يأت (آله): أو مُخرِجِي، هُم؟ قال ورقة: نعم، لم يأت

ص: 156

1- قال ابن الأثير في النهاية في مادّة «حراء»: «في الحديث: كان (أي النبيّ) يتحنّث بحراء، وهي - بالكسر والمدّ - جبلٌ من جبال مكّة، معروف، ومنهم من يُؤنّثه ولا يصرفه. قال الخطابي: وكثير من المحدّثين يغلطون فيه، فيفتحون حائه ويقصرونه ويميلونه، ولا يجوز إمالته؛ لأنّ الراء قبل الألف مفتوحة، كما لا تجوز إمالة رافع وراشد». (المؤلف).

2- قال ابن الأثير أيضاً في النهاية في مادّة «غطط» في حديث ابتداء الوحي: «فأخذني جبرئيلُ فغطني»: «الغَطُّ: العصر الشديد والكبس، ومنه: الغَطُّ في الماء والغوص. قيل: إنّما غطّه ليختبره هل يقول من تلقاء نفسه شيئاً؟» (المؤلف).

3- . ترجف بوادره (خ ل). (المؤلف).

4- . جاء في عمدة القاري: ص62: كان في الجاهلية لفضله وفضيلته يُلقب بالقسّ. (المؤلف).

رجلٌ قَطَّ بما جئتَ به إلا عودِي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً(1).

قلت: هذا حديث متفقٌ علي صحته، رواه مسلم كما سقناه، ورواه البخاري(2) في أول كتابه عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب.

وفي هذا الحديث حجة واضحة تشهد بصحة ما ذكرت في حقها وسبقها للإسلام.

وروي الخوارزمي 1 عن ابن إسحاق: حدّثني عبد الملك بن عبد الله الثقفي، عن بعض أهل العلم. وساق حديث المبعث إلي أن قال: قال رسول الله(صلي الله عليه وآله): إني أخاف الجنون!

فقلت له خديجة: أعيذك بالله يا أبا القاسم من ذلك، ما كان الله ليفعل بك ذلك مع ما أعلم من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وحسن خلقك، وصلة رحمك، وما ذاك يابن العم؟ لعلك قد رأيت شيئاً أو سمعته.

ص: 157

1- قال العلامة الطباطبائي في الميزان في تعليقه علي قصة ورقة بن نوفل مع خديجة: «والقصة لا تخلو من شيء، وأهون ما فيها من الإشكال شكّ النبي في كون ما شاهده وحيّاً إلهياً من ملك سماوي ألقى إليه كلام الله! وتردده، بل ظنّه أنه من مسّ الشياطين بالجنون! وأشكل منه سكون نفسه في كونها نبوةً إلي قول رجل نصراني مترهب؟! وقد قال تعالي: (قُلْ إِنِّي عَلَي بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) (الأنعام: 57)، وأي حجة بيّنة في قول ورقة؟! وقد قال الله تعالي: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي) (يوسف: 108)، فهل بصيرته هي سكون نفسه إلي قول ورقة؟ وسكون من اتبعه سكون أنفسهم إلي سكون نفسه ما لا حجة فيه قاطعة؟ وقال تعالي: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) (النساء: 163)، فهل اعتمادهم في نبوتهم علي مثل ما تقصّه هذه القصة؟» (تفسير الميزان: ج 2 ص 329). وللسيد جعفر العاملي بحثٌ حول بدء الوحي وردّ الأساطير (كقصة ورقة بن نوفل وغيرها) في الصحيح من السيرة: ج 1 ص 217 - 238، وكذلك للشيخ جعفر السبحاني في سيّد المرسلين: ج 1 ص 336 - 342، وكذلك للشيخ هادي معرفت في التمهيد في علوم القرآن: ج 1 ص 47 - 565، يجدر بالباحثين الوقوف عليها؛ لأنّ ذكر هذه القصة تسيء إلي النبي، لذا ردّها الكثير من علمائنا المحقّقين رحم الله الماضين منهم وأعلي شأن الحاضرین. وهذه القصة ذكرها علماء العامة وتكلّموا فيها بطريقة غير مألوفة، وربّما لا يستسيغها العقل الفطري في شيء، أمّا علماؤنا الإمامية فتكلّموا فيها بطريقة عقلية علي أساس الاستدلال البرهاني، مدعماً بالنقل المأثور عن أمّة أهل البيت: (التمهيد: ج 1 ص 47). (الشطري).

2- ذكره البخاري في باب الوحي، كيف بدأ الوحي إلي رسول الله: ج 1 ص 3 من صحيحه، وذكره أيضاً في الجزء الثالث: ص 125 في كتاب التفسير عنوان سورة (اقرأ باسم ربك الذي خلّق). (الشطري).

فأخبرها أنه رأى جبرئيل واقفاً بالهواء يقول: (أَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ). (1) فقالت له:

ابشر يا بن عمّ، واثبت له، فوالذي يُحلف به إنّي لأرجو أن تكون نبّي هذه الأُمَّة.

ثمّ قامت فجمعت ثيابها عليها وانطلقت إلي ورقة بن نوفل، وهو ابن عمّها وكان قد قرأ الكتب والإنجيل وتصدّر، فأخبرته الخبر، وقصّت عليه ما قصّه رسول الله (صلي الله عليه وآله) عليها.

قال ورقة: قَدْ وُسِّ قَدْ وُسِّ، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنتِ صدقتني يا خديجة، لهو نبّي هذه الأُمَّة، وإنّه ليأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، فقولي له فليثبت.

فرجعت إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فأخبرته الخبر، فسَهّل ذلك عليه بعض ما فيه من الهمّ.

فلما قضى رسول الله (صلي الله عليه وآله) جواره من جِراء بدأ بالكعبة، فطاف بها، فلقية ورقة وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا بن أخي، خبّرنا بالذي رأيت وسمعت. فأخبره بذلك، فقال: إنك لنبّي هذه الأُمَّة، ولتُؤذِينَّ ولتُكذِّبِينَّ ولتُقاتِلِنَّ، ولئن أدركتُ ذلك لأنصرك نصراً يعلمه الله.

ثمّ أدني إليه رأسه فقَبَّلَ يافوخه.

ثمّ انصرف رسول الله (صلي الله عليه وآله) وقد زاده قولُ ورقة ثباتاً، وخَفَّفَ عنه بعض ما كان فيه من الهمّ، وقال ورقة لخديجة (عليها السلام) في ذلك:

فإن يك حقّاً يا

خديجةُ فاعلمي

حديثك إيانا فأحمدُ

مرسلُ

يفوز به من فازَ فيها

بتوبةٍ

ويشقي

به العاتي الغويُّ المصلُّ

فريقان منهم فرقةٌ في

جنانه

وأخري لترجوان جحيم

تغلل

وقال ورقة بن نوفل في ذلك أيضاً:

يالرجال

لصرف الدهر والقدر

وما

لشيء قضاء الله من غير

أت

خديجة تدعوني لأخبرها

ص: 158

1- . الخوارزمي: هو الموفق محمد بن أحمد المؤيد بن أبي سعيد إسحاق، المؤيد المكي الخوارزمي، كما ذكر ذلك صاحب كتاب الفوائد البهية في طبقات الحنفية وصاحب التعليقات عليها، المطبوعين بمطبعة الخانجي في مصر، قالا فيهما: ولد سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وقرأ علي أبيه وغيره، وتوفي في خوارزم سنة ثمان وستين وخمسمائة أو تسع. انتهى. (المؤلف).

وما

لها بخفي الغيب من خبر

جاءت

تسألني عنه لأخبرها

أمراً

أراه سيأتي الناس في آخر

بأن

أحمد يأتيه فأخبره

جبريل أن هو مبعوث إلي البشر

فقلت

علّ الذي ترجين ينجزه

لك

الإله فرجّي الخير وانتظري

وأرسله

إلينا كي نسأله

عن أمره ما يري في النوم والسهر

فقال

حين أتانا منطماً عجباً

يقفّ

منه أعالي الجلد والشعر

إني

رأيت أمين الله واجهني

في صورة أكملت من أهيب الصور

ثم

استمر فكاد الخوف يذعني

مما يسلم من حولي من الشجر

فقلت

ظني وما أدري ليصدقني

أن سوف تُبعث تلو منزل السور

وسوف تأتيك إن أعلنت دعوتهم

من

الجهاد بلا من ولا نذر⁽¹⁾

قال سبط ابن الجوزي: قال هشام بن محمد د: كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يودّها ويحترمها ويشاورها في أموره كلّها⁽²⁾، وكانت وزير صدق⁽³⁾، وهي أول امرأة آمنت به، ولم يتزوج عليها في حياتها أبداً، وجميع أولاده منها، إلا إبراهيم ابن مارية لما نذكر⁽⁴⁾.

قال أحمد بن حنبل في المسند: حدّثنا عبد الله، حدّثنا هشام عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، عن عليّ، قال: سمعتُ رسول الله (صلي الله عليه وآله) يقول: خيرُ نساءها مريم بنت عمران، وخيرُ نساءها خديجة بنت خويلد⁽⁵⁾.

متفق عليه. والمراد بالأول نساء بني إسرائيل، وبالثاني نساء هذه الأمة.

ص: 159

1- . مقتل الحسين : ج 1 ص 21 ط النجف. (المؤلف).

2- . بحار الأنوار: ج 16 ص 10، وج 19 ص 348. وفي رواية في صحيح مسلم: «إني قد رزقت حبّها»، (فضائلها) (الجامع الصحيح: ج 5 ص 702، جامع الأصول لابن الأثير: ج 1 ص 80 ح 2435). (الشطري).

3- . تراجم سيّدات بيت النبوة: ص 231 عن السيرة لابن إسحاق: ج 2 ص 57، تاريخ الطبري: ج 2 ص 229، عيون الأثر: ج 1 ص 130. (الشطري).

4- . تذكرة الخواص: ص 70 ط النجف. (المؤلف). وفي بحار الأنوار: ج 16 ص 10، وكفاية الطالب: ص 359 عن عائشة أنّها قالت: «لم يتزوج النبيّ عليّ خديجة حتّى ماتت». أخرجه مسلم في صحيحه كما سقناه، وهذا دليل عليّ جلاله قدرها وإكرام النبيّ لها بترك التزويج

عليها حال حياتها، والمداومة علي ذكرها بعد مماتها(عليها السلام) . وقال : «ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء»، كما في السمط
الثمين: ص 26، الاستيعاب: ج 1 ص 1824. (الشطري).
5- . مسند أحمد: ج 1 ص 84، صحيح البخاري: ج 5 ص 47. (المؤلف).

وفي الصحيحين أيضاً، من حديث أبي هريرة، قال: أتى جبرئيل رسول الله (صلي الله عليه وآله) فقال: يا محمد، هذه خديجة قد أتتك فافراها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب (1).

القَصَب: الدرّ المجوّف، والصخب: الأصوات المختلفة، والنصب: التعب.

ومعناه أنه لا بدّ لكل بيتٍ من تعب وإصلاح، إلا قصور الجنة فإنها لا تعب في بنائها. وقيل: لما تعبت في تربية الأولاد حصلت لها الراحة بالمناسبة.

وفي الصحيحين أيضاً أنّ عائشة قالت: ما غرتُ (2) علي أحدٍ من نساء رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما غرتُ علي خديجة، وما رأيتها قطّ، ولكن كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يكثرُ ذكرها، وربّما يؤتي الشاة فيقطعُ أعضائها، ويبعث بها إلي صدائق خديجة (3)، فأقول: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: إنّها كانت وكانت، وكان لي منها الأولاد (4).

الصدائق: الخلايل.

وفي رواية عن عائشة قالت: فأدركتني الغيرة يوماً، فقلتُ: وهل كانت إلا عجوزاً قد أخلفَ اللهُ لك خيراً؟! قالت: فغضبَ حَتّيَ احتزّ مقدّم شعره، وقال: والله ما أخلفَ لي خيراً منها، لقد آمنت بي إذ كفرَ الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، وواستني (5) بمالها إذ

حرمني الناس، ورزقني اللهُ أولادها إذ حرمني أولاد النساء. قالت: فقلت في نفسي:

ص: 160

- 1- . سنن الترمذي: ج 5 ص 659، وذكر قريباً منه في كنز العمال: ج 13 ص 690، وذكره القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة: ص 174، والخوارزمي في مقتل الحسين: ص 26، وهو في صحيح البخاري: ج 5 ص 47 - 48 وصحيح مسلم (باب فضائلها). (الشطري).
- 2- . من الغيرة. (المؤلف).
- 3- . مناقب عليّ بن أبي طالب: ص 339، ذكر قريباً منه ابن الجوزي في صفة الصفوة: ج 2 ص 4، والقندوزي الحنفي في ينابيع المودّة: ص 170، الإصابة في تمييز الصحابة: ج 8 ص 62، صحيح مسلم (فضائلها): ح 435، الاستيعاب: ج 4 ص 1823، السمط الثمين: ص 26.
- 4- . صحيح مسلم (باب فضائلها): ح 2437، الإصابة في تمييز الصحابة: ج 4 ص 283. (الشطري).
- 5- . من المواساة. (المؤلف).

والله لا أذكرها بسوءٍ أبداً(1).

وفي رواية عن عائشة قالت: أغضبت رسول الله (صلي الله عليه وآله) يوماً وقلت: «خديجة» - بالتصغير - فجزني وقال: إني رزقتُ حُبها(2).

واستأذنت عليه يوماً هالة أخت خديجة، فارتاع لذلك وقال: اللهم! هالة بنت خويلد! قالت: فغرتُ وقلت: وما تذكرُ من عجوزٍ حمراء الشدقين هلكت في الدهر؟! فجزني وقال بمعني ما تقدم(3).

ومعني «حمراء الشدقين» أنّ المرأة إذا كبرت احمرَّت شدقاها. وقيل: إنّه أرادت بالأ-حمر الأبيض، ومتى كبرت المرأة ابيضَّ شدقاها، وهو الأصح.

وكلّ هذه الروايات في الصحيحين(4).

وقال الزُّهري(5): بلغنا أنّ خديجة أنفقت علي رسول الله (صلي الله عليه وآله) أربعين ألفاً وأربعين ألفاً. انتهى ما ذكرنا من التذكرة(6).

ص: 161

- 1- . الإصابة في تمييز الصحابة: ج 4 ص 284، وفيها بدل «سوء أبداً» «بنسبة أبداً»، الاستيعاب: ج 4 ص 1824، صحيح مسلم (باب فضائلها): ح 2437، صفة الصفوة: ج 2 ص 4، وذكر قريباً منه الذهبي في سير أعلام النبلاء: ج 2 ص 112. (الشطري).
- 2- . صحيح مسلم (فضائلها): ح 2435، الإصابة: ج 8 ص 62، تراجم سيّدات بيت النبوة: ص 234. (الشطري).
- 3- . صحيح مسلم (باب فضائلها): ح 2437، تراجم سيّدات بيت النبوة (عن صحيح مسلم): ص 234، صحيح البخاري: ج 5 ص 48. (الشطري).
- 4- . صحيح مسلم (باب فضائلها): ح 2437، صحيح البخاري: ج 5 ص 48. (الشطري).
- 5- . الزهري: هو محمّد بن شهاب، من معاصري الإمام السجّاد عليّ بن الحسين . قالوا فيه: «عدوّ» (راجع الخلاصة للعلامة الحلّي: ص 121)، وقد أرسل الإمام إليه رسالة يعظه فيها، أثبتناها في كتاب بلاغة الإمام السجّاد . (المؤلف). وراجع: جهاد الإمام السجّاد: ص 227 من الطبعة الثانية.
- 6- . تذكرة الخواص: ص 70 ط طهران. (المؤلف). قال السيّد المقرّم - في كتابه الإمام زين العابدين في هامش ص 154 - : في البداية لابن كثير: ج 9 ص 340: ولد محمّد بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة، القرشي، الزُّهري سنة (58هـ)، وكان قصيراً قليل اللحية، له شعرات طوال، خفيف العارضين. وفي ترجمته من وفيات الأعيان لابن خلّكان: كان أبوه مسلم مع مصعب بن الزبير، وجدّه عبيد الله مع المشركين في يوم بدر، ولم يزل هو مع عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك واستقضاء يزيد بن عبد الملك. وفي البداية: جعله هشام معلّم أولاده. Ñ Ø وفي تهذيب التهذيب: ج 9 ص 449: أمره هشام أن يملي علي أولاده أحاديث، فأملي عليهم أربعمئة حديث. والقارئ الفطن خبيرٌ بأنّ من يتقلّب في دُنيا بني مروان لا يروي في أحاديثه شيئاً في فضل عليّ وأولاده الأطهرين:؛ لأنّه لا يروق لهم ذلك، والزهري علي نهجهم وسيرتهم، يتطلّب دُنياهم، ومن هنا أطراه علماء العائمة ورفعهو إلي أعلي مستوي العلم والفضيلة، ويحكي ابن حجر تعجّبه من كثرة ما نشره من العلم. وإني لا أشكّ في انحراف الرجل عن أمير المؤمنين وأولاده، يشهد لذلك ما رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج (ج 1 ص 371) عن جرير بن عبد الحميد، عن محمّد بن شيبة، قال: شهدتُ الزهري وعروة بن الزبير في مسجد النبيّ يذكران عليّاً، ونالا منه، فبلغ ذلك عليّ بن الحسين، فجاء حتّي وقفَ عليهما فقال: «أمّا أنت يا عروة، فإنّ أبي حاكم

أباك فحكّم لأبي علي أبيك، وأما أنت يا زهري، فلو كنت في مكّة لأريتك كير أبيك». وقال السيّد ابن طاووس في التحرير الطاووسي بترجمة عبد الله بن العباس: إنّ سفيان بن سعيد، والرّهري عدوّان متّهمان، وقد ذكرت في كتبي شيئاً يتعلّق بحالهما. وقال أبو علي الحائري في منتهى المقال بترجمته: لا يرب في عداوته ونصبه لأ-مير المؤمنين. وفي رجال الشيخ الطوسي، والعلامة، وابن داود، والسيّد مصطفى التفرّيشي: إنّ عدوّ لآل محمّد صلوات الله عليهم. وفي كشف الغمّة: ج2 ص317، والتهذيب للشيخ الطوسي: ج2 ص435: كان عاملاً لبني أميّة، فعاقب رجلاً مات في عقوبته، فهرب لوجهه وتوحّش، ولكنّ الإمام زين العابدين أمره بإرسال الدية إلى أهل المقتول، ولا ييأس من رحمة الله. ومن جميع ما تقدّم جزم شيخنا المامقاني في تنقيح المقال بتلّون الرجل وعدم استقامة رأيه. وما في الصحيفة الخامسة: ص289 من دعاء الإمام السجّاد له بالرزق والخلص، إمّا لأنّه هو طلب ذلك منه وهم: لا يردّون متوقّفاً، أو من تاب وندم علي ما أفرط، وسيأتي حديثه فيما شاهدته من الإمام في عرفات (راجع: الإمام زين العابدين للمقرّم: ص174 نقلاً عن تفسير الإمام العسكري: ص256). ولعلّ تفضّل الإمام السجّاد بتلك الكرامات ممّا هداه إلي الحقّ، ورواياته في الفقه كثيرة، فإذ لم يتب مع قراءته لهذا الكتاب الصادر من إمام الأئمّة وللمعاجز التي شاهدها من السجّاد، فهو ملعون. ومع ذلك فقد أدرجه العلامة الحلّي وابن داود في قسم الضعفاء، ولم يقم له وزناً الشيخ محمّد طه نجف، حيث لم يذكره في إتقان المقال. توفّي - كما في وفيات الأعيان - لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة 124 في بيته ب- «نعف»، وهي في آخر عمل الحجاز وأوّل عمل فلسطين، ودُفن في ضيعته «إدامي» خلف «شغب، وبدا»، وهما واديان أو قريتان. وفي معجم البلدان: ج5 ص277: دُفن في ضيعة خلف وادي القري تسمّي «شغب». وعلمائنا لم يختلفوا في قدحه، أجمعوا علي ذلك، فراجع كتاب زين العابدين للمقرّم: ص154-158 الهامش. وقد أثبت السيّد الجلالّي أنّ الرّهري هو من أعمدة البلاط الأموي، وجميع أهل البيت: يجرّحونه، وكذلك يجرّحونه غيرهم، وأنّ الرجل كان كذاباً ومتزلفاً لبني أميّة لعنهم الله. (جهاد الإمام السجّاد: ص268 - (الشطري). (280).

ورؤي مسنداً عن أبي هريرة، وبسند آخر عن أنس: قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): خير نساء العالمين: مريم، وآسية بنت مزاحم، وخديجة، وفاطمة: (1).

ص: 162

1- . كما ورد بعدة أسانيد عن عائشة، وورد في مسند أحمد عن ابن عباس (مسند أحمد: ج 1 ص 293، كنز العمال: ج 12 ص 145). (الشطري).

وعن أبي زرعة قال: سمعت أبا هريرة يقول: أتى جبرئيل النبي (صلي الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب(1).

قلت: هذا حديث صحيح رواه الحافظ مسلم بن الحجاج في صحيحه كما سقناه(2). (3).

وروي عن عبدالله بن مسعود(4)، قال: قال رسول الله (صلي الله عليه وآله) في حديث طويل: إن الله اختار من الأيام أربعة، ومن الشهور أربعة، ومن النساء أربعاً(5).

وساق الحديث إلي أن قال: وأما النساء فمريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، سابقة نساء العالمين إيماناً بالله وبرسوله، وآسية امرأة فرعون، وفاطمة بنت محمد سيّدة نساء أهل الجنة(6). (7).

وعن ابن عباس قال: خط رسول الله (صلي الله عليه وآله) أربع خطط في الأرض، فقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): أفضل نساء الجنة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد (صلي الله عليه وآله)، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون(8).

ص: 163

1- . أخرجه البخاري في باب غيرة النساء، وهو في أواخر كتاب النكاح: ص 157 من الجزء الثالث من صحيحه، ورواه مسلم في صحيحه في باب فضائل فاطمة: ج 7 ص 133، مستدرک الحاكم: ج 3 ص 184 - 185 بطرق متعدّدة صحيحة علي شرط الشيخين، وذكر حديث مشابه له في السيرة الحلبيّة: ج 1 ص 169 الهامش. (الشطري).

2- . كفاية الطالب للكنجي الشافعي: ص 212. (المؤلف).

3- . بحار الأنوار: ج 16 ص 2 نقلاً عن الخصال للشيخ الصدوق: ص 96، إحقاق الحقّ: ج 1 ص 52، ذكر هذا الحديث ب- (29) طريقاً من العامّة. (الشطري).

4- . هو عبدالله بن مسعود بن غافل أو عاقل، شهد مع رسول الله مشاهدته، وكان أحد حفاظ القرآن. قال الخطيب البغدادي في تاريخه: وكان من فقهاء الصحابة، ذكره عمر بن الخطاب فقال: «كُنَيْفٌ مُلِيٌّ عِلْمًا»، وبعثه إلي الكوفة ليقرئهم القرآن ويعلمهم الشرائع والأحكام، فبثّ عبدالله فيهم علماً كثيراً، وفقه منهم جمعاً غفيراً. (المؤلف).

5- . المستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 184 - 186، ووردت روايات بهذا المضمون ذيل الحديث في صحيح مسلم: ج 7 ص 133. (الشطري).

6- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 20. (المؤلف).

7- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 25، المراجعات المراجعة 72، وقد ذكر في هامش هذه المراجعة مصادر كثيرة من العامّة تدلّ علي أفضلية خديجة، فراجع: ص 299 - 300 دار ومكتبة الرسول الأكرم بيروت، الخصال للصدوق: ص 225 ص 15 باب الأربعة. (الشطري).

8- . بحار الأنوار: ج 6 ص 132 نقلاً عن الخصال للشيخ الصدوق. (المؤلف).

وعن عروة قال: قالت عائشة لفاطمة بنت محمد رسول الله (صلي الله عليه وآله): ألا أبشرك؟ إني سمعت رسول الله (صلي الله عليه وآله) يقول: سيئات نساء أهل الجنة أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمد، وخديجة بنت خويلد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون(1).

وعن عمّار بن ياسر2، قال: قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): فضّلتُ خديجةً علي نساء العالمين(2).

وجاء في البحار: أنّ الله تعالى أعطي عشرة أشياء لعشرة من النساء: التوبة لحوّاء زوجة آدم، والجمال لسارة زوجة إبراهيم، والحفاظ لرحمة زوجة أيوب، والحرمة لآسية زوجة فرعون، والحكمة لزيخا زوجة يوسف، والعقل لبلقيس زوجة سليمان، والصبر لبرخانة أم موسى، والصفوة لمريم أم عيسى، والرضا لخديجة زوجة المصطفى، والعلم لفاطمة زوجة المرتضي(3).

كما ورد أيضاً في البحار، عن عيون المعجزات(4)، عن جارية بن قدامة، قال: حدّثني سلمان، قال: حدّثني عمّار، وقال: أخبرك عجباً؟ قلت: حدّثني يا عمّار، قال: شهدتُ

عليّ بن أبي طالب وقد ولج علي فاطمة، فلمّا بصرت به نادى: أدنُ منّي لأحدّثك بما كان وما هو كائن وبما لم يكن إلي يوم القيامة حين تقوم الساعة.

قال عمّار: فرأيت أمير المؤمنين يرجع القهقري، فرجعت برجوعه، إذ دخل علي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فقال: أدنُ منّي يا أبا الحسن. فدنا منه، فلمّا اطمننّ به المجلس فقال له: تحدّثني أم أحدّثك؟ قال: الحديث منك أحسن يا رسول الله، فقال: كأتني بك وقد دخلت علي فاطمة وقالت لك كذا وكذا، فرجعت. فقال: يا رسول الله، نور فاطمة من نورنا؟ فقال: بلي، أو لا تعلم؟ فسجد عليّ شكراً لله تعالى.

قال عمّار: فخرج أمير المؤمنين وخرجتُ بخروجه، فولج علي فاطمة وولجتُ، فقالت: يا أبا الحسن، كأنك رجعت إليّ أبي فأخبرته بما قلتُ لك؟ قال: كان كذلك يا فاطمة،

ص: 164

1- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 21، نور الأبصار: ص 40. (المؤلف).

2- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 31. (المؤلف).

3- . بحار الأنوار: ج 43 ص 34 ح 39 باب 3.

4- . تأليف الحسين بن عبد الوهّاب، ط النجف الأشرف. (المؤلف).

فقالت: اعلم يا أبا الحسن، أن الله خلق نوري وكان يُسبِّح الله جلّ جلاله، ثم أودعه بشجرة من شجر الجنة أوحى الله إلهاماً: أن اقتطف الثمرة من تلك الشجرة وأدرها في لهواتك، ففعل، فأودعني الله صلب أبي، ثم أودعني صلب خديجة بنت خويلد فوضعتني، وأنا من ذلك النور، أعلم ما كان وما يكون وما لم يكن. يا أبا الحسن، المؤمن ينظر بنور الله.

وأيضاً فيه: قال أمير المؤمنين: كنا جلوساً عند رسول الله (صلي الله عليه وآله) فقال: أي شيء خير للنساء؟ فعيينا بذلك كلنا، حتى تفرقتنا، فرجعتُ إلي فاطمة فأخبرتها بالذي قال لنا رسول الله (صلي الله عليه وآله) وليس منا أحد علمه ولا عرفه، فقالت: ولكنتي أعرفه، خير للنساء أن لا يرينَ الرجال ولا يراهنَ الرجال.

فرجعتُ إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فقلتُ: يا رسول الله، سألتنا أي شيء خير للنساء؟ خير لهن أن لا يرينَ الرجال، ولا يراهنَ الرجال.

قال: من أخبرك وأنت عندي فلم تعلمه؟ قلت: فاطمة. فأعجب ذلك رسول الله (صلي الله عليه وآله) وقال: إن فاطمة بضعة مني.

وفي خبر: فضمتها إليه وقال: ذرية بعضها من بعض.

وأيضاً فيه: سأل رسول الله (صلي الله عليه وآله) أصحابه عن المرأة؟ قالوا: عورة، قال: فمتي تكون أدني من ربها؟ فلم يدروا، فلما سمعت فاطمة ذلك قالت: ما تكون من ربها أن تلزم قعر بيتها. فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): إن فاطمة بضعة مني (1).

والبضعة - بالفتح والكسر - : قطعة من اللحم.

ص: 165

1- قال السيد القزويني في كتاب فاطمة من المهدي إلى اللحد: «فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما آذاها ويغضبني ما أغضبها». روي هذه الأحاديث أكثر من خمسين من رجال الحديث والسنن، كأحمد بن حنبل، والبخاري، وابن ماجه، والسجستاني، والترمذي والنسائي، وأبو الفرج الإصفهاني، والنيسابوري، وأبو نعيم، والبيهقي، والخوارزمي، وابن عساكر، والبلاذري والبخاري، وابن الجوزي، وابن الأثير، والسيوطي، وابن حجر، وغيرهم ممّا يعسر إحصاؤهم. وقد وقعت هذه الأحاديث موقع الرضا والقبول من الصحابة والتابعين؛ لتواترها وصحة إسنادها، وشهرتها في الملة الإسلامية. (فاطمة من المهدي إلى اللحد: ص 193، وراجع: بحار الأنوار: ج 43 ص 91 و 92، وإحقاق الحق: ج 10 ص 258، ومستدرک الوسائل: ج 14 ص 289، ودعائم الإسلام: ج 2 ص 214، ومسنند فاطمة: ص 337). (الشطري).

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في بهجة الحاوي:

وأفضلهنّ (أي زوجات النبي (صلي الله عليه وآله)) خديجةٌ وعائشة، وفي أفضليهما خلاف، صحّح ابن العماد تفضيل خديجة؛ لما ثبت أنّه قال لعائشة - حين قالت له: قد رزقك الله خيراً منها - : والله ما رزقني الله خيراً منها، آمنت بي حين كذبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس(1).

عبد السلام

ونقله في شرح عبد السلام علي الجوهرة، ونصّه: صحّح ابن العماد تفضيل خديجة وفاطمة، فتكون أفضل من عائشة.

قاضي القضاة السبكي

*قاضي القضاة السبكي(2)

ولمّا سئل السبكي عن ذلك، فقال: الذي نختاره وندين الله به أنّ فاطمة بنت محمّد (صلي الله عليه وآله) أفضل، ثمّ أمّها خديجة، ثمّ عائشة(3).

ص: 166

1- . نور الأبصار للشبلنجي: ص 43. (المؤلف).

2- . السبكي - بالضم - : قاضي القضاة، تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي الخزرجي الأنصاري المصري الشافعي الأشعري، وُلد أوّل صفر سنة 683هـ ، وتوفي سنة 756هـ (راجع: الكني والألقاب للقمي). (المؤلف). وله ترجمة واسعة في مقدّمة كتابه شفاء السقام في زيارة خير الأنام بقلم السيّد الجلال، الطبعة الرابعة.

3- . الثابت عند علماء المسلمين جميعاً أنّ خديجة: هي أوّل مَنْ آمَنَت برسول الله من النساء، وأنّ رسول الله كان يجلّها ويحترمها في حياتها، وكان يثني عليها بعد وفاتها. ثمّ إنّ الحديث الذي ذكرته عائشة: «أفضل نساء الجنّة أربعة: مريم وآسية وخديجة وفاطمة»، لم يرد ذكر لفصل عائشة فيه، علماً بأنّ نساء أهل الجنّة خيرة نساء الأرض. بالإضافة إلي أنّ الثابت عند المسلمين جميعاً أنّ عائشة خرجت لحرب الإمام أمير المؤمنين وأنكرت خلافته التي أجمع عليها المسلمون، وسببت قتل ستّة عشر ألف مسلم فيهم عدد كبير من الصحابة، وأنّها خالفت قول الله تعالى: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) (الأحزاب: 33)، وقول رسول الله لعليّ: «يا عليّ، حربك حربي، وسلمك سلمي»، وحسدت خديجة الطاهرة:، كما صرّحت هي في أحاديثها السابقة، والحسد من الكبائر التي تخلّد صاحبها بالنار. ولم تزر الصديقة الطاهرة فاطمة أيام مرضها، وكانت تحقد علي فاطمة وعلي أمّها خديجة، وعندما سمعت نبأ استشهاد الإمام أمير المؤمنين، استبشرت وأنشدت: فألقّت عصاها واستقرّ بها النوي كم- اقّع- يناً بالأي- اب الم- سافرٌ وخرجت مرّةً أُخري - وبتحريض من الملعون مروان بن الحكم - علي بغلة، عند شهادة الإمام الحسن $\bar{\text{N}}\bar{\text{O}}$ عندما أراد بنو هاشم أن يجددوا لجنّازته العهد برسول الله ويدخلوا بها إلي قبر جدّه، خرجت قائلة: «يا بني هاشم، إني لا- أحبّ من لا- أحبّ أن يدخل بيتي!» وهذا ردّ علي قول رسول الله حيث قال: «الحسن والحسين ابناي، اللهمّ إني أحبهما

وأحبّ من يُحبّهما»، فمنعت بني هاشم من زيارة النبيّ، وقد أصيب نعل الإمام الحسن في ذلك اليوم بخمسين سهماً، وقد علّمها ابنُ أخيها القاسم بن محمّد بن أبي بكر في ذلك الموقف طالباً منها الرجوع، حيث قال لها: يا عمّة، ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل حتّى يُقال يوم البغلة الشهباء! وقال لها عبد الله بن العباس: يومٌ عليّ جملٍ، ويومٌ عليّ بغلٍ؟! ثمّ أنشد: أي-ا-بن-ت-أب-ي-ب-ك-ف-لا-ك-ان-ولا-ك-نت-ت-ج-م-ل-ت-ب-غ-ل-ت-ول-وع-ش-ت-ف-يلت-لك-الشع-من-الثلثين-والك-ل-ت-ص-ر-ف-ت-وقد-استدلّ-العامّة-علي-زعم-أفضليّتها-بأنها-كانت-عالمّة-وحافظة-لكثير-من-أحاديث-رسول-الله، وهذا لا قيمة له عند الله، لأنّها لم تعمل بما تعلم، بل يكون هذا حجة قويّة عليها يوم القيامة، ورحم الله الشاعر الأزرّي حيث قال: حَفِظْتُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ وَمِنْ أَل-ذِكْرِ آيَةٍ ت-نَسَاهُ؟ (الشطري). وقال الشيخ عبد الحسين الحُويزي الحائري: نَسِيْتُ «قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» وَكَانَتْ تَحْفَظُ أَل-ذِكْرَ، مَا أَل-ذِي أُنْسَاهُ؟

واختار السُّبكي أنّ مريم أفضل من خديجة؛ لقوله: خير نساء العالمين مريم بنت عمران، ثم خديجة بنت خويلد، ثم فاطمة بنت محمّد (صلي الله عليه وآله)، ثم آسية بنت مزاحم امرأة فرعون.

كيفية إسلامها

جاء في سيرة النبي (صلي الله عليه وآله) لابن هشام: أول الناس إيماناً برسول الله (صلي الله عليه وآله) عليّ وخديجة.

وفي البحار عن عبد الرحمن بن ميمون، عن أبيه، قال: سمعتُ ابن عبّاس (1)، (2) يقول:

ص: 167

1- . هو عبدالله بن العباس، كان محباً لعليّ وتلميذه، حاله في الجلالة والإخلاص لأمر المؤمنين أشهر من أن يخفي، وقد ذكر الكشيّ أحاديث تتضمّن قدحاً فيه، وهو أجلّ من ذلك (راجع: الخلاصة: ص 5). وقال المحبّ الطبريّ في ذخائر العقبى: ص 336: عبدالله بن العباس، يُكنّى أبا العباس، أمّه أمّ الفضل، وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين بالشعب قبل خروج بني هاشم، وتوفّي بالطائف سنة ثمان وستين. (المؤلف).

2- . قول المؤلف: ذكر الكشيّ في ترجمة عبدالله بن عبّاس أحاديث تتضمّن قدحاً فيه، (وهو) أجلّ من ذلك. أقول: وقد دافع عن عبدالله بن عبّاس، وردّ هذه الأحاديث آية الله العظمي السيّد عليّ الفاني في كتابه عبدالله بن عبّاس، وكذلك دافع عنه العلامة المحقّق السيّد جعفر العاملي في كتابه ابن عبّاس وأموال البصرة، يجدر بالباحثين الرجوع إليهما. (الشطري). وألّف العلامة الحجّة المحقّق النسابة السيّد محمّد مهدي الموسوي الخراسان كتاباً حافلاً عن ابن عبّاس.

أول من آمن برسول الله (صلي الله عليه وآله) من الرجال عليّ (1)، ومن النساء خديجة

رضوان الله عليها.

وعن عيسى بن المستفاد، قال: حدّثني موسى بن جعفر، قال: سألت أبي جعفر ابن محمّد عن بدء الإسلام، كيف أسلم عليّ؟ وكيف أسلمت خديجة؟

فقال لي موسى بن جعفر: تأبّي إلا أن تطلب أصول العلم ومبتدأه، أما والله إنك لتسأل تققهاً. قال موسى: فقال لي أبي: إنهما أسلما، دعاهما رسول الله (صلي الله عليه وآله) فقال: يا عليّ ويا خديجة، تسلما وأطيعاً تُهديا، فقالا: فعلنا وأطعنا، يا رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فقال: إن جبرئيل يقول لكما: إنّ للإسلام شروطاً ومواريق، فابتدنا بما شرط الله عليكما لنفسه ولرسوله أن تقولوا: نشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له في ملكه، ولم يلد له والد، ولم يتخذ صاحبةً، وأنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله إلي الناس كافةً، بين يدي الساعة، ونشهد أنّ الله يحيي ويميت ويرفع ويضع، ويغني ويفقر، ويفعل ما يشاء، ويبعث من في القبور، قالوا: شهدنا.

وإسباغ الوضوء، وغسل الجنابة في الحرّ والبرد، وإقام الصلاة، وأخذ الزكاة من حلّها ووضعها في أهلها، وحجّ البيت، وصوم شهر رمضان، والجهاد في سبيل الله، وبرّ الوالدين، وصلة الرحم، والعدل في الرعيّة، والقسم بالسوية، والوقوف عند الشبهة، إلاّ الإمام فإنّه لا شبهة له، وطاعة وليّ الأمر بعدي، ومعرفته في حياتي وبعد موتي، والأئمة من بعده واحداً فواحداً، وموالاته أولياء الله، ومعاداة أعداء الله، والبراءة من الشيطان الرجيم وحزبه وأشياعه، والبراءة من الأحزاب تيمّ وعديّ وأميّة وأشياعهم وأتباعهم، والحياة علي ديني وسنتي ودين وصبيّ وسنته، إلي يوم القيامة، والموت علي مثل ذلك، غير شاقّة لأمانته ولا متعدية ولا متأخرة عنه، وترك شرب الخمر، وملاحاة النساء.

يا خديجة، فهمت ما شرط عليك ربك؟ قالت: نعم، وآمنت وصليت ورضيت وسلّمت. قال عليّ: وأنا علي ذلك، فقال: يا عليّ، تُبايع علي ما شرطت عليك؟ قال: نعم.

ص: 168

1- . وأيضاً جاء في من سيرة ابن هشام: ج 1 ص 224 أول ذكرٍ من الناس آمن برسول الله وصليّ معه وصدّق بما جاء به من الله تعالي: عليّ بن أبي طالب، وهو ابن عشر سنين يومئذٍ. (المؤلف).

قال: فبسط رسول الله (صلي الله عليه و آله) كفه فوضع كف علي في كفه، فقال:

بايعني علي ما شرطت عليك، وأن تمنعني مما تمنع منه نفسك.

فبكي علي وقال: بأبي وأمي، لا - حول ولا - قوّة إلا بالله، فقال رسول الله (صلي الله عليه و آله): اهتديت ورب الكعبة، ورشدت ووقفت وأرشدك الله. يا خديجة، ضعي يدك فوق يد علي فبايعي له، علي أنه لا جهاد عليك. فبايعت علي مثل ما بايع علي .

ثم قال: يا خديجة، هذا عليّ مولاك ومولي المؤمنين وإمامهم بعدي، قالت: صدقت يا رسول الله (صلي الله عليه و آله) قد بايعته علي ما قلت، أشهد الله وأشهدك بذلك، وكفي بالله شهيداً وعلماً(1).

وعن أبي هريرة(2) قال: قال رسول الله (صلي الله عليه و آله): كنت بأجباد الصغير أرمي الغنم قبل أن يُوحى إليّ، فأتاني جبرئيل فيشّرني بالنبوة، ثم ركض برجله إلي الأرض فإذا بعين قد نبعت، فتوضأ جبرائيل وعلمني الوضوء، وصليّ وعلمني الصلاة، ثم انصرفت إلي منزلي، فلم أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله (صلي الله عليه و آله)، حتى أتيت خديجة، فأريتها كما أراني جبرئيل وعلمتها كما علمني.

فبينما نحن كذلك، إذ دخل علينا علي بن أبي طالب ونحن كذلك، فقال: ما هذا الدين يابن عمّ؟ فقلت: دين الله يابن عمّ، أدعوك إليه، فقال لي: أشاور أبا طالب، فقلت: يابن عمّ، إما أن تتبنا وإما أن تكتم علينا. قال: فخرج ثم رجع فقال: بل أتبعك.

قال: وكانت خديجة تقول: أنا أوّل من أسلم، ثم علي(3).

ص: 169

1- . الطرف: ص 5 (ط النجف) لرضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسني الحسيني، المتوفّي سنة 664هـ . (المؤلف).

2- . أبو هريرة أسلم بعد الهجرة بسبع سنين، وكان أكذب الناس علي رسول الله، وقد ضربه عمر لكثرة روايته، وقال: إنه كذوب، وقال له: لتترك الحديث عن رسول الله وإلا ألحقك ببجبال دوس، وكان يلعب بالشطرنج والسدر. قال الدميري: والمروي عن أبي هريرة من اللعب مشهور في كتب الفقه. ومن أراد الاطلاع علي ترجمة حياته فعليه بكتاب أبي هريرة للعلامة المجاهد آية الله السيّد عبد الحسين شرف الدين . (المؤلف).

3- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 30. قال المجلسي في البحار: ج 16 ص 7: إنها سبقت كافة الناس في إسلامها، وهو مشهور، وقد ردّ هذا القول علماء الشيعة، وللوقوف علي ردّ هذا الرأي راجع الغدير: ج 3 ص 220، أعيان الشيعة: ج 6 ص 311 دار التعارف. (الشطري).

قال: وفي رواية ابن مسعود، قال العباس بن عبد المطلب: ما أحد علي وجه الأرض يعبد الله إلا هؤلاء الثلاثة: رسول الله، وخديجة، وعلي بن أبي طالب صلوات الله عليهم.

عن ابن إسحاق: حدثني إسماعيل بن أبي الحكم مولي الزبير، أنه حدث عن خديجة بنت خويلد أنها قالت لرسول الله (صلي الله عليه وآله) فيما يثبته مما أكرمه الله به من نبوته: يا بن عم، تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، قالت: إذا جاءك فأخبرني.

فبينما رسول الله (صلي الله عليه وآله) عندها إذ جاء جبرئيل، فرآه رسول الله، فقال: يا خديجة، هذا جبرئيل، فقالت: أترأه الآن؟ فقال: نعم، قالت: فاجلس إلي شقي الأيمن. فتحول فجلس، فقالت: أترأه الآن؟ قال: نعم، قالت: فتحول فاجلس في حجري، فقالت: أترأه الآن؟ قال: نعم، فحسرت عن رأسها، وألقت خمارها ورسول الله (صلي الله عليه وآله) جالس في حجرها، فقالت: هل ترأه الآن؟ قال: لا، قالت: ما هذا شيطان، إن هذا لملك، يا بن عم، فاثبت وأبشر. ثم آمنت به، وشهدت أن الذي جاء به الحق (1).

زواجها

روي عن جابر قال: كان سبب تزويج خديجة محمداً أن أبا طالب قال: يا محمد، إني أريد أن أزوجه، ولا مال لي أساعدك به، وإن خديجة قرابتي وتخرج كل سنة قريشاً في مالها مع غلمانها يتجر لها ويأخذ وقر بغير مما أتى به، فهل لك أن تخرج؟ قال: نعم.

فخرج أبو طالب إليها وقال لها ذلك، فقرحت وقالت لغلامها ميسرة: أنت وهذا

المال كله بحكم محمد (صلي الله عليه وآله).

فلما رجع ميسرة حدثت أنه ما مر بشجرة ولا مدرّة إلا قالت: السلام عليك يا رسول الله.

قال: جاء بحيرا الراهب وخدمنا لما رأي الغمامة علي رأسه تسير حيثما سار تظله

ص: 170

1- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 2 ص 21 - 22، التمهيد في علوم القرآن: ج 2 ص 52. قال: روي ذلك البخاري ومسلم وابن هشام والطبري وأضرابهم. وقد ردّ الرواية الشيخ هادي معرفت، وناقشها مناقشة مفصلة علمية (راجع التمهيد: ج 2 ص 54 - 56). (الشطري).

بالنهار، وربحنا في ذلك السفر ربحاً كثيراً.

فلما انصرفا، قال ميسرة: لو تقدّمت يا محمّد إلى مكّة وبشّرت خديجة بما قد ربحنا لكان أنفع لك. فتقدّم محمّد علي راحلته، فكانت خديجة في ذلك اليوم جالسةً علي غرفة مع نسوة، فظهر لها محمّد ركباً، فنظرت خديجة إلي غمامة عالية علي رأسه تسير بسيره، ورأت ملكين عن يمينه وعن شماله في يد كلّ ملك سيفٌ مسلول يجيئان في الهواء معه.

فقلت: إنّ لهذا الراكب لشأناً عظيماً، ليته جاء إلي داري. فإذا هو محمّد قاصداً إلي دارها، فنزلت حافيةً إلي باب الدار، وكانت إذا أرادت التحوّل من مكان إلي مكان حوّلت الجوارى السرير الذي كانت عليه، فلما دنت منه قالت: يا محمّد، اخرج وأحضرني عمك أبا طالب الساعة. وقد بعثت إلي عمّها أن زوّجني من محمّد إذا دخل عليك.

فلما حضر أبو طالب قالت: أخرجنا إلي عمّي ليزوّجني من محمّد، فقد قلتُ له في ذلك. فدخلا علي عمّها، وخطب أبو طالب الخطبة المعروفة، وعقد النكاح، فلما قام محمّد ليذهب مع أبي طالب قالت خديجة: إلي بيتك، فبيتي بيتك وأنا جاريّتك (1).

كيفية زواجها من رسول الله (صلي الله عليه وآله)

جاء في سيرة النبي لابن هشام (2): كانت بنت خويلد امرأةً تاجرةً ذات شرفٍ ومالٍ، تستأجر

الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرام أخلاقه، بعثت إليه فعرضت إليه أن يخرج في مال لها إلي الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يُقال له: ميسرة، فقبله رسول الله (صلي الله عليه وآله).

وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة، حتّي قدم الشام فنزل رسول الله (صلي الله عليه وآله)

ص: 171

1- . بحار الأنوار: ج16 ص8، وذكر قصة الغمامة التي تطلّله في تفسير الإمام العسكري: ص155، وفي إثبات الهداة للحرّ العاملي: ج2 ص151. (الشطري).

2- . السيرة: ج1 ص303. ابن هشام، وهو: أبو محمّد عبد الملك بن هشام بن أيّوب الحميري البصري، نزيل مصر، صاحب كتاب السيرة المعروفة بسيرة ابن هشام، جمعها من المغازي والسير لابن إسحاق، توفي سنة 218هـ (راجع: الكني والألقاب: ج1 ص437). (المؤلف).

في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فأطلع الراهب إليّ ميسرة، فقال له: مَنْ هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلاّ نبيّ.

ثمّ باع رسول الله (صلي الله عليه وآله) سلعته (1) التي خرج بها، واشتري ما أراد أن يشتري، ثمّ أقبل قافلاً إليّ مكة ومع ميسرة، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ، يري ملكين يُظَلّانه من الشمس وهو يسير عليّ بعيره.

فلمّا قدم مكة عليّ خديجة بمالها، باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً، وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعمّا كان يري من إضلال ملكين إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفةً لبيبةً، مع ما أراد الله بها من كرامة، فلمّا أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إليّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) فقالت له: يا بن عمّ، إنّي قد رغبتُ فيك لقربتك وسَطَطتك (2) في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثمّ عرضت عليه نفسها.

وكانت خديجة أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهنّ مالاً، كلّ قومها كان حريصاً عليّ ذلك منها لو يقدروا عليه. فلمّا قالت ذلك لرسول الله (صلي الله عليه وآله)

وآله، ذكر ذلك لأعمامه، فخرج مع عمّه حمزة بن عبد المطلب حتّي دخل عليّ خويلد بن أسد، فخطبها وتزوجها (3)، وأصدقها رسول الله (صلي الله عليه وآله) عشرين بكرة.

وكانت أول امرأة تزوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، ولم يتزوج عليها غيرها حتّي ماتت.

وقال ابن دحلان في السيرة النبوية بهامش السيرة الحلبية: إنّ المزوّج لها عمّها عمرو بن أسد؛ لأنّ أباه مات قبل الفجار (4)، وأنّ المزوّج للنبي (صلي الله عليه وآله) عمّه أبو طالب. ولمّا تمّ

ص: 172

1- السَّلعة - بالكسر - البضاعة، والجمع: السَّلَع، مثل سِدرة وسِدَر (راجع: مجمع البحرين). (المؤلّف).

2- وسَطَطتك: أي شرفك وسامي منزلتك. (المؤلّف).

3- هذا يدلّ عليّ أنّها كانت بكرًا، ويدلّ عليّ ذلك ما رواه في قرب الإسناد للحميري عن أبي الحسن موسى، في خديجة: هي سيّدة نساء العالمين، وقد خطبها كلّ صنيدي ورئيس فأتبهم، فزوّجت نفسها بالذي بلغها من خبر بحيرا. (المؤلّف).

4- سيرة ابن هشام: ج 1 ص 201، السيرة الحلبية: ج 1 ص 138، ونقل ذلك عن المحبّ الطبري، وقد ردّ السيّد العاملي $\bar{N} \emptyset$ في الصحيح من السيرة: ج 1 ص 113-114 قول ابن هشام: «إنّ الذي خطبها حمزة»، فقد أثبت السيّد العاملي أنّ أباً طالب هو الذي ذهب لخطبة خديجة، وليس حمزة الذي اقتصر عليه ابن هشام في سيرته؛ لأنّ ذلك لا ينسجم مع ما كان لأبي طالب من المكانة والسؤدد في قريش، ولا سيّما إذا لاحظنا أنّ حمزة يكبر النبيّ بستين أو بأربع كما قيل، هذا بالإضافة إليّ مخالفة ذلك لما يذكره عاتمة المؤرّخين في المقام. وقد اعتذر البعض عن ذلك بأنّ من الممكن أن يكون حمزة قد حضر مع أبي طالب فنُسب ذلك إليه (السيرة الحلبية: ج 1 ص 139). قال العاملي: وهذا اعتذار واهٍ، إذ لم يُنسب ذلك إليّ غير حمزة ممّن حضر مع أبي طالب من بني هاشم وغيرهم من القرشيين. (الشطري).

الإيجاب والقبول، أمرت السيدة خديجة بشيائه ودُبِحت، واتَّخذت طعاماً، ودعت عمَّها عمراً، وبعثت إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فأتي ومعه حمزة بن عبد المطلب وأبو طالب ورؤساء مُضَرَ، فأكلوا، ثم خَطَبَ أبو طالب فقال:

الحمد لله الذي جعلنا من ذُرِّيَةِ إبراهيم، وزرع (1) إسماعيل وضِئُضِي (2) مَعَدَّ وعنصر

مُضَرَ، وجعلنا حَصَنَةَ بيته وشوكة حرمه، وجعل لنا بيتاً محجُوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحُكَّام علي الناس، ثم إنَّ ابنَ أخي هذا محمَّد بن عبد الله لا يوزنُ به رجلٌ إلا رجح، وإن كان في المال قلٌّ، فالمال ظلُّ زائل وأمرٌ حائل، ومحمَّد ممَّن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله (كذا) من مالي، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيمٌ وخطرٌ جَلَلٌ جسيمٌ (3).

فقال ابن عمَّها ورقة بن نوفل: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفصَّ لنا علي ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل لذلك كلَّه لا ينكر العرب فضلكم، ولا يردُّ أحدٌ من الناس فخركم وشرفكم، ورغبتنا في الاتِّصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش إنِّي قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمَّد بن عبد الله.

ص: 173

1- . الزرع: الولد. (المؤلف).

2- . الضئضي - كجرجر وجرجير - : الأصل والمعدن، أو كثرة النسل وبركته. (المؤلف).

3- . وقد ذكر الخطبة بألفاظ مقاربة في الصحيح من سيرة النبي الأعظم: ج 1 ص 114 نقلاً عن الكافي: ج 5 ص 374 - 375، بحار الأنوار: ج 16 ص 14 عنه، وص 16 عن كتاب من لا يحضره الفقيه: ص 413، وفي ص 5 عن شرف المصطفى والكشاف وريبع الأبرار والإبانة لابن بطة والسيرة للجويني عن الحسن والواقدي وأبي صالح والعتبي، والمناقب: ص 42، والسيرة الحلبية: ج 1 ص 139، و تاريخ يعقوبي: ج 2 ص 20، والأوائل لأبي هلال العسكري: ج 1 ص 162، وغير ذلك. (الشطري).

وذكر المهر، ورغب أبو طالب مصادفة عمها علي هذا، فقال عمرو بن أسد عم خديجة: اشهدوا عليّ معاشر قريش أنّي قد أنكحت محمّد بن عبد الله خديجة بنت خويلد. فتهلّل وجه أبي طالب فرحاً وقال: الحمد لله الذي أذهب عنا الكُرب ودفع عنا الغموم.

وجاء في البحار: ونثر حمزة بن عبد المطلب دراهم علي من حضر مجلس الخطبة. وخرجت جوار من الدار فنثر علي من حضر، وألقي علي الناس طيباً لا يعرفون من طيبهم به، حتّى أنّ الرجل يقول لصاحبه: من أين لك؟ فلا يدري به غير أنّه يقول هذا طيب محمّد. وبعد هذا ظهر الحديث بأنّ الملقى عليهم جبرئيل .

فقال أبو جهل: رأينا الرجال يُمهرّون النساء، ولم نسمع بأنّ النساء يُمهرن الرجال! فصاح به أبو طالب، يالكع الرجال، مثل محمّد يُعطي ويُهدي إليه، ومثلك يهدي فلا يُقبل!

فقال عبد الله بن غنم:

هنيئاً مريئاً يا

خديجة قد جري

لك الطير فيما كان

منك بأسعد

تزوجته خير البرية

كلّها

ومن

ذا الذي في الناس مثل محمّد

ويشّر به البران عيسي

بن مريم

وموسي

بن عمران فيا قرب موعدي

أقرت به الكتاب

قدماً بأنّه

ثمّ قالت خديجة لابن عمّها ورقة: أعلن بأنّ جميع ما تحت يدي من مالٍ وعبيدٍ فقد وهبته لمحمّد يتصرّف فيه كيف يشاء.

فوقف ورقة بين زمزم والمقام، ونادي بأعلي صوته: يا معاشر العرب، إنّ خديجة تُشهدكم علي أنّها وهبت لمحمّد نفسها ومالها وعبيدها، وجميع ما تملكه يمينها، إجلالاً له وإعظماً لمقامه ورغبةً فيه.

وأنفذت إلي أبي طالب غنماً كثيراً ودنانيراً ودراهم وثياباً وطيباً ليعمل الوليمة، فأقام أبو طالب لأهل مكّة وليمة عظيمة ثلاثة أيّام حضرها الحاضر والبادي، ولمّا تمّ ما صنّعه خديجة من معدّات الزواج، أرسلت إلي أبي طالب تُعلمه بذلك وتطلب منه زفاف محمّد.

فخرج النبي (صلي الله عليه وآله) بين أعمامه وعليه ثياب من قباطي مصر، وغلمان بني هاشم بأيديهم الشموع والمصابيح، والناس ينظرون
إلى النور الإلهي يسطع إلى عنان السماء من غرّته وجبينه، والعبّاس بن عبد المطلب بينهم يقول:

يا آلَ فِهْرٍ وغالبِ

ابشروا بالمواهبِ

وافخروا يا قومنا

بالثنا والرغائبِ

شاع

في الناس فضلكم

وعلا في المراتبِ

قد فخرتم بأحمدِ

زين كلِّ الأطائبِ

فهو كالبدر نورُهُ

مُشرقٌ غيرُ غائبِ

قد ظفرت خديجةٌ

بجليل المواهبِ

بفتي هاشم الذي

ما له من مُناسبِ

جمع الله شملكم

فهو ربُّ المطالبِ

أحمدٌ سيّدُ الوري

خير ماشٍ وراكبِ

فعلية الصلاة ما

سار عيس براكب

وأحضرت لديه خديجة، وكانت امرأةً طويلةً عريضةً بيضاء، لم يُر في عصرها أطف منها ولا أحسن، وعلي رأسها تاجٌ مرصع بالدرّ
والجواهر، وفي رجليها خلخالان من ذهب فيهما فيروزج، وفي عنقها قلاند من زبرجد وياقوت، فقالت صفيّة بنت عبد المطلب:

جاء السروز مع الفرخ

ومضي التحوس مع الترخ

بمحمّد

المذكور في

كلّ

المفاوز والبطح

لو

أن يوازن أحمد

بالخلق

كلّهم رجح

ولقد

بدا من فضله

لقريش

أمّرقد وضح

تمّ

السعود لأحمد

والسعد

عنه ما برحُ

بخديجةٍ

بنتِ الكمالِ

ويحرُ

نائلهما طفحُ

يا

حسنها في حليها

ص: 175

والحلمُ

منها ما برحُ

هذا

النبيُّ محمَّدٌ

ما في

مدايحه كلحُ

صلّوا

عليه تسعدوا

واللَّهُ

عنكم قد صفحُ

ثمّ أقبلنَ بها (عليها السلام) حتّى أوقفوها بين يدي النبي (صلي الله عليه وآله)، ثمّ بعد ذلك أخذوا التاج ورفعوها من رأسها ووضعوها علي رأس النبي (صلي الله عليه وآله)، ثمّ أتوا بالدفوف، وهنّ يضربن لها، وقلن: يا خديجة لقد خُصصتِ هذه الليلة بشيءٍ ما خصّ به غيرك، ولا ناله لسواك من قبائل العرب والعجم، فهنيئاً لك بما أوتيت، ووصل إليك من العزّ والشرف.

إلي أن قال في البحار: وأقبلت بين يديها صفيّة بنت عبد المطلب (عليها السلام) وهي تقول شعراً:

أخذَ

الشوقُ موثقاتِ الفؤادِ

وألفت

السماءَ بعدَ الرقادِ

فليالي

اللقا بنور التّداني

مشرقاتُ

خلافَ طولِ البعادِ

فُزْتُ بالفخرِ يا خديجةُ إذ نزلَ -

تِ من المصطفى عظيمِ الودادِ

فغدًا شكرُهُ علي الناسِ فرضاً

شاملاً

كلِّ حاضرٍ ثمَّ بادِ

كَبَّرَ

الناسُ والملائكُ جمعاً

جبرئيلُ

لدي السماءُ يُنادي

فُزْتُ

يا أحمدُ بكلِّ الأمانِي

فنجي

اللَّهُ عنكَ أهلُ العنادِ

فعليكِ الصلاةُ ما سرتِ العِي -

سُ

وحطَّتْ بثقلها في البلادِ

قال: ثم بعد ذلك أجلسوها مع النبي، وخرج جميعُ الناسِ عنها، وبقي عندها في أحسن حالٍ وأرخي بالِ.

ولم يأخذ عليها أحدٌ من النساءِ حتَّى ماتت، بعدما بُعثَ صلوات الله عليه وآله وآمنت به وصدَّقته، وانتقلت إلي جنَّاتِ عدنٍ في أعلا عليَّين، من قصور الجنة.

وجاء في مسارِّ الشيعة للمفيد: وكان التزويجُ منها في العاشر من ربيع الأول، وعمره الشريف خمس وعشرون، ولخديجة أربعون سنة (1).

1- . مسأّر الشيعة للمفيد: ص 65 ط حجرية مع (المجموعة النفيسة). (الشطري).

قال العلامة الإمام المحدث الكبير المجلسي (1): وقيل: بينما النبي (صلي الله عليه وآله) جالس بالأبطح ومعه عمّار بن ياسر والمنذر بن الضحضاح وأبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المطلب وحمزة بن عبد المطلب، إذ هبط جبرئيل في صورته العظمي، وقد نشر أجنحته حتّى أخذت من المشرق إلي المغرب، فناداه: يا محمّد، العليّ

الأعلي يُقرء عليك السلام، وهو يأمرُك أن تعتزل عن خديجة أربعين صباحاً! فشق ذلك علي النبي (صلي الله عليه وآله)، وكان مُحَبّاً لها وبها وامتقاً.

قال: فأقام النبي (صلي الله عليه وآله) أربعين يوماً يصوم النهار ويقوم الليل، حتّى إذا كان في آخر (2) أيامه تلك، بعث إلي خديجة بعمّار بن ياسر، وقال: قل لها: يا خديجة، لا نظني أنّ انقطاعي عنك هجرة ولا قلي (3)، ولكنّ ربّي أمرني بذلك لينفد أمره، فلا نظني إلاّ خيراً، فإنّ الله ليباهي بك كرام ملائكته كلّ يوم، فإذا جنّك الليل فأجفي الباب (4) وخذني مضجعك من فراشك، فأتي في منزل فاطمة بنت أسد (5). فجعلت خديجة تحزن في كلّ يوم مراراً لفقد رسول الله (صلي الله عليه وآله).

فلما كان في كمال الأربعين هبط جبرئيل فقال: يا محمّد، العليّ الأعلي يُقرئك السلام وهو يأمرُك أن تتأهبّ لتحيّته وتحفته. قال النبي (صلي الله عليه وآله): يا جبرئيل، وما تحفة ربّ العالمين وما تحيته؟ قال: لا علم لي.

ص: 177

- 1- . بحار الأنوار: ج 6 ص 116. (المؤلف).
- 2- . في نسخة: «في أواخر». (المؤلف)
- 3- . القلي: بالكسر والقصر والفتح: البغض. (المؤلف).
- 4- . قال الجوهري: أجنّت الباب: رددته. (المؤلف).
- 5- . جاء في ص 22 من كتاب بطله كربلاء للدكتورة بنت الشاطي: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، زوجة أبي طالب عمّ الرسول، وأول هاشميّة تزوّجت هاشميّاً، وولدت له، أدركت النبيّ فأسلمت وحسن إسلامها، وأوصت إليه حين حضرته الوفاة، فقبل وصيتها وصلّي عليها، ونزل في لحدّها واضطجع معها فيه، وأحسن الثناء عليها، ذكر ابن سعد في طبقاته وابن هشام في السيرة وأبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبين عن ابن عبّاس أنّه قال: لمّا ماتت فاطمة أمّ عليّ بن أبي طالب، ألبسها رسول الله قميصه واضطجع معها في قبرها، فقال له أصحابه: يا رسول الله، ما رأيناك صنعتَ بأحدٍ ما صنعتَ بهذه المرأة، فقال: لأنّه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إني إنّما ألبستها قميصي لتكسي من حُلّ الجنّة، واضطجعت معها في قبرها ليهوّن عليها. (المؤلف).

فبينما النبي (صلي الله عليه وآله) كذلك إذ هبط ميكائيل ومعه طبقٌ مغطىٌ بمنديلٍ سندسٍ (أو قال: استبرق. الترديد من الراوي) فوضعه بين يدي النبي (صلي الله عليه وآله)، وأقبل جبرئيل علي النبي (صلي الله عليه وآله) وقال: يا محمّد، يأمرُ ربُّكَ أن تجعل الليلةَ إفطارك علي هذا الطعام.

فقال عليّ بن أبي طالب: كان النبي (صلي الله عليه وآله) إذا أراد أن يفطر أمرني أن أفتح الباب لمن يريد الإفطار، فلمّا كان في تلك الليلة أقعدني النبي (صلي الله عليه وآله) علي باب المنزل وقال: يا ابن أبي طالب، إنّهُ طعامٌ محرّمٌ إلّا عليّ.

فقال عليّ: جلستُ علي الباب، وخلا النبي (صلي الله عليه وآله) بالطعام، وكشف الطبق، فإذا عِذق من رطب، وعنقود من عنب، فأكل النبي (صلي الله عليه وآله) منه شبعاً، وشرب من الماء ريثاً، ومدّ يده للغسل، فأفاض الماء عليه جبرئيل، وغسل يده ميكائيل، وتمنّده إسرافيل، فارتفع فاضلُ الطعام مع الإناء إلي السماء.

ثمّ قام النبي (صلي الله عليه وآله) ليصلّي، فأقبل عليه جبرئيل فقال: الصلاة محرّمة عليك في وقتك حتّي تأتي إلي منزل خديجة فتواقعها، فإنّ الله ألي علي نفسه أن يخلق من صلبك في هذه الليلة ذريّةً طيِّبةً. فوثب رسول الله (صلي الله عليه وآله) إلي منزل خديجة.

قالت خديجة رضوان الله عليها: وكنْتُ قد ألفتُ الوحدة، فكان إذا جنّني الليل غطّيت رأسي وأسجفت (1) ستري، وغلّقت بابي، وصلّيت وردّي، وأطفأت مصباحي، وأويت إلي فراشي، فلمّا كان في تلك الليلة لم أكن بالنائمة ولا بالمنتبهة، إذ جاء النبي (صلي الله عليه وآله) فقرع الباب، فناديت: من هذا الذي قرع حلقة لا يقرعها إلّا محمّد (صلي الله عليه وآله)؟ قالت خديجة: فناديت النبي (صلي الله عليه وآله) وآله، فنادي النبي (صلي الله عليه وآله) بعدوبة كلامه وحلاوة منطقه: افتحي يا خديجة، فإنّي محمّد (صلي الله عليه وآله).

قالت خديجة: فقمْتُ فرحةً مستبشرة بالنبي (صلي الله عليه وآله)، وفتحتُ الباب ودخل النبي (صلي الله عليه وآله)، وكان إذا دخل المنزل دعا بالإناء فتطهّر للصلاة، ثمّ يصلّي ركعتين يُوجز فيهما، ثمّ يأوي إلي فراشه، فلمّا كان في تلك الليلة لم يدع بالإناء ولم يتأهّب للصلاة، غير أنّهُ أخذ

ص: 178

1- قال الجوهرى: أسجفتُ الستر: أي أرسلته. (المؤلف).

بعضدي وأقعدني علي فراشه، وداعبني ومازحني، وكان بيني وبينه ما يكون بين المرأة وبعلمها، فوالذي سَمَكَ السماء وأنبع الماء، ما تباعد عني النبي (صلي الله عليه وآله) حتى حسست بثقل فاطمة: في بطني.

أقول: قال العلامة الثبت المحدث القمي (1): اعتزال النبي (صلي الله عليه وآله) عن خديجة (عليها السلام) أربعين يوماً كان للتأهب لتحية رب العالمين وتُحفته، والمراد فاطمة:.

كما أُشير إلي ذلك في زيارتها: «وصل علي البتولة الطاهرة - إلي قوله - فاطمة بنت رسولك، وبضعة لحمه وصميم قلبه، وقلدة كبده، والتحية منك له والتحفه».

وفي هذا الاعتزال دليل علي جلاله فاطمة سيّدة النسوان بما لا يُطبق التحريم بيانه، ولعلّ التخصيص بالرطب والعنب لكثرة بركتهما وما يتولد منهما من المنافع، فإنه ليس في الأشجار ما يبلغ نفعه نفعهما، مع أنّهما خلقتا من فضلة طينة آدم.

ولا يبعد أن يكون في ذلك إشارة إلي كثرة نفع هذه النسلة الطاهرة المباركة، وكثرة ذريتها وبركاتها، كما قد نومئ إليه إن شاء الله تعالى في محله.

وأما قول جبرئيل للنبي (صلي الله عليه وآله): «الصلاة محرّمة عليك في وقتك»، فالظاهر أنّها الصلاة النافلة دون الفريضة، فإنه كان يقدمها علي الإفطار، والله أعلم بحقيقة الأحوال. انتهى كلامه (2).

أولادها من رسول الله (صلي الله عليه وآله)

ذكر أيضاً العلامة المجلسي (3)، عن جعفر، عن أبيه، قال: وُلد لرسول الله (صلي الله عليه وآله) من خديجة: القاسم، والظاهر، وأمّ كلثوم، ورقية، وفاطمة، وزينب (4).

ص: 179

- 1- . بيت الأحزان: ص 21. (المؤلف).
- 2- . بحار الأنوار: ج 16 ص 78. وقال السيّد القزويني في فاطمة من المهد إلي اللحد: ذكر هذا الحديث من علماء العامة - بتغيير يسير - كلّ من: 1. الخوارزمي في مقتل الحسين. 2. الذهبي في ميزان الاعتدال: ج 2 ص 26. 3. تلخيص المستدرک: ج 3 ص 156. 4. لسان الميزان للعسقلاني: ج 4 ص 36. (الشطري).
- 3- . بحار الأنوار: ج 6 ص 911 نقلاً عن قرب الإسناد للحميري. (المؤلف).
- 4- . عدّة رسائل للشيخ المفيد: ص 229، والمسائل السروية، المسألة العاشرة. قال السيّد كاظم القزويني في فاطمة من المهد إلي اللحد (ص 31): أنجبت خديجة أولاداً ماتوا كلّهم صغاراً، وأنجبت أربع بنات: زينب، وأمّ كلثوم، ورقية، وفاطمة، وكانت فاطمة أصغرهنّ سنّاً وأجلهنّ شأنّاً وأعظمنّ قدراً. ثمّ قال: وفي الأوليين اختلاف، فقيل: إنهما ليستا من بنات رسول الله، والصحيح أنّهما من بناته وصلبه. وقد ردّ علي هذا القول السيّد العاملي في كتابه بنات النبي أم ربائبه؟. (الشطري).

فتزوّج عليّ فاطمة، وتزوّج أبو العاص بن الربيع - وهو من بني أميّة - زينب، وتزوّج عثمان بن عفّان أمّ كلثوم، ولم يدخل عليها حتّى هلكت، وزوّجه رسول الله (صلي الله عليه وآله) مكانها رقيّة.

ثمّ وُلد لرسول الله (صلي الله عليه وآله) من أمّ إبراهيم: إبراهيم، وهي مارية القبطيّة، أهداها إليه صاحب الإسكندرية مع البغلة الشهباء وأشياء معها.

وقال المسعودي(1): وُلد له من خديجة: القاسم، وبه يُكنّى (2)، وكان أكبر بنيه سنّاً، ورقيّة، وزينب، وأمّ كلثوم.

وَوُلد له بعدما بُعث: عبدالله، وهو الطيّب، والطاهر، سُمّي بثلاثة أسماء؛ لأنّه وُلد في الإسلام، وفاطمة، وإبراهيم بعد مبعثه.

أقول: وكلّهم وُلدوا بمكّة من خديجة، إلا إبراهيم فوُلد بالمدينة، وأمّه مارية، فيكون مجموع أولاده سبعة: ثلاثة ذكور، وأربع إناث. سنذكر تراجمهم إن شاء الله، فنقول:

وأما القاسم

فمات بمكّة وعمره سنتان، وقيل: أقل، وقيل: أكثر، وهو أوّل ميّت مات من وُلده.

عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها، قال: لما توفّي القاسم ابن رسول الله (صلي الله عليه وآله)، قالت خديجة: يا رسول الله، دَرّ لَبْنِيهِ للقاسم، فلو كان الله أبّاه حتّى يستكمل رضاعه! فقال: إنّ تمام رضاعه في الجتّة، قالت: لو أعلم ذلك يا رسول الله لهوّن عليّ أمره. فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): إذا شئت فأسمعك صوته، قالت: يا رسول الله، حسبي، صدق الله ورسوله(3).

وأما عبد الله

ص: 180

1- . مروج الذهب: ص 408 ط مصر. (المؤلف).

2- . جاء في السيرة الحلبيّة: ج 3 ص 418: وكُنّي به، فقد جاء أنّ جبرئيل قال له: السلام عليك يا أبا إبراهيم، إنّ الله قد وهب إليك غلاماً من أمّ ولدك مارية، وأمرك أن تسميه إبراهيم، فبارك الله فيه وجعله قرّة عين لك في الدنيا والآخرة. (المؤلف).

3- . ينابيع المودّة للقندوزي نقلاً عن سنن ابن ماجّة (المؤلف).

فمات أيضاً بمكة صغيراً، وكان يُسمَّى: «الطيب والطاهر». وقيل: الطيب والطاهر غير عبد الله.

عن جابر عن أبي جعفر، قال: توفي الطاهر ابن رسول الله (صلي الله عليه وآله)

ه)، فنهى رسول الله خديجة عن البكاء، فقالت: بلي يا رسول الله، ولكن دَرَّتْ عليه الدريئة فبكيْتُ، فقال لها: أما ترضين أن تجديه قائماً علي باب الجنة، فإذا رآك أخذ بيدك فأدخلك الجنة، أطهرنا مكاناً وأطيننا؟ قالت: وإن ذلك كذلك، قال: فإن الله أكرم من أن يسلب عبداً ثمرة فؤاده، فيصبر ويحتسب ويحمد الله، ثم يعدّبه (1).

وأما إبراهيم

فأمه مارية القبطية، ولد في ذي الحجة سنة ثمانٍ من الهجرة، ومات سنة عشرٍ، وعمره إذ ذاك سنة وعشرة أشهر، وقيل: سنة وستة أشهر، ودُفن بالقيع.

عن ابن عباس قال: كنتُ عند النبي (صلي الله عليه وآله) وعلي فخذُه الأيسر ابنه

إبراهيم، وعلي فخذُه الأيمن الحسين بن علي وهو تارةً يقبل هذا، وتارةً يقبل هذا، إذ هبط جبرئيل بوحىٍ من رب العالمين، فلما سُرِّي عنه قال: أتاني جبرئيل من ربي فقال: يا محمد، إن ربك يقرء عليك السلام ويقول: لستُ أجمعهما، فافدِ أحدهما لصاحبه.

فنظر النبي (صلي الله عليه وآله) إلي إبراهيم فبكي، ونظر إلي الحسين فبكي، وقال: إن إبراهيم أمه أمةٌ ومتي مات لم يحزن عليه غيري، وأم الحسين فاطمة، وأبوه علي ابن عمي لحمي ودمي، ومتي مات حزنْتُ ابنتي وحزن ابن عمي وحزنْتُ أنا عليه، وأنا أوثر حزني علي حزنهما، يا جبرئيل، يقبض إبراهيم، فديتهُ للحسين.

قال: فقبض بعد ثلاث.

فكان النبي (صلي الله عليه وآله) إذا رأى الحسين مُقبلاً، قبله وضمه إلي صدره ورشف ثناياه، وقال: فديتُ من فديته (2).

ص: 181

1- بحار الأنوار: ج 2 نقلاً عن الكافي. (المؤلف).

2- بحار الأنوار: ج 6 ص 918 نقلاً عن المناقب لابن شهر آشوب. (المؤلف).

وعن الحسين بن خالد قال: سمعت أبا الحسن موسى بن جعفر يقول: لَمَّا قُبِضَ إبراهيم ابن رسول الله (صلي الله عليه وآله)، جرت في موته ثلاث سنن، أمّا واحدة: فإنّه لَمَّا قُبِضَ انكسفت الشمس، فقال الناس: إنّما انكسفت الشمس لموت ابن رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فصعد رسول الله (صلي الله عليه وآله) المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أيّها الناس، إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولحياته، فإذا انكسفا أو أحدهما صلّوا.

ثمّ نزل من المنبر فصلى بالناس الكسوف، فلَمَّا سلّم قال: يا عليّ، قم فجهّز ابني.

قال: فقام عليّ فغسّل إبراهيم وكفّنه وحنّطه. ومضى رسول الله (صلي الله عليه وآله) حتّى أتى إلي قبره، فقال الناس: إنّ رسول الله نسي أن يُصلّي علي ابنه لِمَا دخله من الجزع، فانتصب قائماً ثمّ قال: إنّ جبرئيل أتاني وأخبرني بما قُلتُم، زعمتم أنّي نسيت أن أصلّي علي ابني لِمَا دخلني من الجزع، ألا وإنّه ليس كما ظننتم، ولكنّ اللطيف الخبير فرض عليكم خمس صلوات، وجعل لموتاكم من كلّ صلاة تكبيراً، وأمرني أن لا أصلّي إلاّ علي من صلّي.

ثمّ قال: يا عليّ، انزل وألحد ابني. فنزل عليّ فألحد إبراهيم في لحدّه. فقال الناس: إنّّه لا ينبغي لأحد أن ينزل في قبر ولده؛ إذ لم يفعل رسول الله (صلي الله عليه وآله) بابنه، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): إنّّه ليس عليكم بحرام أن تنزلوا في قبور أولادكم، ولكن لست آمن إذا حلّ أحدكم الكفن عن ولده أن يلعب به الشيطان، فيدخله من ذلك من الجزع ما يحبط أجره. ثمّ انصرف (1).

وأما زينب

فكانت ولادتها سنة ثلاثين من مولده. فتزوجها أبو العاص (2) ابن الربيع، واسمه مقسم بن

ص: 182

1- . بحار الأنوار: ج 6 ص 705 عن المحاسن للبرقي. (المؤلف).

2- . جاء في الكني والألقاب للقمي (ج 1 ص 110): أبو العاص هو ابن الربيع القرشي، اسمه لقيط أو مهشم أو هشيم، زوج زينب بنت النبي، أمّه هالة بنت خويلد أخت خديجة (عليها السلام)، وكان من أكثر رجال مكّة مالاً وأمانة وتجارة، والخبر في حسن مصاهرته في أيام الشّعْب مشهور، وقصّة أسره بيد وفدائه في الكتب مسطورة، توفي سنة 12 هـ. (المؤلف).

عبد العزّي بن عبد شمس، وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة، ولدت منه ولدًا سمّاه عليًّا، فتوفّي وهو صغير.

وقال ابن هشام: تزوّج أبو العاص زينبَ وهو مشركٌ، وأسر يوم بدر، فمَنَّ عليه رسول الله (صلي الله عليه وآله) علي أن يجهّز إليه زينب، فجهّزها إليه.

فلما خرجت من مكّة لحقها هبّار بن الأسود فطعنَ بعيرها، فخرعها فأسقطت، وردّها وبقيت عند هند بنت زمعة.

وبعث رسول الله (صلي الله عليه وآله) زيد بن حارثة، فتلقّف لها حتّي ورد بها المدينة، ففرح بها رسول الله (صلي الله عليه وآله).

قال الواقدي: وذلك بعد غزاة حنين، وليس بصحيح، وإّما هو عقيب غزاة بدر. ثمّ قدم زوجها أبو العاص علي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فاستجار بزینب فأجارته. فأمضى رسول الله (صلي الله عليه وآله) ذلك، وردّ زينب عليه رسول الله (صلي الله عليه وآله) بالنكاح الأول، وقيل: إنّها ردّها بنكاح جديد، وقيل: إنّما أسلم قبل انقضاء عدّتها، وقيل: كان هذا ثمّ فسح؛ يعني النكاح الأول.

وكان لأبي العاص من زينب ابنة يُقال لها أمّامة، تزوّجها المغيرة بن نوفل، وفارقها، فتزوّجها عليّ بعد موت فاطمة، وقيل: إنّما تزوّجها بوصيّة فاطمة. وهذه أمّامة هي التي كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يحملها علي كتفه وهي طفلة حتّي في الصلاة، فإذا سجد وضعها علي الأرض، وإذا قام علا فحملها. وتوفّيّت زينب سنة ثمان من الهجرة (1).

وأما رقية

فولدت لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ثلاث وثلاثون سنة، فكان رسول الله (صلي الله عليه وآله) زوّجها عتبة بن أبي لهب، وزوّج أمّ كلثوم عتيبة بن أبي لهب، فلمّا نصب أبو لهب العداوة لرسول الله (صلي الله عليه وآله) أمر ابنه عتبة وعتيبة بطلاقهما، فطلقاهما قبل الدخول، فتزوّجها عثمان، تزوّج في الجاهلية رقية أولًا، فولدت له عبد الله وهاجرت معه إلي الحبشة، ثمّ عادت معه إلي المدينة، وتوفّيّت

ص: 183

1- . تذكرة الخواص لابن الجوزي: ص 210. (المؤلف).

سنة اثنتين من الهجرة والنبي (صلي الله عليه وآله) بيدر، وكان لها من عثمان بن عفان: نقره ديك في عينه، فمات سنة أربع من الهجرة وله ست سنين(1).

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله: أيفلت من ضغطة القبر أحد؟ قال: فقال:

نعوذ بالله منها، ما أقل من يُفلت من ضغطة القبر، إنّ رقيّة لمّا قتلها عثمان، وقف رسول الله (صلي الله عليه وآله) علي قبرها، ورفع رأسه إلي السماء فدمعت عيناه، وقال للناس: إني ذكرت هذه وما لقيت، فوفقت لها واستوهبتّها من ضمة القبر.

قال: فقال: اللهم هب لي رقيّة من ضمة القبر، فوهبها الله له.

قال: وإن رسول الله (صلي الله عليه وآله) خرج في جنازة سعد، وقد شيّعه سبعون ألف ملك، ورفع رسول الله (صلي الله عليه وآله) رأسه إلي السماء ثم قال: مثل سعد يُضمّ؟

قال: جعلت فداك، إنّنا نحدّث أنّه كان يستخفّ بالبول! فقال: معاذ الله، إنّما كان من زعارة في خُلّقه علي أهله.

قال: فقالت أمّ سعد: هنيئاً لك يا سعد، قال: فقال لها رسول الله (صلي الله عليه وآله): يا أمّ سعد، لا تحتمّي علي الله(2).

عن يزيد بن خليفة قال: سألت عيسى بن عبد الله أبا عبد الله وأنا حاضر، فقال: تخرج النساء إلي الجنازة؟ وكان متكئاً فاستوي جالساً، ثم قال: إنّ الفاسق عليه لعنة الله آوي عمّه المغيرة بن أبي العاص، وكان ممّن هدر رسول الله (صلي الله عليه وآله) دمه، فقال لابنة رسول الله (صلي الله عليه وآله): لا تُخبري أباك بمكانه، كأنّه لا يوقن أنّ الوحي يأتي محمّداً، فقالت: ما كنت لأكتُم رسول الله (صلي الله عليه وآله) عدوّه.

فجعل بين مشجب له ولحفه بقطيفة، فأتي رسول الله (صلي الله عليه وآله) الوحي، فأخبره بمكانه، فبعث إليه عليّاً وقال: اشتمل علي سيفك، وائت بيت ابنة ابن عمك، فإن ظفرت بالمغيرة فاقتله.

ص: 184

1- . تذكرة الخواصّ. (المؤلف).

2- . بحار الأنوار: ج 6 ص 707 نقلاً عن الكافي. (المؤلف).

فأتى البيت، فجال فيه فلم يظفر به، فرجع إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فأخبره فقال: يا رسول الله (صلي الله عليه وآله)، لم أراه، فقال: إن الوحي أتاني فأخبرني

أنه في المشجب. ودخل عثمان بعد خروج علي، فلما رآه أكبَّ ولم يلتفت إليه، وكان النبي (صلي الله عليه وآله) حيناً كريماً فقال: يا رسول الله (صلي الله عليه وآله) هذا عمي، هذا المغيرة بن أبي العاص، وقد - والذي بعثك بالحق - أمنته. وكذب، فأعادها ثلاثاً، يأتيه عن يمينه، وعن يساره، فلما كان في الرابعة رفع رأسه إليه، فقال: قد جعلتُ لك ثلاثاً، فإن قدرتُ عليه بعد ثلاثة قتلته.

فلما أدبر قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): اللهم العن المغيرة بن أبي العاص، والعن من يأويه، والعن من يحمله، والعن من يطعمه، والعن من يسقيه، والعن من يجهزه، والعن من يعطيه سقاء أو خداعاً أو رشاء أو وعاء. وهو يعدهن بيمينه.

وانطلق به عثمان، فأواه وأطعمه وسقاه وحمله وجهزه، حتى فعل جميع ما لعن عليه النبي (صلي الله عليه وآله) من يفعله به، ثم أخرجه في اليوم الرابع يسوقه، فلم يخرج من أبيات المدينة حتى أعطب الله راحلته ونقب خداعه وورمت قدماه، فاستعان بيده وركبتيه، وأثقله جهازه، حتى وجس (1)، فأتي سمرة (2) فاستظل بها، لو أتاها بعضكم ما أبهره ذلك، فأتي رسول الله (صلي الله عليه وآله) الوحي فأخبره بذلك.

فدعا علياً فقال: خذ سيفك فانطلق أنت وعمار وثالث لهما، فأت المغيرة ابن أبي العاص تحت شجرة كذا وكذا. فأتاه علي فقتله.

فضرب عثمان بنت رسول الله (صلي الله عليه وآله) وقال: أنت أخبرت أبك بمكانه؛ فبعثت إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) تشكو ما لقيت، فأرسل إليها رسول الله (صلي الله عليه وآله): أقني (3) حياك، ما أقبح بالمرأة ذات حسبٍ ودين في كل يوم تشكو زوجها (4).

ص: 185

1- . أي فزع. (المؤلف).

2- . شجر معروف. (المؤلف).

3- . أو احفظي. (المؤلف).

4- . قارن هذا بما رواه الكليني في الكافي: ج 1 ص 70، وانظر منتخب الأنوار لابن همّام، المطبوع مع تاريخ أهل البيت:، تحقيق السيّد الجلالى، الطبعة الثانية قم 1423 هـ .

فأرسلت إليه مرّاتٍ، كلّ ذلك يقول لها ذلك، فلمّا كان في الرابعة دعا عليّاً وقال: خُذ سيفك واشتمل عليه ثمّ أنتِ بنتِ ابن عمّك، فخذ بيدها، فإن حال بينك وبينها أحد فاحطمه بالسيف.

وأقبل رسول الله (صلي الله عليه وآله) كالوالد من منزله إلي دار عثمان، فأخرج عليّ ابنة رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فلمّا نظرت إليه رفعت صوتها بالبكاء، واستعبر رسول الله (صلي الله عليه وآله) وبكي، ثمّ أدخلها منزله، وكشفت عن ظهرها، فلمّا أن رأي ما بظهرها قال - ثلاث مرّات - : ما له؟ قتلك، قتله الله! وكان ذلك يوم الأحد، وبت عثمان ملتحفاً بجاريته. فمكثت الاثني والثلاثاء، وماتت في اليوم الرابع.

فلمّا حضر أن يخرج بها، أمر رسول الله (صلي الله عليه وآله) فاطمة: فخرجت ونساء المؤمنين معها، وخرج عثمان يشيع جنازتها، فلمّا نظر إليه النبي (صلي الله عليه وآله) قال: من أطاف البارحة بأهله أو بفتاته فلا يتبع جنازتها. قال ذلك ثلاثاً، فلم ينصرف، فلمّا كان في الرابعة، قال: لينصرفن أو لأسمين باسمه.

فأقبل عثمان متوكّئاً علي موليّ له ممسكاً ببطنه، فقال: يا رسول الله (صلي الله عليه وآله)، إني أشتكى بطني، فإن رأيت أن تأذن لي أن أنصرف! قال: انصرف.

وخرجت فاطمة ونساء المؤمنين والمهاجرين فصلين علي الجنازة(1).

وأما أمّ كلثوم:

فتزوّجها أيضاً عثمان بعد أختها رقيّة، وتوفيت عنده سنة سبع من الهجرة، وكان تزويجها من عثمان سنة ثلاث من الهجرة.

وأما فاطمة:

قال ابن شهر آشوب(2): وُلدت فاطمة بمكّة بعد النبوة، بخمس سنين، وبعد الإسراء

ص: 186

1- . الصدف المشحون: ج2 ص165 عن الكافي. (المؤلف). وانظر الكافي: ج1 ص70، والاحتجاج للطبرسي: ج1 ص94، وبحار الأنوار: ج22 ص162.

2- . المناقب: ج4 ص22. (المؤلف).

بثلاث سنين، في العشرين من جمادي الآخرة، وأقامت مع أبيها ثماني سنين، ثم هاجرت معه إلى المدينة، وتزوجها علي بعد مقدمها المدينة بسنتين، أول يوم من ذي الحجة (1).

وعن حبيب السجستاني، قال: سمعتُ أبا جعفر يقول: وُلدت فاطمة بنت محمد (صلي الله عليه وآله) بعد مبعث رسول الله (صلي الله عليه وآله) بخمس سنين، وتوفيت ولها ثمانية عشر سنة وخمسة وسبعون يوماً (2).

أقول: ذكر العلامة الأمين (3)، (4): إن أكثر العامة تروي أن مولدها قبل المبعث بخمس سنين، ولعل وقع اشتباه من الرواة بين كلمتي قبل وبعد، فتبدلت إحداهما بالأخرى (5).

وعن المفصل بن عمر، قال: قلت لأبي عبد الله الصادق: كيف كان ولادة فاطمة؟ فقال: نعم، إن خديجة: لما تزوج بها رسول الله (صلي الله عليه وآله) هجرتها نسوان مكة، فلم يدخلن عليها ولا يسلمن عليها، ولا يتركن امرأة تدخل عليها، فاستوحشت خديجة لذلك، وكان جزعها وغمها حذراً عليه، فلما حملت بفاطمة: كانت فاطمة تُحدّثها من بطنها، وتصبرها، وكانت تكتم ذلك من رسول الله (صلي الله عليه وآله) وآله.

فدخل رسول الله يوماً فسمع خديجة تحدّث فاطمة، فقال: يا خديجة! من تحدّثين؟

قالت: الجنين الذي في بطني يحدثني ويؤنسي (6).

ص: 187

- 1- . مسائر الشيعة: ص 53 ضمن مجموعة نفيسة ط حجرية. (الشطري).
- 2- . الكافي: ج 1 ص 380. (المؤلف). وراجع: تاريخ أهل البيت: ص 90، تحقيق السيّد الجلالى، الطبعة الثانية قم 1423هـ .
- 3- . هو العلامة الكبير آية الله الحاج السيّد محسن الأمين العاملي، ولد بقرية شقراء إحدى قري جبل عامل، في حدود سنة 1282هـ، وتوفي سنة 1371 في شهر رجب. (المؤلف).
- 4- . المجالس السنية: ج 5 ص 41. (المؤلف).
- 5- . لاحظ حول هذا الاختلاف: تاريخ أهل البيت: هامش ص 90، تحقيق السيّد الجلالى، الطبعة الثانية قم 1423هـ .
- 6- . من جملة مزايا فاطمة أنها كانت تعلم أمها وهي في بطنها، ولم يتفرّد بذلك الشيعة بذكر هذه الفضيلة، بل شاركهم عدد كثير من علماء العامة ومحدّثيهم، منهم: الصفوري الشافعي في نزهة المجالس: ج 2 ص 227، الدهلوي في تجهيز الجيوش عن كتاب مدح الخلفاء الراشدين، شعيب المصري في الروض الفائق: ص 214 (فاطمة من المهدي إلى اللحد: ص 40). (الشطري).

قال: يا خديجة، إنَّ جبرئيل يخبرني أنَّها أنثى، وأنَّها النسلة الطاهرة الميمونة، وأنَّ الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها الأئمة، ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه.

فلم تزل خديجة علي ذلك إلي أن حضرت ولادتها، فوجَّهت إلي نساء قريش وبني هاشم أن تعالين لتلين منِّي ما تلي النساء من النساء.

فأرسلن إليها: أنتِ عصيتنا ولم تقبلي قولنا، وتزوَّجتِ محمداً يتيم أبي طالب فقيراً لا مال له، فلسنا نجيء ولا نلي من أمرك شيئاً.

فاغتمت خديجة لذلك، إذ دخل عليها أربع نسوة سمر طوال، كأنهنَّ من بني هاشم، ففزعت لذلك لما رأتهنَّ، فقالت إحداهنَّ: لا تحزني يا خديجة، فإنَّا رُسل ربِّك إليك، ونحن أخواتك؛ أنا سارة، وهذه آسية بنت مزاحم، وهي رفيقتك في الجنَّة، وهذه مريم بنت عمران، وهذه كلثم أخت موسى بن عمران، بعثنا الله إليك لنلي منك ما تلي النساء. فجلست واحدة عن يمينها وأخري عن يسارها، والثالثة بين يديها، والرابعة من خلفها، فوضعت فاطمة: طاهرة مطهَّرة.

فلما سقطت إلي الأرض أشرق منها النور حتَّى دخل بيوتات مكَّة، ولم يبق في شرق الأرض وغربها موضع إلاَّ أشرق فيه ذلك النور.

ودخل عشر من الحور العين كلَّ واحدةٍ منهنَّ معها طستٌ من الجنَّة وإبريق من الجنَّة، وفي الإبريق ماءٌ من الكوثر.

فناولتها المرأة التي كانت بين يديها فغسلتها بماء الكوثر، وأخرجت خرقتين

بيضاوين أشدَّ بياضاً من اللبن وأطيب ريحاً من المسك والعنبر، فلقتها بواحدةٍ وقنعتها بالثانية، ثمَّ استنطقتها فنطقت فاطمةً بالشهادتين وقالت: «أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ أباي رسول الله سيِّد الأنبياء، وأنَّ بعلي سيِّد الأوصياء، وولدي سادات الأباط». ثمَّ سلَّمت عليهنَّ، وسلَّمت كلَّ واحدةٍ باسمها، وأقبلن يضحكن إليها، وتباشرت الحور العين، وبشَّروا أهل السماء بعضهم بعضاً بولادة فاطمة: وحدث في السماء نورٌ ظاهرٌ لم تره الملائكة قبل ذلك، وقالت النسوة: خذيها يا خديجة طاهرةً مطهَّرةً زكيَّةً ميمونةً، بُورك فيها وفي

نسلها. فتناولتها فرحةً مستبشرةً، وألقتها ثديها، فدَرَ عليها، فكانت تنمو في اليوم كما ينمو الصبي في الشهر، وكانت تنمو في الشهر كما ينمو الصبي في السنة(1). (2)

وأما فضائلها:

جاء في بيت الأحزان(3): كانت فاطمة: من أهل العباء والمباهلة والمهاجرة في أصعب وقت، وكانت فيمن نزلت فيهم آية التطهير، وافتخر جبرئيل بكونه منهم، وشهد الله لهم بالصدق، ولها أمومة الأئمة:، وعقب الرسول إلي يوم القيامة، وهي سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

وكانت أشبه الناس كلاماً وحديثاً برسول الله(صلي الله عليه وآله)، تحكي شيمتها شيمته، وما تخرم مشيتها مشيته. وكانت إذا دخل عليها رحّب بها، وقبّل يديها وأجلسها في مجلسه(4).

وكان النبي(صلي الله عليه وآله) يُكثر تقبيلها، وكلّما اشتاق إلي رائحة الجنّة يشم رائحتها، وكان يقول: «فاطمة بضعة منّي، من سرّها فقد سرّني، ومن ساءها فقد ساءني»، «فاطمة أعزّ الناس إليّ»، إلي غير ذلك، ممّا يكشف به عن كثرة محبّته لها، كندائه إيّاها بيا حبيبة أبيها، كما روي الطبري الإمامي(5) عن جعفر بن محمّد عن آبائهم: عن فاطمة:، قالت: قال رسول الله(صلي الله عليه وآله): «يا حبيبة أبيها، كلّ مسكرٍ حرامٍّ، وكلّ مسكرٍ خميرٍ».

وليعلم أنّه قد حُقّق في محلّه أنّ محبّة المقرّبين لأولادهم وأقربائهم وأحبّائهم ليست من جهة الدواعي النفسانية والشهوات البشرية، بل تجرّدوا عن جميع ذلك

ص: 189

- 1- . الأماي للصدوق: ص353، مجلس 87 ط طهران. (المؤلف).
- 2- . بحار الأنوار: ج43 ص2. وقد ذكر السيّد كاظم القزويني أنّه روي ذلك الطبري في ذخائر العقبي والصفوري الشافعي في نزهة المجالس والقندوزي في يبايع المودّة (فاطمة من المهد إلي اللحد: ص43). (الشطري).
- 3- . بيت الأحزان: ص8. (المؤلف).
- 4- . فاطمة من المهد إلي اللحد: ص187 نقلاً عن مقتل الحسين للخوارزمي: ص66، مستدرک الصحيحين للحاكم النيسابوري: ج3 ص165، ذخائر العقبي: ص36، وسيلة المآل للحضرمي: ص79. (الشطري، الشيخ أبو عمّار العبودي).
- 5- . في دلائل الإمامة. (المؤلف).

وأخلصوا حبّهم وإرادتهم لله، فهم ما يحبّون سوي الله تعالى، وحبّهم لغيره تعالى إنّما يرجع إلي حبّهم له، ولذا لم يحبّ يعقوب من سائر أولاده مثل ما أحبّ يوسف، وهم لجهلهم بسبب حبّه له نسبوه إلي الضلال، وقالوا: نحن عصبه، ونحن أحقّ بأن نكون محبوبين له؛ لأنّا أقوىاء علي تمشية ما يريد من أمور الدّنيا، ففرط حبّه ليوسف إنّما كان لحبّ الله تعالى له واصطفائه إيّاه، ومحبوب المحبوب محبوب. انتهى كلامه.

عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد، قال: قال جابر لأبي جعفر: جُعلت فداك يا بن رسول الله، حدّثني بحديث في فضل جدّتك فاطمة: إذا أنا حدّثت به الشيعة فرحوا بذلك.

قال أبو جعفر: حدّثني أبي عن جدّي عن رسول الله (صلي الله عليه وآله)، قال: إذا كان يوم القيامة نُصب للأنبيا والرسل منابر من نور، فيكون منبري أعلي منابرهم يوم القيامة، ثمّ يقول: يا محمّد، اخطب، فأخطب خطبة لم يسمع أحد من الأنبياء والرسل بمثلها، ثمّ يُنصب للأوصياء منابر من نور ويُنصب لوصيّ عليّ بن أبي طالب في

أوساطهم منبر من نور، فيكون منبر عليّ أعلي منابرهم يوم القيامة، ثمّ يقول له: اخطب، فيخطب خطبة لم يسمع أحد من الأوصياء بمثلها.

ثمّ، ينصب لأولاد الأنبياء والمرسلين منابر من نور، فيكون لابنيّ وسبطيّ وريحانتيّ أيام حياتي منبرين، ثمّ يقال لهما: اخطبا، فيخطبان بخطبتين لم يسمع أحد من أولاد الأنبياء والمرسلين بمثلها. ثمّ ينادي منادٍ وهو جبرئيل: أين فاطمة بنت محمّد (صلي الله عليه وآله)؟ أين خديجة بنت خويلد؟ أين آسية بنت مزاحم؟ أين كلثوم أم يحيى بن زكريا؟ فيقمن، فيقول الله تبارك وتعالى إلي أهل الجمع: لمن الكرم اليوم؟ فيقول محمّد وعليّ والحسن والحسين وفاطمة: لله الواحد القهار.

فيقول الله جلّ جلاله: يا أهل الجمع، إنّني قد جعلت الكرم لمحمّد (صلي الله عليه وآله) وعليّ والحسن والحسين وفاطمة: يا أهل الجمع طاطبوا الرؤوس وغصّوا الأبصار؛ إنّ هذه فاطمة تسير إلي الجنّة.

فيأتيها جبرئيل بناقةً من نوق الجنة، مدبجة الجنين، حطامها من اللؤلؤ المحقق الرطب، عليها رحل من المرجان، فتناخ بين يديها فتركبها، فيبعث إليها مائة ألف ملك فيصرون علي يمينها، ويبعث إليها مائة ألف ملك فيصرون علي يسارها، ويبعث إليها مائة ألف ملك يحملونها بأجنحتهم حتى يسيروها عند باب الجنة، فإذا صارت عند باب الجنة تلتفت، فيقول الله: يا بنت حبيبي، ما التفاتك وقد أمرت بك إلي جنتي؟ فتقول: يارب أحببت أن يُعرف قدري في مثل هذا اليوم.

فيقول الله تبارك وتعالى: يا بنت حبيبي، ارجعي وانظري من كان في قلبه حبُّ لك أو لأحدٍ من ذريتك، خذي بيده فأدخله الجنة.

قال أبو جعفر: والله يا جابر إنَّها ذلك اليوم لتلتقط شيعتها ومحبيها كما يلتقط الطير الحبَّ الجيد من الحبِّ الرديء.

فإذا صار شيعتها معها عند باب الجنة، يلقي الله في قلوبهم أن يلتفتوا، فإذا التفتوا

فيقول الله، يا أحبائي ما التفاتكم وقد شفعت فيكم فاطمة بنت حبيبي؟ فيقولون: يارب أحببنا أن يعرف قدرنا في مثل هذا اليوم.

فيقول الله: يا أحبائي، ارجعوا وانظروا من أحبكم لحبِّ فاطمة، انظروا من أطمعكم لحبِّ فاطمة، وانظروا من سقاكم شربة في حبِّ فاطمة، انظروا من ردَّ عنكم غيبةً في حبِّ فاطمة، وانظروا من كساكم لحبِّ فاطمة، خذوا بيده وأدخلوه الجنة.

قال أبو جعفر: والله لا يبقى في الناس إلا شاكُّ أو كافر أو منافق. فإذا صاروا بين الطبقات نادوا كما قال الله: (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ) (1)، فيقولون: (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (2).

قال أبو جعفر: هيهات، هيهات، مُنعوا ما طلبوا، ولو ردُّوا لعادوا لما نُهوا عنه،

ص: 191

1- . الشعراء: 100 - 101.

2- . الشعراء: 102.

وعن ابن عباس، قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول: دخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) ذات يوم علي فاطمة وهي حزينة، فقال لها: ما حزنك يا بنية؟ قالت: يا أبة، ذكرت الحشر ووقوف الناس عرأة يوم القيامة، قال: يا بنية، إنه ليوم عظيم، ولكن قد أخبرني جبرئيل عن الله أنه قال: أول من تشق عنه الأرض يوم القيامة أنا وأبي إبراهيم، ثم بعلك علي بن أبي طالب .

ثم يبعث الله إليك جبرئيل في سبعين ألف، فيضرب علي قبرك سبع قباب من نور، ثم يأتيك إسرافيل بثلاث حُلل من نور، فيقف عند رأسك فيناديك: يا فاطمة ابنة محمد (صلي الله عليه وآله)، قومي إلي محشرك آمنة روعتك، مستورة عورتك.

فيناولك إسرافيل الحلل فتلبسينها، ويأتيك روفائيل بنجبية من نور، زمامها من لؤلؤ رطب، عليها محفة من ذهب، فتركيها، ويقود روفائيل بزمامها، وبين يديك سبعون ألف ملك بأيديهم ألوية التسبيح. فإذا جدّ بك السير استقبلك سبعون ألف حوراء يستبشرون بالنظر إليك، بيد كل واحدة منهنّ معجرة من نور، تسطع منها ريح العود من غير نار، وعليهنّ أكاليل الجوهر مرصع بالزبرجد الأخضر، فيسرن عن يمينك، فإذا مثل الذي سرت من قبرك إلي أن لقينك، إلي أن استقبلتك مريم بنت عمران في مثلي من معك من الحور العين، فتسلم عليك، وتسير هي ومن معها عن يسارك.

ثم استقبلتك أمك خديجة بنت خويلد أول المؤمنات بالله ورسوله، معها سبعون ألف ملك بأيديهم ألوية التكبير، فإذا قربت من الجمع استقبلتك حوراء في سبعين ألف ملك حوراء معها آسية بنت مزاحم، فتسير هي ومن معها معك.

فإذا توسّطت الجمع، وذلك أن الله يجمع الخلائق في صعيد واحد، فيستوي بهم

1- . بحار الأنوار: ج 8 ص 51 عن تفسير فرات: ص 113، فاطمة من المهد إلي اللحد: ص 544 - 546. (الشطري). فرات بن إبراهيم الكوفي: أحد علماء الحديث في القرن الثالث. قال آية الله العلامة السيّد حسن الصدر في كتاب الشيعة وفنون الإسلام: إنه كان في عصر الإمام الجواد ابن الرضا . (المؤلف).

الأقدام، ثم ينادي منادٍ من تحت العرش يسمع الخلائق: غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ حَتَّى تَجُوزَ فَاطِمَةُ الصِّدِّيقَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وَمِنْ مَعَهَا. فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْكَ يَوْمَئِذٍ إِلَّا إِبْرَاهِيمُ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .

ويطلب آدمُ حواءَ، فيراها مع أمك خديجة أمامك.

ثم ينصب لك منبر من نور فيه سبع مراقٍ، بين المرقاة إلى المرقاة صفوف الملائكة، بأيديهم ألوية النور، وتصطف الحور العين عن يمين المنبر وعن يساره، وأقرب النساء منك عن يسارك حواءُ وأسية بنت مزاحم، فإذا صرت في أعلي المنبر أتاك جبرئيل فقال لك: يا فاطمة سلمي حاجتك، فتقولين: يارب، أرني الحسن والحسين، فيأتيانك وأوداج الحسين تشخبُ دماً، وهو يقول: يارب خذ لي اليوم حقي ممن ظلمني. فيغضب عند ذلك الجليل، وتغضب لغضبه جهنم، والملائكة أجمعون، فتزفر جهنم عند ذلك زفرة.

ثم يخرج فوج من النار فيلتقط قتلة الحسين وأبناءهم وأبناء آبائهم، ويقولون: يارب إنا لم نحضر الحسين! فيقول الله لزبانية جهنم: خذوهم بسيماهم بزُرقة الأعين وسواد الوجوه، خذوا بنواصيهم فألقوهم في الدرك الأسفل من النار، فإتاهم كانوا أشد علي أولياء الحسين من آبائهم الذين حاربوا الحسين فقتلوه. فيسمع شهيقهم في جهنم.

ثم يقول جبرئيل: يا فاطمة سلمي حاجتك، فتقولين: يارب شيعتي، فيقول الله: قد غفرت لهم، فتقولين: يارب شيعه شيعتي، فيقول الله: انطلقني، فمن اعتصم بك فهو معك في الجنة.

فعند ذلك يودّ الخلائق أنهم كانوا فاطميين، فتسيرين ومعك شيعتك وشيعه ولدك وشيعه أمير المؤمنين، آمنة روعاتهم، مستورة عوراتهم، قد ذهبت عنهم الشدائد، وسهلت لهم الموارد، يخاف الناس وهم لا يخافون، ويظما الناس وهم لا يظماون، فإذا بلغت باب الجنة تلقّتك اثنتا عشرة ألف حوراء، لم يتلقين أحداً قبلك ولا يتلقين أحداً بعدك، بأيديهم حراب من نور، علي نجائب من نور، حمائلها من الذهب الأصفر

والياقوت، أزمّتها من لؤلؤ رطب، علي كلّ نجبية نمرقة من سندس منضود.

فإذا دخلت الجنة تباشر بك أهلها، ووضع لشيعتك موائد من جوهر علي أعمدة من نور، فيأكلون فيها والناس في الحساب، (وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) (1).

فإذا استقرّ أولياء الله في الجنة زارك آدم ومن دونه من النبيين، وإنّ في بطنان

الفردوس لؤلؤتين من عرق واحد؛ لؤلؤة بيضاء ولؤلؤة صفراء، فيها قصور ودور، في كلّ واحدة سبعون ألف دار بيضاء، منازل لنا ولشيعتنا، والصفراء لإبراهيم وآل إبراهيم.

قالت: يا أبة فما كنت أحبّ أن أري يومك ولا أبقى بعدك، قال: يا بنيّة، لقد أخبرني جبرئيل عن الله أنّك أول من يلحقني من أهل بيتي، فالويل كلّه لمن ظلمك، والفوز

العظيم لمن نصرك (2).

قال عطاء: وكان ابن عباس إذا ذكر هذا الحديث تلا هذه الآية الكريمة: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) (3).

أقول: وفضائلها لا تعدّ ولا تحصى، ولو أردنا أن نكتب بعضها لخرجنا من وضع الكتاب.

وأحببتُ أن أذكر هذه القصيدة للمرحوم الشيخ غلام رضا الغروي الأصبهاني

في مدحها:

سقي

الله أنفاسي من السلسل العذب

لأنظّم أبقاراً من

اللؤلؤ الرطب

بمدحة

بنت المصطفى ينجلي كربى

ص: 194

1- . الأنبياء: 102

2- . ومن أسمائها «المُحدّثة»؛ لأنّ الملائكة كانت تهبط من السماء فتحدّثها، كما روي الطبري في دلائل الإمامة عن زيد بن علي بن

الحسين بن عليّ:، قال: سمعت أبا عبد الله يقول: سُمِّيت فاطمة محدّثة؛ لأنّ الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها كما كانت تنادي مريم بنت عمران، فتقول: يا فاطمة، إنّ الله اصطفاك وطهركِ علي نساء العالمين، يا فاطمة، اقتني لربّك. وتحديثهم ويحدثونها، فقالت لهم ذات ليلة: أليست المفصّلة علي نساء العالمين مريم بنت عمران؟ فقالوا: إنّ مريم كانت سيّدة نساء عالمها، وإنّ الله تعالي جعلك سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين. (المؤلّف).

3- . الطور: 21.

وإنّ معاليها لأسني من

الشهب

وفي مدحها القرآن بل

سائر الكتبِ

فإن لم تصدّق ما أقول

وما أدري

فسل آية الوسطي وسل

ليلة القدرِ

وسل آية الكبرى وسل

سورة الدهرِ

وسل آية القربي وسل

آية الأجرِ

وكانت

لطفه المصطفى الروح بالجنبِ

حباها أبوها بالكرامة

والبشرِ

ربيّة حجر الوحي

والنهي والأمرِ

محدّثة كانت تحدّث

بالسرِّ

وتخبرها جهراً ملائكة

الغَرَّ (1)

ومن نورها ضوء المشارق

والغربِ

هي الدرّة البيضاء في

صدف النُّهي

هي

الغرّة النورا في ظلم الدّجي

ومشكاة

أنوار الهداية للوري

بأبنائها

الغرّ الكرام أولي الحِجَا

تشرّفت

الآباء في سالب الحقبِ

هي

الزهرة الزهرا تجلّت تكراً

هي

اللمعة النورا فعزّت وإنّما

هي الكوكب الدرّي في أشفق السما

تضيء

لسكّان السماوات كلّها

تقوم

بمحرابٍ تناجي إلي الربِّ

هي

الآية الكبرى فكَلَّتْ أُولُو النهي

عقولُ

لهم ما يبلغون المنتهي

مكارمها

العليا وأني لهم بها

وكيوان

عليها لأعلي من الشها

ففي

فاطم حارت عقول ذوي اللبِّ

هي

الشمس قدراً والأشعة سائرُ

بخدمتها

حور الجنان تفاخرُ

لها

جاريات مريم ثم هاجرُ

هي

القطب خدراً والنساء دوائرُ

فشتان

ما بين الدوائر والقطبِ

هي البضعة الهادي الرسول الممجد

وريحانة

المختار طه محمّد

حليّة

كرّار حبيبة أحمد

هي

العروة الوثقي لقبري وفي غدي

شفيعة

من والي من العجم والعرب

فتباً

لمن بالدمع أسجم جفنها

وتعساً

لمن بالنار أحرق بابها

وسحقاً

لمن بالعصر أسقط ابنها

وُبعداً

لمن بالسوط سوّد متنها

وفي وجهها الدامي من اللطم والضرب

ص: 195

فلهفي

عليها حين أبدت عوبلها

بعولتها

تنسي الحمام هديلها

وكادت

لأطفال الفلات تزيها

فما

حال من تلقي مقوداً كفيها

ويا

عجباً من قسور قيد للكلبِ

فأوقفت

الأفلاك من فرط دهشة

وأذهلت

الأملاك من طول زفرة

تناديهم

خلّوا ابن عمّي ومهجتي

وإن

لم تخلّوا عنه أشكو بعولتي

إلي

اللّه يا أهل الضلالة والرّيبِ

فأهوت

إلي القبر الشريف ودعمها

تسيل

تخال السحب يوم ربيعها

ونادت

أباها خير رسل جميعها

أتدري

الرزايا قد دهانا فظيعها

فلله

من رُزءٍ عظيمٍ ومن خطبٍ

وأما شهادتها

ذكر العلامة المقرّم (1) إنّها بقيت بعد أبيها المصطفي خمسة وسبعين يوماً، وهو المختار؛ لأنّه المشهور بين المؤرّخين، وبه جاءت الرواية عن الصادق كما في الكافي للكليني (2) والاختصاص للشيخ المفيد (3) ومعالم الزلفي للسيد هاشم البحراني (4).

وجاء في روضة الواعظين (5): روي أنّ فاطمة ما زالت بعد النبيّ معصبة الرأس، ناحلة الجسم، منهدة الركن من المصيبة بموت النبي (صلي الله عليه وآله)، وهي مهمومة مغمومة محزونة مكروية، كئيبة حزينة باكية العين محترقة القلب، يغشي عليها ساعة بعد ساعة، في كلّ ساعة وحين تذكره وتذكر الساعة التي كان يدخل فيها عليها، فيعظم حزنها. وتنظر مرّة إلى الحسن ومرّة إلى الحسين، وهما بين يديها: فتقول: أين أبوكما الذي كان يكرمكما ويحملكما مرّة بعد مرّة؟ أين أبوكما الذي كان أشدّ الناس شفقةً عليكما؟ فلا يدعكما تمشيان علي الأرض؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون، فُقِدَ واللّه جدّكما وحبيب قلبي، ولا أراه

ص: 196

1- . الصديقة الزهراء: ص 114 ط النجف. (المؤلف).

2- . الكافي: ج 1 ص 458 باب مولد الزهراء:.

3- . الاختصاص: ص 185.

4- . معالم الزلفي: ص 133.

5- . روضة الواعظين للفتال: ص 130.

يفتح هذا الباب أبدأً، ولا يحملكما علي عاتقه كما لم يزل يفعل بكما.

ثم مرضت مرضاً شديداً، ومكثت أربعين ليلة في مرضها، إلي أن توفيت صلوات الله عليها، فلمّا نُعيت إليها نفسها، دعت أمّ أيمن وأسماء بنت عميس، ووجهت خلف علي وأحضرته، فقالت: يابن عمّ، إنّه قد نُعيت إليّ نفسي، وإنّني لأري ما بي لاشكّ، إلّا أنّني لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي. قال عليّ: أوصيني بما أحببت يابنت رسول الله (صلي الله عليه وآله).

فجلس عند رأسها وأخرج من كان في البيت، ثمّ قالت: يابن عمّ، ما عهدتني كاذبةً ولا خائنةً ولا خالفتك منذ عاشرتني.

فقال: معاذ الله! أنت أعلم بالله وأبرّ وأتقي وأكرم، وأشدّ خوفاً من الله أن أوبّخك بمخالفتي، فقد عزّ عليّ مفارقتك وفقدك، إلّا أنّه أمرٌ لا بدّ منه، والله جدّد عليّ مصيبي برسول الله، وقد عظمت وفاتك وفقدك، فإنّا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أفجعها وآلمها وأمضّها وأحزنها، هذه والله مصيبة لا أعزّي عنها، ورزية لا خلف لها.

ثمّ بكيا جميعاً ساعة، وأخذ عليّ رأسها وضمّها إلي صدره. ثمّ قال: أوصيني بما شئت، فإنّك تجديني وفيّاً، أمضي كلّ ما أمرتني به، وأختار أمرك عليّ أمري.

ثمّ قالت: جزاك الله عنّي خير الجزاء يابن عمّ، أوصيك أولاً أن تتزوّج بعدي بابنة أمانة، فإنّها تكون لولدي مثلي، فإنّ الرجال لا بدّ لهم من النساء.

قال: فمن أجل ذلك قال أمير المؤمنين: أربعة ليس إلي فراقهنّ سبيل، بنت أمانة، أوصت بها فاطمة.

ثمّ قالت: أوصيك يابن عمّ أن تتخذ لي نعشاً، فقد رأيت الملائكة صوّروا صورته، فقال لها: صِفِيهِ لي. فوصفته، فاتّخذها لها، فأول نعشٍ عمل في وجه الأرض ذلك، وما رأي أحد قبله ولا عمل أحد.

ثمّ قالت: أوصيك أن لا يشهد جنازتي أحدٌ من هؤلاء الذين ظلموني وأخذوا حقّي، فإنّهم أعدائي وأعداء رسول الله (صلي الله عليه وآله)، ولا تترك أن يصلّي عليّ أحدٌ منهم ولا من

أتباعهم، وادفني في الليل، إذا هدأت العيون ونامت الأبصار(1).

ثم توقّيت صلوات الله عليها وعلي أبيها وبعلمها وبنيتها.

فصاحت أهل المدينة صيحةً واحدةً، واجتمعت نساء بني هاشم في دارها فصرخن صرخةً واحدةً، كادت المدينة أن تتزعزع من صراخهنّ، وهنّ يقلن: يا سيّدته يا بنت رسول الله. وأقبل الناس مثل عرف الفرس إلي عليّ وهو جالس والحسن والحسين: بين يديه يبكيان، فبكي الناس لبكائهما.

وخرجت أمّ كلثوم وعليها برقعة وتجرّ ذيلها، متجلّلة برداء عليها تسحبها، وهي تقول: يا أبتاه يا رسول الله، الآن حقّاً فقدناك فقداً لا لقاء بعده أبداً.

واجتمع الناس، فجلسوا وهم يرجون وينتظرون أن تخرج الجنازة فيصلّون عليها، وخرج أبو ذرّ فقال: انصرفوا، فإنّ ابنة رسول الله قد أُخِر إخراجها في هذه العشيّة. فقام الناس وانصرفوا، فلمّا أن هدأت العيون ومضى من الليل، أخرجها عليّ والحسن والحسين: وعمّار والمقداد وعقيل والزبير وأبو ذرّ وسلمان وبريدة، ونفر من بني هاشم وخواصّه، صلّوا عليها ودفنوها في جوف الليل، وسوّي عليّ حوالها قبوراً مزوّرة مقدار سبعة؛ حتّى لا يُعرف قبرها.

ولنعم ما قيل:

ولأبيّ الأمور تُدفنُ

ليلاً

بضعة المصطفى ويُعني

تراها

فمضت

وهي أعظم الناس شجواً

في فم الدهر غُصّةً من

جواها

وثوت لا يري لها الناس

مثويّ

أبيّ قدسٍ يضمّه مثواها

جاء في تذكرة الخواص (2): قال الواقدي: توفيت خديجة بعد أن مضى من النبوة عشر سنين،

ص: 198

1- . بحار الأنوار: ج 43 ص 191 نقلاً عن روضة الواعظين: ج 1 ص 101، المناقب لابن شهر آشوب: ج 3 ص 362، دلائل الإمامة: ص 42. (المؤلف).

2- . تذكرة الخواص: ص 314. (المؤلف).

وهي بنت خمس وستين سنة، قبل وفاة أبي طالب بثلاثة أيام، وقيل: بعد وفاته بشهر(1).

قال حكيم بن حزام: دفنّاها بالحجّون(2)، ونزل رسول الله(صلي الله عليه وآله) في قبرها ولم تكن يومئذٍ سنّة الجنّاة الصلاة عليها(3).

وقال هشام: توفّيت ورسول الله(صلي الله عليه وآله) ابن سبع وأربعين سنة وثمانية أشهر.

وقال مجاهد: كانت وفاتها قبل أن تُفرض الصلوات الخمس، وهذا صحيح؛ لأنّ الصلوات فُرضت سنة اثنتي عشرة من النبوة ليلة المعراج.

وقال هشام: كانت وفاتها لعشر خلون من رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين(4).

وفي تاريخ اليعقوبي(5)و(6): وتوفّيت خديجة بنت خويلد في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها خمس وستون سنة.

ودخل عليها رسول الله(صلي الله عليه وآله) وهي تجودُ بنفسها، وقال: بالكره منّي ما أرى، ولعلّ الله أن يجعل في الكره خيراً كثيراً، إذا لقيت في الجنّة يا خديجة صرّاتك فاقربيهنّ السلام، قالت: ومن يا رسول الله(صلي الله عليه وآله)؟

قال: إن صرّيتك في الجنّة زوجاتي مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وكلثوم أخت موسى، فقالت: بالرفاء والبنين.

ص: 199

1- . المناقب لابن شهر آشوب: ص 174. (المؤلف).

2- . بتقديم الحاء، قال الطريحي في المجمع: والحجّون - بفتح الحاء - : جبل بمكة صار إليه النبيّ بعد موت أبي طالب. وفي الصحاح: وهو مقبرة. (المؤلف).

3- . كشف الغمّة: ج 2 ص 139 يرفعه إلي ابن سعد. (المؤلف).

4- . السيرة: ج 2 ص 57، تاريخ الطبري: ج 2 ص 229، عيون الأثر: ج 1 ص 130، مقتل الحسين للخوارزمي: ج 28 - 30. (المؤلف).

5- . هو أحمد بن يعقوب بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح، الكاتب الأخباري، الشهير باليعقوبي وبابن واضح، وكان يقال له: مولي بني عبّاس ومولي بني هاشم؛ لأنّ جدّه كان من موالى المنصور الدوانيقي الخليفة العبّاسي، وكان أديباً شاعراً، توفّي سنة 278هـ (راجع: تاريخ آداب اللغة العربية: ج 2 ص 197). (المؤلف).

6- . تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 20 ط النجف. (المؤلف).

وعن الصادق : لَمَّا تَوَقَّيْتُ خَدِيجَةَ (عليها السلام) ، جعلت فاطمة تلوذُ برسول

اللَّهِ (صلي الله عليه وآله) وتدورُ حوله، وتقول: أبه، أين أمِّي؟

قال: فنزل جبرئيل فقال له: ربِّك يأمرُك أن تقرأ فاطمة السلام وتقول لها: إنَّ أمَّك في بيت من قصب كعابهُ حمراء من ذهب، وعَمَّده ياقوت أحمر، بين آسية وبين مريم بنت عمران(1).

وجاء في مقتل الحسين (2) عن أبان عن شعافة الخزاعي، أنَّ أبا أمانة الباهلي قال: دخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) علي خديجة بنت خويلد امرأته وهي بالموت، فشكت إليه شدَّة كرب الموت، فبكي رسول الله (صلي الله عليه وآله) ودعا لها، ثمَّ قال لها: اقدمي خير مقدم، يا خديجة أنت خير أمهات المؤمنين وأفضلهنَّ، وسيِّدة نساء العالمين إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، أسلمتِك يا خديجة علي كرهٍ منِّي، قد جعل للمؤمنين بالكره خيراً كثيراً، الحقِّي يا خديجة بأُمَّك حواء في الجنَّة، وبأختك سارة أمَّ إسحاق، آمنت بالله جلَّ جلاله، بُعث إبراهيم إلي مهاجرة الأرض المقدَّسة، وهي أرض الأنبياء وإليها يُحشر العباد، فتزوَّجها إبراهيم فولدت له إسحاق، فما ولدت النساء ولا تلد مولوداً يسَمِّي إسحاق مثله إلي يوم القيامة، وهو أبو الموالي، فما يمنع الموالي أن يفاخروا بأبيهم إسحاق وجدَّهم إبراهيم وأمَّهم سارة:، ألا ولا فخر إلا بالإسلام.

وكانت أمَّ إسماعيل عجميَّة قبطيَّة، اتَّخذها إبراهيم سُرِّيَّة، فولدت له إسماعيل قبل تولد إسحاق بسبع نوا من الرجال والنساء، يقتدي بهما كلُّ مؤمن ومؤمنة، لم يحلفا بالله يمينا قطَّ، وجلاً من الله وتعظيماً له، كانتا لا تحيضان، طهرهما الله وفضَّ لهما به علي نساء العالمين. وإنَّ ربِّي زوَّجنيهما ليلة أُسري بي عند سدرة المنتهي، فهما ضربتاك يا خديجة في الجنَّة(3)، وأخواتهنَّ من أمهات المؤمنين.

ص: 200

1- . بحار الأنوار: ج 6 ص 121 نقلاً عن أمالي المفيد. (المؤلف).

2- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 28 ط النجف. (المؤلف).

3- . أدرج في المتن هنا: «مع عائشة»، وأضاف: «ولم يكن رسول الله تزوج عائشة ولا غيرها، ولا تحته يوماً غير خديجة وحدها». قال صاحب التعليق عليه: هذا الخبر لا تذكره الشيعة؛ لأنَّهم لم يعرفوا شعافة، خصوصاً وقد صرَّح بثنية ضمير آسية ومريم ولم يجمع للثلاث. (المؤلف).

فضحكت خديجة - وهي ثقيلة بالموت - ثم قالت له: هنيئاً يا رسول الله، بارك الله لهما فيك، وبارك لك فيهما، الحمد لله الذي أقر عينك بهما، ما هما ضررتاي، يا رسول الله؛ لأنه لا غيرة بيننا، لكنهما أختاي.

فقال النبي (صلي الله عليه وآله): هذا والله الحق المبين وتمام اليقين والفضل في الدين.

فقيل: يا رسول الله، أفرأيت أمهات المؤمنين هما؟ قال: أمّا في الدنيا فلا؛ لأنّهما مضتا لسبيلهما قبل أن أبعث في أمّتي وسبقني موتهما (1).

رثاء أمير المؤمنين لها

في معجم القبور (2) للسيد مهدي الإصفهاني: قال أمير المؤمنين في مرثية خديجة وأبي طالب؟ رضهما؟:

أعيني جودا بارك الله

فيكما

علي هالكين لا تري

لهما مثلاً

علي سيّد البطحاء وابن

رئيسها

وسيدة النسوان أول

من صلّي

مهذباً قد طيب الله

خيمها

مباركةً والله ساق

لها الفضلاً

مصابهما أدجي لي

الجوّ والهوا

فيّ أقاسي منهما

الهمم والثكلا

لقد نصرا في الله

دين محمد

علي

من بغي في الدين قد رعيًا إلا

وصاياها لرسول الله (صلي الله عليه وآله)

جاء في الزهراء (3) للكفائي:

قال: ولما اشتدّ مرض خديجة قالت: يا رسول الله (صلي الله عليه وآله)، اسمع

وصاياي:

أولاً: فإني قاصرة في حقك فاعفني يا رسول الله.

قال: حاشا وكلاً، ما رأيت منك تقصيراً، فقد بلغتِ بجهدك، وتعبت في داري غاية

ص: 201

1- . مقتل الحسين للمقرم: ص 28.

2- . معجم القبور: ج 1 ص 209. (المؤلف).

3- . الزهراء: ج 1 ص 100 ط النجف. (المؤلف).

التعب، ولقد بذلت أموالك وصرفت في سبيل الله مالك.

قالت: يا رسول الله، الوصية الثانية: أوصيك بهذه - وأشارت إلي فاطمة - فإنها يتيمة غريبة من بعدي، فلا يؤذنها أحد من نساء قريش، ولا يلطمن خدّها ولا يصيحنّ في وجهها، ولا يرينّها مكروهاً(1).

وأما الوصية الثالثة: فأني أقولها لابنتي فاطمة وهي تقول لك، فأني مستحية.

فقام النبي (صلي الله عليه وآله) وخرج من الحجرة، فدعت بفاطمة وقالت: يا حبيبي وقرّة عيني، قولي لأبيك: إن أمي تقول: إني خائفة من القبر، أريد منك رداءك الذي تلبسه حين نزول الوحي تكفني فيه. فخرجت فاطمة، وقالت لأبيها ما قالت أمها خديجة. فقام النبي، وسلّم الرداء إلي فاطمة، وجاءت به إلي أمها، فسرت به سروراً عظيماً.

فلما توفيت خديجة أخذ رسول الله (صلي الله عليه وآله) في تجهيزها، وغسّم لها وحنّطها، فلما أراد أن يكفنها هبط الأمين جبرئيل وقال: يا رسول الله، إن الله يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول لك: يا محمد، إن كفن خديجة من عندنا، فإنها بذلت مالها في سبيلنا. فجاء جبرئيل بكفن، وقال: يا رسول الله، هذا كفن خديجة، وهو من أكفان الجنة، أهده الله إليها.

فكفنها رسول الله (صلي الله عليه وآله) بردائه الشريف، أولاً، وبما جاء به جبرئيل ثانياً، فكان لها كفنان: كفن من الله، وكفن من رسوله.

ثم صلي عليها ونزل في قبرها، ولم يكن يومئذ سنة الجنازة.

وحزن النبي (صلي الله عليه وآله) عليها حزناً شديداً، وحزنت فاطمة لفرافها، فجعلت تلوذ بأبيها وتقول: أين أمي؟ وألحت عليه بالقول: أين أمي، أين أمي؟

فنزل جبرئيل وقال: إن ربك يأمرك أن تقرأ فاطمة السلام، وتقول لها: أمك في بيت من قصب كعابه من ذهب، وعمده من ياقوت أحمر، بين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران.

هذا ما أردت تحريره في هذه الرسالة الوجيزة في «حياة مولاتنا وسيداتنا أم المؤمنين خديجة الكبرى صلوات الله عليها وعلي ابنتها».

ص: 202

1- . أقول: ليتك حاضرة ترى ما حلّ بابنتك الصديقة: من حرق بابها ولطم خدّها وإسقاط جنينها! (المؤلف).

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

كربلاء المقدّسة -- جعفر عبّاس الحائري

ص: 203

1. الإبانة عن أصول الديانة: أبو الحسن الأشعري (ت324هـ)، تحقيق: بشير محمد عيون، بيروت: مكتبة دار البيان، الطبعة الخامسة، 1424هـ.
2. ابن عباس وأموال البصرة، جعفر مرتضى العاملي، بيروت، 1396هـ.
3. أبو هريرة، عبدالحسين شرف الدين الموسوي، بيروت: دار الزهراء، 1406هـ.
4. إتيان المقال، محمد طه نجف، النجف الأشرف: المطبعة العلوية، 1340هـ.
5. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت1104هـ)، تحقيق: أبو طالب تجليل التبريزي، هاشم رسولي المحلّاتي، قم: المطبعة العلمية، الطبعة الثانية.
6. الاحتجاج علي أهل اللجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت620هـ)، تحقيق: إبراهيم البهادري ومحمد هادي به، طهران: دار الأسوة، الطبعة الأولى، 1413هـ.
7. إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، القاضي نور الله ابن السيّد شريف الشوشتری (ت1019هـ)، مع تعليقات السيّد شهاب الدين المرعشي، قم: مكتبة آية الله المرعشي، الطبعة الأولى، 1411هـ.
8. الاختصاص، المنسوب إلي أبي عبدالله محمد بن محمد بن نعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد (ت413هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الرابعة، 1414هـ.
9. الاستغاثة، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت352هـ)، طهران: مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى، 1373ش.
- الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبرّ النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ.

2. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمّد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجَزَري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .

12 الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن الحجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .

13 أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين، تحقيق: السيّد حسن الأمين، بيروت: دار المعارف للمطبوعات، 1406هـ .

14 الأمالي للمفيد، أبو عبد الله محمّد بن النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد (ت413هـ)، تحقيق: حسين أستاذ ولي وعلي أكبر الغفّاري، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الثالثة، 1415هـ .

15 . الأمالي، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه، المعروف بالشيخ الصدوق (ت381هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، 1417هـ .

16 . الإمام زين العابدين علي بن الحسين، عبدالرزاق الموسوي المقوم، قم: دار الشبستري.

17 . إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون (السيرة الحلبيّة)، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، تحقيق: أحمد زيني دحلان، مصر: مكتبة الأزهرية، 1329هـ .

18 . الأوائل، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (أبو هلال) (ت395هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1407هـ .

بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار: محمّد باقر بن محمّد تقي المجلسي (ت1110هـ)، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى،

15 1412هـ .

16 . البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت774هـ)، تحقيق: مكتبة المعارف، بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة الثالثة، 1408هـ .

17 . بلاغة الإمام علي بن الحسين، جمع وتحقيق: جعفر عبّاس الحائري، قم: دار

ص: 205

- 18 .بيت الأحزان، الشيخ عباس القمّي، ترجمة: محمّد محمّدي اشتهاودي، نشر: ناصر، قم، الطبعة الثانية، 1369ش
- 19 تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (ت1332هـ)، القاهرة: دار الهلال.
- 20 تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الحسين بن محمّد الديار بكري (معاصر)، بيروت: مؤسّسة شعبان.
- 21 تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م.
- 22 تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المعروف باليعقوبي (ت284هـ)، بيروت: دار صادر.
- 23 تاريخ أهل البيت:، رواية كبار المحدثين والمؤرّخين، تحقيق: محمّد رضا الحسيني، قم: مؤسّسة آل البيت:، الطبعة الأولى، 1410هـ .
- 24 تأسيس الشيعة لفنون الإسلام، حسن الصدر، 1354هـ، الكاظمين: دار الكتب، 1370هـ .
- 25 تذكرة الخواصّ (تذكرة خواصّ الأئمّة في خصائص الأئمّة:)، يوسف بن فرغلي بن عبد الله، المعروف بسبط ابن الجوزي (ت654هـ)، تقديم: السيّد محمّد صادق بحر العلوم، طهران: مكتبة نينوي الحديثة.
- 26 تراجم سيّدات البيت النبوي، عائشه عبدالرحمن (بنت الشاطي)، القاهرة: دار الحديث، 1423هـ .
- 15 التفسير المنسوب إلي الإمام العسكري، تحقيق: مؤسّسة الإمام المهدي، قم: مؤسّسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، 1409هـ .
- 16 تفسير فرات الكوفي، أبو القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي (ق4هـ)، إعداد: محمّد كاظم المحمودي، طهران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، 1410هـ .
- 17 التمهيد في علوم القرآن: محمّد هادي معرفت، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة

- 18 تنقيح المقال في علم الرجال، عبد الله بن محمد حسن المامقاني (ت1351هـ)، قم: آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، 1423هـ .
- 19 التهذيب (تهذيب الأحكام في شرح المقنعة)، أبو جعفر محمد بن الحسن، المعروف بالشيخ الطوسي (ت460هـ)، بيروت: دار التعارف، الطبعة الأولى، 1401هـ .
- 20 تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ابن حجر) (ت852هـ)، تحقيق: خليل مامون شيحا، عمر السلامي، علي بن مسعود، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1404هـ، الطبعة الأولى، 1417هـ .
- 21 جامع الأصول في أحاديث الرسول، مبارك بن محمد بن محمد (ابن الأثير الجزري) (ت606هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، بيروت: مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى، 1389هـ .
- 22 جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ .
- 23 جهاد الإمام السجّاد، السيّد محمّدرضا الحسيني الجلالى، قم: دار الحديث، 1418هـ .
- 24 الخصال، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، قم: منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، بيروت: مكتبة الصدوق، الطبعة الأولى، 1389هـ .
- 15 خلاصة الأقوال: العلامة الحلّي (ت726هـ)، تحقيق: جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1417هـ .
- 16 دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، النعمان بن محمد التميمي المغربي (ت363هـ)، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضني، مصر: دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1389هـ .
- 17 دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الإمامي (القرن الخامس الهجري)،

تحقيق: مؤسّسة البعثة، قم: مؤسّسة البعثة، الطبعة الأولى، 1413هـ .

18 ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربي، أبو العبّاس أحمد بن محمّد الطبري (ت694هـ)، تحقيق: أكرم البوشي، جدّة: مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى، 1415هـ .

19 ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، تحقيق: سليم النعيمي، قم: منشورات الرضي، الطبعة الأولى، 1415هـ .

20 رجال الكشّبي (اختيار معرفة الرجال)، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت460هـ)، تصحيح: ميرداماد الإسترآبادي، قم: مؤسّسة آل البيت، 1404هـ .

21 الروض الفائق في المواعظ والرفائق، شعيب بن سعد المصري، تحقيق: خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ .

22 روضة الواعظين. محمّد بن الحسن بن علي الفتّال النيسابوري (ت508هـ)، تحقيق: حسين الأعلمي، بيروت: مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأولى، 1406هـ .

23 السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، محبّ الدين أحمد بن عبد الله الطبري (ت694هـ)، تحقيق: محمّد علي قطب، القاهرة: دار الحديث، 1408هـ .

24 سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمّد بن يزيد القزويني (ابن ماجة) (ت275هـ)، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1395هـ .

سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمّد بن عيسى الترمذي (ت279هـ)،

15 تحقيق: عبد الوهّاب عبداللطيف، أحمد محمّد شاكر، بيروت: دار الفكر، دار إحياء التراث، 1357هـ .

16 سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسّسة الرسالة، الطبعة العاشرة، 1414هـ .

17 سيرة ابن إسحاق، أبو عبد الله محمّد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت151هـ)، تحقيق: محمّد حميد الله، المغرب: معهد الدراسات و الأبحاث للتعريب، الطبعة الأولى، 1369هـ .

18 السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار

الإحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ .

19 السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفى، الطبعة الأولى، 1355هـ .

20 الشافي في الإمامة، أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي، المعروف السيّد المرتضي (ت436هـ)، تحقيق: عبدالزهراء الحسيني الخطيب، طهران: مؤسسه الإمام الصادق، الطبعة الثانية، 1410هـ .

21 شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن محمّد المعتزلي (ابن أبي الحديد) (ت656هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الثانية، 1387هـ .

22 شفاء السقام في زيارة خير الأنام، تقي الدين علي بن عبدالكافي السبكي (ت756هـ)، بيروت: دار الجيل، 1411هـ .

23 الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، 1376هـ .

24 صحيح البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1410هـ .

15 صحيح مسلم (الجامع الصحيح)، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت261هـ)، تحقيق و نشر: دار الفكر، بيروت.

16 صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ)، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولى، 1412هـ .

17 الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضي العاملي (معاصر)، بيروت: دار الهادي، الطبعة الرابعة، 1415هـ .

18 صفة الصفوة، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي (ابن الجوزي) (ت597هـ)، تحقيق: محمود فاخوري و محمّد قلعة جي، حلب: دار الوعي، الطبعة الأولى، 1389هـ .

19 الطرف، أبو القاسم علي بن موسى بن طاووس الحلّي الحسني (ت664هـ)، تحقيق:

قيس العطار، مشهد: تاسوعا، 1378.

20 بنات النبي أم ربائبه، جعفر مرتضى العاملي، قم، 1413هـ .

21 العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت328هـ)، تحقيق: أحمد أمين أحمد الزين وإبراهيم الأبياري، بيروت: دار الأندلس، الطبعة الأولى، 1408هـ .

22 عمدة القاري، أبو محمد محمود بن أحمد العيني (ت855هـ)، تحقيق ونشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

23 عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير (السيرة النبوية لابن سيّد الناس)، محمد عبد الله بن يحيى بن سيّد الناس (ت734هـ)، بيروت: مؤسسة عزّ الدين، 1406هـ .

24 الغدير في الكتاب والسنة والأدب، عبد الحسين بن أحمد الأميني (ت1390هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، 1387هـ .

فاطمة الزهراء من المهدي إليّ اللحد، السيّد محمد كاظم القزويني، بيروت: مؤسسة

15 النور المطبوعات، 1411هـ .

16 الفوائد البهية في تراجم الحنفية، محمد عبدالحى الكنوي الهندي (ت1304هـ)، تحقيق: نعيم أشرف نور أحمد، باكستان: إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، 1419هـ .

17 الفهرست، أبو جعفر محمد بن حسن الطوسي (ت460هـ)، تحقيق: الشيخ جواد القمي، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1417هـ .

18 قاموس الرجال، الشيخ محمد تقي بن كاظم التستري (ت1320هـ)، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1419هـ .

19 قرب الإسناد، أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري القمي (ت بعد 304هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت، قم: مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى، 1413هـ .

20 الكافي، أبو جعفر ثقة الإسلام محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت329هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية، 1389هـ .

21 كتاب من لا يحضره الفقيه، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي

- (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، 1404هـ .
- 22 كشف الغمّة، علي بن عيسى الإربلي (ت687هـ)، تصحيح: سيّد هاشم رسولي، بيروت: دار الكتاب، 1401هـ .
- 23 كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، أبو عبد الله محمّد بن يوسف بن محمّد الكنجي الشافعي (ت658هـ)، تحقيق: محمّد هادي الأميني، طهران: دار إحياء تراث أهل البيت، الطبعة الثالثة، 1404هـ .
- 24 كنز العُمّال، علي بن حسام الدين المتّقي الهندي (ت975هـ)، تصحيح: صفوة السقا، بيروت: مكتبة التراث الإسلامي، 1397هـ .
- 25 الكني والألقاب، الشيخ عبّاس القمّي (ت1359هـ)، طهران: مكتبة الصدر، الطبعة الرابعة، 1397هـ .
- 15 الكشّاف، محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، بيروت: دار المعرفة.
- 16 لسان الميزان، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ابن حجر) (ت852هـ)، بيروت: مؤسسة الأعلمي، الطبعة الثالثة، 1406هـ .
- 17 المجالس السنوية في مناقب ومصائب العترة النبوية، محسن الأمين، بيروت: دار التعارف، 1406هـ .
- 18 مجمع البحرين: الطريحي (ت1085هـ)، تحقيق: أحمد حسيني، مكتب النشر الثقافية الإسلامية، الثانية، 1408هـ .
- 19 المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقي القمّي (ت280هـ)، تحقيق: السيّد جلال الدين حسيني طهران: دار الكتب الإسلامية، السيّد مهدي الرجائي، قم: المجمع العالمي لأهل البيت، الطبعة الأولى، 1413هـ .
- 20 المُحَبَّر، أبو جعفر محمّد بن حبيب الهاشمي البغدادي (ت245هـ)، تحقيق: ايلزه ليختن شتير، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، مطبعة الدائرة، 1361هـ .
- 21 المراجعات، عبد الحسين شرف الدين العاملي (ت1377هـ)، تحقيق: حسين الراضي

، قم: دار الكتاب الإسلامي.

22 مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت346هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الرابعة، 1384هـ .

23 المسائل السروية (مصنّفات الشيخ المفيد)، محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري (الشيخ المفيد) (ت413هـ)، تحقيق: صائب عبد الحميد، قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، 1413هـ .

24 مسأّر الشيعة في مختصر تواريخ الشريعة، محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري (الشيخ المفيد) (ت413هـ)، تحقيق: مهدي نجف، قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة الأولى: 1413هـ .

15 مستدرک الوسائل و مستنبط المسائل، الميرزا حسين النوري الطبرسي (ت1320هـ)، تحقيق: مؤسّسة آل البيت، قم: مؤسّسة آل البيت، الطبعة الأولى، 1407هـ .

16 المستدرک علي الصحيحين، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411هـ .

17 مسند أحمد. أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني (ت241هـ)، تحقيق: عبد الله محمّد الدرويش، بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1414هـ .

18 مسند فاطمة الزهراء، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)، تحقيق: فوّاز أحمد زمرلي، بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الأولى: 1414هـ .

19 مطالب السؤول في مناقب آل الرسول:، أبو سالم محمّد بن طلحة النصيبي الشافعي (ت652هـ)، تحقيق: ماجد أحمد العطية، بيروت: مؤسّسة أمّ القرى، الطبعة الأولى، 1420هـ .

20 معجم الأدباء، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ)، تحقيق: إحسان عبّاس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993م.

21 معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ)، بيروت: دار إحياء

التراث العربي، الطبعة الأولى، 1399هـ .

22 مقاتل الطالبين، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي الإصبهاني (ت356هـ)، تحقيق: السيّد أحمد صقر، قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى، 1414هـ .

23 مقتل الحسين، أبو المؤيد موفق بن أحمد الخوارزمي (ت568)، تحقيق: الشيخ محمد سماوي، منشورات مكتبة المفيد، قم.

24 مناقب آل أبي طالب (المناقب لابن شهر آشوب)، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ابن شهر آشوب) (ت588هـ) تحقيق: هاشم الرسولي المحلّاتي، قم: منشورات علام.

15 منتخب الأنوار في تاريخ الأئمة الأطهار:، أبو علي محمد بن همام الإسكافي (ت336هـ) تحقيق: علي رضا هزار، قم: دليل ما، 1422هـ .

16 منتهي المقال في أحوال الرجال، محمد بن إسماعيل المازندراني حائري، قم: مؤسّسة آل البيت:، 1416هـ .

17 ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الأولى، 1382هـ .

18 الميزان في تفسير القرآن (تفسير الميزان)، العلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي (ت1402هـ)، قم: منشورات جماعة المدرّسين، طبع: مؤسّسة إسماعيليان، الطبعة الثانية، 1394هـ .

19 نزّهة المجالس ومنتخب النفائس (المجالس للصفوري)، عبد الرحمن الصفوري الشافعي، بيروت: دار الإيمان.

20 نسب قريش، مصعب بن عبد الله الزبيري (ت236هـ)، تحقيق: بروفنسل، القاهرة: دار المعارف.

21 نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، مؤمن بن حسن الشبلنجي (ت بعد 1298هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1398هـ .

22 النهاية في غريب الحديث والأثر، مبارك بن مبارك الجزّري (ابن الأثير) (ت606هـ)،

تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، قم: مؤسسة إسماعيليان، الطبعة الرابعة، 1367ش.

23 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس أحمد بن محمد البرمكي (ابن خلّكان) (ت681هـ)، تحقيق: إحسان عبّاس، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، 1397هـ.

24 ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت1294هـ)، تحقيق: سيّد علي جمال أشرف الحسيني، طهران: دار الأسوة، الطبعة الأولى، 1416هـ.

ص: 214

* خديجة الكبرى مثل أعلى للمرأة المسلمة (1)

عز الدين سليم

ملخص البحث:

هذا البحث يتبع المنهج التحليلي في قراءته للتاريخ، ويقدم صورة عن نظرة الإسلام إلى شؤون الحياة والمجتمع، ومنها نظرتة إلى المرأة. وهو يعرض هنا ما كان سائداً في زمان الجاهلية من نظرة دونية إلى المرأة؛ تستخفّ بها وتستهيّن بوجودها وتهبط بدورها في الحياة إلى مجرد مخلوق ثانوي بجانب الرجل. وينقد في بحثه هذا المنهج الذي سار عليه العالم الغربي الحديث في نظرتة إلى المرأة واتخاذها أداةً ووسيلة مع تهميش دورها الإنساني. ويرسم الكاتب بين ثنايا البحث هذه الصورة الناصعة التي يتطلّع الإسلام إلى تحقيقها في مختلف مناحي الحياة، والدور الريادي الذي أرادته للمرأة أن تضطلع به. ثم يعرّج علي ذكر السيّدة خديجة بنت خويلد، ويقدم سرداً عن نسبها وحسبها وصفاتها، والظروف التي عاشت فيها، وما كان لها من المال والعمل في التجارة، وشرفها وعلوّ مكانتها بين قومها. ويجعل من حياتها ومواقفها وتضحياتها مثلاً باهراً يدعو النساء المسلمات إلى اتّباعه والسير علي خُطاه. وعندما يأتي هذا البحث علي نقل النصوص والمرويات التاريخية، لا يأخذ بها علي علّاتها، بل ينظر إليها نظرة ناقدة، ومن ذلك - مثلاً - إنكاره لزواج خديجة برجلين قبل النبي (صلي الله عليه وآله)، حيث يثبت

ص: 215

بالأدلة أنّ زواجها بالنبي كان زواجها الأول. كما يُبرز دور خديجة في توفير مستلزمات الصومود للنبي (صلي الله عليه وآله) معنوياً ومادياً، للمضي قدماً في إبلاغ رسالته. وجاء علي ذكر أقوال الأعلام من الماضين والمعاصرين في الثناء عليها.

مدخل للدراسة

كانت جزيرة العرب وما حولها ظمأى ترهقها الجاهلية بعداباتها وسياط طيشها، حين تفجّر ينبوع الإسلام الهادي كنبع من الماء الصافي الرقراق في تلك الصحاري المجدبة من كلّ خير، من أجل أن يروّي عطش الدنيا إلي الحقّ والهدى والسلام.

لقد جاء الإسلام الحنيف بدعوته إلي الخير والمعروف والعدل والصلاح، بلسماً لجراح المعدّبين والمظلومين في الأرض، وكانت المرأة أكثر عباد الله نصيباً من هذا الخير المنقذ.

فالمراة قبل الإسلام كانت نهباً للظلم أكثر من سواها، فقد كانت بعض الحضارات تنظر إلي المراة كشيطان متلبس في جسم بشر، كما كانت بعض المجتمعات تنظر إليها كمخلوق نجس لا يستحقّ الرحمة، وتري فيها بعض الأمم حيواناً في جسم إنسان، أو هي شيء حقير يملكه الرجال من أجل أن يحقّقوا لذاتهم الجنسية، كما هي مصنع لانتاج ذرية الرجل.

وقد زادت الحضارة الأوربية الحديثة الطين بلّة حين حوّلت المراة إلي أداة للجنس والمتعة والكسب المادّي، حيث شاعت بناءً علي ذلك الفوضي الجنسية، وضاعت الأنساب في أوروبا ومن سار علي نهجها من الأمم، وصارت المراة سلعة يتناولها الرجال متي شأؤوا باسم حرّية المراة وحقوقها، علي أنّ المراة لم تحظّ في تاريخ حياتها برعاية مناسبة لطبيعتها المادية والروحية، كما حظيت به في رحاب الرسالة الإلهية الخاتمة، حيث حفظ لها الإسلام حقوقها وكرامتها ومكانتها في جوّ من العفة

والطهر والعزّة، وفي إطار من الموازنة العادلة بين حقوقها وواجباتها في ضوء القدرات التكوينية التي جباها الله لها، وفي ضوء المهمة العظمي التي أنيطت بها كشريكة

ص: 216

للرجل في إثارة الحياة، وفي صناعة المجد وبناء الحضارة الإنسانية الصالحة.

ولقد أرسى الإسلام الحنيف قواعد تلك الحقوق الفريدة التي خصّ بها المرأة من خلال نصوصه الأصيلة:

1. فالإسلام يؤكد أنّ المرأة والرجل صنوان يجمعهما أصل واحد وجوهر واحد، وكلاهما ينتسبان لآدم وادم من تراب: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...)(1)، (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنِينَ وَحَفَدَةً)(2)، (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)(3).

2. ومع تقنين الإسلام ودعوته الصريحة المحددة لمكانة المرأة في الحياة والواقع الإنساني الذي يبنيه تحت رعايته، يشنّ الإسلام حملته علي المظالم والممارسات والأوضاع التي عانت منها المرأة عبر التاريخ، ليدفع عنها الأذى ويعيد حقوقها المسلوبة، فيهاجم عادة وأد النساء عند بعض قبائل العرب، ويلغي تكرارها قانونياً وأخلاقياً: (وَإِذَا الْعِشْرَاتُ عَطَلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)(4)، (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَرُزِقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ...)(5).

ويلغي الإسلام الحنيف عمليات الامتهان والأذى في عشرة النساء، ويقنن

معاملتهنّ بالمعروف والحسني: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)(6).

3. والإسلام لا يعتبر الرجولة والذكورة أساساً للتكريم والمواقع في الحضارة التي

ص: 217

1- . النساء: 1.

2- . النحل: 72.

3- . الاعراف: 189.

4- . التكوين: 54.

5- . الأنعام: 151.

6- . النساء: 19.

بينها، ولا- في الواقع التي يحققها البشر في الآخرة، أو ينالها في الحساب الإلهي، وإنما المقياس في رسالة الله الخاتمة إنما هو الإيمان والعمل الصالح: (... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(1).

فمن عمل وفق أوامر الله ونواهيه، حقق نتائج عمله، لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة في هذه القضية المصيرية: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصِّدِّقِينَ وَالْمُتَصِّدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)(2).

4. ويقتن الإسلام الحنيف مضمون العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة في إطار من المودة والرحمة: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ)(3)، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...)(4).

وبناءً على هذه المفاهيم الإسلامية الأصيلة، شهدت الحياة التي لونها الإسلام بلونه المميز مكانة خاصة للمرأة، واحتلت موقعاً إلى جانب الرجل لم تجد له البشرية مثيلاً من قبل، سواء في إطار الأسرة والمجتمع، أو في إطار الدعوة والدولة.

ومن أجل ذلك، شهد تاريخ الرسالة الإسلامية نساءً مؤمنات وقفن إلى جانب

الدعوة الإلهية في بداياتها، يبذلن الغالي والرخيص من أجل كلمة الله في الأرض، حتى ارتفعت بعضهن إلى مواقع لم ينلها ملايين الرجال، من أمثال: خديجة بنت خويلد، وسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، وأم سلمة، وزينب بنت علي، وغيرهن من بنات الرسالة.

وفي هذا البحث المتواضع نقدم للقارئ الكريم دراسة لحياة السيدة الخالدة

ص: 218

1- . الحجرات: 12.

2- . الأحزاب: 35.

3- . البقرة: 187.

4- . الروم: 21.

خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الأولى (عليها السلام)، لتكون نموذجاً يُحتذى من قبل المسلمات في كلِّ عصر وجيل، وقدوة للمؤمنات الحاملات للحقِّ، الباذلات للمعروف والحافظات لحدود الله.

الهوية الشخصية، من هي السيِّدة خديجة أم المؤمنين؟

احتلَّت خديجة زوج النبي (صلي الله عليه وآله) الذروة من قريش في نسبها وشرفها، فهي من القوادم في كيان قريش لا من أذناها.

وكانت من عقائل قريش وسيِّدة نساء مكَّة، وهي تلتقي برسول الله محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وآله) من جهة أبيها بالجدِّ الأعلى الشريف «قصي»، ومن جهة أمها بلوي بن غالب، فهي قرشية أباً وأماً، ومن الشجرة الطيِّبة في قريش.

فمن جهة أبيها هي: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي بن كلاب بن مرّة بن لؤي بن غالب بن مهر بن مالم بن النضر بن كنانة.

وأُمّها: فاطمة بنت زائدة بنت الأصمّ (واسمه جندب) بن رواحة الهرم ابن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر(1).

ويحفظ التاريخ من مفاخر أبيها «خويلد بن أسد» أنه تصدّي لتبع ملك اليمن وحال بينه وبين السطو علي الحجر الأسود وحمله إلي مملكته في اليمن.

ومنذ مطلع حياة السيِّدة خديجة، كانت قريش تتوسّم فيها النبل والطهر وسمو الأخلاق، حتّي لُقِّبت بالطاهرة(2)، كما لُقِّبت بسيِّدة قريش؛ بالنظر لعلو شأنها وشرف منبتها وكرم أصلها وحميد أفعالها.

الأمر الذي يفسّر السرّ المكنون بامتناع خديجة من الاقتران بأيّ أحد من قريش،

ص: 219

1- . يراجع ابن المغازلي الشافعي أبا الحسن بن علي بن محمد بن محمد الواسطي الجلالي (ت 483 هـ) في مناقب علي بن أبي طالب ط 2 عام 1402 هـ طهران: ص 329 - 330. كما يُراجع نسبها في السيرة النبوية لابن هشام: ص 187 - 189 والسير والمغازي لابن إسحاق: ص 82 وغيرها.

2- . ترجمة خديجة في الاستيعاب لابن عبد البر، وأبو نعيم في حلية الأولياء.

حتّى توفّرت ظروف اقترانها برسول الله (صلي الله عليه وآله)، رغم ما بذل عليه قومها من محاولات لزواجها، إلا أنّها كانت ترفضهم جميعاً منتظرة أمراً ما سيحدث في حياتها، فيكمل شوط مسيرتها نحو الكمال الذي اختاره الله، والذي عبّر عنه النبي الصادق الأمين بقوله: «حسبك من نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد» (1).

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ هذه المرأة الجليلة قد وُلدت قبل عام الفيل ببضع سنوات، وتزوَّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله) وعمرها ثمان وعشرون سنة، كما روي ابن عباس (2)، وإن كان زواجها في غير هذا السنّ هو الذي اشتهر خطأً.

وهي أول امرأة أسلمت لله ربّ العالمين، وصدّقت برسالة محمّد (صلي الله عليه وآله). هذا، ومن الجدير ذكره أنّ السيّدة خديجة قد توفّيت قبل فرض الصلاة وقبل (3) الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين.

وستعرض لتفصيل هذه الأمور في الأبحاث القادمة إن شاء الله تعالى.

لسان الحقّ يتحدّث عن خديجة

كانت السيّدة خديجة رغم نبلها وشرفها ومكانتها في الناس وسيادتها في بني أسد ونساء قريش، وهي صفات كفيلة لوحدها لأن تؤهلها للرعاية والمحبة والرضا من لدن رسول الله (صلي الله عليه وآله)، إلا أنّها فوق ذلك قد وهبت كلّ وجودها لله ورسوله ودعوة الحقّ التي صدع بها.

فقد وهبت رسول الله (صلي الله عليه وآله) كلّ أموالها ليغطّي بها نفقات الدعوة والدعاة المستضعفين. ولقد عاصرت أشدّ الظروف قسوةً فما نالت من قناتها أبداً، وتحدّثت أصعب الأزمات وأكثر المواقف عسراً، وصبرت علي الأذى في جنب الله، وسمت بذلك علي نعيمها الدنيوي السابق، وركلت اخضرار العيش الذي اعتادته برجليها، لتعيش مع النبي (صلي الله عليه وآله)

ص: 220

- 1- ابن المغازلي الشافعي، المصدر نفسه: ص 363 نقلاً عن الترمذي في جامعه الصغير: ج 5 ص 367 وابن عبد البرّ في الاستيعاب والحاكم في المستدرک: ج 3 ص 157 بطريق ابن حنبل وغيرهم.
- 2- كشف الغمّة للإربلي: ج 2 ص 135 وبحار الأنوار: للمجلسي: ج 16: ص 12 وغيرهما.
- 3- كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ص 134 و 11 نقلاً عن عروة بن الزبير بن العوّام.

محنته وآلامه التي صبَّتها عليه قريش وحلفاؤها، وظلَّت طوال عشر سنين من المحنة تبتُّ الأمل في قلب الرسول، وتشدُّ من أزره، وتقوِّي من عزيمته علي مواصلة المسير، وأنت خير بما تؤدِّيهِ مواقف المرأة المشجَّعة لزوجها من أثر إيجابي علي الاستمرار في الصمود والمواجهة وشدَّ العزيمة.

وقد كانت أعظم مواقفها الجهادية في تحديها لمحنة حصار شعب أبي طالب الذي فُرض علي بني هاشم من قبل قريش وحلفائها.

فقد كان لمواقف السيِّدة خديجة المعروفة لإضعاف قبضة الحصار أثرها الواضح المخلِّد في التخفيف من أضرار حصار المشركين علي الدعوة وأنصارها.

إنَّ هذه الظواهر العظيمة التي تفيض إيماناً وصدقاً، وصبراً واحتساباً وإخلاصاً للنبي (صلي الله عليه وآله) ودعوته، هي التي أهلت أمَّ المؤمنين الأُولى خديجة بنت خويلد عليها الصلاة والسلام لاحتلال مواقع ودرجات لم توقِّق لها أيَّة سيِّدة من أزواج النبي (صلي الله عليه وآله) علي الإطلاق.

من أجل ذلك راح رسول الله (صلي الله عليه وآله) يكشف عن تلك المكانة السامقة التي بلغتها السيِّدة خديجة في موقعها عند النبي (صلي الله عليه وآله) وفي مكانتها عند الرسالة الإلهية، وفي درجتها عند الله .

الله يقرئها السلام ويُبشِّرها

فقد روي أصحاب الصحاح عن أبي هريرة ما يلي: قال: أتني جبرئيل إلي النبي (صلي الله عليه وآله)، فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت ومعها إناء فيه آدم أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك، فأقرأها (عليها السلام) من ربِّها ومتي وبشَّرها بيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا- نصب. فأخبر رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة بما قال جبرئيل، فقالت: الله هو السلام، ومنه السلام، وعلي جبرئيل السلام»(1).

وهكذا ندرك البعد الحقيقي لوعيتها وفهمها واستيعابها لمضامين الرسالة الإلهية المباركة.

ص: 221

1- . صحيح البخاري (باب تزويج النبي خديجة وفضلها رقم 3821)، وصحيح مسلم (باب فضائل خديجة أمَّ المؤمنين: ج4 ص1887) والترمذي، وغيرها. والقصب هنا: الجوهر المجوَّف.

ولعميق حبِّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) للسيدة خديجة، فإنه كان يصرِّح بهذه المودَّة جهاراً طوال حياته، بل كان يصرِّح بحبِّ من يحبُّها ويكرمه.

وهذا الإعلان النبوي عن حبِّه لأُمِّ المؤمنين الأُولي (عليها السلام) لم تحكمه العاطفة العادية، فعواطف الرسول محكومة هي الأخرى بقيم السماء وضوابط الحقِّ، ومن أجل ذلك، فقد أمر الله الناس أن يتَّبِعُوا رسول الله (صلي الله عليه وآله) فيما يشرع ويرشد وفيما ينهي ويمنع، ما يقرِّره في رضاه حقِّ كما يقرِّره في غضبه: (مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (1)، (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ...) (2).

ومن هنا، فإنَّ ما يصدر من ثناء نبويِّ علي حدث أو أحد من عباد الله، فهو حقٌّ وعدل، وما يصدر من ذمٍّ وعدم رضا عن أمر أو عن أحد من الناس، فهو حقٌّ لاشكَّ فيه.

فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب الصحاح والسنن عن عائشة بنت الخليفة أبي بكر ما يلي: «ما غرَّت علي أحد من نساء النبي (صلي الله عليه وآله) ما غرَّت علي خديجة، وما رأيتها قطَّ، ولكن كان يكثر من ذكرها، وربَّما ذبح الشاة ثم يقطِّعها أعضاءً ثم يبعثها في صدائق خديجة، وربَّما قلت له: كأنَّه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟! فيقول: إنَّها كانت وكانت، وكان لي منها ولد».

وفي رواية مسلم: «وكان إذا ذبح الشاة يقول: ارسلوا بها إلي أصدقاء خديجة. قالت: فأغضبته يوماً فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): إني قد رُزقت حَبَّهَا» (3).

النبي (صلي الله عليه وآله) يعدد بعض خصائص خديجة

ولم يكتف النبي الأَـعظم بذلك، وإنَّما يدخل في بعض التفاصيل التي تدعوه أن يكرم السيِّدة خديجة (عليها السلام) ويتشبَّث بودها وإكبارها رغم فراقها.

ص: 222

1- . الحشر: 7.

2- . آل عمران: 31.

3- . البخاري رقم (3818) في مناقب الأنصار (باب تزويج النبي خديجة وفضلها) فتح الباري: ج 7 ص 133، مسلم رقم (2435) في فضائل الصحابة (باب فضائل خديجة أُمِّ المؤمنين): ج 4 ص 1888، الترمذي رقم (3875) في المناقب (باب فضل خديجة): ج 5 ص 659.

فغن عائشة قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة علي رسول الله، فعرف استئذان خديجة، فارتاح لذلك، فقال: اللهم هالة بنت خويلد!

عائشة: فغرت، فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدين، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيراً منها!؟

فغضب رسول الله (صلي الله عليه وآله) وقال: لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها، لقد آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبتني الناس، وواستني حين حرمني

الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء»(1).

ولقد عاشت السيدة خديجة (عليها السلام) تحت كنف النبي (صلي الله عليه وآله) خمسة وعشرين عاماً، لم يجد منها غير الإكرام والمحبة والصفاء والطاعة وعرافان الجميل، فبادلها ودّاً بوفاة وبوفاة بوفاء، فلم يتزوج عليها حتى توفيت.

ولقد دعا رسول الله (صلي الله عليه وآله) عام وفاتها عام حزن للأمة الخاتمة كلّها.

ورغم أنه تزوج بضعة من النساء بعد وفاتها ومن مختلف الطبقات والأعمار والقبائل، وفيهنّ الجميلة والرشيذة الودود، إلا أن رسول الله (صلي الله عليه وآله) بقي قلبه متعلقاً بها وفيها لها، يحفظ لها عواطفها ومشاعرها، ويثمن ودّها ودورها العظيم في نصرته طوال أيام محنته مع أعداء الدعوة.

لقد كان يذكرها جهاراً، حتى أنه لا يملّ من كثرة ذكرها والثناء عليها، ويترحم عليها، ويبكي لفراقها، حتى غارت منها بعض نساءه وامتلات منها حسداً وهي في قبرها.

تقول عائشة بنت أبي بكر: «ما رأيت خديجة قطّ، ولا غرت علي امرأة من نساءه أشدّ من غيرتي علي خديجة؛ وذلك من كثرة ما كان يذكرها».

وتقول(2) عائشة أيضاً: «ما غرت علي أحدٍ من أزواج النبي، ما غرت علي خديجة، وما بي أن أكون أدركها، وما ذاك إلا لكثرة ذكر رسول الله لها، وإن كان ممّا يذبح الشاة

ص: 223

1- . صحيح البخاري رقم 3821 (باب تزويج النبي خديجة)، وصحيح مسلم (باب فضائل خديجة)، وابن حنبل في المسند الطبراني. وتوجد اختلافات لفظية بسيطة بين الرواة هؤلاء: فعرف استئذان خديجة صوت هالة كصوت خديجة، فذكر الرسول بصوت هالة صوت خديجة. حمراء الشدين: سقطت أسنانها لكبرها فاحمرت لثتها.

2- . مستدرك الصحيحين: ج 3 ص 186.

يتبع بها صدائق خديجة، فيهديها لهن»(1).

وكان يقول: «إني لأحب حبييها»(2).

وعن علي قال: «ذكر النبي(صلي الله عليه وآله) خديجة يوماً وهو عند نسائه

فبكي، فقالت عائشة: ما يُبكيك علي عجز حمراء من عجائز بني أسد؟! فقال: صدقتني إذ كذبتهم، وآمنت بي إذ كفرتم، وولدت لي إذ عقمتم...»(3)، «وروي أن عجزاً دخلت علي النبي(صلي الله عليه وآله) فلاطفها، فلما خرجت سألتها عنها عائشة، فقال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».

عن عائشة: «قالت: لم يتزوج النبي علي خديجة حتى ماتت. قالت: ما رأيت خديجة قط ولا غرت علي امرأة من نسائه أشد من غيرتي علي خديجة؛ وذلك من كثرة ما كان يذكرها»(4).

عن أبي نجیح عبدالله بن أبي نجیح، قال: «أهدي لرسول الله(صلي الله عليه وآله) جزور ولحم، فأخذ عظاماً منها فناوله الرسول بيده، فقال له: اذهب بهذا إلي فلانة، فقالت عائشة: لم غمرت يدك؟ فقال: إن خديجة أوصتني بها، فغارت عائشة من كلامه وقالت: كأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة! فقام رسول الله مغضباً، فلبث ما شاء الله، ثم رجع فإذا أم رومان(5)، فقالت: يا رسول الله، مالك ولعائشة؟ إنها لحدثة، فقال: أليست القائلة: كأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة؟ والله لقد آمنت بي إذ كفر قومك، ورزقت مني الولد وحرمتيه».

وهكذا تتجلى مكانة أم المؤمنين الكبرى خديجة بنت خويلد(عليها السلام) كما نطق بها لسان الحق المقدس.

ص: 224

1- . أسد الغابة: ج 5 ص 438.

2- . الإصابة: ج 4 ص 275.

3- . كشف الغمة للإربلي: ج 2 ص 131.

4- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 27.

5- . مقتل الحسين للخوارزمي: ج 1 ص 27. وأم رومان: والدة عائشة.

قبل الحديث عن زواج رسول الله (صلي الله عليه وآله) بالسيّدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام)، لابدّ من التذكير أنّ هذا الموضوع قد تعرّض إلي التشويه إلي حدّ كبير، إمّا لعوامل سياسية تاريخية أو لعوامل الغيرة والحسد التي اتّصفت بها بعض أزواج النبي (صلي الله عليه وآله) بصورة غير اعتيادية.

وأهمّ المواضيع التي نالها التزييف والتشويه هو: الادّعاء بأنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) كان هو الزوج الثالث لخديجة، بعد أن كانت قد تزوّجت باثنين من سائر الناس واحد بعد الآخر، تُسمّي الروايات الموضوعية أحدهما بعتيق بن عابد المخزومي، ويُدعي الآخر بأبي هالة هند بن زرارة بن نبّاش التميمي، ثمّ عاشت بعد وفاة الثاني أيّماً، حتّى خطبها رسوله الله (صلي الله عليه وآله). هكذا تصوّر الأخبار المنسوبة قصّة الحياة الاجتماعية الزوجية لخديجة.

ونفس المصادر التي تروي قصّة زواجها الأوّل والثاني تذكر بإصرار، أنّ خديجة عقيلة قريش كانت قد خطب ودّها سادة القبائل وعظماء قريش، ولكنها تعرض عنهم في كلّ مرّة بإباء سمح، وترغب عنهم مترقّعة مع تواضع لا يحطّ من قدر الخاطبين.

ولقد ذكر المؤرّخون أنّ من جملة من خطبها كان أبا جهل وأبا سفيان وعقبة بن أبي معيط والصلت بن أبي يهاب، وغيرهم من سادة القوم وعلّيتهم.

كما تقع المصادر نفسها في تشوّش وتناقض شديدين بالنسبة للزوجين المزعومين، فبعض المصادر تسمّي أحدهما أبا شهاب عمرو الكندي، وتسمّيّه أخري مالك ابن النبّاش بن زرارة التميمي، وأخري تسمّيّه هند ابن النبّاش، وأخري تسمّيّه النبّاش بن زرارة.

وأما من دُعي بعتيق بن عائذ المخزومي وهو الزوج الثاني المفترض، فقد سمّته

بعض المصادر عتيق بن عابد التميمي⁽¹⁾، إلي غير ذلك. وهكذا تشرّق الادّعاءات وتغرّب دون ضابطة صحيحة ولا إشارة من علم!

ص: 225

1- . لمعرفة التناقض راجع بحار الأنوار: ج16 ص22، والصحيح من سيرة النبي الأعظم للعلامة جعفر العاملي: ج1 ص121 وما بعدها، وفقه السيرة للبطوي: ص61، والاستغاثة لأبي القاسم الكوفي.

ومن حقنا أن نساءل: كيف يمكن للمصادر التاريخية أن توفّق بين إصرار السيّدة خديجة(عليها السلام) علي رفض جميع من خطبها بما فيهم وجوه الناس وأشرفهم، وبين زواجها من شخصين من دهماء الناس علي التوالي لم تضبط الأخبار حتّي أسماءهم؟ إنّ هذا لشيء عجاب!

إنّك لا تكاد تقرّ مصدرأ حديثاً ولا قديماً إلاّ وتجد الرفض القاطع الذي تبديه السيّدة خديجة بنت خويلد لكلّ خاطب لها مهما أُعطي من مال أو جاه ومكانة، فكيف ترضي الاقتران بدين علي ما هما عليه من مغمورية وقلة جاه ومكانة؟

ولكي نتخطّي سطح المشكلة ونواجه الواقع، لابدّ من الإشارة إلي أنّ السيّدة خديجة(عليها السلام) كانت لها أخت تُسمّي هالة(1)، تزوّجت رجلاً من بني تميم أولدها ذكراً أسماه هنداً، وكان للتميمي زوجة أُخري أولدها بنتين إحداهما زينب والأخري رقيّة، ثمّ هلك الرجل، فالتحق هند بعشيرته وأهله في البادية، والتحقّت هالة وزوجة التميمي الأُخري والبنتان بالسيّدة خديجة التي امتازت بمال وفير وطيب نفس، فشملتهم جميعاً برعايتها. وفي هذه الأيّام تزوّج رسول الله(صلي الله عليه وآله) من خديجة، فصارت زينب ورقية تحت رعاية رسول الله(صلي الله عليه وآله) والسيّدة خديجة(عليها السلام) حتّي نُسبتا إليهما، وهو أمر مألوف عند عرب ذلك الزمان(2) وفق قاعدة التبنّي التي أبطلها القرآن الكريم بعد ذلك سنين، في آية 4 من سورة الأحزاب.

وهكذا تكون قضية هالة بنت خويلد وقصة زواجها قد انسحبت علي سيرة السيّدة خديجة وحياتها بسبب ذلك التبنّي، حتّي بلغت الحال أن تشعّبت بقصد وبغيرة لتكون زينب ورقية ابنتين لرسول الله(صلي الله عليه وآله)، كما يكون الرجل المخزومي الذي كان أوّل زوج لهالة بنت خويلد ثمّ زوجها الثاني التميمي قد نُسبا إلي السيّدة خديجة كزوجين لها قبل زواج رسول الله(صلي الله عليه وآله) منها. وهكذا، تقحم حياة هالة الزوجية ونتائجها علي خديجة(عليها السلام)

ص: 226

1- . انظر: مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري: ج2 ص204 ح 1674.

2- . تراجع هذه القضية في كتاب الاستغاثة لأبي القاسم الكوفي: ص82 وما بعدها.

ومما يعزّز صحّة هذه الواقعة التاريخية الهامة التي سردناها، ما ذكره ابن شهر آشوب المازندراني، حيث قال: «روي أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضي في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: إنّ النبي (صلي الله عليه وآله) تزوّج بها وكانت عذراء»(1).

هذا، ومن الجدير ذكره أنّ المصادر التي اعتبرت زينباً ورقيّة بنتين للنبي (صلي الله عليه وآله) من السيّدّة خديجة، قالت بولادتهما بعد البعثة، ثمّ تقول ذات المصادر أنّ رقيّة التي كانت أصغر بنات النبي (صلي الله عليه وآله)(2) قد تزوّجت عثمان بن عفّان قبل الهجرة إلى الحبشة، علماً بأنّ الهجرة المذكورة قد وقعت بعد البعثة بخمس سنين.

فهل تسجّم العقول مع هذه التقرّولات الساذجة(3) التي تناقضت مع نفسها ومع الوقائع التاريخية؟

وتحقّق أمل خديجة

كانت حياة السيّدّة خديجة(عليها السلام) مزيجاً بين الرفض الصارم لكلّ من يطلب يدها من أجل الزواج، وبين الانتظار والأمل لمن يلبي طموحها المعنوي من الرجال كزوج ووليّ أمر.

وبينما كاد الرجال يقطعون الأمل من قناعتها بأيّ منهم، كانت سيّدّة قريش قد تحوّلت إليّ أذن صاغية تتسمّع أخبار خير شباب قريش الذي ملأ ذكره الحسن، والحديث عن شمانله الطيّبة في أركان مكّة ونواديها، حتّى أسماه قومه بالصادق الأمين وهو لمّا يزل في ريعان شبابه، ذلك هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقد كانت تتوسّم أن يكون هو القرين المنتظر لها، وبدأ حدسها يقترب من اليقين رويداً رويداً

ص: 227

1- . راجع: مناقب آل أبي طالب: ج 1 ص 159.

2- . الإصابة: ج 4 ص 304.

3- . للتفاصيل يُراجع النبوة لمحمّد حسن آل ياسين: هامش ص 65، كما يُراجع الاستغاثة: ص 80 و ما بعدها، والصحيح من سيرة النبي : ج 1 ص 121 وما بعدها.

كلّما تقدّمت الأيّام.

وماذا يمنعها أن تنتظر وهي لا تزال في عزّ شبابها وغضارة جمالها؟ فقد تأملت كثيراً في حديثٍ لأحد أحبار اليهود حضر المسجد الحرام وراح يتحدّث عن اقتراب موعد بعثة الرسول الموعود من هذه الديار، وهو ينوّه بالتهنئة للمرأة التي تكون له زوجة وسكناً⁽¹⁾.

وجاءت الخطوة الأخرى لتقرّب الأمل المتّقد في وجدانها، فحيث امتلأ سمعها بجميل ذكر محمّد بن عبد الله (صلي الله عليه وآله) فتي أبي طالب شيخ الأبطح، بالنظر لعظيم أمانته وكريم صفاته ونبيل خصائصه وصدق حديثه ومواقفه، فما بالها يا تري لا تعقد صفقة تجارية معه، تضاربه ببعض أموالها ليخرج بها متجراً إلى الشام، ومن كمحمّد (صلي الله عليه وآله) في صدقه وسلامة سلوكه واستقامته؟

لقد انتفضت من غفلتها عنه، وكأنّها لا مت نفسها عن طول هذه الغفلة عنه، فبعثت من يعرض عليه هذا المشروع التجاري المربح الذي طالما اشراّبت إليه أعناق

الرجال، وعرضت عليه من خلال وسيطها أن يكون له من الربح أفضل ما اعتادت أن تعطيه لمن تضاربه من التجّار.

ووجد رسول الله (صلي الله عليه وآله) حاجةً في نفسه، فتداول مع عمّه أبي طالب في ذلك، فلم يجد منه اعتراضاً. وكان هذا الغرس الطيّب مدركاً أنّ عمّه قد كبر سنّه وأثقلته السنون، فلا بدّ من استثمار هذه الفرصة لدعم عمّه الكريم الذي امتاز بجوده وكرمه ورعايته للناس رغم كونه أقلّ سادة قريش مالاً.

وخرج المصطفي في تجارته إلى الشام يصحبه ميسرة غلام خديجة الذي أنابته عنها في هذا المشروع. وقد كان ميسرة يقوم بمهمّتين معاً، إحداهما: اقتصادية روتينية تتعلّق بالتجارة والمال وما إلى ذلك من شؤون. وثانيتها: معنوية، ولعلّها كانت هي المهمّة المركزية التي كُلف بها من قبل سيّدته خديجة!

فقد كان موكولاً إليه أن يرصد محمّداً عن كثب في هذه السفرة الطويلة نسبياً؛ كي

ص: 228

1- . بحار الأنوار: ج 16 ص 4 نقلاً من مناقب آل أبي طالب.

يقدم تقريراً إلى السيدة خديجة حول أبعاد شخصيته، ليكمل الصورة عن محمد (صلي الله عليه وآله) لديها.

ويبدو أن ميسرة كان جديراً بإعطاء الصورة المطلوبة، ولذا اختارته سيّدته لذلك. وما أن صحب الغلام رسول الله (صلي الله عليه وآله) إلا ورأى الأعاجيب ممّا لم يكن في حسابه ولا في تصوّراته، فرغم طيب المعاشرة وحسن الأخلاق وصدق المعاملة وعظيم الأمانة، فإنّ أموراً خارجة عن المألوف تمكّن ميسرة من مشاهدتها عياناً.

عن محمد بن إسحاق، قال: «كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش قوماً تجّاراً، فلما بلغها عن رسول الله (صلي الله عليه وآله) من صدق حديثه وعظيم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجّار، مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله منها

رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وخرج في مالها ذلك ومعه غلامها ميسرة، حتّى قدم الشام، فنزل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في ظلّ شجرة قريباً من صومعة راهب، فأطلع الراهب إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي

ثمّ باع رسول الله (صلي الله عليه وآله) سلعته التي خرج بها واشتري ما أراد أن يشتري، ثمّ أقبل قافلاً إلى مكّة ومعه ميسرة، وكان ميسرة قال (فيما) قال: إذا كانت الهاجرة واشتدّ الحرّ، نزل ملكان يظللانه من الشمس وهو يسير عليّ بعيره، فلما قدم مكّة عليّ خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعمّا كان يري من تظليل الملكين له»⁽¹⁾.

إنّ هذه الواقعة وما أحاطت بها من ظروف مادّية ومعنوية، دفعت السيّد خديجة (عليها السلام) إلى نهاية الشوط، فأرسلت أختها هالة أو صديقتها نقيسة بنت منية - عليّ قول - إلى رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وأسرّته فور عودته من الشام لتعرض نفسها عليه.

ص: 229

1- . بحار الأنوار: ج 16 ص 9، السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 203 بإسناده عن ابن إسحاق.

وذهبت نفيسة مندسةً إلي النبي (صلي الله عليه وآله)، وجري هذا الحوار التاريخي القصير الحاسم بينهما(1):

(نفيسة: ما يمنعك من الزواج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به، قالت: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلي الجمال والمال، والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

قال: فمن هي؟

نفيسة: خديجة!

قال النبي (صلي الله عليه وآله): كيف لي بذلك؟

قالت: عليّ ذلك.

وأعلن رسول الله (صلي الله عليه وآله) قبوله بالعرض».

ويبدو أنّ نفيسة عادت مرّة ثانية طالبة من النبي (صلي الله عليه وآله) أن يحضر مع أعمامه لخطبة سيّدة قريش من عمّها عمرو بن أسد؛ لأنّ أباه خويلد كان قد قضى نحبّه قبل حرب الفِجَار، وحدّدت نفيسة بإذن خديجة موعد اللقاء في دارها التي كانت من أوسع دور قريش وأرحبها.

واجتمع عدد من أعمام النبي (صلي الله عليه وآله) ورجال قريش في طليعتهم أبو طالب في دار السيّدة خديجة (عليها السلام)، وحضر من قربها عمّها عمرو بن أسد وآخرون. وتكلّم أبو طالب خاطباً خديجة من عمّها(2)، وجاء في حديثه ما يلي: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ(3) معد وعنصر مضر، وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكّام علي الناس. ثم أنّ ابن أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجحه، وإن كان في المال قليلاً فإنّ المال ظلّ زائل وحال حائل، ومحمّد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل»(4).

ص: 230

1- . حياة محمّد لمحمّد حسنين هيكل (ط 1354هـ القاهرة): ص 84.

2- . وردت في كلام أبي طالب اختلافات بين المصادر في بعض الألفاظ.

3- . ضئضئ: الأصل.

4- . بحار الأنوار: ج 16 ص 16 و 17 عن من لا يحضره الفقيه: ص 413. وأخرج نحوه اليعقوبي في تاريخه: ج 2 ص 15، والوفا بأحوال المصطفى لأبي الفرج عبدالرحمن الجوزي: ج 1 ص 145 مع اختلاف في الألفاظ.

ثم إن عمّها عمرو بن أسد ردّ علي خطبة أبي طالب ردّاً إيجابياً يتجلّي في كلماته تأثره بالحنيفية الأولي أو بالكتب السماوية التي ذكر المؤرّخون أنّه كان يهتمّ بقراءتها، وهذه كلمات عمّها كما ذكرها المؤرّخون: «الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضّ لنا علي ما عدّدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كلّ، لا تنكر العشيرة

فضلكم، ولا يرّد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبتنا بالأصل بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأنّي قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبد الله علي أربع مائة دينار»⁽¹⁾.

هذا، ومن الجدير ذكره أنّ إشارة بعض المصادر إلي وجود أبيها خويلد ليس صحيحاً، فقد توفي الرجل المذكور في حرب الفجار أو قبلها، كما أنّ الراجح أن يكون عمرو بن أسد هو الذي تولّى تزويجها وليس ورقة بن نوفل كما زعمت بعض المصادر، اللهمّ إلا أن يكون ورقة أحد الحاضرين في الزواج ليس غير، فالعمّ أولي من ابن العمّ في ذلك.

وبعد إجراء مراسم العقد، أعلنت خديجة أنّ بيتها وما تملك هو تحت تصرّف النبي (صلي الله عليه وآله). ثمّ إنّ أبا طالب أقام علي شرف الزوجين والحضور وليمة بعد أن نحر ناقة وأطعم من كان حاضراً. وهكذا تمت مراسم الزواج المبارك، ودخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) داره ليقبل مع زوجته السيّدة خديجة أمّ المؤمنين الأولي لتبدأ المرحلة الجديدة من حياتهما عليهما الصلاة والسلام.

هذا، ومن الجدير ذكره أنّ مراسم عقد زواج النبي (صلي الله عليه وآله) من السيّدة خديجة (عليها السلام) كان في اليوم التاسع⁽²⁾ من ربيع الأوّل بعد عام الفيل بخمس وعشرين سنة، علماً بأنّ المصطفى لم يتزوج سواها حتّي توفّيت؛⁽³⁾ رعايةً لمشاعرها وإكراماً لمقامها، عليها آلاف التحية والسلام.

ص: 231

1- . بحار الأنوار: ج 16 ص 19 وقد ذكرته مختلف المصادر التاريخية.

2- . جنة المأوي للإمام محمّد حسين آل كاشف الغطاء: ص 95.

3- . العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي: ج 5 ص 6، وسواه من المصادر.

أول النساء تصديقاً برسول الله (صلي الله عليه وآله)

دخلت السيِّدة خديجة حياتها الجديدة باقترانها برسول الله (صلي الله عليه وآله)، حيث

الحبور والرحمة والتلاحم الروحي والعاطفي. وقد عبّر عن هذه الحالة التي توقَّعها أبو طالب للزوجين بعد وقوع العقد بقوله: «الحمد لله الذي أذهب عنَّا الكرب ودفع عنَّا الغموم»⁽¹⁾.

وحيث إنَّ الانسجام الروحي والعاطفي بين الرسول وسيِّدة قريش كان ثمرة طبيعية؛ لأنَّ أحدهما كان تواقاً لصاحبه، تتجاذب روحاهما وتتناغم، إذ لو لم تقترن خديجة بشخص الرسول لما مالت نفسها إلي سواه طوال حياتها، ولما وجدت كفتناً لها من الرجال أبداً.

وهكذا اتَّسمت حياة رسول الله (صلي الله عليه وآله) بالحبور والدعة مع هذه المرأة العظيمة ممَّا لم يتسنَّ لغيرها من أزواجه فيما بعد، حتَّى غارت منها وحسدتها بعض نساته رغم وفاتها (عليها السلام)؛ لكثرة ما يثني عليها رسول الله (صلي الله عليه وآله) ويذكرها بخير ويجدّد العهد بذكرها الطيب أنا بعد أن.

إلا أنَّ الأهمَّ من ذلك كلُّه الانسجام الروحي والفكري بين النبي (صلي الله عليه وآله) وقرينته المكرَّمة، الذي بدأ يتعمَّق منذ دخلت تحت كنفه ورعايته. ففي الفترة التي تمَّ زواج رسول الله (صلي الله عليه وآله) من السيِّدة خديجة (عليها السلام) كان النبي (صلي الله عليه وآله) قد قطع شوطاً بعيداً في إعداده الإلهيِّ وتلقّيه مبادئ الحكمة وبوادر الخير والرحمة من عند الله تعالى التي كان يعكسها بدوره بشكل أو بآخر علي قلب السيِّدة خديجة وروحها وسلوكها، حتَّى انصهرت في بوتقة الهدى الربَّاني.

فنحن علي علم أنَّ الرسول كان خاضعاً لعملية إعداد ربَّاني مخطَّط وبرنامج ملكوتي رفيع، يصنعه علي عين الله؛ لكي ينهض بأعظم رسالة عرفها هذا الكوكب، بل هذا الوجود.

ولقد تدرَّج في عملية الإعداد باتِّجاه موقع الرسول الخاتم، ومرَّ بمستويات

ص: 232

1- . السيرة النبوية لابن دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج 1 ص 106.

ودرجات كان أبرزها: درجة النبوة، ثم درجة الرسالة التي بدأت بما يُصطلح

عليه بالبعثة، وما تطلّبتّه من نزول القرآن الكريم مفرّقاً حسب مقتضيات إعداد الأُمَّة، والنهوض بها إلى مستوى خير أُمَّة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ولقد كانت فترة النبوة طويلة نسبياً استغرقت حيناً كبيراً من عمر النبي الخاتم محمّد بن عبد الله (صلي الله عليه وآله)، كان غير مسموح له فيها بدعوة الناس إلى الحقّ الذي لديه، إلا أنّه من المقطوع به أنّه كان مقتصرأ دعوته علي أهل بيته وخاصّته.

وهذه أرقام وشواهد علي ذلك:

أ -- كان نبياً قبل أن يكون رسولاً

قضي المصطفى محمّد بن عبد الله (صلي الله عليه وآله) ثلثي عمره الشريف نبياً لم يؤذن له من قبل الله

بدعوة الناس إلى رسالته، ولم يعلن عن نبوته المباركة طوال تلك السنين: «اعلم أنّ الطائفة قد اجتمعت علي أنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) كان رسولاً نبياً مستخفياً، يصوم ويصلي علي خلاف ما كانت قريش تفعله مذ كلفه الله تعالي، فإذا أتت أربعون سنة، أمر الله جبرئيل أن يهبط بإظهار الرسالة، وذلك في يوم السابع والعشرين من شهر الله الأصم»⁽¹⁾.

ولهذه الحقيقة أشار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في حديث له جاء فيه: «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»⁽²⁾.

حتّى إذا نزل عليه جبرئيل بمطالع سورة المدّثر المباركة في اليوم السابع والعشرين

من رجب المرجب: (يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ)، باشر عملية دعوة الناس إلى عبودية الله حيث بُعث إلى الناس كافة وأذن له بالتبليغ.

ويُلاحظ من حقائق السيرة النبوية المطهّرة أنّ النبي (صلي الله عليه وآله) ولأهداف استراتيجية كان

ص: 233

1- . روضة الواعظين للشهيد الفتال النيسابوري: ص62، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

2- . نهج البلاغة: خطبة 192.

مأموراً أن يُطلع ابن عمّه وربيه علي بن أبي طالب علي التطوّرات التي كانت تجري له قبل نزول القرآن الكريم وبعده أولاً بأول، وشاركته في ذلك السيّدة خديجة، حيث أشار الإمام علي لذلك بقوله: «... وقد علمتم موضعي من رسول الله (صلي الله عليه وآله) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصّة بيصّة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضنّني إلي صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسّني جسده، ويشمّني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثمّ يُلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قولٍ ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره.

ولقد كنت أتبعه أتباع الفصيل أثر أمّه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالافتداء به. ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله (صلي الله عليه وآله) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي وأشمّ ريح النبوة، ولقد سمعت ربّة الشيطان حين نزل الوحي عليه، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وتري ما أرى، إلا أنّك لست بنبيّ، ولكنك لوزير وإنك لعلي خير...» (1).

هذا، وقد بذل المرحوم المبرور الشيخ محمّد باقر المجلسي وسعاً من أجل دراسة

هذه المسألة العقائدية التاريخية الحسّاسة، وساق الكثير من الأدلّة والشواهد المتينة من الكتاب والسنة علي أن رسول الله محمّد بن عبد الله (صلي الله عليه وآله) كان نبياً منذ صغره، مؤيداً بروح القدس، يكلمه الملك ويسمع صوته، ويتعبّد بشريعته هو لا بشريعة رسول آخر.

حتّى إذا بلغ الأربعين من عمره الشريف جري له التحوّل النوعي الآخر في المهام والأهداف، فبعثه الله رسولاً، ونزل عليه القرآن الكريم، وأمره ربّه بدعوة الناس إلي رسالته (2).

ص: 234

1- . نهج البلاغة: خطبة 192.

2- . راجع هذا البحث القيم الموثّق في بحار الأنوار: ج 18 ص 271 - 281.

ب- علي وخديجة أول المصدقين بالنبوة

ومنذ فترة متقدمة علي نزول مطلع سورة المدثر الآمرة لرسول الله (صلي الله عليه وآله) بالدعوة العامة، كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يستخفي بدعوته عن الناس دون القرابة القريبة من أهل بيته: «فجعل رسول الله (صلي الله عليه وآله) يذكر ما أنعم الله عليه وعلي العباد به من النبوة، سرّاً إلي من يطمئن إليه من أهله...» (1).

ومن أجل ذلك، فإن الروايات الكثيرة التي تذكر أن رسول الله (صلي الله عليه وآله) صلّى يوم الاثنين، وصلت السيّدة خديجة وعلي يوم الثلاثاء (2)، تشير إلي السياق الزمني الذي مرّت به الدعوة الإلهية الخاتمة. واستمرت الدائرة تتسع قليلاً، فضمت جعفرًا وزيد بن حارثة بعد ذلك. أمّا دعوة الناس خارج هذا الإطار، فقد بقيت تنتظر وقتها المناسب الذي يحدده رب العالمين.

وهذه بعض الأرقام والوثائق المؤكدة التي تعطي انطباعاً أولياً عن موقع علي

وخديجة في سلم الدعوة والرسالة.

(عن يحيى بن عفيف عن عفيف، قال: جئت في الجاهلية إلي مكة فنزلت علي العباس بن عبد المطلب. قال: فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر إلي الكعبة، أقبل شاب فرمي ببصره إلي السماء، ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها، فلم يلبث حتّي جاء غلام فقام عن يمينه. قال: فلم يلبث حتّي جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة، فخرّ الشاب ساجداً فسجداً معه، فقلت: يا عباس، أمر عظيم! فقال: أمر عظيم، أتدري من هذا؟ فقلت: لا، قال: هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، أتدري من هذا معه؟ قلت: لا، قال: هذا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن أخي، أتدري من هذه المرأة التي خلفهما؟ قلت: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي، وهذا

ص: 235

1- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 259، وتاريخ الطبري: ج 2 ص 53.

2- . بحار الأنوار: ج 18 ص 179 نقلاً عن تفسير القمي، تاريخ الطبري: ج 2 ص 55 برواية جابر بن عبد الله الأنصاري وص 59 عن زيد بن أرقم.

حدّثني أنّ ربّه ربّ السماء أمرهم بهذا الذي تراهم عليه، وأيم الله ما أعلم علي ظهر الأرض كلّها أحداً علي هذا الدين غير هؤلاء
الثلاثة»(1).

في هذه الوثيقة التي تكرّرت في تاريخ الطبري مراراً وبأسانيد مختلفة، يُلاحظ أنّ الوثيقة تصف النبي(صلي الله عليه وآله) بالشاب، كما تعطي صفة الغلام لعلي بن أبي طالب، الأمر الذي يشير إلي أنّ تعبدهم لله تعالى كان قبل الناس بسنين عديدة، لا سيّما ونحن نعلم أنّ البعثة بالرسالة قد حدثت ورسول الله(صلي الله عليه وآله) قد بلغ الأربعين عاماً أو تخطّأها حسب بعض الروايات... فأين هو من مرحلة الشباب في هذه الفترة؟

عن محمّد بن مسلم عن الإمام محمّد بن علي الباقر: «ما أجاب رسول الله(صلي الله عليه وآله) أحدٌ قبل علي بن أبي طالب وخديجة صلوات الله عليهما، ولقد مكث

رسول الله(صلي الله عليه وآله) بمكة ثلاث سنين مختفياً خائفاً يترقب ويخاف قومه والناس»(2).

عن أبي عبد الله قال: «اكتتم رسول الله(صلي الله عليه وآله) بمكة مستخفياً خائفاً خمس سنين ليس يظهر، وعلي معه وخديجة، ثمّ أمره الله أن يصدع بما يؤمر، فظهر وظهر أمره».

وعن أمير المؤمنين علي قال: «ولقد كان رسول الله(صلي الله عليه وآله) يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله(صلي الله عليه وآله) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي وأشمّ ريح النبوة»(3).

وعن أمير المؤمنين: «ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبد الله بعد نبيّنا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين»(4).

عن عبّاد بن عبد الله قال: سمعت علياً يقول: «أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتر، صلّيت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين»(5).

ص: 236

1- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 56.

2- . بحار الأنوار: ج 18 ص 188.

3- . نهج البلاغة: خطبة 192.

4- . خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائي: ص 3.

5- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 56، الكامل لابن الأثير الجزري: ج 2 ص 57.

إنّ هذه الوثائق التاريخية رغم اختلافها في البعد الزمني الذي تذكره حول سبق علي والسيدة خديجة لعموم الناس في الالتحاق بركب الدعوة الإلهية الخاتمة، حيث تتراوح سنوات السبق المذكور بين ثلاث سنوات وتسع، إلا أنّها تؤكد الحقيقة القائلة إنّ علياً والسيدة خديجة (عليها السلام) كانا ضمن أجواء التغيّرات الروحية والفكرية للنبي (صلي الله عليه وآله)، حتّى أنّهما لم يُفاجئا بالنبوة، ولم يُفاجئا بالتكاليف

الإلهية، وإنّما مرّاً بحالة تحوّل نوعي في أداء التكليف ليس غير، ولذا فإنّ علياً يذكر أنّه حين نزل الوحي - حيث ابتدأت البعثة بالرسالة لعموم الناس - سمع الرثة التي أحدثتها هزيمة الشيطان (1) في العالم غير المحسوس، حيث كان هو معه في غار حراء، وعلي مقربة من الغار كانت خديجة (2).

كما أنّ بعض الروايات تشير أنّ علي بن أبي طالب هو ذاته التحق بالنبي (صلي الله عليه وآله)

في أداء التكليف، ولم يعرض عليه رسول الله (صلي الله عليه وآله) دعوته، حيث يذكر هذا النوع

من الروايات أنّ علياً رأى رسول الله (صلي الله عليه وآله) يصليّ أول صلاة وكانت هذه العملية نقلة

فكرية وروحية في سلّم الرسالة بطبعها، فسأله عمّا يفعل، فقال: أصليّ، فصليّ عليّ معه (3)، ولا نستبعد أن تكون خديجة ذات القلب الربّاني الشفاف والروح الإلهية المتعلّقة بعالم القدس سلكت غير هذا السلوك؛ لأنّها وعليّاً كانا يصنعان عليّ عين رسول الله (صلي الله عليه وآله) و آلّه)، تماماً كما كان هو يصنع عليّ عين الله، وإن كان مستوي عليّ من رسول الله (صلي الله عليه وآله) كمستوي هارون من موسى (4)، كما عبّرت النصوص عن ذلك،

وهو مستويّ لم تبلغه السيدة خديجة قطعاً، إلا أنّها تمثّل قمة في النساء قطعاً،

لم تسبقها غير فاطمة ابنتها في هذه الأمة المرحومة، تلك المرأة التي حملت

ص: 237

1- نهج البلاغة: خطبة القاصعة: ص 301.

2- يُستفاد ذلك من المصدر نفسه ومن تاريخ الطبري: ج 2 ص 48، وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ج 6 تفسير سورة المزمل.

3- بحار الأنوار: ج 18 ص 184 نقلاً عن المحدث الثقة علي بن إبراهيم القميّ، وهناك مصادر ذكرت ذلك بشكل أو بآخر.

4- كما هو حديث «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى» المشهور.

بحقّ وجدارة لقب سيّدة نساء العالمين وسيّدة نساء أهل الجنّة (1)، كما أخبر الصادق الأمين بذلك.

الإيمان الممتحن

تزامنت عملية اقتران السيّدة خديجة بنت خويلد برسول الله (صلي الله عليه وآله) مع إرهاصات عهد النبوة، وواكبت كافة التطوّرات الروحية والفكرية التي تعرّض لها المصطفى، ليصنع عليّ عين الله، واكبته في دارهما، وواكبته حتّى في غار حراء، حتّى إذا فرض الله الصلاة عليّ النبي (صلي الله عليه وآله) بعد فرض عقيدة التوحيد، صلّي معه عليّ وخديجة قبل الناس بسنين عديدة كما قدّمنا.

وحيث اقتضت الدعوة بادي ذي بدء بأمر الله تعالى عليّ القرابة القريبة من أهل النبي (صلي الله عليه وآله)، فلم تحدث أيّة معاناة من أعداء الهدى، إذ كان المشركون ينظرون إليّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) في بداية دعوته كما لو كان راهباً أو رجلاً من الأحناف الذين يمارسون الصلاة والقربات لله تعالى أحياناً، ولذا لم تستفزهم صلاته وطوافه في الكعبة جهاراً.

حتّى إذا أمر بالدعوة العامّة التي ابتدأت بدعوة عشيرته الأقربين: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (2) عليّ تفصيل معلوم من مصادر التاريخ والتفسير، وما تلاها من تخريب لمهمّة النبي (صلي الله عليه وآله) بواسطة عمّه الخبيث أبي لهب (3)، وما تبع ذلك من سبّ النبي (صلي الله عليه وآله) للأوثان التي يعكف عليها المشركون والتنديد بها والدعوة الصريحة لله الواحد الأحد عزّ شأنه، انفجر الموقف بين قريش ورسول

الله (صلي الله عليه وآله) عليّ أشدّ ما يكون الصراع.

فبدأت الحرب النفسية والإعلام المضادّ والضغط العائلي والقبلي، وبدأت عمليات التعذيب النفسي والجسدي للمستضعفين من أتباع النبي (صلي الله عليه وآله) ودعوته.

كما أصاب رسول الله (صلي الله عليه وآله) منهم الكثير الكثير من الأذى المادّي والمعنوي: أتهموه

ص: 238

1- . كما في أحاديث مشهورة عند عموم المسلمين.

2- . الشعراء: 214.

3- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 61 وما بعدها.

بالسحر والشعوذة، والجنون والكذب والضلال، كما ألقوا القذارات والنجاسات علي بدنه الشريف، ووضعوا الأشواك في طريقه من أجل إيذائه.

ومن الطبيعي أن كل ذلك وغيره كانت السيّدة خديجة تشهده وتعيشه، وكانت تشدّ من أزر النبي (صلي الله عليه وآله) وتعينه وتقف إلي جانبه ليتخطي عقبات الطريق رافع الرأس شامخاً.

وما أعظم أن يجد الإنسان الداعية إلي رسالة حقّ، أن يجد زوجة تقف إلي جنبه وتشجّد همّته، وتساهم في توفير مستلزمات الصمود له.

وهكذا كانت السيّدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام)، فقد كانت صدّقة في دعوته منذ بداية الشوط ونهضت معه بالتكاليف الإلهية، وكلّما ضاق صدره من جاهلية قومه وامتلاّت نفسه حسرةً من ضلال المشركين، كانت السيّدة خديجة تنبري لتقول كلماتها الوداعة الحريصة الواثقة: «أبشر، فوالله لا يُخزيك الله أبداً، ووالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدّي الأمانة، وتحمل الكلّ، وتُقري الضيف، وتعين علي نواب الحق» (1).

إنّ هذه الكلمات تشكّل هيكلًا لنبوءة السيّدة خديجة (عليها السلام) بنصر الدعوة،

وعمق وعيها بصدق محمّد (صلي الله عليه وآله) في دعوته، والإمداد الغيبي الذي سيأتيه لينصره الله علي أعدائه ويعزّ نصره، «أبشر فوالله لا يُخزيك الله أبداً».

ومنذ بداية المسيرة وضعت السيّدة خديجة كلّ أموالها الطائلة المعروفة تحت تصرّف رسول الله (صلي الله عليه وآله) (2)، بالنظر لوعيها أنّ الدعوة لا بدّ لها من مال تستعين به في مسيرتها كوسيلة لتحقيق الأهداف الإلهية العظيمة، تُطعم به المساكين من المؤمنين، وتواري عوراتهم، وتسدّ نفقاتهم اليومية، خصوصاً وأنّ مكّة بلد صحراوي يكثّر فقراؤه المحتاجون؛ بالنظر لعدم وجود سلطة سياسية في البلاد تتولّي توزيع الثروات بشكل عادل، لا سيّما وأنّ السياسة الارستقراطية هي التي تحكّم المدينة المذكورة، وتحكّم عقول الملأ من قريش.

ص: 239

1- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 47.

2- . انظر: تراجم أعلام النساء للشيخ محمّد حسين الأعلمي: ج 2 ص 51.

وكان المال في مكة هو سيّد الموقف، وحتّى الأصنام التي يعبدونها لتقربهم زلّفي إلى الله تعالى بزعمهم، كان الملامنهم يتصوّرها وسيلة لكسب المال ليس إلا؛ لأنّ تردّد الناس علي أصنامهم المنصوبة في مكة كان وسيلة للتبادل التجاري، وطريقة لنموّ الثروة في أسواق مكة التي يسيطر عليها أصحاب السلطان في تلك المدينة.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ غالبية الذين أسلموا في مكة كانوا من المحتاجين، إمّا لمقاطعة ذوبهم لهم، وإمّا لكونهم في عسر مادّي أساساً كالعبيد والفقراء وأشباههم، ممّن فتح الله تعالى قلوبهم للدعوة الإلهيّة الخاتمة، فلا بدّ من مصدر مالي مناسب يتوقّر للنبي (صلي الله عليه و آله) من خلاله علي سدّ نفقات المحتاجين من أتباعه.

وهكذا كانت أموال السيّدة خديجة مصدراً مادياً أساسياً لدعم الرسول ودعوته، بتغطية نفقات المستضعفين من هذا المال المبارك.

وقد نوّهت أسماء بنت عميس إلي ذلك في حوارٍ لها مع عمر بن الخطّاب بقولها:

«كنتم مع النبي (صلي الله عليه و آله) يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم».

وقد اشتدّت الحاجة إلي ثروة خديجة (عليها السلام) عندما حوصر بنو هاشم في شعب أبي طالب، حيث اتّخذت قريش من جملة ما اتّخذت من قرارات الحصار البغيض: أن لا يبيع أحد بني هاشم والمسلمين المحصورين في الشعب بأيّ حال من الأحوال ولا يبتاع منهم.

وأقلّ ما كانت قريش تفعله مع القادمين في موسم الحجّ أن تقرض عليهم عدم مبايعة أولئك المحصورين إلا بأسعارٍ باهضة جدّاً أو تنهب قريش أموالهم عنوة. كما أنّ الشّعب كان مراقباً؛ منعاً من وصول الموادّ الغذائيّة للمحاصرين، حتّى اضطرّ المحاصرون أن يأكلوا ورق الشجر والأدغال، وكان صراخ أطفالهم يُسمع من بعيد بسبب الجوع.

وهذا مصداق واحد من مصاديق محنة الحصار كما ذكرها المؤرّخون: «... فأقاموا علي ذلك من أمرهم سنتين أو ثلاثاً حتّى جهدوا ألا يصل إلي أحدٍ منهم شيء إلا سرّاً»

مستخفياً به ممن أراد صلته من قريش. وذكر أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله (صلي الله عليه وآله) ومعه في الشعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلي بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة. فجاء أبو البختری ابن هشام بن الحارث بن أسد، فقال: ما لك وله؟ قال: يحمل الطعام إلي بني هاشم، فقال له أبو البختری: طعام لعمته عنده بعثت إليه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلّ سبيل الرجل. فأبي أبو جهل، حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ البختری لحي بعير فضربه فشجّه ووطئه ووطئاً شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريب يري ذلك، وهم يكرهون أن

يبلغ ذلك رسول الله (صلي الله عليه وآله) وأصحابه فيشتموا بهم...»(1).

وبوسع المرء أن يقدر خطورة الموقف وصعوبته إذا علمنا أن الحصار المذكور قد استمرّ ثلاث سنين أو يزيد، وكانت أموال النبي (صلي الله عليه وآله) والسيدة خديجة (عليها السلام) قد استثمرت في معركة الحياة أو الموت هذه، لتجهيز الممكن من الأطعمة ولو بأغلي الأثمان.

وكان علي بن أبي طالب يغامر لإيصال ذلك الطعام سرّاً بين حين وآخر، معرضاً حياته الشريفة للخطر من أجل الإسلام(2). حتى لقد نفذت أموال النبي (صلي الله عليه وآله) والسيدة خديجة (عليها السلام) علي طريق إنقاذ حياة المحاصرين والمستضعفين من المسلمين الذين لا يجدون حيلة، ولا يهتدون إلي سدّ نفقاتهم سبيلاً.

وهكذا نزلت السيدة خديجة (عليها السلام) من مستوي المرأة التاجرة إلي مستوي المرأة المحاصرة مع النبي (صلي الله عليه وآله)، حتى ذكر البعض من المؤرخين أنّ من أسباب وفاتها كان ما عانته بسبب الجوع والضعف، حتى قضت شهيدة مظلومة بعد حصار الشعب بمدة وجيزة.

وماذا نقول عن مواقفها من النبي (صلي الله عليه وآله) ومحنته التي طالت عقداً من الزمان؟

ص: 241

1- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 74.

2- . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج 3 ص 256.

لقد كانت السيّدة خديجة (عليها السلام) تراقب حالة النبي (صلي الله عليه وآله) عن كثب، وتعمل بما في وسعها للتخفيف من حجم معاناته الكبيرة من أجل الله تعالى والدعوة الإلهية، حتّى أنّها ولفرط إشفاقها عليه كانت تدعوه لضرورة النوم والراحة؛ حتّى يستريح من عناء ما يلقاه في النهار كي يواصل المسير بفاعلية كما تتصوّر،

فأجابها عليه وعلي آله الصلاة والسلام: «مضي عهد النوم يا خديجة» (1).

ولقد كانت تشهد معاناته اليومية وما يلقاه من أولئك السفهاء والأجلاف، من أمثال أبي جهل وأبي سفيان وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل وعمر بن العاص وابن الزبيري، وأمثالهم من سبّ واتّهام واعتداء مادّي صريح، لا حياء فيه ولا شعوراً إنسانياً.

ولقد كان أشدّهم عليه عمّه أبو لهب الذي كان لا يكلّ ولا يملّ عن الكيد برسول الله (صلي الله عليه وآله) ودعوته، ولقد كان يتسلّل وراءه، فلا يدعو النبي (صلي الله عليه وآله) جماعة إلى الله تعالى، إلّا ويكذّبه؛ ليحول بين الناس ودعوة الحقّ (2).

ولقد كان المصطفى يلقي من قومه أشدّ أنواع البلاء، فكانوا يلقون الشوك في طريقه، ويلقون عليه التراب، ويقذفونه بالحجارة، ويرمون القاذورات علي رأسه وظهره. ولقد شوهد أبو لهب يدمي رجله وعرقوبه بالحجر الذي يرميه به أمام الناس.

«وكان أبو لهب شديداً عليه وعلي المسلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى، فكان يطرح العذرة والتنن علي باب النبي (صلي الله عليه وآله) وكان جاره، فكان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يقول: أيّ جوارٍ هذا يا بني عبد المطلب؟! فرآه يوماً حمزة فأخذ العذرة وطرحتها علي رأس أبي لهب...» (3).

ولقد ألقّت قريش عليه سلي بغير أو جزور تتناً وهو ساجد، فأرسلت السيّدة خديجة (عليها السلام) ابنتها الحبيبة فاطمة (عليها السلام) وهي لا تزال طفلة غصّة، فأماطته عن ظهر أبيها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وهي تدعو عليهم: «بينما رسول الله (صلي الله عليه وآله) ساجد وحوله ناس من قريش وثمّ سلي بغير، فقالوا: من يأخذ سلي هذا الجزور أو البعير فيفرّقه علي ظهره؟ فجاء عقبة بن أبي معيط فقفده علي ظهر النبي (صلي الله عليه وآله)، وجاءت فاطمة (عليها السلام) فأخذته من ظهره، ودعت علي من صنع ذلك، قال عبد الله: فما رأيت رسول الله (صلي الله عليه وآله) دعا

عليهم إلّا يومئذٍ، فقال: اللهمّ عليك الملاء من قريش، اللهمّ عليك أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي

ص: 242

1- . في ظلال القرآن لسيد قطب: ج 6 ص 3744 (تفسير سورة المزمل).

2- . في ظلال القرآن لسيد قطب، ج 6 تفسير سورة المسد نقلاً عن ابن إسحاق وأحمد بن حنبل والطبراني.

3- . الكامل في التاريخ لابن الأثير: ج 2 ص 70.

معيط، وأمّية بن خلف أو أبي بن خلف»(1).

قال عبد الله: «ولقد رأيتهم قُتلوا يوم بدر، وألقوا في القليب. أو قال: في بئر، غير أن أمّية بن خلف أو أبي بن خلف كان رجلاً بادناً، فُقطع قبل أن يبلغ البئر»(2).

ومن متابعة واعية لسيرة الصديقة الطاهرة السيّدة خديجة يتّضح أنّ محنتها من المشركين كانت مضاعفة، فمنذ بدأت قافلة الهدى تشقّ طريقها في المجتمع، وصار المستضعفون وأصحاب القلوب الحيّة يسمعون صوت الحادي يدعو: أن هلمّوا إلي الله... منذ تلك الأيام المبكّرة بدأت محنة السيّدة خديجة(عليها السلام)، حيث قاطعتها نساء قريش، فلم يزرنها ولم تتفقدها إحداهنّ، وصرن يهمزنها ويغمزنها، ويفرضن عليها حرباً نفسية ماكرة من أجل إيذائها، حتّى أنّها لم تحظّ بزيارة إحداهنّ أيام ولادتها ونفاسها، وأنّت خير بحاجة المرأة إلي مثيلاتها أيام الولادة؛ كلّ ذلك من أجل الله تعالي ومحمّد والدعوة الإلهيّة المباركة. وهكذا ربطت هذه المرأة العظيمة كلّ وجودها وما تملك بمصلحة هذا الدين والمنادي بالحقّ والإيمان محمّد بن عبد الله(صلي الله عليه وآله).

وما أعظم ما وُصِفَتْ به السيّدة خديجة(عليها السلام) علي لسان الحقّ؛ لسان رسول الله(صلي الله عليه وآله): «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد»(3).

وعاء الكوثر

كان من خصائص السيّدة خديجة(عليها السلام) إنجاب ذرية النبي(صلي الله عليه وآله)، كما نوّه النبي(صلي الله عليه وآله) مفتخراً بذلك: «ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء»؛ إذ لم يلد من نساء النبي التسع بعد

ص: 243

1- . بحار الأنوار: ج 18 ص 209.

2- . بحار الأنوار: ج 18 ص 210، وأخرجه النسائي في صحيحه والبيهقي في دلائل النبوة.

3- . صحيح البخاري: رقم 3411 في كتاب الأنبياء، و مسلم رقم 2431 في فضائل الصحابة.

فقد تحوّلت السيّدة خديجة إلي وعاء للخير والبركة، وشجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها بفضل ولادتها لفاطمة الزهراء التي بارك الله تعالى فيها وفي نسلها الطيّب، فكانت الذرّيّة المحمّدية المباركة كلّها منها: قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): «إنّ الله جعل ذرّيّة كلّ نبي من صلبه، وأنّ الله عزّ وعلا جعل ذرّيّة محمّد من صلب علي بن أبي طالب»⁽¹⁾.

فعلي اليقين أنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) قد أولد خديجة (عليها السلام): القاسم، وبه يُكّني رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وعبدالله، ويُسمّي الطيّب والطاهر؛ لولادته بعد البعثة المباركة، وفاطمة الزهراء.

وقد توفّي القاسم وعبدالله في طفولتهما، ولم يبقَ لرسول الله (صلي الله عليه وآله) علي قيد الحياة غير فاطمة التي زوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله) ابن عمّه علي بن أبي طالب فيما بعد، فأنجبت ذرّيّة رسول الله (صلي الله عليه وآله)، كما أفاد

الحديث النبوي الشريف الذي ذكرناه آنفاً. وأمّا إبراهيم ابن النبي (صلي الله عليه وآله) من مارية القبطية، فقد توفّي هو الآخر صغيراً.

ويبدو من خلال الآثار الواردة عن النبي (صلي الله عليه وآله) أنّه كان يعدّ إنجاب «ذرّيته» من أهمّ خصائص السيّدة خديجة (عليها السلام) التي امتازت بها دون سواها، والرسول إنّما يقصد بذلك «فاطمة» دون سواها، وإلا فإنّ كافة ولده الآخرين قد قَصّوا صغاراً.

وقد كانت السيّدة خديجة (عليها السلام) قد شعرت بالأسى لفقد ولديها تباعاً: القاسم ثمّ عبدالله، فسألاها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وأخبرها أنّها ستجدهما علي باب الجنّة ينتظرانها، فيأخذان بيدها فيدخلانها الجنّة.

ص: 244

1- . أخرج بهذا السند العلّامة القندوزي في ينابيع المودة: ص 266، والحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: ص 9 ح 272، وابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: ص 74، والسيوطي في الجامع الصغير: ج 1 ص 230. و صدر الحديث: «كنت أنا والعبّاس جالسين عند النبي إذ دخل علي فسلمّ فردّ عليه النبي السلام وقام إليه وعانقه وقبّل ما بين عينيه وأجلسه عن يمينه، فقال العبّاس: يا رسول الله، أتحبّه؟ فقال: يا عمّ والله أشدّ حبّاً له منّي، إنّ الله جعل ذرّيّة كلّ نبي في صلبه، وجعل ذرّيّتي في صلب هذا...»، وأخرج الخطيب في تاريخه: ج 1 ص 316 بالإسناد عن ابن عبّاس، قال: «كنت أنا وأبي العبّاس جالسين عند رسول الله، وساق مثله. هكذا أخرج المحبّ الطبري في ذخائر العقبي: ص 67، والرياض النضرة: ج 2 ص 168، والذهبي في ميزان الاعتدال: ج 2 ص 119، وابن حجر في لسان الميزان: ج 2 ص 429، والعلّامة الزرقاني في شرح المواهب: ج 2 ص 6، وابن المغازلي الشافعي في مناقبه: ص 49.

فعلن الإمام محمّد بن علي الباقر، قال: «دخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) علي خديجة حيث مات القاسم ابنها وهي تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: درّت دُريرة فبكيك، فقال: يا خديجة، أما ترصين إذا كان يوم القيامة أن تجيئي إلي باب الجنة وهو قائم فيأخذ بيدك فيدخلك الجنة وينزلك أفضلها؟ وذلك لكلّ مؤمن، أنّ الله أحكم وأكرم أن يسلب المؤمن ثمرة فؤاده ثمّ يعذبها بعدها أبداً» (1).

هذا، وقد ورد هذا الأثر بصيغتين: مرّة عند وفاة القاسم، ومرّة بعد وفاة عبد الله، ويمكن أن تصحّ الروايتان، إذ يمكن أن يتكرّر حديث النبي (صلي الله عليه وآله) للسيدة خديجة (عليها السلام) بتكرّر الحادث.

إلا أنّ الله قد عوض رسول الله (صلي الله عليه وآله) والسيدة خديجة (عليها السلام) بفاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين، فكانت ذرية النبي (صلي الله عليه وآله) كلّها منها ومن علي ابن عمّه .

بيد أنّ الراجح أنّ أكثر ما تسبّب في إيذاء السيدة خديجة (عليها السلام) بعد افتقار

القاسم وعبد الله عليهما الرحمة والرضوان؛ أنّ المشركين قد اتّخذوا منها ذريعة لوخز رسول الله (صلي الله عليه وآله) وإيذائه، حيث تذكر الروايات الصحيحة أنّ سفهاء القوم رأوا رسول الله (صلي الله عليه وآله) وقد أقبل تَوّاً من دفن أحد ولديه المذكورين، فقالوا عنه: إنّه أبتّر.

«أخرج ابن سعد وابن عساکر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس، قال: كان أكبر ولد رسول الله (صلي الله عليه وآله) القاسم... ثمّ عبد الله... ثمّ فاطمة، فمات القاسم، وهو أول ميّت من ولده بمكّة، ثمّ مات عبد الله، فقال العاص ابن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتّر، فأنزل الله: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ).

ص: 245

وفيه أخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه، قال: «توفي القاسم ابن رسول الله بمكة، فمرّ رسول الله (صلي الله عليه و آله) وهو آتٍ من جنازته علي العاص بن وائل وابنه عمرو، فقال حين رأى رسول الله (صلي الله عليه و آله): إني لأشنؤه، فقال العاص بن وائل: لا جرم لقد أصبح أبتر، فأنزل الله: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)».

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي، قال: «كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل: بتر فلان، فلما مات ولد النبي (صلي الله عليه و آله) قال العاص بن وائل: بتر» (1).

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي، قال: «كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل: بتر فلان، فلما مات ولد النبي (صلي الله عليه و آله) قال العاص بن وائل: بتر محمد، فنزلت. وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علي، وسمي الولد القاسم، وأخرج عن مجاهد، قال: نزلت في العاص بن وائل؛ وذلك أنه قال: أنا شاني محمد» (2).

وحيث إن الأبتر في لغة العرب تُطلق أساساً علي من لا عقب له، فقد أدرك النبي (صلي الله عليه و آله) المقصود الدنيء الذي يرمي إليه سفهاء قريش.

فتلك إشاعة لها صداها ووقعها الشديد في المجتمع العربي البدوي الذي يتكاثر بالذرية، والذكور منها علي وجه الخصوص.

كما يتضح من قواميس اللغة العربية، وكما أورد الراغب الأصبهاني في المفردات، قال: «البتير يُستعمل في قطع الذنب، ثم أُجري قطع العقب مجراه، فقليل: فلان أبتر إذا لم يكن له عقب يخلفه... وقوله: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)؛ أي المقطوع الذكر، وذلك أنهم زعموا أن محمداً ينقطع ذكره إذا انقطع عمره؛ لفقدان نسله» (3).

ومن أجل ذلك، فإن الله سلّي نبيّه وخديجة (عليها السلام) وكشف السرّ المكنون الذي أعدّه الله لهما، حيث نزلت سورة الكوثر المباركة، لتمسح علي قلب رسول الله (صلي الله عليه و آله) بالروح والندي، وتقرّر حقيقة الخير الباقي الممتدّ الذي اختاره الله للنبي وخديجة، وحقيقة الانقطاع والبتير المقدر لأعدائه من مشركي قريش وأمثالهم: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)، وبدلالة الأبتر وبدلالة سبب النزول الذي أورده المفسّرون والمؤرّخون وأصحاب السنن، فإن «الكوثر» هو الذرية التي وهبها الله لمحمد (صلي الله عليه و آله) وخديجة (عليها السلام) من خلال ما حباهما بعلي وفاطمة،

ص: 246

1- . تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي: ج 20 ص 372.

2- . تفسير الجلالين للعلامة جلال الدين السيوطي (تفسير سورة الكوثر).

3- . المفردات في غريب القرآن (كتاب الباء): ص 36.

حيث كانا سبباً في امتداد ذرية رسول الله (صلي الله عليه وآله) وانتشارها واتساع بركاتها في الأرض.

وكلّ معني آخر للكوثر - سواء أكان قد ورد في أثر أو حديث صحيح أو احتمله المفسّرون - فإنّه من مصاديق الكوثر الذي أُعطي لرسول الله (صلي الله عليه وآله) في الدنيا والآخرة.

وقد أحسن عبد الله بن عباس في تعليقه علي من يكتفي باعتبار الكوثر نهراً في الجنة، بقوله: «هو كوثر من الكوثر»⁽¹⁾؛ إذ يكون الكوثر كنهر في الجنة إحدى مفردات الخير الكثير الذي حباه الله سبحانه وتعالى رسوله العظيم، وإلا فإنّ أعظم خير وأوسع وأنفعه للإنسانية بامتدادها التاريخي، هي الذرية المباركة التي وهبها الله لمحمّد (صلي الله عليه وآله) بواسطة الزهراء بنت رسول الله وخديجة .

خصوصيات ميلاد الزهراء

كانت فاطمة بنت رسول الله (صلي الله عليه وآله) آخر من ولدتها خديجة ، حيث ولدت علي الأرجح في السنة الخامسة من البعثة⁽²⁾، وتوفيت عنها والدتها وعمرها حوالي خمس سنوات.

ولقد كانت ولادة الزهراء قد شهدت حالات وأوضاعاً غير عادية، بعضها يتعلّق بالظروف الغيبية التي ألمّت بتكوين نطفة فاطمة (عليها السلام)، والإمداد الغيبي الذي شمل السيّدة خديجة عند ولادتها لفاطمة (عليها السلام) كما يتّضح، إضافة إلى الظروف الموضوعية التي ألمّت ببيت النبي (صلي الله عليه وآله) في تلك المرحلة، حيث الهجوم المركّز علي الرسول ودعوته من سفهاء قريش وحلفائها.

فبصدّد تكوين نطفة فاطمة (عليها السلام) وخصوصياتها وردت مجموعة قيّمة من الأحاديث والآثار تؤكّد أنّ لنطفة فاطمة (عليها السلام) علاقة بالجنة وثمارها.

وقد رويت تلك الأحاديث عن النبي (صلي الله عليه وآله) بواسطة جابر بن عبد الله الأنصاري والإمام أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عن آبائه، والإمام محمّد بن علي الباقر والإمام علي بن

ص: 247

1- . الدرّ المنثور للسيوطي (تفسير سورة الكوثر).

2- . أصول الكافي: ج 1.

موسي الرضا عن آبائه، وعن ابن عباس، وعائشة بنت أبي بكر وغيرهم(1).

وكنموذج لهذه الروايات نذكر ما ذكره الإمام أبو عبد الله الصادق بهذا الصدق: «كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يُكثر تقبيل فاطمة (عليها السلام)، فأنكرت عائشة، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): يا عائشة، إنِّي لَمَّا أُسري بي إلي السماء، دخلتُ الجنة، فأدنانني جبرئيل من شجرة طوبي وناولني من ثمارها، فأكلته فحوّل الله ذلك ماءً في ظهري، فلَمَّا هبطتُ إلي الأرض واقعتُ خديجة فحملت فاطمة، فما قبلتها قطّ إلا وجدتُ رائحة شجرة طوبي فيها»(2).

وبعد أن حملت السيّدة خديجة (عليها السلام) بالزهراء وحن وقت ولادتها، كانت يومها تعاني من مقاطعة نساء قريش بشكل مطلق، حيث اتخذت نساء المشركين قراراً بمقاطعة السيّدة خديجة (عليها السلام) حتّى بمجرد السلام عليها ودخول دارها.

وحيث لا بدّ للمرأة أثناء ولادتها من امرأة تلي منها ما تلي النساء من النساء أثناء الولادة، فإنّ خديجة (عليها السلام) قد استبدّت بها الأسي لهذه الحالة المقيتة، واغتمت كثيراً، وتوجّهت إلي الله بقلب مؤمل لرحمة الله تعالي وعونه. وهكذا جاء المدد الربّاني، حيث انتدب لها نساء من خارج عالم الشهادة.

وقد تحدّث الإمام أبو عبد الله الصادق حول ذلك الموضوع حديثاً مفصلاً، تقتطف منه الفقرات التالية: «عن المفضّل بن عمر(3)، قال: قلتُ لأبي عبد الله الصادق: كيف

ص: 248

1- . انظر: بحار الأنوار: ج 43 ص 4 - 6، حيث نقل الأحاديث عن أمالي الصدوق وعلل الشرائع له أيضاً، وتفسير علي بن إبراهيم ومعاني الأخبار، هذا وقد ثبت بعض الأحاديث المرحوم عبد الرزاق المقرم الموسوي في كتابه وفاة فاطمة: ص 60.
2- . بحار الأنوار: ج 34 ص 6. وهناك مجموعة كبيرة من مصادر المسلمين تؤكّد أنّ فاطمة: انعقدت نطفتها من ثمر من الجنة جاء به جبرئيل للنبي، راجع المصادر التالية: ذخائر العقبي للمحبّ الطبري الشافعي مثله بألفاظ مختلفة: ص 36، وتاريخ الخميس: ج 1 ص 277، و المواهب اللدنية: ج 1 ص 198، و الحاكم في المستدرک، و أمالي الصدوق، و عيون أخبار الرضا، و علل الشرائع، و الاحتجاج، و لسان الميزان، و اللآلي المصنوعة، و المناقب لابن المغازلي، وغيرهم.

3- . المفضّل بن عمر الجعفي. ترجمة المفضّل بن عمر الجعفي الكوفي رضوان الله عليه كما ذكرها العلماء الأبرار: قال الشيخ المفيد في إرشاده: «هو من شيوخ أصحاب أبي عبد الله و خاصة ته و بطانته، وثقاة الفقهاء الصالحين 4». $\tilde{N} \emptyset$ و قال الشيخ إبراهيم الكفعمي: «باب الإمام في العلوم والأسرار». و قال السيّد المحقّق صدر الدين العاملي حول المفضّل 2: «... رجلاً عظيماً كثير العلم ذكيّ الحسّ، أهلاً لتحمل الأسرار الرفيعة، و الرجل عندي من عظم الشأن و جلاله القدر بمكان». و قال المامقاني 2 في تنقيح المقال ما يشبه ذلك في حديث عن الإمام الصادق . وقال الشيخ الطوسي في الغيبة: «إن المفضّل من قوّام الأئمّة، وكان محموداً عندهم محبوباً لديهم، ثمّ إنّه كان من وكلائهم الذين مضوا علي مناهجهم». هذه بعض الأقوال التي تؤكّد علي جلاله المفضّل بن عمر الجعفي، و هو غير المفضّل العجلي المغالي الخطّابي المعروف.

كانت ولادة فاطمة(عليها السلام)؟ فقال: نعم، إنّ خديجة(عليها السلام) لمّا تزوّج بها رسول الله(صلي الله عليه وآله) هجرتها نسوة مكّة، فكّنّ لا يدخلن عليها ولا يسلمن عليها ولا يتركن امرأةً تدخل عليها، فاستوحشت خديجة لذلك، وكان جزعها وغمّها حذراً عليه صلّي الله عليه وآله، فلمّا حملت فاطمة... فلم تزل خديجة(عليها السلام) علي ذلك إلي أن حضرت ولادتها، فوجّهت إلي نساء قريش وبني هاشم أن تعالين لتلين منّي ما تلي النساء من النساء، فأرسلن إليها: أنت عصيتنا فلسنا نجية ولا نلي من أمرك شيئاً، فاغتمت خديجة(عليها السلام) لذلك، فبينما هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة سمر طوال كأنهن من نساء بني هاشم، ففزعت منهنّ لمّا رأتهنّ، فقالت إحداهنّ: لا تحزني يا خديجة، فإنّا رسل ربك، ونحن أخواتك؛ أنا سارة، وهذه آسية بنت مزاحم وهي رفيقتك في الجنّة، وهذه مريم بنت عمران، وهذه كلثم أخت موسى بن عمران، بعثنا الله إليك لنلي منك ما تلي النساء من النساء. فجلست واحدة عن يمينها، وأخري عن يسارها، والثالثة بين يديها، والرابعة من خلفها، فوضعت فاطمة(عليها السلام) طاهرة مطهّرة»(1).

وهكذا ولدت سيّدة نساء العالمين فاطمة بنت محمّد(صلي الله عليه وآله) في

تلك الظروف القاهرة التي تذيب القلوب القاسية، إلا أنّ رحمة الله وعنايته الخاصّة بأهل هذا البيت المبارك، حطّم حاجز الألم والعزلة الذي فرضته قريش علي آل محمّد(صلي الله عليه وآله).

وهكذا ولدت فاطمة البتول(عليها السلام) لتكون محوراً للكوثر الذي اختصّ به محمّد(صلي الله عليه وآله) من دون سائر العباد، وامتداداً لسيّد الخلق في هذا الوجود.

ص: 249

1- . أمالي الصدوق: ص 87 ح 475، ورواه الشيخ المجلسي في بحار الأنوار: ص 43 ح 2.

كان أهم شيء يشغل السيّدة خديجة (عليها السلام) ويؤرّقها هو: إشفاقها علي نبي الله أن يناله سوء من قريش التي أكتبت علي منابذته، وصعدت من وتيرة عدائها للرسول ودعوته، لا سيّما وهي تشهد ألوان التآمر والكيد القرشي للنيل من رسول الله (صلي الله عليه وآله). ولقد كان أبو طالب يشاركها هذه المخاوف، فيعمل وسعه لحماية النبي (صلي الله عليه وآله) من مكائد الأعداء.

ولقد اشتدت تلك المخاوف أيام الحصار يوم استكلبت قريش وحلفاؤها، وتعاهدوا علي تدمير قوّة المسلمين وحلفائهم من خلال الحرب الاقتصادية والاجتماعية. ففي تلك الأيام أيام الحصار في شعب أبي طالب، كان أبو طالب مؤمن قريش الذي كان يكتنم إيمانه لظروف خاصّة بالدعوة والرسالة، يخشي علي النبي (صلي الله عليه وآله) الغيلة، فإذا جنّ الليل وأخذ الناس مضاجعهم ونام رسول الله (صلي الله عليه وآله) علي فراشه حتّي يري أهل الشّعب ذلك وناموا، جاء أبو طالب وأقام النبي (صلي الله عليه وآله) من فراشه ونقله إلي فراشٍ آخر، ثمّ أضجع عليّاً ولده مكانه (1)، الأمر الذي يكشف عن عمق المخاوف التي كانت تعترّي أهل البيت: من تعرّض النبي (صلي الله عليه وآله) إلي مكروه من أعدائه.

ولقد كانت السيّدة خديجة (عليها السلام) من أكثر الناس حرصاً علي رسول الله (صلي الله عليه وآله) كزوجة وكمؤمنة امتحن الله قلبها للإيمان، فاستوعبت مهمّة النبي (صلي الله عليه وآله)، وأدركت دوره العظيم في هذا الوجود.

صحيح أنّ قلب السيّدة خديجة (عليها السلام) كان مطمئنّاً بالتسليم لله ومشيبته المطلقة في الكون، إلا أنّ مخاوفها كانت واقعية، حيث كانت تخشي أن يُنال رسول الله (صلي الله عليه وآله) بأذيٍّ من عدوّه.

فكم من مرّة كانت السيّدة خديجة تشهد ما يتعرّض له النبي (صلي الله عليه وآله) من عدوان وإساءة، فقد أدمي أبو لهب قدميه وعرقوبيه بالحجارة الحادة، وكم من مرّة تعرّض رسول الله

ص: 250

1- . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج 13 ص 256، الغدير للشيخ الأميني: ج 7 ص 357 - 358، سيرة المصطفى لهاشم معروف الحسني: ص 202.

لإلقاء القدر والنتن علي جسمه الشريف من قبل أعدائه.

وكم من مرّة هدّوه بالقتل، حتّى أنّهم عرضوا علي أبي طالب أن يعطوه أجمل شباب قريش علي أن يسلمهم محمّداً بديلاً، فسخر منهم أبو طالب وطردهم شرّ طردة.

إنّ هذه الأمور وسواها تُقلق السيّدة خديجة حقّاً وعموم أهل البيت:، ومع هذا القلق الذي كانت السيّدة خديجة (عليها السلام) تعيشه، كان هناك الجوع والفاقة ونقص التغذية التي بدأت تفعل فعلها في كيان السيّدة خديجة (عليها السلام) المتعب المكدود. وهكذا استبدّ الوهن بأُمّ المؤمنين وسيّدة النساء، وأخذت تنهاوي أمام المرض وسوء التغذية.

وها هي شريكة حياة محمّد (صلي الله عليه وآله) طوال خمس وعشرين سنة ينتهبها السقم، وهي تستسلم للموت، بعد أن عاشت مع النبي (صلي الله عليه وآله) محنته بكلّ تفاصيلها، وقدمت كلّ ما تملك من مال وصحّة في سبيل الله تعالى.

فبأيّ قلب يواجه المصطفى هذه المأساة المؤلمة التي ترامت مع الشدّة وقلة الناصر وتكالب الأعداء؟

لقد كان النبي - وهو صاحب القلب العطوف - إلي جانبها وهي تجود بنفسها وتودع حبيبها الرسول وتوصيه بقيّة الصفوة فاطمة (عليها السلام). لقد كان يؤذيها فراق محمّد وزهرائه وهما في هذه المحنة العصبية.

لقد ودّعها رسول الله (صلي الله عليه وآله) بكلّ قلبه، ودّع فيها الأُمّ الحنون والزوجة البارة والشريك الصادق الحبيب. لقد ودّع بوداعها الدنيا بكلّ ما فيها من هناء وصفاء.

وفي هذه اللحظات الحزينة أو مأت السيّدة خديجة (عليها السلام) لرسول الله (صلي الله عليه وآله)، وشكت إليه شدّة كرب الموت، فبكي ودعا لها بالروح والفرج، ثمّ قال لها: «أقدمي خير مقدم يا خديجة، أسلمتك يا خديجة علي كره منّي، قد جعل الله للمؤمنين بالكره خيراً كثيراً»⁽¹⁾.

ثمّ عدّد لها رسول الله (صلي الله عليه وآله) من ستجد من أخواتها، أمثال: حواء، سارة، كلثم (أخت

ص: 251

1- . مقتل الحسين للخوارزمي (فضائل خديجة).

موسي بن عمران)، آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران.

وبعد هذه الكلمات النبوية أسلمت السيدة خديجة (عليها السلام) روحها إلي باربيها، فبكاها رسول الله (صلي الله عليه وآله) كثيراً؛ لقد ودّع فيها العون والسند والزوجة الصالحة والأم الرؤوم.

لقد فارق من صدّقه يوم كذّبه الناس، وفارق من أيّدته يوم حاربه الناس، وفارق من أعطته يوم حرّمه الناس، وفارق من كانت وعاءً للكوث الذي وهبه الله إيّاه.

لقد توفيت السيدة خديجة (عليها السلام) في شهر رمضان من السنة العاشرة من البعثة، وذلك بعد خروج بني هاشم من الشعب بيسير. ودفنها رسول الله (صلي الله عليه وآله) في الحجون، ونزل في قبرها صلوات الله عليه وسلامه؛ إكراماً لها ووفاء، ولكي يمتلي قبرها نوراً إلي نور ببركته ومكانته العظيمة عند الله .

لقد تزامنت وفاة السيدة خديجة مع وفاة حامي الرسالة وسندها الأكبر أبي طالب، حيث توفي قبلها بثلاثة أيّام أو يزيد، علي اختلاف في الروايات .

ولقد حلّت بوفاتها (عليها السلام) مصيبة كبرى علي قلب رسول الله (صلي الله عليه وآله) والجماعة المؤمنة، وتستطيع أن تقدّر حجم المأساة التي حلّت علي قلب النبي العظيم من خلال وصفه لهذه الحادثة الأليمة، حيث وصفها بقوله: «اجتمعت علي هذه الأمة مصيبتان لا أدري بأيّهما أنا أشدّ جزعاً»⁽¹⁾.

ولقد دعا العام الذي حدث فيه المصيبتان وهو العام العاشر من البعثة ب- «عام الحزن»، فقد صار هذا العام عام حداد ومصيبة لعموم المؤمنين فضلاً عن رسول الله (صلي الله عليه وآله). ولعمق الفراغ الذي خلّفته السيدة خديجة أم المؤمنين الكبرى في حياة رسول الله (صلي الله عليه وآله) الخاصّة والعامة، ظلّ طوال حياته الشريفة يذكرها ويثني عليها، ويكرم كلّ من له علاقة بها من النساء.

وبقي رسول الله (صلي الله عليه وآله) يعدّد فضائلها في مناسبة وأخري، حتّي امتلأت بعض نساءه منها غيراً وحسداً، رغم أنّها لم تدركها كما أشرنا. لقد كانت السيدة خديجة (عليها السلام) لرسول الله (صلي الله عليه وآله)

ص: 252

سنداً «بما توليه من حبّها وبرّها، ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها... خديجة التي كانت تهوّن عليه كلّ شدة، والتي كانت ملك رحمة يري في عينيها، وعلي ثغرها

من معاني الإيمان به ما يزيده إيماناً بنفسه»(1).

ومع الفراغ الذي تركته السيّدة خديجة(عليها السلام) في حياة النبي(صلي الله عليه وآله)، كانت هناك مشكلة أُخري ألمّت بالنبي(صلي الله عليه وآله)، وهي مشكلة الفراغ الذي تعاني منه فاطمة(عليها السلام) بسبب فقدانها أمّها الرؤوم، فما أن رزنت فاطمة(عليها السلام) بفراق أمّها إلا وشعرت وطأة المأساة والألم لفقدانها ينبوع الحبّ والحنان الدافئ، ففاض حزنها دمعاً غزيراً، وحسرة لا تنطفئ.

وكان رسول الله(صلي الله عليه وآله) يري دموع الزهراء تسيل علي خديجة لفراق أمّها العزيرة، وهي تتعلّق به وتقول: «أبي أبي، أين أمّي أين أمّي؟» ممّا يزيده أسىً وألماً.

وقد بذل المصطفي وسعه من أجل أن يسدّ الفراغ الذي تركته السيّدة خديجة(عليها السلام) في حياة فاطمة(عليها السلام)، فغمرها بحبّه وحنانه فوق ما كان يفعل أيام أمّها، فما كان من فاطمة(عليها السلام) وهي ينبوع الحكمة والوعي والإدراك، إلا وتبادل أباهما نفس المشاعر والمودة والحنان، فتملأ حياته حبّاً ورعايةً، حتّى أطلق عليها: «أمّ أبيها»(2).

وهكذا رحلت السيّدة خديجة الكبرى إلي ربّها الأعلّي شهيدة صابرة محتسبة.

ثناء أهل العلم علي السيّدة خديجة(عليها السلام)

حظيت السيّدة خديجة أمّ المؤمنين(عليها السلام) بالمزيد من الثناء والتكريم منذ بداية حياتها المباركة حتّى اليوم. ولقد لاحظنا جملة من صور الثناء الذي اختصّت به من قبل الله والرسول الأكرم في الصفحات السابقة.

أمّا رجال العلم والمؤرّخون والمفكّرون، فقد أحلّوا السيّدة خديجة(عليها

السلام) محلاً رفيعاً في كتاباتهم ودراساتهم عنها، وما ذكرها أحد إلا وأشاد بذكرها الطيب ومواقفها الكريمة.

وهذه مقتطفات من أقوال بعض رجال العلم والمعرفة نضعها بين أيدي القراء

ص: 253

1- . حياة محمّد لمحمّد حسين هيكل: ص 150.

2- . مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج 3 ص 320.

الكرام؛ ليزدادوا بصيرةً بمكانة هذه المرأة الجليلة:

1. يقول الشيخ العلامة عزّ الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمّد الشيباني المعروف بابن الأثير: «وكانت خديجة امرأة حازمة عاقلة شريفة، مع ما أَرادَه اللهُ من كرامتها، فأرسلت إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) فعرضت عليه نفسها، وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأكثرهنّ مالاً وشرفاً، وكلّ قومها كان حريصاً علي ذلك منها لو يقدر عليه»(1).

2. ويقول أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء عن السيّد خديجة ما يلي: «وكانت خديجة تُدعي في الجاهلية: الطاهرة»(2).

3. ويقول مؤرّخ السيرة النبوية الشهير محمّد بن إسحاق عنها ما يلي: «كانت خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدّقت بما جاء من الله، وأزرتَه علي أمره، فحخّف اللهُ بذلك عن رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيبٍ له فيُحزنه ذلك، إلّا فرّج اللهُ ذلك عن رسول الله (صلي الله عليه وآله) بها، إذا رجع إليها تثبته وتخفّف عنه وتهوّن عليه أمر الناس، حتّى ماتت رحمها الله»(3).

4. ويقول العلامة ابن الجوزي شمس الدين أبو المظفر يوسف البغدادي الحنفي نقلاً عن هشام بن محمّد ما يلي: «كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يودّها ويحترمها ويشاورها في أموره كلّها، وكانت وزير صدقٍ، وهي أوّل امرأة آمنت به، ولم

يتزوّج في حياتها أحداً، وجميع أولاده منها، إلّا إبراهيم من مارية»(4).

5. ويقول الأستاذ الباحث محمّد حسين هيكل حول أمّ المؤمنين السيّد خديجة (عليها السلام) ما يلي: «خديجة التي كانت سند محمّد بما توليه من حبّها وبرّها ومن رقة نفسها وطهاره قلبها وقوة إيمانها، خديجة التي كانت تهوّن عليه كلّ شدة، وتزيل من نفسه كلّ خشية، والتي كانت ملكّ رحمة يري في عينيها وعلي ثغرها من معاني الإيمان به ما

ص: 254

1- . الكامل في التاريخ لابن الأثير: ج2 ص39 40.

2- . مقتل الحسين للخوارزمي: ص31.

3- . كشف الغمّة في معرفة الأنمّة: ج2 ص132.

4- . تذكرة الخواصّ: ص272.

يزيده إيماناً بنفسه»(1).

6. ويقول المفكّر الأستاذ سعيد حوّي ما يلي: «كان رسول الله(صلي الله عليه وآله) يحفظ لخديجة ذكراها بشكل منقطع النظير، فهو آية الوفاء في دنيا المروءة، وكان من وفائه لها أنّه يبرّ كلّ امرأة كانت لها صلة بخديجة، وأنّه كان يذكرها بكلّ خير، حتّى أنّ عائشة لم تُغَر من امرأة كما غارت من خديجة وهي متوفّاة»(2).

7. ويقول الحافظ عبد العزيز الجنازدي الحنبلي في كتابه معالم العترة النبوية: «كانت خديجة(عليها السلام) امرأة حازمة لبيبة شريفة، وهي يومئذٍ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكلّ قومها قد كان حريصاً عليّ تزويجها، فأبت وعرضت نفسها عليّ النبي(صلي الله عليه وآله)، وقالت: يا ابن عمّ إني رغبت فيك؛ لقربتك منّي، وشرفك في قومك، وأمانتك عندهم، وحسن خلقك، وصدق حديثك»(3).

8. يقول العلامة السيّد عبد الحسين شرف الدين: «صديقة هذه الأمة، وأولها إيماناً بالله وتصديقاً بكتابه ومواساةً لرسول الله(صلي الله عليه وآله)... انفردت برسول

الله(صلي الله عليه وآله) خمساً وعشرين سنة لم تشاركها فيه امرأة ثانية، ولو بقيت ما شاركتها فيه أُخري، وكانت شريكته في محنته طيلة أيّامها معه، تقوّيه بمالها، وتدافع عنه بكلّ ما لديها من قول وفعل، وتعزّيه بما يفاجئه به الكفّار في سبيل الرسالة وأدائها، وكانت هي وعليّ معه في غار حراء إذ نزل عليه الوحي أوّل مرّة»(4).

9. يقول عبد الله العلايلي: «كانت تستقبل آلام الكفاح الذي خاضه قرينها النبي، وخاصته معه عاملة ماضية، وصابرة محتسبة، لا ينبض عندها عرق بلين أو تخوّف، بل تقطع قناطر الدموع والخطوب المثغولة في بسمة كبرياء، لم يعهد مثلها إلاّ بعض نفر من صانعي التاريخ، بصدرها الرحب كانت تستقبل العاصفة وشظاياها المشتعلة، لا

ص: 255

1- . حياة محمّد لمحمّد حسين هيكل: ص 150.

2- . الرسول: ص 167.

3- . الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة لابن الصّبّاغ المالكي: ص 133.

4- . عقيلة الوحي: ص 30.

ليكون في حَسِّها ذلك الرجوع المدمر أو ذاك الواقع الصاعق»(1).

وفي الختام

هذه هي خديجة بنت خويلد زوج رسول الله (صلي الله عليه وآله)، في عَفَّتْها وطهرها وسابقتها لتلبية نداء الدعوة الإلهية، ووفائها بالعهد رغم ضروب المعاناة المادية والنفسية التي صُبت عليها منذ صدع المصطفى المختار بدعوته.

لقد قوطعت هذه المرأة من نساء قريش، فلم تستوحش في طريق الحق، ولم تُنل قناتها ولم تضعف أمام الحصار والمقاطعة.

ولقد وجدت الدعوة الإلهية في مسيس الحاجة يوم تحجرت مكة في وجهها، ومنع عنها المشركون أيّ رفق وعون لها، فوضعت خديجة كلّ أموالها وهي كثيرة جداً في حسابات ذلك العصر تحت تصرف رسول الله (صلي الله عليه وآله) ودعوة الحق، وركلت اخضرار العيش برجلها، وتناست كلّ ما كانت عليه من ثراء وترف وإمكانات، وضحت

بكلّ ذلك في سبيل الله؛ التماساً لنصرة الحق، وطلباً للرضوان وتوسلاً لتحقيق أهداف النبي (صلي الله عليه وآله).

إنّ هذه الدروس النابضة بالحياة تدعو الرجال والنساء من هذه الأمة أن يتدبروا في هذه السيرة الخصبّة المعطاء، ويتعلّموا منها وينهلوا من نعيمها الذي لا ينضب.

إنّها مدرسة في الكفاح الصادق الدؤوب، ومدرسة للصمود والمقاومة والتحدّي، ومدرسة للوفاء والإيمان والطاعة.

فسلامٌ علي خديجة بنت خويلد في الخالدين، وسلامٌ عليها في المجاهدين، وسلامٌ عليها قدوةً لنساء الأمة عبر القرون والأجيال.

ص: 256

1. الكامل في التاريخ، علي بن محمّد الشيباني الموصلي (ت630هـ)، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ .
2. الاحتجاج علي أهل اللجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت620هـ) تحقيق: إبراهيم البهاري ومحمّد هادي به، طهران: دار الأسوة، الطبعة الأولى، 1413هـ .
3. الاستغاثة، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت352هـ)، طهران: مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأولى، 1373ش.
4. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عزّالدين علي بن أبي الكرم محمّد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجَزَري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
5. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن الحجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
6. أصول الكافي، أبو جعفر ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت328هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري محمّد الآخوندي، بيروت و طهران: دار صعب ودار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة والخامسة.

الأمالى، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه، المعروف بالشيخ

1. الصدوق (ت381هـ)، تحقيق و نشر: مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، 1417هـ .

2. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار:، محمّد باقر بن محمّد تقي المجلسي (ت1110هـ)، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1412هـ .

3. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الحسين بن محمّد الديار بكري (معاصر)، بيروت: مؤسّسة شعبان.

4. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968 م.

5. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المعروف باليعقوبي (ت284هـ)، بيروت: دار صادر.

6. تذكرة الخواصّ (تذكرة خواصّ الأئمّة في خصائص الأئمّة:)، يوسف بن فرغلي بن عبد الله، المعروف بسبط ابن الجوزي (ت654هـ)، تقديم: السيّد محمّد صادق بحر العلوم، طهران: مكتبة نينوي الحديثة.

7. تفسير الجلالين، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)، جلال الدين محمّد بن أحمد المحليّ (ت791هـ)، مصر: دار الآفاق العربية، 2004م.

8. جنة المأوي، محمّد بن الحسين آل كاشف الغطاء (ت1954م)، بيروت: دار الأضواء، 1408هـ .

9. حياة محمّد، محمّد حسين هيكل (ت1956)، تعليق: عبدالرحيم الموسوي، قم: المجمع العالمي لأهل البيت، 1386.

10. خصائص الإمام أميرالمؤمنين ، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت303هـ)، تحقيق: محمّد هادي الأميني، طهران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، 1403هـ .

الدّر المنثور في التفسير المأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)،

1. تحقيق: دار الفكر، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1403هـ .

2. ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربي، أبو العباس أحمد بن محمّد الطبري (ت694هـ)، تحقيق: أكرم البوشي، جدّة: مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى، 1415هـ .

3. روضة الواعظين، محمّد بن الحسن بن علي الفتال النيسابوري (ت508هـ)، تحقيق: حسين الأعلمي، بيروت: مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأولى، 1406هـ.
4. السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ.
5. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفى، الطبعة الأولى، 1355هـ.
6. شرح صحيح مسلم للنووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت676هـ)، تحقيق: خليل الميس، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1407هـ.
7. شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن محمّد المعتزلي (ابن أبي الحديد) (ت656هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الثانية، 1387هـ.
8. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1410هـ.
9. العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسي (ت328هـ)، تحقيق: أحمد أمين أحمد الزين وإبراهيم الأبياري، بيروت: دار الأندلس، الطبعة الأولى، 1408هـ.
10. علل الشرائع. أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، النجف الأشرف: مكتبة الحيدرية، 1385هـ، النجف الأشرف: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1385هـ.
11. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، عبد الحسين بن أحمد الأميني (ت1390هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، 1387هـ.

الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي

1. (ت1104هـ)، تحقيق: محمّد بن محمّد الحسين القائيني، مؤسّسة معارف إسلامي إمام رضا، الطبعة الأولى، 1418هـ.
2. في ظلال القرآن، السيّد القطب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1391هـ.
3. كتاب من لا يحضره الفقيه، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ

(الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، 1404هـ .

4. كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، أبي الحسن علي بن عيسى الإبلي (ت693هـ)، بيروت: دار الأضواء، الطبعة الثانية، 1405هـ .

5. اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعية: عبدالرحمن السيوطي (ت911هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1417هـ .

6. لسان الميزان، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ابن حجر) (ت852هـ)، بيروت: مؤسسة الأعلمي، الطبعة الثالثة، 1406هـ .

7. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي (ت807هـ)، تحقيق: عبد الله محمد درويش، بيروت: دار الكتب العلمية، 1408هـ .

8. المستدرک علي الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411هـ .

9. معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1361ش.

10. المفردات في غريب القرآن، الراغب الإصفهاني (ت425هـ)، بيروت: دار العلم للشامية، 1412هـ .

مقتل الحسين، أبو المؤيد موقّ بن أحمد الخوارزمي (ت568)، تحقيق: الشيخ

1. محمد السماوي، قم: منشورات مكتبة المفيد.

2. مناقب آل أبي طالب (المناقب لابن شهر آشوب)، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ابن شهر آشوب) (ت588هـ) تحقيق: هاشم الرسولي المحلّاتي، قم: منشورات علامّة.

3. المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية، أحمد بن محمد القسطلاني (ت923)، تحقيق: صالح أحمد الشامي، بيروت: المكتب الإسلامي، 1412هـ .

4. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الأولى، 1382هـ .
5. الميزان في تفسير القرآن (تفسير الميزان)، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (1402هـ)، قم: منشورات جماعة المدرّسين، طبع: مؤسسة إسماعيليان، الطبعة الثانية، 1394هـ .
6. نهج البلاغة، ما اختاره أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي (الشريف الرضي) (ت406هـ)، تحقيق: صبحي صالح، قم: منشورات هجرت، الطبعة الأولى، 1395هـ .
7. ينابيع المودة لذوي القربي، سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت1294هـ)، تحقيق: سيّد علي جمال أشرف الحسيني، طهران: دار الأسوة، الطبعة الأولى، 1416هـ .

15- خديجة من تكون؟

إشارة

* خديجة من تكون؟ (1)

د. سلوي بالحاج صالح العايب

ملخص البحث:

تستقرئ كاتبة هذا البحث شخصية خديجة ودورها من خلال ثلاثة أبواب: نسبها القبلي، تجارتها، وتكوينها العقلي والعقائدي. وتبين ما كان لها من شرف ومنزلة بين أبناء قومها، وما كانت عليه من ثراء ووجاهة. وتحدثت في بداية البحث بالتفصيل عن نسب خديجة ومكانة قومها؛ فهي من بني أسد الذين كانوا من وجهاء مكة، وكان أبوها خويلد من من أصحاب الرئاسة والشرف فيها، كما كان خويلد من أكثر أبناء أسد ولداءً، وكان الولد في الحياة القبلية مصدرراً للجاه والشرف، وإلي ذلك كله كان سيّد بني أسد بن العزّي. وأمّا نسب خديجة من جهة الأمّ، فهي قرشية من قريش الظواهر. ويتناول هذا البحث كذلك ما كان يُروي حول زواجها من رجلين قبل النبي (صلي الله عليه وآله)، مبيّناً أنّ هذه الظاهرة كانت شائعة في ذلك المجتمع. ويشرح العوامل التي ساعدت خديجة لامتهان التجارة دون أن يثير ذلك أيّ إشكال في قومها وفي المجتمع المكيّ عامّة. وخديجة وإن لم تكن تتنقّل في البلدان والأسواق بنفسها، إلاّ أنّها هي التي كانت تشرف علي مصالحتها، فهي كانت صاحبة شخصية قوية وعلي دراية بأمرها، تعرف من تختار

ص: 263

ليتسوّق بتجارتها، ولم تكن ضحيّة لتلاعب بعض التجّار أو الوكلاء. وفي هذا الصدد قالت المصادر أنّها كانت حازمة ولبية وجلدة. ويخصّص البحث مساحة واسعة لشرح الظروف الفكرية والاعتقادية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع يومذاك، والأديان التي كانت تنتشر فيه. ومن خلال كلّ ما ذكر فإن، هذه العناصر تتيح لنا الاستنتاج بأنّ خديجة لم تكن كأبي امرأة عادية في قريش؛ فهي كانت علي الأقلّ امرأة ذات شخصية مستقلّة وقويّة ومتفرّسة، وهو ما سيكون له انعكاساته علي علاقتها بمحمّد وسلوكها معه.

هنالك ثلاثة عوامل لا يُمكن من دونها فهم شخصية خديجة ولا تحديد دورها في علاقتها بمحمّد، وهذه العوامل هي:

- نسبها القبلي.

- تجارتها.

- تكوينها العقلي والعقائدي.

1. خديجة شريفة بني أسد

يمثّل النسب لدي القبائل العربية التي كانت تعيش في مكّة أو في غير مكّة، مقوّمه من مقوّمات شخصيّة الفرد (1). والنسب هنا يعني انتساب الدم إلي هذه القبيلة أو تلك، ثمّ إلي هذا الفرع أو ذاك من هذه العشيرة، وأخيراً إلي هذه العائلة أو تلك من هذا الفرع بكلّ ما في ذلك من حالات رمزيّة تخصّ أمجاد القبيلة فالفرع فالعائلة. لذلك يحرص الفرد علي معرفة نسبه وعلي التباهي به؛ لأنّه يفصح عن مكانة معيّنة داخل ذلك المجتمع.

ولقد ظلّ تقليد النسب قوياً في المجتمع المكيّ، ممّا يعني قوّة التقليد القبلي أيضاً بالرغم من التطوّرات التي عرفها هذا المجتمع قبل ظهور الإسلام، إذ بدأت تشقّه انقسامات من طبيعة أُخري، طبقيّة تقابل بين أغنياء وفقراء، أسياد وعبيد، لكنّ هذه

الانقسامات لم تكن علي درجة من التطوّر تجعلها تطمس التقليد القبلي (2)، أو تطغي

ص: 264

1- . انظر: دراسة بشر فارس: Fares (bichr); L'honneur chez les arabes avant l'islam; pp. 81-87.

2- . يذهب مونغمري وات M.watt إلي فكرة مغايرة، وهي أنّ النزعة الفرديّة هي التي بدأت تبرز علي حساب النزعة القبليّة في المجتمع المكيّ قبيل الإسلام (محمّد في مكّة: ص 42 - 47).

عليه، فتوحّد المجتمع ضمن تركيبة واحدة يتحدّد موقع الفرد فيها حسب ثروته.

إنّ عمليّة الاستعباد مثلاً لا تتمّ من صلب القبيلة نفسها، أي أنّ أفراد القبيلة الواحدة لا يستعبدون بعضهم البعض، بل «يستوردون» عبيدهم من قبائل ومناطق أخرى، شراءً أو أسراً⁽¹⁾. فقد كان البشر جزءاً من الغنيمة التي توزّع عقب الغزوات والحروب.

ومما لا شكّ فيه أيضاً أنّ الثراء في صلب المجتمع المكيّ، أفرز أرسقراطية قرشية من طبيعة تجارية بحكم كون التجارة أهمّ الأنشطة الاقتصادية في مكة⁽²⁾. ومكّن هذا الثراء من بروز قبائل علي حساب أخرى، وعائلات في صلب القبيلة نفسها علي حساب أخرى، وهو ما أهلها للسيطرة والنفوذ، سواء علي مستوي القبيلة أو علي مستوي مجموع القبائل، كما أفسح هذا التطوّر المجال لنموّ موقع الفرد ضمن العلاقات الاجتماعية القائمة.

لكنّ ذلك الثراء لم يكن من نتائجه تخلّي صاحبه عن قبيلته وتعويض «العصية القبلية» إن شئنا ب- «عصية طبقية»، «أخوة الثروة» بدل «أخوة الدم» بشكل واضح وحاسم، بل إنّ الثريّ عادة ما يبقى الناطق باسم القبيلة يستمدّ منها قوته وتستمدّ منه عزّتها ومجدها، لذلك كان الثراء يتقاطع أو يتحدّ إن شئنا مع النسب، ولا يتعارض أو يتنافر معه، دون أن يعني ذلك نفيّاً لظهور تمايزات اجتماعية في داخل القبائل، نجد إشارة واضحة إليها في القرآن عند حديثه عن الثراء الفاحش وحبّ المال والترف من جهة، وعن الفقراء والمساكين واليتاميّ المقهورين من جهة ثانية.

وقد كانت خديجة بنت خويلد «ذات نسب مرموق»، فهي حسب النسّابين والمؤرّخين «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر»⁽³⁾.

ص: 265

1- . محمّد في مكة: ص 242 - 248.

2- . راجع هنري لامنس: Lammens (henri), L'Arabie occidentale avant L'hegire؛ وباتريسيا كرونه، Crone (Patricia). Meccan Trade and the Rise of Islam.

3- . انظر: شجرة نسب «أسد بن عبد العزّي»: ص 26، المصعب الزبيري، المصدر نفسه: ص 206، ابن هشام، المصدر نفسه: ج 1 ص 198، ابن سعد، المصدر نفسه: ج 8 ص 14، ابن الكلبي، المصدر نفسه: ج 1 ص 75.

أمّا أمّها فهي فاطمة بنت زائدة بن جندب، وهو الأصمّ بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص. وأمّ فاطمة هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر. وأمّ هالة العرقة، وهي قلابة بنت سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي(1).

فخديجة إذا أسدية بنسب أبيها. وعشيرة أسد هي إحدى عشائر «قريش البطاح»، جدّهم عبد العزّي بن قصي، وهم الذين كانوا يسكنون بباطن مكّة بالوادي(2)، وقد أقاموا في بيوت مستقرّة، ويبدو من وصف أهل الأخبار لبيوت مكّة أنّ بيوت أثريائها وسادتها مبنية بالحجر.

ولبعض الدور حجر عند باب البيت يجلس تحته ليستظلّ من أشعة الشمس، وكان لمنزل خديجة حجر من هذا الطراز(3)، وهو يوجد برباع بني أسد حيث دار أبي البخترى بن هاشم بن الحارث بن أس، أحد أشرف بني أسد، ودار الزبير بن العوّام بن خويلد، ودار حكيم بن حزام ابن أخي خديجة.

وكان بنو أسد من وجهاء مكّة، وكان خويلد والد خديجة من أصحاب الرئاسة والشرف فيها، عُرف بالصدق والأمانة والأنفة؛ وهي من الصفات المحيية والمفضّلة لدى العرب قبل الإسلام، وتشكّل عنصراً من عناصر التفاضل بين القبائل في باب النسب والشرف.

كما كان خويلد من أكثر أبناء أسد ولداً، وكان الولد في الحياة القبلية مصدراً للجاه

ص: 266

1- . المصعب الزبيري، المصدر نفسه: ص 22، ابن هشام، المصدر نفسه: ج 1 ص 201، أمّا ابن سعد في الطبقات فيذكر نسب أمّ خديجة بشيءٍ من الاختلاف: ج 8 ص 14.

2- . «قريش البطاح» هي قبائل بني عبد مناف وبني عبد الدار وبني عبد العزّي وبني عبد قصي وبني زهرة وبني مخزوم وتيم بن مرّة وجمح وسهم وعدي وبني عتيك بن عامر بن لؤي. وقصي هو الذي أدخل البطون المذكورة الأبطح، فسّموا البطاح. أمّا بقية بطون قريش فنزلوا بظواهر مكّة وجبالها، فسّموا بقريش الظواهر، وكانوا أعراباً وأصحاب قتال (راجع: أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 39 - 40، ومروج الذهب للمسعودي: ص 64، ابن حبيب، المصدر نفسه: ص 167 وما بعدها).

3- . الطبري، المصدر نفسه: ج 2 ص 282، أخبار مكّة للأزرقي: ص 199.

والشرف، وإلي ذلك كله كان سيّد بني أسد بن العزّي (1).

وتذكر المصادر أنّ حكيم بن حزام كان من وجوه قريش وأشرفها، وتذهب إلي أنّه كان عضواً في دار الندوة بمكّة «الملا»؛ وهو مجلس يضمّ الرؤساء والأعيان للتشاور في الأمور والبتّ فيها.

وحسب المصادر فإنّ حكيم دخل دار الندوة وهو ابن خمس عشرة سنة رغم أنّ السنّ الأدنى لدخولها كانت محدّدة بأربعين سنة فأكثر (2). ولسنا ندري إن كانت هذه الرواية تحمل شيئاً من الصحة أم أنّها مختلفة، ومهما يكن من أمر ففيها مبالغة، إذ إنّ مهمما كانت خصال حكيم الاستثنائية، فإنّ سنّ دخوله إلي دار الندوة - كما تذكره الروايات - مبكّرة جدّاً لا تسمح له بكسب المؤهّلات المطلوبة، لكننا لا نجد من جهة أخرى سبباً مقنعاً يدفع بالرواية إلي تهويل قدراته، والحال أنّه دخل الإسلام متأخراً يوم فتح مكّة (3).

فالأرجح إذن أنّه دخل دار الندوة قبل بلوغ الأربعين لا غير؛ لبعض مآثره الخاصة. ومما يُذكر عن حكيم أنّه كان في الجاهلية «حمّال أثقال الديات»؛ وهي صفة وصفه

بها حسّان بن ثابت في ديوانه (4)؛ تنويهاً بشهامته، وقد كانت الشهامة من شيم السادة عند العرب.

وتذكر بعض الكتب أنّ قبيلة بني أسد كانت من بين القبائل التي عقدت «حلف الفضول»؛ وهو عهد جمع بين قبائل من قريش (بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزّي وبنو زهرة بن كلاب وتيم بن مرّة) حول نصرة المظلوم بمكّة (5). إلا أنّها لمّا خرجت من ذلك الحلف قويت اقتصادياً وانتقلت إلي دائرة «الأعمال الضخمة»؛ ممّا

ص: 267

- 1- . ابن حبيب، المصدر نفسه: ص 164 وما بعدها وص 207، ابن الكلبي، المصدر نفسه: ج 1 ص 75 - 88.
- 2- . ثمار القلوب للثعالبي: ص 518 وما بعدها، ابن حبيب، المصدر نفسه: ص 231.
- 3- . المصعب الزبيري، المصدر نفسه: ص 231.
- 4- . ديوان حسّان بن ثابت: ص 70.
- 5- . الأغاني: ج 17 ص 215.

يعني أنّ موقعها تحسّن اقتصادياً علي الأقل (1).

أمّا نسب خديجة من جهة الأمّ فهو قرشي، كانت أمّها قرشية قحّة، وإن هي من قريش الظواهر (2)، وقد كان قرشيو البطاح يتزوّجون من نساء الظواهر، ولا تذكر لنا كتب التاريخ أكثر من ذلك عن أمّ خديجة.

وهكذا فإنّ خديجة بحكم معايير العصر كانت عميقة النسب أصيلته من جهة والدها علي الأقلّ. ينقل ابن هشام في السيرة النبوية عن ابن إسحاق أنّ خديجة كانت «أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً» (3). ومن البديهي أنّ نسب خديجة يوفّر لها كامراً شريفة الاحترام والتقدير ويؤوئها مكانة هامة في مجتمعتها، كما يوفّر لها من الناحية النفسية الشعور بنوع من العزّة والقوّة والحصانة.

ولا نعثر في كتب التاريخ علي تحديد واضح لتاريخ ميلاد خديجة، وهو أمر طبيعي بما أنّ العرب لم يكن لديهم في ذلك الوقت طريقة دقيقة في التاريخ قائمة

علي ضبط السنة والشهر واليوم وفقاً لتقويم زمني معيّن. هنالك إشارة إلي أنّ محمّداً وُلد عام الفيل، وبما أنّ الروايات تذكر أنّ خديجة تكبره بخمس عشرة سنة، فمعني ذلك أنّها وُلدت قبل عام الفيل بتلك المدّة، ومادام الشكّ قائماً حول تاريخ ميلاد محمّد نفسه، فإنّ تاريخ ميلاد خديجة يبقى بدوره غير ثابت، شأنه شأن سنّها عند زواجها بمحمّد مثلما سنبين ذلك لاحقاً.

وقد تزوّجت خديجة مرّتين، لكنّ الروايات لا تذكر متي تمّت هاتان الزيجتان بالضبط، كما أنّها تختلف في تحديد أيّتهما الزيجة الأولى وأيّتهما الثانية، وإذا كانت أغلب الروايات تشير إلي أنّ زوجي خديجة الأولين توفّيّا، فإنّ بعضها يذهب إلي أنّ أحدهما مات بالفعل، أمّا الثاني فقد انفصلت عنه بالطلاق.

ص: 268

- 1- . راجع: وات، المرجع نفسه: ص 153، وانظر كذلك: ابن هشام، المصدر نفسه: ج 1 ص 140 - 142.
- 2- . ورد في أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 39: «أنّ بني معيص بن عامر بن لؤي (قوم أمّ خديجة) من قريش الظواهر».
- 3- . ابن هشام، المصدر نفسه: ج 1 ص 201. ويقال: «فلان أوسط القبيلة»؛ أي أعرفها وأولاها بالصميم.

ومهما يكن من أمر وبقطع النظر عن تلك الاختلافات، فالمؤكّد أنّ خديجة تزوّجت أبا هالة، واسمه هند ابن النّباش، من بني أسيد بن عمرو بن تميم، وقد كان بنو أسيد حلفاء بني عبد الدار بن قصي الذين كانوا يحالفون خويلد بن أسد، وكانت قريش تزوّج حليفهم.

وقد أنجبت له خديجة ولدين: هند وهالة، وهما اسمان مؤنثان عادةً، إلا أنّهما كانا يُطلقان علي الذكور أيضاً؛ للتدليل، وقد تلقّب ابن النّباش بأحدهما.

كما تزوّجت خديجة عتيق بن عابد المخزومي. ومخزوم عشيرة قرشية كانت لها السيطرة السياسية في ذلك الوقت، كما كانت ذات باع في عالم التجارة، وقد كانت له من خديجة بنت تّدعي هند. وتشير بعض الروايات إلى أنّه توفي تاركاً لخديجة ثروة طائلة، وتتسبب بعض الروايات هذه الثروة إلى زوجها التميمي الذي أنجبت له هالة وهند(1).

وعلي فرض أنّ هذه الروايات صحيحة، فإنّها لا تقدّم لنا معلومات عن كيفية انتقال تلك الثروة من هذا الزوج أو ذاك إلى خديجة. وهذا الأمر لا يثير لدي أصحاب تلك الروايات أيّ تساؤل، والحال أنّهم ينقلون لنا في الوقت نفسه أخباراً تفيد أنّ عرب الجاهلية كانوا يخصّون الذكور الكبار فحسب بالإرث ويحرّمون منه الإناث والأطفال؛ لأنّهم «لا يلاقون العدو ولا يقاتلون في الحروب»(2)، بل إنّ المرأة إذا لم تكن أمّ ولد ورثت هي أيضاً ضمن تركة الزوج المتوفّي، فإذا كانت هذه القاعدة عامّة ومطبّقة بشكل صارم، فأنّي لخديجة أن ترث الثروة الطائلة لتميميّها أو مخزوميّها؟ إننا نرجّح أنّ الأمور لم تكن بالصرامة التي تنتفي معها الاستثناءات ولا بالشمولية التي تغيب معها الخصوصيات، فنحن أمام عادات وتقاليدهم فعل القانون، ولسنا بمحضّر قانون منظم للعلاقات تشرف عليه سلطة مركزية وترعي تنفيذه، كما أنّنا لسنا إزاء مجتمع

ص: 269

1- . عن هاتين الزيجتين انظر: طبقات ابن سعد: ج 8 ص 14 - 15، ابن حبيب، المصدر نفسه: ص 99، 164، 452، ابن الكلبي، المصدر نفسه: ص 279، أسد الغابة لابن الأثير: ج 7 ص 79 - 80، الطبري، المصدر نفسه: ج 3 ص 161، الحيوان للجاحظ: ج 6 ص 72، صفة الصفوة لابن الجوزي: ج 1 ص 25.

2- . تفسير الطبري: ج 3 ص 616 (سورة النساء).

متجانس، بل إزاء حياة قبلية تكمن فيها الخصوصيات، وليس أدلّ علي ذلك من أنّ هنالك روايات تجعلنا نفهم أنّ حرمان النساء من الإرث لم يكن بالضرورة «سنّة عامّة عند جميع القبائل»، حسب عبارة جواد علي(1).

وإلي ذلك فإنّ إمكانية خرق الأعراف القبلية من الأمور الواردة، فالروايات تذكر لنا أيضاً أنّ أحد العرب وهو ذو المجاسد عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر، كان أوّل من خصّ بناته بالإرث في الجاهلية، خارقاً بذلك الأعراف السائدة، فوزّث ولده تركته وفقاً لمبدأ «وللذكر مثل حظّ الأنثيين»، الذي سيتحوّل لاحقاً إلي مبدأ إسلامي(2).

وعلي هذا الأساس، فإن صحّ ما يُروى من أنّ خديجة ورثت من أحد زوجيها ثروة

طائلة، فيُرجّح أنّ ذلك تمّ بحكم وصيّة أو بحكم كونها كانت شريكة لذلك الزوج في تجارته، أو أنّه وهبها وهو علي قيد الحياة جزءاً من ثروته.

وهنالك احتمال آخر، وهو أنّ خديجة إذا كانت ورثت من زوجها التميمي، فقد يكون ذلك بسبب الولدين اللذين أنجبتهما منه، ولكن هذا يفترض أنّهما كانا بالغين عند وفاته، قادرين علي حمل السلاح، مثلما تقتضي الأعراف.

ومهما يكن من أمر، فإنّ زيجتي خديجة يمكن أن نستنتج منهما أهميّة مركزها، فقد كان الزواج في قريش علي صلة بأهميّة النسب، فلئن كنّا لا نعرف شيئاً كثيراً عن أبي هالة؛ لنقص في المعطيات، فإنّ عتيق المخزومي جمعت قبيلته بين السيادة والثراء.

وتذكر المصادر أنّ خديجة بعد فقدانها لزوجها الثاني رغبت الكثيرون من قومها ومن سادة قريش وزعمائها في الزواج منها، لكنّها رفضت، ولا ندري إن كان هذا الخبر صحيحاً أم خاطئاً، فقد يعكس حقيقة؛ لأنّ كثرة الزيجات بالنسبة للمرأة في المجتمع المكي كانت أمراً شائعاً، فطلاق من زوج أو وفاة زوج لم يكن ليضع حدّاً للحياة

ص: 270

1- . المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي: ج5 ص562 وما بعدها.

2- . المحبّر لابن حبيب: ص236 - 237.

العاطفية والجنسية للمرأة حتّى لو كان لها أطفال عديدون، ممّا يعني أيضاً أنّه لم يكن ليرغب الرجال عن هذه المرأة «الثيب».

أضف إلي ذلك عامل النسب والثروة في حالة خديجة، فقد كان الزواج منها يزيد طالبه حظوة بين قومه، وقد تكون هي رفضت الزواج ممّن طلبوا يدها لشعورها بأنّه لن يحقّق لها ما تريده من استقرار عائلي وعاطفي في زواج أحادي مثلاً. كما قد يكون ذلك الخبر منتحلاً بهدف إضفاء مزيد من الأهمّية علي زواج خديجة بمحمّد وإعطائه بُعداً أسطورياً.

2. خديجة الناجرة

من نافل القول إنّ أهل قريش كانوا «قوماً تجّاراً»، وكان أهل خديجة من بينهم، مثل أبي

زمعة الأسود بن المطّلب الذي كان من أغنياء مكّة (1)، وابنه زمعة الذي كان متجره إلي الشام (2)، وحكيم بن حزام ابن أخي خديجة (3).

وكان حجم النشاط التجاري للفرد يُحدّد بشكلٍ ما موقعه في القبيلة، كما يُحدّد حجم النشاط التجاري للقبيلة موقعها بين القبائل، وقد كان ذلك بارزاً خصوصاً في المجتمع المكيّ ما قبل الإسلامي، حيث بدأت تبرز أهمّية العنصر الاقتصادي في العلاقات الاجتماعية (4).

ولا- يتعلّق الأمر بقوم خديجة فقط، فهي نفسها كانت تسهم بمالها في التجارة: «كانت خديجة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث إلي الشام، فيكون غيرها كعامة غير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة» (5).

ص: 271

1- ابن حبيب، المصدر نفسه: ص 159، البلاذري، المصدر نفسه: ج 1 ص 149.

2- ابن حبيب، المصدر نفسه: ص 158.

3- نسب قريش للزبير بن بكار: ج 1 ص 367 الرقم 644.

4- انظر في هذا الشأن: وات، المرجع نفسه، وروندسون، Rodinson (Maxime) Lammens (Henri), L, Aravie occidentale

l, he, gire، ولامنس، Mahomet

5- ابن سعد، المصدر نفسه: ج 8 ص 16، ابن هشام، المصدر نفسه: ج 1 ص 199، الطبري، المصدر نفسه: ج 2 ص 280.

هكذا تقول كل المصادر، والملفت للنظر أنها لا تتساءل عن ذلك أو تستهجنه باعتبار خديجة امرأة، بل تقدّمه أمراً عادياً رغم ما نعرفه عن المجتمع القرشي الذي كان في الحقيقة مجتمعاً ذكورياً خضعت فيه المرأة بصورة عامة لسلطة الرجل، وكان الرجال قوامين فيه أساساً علي النشاط التجاري، والدارس لا يجد فيه أثراً لتأجرات في حجم خديجة، عدا أسماء بنت مخزبة أم أبي جهل حسب المعلومات التي تمكّنا من العثور عليها في معظم المصادر، فقد كانت أسماء تبيع العطور التي يرسلها إليها ابنها عبد الله بن أبي ربيعة من اليمن(1).

ويختلف المجتمع القرشي من ناحية التقاليد الاجتماعية المتعلقة بالمرأة مع

عادات وتقاليد جنوب الجزيرة (اليمن)، وحتى مع المدينة التي هاجر إليها عدد من العائلات اليمنية وأثروا في عاداتها وتقاليدها، فاليمن عرفت حسب الباحثين عادات وتقاليد «أمومية»(2)، ظلت مؤثرة لزم من طويل، وهو ما بوأ المرأة مكانة في العلاقات الاجتماعية أهمّ ممّا كانت عليه في مكة، ووفّر لها حرّية أكثر علي المستوي الشخصي، وهو ما سيصطدم به مثلاً المهاجرون القرشيون إلي المدينة بعد البعث، وسيعبّر عن ذلك عمر بن الخطّاب خير تعبير بقوله: «وكنّا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا علي الأنصار إذ هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفقت نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار»(3).

يكون من المنطقي أن يتساءل المرء: كيف تحوّلت خديجة إلي تاجرة كبيرة في مثل المجتمع المكّي الذكوري الذي لا يساعد عادة علي نماء شخصية المرأة وبروزها؟ وفي رأيي أنّ كون العنصر الذكوري هو المسيطر في المجتمع المكّي لا يعني في المطلق عدم إمكانية بروز عناصر من الجنس المقابل في ميدان من الميادين بما في

ص: 272

1- . ابن سعد، المصدر نفسه: ج 8 ص 220، مغازي الواقدي: ص 65.

2- . من أهمّ الدراسات دراسة يوسف شلحد: «Du nouveau á Porpes du "Matriarcat" Arave», Chehod (Joseph), Arabica, 28 (1981), pp. 71 - 106

3- . صحيح البخاري، كتاب النكاح: ج 6 ص 148.

ذلك الميدان التجاري، محور النشاط الاقتصادي في مكة، خصوصاً إذا تعلّق الأمر بامرأة شريفة، فالأرجح أن يكون للشريفات في مكة وضع خاصّ متميّز عن وضع سائر النساء يجعلهنّ أكثر تحرراً.

وليس هذا خاصّاً بالمجتمع المكيّ فحسب، فسيادة ظاهرة معيّنة في أيّ مجتمع من المجتمعات لا يمكن أن تكون بأيّ حال من الأحوال مطلقة؛ لأنّ المجتمع كظاهرة حيّة يصعب أن يخضع لنمطية محدّدة، فهناك دائماً القاعدة، ولكن توجد إلي جانبها الاستثناءات التي لها ما يفسّرها في العلاقات الاجتماعية المعقّدة والمتشعّبة.

وما من شكّ في أنّ بعض الظروف الاجتماعية ساعدت خديجة علي احتلال الموقع الذي احتلته، فقد تكون عندما امتهنت التجارة أضحت بعدُ امرأة ناضجة، تزوّجت زواجاً أولاً - ثمّ ثانياً وأصبحت أمّ عيال تُلقِي علي عانتها مسؤولية كفالة أبنائها، ثمّ إنّها حسب ما نفهم أخبار المؤرّخين والنسّابين لم تكن في كفالة أيّ رجل من عائلتها، فوالدها متوفّي (1).

وتشير بعض المصادر إلي عمّ لها؛ عمرو بن أسد، كان في سنّ متقدّمة جدّاً (2)، لا يمكنه الوقوف علي مصالح بنت أخيه والتكفّل بشؤونها، كما تشير مصادر أخرى إلي أنّ لها إخوة، وهم: العوّام وحزام ونوفل (3)، ولكن لا - نعرف كثيراً عن هؤلاء الإخوة باستثناء بعض الإشارات حول أعمال بعضهم، فقد كان العوّام خيّاطاً (4). والواضح أنّهم لو كانوا في موقع يؤهّلهم لإدارة شؤون أختهم لأشارت الكتب إلي ذلك.

ثمّ إنّ خديجة كانت «ذات مال وفير»، وهو عامل له وزنه داخل العلاقات القبلية يدعّم

ص: 273

- 1- ابن هشام، المصدر نفسه: ج 1 ص 201 (هامش 3). وذكر ابن سعد أنّ خويلد مات يوم الفِجَار، وكان في هذه الحرب (بين قيس عيلان وبني كنانة) علي رأس بني أسد، المصدر نفسه: ج 8 ص 16، المسعودي، المصدر نفسه: ج 2 ص 278.
- 2- ابن الكلبي، المصدر نفسه: ج 1 ص 87، ابن حبيب، المصدر نفسه: ص 78.
- 3- ابن الكلبي، المصدر نفسه: ج 1 ص 18.
- 4- الأعلام النفيسة لابن رسته: ص 215.

مركز صاحبتة، حتّى لو كانت من الجنس الأنثوي، ويوفّر لها من حرّية التصرّف ما لا يتوافر لغيرها من بني جنسها ممّن هنّ في مرتبة اجتماعية أقلّ، خاصّة في مجتمع تجاري، فالتجارة علي عكس الأنشطة الفلاحيّة الرعويّة المنغلقة إلي حدّ ما، تؤثر في العقليات، فتجعلها أكثر قبولاً لبعض الأوضاع التي لا تتطابق بالضبط مع التقليد أو العادة.

كلّ هذه العوامل كانت كفيلة في رأيي بأن تؤهّل خديجة لامتهان التجارة دون أن يشير ذلك أيّ إشكال في قومها وفي المجتمع المكيّ عامّة، بل الواضح أنّها كانت

تحظي بالاحترام والتقدير، وإن كنّا نظّل نتساءل عن مصدر «المال الوفير» الذي كانت خديجة تُسهم به في التجارة.

لقد أثرنا أعلاه موضوع الثروة الطائلة التي تقول الروايات أنّها ورثتها عن أحد زوجيها، ومع ذلك فإنّنا نتساءل: هل إنّ كلّ ثروة خديجة متأتية من ذلك الميراث، أم كانت هي نفسها تتمتع أصلاً بشيء من الثروة المتأتية من أهلها؟ أم أنّها - وهذا احتمال ثالث - استثمرت رأس مال خاصّ بها في التجارة والمضاربة وكونت منه ثروتها التي تتحدّث عنها الروايات؟

إنّ غياب المعلومات الدقيقة في هذا المجال يترك الباب مفتوحاً بالطبع أمام التقديرات المبالغ فيها، فلا نخال المصادر مثلاً تقول صحيحاً عندما تذكر أنّ تجارة خديجة كانت تشكّل نصف القافلة التي تتجّه إلي الشام(1)؛ لأنّ خديجة لا نجد لها ذكراً ضمن قائمة كبار تجار قريش الذين كانوا لعظم تجارتهم يملكون قوافلهم الخاصّة(2). فالأرجح إذا أنّ تجارتها كانت متوسّطة، وأنّ الرواة بالغوا فيها تعظيماً لعلاقتها بمحمّد.

ومهما يكن من أمر هذه المبالغة، فإنّ كون خديجة ثريّة لا يمكن أن يتسرّ إليه الشكّ، إذ نجد له صديّ في القرآن باعتباره أثبت نصّ محفوظ ينقل لنا أخباراً عن تلك الفترة التي عاشتها خديجة، خاطب القرآن محمّداً: (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنِي) (3)، وتوكّد

ص: 274

- 1- ابن سعد، المصدر نفسه: ج 8 ص 16.
- 2- أمثال: الوليد بن المغيرة، هشام بن المغيرة والد أبي جهل، أبو أحيحة سعيد بن العاص، أبو سفيان... وغيرهم.
- 3- الضحى: 9.

كتب التفاسير أنّ المقصود بهذه الآية أنّ الله أغني محمّداً بمال خديجة الثرية⁽¹⁾، وهو المعني الموجود في الحديث عندما ذكر محمّد لعائشة أنّ خديجة «واسته بمالها»⁽²⁾، أو عندما قدم محمّد مهموماً إلي خديجة بعد البعث ليشكوها حالة القحط، فقال لها

حينما سألته عن حزنه: «الزمان زمان قحط، فإن أنا بذلت المال ينفذ مالك، فأستحي منك، وإن لم أبذل أخاف الله...»⁽³⁾؛ أي أنّ الغني كان غني خديجة، وأنّ الله متّعه به إذ زوّجه منها، وبالتالي فإنّ محمّداً لم تكن له ثروة خاصّة به ولم يستغلّ علاقته بخديجة لتكوين مثل تلك الثروة.

وعلي صعيد آخر، فقد حاولنا البحث عن الموادّ التي كانت تقوم عليها تارةً خديجة، فلم نعثر علي أيّ إشارة، لذلك نرجّح أنّها كانت علي العموم تتاجر بالموادّ نفسها التي يتاجر بها أهل قريش⁽⁴⁾. وقد كانت خديجة تتولّى بنفسها اختيار الأشخاص من قريش الذين يرعون تجارتها ضمن القافلة.

كما تشير المصادر إلي أنّها كانت تضارب التّجار، ومن المعلوم أنّ المكيين لم يعتنوا بالنشاط التجاري فحسب، وإنّما كانت لهم أنشطة مالية أيضاً، فقد كانوا يحصلون علي فوائد من المضاربة، والمضاربة عند أهل الحجاز هي القراض؛ ويُرَاد به تقديم مال إلي شخص يتّجر به علي ربح معيّن⁽⁵⁾.

ما من شكّ في أنّ قيام خديجة بنشاط تجاري من شأنه أن ينعكس علي شخصيتها، فهذا النشاط الاجتماعي ينمي تلك الشخصية، فهو يوفّر لخديجة الثروة ويمنحها الاستقلالية الماديّة، وبالتالي يخلّصها من كلّ تبعية في عيشها وعيش أطفالها ويعوّدها علي التعويل علي ذاتها، كما يمكّنها من الاتّصال بالمجتمع المكي ومعرفته من خلال

ص: 275

-
- 1- . التفسير الكبير للرازي: ج 31 ص 219، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج 20 ص 99.
 - 2- . أحكام النساء لابن الجوزي: ص 227.
 - 3- . الرازي، المصدر نفسه: ج 31: ص 219.
 - 4- . راجع بخصوص هذا الموضوع دراسة كرونة: Corne (Patricia), Meccan Trade and the Rise of Islam, po. Cit.
 - 5- . لسان العرب لابن منظور: ج 7 ص 217، مادة «قرض».

أرقى وأهم نشاط اقتصادي يُمارس فيه.

فشؤون مكة إذن لا نخال خديجة غير مطلعة عليها، كما لا نخالها منعزلة عن أخبار الأسواق التي تتجه إليها القوافل، لقد كان التجار في ذلك العهد حملة ونقله للأخبار التي

تردد علي مسامعهم من كل حدب وصوب، ولا نشك في أن الأشخاص الذين كانت تكلفهم خديجة بتجارتها، كانوا يروون لها ما يجد في الأماكن التي كانوا يؤمنونها.

وأخيراً، فإن إدارة خديجة لتجارتها بنفسها لهي من العوامل التي تؤهلها لكي تكون صاحبة قرار؛ لكي تتخذ بنفسها القرارات التي تخص حياتها وحياة أولادها، والتجارة بشكل عام كنشاط اقتصادي واجتماعي، هي علي خلاف النشاط الفلاحي الرعوي مثلاً، توسع آفاق صاحبها وتدرّبه علي الحياة العامة وتنمي لديه الروح العملية (البراغماتية)، وتجعله أكثر واقعية واتزاناً من الناحية العقلية.

وخديجة وإن لم تكن تتنقل في البلدان والأسواق بنفسها، إلا أنها هي التي كانت تشرف علي مصالحها. ولا تشير المصادر التاريخية إلي أنها كانت فاشلة في ذلك، بل الواضح أنها كانت صاحبة شخصية قوية وعلي دراية بأمرها، تعرف من تختار ليتسوق بتجارتها، ولم تكن ضحية لتلاعب بعض التجار أو الوكلاء.

وفي هذا الصدد قالت عنها المصادر أنها كانت «حازمة ولبية وجلدة»⁽¹⁾، فلا غرو إذاً أن تكون كسبت «الروح التجارية» لأهل مكة من الرجال، ولا شك في أن هذا العامل سيكون له دوره في حياة خديجة عند لقاءها بمحمد وما تبعه من زواج وأحداث عظيمة الشأن.

3. خديجة في مكة الوثنية

كانت خديجة صاحبة «النسب والشرف» والمال والتجارة، تنتمي أيضاً إلي وسط يتميز - أو أقل - يتميز أفراده علي الأقل، ممن هم علي صلة وثيقة بها، باهتماماتهم العقائدية والفكرية، وهذا الجانب من شخصية خديجة لم يحظ بال العناية الكافية، إن لم نقل ظلّ

ص: 276

1- تاريخ الطبري: ج2 ص281، ابن هشام، المصدر نفسه: ج1 ص200

مطموساً مغموراً لا بحكم قَدّة المعطيات وندرتها فحسب، وإنما أيضاً بحكم النظرة اللاتاريخية إلى رسالة محمد التي لا ترى لهذه الرسالة من مَهَّدات إلا من خارج

الأرض، ومن مؤشّرات إلا في الإبداعات والإكرامات.

وحتّى إذا اهتّمت تلك النظرة اللاتاريخية بالأرض، فباعتبارها عاملاً سلبياً (مفهوم الجاهلية بكلّ أبعاده)⁽¹⁾ استوجب مجيء تلك الرسالة من السماء، وليس باعتبارها المجال الذي اعتملت فيه عناصرها الاجتماعية والمعرفية إلى حدّ النضج فطفت إلى السطح وأخذت طريقها شيئاً فشيئاً إلى أن انتشرت وسادت عبر صراع مريّر حُدّدت ملامحه ونتائجه أرضاً، فالمخاضات تجري في الأرض، وتلك النظرة اللاتاريخية تقفز بها إلى ما وراء العرش.

وحتّى نفهم الوسط العائلي الذي عاشت فيه خديجة، نرى من الضروري في البداية التطرّق إلى الوضع العقائدي العام بمكّة في تلك الفترة، وهو وضع لا نخال خديجة غير مدركة له، لقد كان المجتمع المكّي يشهد في الحقيقة مؤشّرات تحوّل ديني حتمته مجمل أوضاع قريش وأوضاع العرب عامّة: الاجتماعية والعقائدية والإقليمية⁽²⁾. فمن نافل القول إنّ الوثنية كانت هي المعتقد السائد بين العرب بمن فيهم عرب قريش، وكانت اللات والعزّي ومناة الرموز الأساسية لهذه الديانة⁽³⁾.

ولئن كانت الآلهة تتعدّد أحياناً بتعدّد القبائل، فقد كان يحدث أنّ الصنم الواحد توقّره أكثر من قبيلة⁽⁴⁾، أو أنّ بعض القبائل تتعبّد آلهة بعضها البعض⁽⁵⁾. وتشير بعض الدراسات إلى

ص: 277

- 1- . حول هذا الموضوع انظر: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي: ج 1 ص 15.
- 2- . انظر في هذا الصدد: الفتنة لجعيت: ص 11 وما بعدها، وات، محمد في مكّة (Tor), Mahomet. Sa vie et sa doctrine.
- 3- . ورد ذكر هذه الآلهة في سورة النجم: 19 - 20: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ...}، انظر كذلك: الأصنام لابن الكلبي.
- 4- . يذكر الأزرقى أنّ العزّي «كانت توقّرها قريش وكنانة وخزاعة، وكلّ قبائل مضر» (أخبار مكّة: ج 1 ص 126 وما بعدها).
- 5- . مثال ذلك أنّ قريشاً كانت تعبد إله كنانة، وبني كنانة يعبدون إله قريش. ورد في المحبّر لابن حبيب: ص 318.

أن قريش تمكّنت من جمع أصنام العرب ونصبتها عند الكعبة، فأصبحت القبائل تعظم

هذا المجمع وتحجّ إليه سنوياً علاوة علي زيارته خلال أيام السنة(1).

وفي الحقيقة، فكون العرب كانوا يحجّون إلي المكان نفسه ويلتقون فيه ويتعاطون نشاطاً تجارياً ويحرمون علي أنفسهم في تلك الفترة الحروب والقتال، إنّما يعني أن «روحاً دينية عربية» كانت تتبلور حتّي من خلال ذلك التعدّد الوثني.

وإلي ذلك، فمع الوثنية مع اللّات والعزّي ومناة الأصنام، كان القرشيون يعترفون بوجود إله يدعوونه «الله» الذي يتبدّي لنا في صور «إله السماء»، أو حسب عبارة فلهاوزن: «تجريداً لكلّ الآلهة»(2)، فهم يقرّون حسب القرآن نفسه بأنّ الله هذا خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر وأنزل من السماء ماء فأحيا الأرض من بعد موتها(3)، لكنهم يجعلون له بنات وبنين وأنداداً(4).

ثمّ إنهم يتضرّعون إلي هذا الإله ويستغيثون به في ملّماتهم، ويسلمون ويقسمون به ويفتتحون به عهودهم(5)، كما كان «الله» حاضراً في دعواتهم وفي تليبتهم(6).

ومن المحتمل أنّهم كانوا يتسمّون به، والشكّ متأتّ من التغيير الذي حصل بعد الإسلام في العديد من الأسماء التي كانت تحمل أسماء أصنام، فتحوّلت إلي تسمية «عبد الله»، ولكنّ «الله» لم يكن مع ذلك واضح الملامح تعريفاً وصفات وإمكانيات وقدرات مثلما سيكون لاحقاً في القرآن، كما لم يكن محلّ عبادة، أو قلّ إنّنا لا نعثر علي ما يفيد أنّه كان محلّ عبادة لو أنّ قريشاً (جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا)(7).

ص: 278

1- . المفصّل لجواد علي: ج6 ص81 - 82، تاريخ الكعبة للخربوطلي: ص36.

2- . Wellhausen, Reste Arabischen Hé identumus .

3- . سور: العنكبوت ولقمان والزخرف.

4- . سور: الأنعام: 100، النحل: 57، الزخرف: 16، الصافات: 149.

5- . صحيفة قريش ضدّ بني هاشم وبني المطلب: «باسمك اللهمّ فاغفر»: البلاذري، المصدر نفسه: ج1 ص234، صحيفة الحديبية: «باسم اللهمّ»: ابن هشام، المصدر نفسه: ج3 ص366.

6- . «لبيك اللهمّ لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك»: الأصنام لابن الكلبي: ص7، انظر أشكالاً أُخري من التلبية في المفصّل لجواد علي: ج6 ص375 وما بعدها.

7- . الأنعام: 136.

لقد كانت الأصنام محور عبادتهم، يعظّمونها ويزورونها ويذبحون لها ويهدونها ويصلّون لها، وهم يعتبرون أنّ ذلك يجعلها واسطة بينهم وبين الله، تقرّبهم منه وتكون شفيعاً لهم عنده(1).

وهنا يكمن شركهم في نظر القرآن، إذ هم يجعلون شركاء لخالق السموات والأرض من لا قدرة لهم على شيء ومن هم ليسوا جديرين بالعبادة. وإنّ لفي حوار محمّد في بداية الدعوة مع الحصين بن عبيد بن خلف الخزامي، الذي أتاه باسم وجهاء قريش ينهاه عن شتم آلهتهم، خير ترجمة لهذه الحالة:

- حصين (لمحمّد): «ما هذا الذي بلغنا عنك أنت تشتم آلهتنا»؟

- محمّد: «يا حصين، كم تعبد اليوم إلهاً»؟

- حصين: «سبعة: ستّة في الأرض وواحد في السماء»(2).

- محمّد: «فأيّهم تعبد لرغبتك ورهبتك»؟

- حصين: «الذي في السماء».

- محمّد: «فإذا أصابك الضرّ فمن تدعو»؟

- حصين: «الذي في السماء».

- محمّد: «فإذا هلك المال، فمن تدعو»؟

- حصين: «الذي في السماء».

- محمّد: «يا حصين، يستجيب لك وحده وتشرك معه غيره؟»(3)

إنّ هذا الحوار الذي يبرز فيه «الله» كائناً سماوياً مجرداً يتوجّه إليه حصين في عبادته وفي دعواته، يؤكّد لنا أنّ الشرك على هذا الوجه كان عبارة عن مرحلة وسطية انتقالية كان فيها «الله» السماوي المجرد يغزو أكثر فأكثر الفضاء المعتقد والروحي

ص: 279

-
- 1- . اعتمدنا هنا درس الدكتور هشام جعيط حول «مفهوم الله» الذي ألقاه أمام طلبة تبريز، قسم التاريخ، للسنة الجامعية 1993 - 1994 في كلية العلوم الإنسانية بتونس العاصمة.
 - 2- . أي ستّة أصنام في الأرض وإله في السماء.
 - 3- . ابن الأثير، المصدر نفسه: ج2 ص26 - 27.

للناس، ومن البديهي أنه بقدر ما يزداد «اللّه» أهَمِيَّةً في وعي الناس، يفسح المجال أمام طرح الأسئلة حول أحقيّة الأصنام بالعبادة، بل إنّ عبادة الأصنام هذه تصبح غير ذات معنيّ بالنسبة إلي من هم أقدر من غيرهم فكراً علي الانتقال من الحسّي في وعيهم الديني إلي ما هو تجريدي.

علي صعيد آخر، كان هنالك من تشيّع من العرب للمسيحية، ولو أنّ الأمر في مكّة كان محدوداً جداً⁽¹⁾، لكنّه يعبر عن نزعة إلي اعتناق ديانة أركي من الوثنية السائدة وأكثر استجابةً للمتطلّبات الروحية للفرد.

وكان المكّيون أيضاً علي اطلاع علي الديانة اليهودية التي كان لها وجود هامّ في الحجاز واليمن، وهي ديانة توحيدية لها كتاب وأنبياء، وكان أصحابها يعتبرون أنفسهم من الناحية العقائدية في طور أركي من غيرهم ممّن لا يزالون يعبدون الأصنام، علاوة علي شعورهم بالامتياز باعتبار أنّ الربّ حباهم دون غيرهم بأنبياء وكتاب.

ولا نشكّ في أنّ اتّصال العرب من أهل مكّة وقتها سواء بالمسيحيين أو اليهود، قد يكون خلّف عند بعضهم السؤال التالي: لماذا لم يرسل إليهم هم أيضاً نبياً ولم يُنزل عليهم كتاباً لما في ذلك من ارتقاء بالعقيدة ونخوة «قومية» وتوحيد للناس، الذين بدأت القبيلة تضيق بهم كإطار لتنظيم علاقاتهم الاقتصادية والاجتماعية الجديدة فضلاً عن علاقاتهم بالعالم الخارجي، إذ لا يمكن لأحد أن ينكر أنّ شخصية عربية كانت وقتها آخذة في التبلور باحثّة عن مكانها ضمن أمم المنطقة وشعوبها التي تستقطبها قوّتان امبراطوريتان هامّتان: الفرس والبيزنطيّون.

وقد تكون هذه الأمور من بين ما كان يحول بخاطر جانب من شباب قريش وخاصة المثقّفين منهم في نواديهم ومسامراتهم، قريش القوية بتجارها التي اتّخذت

طابعاً عربياً ودولياً، «قريش التي تعتبر بذاتها بمثابة قبيلة العرب الدينية الممتازة»⁽²⁾.

ص: 280

1- . انظر كتابنا: المسيحية العربية وتطوّراتها: ص 85 - 88.

2- . الفتنة لجعيّط: ص 20.

قريش التي كانت كلّ العوامل تهيئها لدور جديد في صلب العرب والمنطقة بل والعالم أيضاً.

ولعلّ أهمّ ما يؤكّد بالفعل ظهور الحاجة إليّ تجديد ديني أصيل، ما برز في تلك الفترة من نزعة إليّ التوحيد لديّ بعض المكّيّين الذين سُمّوا بالحنفاء كما سُمّيت ديانتهم بالحنيفية.

وكان ظهورهم في مكّة صديّ في الحقيقة لتيار الحنيفية والحنفاء بشكل عامّ في بعض مناطق الجزيرة العربية الأخرى، وكان تبنّي أولئك المكّيّين القرشيّين للحنيفية، محاولة جادّة منهم للبحث عن طريق خاصّ للتوحيد يربطهم برمزه الأول: «جدهم» إبراهيم، ويصدّهم عن عبادة الأوثان مع تمييزهم عن المسيحية واليهودية اللتين لم تستهويا الحنفاء؛ لعدّة أسباب يضيق المجال هنا عن ذكرها(1).

وسوف ينوّه القرآن بالحنيفية والحنفاء، بل إنّ الحنيفية سترد مرادفةً للإسلام، والحنيف مرادفاً للمسلم في أكثر من موضع من مواضع القرآن(2). وفي صلب حنفاء قريش سنجد رمزاً عليّ صلة وثيقة بخديجة بنت خويلد التي نصل الآن إليّ الحديث عن وسطها المعتقدي الضيق. هذا الرمز هو ابن عمّها الذي تقيد المصادر أنّها سُمّيت له في صغرها(3) وظلّت عليّ صلة وثيقة به وإن لم تتزوّجه، واسمه ورقة بن نوفل.

كان ورقة أحد أربعة من قريش عُرفوا بالحكمة والتأمل وبنزعتهم التوحيدية، علماً بأنّ بعض المصادر تشير إليّ أنّ بني أسد - قوم خديجة وورقة - عُرفوا باهتمامات

بالحكمة، ونحن نجد بالفعل من بين الأربعة أسدياً آخر هو عثمان بن حويرث، إضافةً إليّ عبید الله بن جحش (حليف لعشيرة عبد شمس)، وزيد بن عمرو من عشيرة عدي. وتذكر المصادر أنّ هؤلاء الأربعة اعتزلوا عبادة الأوثان وامتنعوا عن أكل ذبائحها

ص: 281

1- . جواد علي، المرجع نفسه: ج6 ص449 وما بعدها.

2- . وردت لفظة الحنيف في سور: البقرة، آل عمران، النساء، الأنعام، يونس، النحل، الروم. كما وردت لفظة الحنيفية في سورتي: الحجّ والبيّنة.

3- . كان العرب يسمّون البنت من الصغر باسم شخص معيّن، وهو قريبها في الغالب فتكون زوجته لاحقاً.

وتعبّدوا الله ربّ إبراهيم(1)، قبل أن يتنصّر بعضهم في فترة لاحقة وفقاً لبعض الروايات. وهي تذكر أيضاً أنّ ورقة حرّم في «الجاهلية» الخمر والسكر والأزلام(2)، وهو ما فعله قرشيّون آخرون مثل عبد المطلب بن هاشم وعثمان بن عفّان وغيرهما(3).

وإن كان ليس لدينا معلومات أكيدة بأنّ الأربعة كانوا يشكّلون حلقة فكرية مع بعضهم، وهو أمر لا نستبعده(4)، كما لا نستبعد أن تكون الحنيفية قد شملت أشخاصاً آخرين غيرهم، فهناك ما يؤكّد علي الأقلّ قيام علاقة بين ورقة وزيد، إذ يذكر ابن حبيب في المحبّر، أنّ زيدا كان «نديم» (جليس) ورقة(5). ومن الأشعار التي يوردها صاحب الأغاني منسوبة إلي ورقة وتعطينا - إذا صحّت نسبتها إليه - فكرة عن اتّجاهه التوحيدي ما ذكره:

لقد نصّحت لأقوامٍ وقلتُ

لهم

أنا النذيرُ فلا يغرركم

أحدُ

لا تعبّدنّ إلهاً غيرَ

خالقكم

فإن دعوكم فقولوا بيننا

حدّد

سبحان

ذي العرشِ سبحاناً نعوذ به

وقبلُ قد سبح الجوديُّ

والجمدُ

مُسخرٌ كلُّ ما تحت

السماء له

لا ينبغي أن يناوي ملكه

أحدُ

لا شيء مما تري تبقي

بشاشته

يبقي الإله ويودي المال

والولد

لم تغن عن هزم يوماً

خزائنه

ص: 282

-
- 1- . الأغاني للإصفهاني: ج 3 ص 113 - 125.
 - 2- . الزلم: هو السهم الذي كان أهل الجاهلية يتحرون بواسطته بين الإقدام علي الشيء أو الإحجام عنه (لسان العرب لابن منظور: ج 6 ص 75). وسيحرم القرآن بدوره ذلك: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} (المائدة: 90).
 - 3- . ابن حبيب، المصدر نفسه: ص 237.
 - 4- . يذكر ابن هشام أنهم تعاهدوا علي نبذ عبادة قومهم وتصادقوا: «ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكنم بعضكم علي بعض (...). تعلم والله ما قولكم علي شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم» (انظر: السيرة: ج 1 ص 222 - 223).
 - 5- . المحبّر لابن حبيب: ص 175.

والخُلْدَ

قد حاوَلتْ عاَدُ فما خَلدوا

ولا سُلَيْمانَ إِذْ دانَ

الشعوبُ له

والجِنُّ

والإنسُ تَجري بينها البُرْدُ(1)

ومن خلال هذه الأبيات يبدو «إله» ورقة الذي يدعو إلى عبادته أنه صاحب الخلق والملك الأزلي السرمدي. ولوقيل هذا الكلام بعد مجيء الإسلام لاعتبر متطابقاً مع التوحيد الإسلامي في وصفه ل- «الله».

ولئن يشير صاحب الأغاني إلي أن إحدي الروايات تذكر أن ورقة قال هذا الشعر بمناسبة تعذيب المشركين ل- «بلال» (المسلم)، فإنه يفندها؛ لأن ورقة لم يدرك عصر النبوة ومات في إرهاباتها الأولى، وهو ما يجعلنا نرجح أن ورقة قال ذلك الشعر - إذا كان حقاً من نظمه ولم يُنتحل بعد الإسلام، وهو أمر جائز - تعبيراً عن معتقده التوحيدي، سواء قبل تنصّره المفترض أو بعده، فنحن لا نعثر في هذه الأبيات علي أي إشارة ذات طابع نصرانيّ.

وإننا لنجد في شعر زيد بن عمرو - وهو ممّن جهروا بتوحيدهم شعراً ولم يتنصّر - معاني قريبة من المعاني التي جاءت في أبيات ورقة:

عزلتُ الجِنَّ والجِنَّانَ

عنيّ

كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصبورُ

فلا العزّي أدينُ ولا

أبنتيها

ولا صنَمي بني غنمٍ

أزورُ

ولا هُبلاً أدينُ وكان

رَبّاً

في الدهرِ إذ حلّمي صَغِيرُ

أرباباً واحداً أم ألفُ

ربُّ

أدينُ إذا تَقَسَّمت

الأُمُورُ

ألم تعلمِ بأنَّ اللهَ أفني

رجالاً كان شأنُهُم

[الفُجُورُ \(2\)](#)

وهو يضيف في قصيدة أُخري:

أدينُ لربِّ يستجيبُ ولا

أُري

أدينُ

لمن لا يَسْمَعُ الدهرُ داعياً [\(3\)](#)

ص: 283

1- . الأغانى للإصفهاني: ج 3 ص 115.

2- . الإصفهاني، المصدر نفسه: ج 3 ص 118 - 119

3- . الإصفهاني، المصدر نفسه: ج 3 ص 119.

إنّ هذه الأشعار سواء كانت لورقة أو لزيد، تُثبت أنّ فكرة «الله» المجرّد السماوي الحقيقي وحده بالعبادة، بدأت تدّ في صفوف قريش عن طريق الحنفاء. ويؤكّد المسعودي أنّ ورقة، كان ممّن يقرّ بالبعث(1)، ونسب إليه شعراً ذكر فيه النار والثواب والعقاب بعد الموت إضافةً إلى فكرة التوحيد(2). والبعث كما نعلم هو ركن أساسي من أركان الديانات التوحيدية، إذ إنّ الهدف منه إعطاء مغزيّ لعمل الإنسان في الحياة، ناهيك عن أنّه سيكون من المحاور الأساسية الأولى لدعوة محمّد، إلى جانب «مكارم الأخلاق» التي ستسبق حتّي الحسم في معتقدات قريش (سورة الكافرون).

وتشير بعض المصادر إلى أنّ ورقة تنصّر بل «استحکم في نصرانيته»(3)، دون أن تخبرنا متي تمّ ذلك وعلي يد من؟ وهل تمّ في مكّة أم خارجها؟ علماً بأنّ المصادر ذاتها تشير إلى أنّه هاجر من مكّة في وقت من الأوقات؛ إذ «كره عبادة الأوثان وطلب الدين في الآفاق»(4).

وتضيف أنّ ورقة كان عارفاً بالقراءة والكتابة(5)، وكان «يكتب من الإنجيل ما شاء أن يكتب»(6). وفي الحقيقة فرغم تأكيد المصادر علي تنصّر ورقة، فثمة ما يجعلنا نشكّ في ذلك، إذ ليس من المستبعد أن يكون الإخباريون خلطوا بين الأحناف والنصاري (الرهبان خاصّة)؛ لتقارب في بعض السلوكات (لبس المسوح، التنسك، الانعزال...).

ص: 284

1- . المسعودي، المصدر نفسه: ج 1 ص 67، 74 - 75.

2- . ابن حبيب، المصدر نفسه: ص 171، ابن هشام، المصدر نفسه: ج 1 ص 243، 256، الإصفهاني، المصدر نفسه: ج 3 ص 115 - 119.

3- . ابن هشام، المصدر نفسه: ج 1 ص 223 - 238.

4- . ابن حجر، المصدر نفسه: ج 3 ص 634

5- . كان الحنفاء عامّة عارفين بالقراءة والكتابة، أي من «النخبة المثقّفة» (انظر: جواد علي، المرجع السابق: ج 6 ص 456).

6- . تذكر المصادر أنّ ورقة يكتب الإنجيل بالعبرانية. والمرجّح حسب المؤرّخين المحقّقين أنّ خطأً تسرّب إلى هذه الرواية، إذ الإنجيل لا يمكن أن يكون بالعبرانية ولا بالعربية، بل الأصحّ أنّه مكتوب بالأرامية أو السريانية (انظر: تفسير سورة العلق في تاريخ الطبري، وتاريخ اليعقوبي: ج 1 ص 298، والإغاني: ج 3 ص 113، والبلاذري، المصدر نفسه: ج 1 ص 106).

ثم إننا لا نجد في سلوك ورقة ما يفيد تنصّره، فالطاغي عليه هو فكرة التوحيد، وإلي ذلك كيف لم يحاول - إن كان تنصّر فعلاً - نشر النصرانية في محيطه، وبالأحرى إقناع خديجة وأقربائه بها؟ ثم كيف له أن يتقبّل لاحقاً العلامات الأولى لنبوة محمد باستبشارٍ كبير ويرى فيها تحقيقاً لنبوة عربية؟

أخيراً، فإنّ محمّداً النبيّ عندما سيُسأل عن مصير ورقة بعد موته سيُجيب بأنّه يتصوّره في الجنّة، ومثل هذا الموقف لا يمكن عليّ الأرجح أن يصدر عن محمّد إلا إذا تعلق الأمر بحنيف.

إنّ اهتمامنا بورقة بن نوفل وباتّجاهه التوحيديّ كلّ هذا الاهتمام، يهدف إلي إبراز المناخ العقائدي الذي عاشت فيه خديجة داخل محيطها العائلي المقرّ منها. فكلّ المصادر تؤكّد علي صلة خديجة بورقة، لذلك لا نستبعد أنّها كانت علي اطلاع علي اهتماماته، فضلاً عن اطلاعها علي العقائد التوحيدية السابقة، خصوصاً وأننا لا نعثر في كتب الإخباريين علي ما يشير إلي ارتباط خديجة بالعقائد العامّة لقريش وحماسها لها بشكل خاصّ. ولا نعتبر ذلك بالأمر المستحيل بالنسبة إليها، فشخصيتها تؤهلها

لذلك ومساعدة ورقة لها أيضاً، علماً بأنّ البلاذري يذكر أنّ أختاً لورقة - أي ابنة عمّ لخديجة تُدعي قتيلة بنت نوفل - كانت «تنظر في الكتب»⁽¹⁾.

فالاهتمامات العقائدية - إذاً - لم تكن غريبة عن الوسط الذي تعيش فيه خديجة، وهي تدرج ضمن مناخ عامّ تعيشه مكّة. كان فقدان الثقة في معتقداتها الوثنية بدأ يطفو إلي السطح؛ لأنّها لم تعدّ تلبّي الحاجة الروحية والفكرية والاجتماعية لأكثر عناصر قريش تطلّعا إلي المستقبل، وطموحاً إلي الجديد الأرقّي. ومن هنا كان البحث عن معتقد توحيدي أكثر تجريداً وأكثر إقناعاً بسلطته ونفوذه علي الكون علي مصائر البشر، ولم لا تكون خديجة علي علم بهذا التيّار الجديد؟⁽²⁾ بل ليس ثمة ما يجعلنا

ص: 285

1- . البلاذري، المصدر نفسه: ج 1 ص 81.

2- . راجع دراسة جورجي: (Jurgi (Edward).X «Khadija, Mohamed,s First Wife», The Moslem World, 26 (1936), pp. 197 - 199.

نستبعد إمكانية تعاطفها معه دون أن يعني ذلك تخليها علي صعيد الممارسة عن بعض عبادات قومها.

إنّ ما تناولناه أعلاه من عناصر يبرز لنا معالم شخصية خديجة، فهي من حيث النسب تنتمي إلي وسط شريف ليس بالمال والعدد والشهامة فحسب، وإنّما بالسلطة أيضاً، وهو ما يجعلها قريبة من الحياة السياسية لمكّة. وعلي مستوى آخر فقد كانت تتمتع باستقلاليتها المادّية، فهي صاحبة مال وتجارة، وهو ما لم يتوفّر لمعظم النساء في ذلك الوقت، كما أنّها كانت علي الأرجح منفتحة ذهنياً علي القضايا العقائدية لعصرها من خلال الوسط الذي عاشت فيه.

كلّ هذه العناصر تتيح لنا الاستنتاج بأنّ خديجة لم تكن كأيّ امرأة عادية في قريش، فهي ولئن لم تبرز في الحياة العامّة (زعامة سياسية وغيرها)، كانت علي الأقلّ امرأة ذات شخصية مستقلّة وقوية ومتفرّسة، وهو ما سيكون له انعكاساته علي علاقتها

بمحمّد وسلوكها معه.

ص: 286

1. أحكام النساء، أبو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي (ت597هـ)، تحقيق: زياد حمدان، بيروت: دار الفكر، 1409هـ .
2. أخبار مكة، أبو الوليد محمد بن عبدالله الأزرقى (ت250هـ)، قم: الشريف الرضى، 1411هـ .
3. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجَزَري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
4. الأضنام، هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تصحيح: أحمد زكي باشا، القاهرة: المطبعة الأميرية.
5. الأغاني، علي بن الحسين الإصفهاني (أبو الفرج) (ت356هـ)، تحقيق: علي مهتّا وسمير جابر، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 1407هـ .
6. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت279هـ)، إعداد: محمد باقر المحمودي، بيروت: دار المعارف، الطبعة الثالثة.
7. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسى (ت1342هـ)، تصحيح: محمد بهجة الأثري، بيروت: منشورات أمين دمج.
8. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م.

تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المعروف باليعقوبي

.1

(ت284هـ)، بيروت: دار صادر.

2. تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، بيروت: دار الفكر.

3. تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، محمد بن عمر (فخر الرازي) (ت604هـ)، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1410هـ.

4. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت671هـ)، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، 1405هـ.

5. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت429هـ)، قهارة: دار المعارف.

6. الحيوان، عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ)، بيروت: دار إحياء العلوم، 1374هـ.

7. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفي، الطبعة الأولى، 1355هـ.

8. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1410هـ.

9. صفة الصفوة، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي (ابن الجوزي) (ت597هـ)، تحقيق: محمود فاخوري و محمد قلعة جي، حلب: دار الوعي، الطبعة الأولى، 1389هـ.

10. الطبقات الكبرى (الطبقة الخامسة من الصحابة)، ابن سعد، محمد بن سعد الزهري (كاتب الواقدي) (ت1414هـ)، تحقيق: محمد بن صامل سلمى، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ.

11. لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم المصري (ابن منظور) (ت711هـ)، قم: أدب الحوزة، 1405هـ، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، 1410هـ.

1. المُحَبَّر، أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي (ت245هـ)، تحقيق: ايلزه

ليختن شتير، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، مطبعة الدائرة، 1361هـ .

2. مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت346هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الرابعة، 1384هـ .

3. المغازي، محمّد بن عمر بن واقد (الواقدي) (ت207هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، بيروت: عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1404.

4. المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي (معاصر)، بغداد: جامعة بغداد، الطبعة الثانية، 1413هـ .

5. نسب قريش، مصعب بن عبد الله الزبيري (ت236هـ)، تحقيق: بروفنسل، القاهرة: دار المعارف.

ص: 289

* خديجة بنت خويلد (1)

يوسف عبد الله

ملخص البحث:

يختار هذا البحث مقتطفات من كتب التاريخ لغرض الاستدلال بها علي ما يقدمه من عرض تاريخي لحياة أم المؤمنين الأولى، حيث تناول حياتها في حقبتين زمانيتين: في الجاهلية، وفي الإسلام. كانت خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت؟ رضهما؟. وقد ولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم، ولدت له من الذكور: القاسم وهو أكبر بنيه وبه كان يكنى بعد البعثة، وعبد الله ويُلقب بالطيب والظاهر. ومن الأناث: رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة أصغر بناته. كانت خديجة ملاك الرحمة، والمرفاً الأمين، والملاذ المكين لمحمد، كانت أنسه إذا استوحش، وكنزه إذا احتاج، وأمله إذا استيأس، وطمانينته إذا اضطربت من حوله الحياة. قال ابن إسحاق: «كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء به، فخفف الله بذلك عن نبيه...». وحتى بعدما ماتت خديجة لم تمت ذكراها في نفس رسول الله، لقد ظلّ وفيّاً لها طوال حياته، حتى إن عائشة كانت تغار منها في قبرها، حيث قالت: «كان رسول الله لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟»

ص: 291

فغضب حتّى اهتزّ مقدّم شعره من الغضب، ثمّ قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء. قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بعدها بسيئة أبداً». رحمها الله ورضي عنها، وجزاها عن نبيّه ودعوته خير ما يجزي الصديقات.

خديجة في الجاهلية

هي خديجة بنت خويلد بن عبد العزّي بن أسد القرشية الأسدية الصديقة الكبرى، والأُمّ الأولى للمؤمنين، والزوجة الأولى للرسول الكريم، وأُمّ أولاده جميعاً إلا إبراهيم.

كانت في الجاهلية تحت أبي هالة بن زرارة التميمي، وقد مات عنها بعد أن ولدت له هنداً الذي آمن بالرسول وصحبه وشهد معه بدرأ، كما ولدت له هالة بن أبي هالة، وكان له صحبة أيضاً.

وبعد موت أبي هالة تزوّجها عتيق بن عامد المخزومي، فولدت له بنتاً اسمها هند لها إسلام وصحبة، ثمّ خلف عليها بعد أبي هالة سيّد الأزواج محمّد بن عبد الله.

وكانت خديجة تُدعى في الجاهلية: «الطاهرة»؛ لشدة عفافها وصيانتها، ويصفونها بسيّدة نساء قريش.

خديجة التاجرة

كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجّاراً.

وفي جلسة بين أبي طالب ومحمّد ابن أخيه، قال له: «يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي وقد اشتدّ الزمان علينا، وألحّت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه غير قومك، قد حضر خروجها إلي الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتّجرون في مالها ويصيّبون منافع، فلو جئتها لفضّلتك علي غيرك؛ لما يبلغها عنك من

طهارتك. فقال محمّد: لعلّها ترسل إليّ في ذلك، فقال أبو طالب: إنّي أخاف أن تولّي

غيرك».

وبلغ هذا الحوار بين محمد وعمّه إلي خديجة، فما كان منها إلا أن أرسلت إليه؛ لما عرفت عنه من الصدق والأمانة وحسن السمعة، وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلي الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبل رسول الله منها، وخرج في مالها ذلك ومعه غلامها ميسرة إلي الشام.

شريكة التجارة تصبح شريكة الحياة

عاد محمد من الشام بربح وفير لم تحصل عليه خديجة من قبل، وعاد إليها غلامها بحديث أوفر من الربح عن هذا الرفيق الكريم، وما رأي ولمس فيه من سمو الأخلاق وعجيب الآيات.

وهذا قلب خديجة إلي محمد أن يشركها في الحياة كما شركها في التجارة؛ فإنه رجل نادر المثال حقاً، شاب وليس فيه عبث الشباب، تاجر وليس فيه جشع التجار، فقير وليس فيه ضعة الفقراء، قرشي وليس فيه زهو قرشي.

إن الرجال اعتادوا أن يخطبوا النساء، فكيف تخطب المرأة الرجل؟ هذه هي المشكلة، ولكن خديجة تحلّها عن طريق صديقتها نفيسة أخت يعلي بن منية.

أرسلتها خديجة دسيساً إلي محمد، فقالت له: ما يمنعك أن تتزوج؟

قال: ما في يدي شيء.

قالت: فإن كُفيت ودُعيت إلي المال والجمال والكفاءة؟

قال: ومن؟

قالت: خديجة.

قال: وكيف لي بذلك؟

قالت: عليّ ذلك.

فسارع الرسول إلي إعلان قبوله، وذهبت نفيسة إلي خديجة فبشّرتها بنتيجة هذا الحديث، ولم تلبث خديجة أن حدّدت الموعد الذي يلتقي فيه محمد وأعمامه بأهل

خديجة، فذهب الرسول ومعه عمّاه أبو طالب وحمزة، وخطبوا خديجة من عمّاه عمرو بن أسد، وكان صداقها عشرين بكرة، وكانت سنّها أربعين سنة، وكان هو في الخامسة والعشرين علي أشهر الأقوال.

زواج مثالي

لقد كان من الميسور لمحمّد بن عبد الله أن يتزوَّج فتاة من أبكار قريش، بدل هذه الثيب التي تزوّجت مرّتين، وبلغت الأربعين أو جاورتها، وأوشك وجهها أن يتجعّد وشعرها أن يشيب.

لو كان من عشاق الجسد وطلّاب الشهوة لكان له في الأبنكار الصغار متّسع، وهو الفحل لا يقدر أنفه، والقريشي الهاشمي لا تُردّ خطبته، وله من قوّة شخصيته وحُسن سمعته ووسامة طلّعه وشهرة أسرته، ما يزيل العقبات ويمهّد السبيل.

ولكنّه كان ينشد العقل الرشيد والقلب الكبير، فوجدهما في خديجة. وكان أمام خديجة - وهي يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهنّ شرفاً، وأكثرهنّ مالاً - من عظماء قريش وأثريائها من يتمنّي زواجها، ومن أرسل إليها يخطبها، ولكنّها رغبت عنهم جميعاً، شعرت بأنّهم يخطبون مالها لا شخصها، يخطبون خديجة الغنية لا خديجة الإنسان.

ردّت خديجة يد أشرف قريش، ولم تجد حرجاً أن تعرض نفسها - بواسطة أو بغير واسطة - علي الشاب الفقير الذي يعمل في تجارتها: إنّها وجدت في محمّد ضالّتها، فاخترته بقلبه الملهم، وإتّما اختارت لنفسها - في الحقيقة - الخلود ودخلت التاريخ

من أوسع الأبواب.

ومن أولي بمحمّد من خديجة؟ وأولي بخديجة من محمّد؟ إنّ المرأة التي يلقّبونها بالطاهرة أولي بالرجل الذي يلقّبونه بالأمين: (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ).

وكان زواجاً سعيداً موقفاً لم تغم سماؤه يوماً من الأيام، ولم يعكّر صفوه افتتان المرأة الغنية بمالها، ولا اعتداد الشابّ الفتى بشبابه، بل كان شبابه كلّها لها وكان مالها

كله له، يبذل منه ما يري في صلة الرحم ووجوه البرّ وصنائع المعروف.

أصابت الناس سنة جذب، فجاءت حليلة السعدية مرضعة الرسول إليه فأكرم وفادتها، وعادت من عنده ومعها من مال خديجة بغير يحمل الماء وأربعون رأساً من الغنم.

وكانت خديجة أول امرأة تزوّجها رسول الله ولم يتزوّج عليها غيرها حتّى ماتت (عليها السلام). وقد ولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم، ولدت له من الذكور: القاسم وهو أكبر بنيه، وبه كان يُكنّى بعد البعثة، وعبد الله، ويُلَقَّب بالطيّب والظاهر. ومن الأناث: رقية، ثمّ زينب، ثمّ أم كلثوم، ثمّ فاطمة أصغر بناته.

فأمّا القاسم وعبد الله فماتا في الجاهلية، وأمّا البنات فقد أدركن الإسلام وهاجرن معه. وقد كان يتوقّع من خديجة أن يهلع فؤادها لموت أبنائها من رجل تحبّه في عصر كانت توأد فيه البنات، ولكنّها كانت دائماً مثال العزم والراسخ والإيمان الصبور.

خديجة المؤمنة

ثلاث نسوة بارزات في حياة الرسل الثلاثة أصحاب الديانات الأخيرة الكبرى: آسية امرأة فرعون في حياة موسى، ومريم ابنة عمران في حياة عيسى، وخديجة في حياة محمّد، كلّ واحدة منهنّ كفلت نبياً مرسلًا قبل بعثته، وأحسنت الصحبة في كفائه، وصدّقت به بعد رسالته، لهذا جمع الرسول بين هؤلاء الكوامل في عقد واحد، فقال: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاّ مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون،

وخديجة بنت خويلد».

وإذا كان بعض الحكماء يقول: «إنّ وراء الرجل العظيم امرأة تشدّ أزره، أمّا كانت أو زوجاً»، فقد كانت خديجة المرأة التي وراء محمّد عليه الصلاة والسلام.

أعانتها في الجاهلية علي حياته الطاهرة النقيّة البعيدة عن الأوثان والخمر والميسر واللغو والشهوات، وكانت له ظهيراً في حياة التجرد والتأمل والبعد عن صخب الناس وضوضاء الحياة.

كانت تهيبّ له الزاد كلّ عام ليقضي شهر رمضان في غار حراء، ولو كان الأمر

لعاطفتها المجرّدة ما رضيت - كامرأة - أن يغيب عنها ليلة واحدة، فكيف بالليالي ذوات العدد؟!

ولكنّها تحسّ أنّ زوجها رجل غير الرجال، وأنّ له شأنًا أيّ شأن، فلتكن عونهُ عليّ مثله الرفيعة وقيمه العليا، وقد كانت تصحبه أو تزوره أحياناً في هذا الغار وتبقي معه أياماً وليالي؛ تؤانسه وترعاه ومن طواعيتها له قبل البعثة ومسارعتها في هواه، أنّها رأت ميله إليّ زيد بن حارثة - بعد أن صار في ملكها - فوهبته له، فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد من السبق إليّ الإسلام.

هذه خديجة في الجاهلية، وأما بعد الرسالة، فاستمع إليّ عائشة تروي موقفها من الرسول حينما تلقّي أول شحنة من وحي السماء في غار حراء، وغطّه جبرئيل حتّي بلغ منه الجهد، فعاد إليّ خديجة ترجف بواده يقول: «زملوني، زملوني، لقد خشيت عليّ نفسي...».

ولم تكن خديجة ممّن يطير لئها فرعاً، ولم يكن هذا الطارئ العجيب الغريب ليذهلها عن سداد الرأي ومنطق الحكمة، لقد عرفت بنور بصيرتها وسلامة نظرتها سنّة الله في معاملة عباده، فقالت لزوجها في ثقة و يقين: «كلاً والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ، وتكسب المعدم، وتصدق الحديث، وتقري الضيف،

وتعين عليّ نوائب الدهر».

وفي رواية قالت له: «أبشر واثبت يا ابن عمّ، فوالذي نفس خديجة بيده إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة».

ولم تكتف بالقول، بل صحبته إليّ ابن عمّها ورقة بن نوفل - وقد كان امرأً تنصّر في الجاهلية، وعرف العبرانية، وكتب بها من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب - فقالت له خديجة: «أي ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ما تري؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأي، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله عليّ موسي».

وهكذا كانت خديجة ملاك الرحمة، والمرفاً الأمين، والملاذ المكين لمحمّد .

كانت أنسه إذا استوحش، وكنزه إذا احتاج، وأمله إذا استيأس، وطمأنينته إذا اضطربت من حوله الحياة. قال ابن إسحاق: «كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء به، فخفف الله بذلك عن نبيه، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه؛ من الرد عليه والتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تتبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس».

شاطرته متاعب الدعوة وآلام الرسالة راضية مغتبطة، دخل الشعب فدخلت معه، وذقت مرارة الحرمان وعصنة الجوع، وهي ذات المال الوفير وربيبية الرفاهية والنعيم، فلا عجب أن يحمل إليها أمين الوحي السلام من فوق سبع سماوات.

روي البخاري عن أبي هريرة قال: «أتني جبرئيل إلي رسول الله صل الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه طعام، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها بيت في الجنة من قصب (1)، لا صخب فيه ولا نصب».

قال السهيلي: «إنما كان البيت بهذا الوصف؛ لأنها لم ترفع صوتها علي النبي صلي

الله عليه وسلم، ولم تتعبه يوماً من الدهر، ولم تصخب عليه مرة ولا آذته أبداً».

وفاء... ووفاء

في السنة العاشرة من البعثة وقبل الهجرة بثلاث سنين، شاء القدر الذي يتلي الناس قدر دينهم أن يختطف من الرسول زوجه الحبيبة خديجة التي كانت له - كما قال ابن هشام - وزير صدق علي الإسلام.

وقبلها بقليل مات ساعده الأيمن عمه أبو طالب، تلك كانت ملاذه في الداخل، وهذا كان عضده وناصره في الخارج، فكان هذا المصاب بعد ذلك جديراً أن يترك في نفس النبي أثراً عميقاً جعله يسمي هذا العام عام الحزن.

ماتت خديجة ولكن ذكراها لم تمت في نفس رسول الله، لقد ظلّ وفيّاً لها طوال حياته؛ يحنّ لذكراها ويهش لأهلها، ويكرم صديقاتها، حتى إن عائشة أحبّ أزواجه

ص: 297

1- قال ابن هشام: «القصب هنا: اللؤلؤ المجوف».

إليه بعدها لتغار منها في قبرها، قالت: «كان رسول الله لا يكاد يخرج من البيت حتّى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟

فغضب حتّى اهتزّ مقدّم شعره من الغضب، ثمّ قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستنتي بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء. قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بعدها بسنة أبداً».

رحمها الله ورضي عنها، وجزاها عن نبيّه ودعوته خير ما يجزي الصديقات.

*خديجة بنت خويلد (1)

محمد حسون

أم علي مشكور

ملخص البحث:

يبتدئ هذا البحث بذكر نسب خديجة، وبيان نتفٍ من جميل خصالها وعميق إدراكها وسعة نظرها إلي الأمور. كانت حازمة شريفة لبيبة جليلة دينة مصونة كريمة، صديقة هذه الأمة. وكان لها شرف النسب وكرم المحتدّ وسؤدد القبيل وعزّ العشيرة والغني الأوفر. كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يودّها ويحترمها ويشني عليها، ويفضّلها علي سائر نساء المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها، ويشاورها في أمور. وهي أول امرأة آمنت به وصدّفته وثبتت جأشه. وبعد نقل عدد من الأخبار التاريخية المتعلّقة بخديجة وعرضها للنقد والاستدلال، يذكر إجماع المؤرّخين علي أنّ أول من أسلم من النساء هي خديجة بنت خويلد، فبعد أن نزل الوحي علي الرسول الأعظم، جاء وقصّ ما شاهده علي زوجته، فأسلمت لدينه وناصرته، حتّي عدّ نصرها له أحد الدعائم التي قام عليها الإسلام، إضافة إلي سيف علي ودعم أبي طالب شيخ الأباطح. كان من العوامل الأساسية التي تقوّي بها الإسلام - كما قلنا - هي أموال خديجة بنت خويلد؛ فمنذ اليوم الأول لنزول الوحي علي نبينا محمد (صلي الله عليه وآله) نري خديجة تسارع لاعتناق الدين الحنيف، وتقف إلي جنب زوجها موقف المدافع والمحمي، وتضع كلّ أموالها في تصرّفه نصره للرسالة الجديدة. وقد

ص: 299

استعرض هذا البحث قسماً مما ثبتته المؤرّخون من مواقفها البطولية في كتبهم، وجاء بعد ذلك علي نقل أحاديث النبي فيها، وما أثنى به عليها.

أمّ المؤمنين خديجة(1) بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزّي بن قصي بن كلاب.

أمّها فاطمة بنت زائدة بن الأصمّ.

كانت حازمة شريفة لبيبة جليلة دينة مصونة كريمة، صدّيقة هذه الأمة. وهي شرف النسب وكرم المحتد وسؤدد القبيل وعزّ العشيرة، والغني الأوفر. كان رسول الله(صلي الله عليه وآله) يودّها ويحترمها ويثني عليها، ويفضّلها علي سائر نساء المؤمنين،

ويبالغ في تعظيمها، ويشاورها في أموره، وهي أول امرأة آمنت به وصدّقته وثبتت جأشه، ومضت به إلي ابن

ص: 300

- 1- . انظر ترجمتها في: الاختصاص للشيخ المفيد، ص 165، 182، أسد الغابة: ج 5 ص 434، الاستيعاب المطبوع بهامش الإصابة: ج 4 ص 279، الإصابة في تمييز الصحابة: ج 4 ص 281، أعلام النساء: ج 1 ص 326، إعلام الوري بأعلام الهدى: ص 146، أعيان الشيعة: ج 1 ص 220 و ج 6: ص 308، بطلة كربلاء للدكتورة بنت الشاطي: ص 14، تاريخ الإسلام للذهبي: ص 63 و 117 و 133 وغيرها، تاريخ الأمم والملوك للطبري: ج 2 ص 280، تاريخ الخميس: ج 1 ص 301، تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 20 و 23 و 31 و 262، تذكرة الخواص: ص 271 و 314، تكملة الرجال: ج 2 ص 727، تنقيح المقال: ج 3 ص 77، جامع الرواة: ج 2 ص 457، خديجة بنت خويلد لعلي دخيل، خصائص أمير المؤمنين للنسائي: ص 45، الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدود: ص 180، ذخائر العقبى: ص 44، رجال صحيح البخاري المسمّي ب- الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد الذي أخرج لهم البخاري في جامعه: ج 2 ص 835، رقم 1417، رياحين الشريعة: ج 2 ص 202، السمط الثمين: ص 17، سنن الترمذي: ج 5 ص 702، سيرة ابن هشام: ج 1 ص 200، سير أعلام النبلاء: ج 2 ص 85، السيرة الحلبية: ج 1 ص 137، سيرة المصطفى لهاشم معروف الحسني: ص 57، السيرة النبوية لابن كثير: ج 1 ص 262 و ج 2: ص 132، شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ج 1 ص 14، شهيرات النساء في العالم الإسلامي للأميرة قدرية حسين: ج 2 ص 5: صحيح البخاري: ج 5 ص 47: صحيح مسلم، ج 5 ص 886، صفوة الصفوة: ج 2 ص 2، الطبقات الكبرى: ج 8 ص 14، العقد الفريد: ج 5 ص 7، فاطمة الزهراء وتر في غمد لسليمان كتاني: ص 112، الفصول المهمّة: ص 129، الكامل في التاريخ: ج 2 ص 39 و 90، كشف الغمّة في معرفة الأنمّة: ج 1 ص 507، كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب للحافظ الكنجي الشافعي: ص 357، الكني والألقاب: ج 1 ص 106 و 200، و ج 2 ص 354، المحبّر: ص 11 و 77 و 452، المرأة في ظلّ الإسلام: ص 123، مثلهنّ الأعلي خديجة بنت خويلد لعبد الله العلايلي: ص 98، معجم رجال الحديث: ص 188، رقم 15617، المستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 182، مناقب الإمام علي بن أبي طالب لابن المغازلي: ص 329، موسوعة آل النبيّ للدكتورة بنت الشاطي: ص 230، نساء لهنّ في التاريخ الإسلامي نصيب للدكتور علي إبراهيم حسن: ص 21، نساء محمّد لسنية قراعة: ص 16، وفاة الزهراء للمقرّم: ص 7.

كانت تستقبل آلام الجهاد الذي خاضه النبي (صلي الله عليه وآله) وخاضته معه عاملة ماضية وصابرة محتسبة، لا ينبض عندها عرق بلين أو تخوّف، بل تقطع قناطر الدموع والخطوب المتغوّلة في بسمه كبرياء، لم يعهد مثلها إلا بعض نفر من صانعي التاريخ، بصدرها الرحب كانت تستقبل العاصفة وشظاياها المشتعلة.

ونحن عبر هذه الأسطر القليلة والصفحات المتعدّدة لا نستطيع أن نستوعب كلّ جوانب حياة هذه المرأة العظيمة، بل نقلني الضوء علي بعض جوانب حياتها:

أزواجها

تزوّجت خديجة بنت خويلد أولاً عتيق بن عائد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وولدت له بنتاً يقال لها هند، ثمّ توفّي عنها عتيق فتزوّجت أبا هالة ابن النباش بن زرارة بن وقدان بن حبيب، وولدت له ابناً يقال له هند. هذا هو المشهور والمسطور في كتب التراجم والتاريخ، إلا أنّ هناك بعض القدماء من يقول بأنّها لم تتزوّج قبل رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وإنّما التي تزوّجت عتيق ثمّ أبا هالة هي أختها، وبما أنّ اسم خديجة كان معروفاً واسم أختها غير معروف، فنسب الزوجان وأولادهم إلي خديجة دون أختها، ومن القائلين بهذا القول هو علي بن أحمد الكوفي العلوي المتوفّي سنة 352هـ، قال في كتاب الاستغاثة:

قد صحّت الرواية عندنا بأنّه كان لها أخت من أمّها تسمّى هالة، قد تزوّجها رجل من بني تميم يقال له أبو هند، فأولدها ابناً اسمه هند بن أبي هند وبنين زينب ورقية، ومات أبو هند وقد بلغ ابنه مبلغ الرجال والابنتان طفلتان، وكانتا موجودتين حين تزوّج

رسول الله (صلي الله عليه وآله) وخديجة بنت خويلد، وماتت هالة بعد ذلك بمدة يسيرة، وخلفت الطفلتين زينب ورقية في حجر رسول الله (صلي الله عليه وآله) وحجر خديجة. وكان من سنّة العرب في الجاهلية أنّ من يرّبي يتيماً ينسب ذلك اليتيم إليه، ولا يستحلّ التزوّج بمن يرّبها؛ لأنّها كانت عندهم بزعمهم بنتاً لمرّبها، فلما ربّي رسول الله (صلي الله عليه وآله) وخديجة هاتين البنيتين، نسبتها

إليهما، وهما بنتا أبي هند زوج هالة أخت خديجة.

ولم تزل العرب علي هذه الحالة إلي أن ربي بعض الصحابة يتيمة بعد الهجرة، فقالوا: لو سألت رسول الله (صلي الله عليه وآله): هل يجوز في الإسلام تزويج اليتيمة بمن ربّاه، فأنزل الله جلّ ذكره آية في تجويز ذلك، فكانت الجاهلية تنسب هاتين البنيتين إلي النبي (صلي الله عليه وآله)، ثمّ نُسب أخوهما هند إلي خديجة، وكان اسم خديجة نابهاً معروفاً، وكان اسم أختها خاملاً مجهولاً، فظنّوا لمّا غلب اسم خديجة علي اسم هالة أختها ثمّ نُسب هند إليها، وأنّ أبا هند كان متزوجاً بخديجة قبل رسول الله (صلي الله عليه وآله). (1)

زواجها من النبي (صلي الله عليه وآله)

خرج النبيّ محمّد (صلي الله عليه وآله) في تجارة لخديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة مع غلامها ميسرة، وكانت خديجة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في تجارتها، ولمّا علم أبو طالب بأنّها تهبّ تجارتها لإرسالها إلي الشام مع القافلة قال له: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتدّ الزمان علينا، وقد بلغني أنّ خديجة استأجرت فلاناً بيكرين ولسنا نرضي لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن أكلمها؟ قال: ما أحببت.

فقال لها أبو طالب: هل لك أن تستأجري محمّداً؟ فقد بلغنا أنّك استأجرت فلاناً

بيكرين ولسنا نرضي دون أربعة بكار، فقالت: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته لحبيب قريب، فقال له أبو طالب: هذا رزق ساقه الله إليك.

فخرج مع ميسرة بعد أن أوصاه أعمامه به، وباعوا تجارتهم وربحوا أضعاف ما كانوا يربحون وعادوا، فسرت خديجة بذلك ووقعت في نفسها محبة النبي (صلي الله عليه وآله)، وحدثت نفسها بالتزوّج به، وكانت قد تزوّجت برجلين من بني مخزوم توفياً عنها، وكان قد خطبها أشرف قريش فردّتهم. فتحدّثت بذلك إلي أختها أو صديقة لها اسمها نفيسة بنت منية.

فذهبت إليه وقالت: ما يمنعك أن تتزوّج؟ قال: ما بيدي ما أتزوّج به، قالت: فإن

ص: 302

كُفيت ذلك ودُعيتَ إلي الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قالت: خديجة، قال: كيف لي بذلك؟ قالت: علي ذلك. فأجابها بالقبول وخطبها إلي عمّها، وحضر مع أعمامه فزوَّجها به عمّها؛ لأنَّ أباهَا كان قد مات. وقيل: زوَّجها أبوها، وأصدقها عشرين بكرة، وانتقل إلي دارها، وكان ذلك بعد قدومه من الشام بشهرين وأيام، وعمرها أربعون سنة.

إسلامها

أجمع المؤرّخون علي أنّ أول من أسلم من النساء هي خديجة بنت خويلد، فبعد أن نزل الوحي علي الرسول الأعظم، جاء وقصّ ما شاهده علي زوجته، فأسلمت خديجة وناصرت الرسول، حتّي عدّ نصرها له أحد الدعائم التي قام عليها الإسلام، إضافة إلي سيف علي ودعم أبي طالب شيخ الأباطح.

روت عائشة: «إنَّ أول ما بُدئ به رسول الله (صلي الله عليه وآله) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حَبَّ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتعبّ فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلي أهله

ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلي خديجة فيتزوّد منها، حتّي جاء الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطّني حتّي بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فقال: فأخذني فغطّني الثانية حتّي بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ).

فرجع بها رسول الله (صلي الله عليه وآله) يرجف فؤاده، فدخل علي خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني زملوني، فرملوه حتّي ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها بالخبر: لقد خشيتُ علي نفسي، فقالت له: كلا والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدم، وتُقري الضيف، وتعين علي النوائب.

فانطلقت به خديجة حتّي أتت به ورقة بن نوفل بن أسد، وهو ابن عمّ خديجة، وكان

قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فكتب من الأنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا تري؟ فأخبره رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما رأي، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل علي موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن أدرك يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم توفي ورقة».

وروي أبو يحيى بن عفيف عن أبيه عن جدّه عفيف، قال: «جئت في الجاهلية إلي مكة وأنا أريد أن أتبع لأهلي من ثيابها وعطرها، فأتيت العباس بن عبد المطلب وكان رجلاً تاجراً، فأنا عنده جالس حيث أنظر إلي الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت، إذ جاء شاب فرمي ببصره إلي السماء ثم قام مستقبل القبلة، ثم لم ألبث إلا يسيراً حتّي جاء غلام فقام عن يمينه، ثم لم ألبث إلا يسيراً حتّي جاءت امرأة فقامت خلفهما،

فرجع الشاب فرجع الغلام والمرأة، فسجد الشاب فسجد الغلام والمرأة.

فقلت: يا عباس، أمر عظيم! قال العباس: أمر عظيم، أتدري من هذا الشاب؟ قلت: لا، قال: هذا محمد بن عبد الله ابن أخي، أتدري من هذا الغلام؟ هذا علي ابن أخي، أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد زوجته، إن ابن أخي هذا أخبرني أن ربّه ربّ السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، ولا والله ما علي الأرض كلّها أحد علي هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة»⁽¹⁾.

وقوفها إلي جنب النبي (صلي الله عليه وآله)

من العوامل الأساسية التي تقوّي بها الإسلام - كما قلنا - هي أموال خديجة بنت خويلد، فمنذ اليوم الأوّل لنزول الوحي علي نبينا محمد (صلي الله عليه وآله) نري خديجة تسارع لاعتناق الدين الحنيف، وتقف إلي جنب زوجها موقف المدافع والمحمي، وتضع كلّ أموالها في تصرّفه نصرته للرسالة الجديدة، إضافة إلي ذلك كلّ كانت خديجة بنت خويلد

ص: 304

1- . خصائص أمير المؤمنين: ص 45.

المأوي والملجأ، والقلب الحنون الذي يلجأ إليه النبي (صلي الله عليه وآله) حينما تضايقه قريش، ويتعرض للأذى من قبل أعداء الله تعالى، فكان يشكو لها همّه وما يلاقى من قومه، وكانت هي في مقابل ذلك تحيطه بحنان قلبها الكبير، وتخفف عن آلامه وأتاعبه، وتقف موقف المشجّع والمثبّت له.

وقد ثبت المؤرّخون مواقفها البطولية في كتبهم، نذكر بعضها تعميماً للفائدة:

1. قال ابن حجر العسقلاني: «ومن مزايا خديجة أنّها ما زالت تعظّم النبي (صلي الله عليه وآله)، وتصدّق حديثه، قبل البعثة وبعدها... ومن طواعيتها له قبل البعثة: أنّها رأت ميله إلي زيد بن حارثة بعد أن صار في ملكها، فوهبته له، فكانت هي السبب

فيما امتاز به زيد من السبق إلي الإسلام»(1).

2. قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدّقت بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسوله، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه، إلّا فرّج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتصدّقه، وتهوّن عليه أمر الناس (عليها السلام)»(2).

3. قالت خديجة لابن عمّها ورقة بن نوفل: «أعلن بأنّ جميع ما تحت يدي من مال وعبيد فقد وهبته لمحمّد يتصرّف فيه كيف شاء. فوقف ورقة بين زمزم والمقام ونادي بأعلي صوته: يا معاشر العرب، إنّ خديجة تُشهدكم علي أنّها وهبت لمحمّد نفسها ومالها وعبيدها وجميع ما تملكه يمينها؛ إجلالاً له وإعظاماً لمقامه ورغبةً فيه. وأنفذت إلي أبي طالب غنماً كثيراً ودنانير ودراهم وثياباً وطيباً ليعمل الوليمة، وأقام أبوطالب لأهل مكّة وليمة عظيمة ثلاثة أيّام، حضرها الحاضر والبادي»(3).

4. قال الزهري: «بلغنا أنّ خديجة أنفقت علي رسول الله (صلي الله عليه وآله) أربعين ألفاً وأربعين ألفاً»(4).

ص: 305

1- . الإصابة: ج4 ص275.

2- . أسد الغابة: ج5 ص437.

3- . وفاة الزهراء للمقرّم: ص7.

4- . تذكرة الخواصّ: ص314.

مكانتها عند الرسول

ومن الطبيعي جداً أن تحتلّ خديجة بنت خويلد المكانة المرموقة والعالية عند النبي (صلي الله عليه وآله)؛ لِمَا بذلته من دعم مادّي وغير مادّي في نصرة الدين الحنيف. لقد عاش النبي (صلي الله عليه وآله) معها خمساً وعشرين سنة لم يتزوج خلالها بزوجة أُخري، كلّ ذلك إعظماً لها، وتبجيلاً لمكانتها السامي، ووفاءً لعطائها

للإسلام. وكان النبي (صلي الله عليه وآله) يحترمها ويشي عليها كثيراً في حياتها وبعد وفاتها.

ففي أسد الغابة عن عائشة: «كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) لا يكاد يخرج من البيت حتّي يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلّا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها. فغضب حتّي اهتزّ مقدّم شعره من الغضب، ثمّ قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء. قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بسّيئة أبداً»⁽¹⁾.

وقالت: «ما غرت علي أحدٍ من أزواج النبي (صلي الله عليه وآله) ما غرت علي خديجة، وما بي أن أكون أدركتها، وما ذاك إلّا لكثرة ذكر رسول الله (صلي الله عليه وآله) لها، وكان لَمّا يذبح الشاة يتبع بها صدائق خديجة فيهدّيها لهنّ»⁽²⁾.

وقالت أيضاً: «ما رأيت خديجة قطّ، ولا غرت علي امرأةٍ من نسائه أشدّ من غيرتي علي خديجة، وذلك من كثرة ما كان يذكرها»⁽³⁾.

وحيثما كلّمته أزواجه في زواج فاطمة (عليها السلام) وذكرن خديجة، تقول أم سلمة: «فلَمّا ذكرنا خديجة بكّي وقال: خديجة، وأين مثل خديجة؟ وأخذ في الثناء عليها».

في أحاديث الرسول

نورد هنا جانباً من أحاديث النبي محمّد (صلي الله عليه وآله) يذكر فيها خديجة بنت خويلد:

ص: 306

1- . أسد الغابة: ج 5 ص 539.

2- . أسد الغابة: ج 5 ص 538.

3- . المستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 186.

1. قال : «أتاني جبرئيل فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء فيه أدام

أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ (عليها السلام) من ربها ومني وبشرها بيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»(1).

2. روي من وجوه: «إن النبي (صلي الله عليه وآله) قال: يا خديجة، جبريل يُقرئك السلام»، وفي بعضها: «يا محمد، اقرأ علي خديجة من ربها السلام»(2).

3. إن جبريل قال: «يا محمد، اقرأ علي خديجة من ربها السلام، فقال النبي (صلي الله عليه وآله): يا خديجة هذا جبريل يُقرئك السلام من ربك، فقالت خديجة: الله هو السلام، ومنه السلام، وعلي جبريل السلام»(3).

4. قال : «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة»(4).

5. قالت عائشة: «ما غرت علي أحد من نساء النبي (صلي الله عليه وآله) ما غرت علي خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي (صلي الله عليه وآله) يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة؟! فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها الولد»(5).

6. قالت عائشة: «كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟

فغضب ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء».

ص: 307

1- . أسد الغابة: ج 5 ص 438.

2- . سير أعلام النبلاء: ج 2 ص 85.

3- . الاستيعاب المطبوع مع الإصابة: ج 4 ص 279.

4- . صحيح البخاري: ج 4 ص 164.

5- . صحيح البخاري: ج 5 ص 39.

قالت عائشة: «فقلت في نفسي: لا أذكرها بعدها بسَيِّئة أبداً»(1).

7. قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): «خير نساء العالمين مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد».

8. قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»(2).

9. عن عائشة: «إن رسول الله (صلي الله عليه وآله) بشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»(3).

10. قال: «خديجة سابقة نساء العالمين إلي الإيمان بالله وبمحمد»(4).

11. قال ابن عباس: «خط رسول الله (صلي الله عليه وآله) في الأرض أربعة خطوط، ثم قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): أفضل نساء أهل الجنة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»(5).

12. قال: «خير نسائها خديجة بنت خويلد، خير نسائها مريم بنت عمران»(6).

13. قال: «أربع نسوة سيّدات عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأفضلهنّ عالماً فاطمة»(7).

14. قالت عائشة: «كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) إذا ذكر خديجة لم يكذب يسأم من ثناء عليها واستغفار لها، فذكرها يوماً فحملتني الغيرة، فقلت: لقد عوّضك الله من كبيرة السنّ.

قالت: فرأيت غضباً شديداً، فأسقط في يدي وقلت في نفسي: اللهم إذا

ص: 308

1- الإصابة: ج4 ص275.

2- الاستيعاب المطبوع مع الإصابة: ج4 ص279.

3- الإصابة: ج4 ص273.

4- المستدرک علي الصحيحين: ج3 ص184.

5- الاستيعاب المطبوع مع الإصابة: ج4 ص279.

6- أسد الغابة: ج5 ص538.

7- ذخائر العقبى: ص44.

أذهبت غضب رسولك عني لم أعد لذكرها بسوء، فلمّا رأي النبي ما لقيت قال: كيف قلت؟ واللّه لقد آمنت بي إذ كذّبتني الناس، وأوتني إذ رفضني الناس، ورزقت منها الولد وحرمتيه منّي. قالت: فعدا وراح عليّ بها شهراً»(1).

15. قال: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد»(2).

16. قالت عائشة: «كان رسول اللّه (صلي الله عليه وآله) إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا إليّ أصدقاء خديجة. فذكرت له يوماً، فقال: إنّي لأحبّ حبيبها»(3).

ص: 309

1- . سير أعلام النبلاء: ج2 ص82.

2- . الفصول المهمة: ص129.

3- . الإصابة: ج4 ص281.

1. الاختصاص، المنسوب إلى أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد (ت413هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الرابعة، 1414هـ .
2. الاستغاثة، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت352هـ)، طهران: مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى، 1373ش.
3. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ .
4. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
5. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
6. اعلام النساء، علي محمد علي دخيل، لبنان: الدار الإسلامية، 1412هـ .
7. إعلام الوري بأعلام الهدي، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت، قم: مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى، 1417هـ .

أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، تحقيق: السيد حسن الأمين، بيروت: دار التعارف

1. للمطبوعات، 1406هـ .

2. تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، 1409هـ.
 3. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الحسين بن محمد الديار بكري (معاصر)، بيروت: مؤسسة شعبان.
 4. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م.
 5. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب العبّاسي، المعروف باليعقوبي (ت284هـ)، تحقيق ونشر: دار صادر، بيروت.
 6. تذكرة الخواصّ (تذكرة خواصّ الأئمّة في خصائص الأئمّة:)، يوسف بن فرغلي بن عبد الله، المعروف بسبط ابن الجوزي (ت654هـ)، تقديم: السيّد محمد صادق بحر العلوم، طهران: مكتبة نينوي الحديثة.
 7. تكملة الرجال، عبد النبي الكاظمي، تحقيق وتقديم: محمد صادق بحر العلوم، قم: أنوار الهدى، 1425.
 8. تنقيح المقال في علم الرجال، عبد الله بن محمد حسن المامقاني (ت1351هـ)، قم: آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، 1423هـ.
 9. جامع الرواة، محمد بن علي الغروي الأردبيلي (ت1101هـ)، بيروت: دار الأضواء، 1403هـ.
 10. خديجة بنت خويلد، السيّد نبيل الحسني، كربلاء: العتبة الحسينية المقدّسة، 1432هـ.
 11. خصائص الإمام أميرالمؤمنين، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت303هـ)، تحقيق: محمد هادي الأميني، طهران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، 1403هـ.
- الدُّرّ المنشور في التفسير المأثور، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي
1. (ت911هـ)، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1414هـ.

2. ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، أبو العباس أحمد بن محمد الطبري (ت694هـ)، تحقيق: أكرم البوشي، جدّة: مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى، 1415هـ .

3. رجال صحيح البخاري، أبو نصر أحمد بن محمد الكلاباذي (ت398هـ)، تحقيق: عبدالله الليثي، بيروت: دار المعرفة، 1365هـ .

4. رياحين الشريعة، ذبيح الله محلاتي، طهران: دار الكتب الإسلامية.

5. السمط الثمين في مناقب أمّهاة المؤمنين، محبّ الدين أحمد بن عبدالله الطبري (ت694هـ)، تحقيق: محمد علي قطب، القاهرة: دار الحديث، 1408هـ .

6. سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت279هـ)، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الفكر، دار إحياء التراث، 1357هـ .

7. سير أعلام النبلاء، أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسّسة الرسالة، الطبعة العاشرة، 1414هـ .

8. السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ .

9. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفى، الطبعة الأولى، 1355هـ .

10. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن عماد الحنبلي الدمشقي (ابن عماد) (ت1083هـ) تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ .

11. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1410هـ .

12. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولى، 1412هـ .

صفة الصفوة، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي (ابن الجوزي) (ت597هـ)،

1. تحقيق: محمود فاخوري و محمد قلعة جي، حلب: دار الوعي، الطبعة الأولى، 1389هـ .

2. الطبقات الكبرى (الطبعة الخامسة من الصحابة)، محمّد بن سعد الزهري (كاتب الواقدي) (ت230هـ)، تحقيق: محمّد بن صامل السلمي، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ .
3. العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسي (ت328هـ)، تحقيق: أحمد أمين أحمد الزين وإبراهيم الأبياري، بيروت: دار الأندلس، الطبعة الأولى، 1408هـ .
4. فاطمة الزهراء وتر في غمد، سليمان كّثاني، بيروت: دار الكتاب العربي، 1399هـ .
5. الفصول المهمة في أصول الأئمة، الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي (ت1104هـ)، تحقيق: محمّد بن محمّد الحسين القائيني، مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا، الطبعة الأولى، 1418هـ .
6. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن محمّد الشيباني الموصلي (ابن الأثير) (ت630هـ)، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار صادر، 1385هـ، الطبعة الأولى، 1408 و 1409هـ .
7. كشف الغمّة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسي الإربلي (ت693هـ)، بيروت: دار الأضواء، الطبعة الثانية، 1405هـ .
8. كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، أبو عبدالله محمّد بن يوسف بن محمّد الكنجي الشافعي (ت658هـ)، تحقيق: محمّد هادي الأميني، طهران: دار إحياء تراث أهل البيت، الطبعة الثانية، 1404هـ .
9. الكني والألقاب، الشيخ عبّاس القمي (ت1359هـ)، طهران: مكتبة الصدر، الطبعة الرابعة، 1397هـ .
10. مثلهنّ الأعلي خديجة، عبدالله العلايلي، بيروت: دار الجديد، 1371هـ .
1. المُحجّر، أبو جعفر محمّد بن حبيب الهاشمي البغدادي (ت245هـ)، تحقيق: ايلزه ليختن شتير، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، مطبعة الدائرة، 1361هـ .

2. المستدرك علي الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411هـ .

3. معجم رجال الحديث، السيد أبو القاسم بن علي أكبر الموسوي الخوئي (ت1413هـ)، قم: منشورات مدينة العلم، الطبعة الثالثة، 1403هـ .

4. مناقب آل أبي طالب (المناقب لابن شهر آشوب)، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ابن شهر آشوب) (ت588هـ) تحقيق: هاشم الرسولي المحلّاتي، قم: منشورات علامة.

5. موسوعة آل النبي، عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطي)، بيروت: دار الكتاب العربي، 1387هـ .

ص: 314

* خديجة سيّدة نساء قريش (1)

محّمدرضا الأنصاري

ملخصّ البحث:

يهتمّ هذا البحث بالإجابة عن أسئلة كثيرة، مثل: معني وتعليل اسم خديجة؟ وأموالها من أين جاءت؟ فهل هي وراثه ورثتها من أبيها أو من زوجها - إن كانت قد تزوّجت قبل زواجها من الرسول - أم هي عن تجارة اكتسبتها؟ وهل ذُكر عمل أبيها؟ وكم هم أخواتها وإخوانها؟ وهل هم من أمّهات شتّى؟ وهل تحدّث التاريخ علي آية شريعة كان زواج خديجة؟ فهل كان علي الإبراهيمية الحنيفية؟ أم المسيحية أم الوثنية؟ ولمّ هي زوجة رسول الله (صلي الله عليه وآله) في الدنيا والآخرة؟ واتّضح من خلال التقصّي عن حياة أبيها وجدّها ونسبها، بأنّها عائلة طهارة شريفة لم تنجسها الوثنية الجاهلية، بقيت علي أصالتها ومكانتها ومجدها وشرفها في قريش، حيث عُرفت بالفروسية والشجاعة والتضحية والإقدام وحماية الكعبة. ويواصل البحث سرد الوقائع التاريخية التي شهدتها علاقة خديجة بالنبي (صلي الله عليه وآله)، من التجارة إلي الخطبة والزواج، والحياة المشتركة، مع نقد ما هو جدير بالنقد منها، وإلقاء نظرة تحليلية عليها. كان من خصائصها التي نالت بها أعلي مراتب الشرف والكمال - إضافة إلي ما ذكرناه من طهارتها وسخاوتها وترقيتها للنبوّة وتربيتها الإيمانية لأبنائها - أنّها أول من آمن به من النساء والرجال، فصدّفته وآزرته وأعانتته وثبّته.

ص: 315

1- من هنّ زوجات الرسول المصطفى في الآخرة، طهران: ژرف، الطبعة الأولى، 1381ش: ص21، 114.

من منكم لا يعرف السيِّدة خديجة بنت خويلد؟ ستقولون إنها الطاهرة الحازمة اللببية الشريفة، أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهنَّ شرفاً، وأكثرهنَّ مالاً، زوجة الرسول الأكرم، وأول من آمنت بالله ورسوله، وصدّقت بما جاء به، باذلة المال في سبيل دعوته طائعة له، وهي أفضل نساء أهل الجنّة، بشّرها الله ببيت في الجنّة. وكلّ أولاد الرسول منها ما خلا إبراهيم، وأفضل أولادها فاطمة (عليها السلام) أم الأئمّة. وأخيراً توقّيت خديجة قبل الهجرة بعد أبي طالب بثلاثة أيام، وكان عمرها خمساً وستين سنة، هذا كلّ ما كان في أمّهات كتبنا.

ولكن هل وجدنا بين طبّيات أمّهات كتبنا تعليلاً أو توضيحاً شافياً لاسم خديجة؟ أم هل تحدّثوا عن أموالها من أين جاءت؟ فهل هي وراثّة ورثتها من أبيها أو من زوجها - إن كانت قد تزوّجت قبل زواجها من الرسول - أم هي عن تجارة اكتسبتها؟ وهل ذُكر عن عمل أبيها؟ وكم هم أخواتها وإخوانها؟ وهل هم من أمّهات شتّى؟ وهل تحدّث التاريخ علي آية شريفة كان زواج خديجة؟ فهل كان علي الإبراهيمية الحنيفة؟ أم المسيحية أم الوثنية؟ ولمّ هي زوجة رسول الله (صلي الله عليه وآله) في الدنيا والآخرة؟

وسيكون لنا في كلّ وقفة تجاهل أو تغافل عنها الباحثون بعض التساؤلات والأبحاث والتحليلات، سنذكرها إن شاء الله في موقعها إن وقّنا الله لذلك.

نسأل الله العليّ القدير السداد والتوفيق والإلهام في كلّ خطوة نخطوها، إنّه سميع الدعاء.

اسمها خديجة

لم يبيّنوا وجه التسمية وتعليلها في المعاجم اللغوية وكتب التاريخ والسيرة، ولم نجد في المصادر من سبقتها في هذه التسمية إلا امرأة واحدة وهي خديجة بنت سعيد بن سهم زوجة عبد المطلب (1).

فعلي هذا نري أنّ التسمية بخديجة عند العرب للإناث نادر، وأمّا ما يخصّ الذكور فكثير

ص: 316

1- . انظر: تاريخ الطبري: ج 2 ص 9، والطبقات الكبرى: ج 1 ص 51، والكامل في التاريخ: ج 2 ص 6، وتاريخ يعقوبي: ج 1 ص 245، وأنساب الأشراف: ج 1 ص 72.

من سُمِّي بمخدج وخديج وخداج؛ لأنَّ أصل التسمية من خدجت الناقة؛ أي إذا أَلقت ولدها قبل أوانه؛ أي إذا ولدت ولداً ناقص الخلق أو غير تمام، وقد يكون الخداج لغير الناقة، كما في الخبر: «كلُّ صلاة لا يُقرأ فيها فاتحة الكتاب فهي خداج؛ أي نقصان»⁽¹⁾.

فإنَّ هذا المعنى اللغوي لا ينطبق مع اسم خديجة بنت خويلد الطاهرة الكاملة الراجحة الوسيمة.

أمَّا تعليلنا لهذه التسمية فاستخلصناها من البيئة التي عاشتها، فوجدناها علي ثلاثة وجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّ خديجة ولدت قبل أوان ولادتها لغير تمام أيامها، وإن كانت تامَّة الخلق⁽²⁾، فهي بالمنظور العرفي للمجتمع وفصاحة العرب خداج.

الوجه الثاني: لرِّبما تزامنت ولادتها مع وجود حدث ولادة الناقة التي أخذت في بيت أبيها؛ لأنَّ العرب تسمِّي أبناءها علي ما وُجد من حدث لما يحيط بهم.

الوجه الثالث: خيف عليها من الحسد؛ لكونها جميلة وتامَّة الخلقة، فقالوا: إنَّها خديجة؛ أي ناقصة.

ولادتها: وُلدت خديجة قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة⁽³⁾ من بيت مجد وسؤدد وفروسية وشرف ويسار، فنشأت علي التخلُّق بالأخلاق الحميدة، واتَّصفت بالحزم والعقل والعفة، حتَّى دعاها قومها في الجاهلية: «الطاهرة»⁽⁴⁾.

نسبها من أبيها: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزِّي بن قصي⁽⁵⁾ بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة⁽⁶⁾.

هكذا ورد نسبها في جميع المصادر مختصراً وكاملاً، وقد شدَّ عنها عمدة الطالب للنسابة أحمد بن علي الداودي الحسيني، حيث أضاف لنسبها عبد مناف⁽⁷⁾؛ وهو أحد

ص: 317

1- . انظر: معجم مقاييس اللغة: ج 2 ص 164، ولسان العرب: ج 2 ص 248.

2- . انظر: الإفصاح في فقه اللغة: ج 1 ص 2.

3- . الطبقات الكبرى: ج 1 ص 13. ولنا نظر حول ذلك سنبينه في زواجها.

4- . انظر: أسد الغابة: ج 7 ص 78.

5- . في الاستيعاب: ج 4 ص 379، وأسد الغابة، 7: ص 78، والإصابة: ج 8 ص 99 جاء بعدها: «القرشيَّة الأسيديَّة».

6- . الطبقات الكبرى: ج 8 ص 11، الذريَّة الطاهرة: ص 44.

7- . جاء في عمدة الطالب: ص 36: «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزِّي بن عبد مناف».

أجداد النبي (صلي الله عليه وآله)، وهذا الاشتباه علي ما يبدو ناتج من وضع النسّاخ؛ لأنّ عبد العزّي أخو عبد مناف أبوهما قصيّ، فجُعلا معاً.

ويلتقي نسبها مع رسول الله (صلي الله عليه وآله) في الجدّ الرابع وهو قصيّ بن كلاب؛ لأنّ نسب الرسول هكذا: محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب(1)؛ لذا جاء في بعض الروايات بأنّ خديجة كانت تخاطبه بابن العمّ(2).

نسبها من أمّها: خديجة بنت فاطمة بنت زائدة(3) بن الأصم - والأصم اسمه جندب - بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لؤي بن غالب(4).

وأمّ أمّها: هالة بنت عبد مناف بن الحارث [بن عبد](5) بن منقذ بن عمرو بن معيص(6) بن عامر بن لؤي.

وأمّها العرقة(7)، وهي قلابة بنت سَعِيد [بن سعد](8) بن سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لؤي.

وأمّها عاتكة بنت عبد العزّي بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب.

وأمّها الحُطَيّا(9)، وهي رَيْطَة(10) بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب.

وأمّها نائلة بنت حُذافة(11) بن جُمَح بن عمرو بن هُصَيْص بن عب بن لؤي بن غالب

ص: 318

- 1- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 1.
- 2- . انظر: الاستيعاب: ج 4 ص 381، وأسد الغابة: ج 7 ص 82، وصفة الصفوة: ج 1 ص 79، والذرية الطاهرة: ص 59.
- 3- . في الذرية الطاهرة: «زيد»، وفي الفائق: ج 2 ص 215: «الأصم».
- 4- . الاستيعاب: ج 4 ص 379.
- 5- . من الذرية الطاهرة.
- 6- . في تاج العروس: ج 3 ص 190: «خنثر».
- 7- . وإنما سُمّيت العرقة لطيب عرقها وعطرها، وكانت بدينة، وكانت إذا عرقت فاحت رائحة الطيب منها، فسُمّيت العرقة (مقاتل الطالبين: ص 58).
- 8- . من الذرية الطاهرة.
- 9- . في مقاتل الطالبين: ص 85: «الحطّيا».
- 10- . في الذرية الطاهرة: «روية».
- 11- . في الذرية الطاهرة: «قيلة بنت رواقة»، وفي مقاتل الطالبين: «مارية»، ويقال: «قيلة بنت حذافة».

بن فهر بن مالك (1).

وأُمُّها أُميمة بنت عامر بن الحرث بن فهر (2).

وأُمُّها سلمى بنت سعد بن كعب بن عمرو من خزاعة.

وأُمُّها ليلى بنت عابس بن الظرب بن الحرث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وأُمُّها سلمى بنت لؤي بن غالب.

وأُمُّها ليلى بنت محارب بن فهر.

وأُمُّها عاتكة بنت مخلد بن النضر بن كنانة.

وأُمُّها الوارثة بنت الحرث بن مالك بن كنانة.

وأُمُّها مارية بنت سعد بن زيد... بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصي بن دغمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار (3).

كنيتها: كانت تكتب بأُمِّ هند (4).

لقبها: كانت تُلقب بالسيِّدة الطاهرة (5)؛ وذلك لشدة عفافها، واشتهر تلقيبها بالكبرى (6)؛ لعظم شأنها في المحافل، ومن ألقابها: الغراء (7)، وسيِّدة نساء قريش (8)، وسيِّدة نساء العالمين (9).

ص: 319

- 1- . الطبقات الكبرى: ج 8 ص 11.
- 2- . الذرية الطاهرة: ص 44، وفي مقاتل الطالبين: ص 58: «ليلى بنت عامر الخيار بن غيسان، واسمه الحرث بن عبد عمرو بن عمرو بن قوي بن ملكان بن أفصي من خزامة».
- 3- . مقاتل الطالبين: ص 57 - 58.
- 4- . انظر: الطبقات الكبرى: ج 8 ص 12، والمستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 182، ومقاتل الطالبين: ص 57، والأغانى: ج 16 ص 137، وبحار الأنوار: ج 16 ص 12 ضمن ح 12 عن كشف الغمّة: ج 2 ص 135.
- 5- . انظر: أسد الغابة: ج 7 ص 78، ومجمع الزوائد: ج 9 ص 218، ومختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 264، والبداية والنهاية: ج 5 ص 329، والمواهب اللدنية: ج 1 ص 101 و 402، وشرح المواهب اللدنية: ج 1 ص 199.
- 6- . انظر: مناقب خديجة الكبرى للمالكي: ص 5، وبحار الأنوار: ج 42 ص 283 وج 91 ص 74 وص 266 وج 97 ص 174 و 189.
- 7- . انظر: بحار الأنوار: ج 99: ص 107.
- 8- . شرح المواهب اللدنية: ج 1 ص 199، سعد السعود: ص 418، السيرة الحلبية: ج 1 ص 224، وانظر: هامش السيرة لابن هشام: ج 1

ص212.

9- . انظر: بحار الأنوار: ج 99 ص 272.

خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي، أبو عدي (1)، كان من الفرسان ويُلقب بأبي الخسف (2)؛ وذلك لإبائه الخسف، ولإبائه علي بن بكر حينما أقبل يوماً في سفره حتى ورد كلبية - وهو وادٍ قرب الجحفة - فوجد عليها حاضراً عظيماً من بني بكر، فأراد خويلد وأصحابه أن يسقوا من حوض كلبية، فأتاهم نفر من بني بكر فمنعواهم الماء إلا بثمن.

فقال خويلد لأصحابه: يا قوم، متي تسومكم (3) بنو بكر سوم العزيز الذليل؟ قالوا: فمرنا بأمرك، قال: أمركم أن تحملوا عليهم.

فحمل عليهم بمن معه، فقتل خويلد رجلاً من بني بكر، وطعن رجلاً فأشواه (4)، وفرّ منه آخر وانهمت بنو بكر، وشرب خويلد وأصحابه من الماء، فقال خويلد (5):

أنا الفارس المشهور يوم

كلبية

وفي طرف الرنقاء (6) يومك مظلم

قتلت أبا جزءٍ وأشويت

محصناً

وأفلتني ركضاً مع الليل

جهضم (7)

فلما قدّم خويلد لامته امرأته أم عمرو في ذلك فقال:

ذريني أم عمرو ولا

تلوميني

ومهلاً عاذلي لا تعذليني

إلي أن قال:

ونحن أباة الخسف يوم كلبية ونحن أباة الخسف كل مكان (8)

ص: 320

- 2- . انظر: إكمال الكمال لابن ماكولا: ج 1 ص 4. ومعني «آبي الخسف»: الرافض للذلّ والهوان.
- 3- . أي تذللّكم وتكلّفكم المشقّة علي ما تكرهون.
- 4- . أي ضربه علي جلدة رأسه أو أطراف بدنه كالرأس واليد والرجل ما لم يقتل (انظر: النهاية: ج 2 ص 511).
- 5- . إمتاع الأسماع: ج 6 ص 176.
- 6- . موضع في بلاد بني عامر بن صعصعة، وقيل: الرتقاء: قاع لا يثبت شيئاً بين دار خزاعة ودار مسلم... وقيل: ماء لبني تيم الأدرم بن غالب بن فهر بن مالك من قريش (معجم البلدان: ج 3 ص 74).
- 7- . معجم ما استعجم: ج 4 ص 1134.
- 8- . إمتاع الأسماع: ج 6 ص 176 و 177.

وأبوها هو الذي نازع تُبَعًا(1) حين أراد أخذ الحجر الأسود إلي اليمن، فقام في ذلك خويلد، وقام معه جماعة من قريش، ثم رأي تُبَع في منامه ما رَوَّعه، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه(2). ولما حفر عبد المطلب زمزم قال له خويلد: يا ابن سلمى، لقد سقيت ماءً رغداً(3) وثثت(4) بادية(5) حيداً(6).

فقال عبد المطلب: أما إنك [تُشرك] في فضلها، والله لا يساعفني أحد عليها ببر(7)، ولا يقوم معي [بارزاً] إلا بذلت له خيراً لصهر، فقال خويلد:

[أقول وما قولي عليهم

بسبب(8)]

إليك ابن سلمى أنت حافر

زمزم

حفيرة(9) إبراهيم يوم ابن

هاجر

وركضة جبريل علي عهد آدم(10)]

فقال عبد المطلب: ما وجدت أحداً ورث العلم إلا قُدِّم(11) غير خويلد بن أسد. وكان يُقال لبني أسد في الجاهلية: السنة قريش(12).

ص: 321

1- . في إمتاع الأسماع: ج 6 ص 175: «تُبَع الأخير»، وفي الكامل في التاريخ (ج 1 ص 423): «هو الذي سار إلي المشرق من التبابعة»، ويعني بقوله: تُبَع الأخير، أنه آخر من سار إلي المشرق وملك البلاد، فإن ابن إسحاق وغيره يقولون: «إن الذي ملك البلاد المشرقية لَمَّا توفي، ملك بعده عدّة تبابعة، ثم اختل أمرهم زماناً طويلاً، حتّي طمعت الحبشة فيهم وخرجت إلي اليمن».

2- . البداية والنهاية: ج 6 ص 296، السيرة النبوية لابن كثير: ج 1 ص 267.

3- . رغداً: أي طيباً.

4- . ثثت: أي استخرجت.

5- . البادية: أي الصحراء.

6- . الحيد: ما شخص من نواحي الشيء، وفي شرح نهج البلاغة: «وثثت عادية حسداً».

7- . أي يا حسان.

8- . أي بعارٍ.

9- . في سبل الهدى والرشاد: ج 1 ص 221: «ركية».

10- . إن جبريل أنبط ماء زمزم مرتين، مرّة لآدم حتّي انقطعت زمن الطوفان، ومرّة لإسماعيل، ويعضد ما قاله خويلد هذين البيتين» (ربيع

- الأبرار: ج 1 ص 245). ومن خلال البيت الثاني دليل واضح علي إيمان خويلد، حيث يعتقد بإبراهيم وجبريل الأمين وآدم.
- 11- . أي ورث العلم ولم يقدم
- 12- . إمتاع الأسماع: ج 6 ص 177. وما بين المعقوفتين من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج 15 ص 217.

ولخويلد من الولد خمسة: عدي والعوامّ ونوفل وعمرو وحزام. ومن البنات خمس أيضاً: خديجة وهالة ورقيقة وهند وخالدة(1)، وهم من أمّهات شتّى.

ومن أزواج خويلد ريطة عبد العزّي، ومنية بنت الحارث(2)، وفاطمة بنت زائدة(3)، وهي أم السيّدة خديجة.

توفّي خويلد يوم حرب الفجار(4)، وقيل: بعد الفجار بخمس سنين [وقيل: قبل الفجار]، وبعضهم قال: إنّه قُتل في الفجار(5)، وفي المعارف أنّه قُتل في الجاهلية(6).

جدّها

وكان أسد بن عبد العزّي جدّ خديجة أحد الأشخاص في حلف الفضول الذي تداعت له قبائل من قريش، فتعاقدوا وتعاهدوا علي أن لا يجدوا بمكّة مظلوماً من أهلها أو غيرهم ممّن دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه وكانوا علي من ظلمه حتّي تردّ مظلمته(7)، حيث قال رسول الله(صلي الله عليه وآله) عن ذلك الحلف: «لقد شهدت في دار جدعان حلفاً لو دُعيتُ به في الإسلام لأجبت»(8).

وكان سبب حلف الفضول أن قريشاً تحالفت أحلافاً كثيرة علي الحميّة والمنعة... فكانت قريش تظلم في الحرم الغريب ومن لا عشيرة له، حتّي أتى رجل من بني أسد بن خزيمة بتجارة فاشتراها رجل من بني سهم فأخذها السهمي وأبي أن يعطيه الثمن، فكلم قريشاً واستجار بها، وسألها إعانتة علي أخذ حقه، فلم يأخذ له أحد بحقه فصعد الأسدّي أبا قبيس فنادي بأعلي صوته:

ص: 322

1- . سيأتي ذكرهم مفصلاً في «إخوة وأخوات خديجة».

2- . انظر: إمتاع الأسماع: ج 6 ص 194.

3- . انظر: الاستيعاب: ج 4 ص 379.

4- . انظر: الطبقات الكبرى: ج 1 ص 13.

5- . تاريخ يعقوبي: ج 1 ص 341، وما بين المعقوفتين من البداية والنهاية: ج 2 ص 362.

6- . المعارف: ص 219.

7- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 154.

8- . الروض الأنف: ج 1 ص 242.

يا أهل فِهْرٍ لمظلوم بضاعتُهُ

بيطن مَكَّةَ نائي الأهل والنَّفَرِ

إنَّ الحرامَ لمن تمَّت حرامتُهُ

ولا حرامَ لثوبي لابس

الغدِرِ

وقد قيل: لم يكن رجل من بني أسد، ولكنّه قيس بن شيبّة السلمي باع متاعاً من أبي خلف الجمحي وذهب بحقّه، فقال هذا الشعر. وقيل: بل قال:

يا لَقْصِيّ كيف هذا في الحرم وحُرمة البيت وأخلاق الكرم

أظلم لا يُمنع منّي من ظلم

فتدّمت قريش، فقاموا فتحالفوا ألا يُظلم غريب ولا غيره، وأن يُؤخذ للمظلوم من الظالم، واجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي . وكانت الأحلاف هاشم وأسد وزهرة

وتيم والحارث بن فهر، فقالت قريش: هذا فضول(1) من الحلف، فسُمّي «حلف الفضول».

وقال بعضهم: حضره ثلاثة نفر يقال لهم الفضل بن قضاة، والفضل بن جشاعة، والفضل بن بضاعة، فسُمّي بهذا «حلف الفضول». وقد قيل: إنّ هؤلاء النفر حضروا حلفاً لجرهم فسُمّي حلف الفضول بهم، وشبّه بالحلف في تلك السنة(2).

وكان حلف الفضول بعد الفِجَار؛ وذلك أنّ حرب الفِجَار كانت في شعبان، وكان حلف الفضول في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة(3).

وأما جدّها لأُمّها عمرو، فإنّه من أبطال الجاهلية، وقد ذكره الزبيدي في تاج العروس(4).

لقد اتّضح لنا من خلال ما ذكرناه عن أبيها وجدّها ونسبها، بأنّها عائلة طهارة شريفة لم تنجسها الوثنية الجاهلية، فبقيت علي أصالتها ومكانتها ومجدها وشرفها في قريش، حيث عُرفت بالفروسية والشجاعة والتضحية والإقدام وحماية الكعبة، إلي أن أراد الله لهذه السيّدة الجليلة الطاهرة خديجة بنت خويلد أن تجمع بين شرف الدنيا وعزّ

ص: 323

1- الفضول - لغة - : الزيادة، أي كلّ ما أُضيف إلي ما تحالفوا عليه سابقاً وارتضوا به هو فضول.

2- تاريخ يعقوبي: ج 1 ص 338.

3- هامش إمتاع الأسماع: ج 1 ص 18.

الآخرة بزواجها سيّد المرسلين، وسخاوتها بالمال وتضحيتها بالنفس من أجل إعلاء كلمة التوحيد في شعاب مكّة.

إخوة وأخوات خديجة

من خلال تفحصي المقدور عليه لكتب التاريخ والسيرة، وجدت أنّ إخوة خديجة:

1. عدي بن خويلد، ويكنّى به (1)، وأمه منية بنت الحارث (2).

2. العوّام بن خويلد، أبو الزبير، وزوج صفية بنت عبد المطلب، عمّه النبي (صلي الله عليه وآله) (3)، قُتل يوم الفجار الآخر (4).

3. نوفل بن خويلد، أمّه ريطة بنت عبد العزّي، ويقال له: ابن العدوية، من عدي بن خزاعة، وهو الذي عناه رسول الله (صلي الله عليه وآله) بقوله يوم بدر: «اللهم اكفنا ابن العدوية»، فقتل كافراً يومئذٍ، قتله الزبير بن العوّام، وهو ابن أخيه، وقد صاح نوفل: اقتلني قبل أن يقتلني أهل يثرب (5).

وفي السيرة لابن هشام: «وكان من شياطين قريش، وهو الذي قرن بين أبي بكر وطلحة في جبل حين أسلما، فبذلك كانا يُسمّيان بالقرينين. قتله علي يوم بدر» (6).

وكان يُقال له: أسد قريش، ولا عقب (7).

4. عمرو بن خويلد، ولا بقيّة له (8)، وهو الذي زوج خديجة لرسول الله (صلي الله عليه وآله) (9).

ص: 324

-
- 1- . انظر: إمتاع الأسماع: ج 6 ص 175.
 - 2- . إمتاع الأسماع: ج 6 ص 194.
 - 3- . انظر: الاستيعاب: ج 4 ص 428.
 - 4- . إمتاع الأسماع: ج 6 ص 194. وسُمّي بالفجار؛ لأنّ القتال حدث في الأشهر الحرم بين قبائل من العرب، وللعرب عدّة فجارات آخرها حضره النبي وكان ابن عشرين سنة (تاريخ مدينة دمشق: ج 51 ص 96).
 - 5- . انظر: إمتاع الأسماع: ج 6 ص 194.
 - 6- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 312.
 - 7- . المعارف: ص 219.
 - 8- . إمتاع الأسماع: ج 6 ص 195.
 - 9- . انظر: البداية والنهاية: ج 2 ص 296.

5. حزام بن خويلد(1)، وكان يُكنّى أبا خالد(2)، قُتل يوم الفِجَار الآخر(3)، وهو والد حكيم بن حزام، المولود في الكعبة(4)، شهد بدرًا مع الكفّار ونجا منهزمًا، وأسلم يوم

الفتح وحسن إسلامه، ولم يصنع شيئاً من المعروف في الجاهلية إلاّ وصنع في الإسلام مثله(5)، وكان يقول إذا اجتهد في يمينه: «لا والذي نجّاني يوم بدر»(6).

ومن أحفاده عبد الله بن عثمان بن حكيم، زوج سكينه بنت الحسين، وولدت له ولداً يُسمّى قُريناً، وله عقب(7).

قال حكيم: «ولدت قبل الفيل بثلاث عشرة سنة، وأنا أعقل حين أراد عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله حين وقع نذره عليه، وذلك قبل مولد رسول الله (صلي الله عليه وآله) بخمس سنين.

وأسلم حكيم يوم الفتح - أي فتح مكة - وأسلم أولاده يومئذٍ، وهم: هشام وخالد وعبد الله، وكلّهم قد صحب النبي (صلي الله عليه وآله) وروى عنه.

وروي أنّه باع داراً له من معاوية بستين ألف دينار، فقيل له: غبنك معاوية، فقال: والله ما أخذتها في الجاهلية إلاّ بزقّ خمر، أشهدكم أنّها في سبيل الله، فانظروا أيّنا المغبون؟»(8).

وصرف حكيم كلّ تفكيره ونشاطه إلى التجارة، فكانت قوافله تجوب أنحاء الجزيرة وتصل إلى الشام واليمن وغيرهما، وكان محبّاً لعمّته خديجة، لذا كان هو سبباً في حياة

ص: 325

1- . تاريخ الإسلام: ج3 ص223.

2- . المعارف: ص219.

3- . إمتاع الأسماع: ج6 ص195.

4- . روي أنّ بعض الأشخاص وُلدوا في الكعبة ولم يثبت ذلك عندنا، ولو ثبت فإنّ قضية أمير المؤمنين تختلف؛ وذلك أنّ لمولانا علي معجزة الربّ، وتختلف عن هؤلاء، قال يزيد بن قعنب: «فأينا البيت وقد انفتح من ظهره ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا، والترق الحائط، فرمنا أن يفتح لنا قفل الباب فلم يفتح، فعلمنا أنّ ذلك أمر من أمر الله، ثمّ خرجت بعد الرابع وبيدها أمير المؤمنين علي» (علل الشرائع: ص135، ضمن ح3، معاني الأخبار: ص62، ضمن ح10).

5- . انظر: أسد الغابة: ج2 ص45.

6- . الكامل في التاريخ: ج2 ص123. قوله: «إذا اجتهد في يمينه»؛ يعني إذا كان جاداً في قسمه.

7- . المعارف: ص219.

8- . المعارف: ص311.

خديجة التجارية، وفي أمور البيع والشراء، روي أنه هو الذي اشترى زيد بن حارثة بسوق عكاظ بأربعمائة درهم لخديجة(1).

ومن أخواتها

1.

رقيقة بنت خويلد، لم تكن لها صحبة، مما يدل على أنها توفيت قبل البعثة، وهي أخت خديجة لأُمّها، تزوّجها بجاد بن عمير فولدت له أميمة، لها صحبة، وهي من المبايعات(2)، شهدت مؤتة(3)، وروت عن النبي(صلي الله عليه وآله) وروي عنها(4)، وابنتها حكيمه بنت أميمة(5).

قالت أميمة بنت رقيقة: «أتيت رسول الله(صلي الله عليه وآله) في نسوة نبايعه، فقلنا: نبايعك يا رسول الله علي أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في معروف، فقال رسول الله(صلي الله عليه وآله): فيما استطعتن وأطقتن.

فقلت: فقلت: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلمّ نبايعك يا رسول الله، فقال: إني لا أصافح النساء، إنّما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة، أو مثل قولي لامرأة واحدة»(6).

2. هالة بنت خويلد، وهي أم أبي العاص بن الربيع(7)، زوج زينب بنت النبي(صلي الله عليه وآله)، وهي أخت خديجة من أمّها وأبيها(8)، وهي التي استأذنت علي رسول الله، فعرف استئذان خديجة، فارتاع(9) لذلك، وقال: «اللهم هالة! فغارت عائشة وقالت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين(10)، هلكت في الدهر، وأبدلك الله خيراً منها(11)...

ص: 326

- 1- . انظر: المعارف: ص 144.
- 2- . انظر: أسد الغابة، ض 7: ص 27.
- 3- . انظر: تاريخ مدينة دمشق: ج 96 ص 47.
- 4- . إكمال الكمال: ج 1 ص 205.
- 5- . الاستيعاب: ج 4 ص 353.
- 6- . تاريخ مدينة دمشق: ج 96: ص 48، وانظر: هامش إمتاع الأسماع: ج 6 ص 195.
- 7- . في موسوعة حياة الصحابيات: ص 321: «أزواج هالة بنت خويلد: الربيع بن عبد العزّي، ثم ربيعة بن عبد العزّي، ثم وهب بن عبد الثقفي، ثم قطن بن وهب بن عمرو الخزاعي».
- 8- . انظر: إمتاع الأسماع: ج 6 ص 196.
- 9- . أي تغيّر لونه لوجود الشبه من صوت خديجة في صوت هالة.
- 10- . أي سقطت أسنانها وبقيت حمرة اللثا.

11- . انظر: البداية والنهاية: ج3 ص158، وأسد الغابة: ج7 ص284.

فغضب رسول الله (صلي الله عليه وآله) وقال: والله لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، ورزقت مني الولد إذ حرمتموه...»(1).

3. هند بنت خويلد(2).

4. خالدة بنت خويلد، زوجها علاج بن أبي سلمة بن عبد العزي الثقفى(3).

ويستفاد ممّا ذكرناه من حياة أبيها وأمّها وجدّها وإخوتها وأخواتها ما يلي:

أولاً: بأنّ إخوتها وأخواتها من أمّهات شتّى، وأنّ خديجة وهالة ورقيقة وحزام والعوامّ من أمّ واحدة، وأنّ رقيقة وحزام والعوامّ توفوا في الجاهلية.

ثانياً: يُستشَمّ ممّا ذكر بأنّ أمّ خديجة وقومها أهل تجارة ومال، لذا كان المال والتجارة منحصراً بأيدي خديجة وحكيم ابن أخيها وأبي العاص؛ إمّا وراثته، أو عن طريق التجارة ومزاولتها منذ ريعان شبابهم.

ثالثاً: إنّ المجد والشرف والسؤدد والفروسية والشجاعة والفداء وقدااسة النسب جاء عن طريق أبيهما خويلد وفاطمة بنت زائدة.

رابعاً: ونستخلص من دفاع أبيها وحمایته للكعبة من الآثام والاعتداء، دلالة واضحة علي انتمائه الديني والتزامه لشريعة إبراهيم .

خامساً: وكما أنّهم أهل الفصاحة وألسنة قريش، وأهل العلم والمعرفة، هذا ما وصفهم عبد المطلب لبني أسد، وخاصة خويلد حينما حفر عبد المطلب زمزم.

هل تزوّجت خديجة قبل النبي (صلي الله عليه وآله)؟

إنّ أغلب المؤرّخين ذكروا أنّها تزوّجت أولاً وثانياً وولدت لها، ثمّ تزوّجت بالنبي (صلي الله عليه وآله)، وأنكر ذلك أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضى في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص، وذكروا أنّ النبي (صلي الله عليه وآله) تزوّج بها وكانت عذراء، يؤكّد ذلك ما ذكر في

ص: 327

1- . تاريخ مدينة دمشق: ج3 ص195.

2- . انظر: إمتاع الأسماع: ج6 ص196.

3- . موسوعة حياة الصحابيّات: ص322

كتابي الأنوار والبدع، أن رقيّة وزينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة(1)، واتّبعمهم علي هذا القول أبو القاسم الكوفي صاحب كتاب الاستغاثة(2)، ثم أثارها السيّد جعفر مرتضي العاملي في كتابه بنات النبي أم ربائبه؟

القائلون بتزوّجها قبل رسول الله(صلي الله عليه وآله)

ومن جملة الذين قالوا بتزوّجها قبله:

أولاً: أبو الفرج الإصفهاني في كتابه مقاتل الطالبين، حيث ذكر: «وتزوّجت قبل رسول الله(صلي الله عليه وآله) رجلين، يُقال لأحدهما عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وولدت له بنتاً يُقال لها هند، ثم توفي عنها، فخلف عليها أبو هالة ابن النّباش ابن زرارة بن وقدان بن حبيب بن سلامة بن عدي بن حرزة بن أسيد بن عمرو بن تميم، فولدت له ابناً يُقال له هند(3).

وروي عن النبي(صلي الله عليه وآله)، وروي عنه الحسن بن علي بن أبي طالب حديث صفة رسول الله(صلي الله عليه وآله) المشهور، وقال فيه: «سألتُ خالي هند

بن أبي هالة عن صفة رسول الله(صلي الله عليه وآله) وكان له وصافاً(4).

ثانياً: ابن عبد البرّ القرطبي في الاستيعاب: «كانت خديجة تحت أبي هالة بن زرارة بن نباش... ثم خلف عليها بعد أبي هالة عتيق بن عائذ... بن مخزوم، ثم خلف عليها بعد عتيق المخزومي رسول الله(صلي الله عليه وآله)»(5).

ثالثاً: ابن الأثير الجزري في أسد الغابة: «وكانت خديجة قبل أن ينكحها رسول الله(صلي الله عليه وآله) تحت عتيق بن عابد... فولدت له هند، ثم خلف عليها بعد عتيق أبو هالة... حليف بني

ص: 328

1- . بحار الأنوار: ج22: ص191 ح5، المناقب: ج1 ص159.

2- . الاستغاثة: ج1 ص68.

3- . وكان يقول: «أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً، أبي رسول الله، وأمي خديجة، وأخي القاسم، وأختي فاطمة» (المعارف: ص133).

4- . مقاتل الطالبين: ص58 و59.

5- . الاستيعاب: ج4 ص379.

الدار بن قصي، فولدت له هند وهالة، فهند بنت عتيق، وهند وهالة ابنا أبي هالة، كلهم إخوة أولاد رسول الله (صلي الله عليه وآله) من خديجة»(1).

رابعاً: ابن سعد في الطبقات الكبرى: «وكانت قريش تزوج حليفهم، فولدت خديجة لأبي هالة رجلاً يقال له هند وهالة رجل أيضاً، ثم خلف عليها بعد أبي هالة عتيق بن عابد أم عائذ كما في المصدرين السابقين... فولدت له جارية يقال لها هند، فتزوجها صيفي بن أمية. وروي أيضاً: وكانت خديجة قبل أن يتزوجها أحد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد فلم يقض بينهما نكاح، فتزوجها أبو هالة واسمه هند ابن النباش»(2).

خامساً: الدولابي في الذرية الطاهرة: «كانت خديجة قبل النبي (صلي الله عليه وآله) تحت أبي هالة أخي بني تميم، وكانت بعد أبي هالة عند عتيق بن عابد المخزومي»(3).

سادساً: يُنظر مثل ما تقدّم في مجمع الزوائد(4)، والإصابة(5)، وإكمال الكمال(6)، وكتاب المحبّر(7)، وتاريخ مدينة دمشق(8)، وتاريخ الطبري(9).

فمن خلال تتبعنا للمصادر وجدنا أغلبهم اتفقوا علي تزويجها قبل رسول الله (صلي الله عليه وآله) مرتين، إلا أنّهم اختلفوا أيهما كان الأول في التزويج، واختلفوا أيضاً في الاسم.

القول بأنها لم تتزوج قبله

أنكر أبو القاسم الكوفي المتوفّي سنة (352 هـ) في كتابه الاستغاثة بأنّ خديجة تزوّجت قبل رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وقال: «قد صحّت الرواية عندنا أنّه كانت لخديجة بنت خويلد من

ص: 329

- 1- . أسد الغابة: ج 7 ص 79.
- 2- . الطبقات الكبرى: ج 8 ص 11
- 3- . الذرية الطاهرة: ص 47.
- 4- . مجمع الزوائد: ج 9 ص 219.
- 5- . الإصابة: ج 8 ص 99.
- 6- . إكمال الكمال: ج 1 ص 523.
- 7- . كتاب المحبّر: ص 452.
- 8- . تاريخ مدينة دمشق: ج 3 ص 179 و 190.
- 9- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 411.

أمها أخت يُقال لها: هالة، قد تزوّجها رجل من بني مخزوم، فولدت بنتاً اسمها هالة، ثم خلف عليها بعد أبي هالة رجل من تميم يُقال له أبو هند، فأولدها ابناً كان يُسمّى هند بن أبي هند وابنتين، فكانتا هاتان البنتان منسوبتين إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله): زينب ورقية، من امرأة أخري قد ماتت.

ومات أبو هند، وقد بلغ ابنه مبالغ الرجال والابنتان طفلتان، وكان في حدثان تزويج رسول الله (صلي الله عليه وآله) بخديجة، وكانت هالة أخت خديجة فقيرة، وكانت خديجة من الأغنياء الموصوفين بكثرة المال، فأما هند بن أبي هند، فإنه لحق بقومه وعشيرته في البادية، وبقيت الطفلتان عند أمهما هالة أخت خديجة، فضمّت خديجة أختها هالة مع الطفلتين إليها وكفلت جميعهم.

وكانت هالة أخت خديجة هي الرسول (1) بين خديجة وبين رسول الله (صلي الله عليه وآله) في حال التزويج، فلما تزوّج رسول الله (صلي الله عليه وآله) بخديجة ماتت (2) هالة بعد ذلك بمدة يسيرة وخلفت الطفلتين: زينب ورقية في حجر رسول الله (صلي الله عليه وآله) وحجر خديجة، فربّاهما، وكان من سنة العرب في الجاهلية من يرّي يتيماً ينسب ذلك اليتيم إليه... ثم نسب أخوهما هند أيضاً إلي خديجة؛ إذ كان اسم خديجة ثابتاً معروفاً، وكان اسم أختها هالة خاملاً مجهولاً، فظنّوا لما غلب اسم خديجة علي اسم هالة أختها في نسب ابنها أن أبا هند كان متزوّجاً بخديجة قبل رسول الله (صلي الله عليه وآله) (3).

وذكر ابن شهر آشوب في كتابه المناقب نقلاً عن البلاذري وأبي القاسم الكوفي والمرتضي في الشافي وأبي جعفر في التلخيص بأن النبي (صلي الله عليه وآله) تزوّج خديجة وكانت عذراء (4).

ص: 330

1- . أي الوسطة.

2- . وروي أنّها كانت علي قيد الحياة بعد وفاة خديجة، فعن عائشة قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد علي رسول الله فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك وقال: اللهم هالة! قالت: فغرث فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيراً منها!» (أسد الغابة: ج 7 ص 285، عمدة القارئ: ج 16 ص 282: صحيح البخاري: ج 5 ص 48).

3- . الاستغاثة: ج 1 ص 68 - 69.

4- . انظر: المناقب: ج 1 ص 159.

واتبع هذا الرأي أيضاً السيد جعفر مرتضى العاملي في كتابه بنات النبي أم ربائبه؟ معللاً ذلك بأنها دعوة قد صنعتها يد السياسة، أو أنها قد جاءت لتكريس فضيلة لعائشة أم المؤمنين، مفادها: أن رسول الله (صلي الله عليه وآله) لم يتزوج بكرةً غيرها(1).

يُضاف إلي ما ذكر بأن الأفضلية بالبكرية لم تتكامل إلا إذا كان هناك حمل، فإذا كانت عاقراً فالحصيرة في ناحية البيت خير من المرأة التي لا تلد(2)، وإن المرأة السوداء الولود أفضل من الحسناء الجميلة العاقر(3). وروي عن أبي عبد الله قال: «جاء رجل إلي رسول الله فقال: يا نبي الله، إن لي ابنة عمّ قد رضيت جمالها وحسنها ودينها، ولكنّها عاقر؟ قال: لا تتزوجها، إن يوسف بن يعقوب لقي أخاه فقال: يا أخي، كيف استطعت أن تزوج النساء بعدي؟ فقال: إن أبي أمرني فقال: إن استطعت أن تكون لك ذرية تثقل الأرض بالسيح فافعل. ثم قال: وجاء رجل من الغد إلي النبي (صلي الله عليه وآله) فقال له مثل ذلك، فقال له: تزوج سواء(4) ولوداً، فإنني مكاثركم الأمم يوم القيامة(5).

فخديجة إذن أفضل منها؛ لأنها ولود. روي عن عائشة أنها قالت: «كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) لا يكاد يخرج من البيت حتّي يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً، فقد أبدلك الله خيراً منها.

فغضب حتّي اهتزّ مقدّم شعره من الغضب، ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء(6).

وفي رواية: قال الصادق: «... فغضب رسول الله (صلي الله عليه وآله) ثم قال: مه يا حميراء، فإن الله

ص: 331

- 1- . بنات النبي أم ربائبه: ص 88.
- 2- . انظر: أمالي الصدوق: ص 455 ضمن ح 1، وعلل الشرائع: ص 515 ضمن ح 5.
- 3- . انظر: نوادر الراوندي: ص 13.
- 4- . أي قبيحة.
- 5- . الكافي: ج 5 ص 333 ح 1.
- 6- . أسد الغابة: ج 7 ص 84، صفة الصفوة: ج 2 ص 8، الاستيعاب: ج 4 ص 384، وفي تاريخ مدينة دمشق: ج 3 ص 195: «ورزقت منّي الولد إذ حرمتموه منّي».

تبارك وتعالى بارك في الودود الولود، وإنّ خديجة رحمها الله ولدت منّي طاهراً وهو عبد الله وهو المطهر، وولدت منّي القاسم وفاطمة ورقية وأم كلثوم وزينب، وأنت ممن أعقم الله رحمته فلم تلدي شيئاً»(1).

وإنّي مع الذين قالوا إنّها باكر ولم تتزوج قبل رسول الله(صلي الله عليه وآله)؛ لأنّ الرحم الذي أنجب الزهراء البتول(عليها السلام) أم سيدي شباب أهل الجنة، ومن ذريتها المهديّ، حرّي أن يكون لذلك الرحم قداسة وشرف ولم يقربه غير رسول الله(صلي الله عليه وآله)؛ لما يتجلّي فيه نور العصمة.

وكما أنّي استبعدت أن يكون زوجها من رسول الله(صلي الله عليه وآله) وعمرها أربعون عاماً، بل الصحيح وعمرها ثمان وعشرون عاماً(2)؛ لكي ينسجم مع ما ولدته خديجة ويقرب احتمال أنّها باكر.

ابن عمّها ورقة بن نوفل

من الشخصيات البارزة في حياة السيّدة خديجة ابن عمّها ورقة بن نوفل بن أسد، وأمّه هند بنت أبي كثير بن عبد بن قصي، وهو أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية، وطلب الدين، وقرأ الكتب، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان(3)، وبما أنّ المسيحية آخر الشرائع السماوية في الجزيرة العربية قبل ظهور شريعة الإسلام، لذا تنصّر وأصبح رجلاً من القسيسين(4) المنتظرين ذلك الدين الأزلي، وكان يكتب الخط العربي، فكتب

بالعربية(5) من الإنجيل ما شاء أن يكتب(6).

ص: 332

- 1- . بحار الأنوار: ج 16 ص 3 ذيل ح 6 عن الخصال: ص 405 ذيل ح 16.
- 2- . كما في بحار الأنوار: ج 16 ص 12، كشف الغمّة: ج 1 ص 510، الذرية الطاهرة: ص 52، المستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 82، سير أعلام النبلاء: ج 2 ص 111، تهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 303، تاريخ الخميس: ج 1 ص 264.
- 3- . انظر: الأغاني: ج 3 ص 119.
- 4- . انظر: الكافي: ج 5 ص 375 ضمن ح 9.
- 5- . في بحار الأنوار: ج 18 ص 228: «وكان يكتب العبراني بالعربية»، وفي تاريخ مدينة دمشق: ج 36 ص 5: «وكان يكتب الكتاب العربي، فكتب بالعربية».
- 6- . تاريخ الإسلام: ج 1 ص 118.

وكان همّه خروج النبي بتلك الأوصاف التي كانت مشخصة في التوراة والإنجيل؛ لكي يقتدي به ويؤازره.

«روي أنّ زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتّى انتهيا إلي راهب بالموصل، فقال لزيد: من أين أقبلت يا صاحب البعير؟

قال: من بيت إبراهيم.

قال: وما تلتمس؟

قال: الدين.

قال: ارجع؛ فإنّه يوشك أن يظهر الذي تطلب في أرضك.

فرجع يريد مكّة، حتّى إذا كان بأرض لحم(1) عدو عليه فقتلوه، وكان يقول: أنا علي دين إبراهيم، وكان يقول: إنّنا ننتظر نبياً من ولد إسماعيل من ولد عبد المطلب(2).

وقال النبي (صلي الله عليه وآله): «زيد بن عمرو يُبعث أمة وحده»، ورثاه ورقة بن نوفل:

رشدت وأنعمت ابن عمرو

وإنّما

تجنّبت تّورا من الله(3) حاميا

بدينك ربّاً ليس ربّ كمثلته

وتركك أوّثان الطواغي(4) كما هيا

وقد ترك الإنسان رحمة ربّه

ولو كان تحت الأرض ستّين

وإدياً(5)

وفي تاريخ الإسلام: «وقد كان نفر من قريش: زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث بن أسد وهو ابن عمّ ورقة وعبيد الله بن جحش بن رثاب وأمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، حضروا قريشاً عند وثنٍ لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلمّا اجتمعوا خلا بعض أولئك نفر إلي بعض وقالوا: تصادقوا وليكنتم بعضكم علي بعض، فقال قائلهم: تعلمون والله ما قومكم علي شيء، لقد

- 1- . لحم: حي من اليمن، ومنهم ملوك العرب في الجاهلية (لسان العرب: ج13 ص539).
- 2- . الخرائج والجرائح: ج1 ص135 و221.
- 3- . في المعارف: ص59: «النار».
- 4- . في المعارف: ص59: «وتركك جنان الجبال».
- 5- . المناقب: ج1 ص14.

أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه، وما وثن يُعبد لا يضر ولا ينفع، فابتغوا لأنفسكم. فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى والممل كلاً يتبعون الحنيفية دين إبراهيم، فأما ورقة فتنصّر ولم يكن منهم أعدل شأنًا من زيد بن عمرو، اعتزل الأوثان وفارق الأديان إلا دين إبراهيم»(1).

لقد أدرك ورقة بن نوفل الإيمان بعقله وبشّر خديجة بالنبى (صلى الله عليه وآله)، فكان له أكبر الأثر في التربية الروحية التي كانت عليها السيدة خديجة في الجاهلية.

وله الأثر أيضاً علي أخته. روي أنّ امرأة من بني أسد - وهي أخت ورقة بن نوفل - وهي عند الكعبة فقالت له حين نظرت إلي وجه عبد الله بن عبد المطلب: «أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك مثل الإبل التي نُحرت عنك [إن تزوّجتني]... فلما تزوّج عبد الله رأي تلك المرأة التي هي أخت ورقة، فقال لها: ما لك لا تعرضين عليّ اليوم ما كنتِ عرضتِ عليّ بالأمس؟ قالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة. وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أنّه سيكون في هذه الأمة نبي»(2).

وقد اختلف في إسلامه، فمنهم من يري أنّه هلك قبيل مبعث النبي (صلى الله عليه وآله)

وآله؛ لأنّه قال للنبي (صلى الله عليه وآله): «إن يدركني يومك لأنصرتك نصراً مؤزراً»(3).

وفي رواية قال ورقة للنبي (صلى الله عليه وآله): «يا ليتني فيها جذعاً(4)، أكون حين يخرجك قومك... وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثمّ لم ينشب(5) ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة، ثمّ أتاه الوحي الناموس جبريل»(6).

وعن عائشة قالت: «سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن ورقة، فقالت له خديجة: إنّّه كان صدّكك،

ص: 334

1- تاريخ الإسلام: ج 1 ص 90، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 237.

2- السيرة النبوية: ج 1 ص 164 و 165.

3- انظر: الكامل في التاريخ: ج 2 ص 49.

4- أي شاباً قوياً؛ أي يا ليتني أكون شاباً حين تظهر نبوتك حتّى أبلغ في نصرك.

5- أي لم يمكث ولم يحدث شيئاً ولم يشتغل به.

6- بحار الأنوار: ج 18: ص 228، وانظر: الأغاني: ج 3 ص 120.

وإنه مات قبل أن تظهر - أي أنه لم يدرك زمان دعوتك ليصدقك ويأتي بالأعمال علي موجب شريعتك، لكن صدقك قبل مبعثك - فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): أريته في المنام وعليه ثياب بياض، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك»(1).

لذلك نهى النبي (صلي الله عليه وآله) عن سب ورقة... قيل: «سأب أخ لورقة رجلاً فتناول الرجل ورقة فسبّه، فبلغ النبي (صلي الله عليه وآله) فقال: هل علمت أنني رأيت لورقة جنة أو جنتين؟ فنهى عن سبّه»(2).

وعن جابر عن النبي (صلي الله عليه وآله)، قال: «رأيت ورقة في بطنان الجنة عليه السندس»(3).

ومنهم من يري أنه أدرك الدعوة وأسلم تبعاً لما روي من «أن بلالاً كان يُعذّب في

رمضاء(4) مكة وقت الظهيرة، ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتلقي علي صدره، ويقول له أمية: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يُعذّب وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقول لأمية: أحلف بالله لنن قتلتموه علي هذا لا تحذنه حناناً»(5).

فمن خلال هذه الرواية يدل علي أن بلالاً ما عذب إلا بعد أن أسلم وشاعت دعوة محمد (صلي الله عليه وآله)، لذا فإن ورقة بن نوفل أدرك دعوة النبي (صلي الله عليه وآله).

ولورقة شعر سلك فيه مسلك الحكماء، ومن شعره:

لقد نصحت لأقوامٍ وقلتُ

لهم

أنا النذيرُ فلا يغرركم

أحدُ

لا تعبدنّ إلهاً غير

خالقكم

ص: 335

1- . أسد الغابة: ج 5 ص 447.

2- . الإصابة: ج 4 ص 633، و انظر: الأغاني: ج 3 ص 122.

3- . الإصابة: ج 4 ص 635.

4- . أي الأرض الحامية من شدة الشمس.

5- . الكامل في التاريخ: ج 2 ص 66، و انظر: حلية الأولياء: ج 1 ص 148. ومعني «حناناً»: رحمة وبركة، أراد لأجعل قبره موضع حنان؛

أي مظنة من رحمة الله تعالى، فأتمسح به متبركاً كما يتمسح بقبور الصالحين الذين قُتلوا في سبيل الله من الأمم الماضية، فيرجع ذلك عاراً عليكم وسبّة عند الناس (لسان العرب: ج 13 ص 128).

فإن دعوكم فقولوا بيننا

[حَدِّدْ \(1\)](#)

سبحانَ

ذي العرش سبحاناً نعوذُ به

وقبل قد سبح الجوديّ [\(2\)](#) والجُمُدُ [\(3\)](#)

مسحَّرَ كلَّ ما تحت السماء

له

لا ينبغي أن يُناوي مُلكه

أحدُ

لا شيء ممَّا تري تبقي

بشاشته

يبقي الإله ويؤدي المال

والولدُ

لم تُغنِ عن هُرْمُزٍ يوماً

خزائنه

والخُلْد

قد حاولت عادٌ فما خلدوا

ولا سليمان إذ دان الشعوب

له

والجنّ

والأنس تجري بينها البردُ [\(4\)](#)

ومن قصيدة له:

فإن يك حقاً يا خديجة

فاعلمي

حديثك إيانا فأحمد مرسل

يفوز به من فاز عزاً لدينه

ويشفي

به الغوي الشقي المضلل

فريقان منهم: فرقة في جنانه

وأخر بأغلال الجحيم تضلل (5)

ومن قصيدة له أيضاً:

فخبرنا عن كل خير بعلمه

وللحق أبواب لهن مفاتح

وإن ابن عبد الله أحمد

مرسل

إلي كل من ضمت عليه

الأباطح

وظني به أن سوف يُبعث

صادقاً

كما أرسل العبدان نوح

وصالح

وموسي وإبراهيم حتي يري

بهاء ومنشور من الذكر واضح(6)

وله أيضاً:

يا للرجال لصرف الدهر

والقدر

وما لشيء قضاء الله من

غير

حتى خديجة تدعوني لأخبرها

ص: 336

-
- 1- . أي منع.
 - 2- . الجودي: جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح .
 - 3- . الجُمد: جبل بنجد.
 - 4- . الأغاني: ج 3 ص 121. والبُرد: جمع بريد، وهو الرسول.
 - 5- . بحار الأنوار: ج 18 ص 195 ضمن ح 30 عن المناقب: ج 1 ص 45.
 - 6- . المناقب: ج 1 ص 45.

وما لنا بخفي العلم من خبر

فخبرتني بأمرٍ قد سمعت به

فيما

مضي من قديم الناس والعصر

بأن أحمد يأتيه فيخبره

جبريل أنك مبعوثٌ إلي البشر(1)

ومن وصاياه لخديجة إذا دخل عليها يقول لها: «يا بنت أخي(2)، لا تمارِ جاهلاً ولا عالماً؛ فإنك متي ماريتِ جاهلاً أذلك، ومتي ماريتِ عالماً منعك علمه، وإثما يسعد

بالعلماء من أطاعهم. أي بنية، إياك وصحبة الأحمق الكذاب، فإنه يريد نفعك فيضرك، ويقرب منك البعيد، ويبعد عنك القريب، إن ائتمنته خانك، وإن ائتمنتك أهانك، وإن حدثك كذبك، وإن حدثته كذبك، وأنت منه بمنزلة السراب الذي يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. واعلمي أن الشاب الحسن الخلق مفتاح للخير مغلاق للشر، وأن الشاب الشحيح الخلق مغلاق للخير مفتاح للشر، واعلمي أن الآجر إذا انكسر لم يشعب ولم يعد طيناً(3).

وذكر أن ورقة بن نوفل كان شيخاً كبيراً وقد عمي(4)، وسئل النبي (صلي الله عليه وآله) عنه فقال: «يُبعث يوم القيامة أمة وحده»(5). وسيأتي إن شاء الله خبره في ذكر ابتداء الوحي إلي النبي (صلي الله عليه وآله) أيضاً.

ومما يُستفاد من هذه الشخصية

أولاً: الزهد الحقيقي في حياة ورقة بن نوفل، وانصبابه في العبادة لله، وحرصه علي معرفة أوصاف النبي (صلي الله عليه وآله)، وانتظار ظهوره لإنقاذ هذه الأمة من الانحراف العقائدي الذي ساد في مكة، وهذا دليل علي حرصه للتوحيد، ممّا ولد في نفسية قومه ذلك الأثر، وخاصة في حياة خديجة الروحية.

ص: 337

- 1- . بحار الأنوار: ج 18 ص 195 ضمن ح 30، المناقب: ج 1 ص 45.
- 2- . في البداية والنهاية: ج 3 ص 20: «وما قوله: يا بنية أخي، إلا دليلاً علي مدي احترامها وتقديرها له، والمكانة التي له في نفسها».
- 3- . بحار الأنوار: ج 75 ص 446 ح 5 عن أمالي الطوسي: ج 1 ص 308 ح 44.
- 4- . انظر: تاريخ مدينة دمشق: ج 36 ص 5.
- 5- . مجمع الزوائد: ج 9 ص 416.

ثانياً: صراحته في مقولة الحقّ ودفاعه عن المظلومين، وخاصة حينما رأى بلائاً يُعذّب في صحراء مكّة، وقال قولته المشهورة: «أحلف بالله لئن قتلتموه لاتخذته حناناً»، وهو دليل علي إسلامه.

ثالثاً: مدح النبي (صلي الله عليه وآله) له يعزّز من مكانة ورقة بن نوفل، ويدلّ علي

تديّنه السليم من الشوائب والانحراف؛ لأنّه علي شريعة إبراهيم وسلامة الإنجيل.

رابعاً: كانت خديجة نفسها مشغولة عن الناس، وكانت تسأل عن الرسول الذي سيرسله الله لهداية الأمة، فكانت دائمة الحديث مع ابن عمّها ورقة حول ظهور النبي لهداية البشر، فكان الإيمان بالنبي (صلي الله عليه وآله) من قبلها دون تردد أو شكّ.

أموال خديجة من أين؟

قد يحصل الإنسان علي المال ونمائه، إمّا عن طريق التجارة أو الوراثة، أو بالعثور علي كنز، أو عن طريق الغارات والنهب والسلب.

ويُستبعد أن تكون أموال خديجة مقترفة عن طريق النهب والغارات؛ لأنّ قومها وأبويها - كما سبق - من العوائل التي يُشار لهم بالفضل وحُسن السيرة والخُلق النبيل. وكما لم يحدثنا التاريخ بأنهم وجدوا كنزاً وعاشوا منه حتّي يصل إليها وراثتاً.

بل حدّثنا التاريخ بأنّ عرب مكّة وأشرفها كانوا تجّاراً⁽¹⁾؛ لأنّ طبيعة مكّة الصحراوية، ومكانة الكعبة التي هي قبلة الناس، وتوسّطها بين البحار والأمم، ممّا شجعهم علي التغرّب في البلاد من أجل حياة أفضل لهم.

وبعد أن كانت تجارة مكّة مقتصرة علي التجارة الداخلية مرتبطة بالحرم، فتح لها هاشم بن عبد مناف⁽²⁾ وإخوته مجال التجارة الخارجية، فكان الإيلاف.

ص: 338

1- . انظر: محاضرات الأدباء: ج2 ص465.

2- . ذكر في التفسير الكبير: ج32 ص107: «لما شكوا المجاعة خطب هاشم بن عبد مناف - وكان سيّد قومه - : إنكم أجذبتم جبداً تقلّون فيه وتذلّون، وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع. قالوا: نحن تبع لك فليس عليك منّا خلاف، فجمع كلّ بني أب علي الرحلتين في الشتاء إلي اليمن وفي الصيف إلي الشام للتجارات، فما ربح الغني قسّمه بينه وبين الفقير، حتّي كان فقيرهم كغنيّهم، فجاء الإسلام وهم علي ذلك».

والإيلاف: عبارة عن عهود لضمان مرور قوافل التجار مروراً آمناً، ويُعطي لهم مقابل ذلك الأمان ثمناً، أو تكون لهم مشاركة مع الرؤساء في التجارة.

فكانت لقريش رحلتان في السنة، رحلة في الشتاء إلى اليمن؛ لأنها بلاد حامية، ورحلة في الصيف إلى الشام؛ لأنها بلاد باردة(1).

وكانوا في رحلتهم آمنين؛ لأنهم أهل حرم الله وولادة بيته العزيز، يُضاف إلى ذلك قوة شخصية هاشم وكرمه ومحبوبيته لدى الملوك ورؤساء القبائل، فلا يتعرض لقوافل تجارة قريش أحد، ولا يغير عليهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم، وكان غيرهم لا يأمنون من الغارة في السفر والحضر.

مما شجع أهل مكة علي توظيف رؤوس أموالهم في التجارة، ومشاركتهم في الرحلتين، لذا فإن نواة أموال خديجة جاءت - علي ما يُستشف من الروايات - وراثية؛ نتيجة لكون قومها وبعض أزواجها - إن كانت تزوجت قبل الرسول - وأبيها من أهل مكة وأشرفها تجاراً، حيث ذكر في كنز العمال: «فبعثت إليه(2) خديجة فقالت: انت أبي... فقال: أبوك رجلٌ كثير المال وهو لا يقبل»(3).

وذكر البستاني في دائرة المعارف: «فمات عنها أبو هالة، والظاهر أنه خلف لها ثروة عظيمة»(4). فيما لو سلمنا أنها قد تزوجت.

وفي دائرة المعارف الإسلامية، قال: «أرملة تاجر ميسور الحال تقوم بنفسها علي شؤون تجارتها»(5).

ويُحتمل أيضاً أن تكون قسماً من أموالها وراثية من قبل أمها.

وقد يُتبادر إلي الذهن أن المرأة والأطفال في الجاهلية لم يورثوا، وإنما يرث الزوج

ص: 339

1- . مجمع البيان: ج5 ص545.

2- . أي لرسول الله .

3- . كنز العمال: ج13 ص690 ضمن ح37763.

4- . دائرة المعارف: ج7 ص343.

5- . دائرة المعارف الإسلامية: ج8 ص234.

والذكور والبالغون علي ما قرأنا.

إنّ العرب كانوا قبل ظهور عمرو بن لحي الخزاعي - الذي دعا الناس إلي عبادة الأصنام - علي بصيرة من أمرهم، يتعبّدون بشريعة خليل الرحمن إبراهيم ، فكانوا يعتقدون أنّ الله واحد لا شريك له، وظلّ بعضهم علي التوحيد ملتزماً بما كانوا عليه من تعظيم البيت والطواف به والحجّ ونصرة المظلوم، وترك ما حرّم الله ، وخاصة طائفة من بني هاشم وبني أسد الذين منهم خديجة.

فالذي علي شريعة إبراهيم يورث ولا يُظلم أحداً، وبما أنّ خديجة أكبرهم سنّاً ولم يبقَ من إخوانها سوي عمرو ولم يعقب، والذي حضر تزويج خديجة من نبيّنا محمّد (صلي الله عليه وآله) - وقد ذكرنا ذلك عندما تحدّثنا عن إختارها - وكما يشهد لنا التاريخ بأنّ خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة(1)، لذا جعلت تلك الأموال الوراثية في المضاربة والتجارة، فنمت حتّي قيل: «إنّ لها أزيد من ثمانين ألف جمل متفرّقة في كلّ مكان، وكان لها في كلّ ناحية تجارة، وفي كلّ بلد مال، مثل مصر والحبشة وغيرها»(2).

ويعود الفضل كلّهُ إلي عبد المطلب في تجديد عهود الإيلاف بين الملوك والقبائل، وهلاك أصحاب الفيل وردّ كيدهم في نحورهم، حيث ازداد وقع أهل مكّة في القلوب، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر، وحُفظت أموال التجار وخاصة قريش بما فيهم النساء.

وعندما مات عبد المطلب، تمركزت الوثنية في الجزيرة، أخذت خديجة تبحث عن رجل كريم أمين يحافظ علي سير تجارتها وتوظيف أموالها، فاختارت الأمين الصادق محمّد بن عبد الله (صلي الله عليه وآله)، ونعمَ من اختارت، حيث فازت بشرف الدنيا ونعيم الآخرة، حيث وظّفت أموالها لخدمة الإسلام وإعلاء كلمة الله ؛ لأنّ الإسلام قد قام بسيف أمير المؤمنين علي ، ولا أشكّ في أنّ هذا الإنفاق والإيثار

في سبيل الله هو

ص: 340

1- . الثقات: ج 1 ص 46.

2- . بحار الأنوار: ج 16 ص 22.

السبب الأساسي في اختيارها من قبل الله لتكون إحدى زوجات الرسول في الآخرة كما كانت أولى زوجاته في الدنيا.

خديجة تبحث عن الصادق الأمين لتجارتها

من النقاط الأساسية في التعامل التجاري آنذاك للأشخاص الموفودين لهذا العلم لمن لم يملك المال، هو عدم الغش وصدق الحديث وأداء الأمانة والقروض المستلفة من الناس، مما يشجع أصحاب رؤوس الأموال علي الاعتماد عليهم وإعطاء المال لهم.

وهذه الصفات قلما تجدها في الجاهلية بعد موت الأخيار والمعاهدين علي الإيلاف، وتفشي الفقر والمجاعة آنذاك، لذا كان الاختيار وإعطاء الربح الكثير لسيد البشر محمد(صلي الله عليه وآله)؛ لكونه الصادق الأمين.

فهل هذا يكفي بالنظر إلي الطاهرة اللبيرة خديجة لتجارتها؟ أم أنها تبتغي وتبحث عن أشياء أسمى من ذلك؟

فمن خلال الروايات وجدنا أنّ الدافع الأساسي لسيدتنا خديجة (رضوان الله تعالى عليها) أنها كانت تبحث عن النبي الذي سوف ينقذ الأمة من ظلمات الجهل العقائدي، والذي سوف يظهر في زمانها، وكلّ المؤشّرات والمواصفات للنبوة كانت متمثلة في محمد بن عبد الله(صلي الله عليه وآله)، لذا كان التقرب منها له، وإعطاؤه المزيد من المال عن طريق التجارة، وكانت رغبتها للنبي محمد(صلي الله عليه وآله) علي أساس التقرب لا علي أساس الاستئجار، أو أن يكون أميناً علي أموالها.

وكان لخديجة ابن عمّ يُقال له ورقة - كما ذكرنا سابقاً - وكان يعرف صفات النبي... وكان عند ورقة أنه يتزوج بامرأة سيدتنا من قريش تسود قومها وتتفق عليه مالها وتساعد علي كلّ الأمور، فعلم ورقة أنه ليس بمكة أكثر مالاً من خديجة، فرجا ورقة

أن تكون ابنة عمّه خديجة، وكان يقول لها: «يا خديجة، سوف تتصلين برجل يكون أشرف أهل الأرض»(1).

ص: 341

وروي أنّ نساء قريش اجتمعن في المسجد في عيد، فإذا هنّ برجل يقول: «ليوشك أن يُبعث فيكُنّ نبي، فأيكن استطاعت أن تكونهن أرضاً يطأها فلتفعل... فقرر ذلك القول في قلب خديجة»(1).

وحُكي أنّ أحد الأخبار أخبر خديجة بصفات النبي وأنها موجودة عند محمد بن عبد الله... فقالت خديجة: «أبها الحبر، بِمَ عرفت محمّداً أنّه نبي؟ قال: وجدتُ صفاته في التوراة... وسوف يتزوج بامرأة من قريش سيّدة قومها، وأميرة عشيرتها، ثمّ أشار بيده إليها...»(2). لذا اشتغل قلب خديجة بمحمد(صلي الله عليه وآله) حتّى تعينه علي إتمام نشر دعوته.

هل كان النبي محمّداً(صلي الله عليه وآله) أجيراً عند خديجة؟

كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إيّاه بشيء تجعله لهم منه... فلمّا بلغها عن رسول الله(صلي الله عليه وآله) ما بلغها من صدق حديثه وعظيم أمانته وكريم أخلاقه، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مالٍ إلي الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجّار مع غلامٍ لها يُقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله(صلي الله عليه وآله)، وخرج في مالها معه غلامها ميسرة(3).

وروي أنّ أبا طالب هو الذي اقترح عليه ورغبه بالخروج في تجارة خديجة إلي

الشام(4)، وعندما أخبر أبو طالب خديجة بقبول النبي(صلي الله عليه وآله) بذلك فرحت وقالت لغلامها

ص: 342

1- العدد القوية: ص 124 ح 56، وانظر: المناقب: ج 1 ص 67، والطبقات الكبرى: ج 8 ص 12.

2- انظر: بحار الأنوار: ج 16 ص 20.

3- بحار الأنوار: ج 16 ص 8، الثقات: ج 1 ص 45.

4- في بحار الأنوار: ج 16 ص 9 عن كشف الغمّة: ج 2 ص 135: «إنّ سفره كان إلي سوق حُباشة بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش»، وفي إمتاع الأسماع: ج 1 ص 15: «فذلك حين أرسلت خديجة إلي رسول الله تدعوه أن يخرج في تجارة إلي سوق حُباشة، وبعثت معه غلامها ميسرة، فخرجا فابتاعا بزّاً من بزّ الجند وغيره ممّا فيها من التجارة، ورجعا إلي مكّة فربحا ربحاً حسناً»، وفي السيرة الحلبية: ج 1 ص 221: «وفيه أنّ سفره مع ميسرة إلي الشام سفرة ثالثة... سفرتين إلي جرش - موضع باليمن - كلّ سفرة بقلوص - وهي الشابة من الإبل - وهو يفيد أنّه سافر لها ثلاث سفرات... ولعلّ سوق حُباشة هو جرش، وإلا لزم أن يكون سافر لها خمس سفرات: أربعة إلي اليمن، وواحدة إلي الشام».

ميسرة: «أنت وهذا المال كله بحكم محمد»(1).

وهذا لا يمنع من أن يكون ذلك العرض عن أمر خديجة لأبي طالب لإفناع محمد(صلي الله عليه وآله) في الذهاب إلي الشام بتجارتهما؛ بقرينة أنه لما أخبر أبو طالب خديجة بقبول محمد(صلي الله عليه وآله)، فرحت فرحاً شديداً وقالت: «إنّ هذا المال كله بحكم محمد».

فسافر إلي الشام وبيع في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره، حتّى أنّ خديجة قالت: «فما ربحت ربحاً أعظم من هذه السفرة»(2).

أضف إلي ما ظهرت له في سفره بعض الكرامات الباهرة، وهذا ما يهّم خديجة لكي يطمئن قلبها بأنّه هو النبي المرسل.

ومن هذه الكرامات أنّ ملكين يظللانه من الشمس وهو يسير علي بعيره وقت الهاجرة حينما يشتدّ الحرّ، وهذا ما رآه ميسرة(3). وروي أنّ الغمامة علي رأسه تسير حينما سار تظّله بالنهار في سفره(4).

وكرامة أخرى حينما نزل رسول الله(صلي الله عليه وآله) تحت شجرة ونزل الناس متفرّقين، وكانت الشجرة التي نزل تحتها يابسة فحلة، قد تساقط ورقها ونخر عودها، فلمّا نزل رسول الله(صلي الله عليه وآله) واطمأنّ تحتها، أنورت وأشرقت واعشوشب ما حولها وأينع ثمرها وتدلّت أغصانها... وكان ذلك بعين الراهب، فلم يتمالك أن انحدر من صومعته(5)، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلا نبي(6)، فسرها ميسرة في قلبه.

وكرامة ليست بالحسبان عندما كان ميسرة يأكل مع النبي(صلي الله عليه وآله) في جفنة حتّى يشبعا ويبقي الطعام كما هو(7).

ص: 343

1- . انظر: الخرائج والجرائح: ج 1 ص 139 ح 226.

2- . بحار الأنوار: ج 16 ص 52.

3- . انظر: البداية والنهاية: ج 2 ص 358.

4- . انظر: الخرائج والجرائح: ج 1 ص 140.

5- . بحار الأنوار: ج 16 ص 17 ضمن ح 18.

6- . أسد الغابة: ج 7 ص 80.

7- . انظر: العدد القوية: ص 143.

وإنَّ أغلب المصادر ذكرت بأنَّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) نزل في ظلِّ شجرة قريبة من صومعة راهب من الرهبان، فأطلع الراهب إلي ميسرة فقال: «من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطَّ إلا نبي» (1).

وهذه الرواية مبتورة ليس فيها مورد الإعجاز والإثارة؛ لأنَّ كلَّ من يأتي إلي هذه المنطقة فإنه يتقياً في ظلِّ هذه الشجرة؛ لكونها قريبة من الصومعة، أمَّا ما رآه الراهب من التغيير في كينونية الشجرة من كونها يابسة إلي خضراء يانعة، ممَّا يدلُّ علي وجود المعجزة، وهي من دلائل النبوة في هذا الرجل الجالس تحتها، لذا قال الراهب: «ما نزل تحت هذه الشجرة قطَّ إلا نبي»، فما ذكره المجلسي في البحار - أي النقل الأوَّل - هو أقرب إلي منطق العقل.

وعندما أخبر ميسرة خديجة بما شاهدته من شأن وكرامة محمد (صلي الله عليه وآله)

وكلام الراهب ومعجزة الشجرة، وعمَّا رأي من إضلال الملائكة إيَّاه، فقال ورقة: «لئن كان هذا حقاً يا خديجة، إنَّ محمدًا لنبي هذه الأمة، قد عرف أنَّه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه» (2).

فكانت الرغبة القصوي من خديجة لمحمد (صلي الله عليه وآله)، والتقرُّب إليه والزواج منه لمَّا رجحت في ذلك من الخير، والفوز بذلك النعيم الأزلي مقابل بذل أموالها في خدمته ونشر دينه، لا كما يرجوه ويتقولُّه بعض الناس، أنَّها استأجرته بشيء، ولا كان أجيراً لأحد قطَّ كما قال المؤرِّخ الأقدم اليعقوبي في تاريخه (3).

وبما أنَّه الأمين الصادق، فله موقع في قلوب الناس وثقتها به، فإنَّ أراد مالا أعطوه وشاركهم في الربح مضاربةً، كما يفعله معظم تجار قريش في المضاربة، ولا داعي أن يكون أجيراً لامرأة أو لأحد، وهذا ما يستشَمُّ من خلال ما قاله أبو طالب لمحمد (صلي الله عليه وآله): «اعلم يا ابن أخي، أنَّ هذه خديجة قد انتفع بمالها أكثر الناس، وهي تُعطي مالها سائر

ص: 344

1- . دلائل النبوة: ج 1 ص 337، الذرية الطاهرة: ص 47، تاريخ الطبري: ج 2 ص 34، الطبقات الكبرى: ج 1 ص 156.

2- . السيرة النبوية لابن كثير: ج 1 ص 268.

3- . تاريخ اليعقوبي: ج 1 ص 341.

من يسألها التجارة ويسافرون بها، فهل لك يا ابن أخي أن تمضي معي إليها وتسألها أن تعطيك مالاً تتجر فيه؟ قال: نعم»(1).

فهذا دليل واضح بأن أموال خديجة قسمان: قسم للمضاربة، وقسم للاستئجار، ولذلك قبل رسول الله(صلي الله عليه وآله) أن يضاربهما وتكون له حريّة التصرف.

وذكر العسقلاني في فتح الباري: «قد سافر في مالها مقارضاً إلى الشام»(2).

وروي أنّ خديجة هي التي اشترطت عليه في التجارة ومضاربتها؛ لكي تتقرب إليه ، وهذا ما اتضح لرسول الله(صلي الله عليه وآله) من خلال ما وضعت له المال تحت

تصرفه، وإعطائه خادماً له يخدمه في الطريق، كما يفعله السادة التجّار الذين يملكون المال، فلو كان أجيراً حقاً لما طلبته خديجة أن يكون زوجاً لها بعد رجوعه مباشرةً من سفره.

زواجها المبارك، رغبتها في الزواج من رسول الله(صلي الله عليه وآله)

من خلال التعامل التجاري ومضاربتها أصبح لخديجة ميزان لمعرفة نفسية الرجال وميولهم، وكلّ قومها حريص عليّ زواجها لو قدروا عليّ ذلك، لقد طلبوها وبذلوا لها الأموال، إلا أنّها رفضتهم؛ لأنّها تبحث بعقلها الراجح ويُعدها الثاقب عن ذلك الذي يحمل بين جوانحه دلائل الصدق والأمانة، والعفة والشرف وحُسن الخلق وأصالة النسب، والتي كلّها كانت متمثلة في رسول الله(صلي الله عليه وآله) لذا رغبت في الزواج منه، وذلك عن تجربة منها وفق التعامل التجاري معه.

ولمّا حدّثها ميسرة عمّا رآه من رسول الله(صلي الله عليه وآله) حين سفره والمعجزات الباهرة التي ظهرت من حوله كتظليل الغمامة(3) عليّ رأسه أينما ذهب، واخضرار الشجرة اليابسة، وقول الراهب له... ناهيك عمّا باع رسول الله(صلي الله عليه وآله) سلعته التي خرج بها واشتري ما أراد، كلّ ذلك بربح لم يربحه أحد غيره.

ص: 345

1- . بحار الأنوار: ج 16 ص 24.

2- . فتح الباري: ج 7 ص 167.

3- . انظر: التفسير المنسوب للإمام العسكري : ص 155، إثبات الهداة: ج 2 ص 151، السيرة الحلبية: ج 1 ص 217، مروج الذهب: ج 2 ص 271.

ولمّا أقبل قافلاً إلى مكة وقدم علي خديجة بمالها، باعت ما جاء به فأضعف أو قريباً من ذلك، كلّ ذلك عَجَل رغبة خديجة بالزواج منه، فانطلقت تلك الكلمات من سويداء قلبها صريحة ناصعة معلنة الرغبة والمحبة والشوق، فقالت لرسول الله (صلي الله عليه وآله) فيما يزعمون: «يا ابن عمّ، قد رغبت فيك؛ لقرابتك منّي وشرفك في قومك، ووسطتك (1) فيهم وأمانتك عندهم، وحُسن خلقك وصدق حديثك. ثمّ عرضت

عليه نفسها... فلمّا قالت لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ما قالت، ذكر ذلك لأعمامه» (2).

وروي أيضاً: لمّا أخبرها ميسرة ممّا رأي في سفره من المعجزات وتعجّبه من حُسن أخلاق النبي (صلي الله عليه وآله) وشجاعته وكرمه، أرسلت خديجة إلى نفيسة (3) تستطلع ما في نفس محمّد (صلي الله عليه وآله) ورغبته تجاه الزواج منها، قالت نفيسة: «فأرسلتني دسيساً (4) إلي محمّد بعد أن رجع في غيرها من الشام، فقلت: يا محمّد، ما يمنعك أن تزوّج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوّج، به قلت: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلي الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ قالت: قلت: عليّ، قال: فأنا أفعل. فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلي عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها، فحضر ودخل رسول الله صلي الله عليه وسلم في عمومته» (5).

ومما يُستفاد من رغبتها في الزواج ما يلي:

أولاً: بعض النساء في الجاهلية لها كرامتها وحرّيتها في الانتخاب لحياتها الزوجية، لا كما وصفه الباحثون بأنّ المرأة علي الإطلاق كالمتاع تُباع وتُشتري، وليس لها أدني

ص: 346

- 1- . في دلائل النبوة: ج 1 ص 338: «ووسطتك [وسيطك]، ومعني ووسطتك: أي توسّطتك في قومك وكونك من أعرفهم».
- 2- . بحار الأنوار: ج 16 ص 9، السيرة الحلبية لابن كثير: ج 1 ص 263.
- 3- . أسلمت نفيسة يوم الفتح، وبرّها رسول الله وأكرمها؛ لأنّها كانت الرسول والواسطة بين خديجة وبين النبي (انظر: الكامل في التاريخ: ج 2 ص 40).
- 4- . دسيساً: أي بعثتها سرّاً لتأتيها بالأخبار.
- 5- . الطبقات الكبرى: ج 1 ص 105، صفة الصفوة: ج 1 ص 73، إمتاع الأسماع: ج 6 ص 29.

حرية في الاختيار... وهذا عكس ما لاحظناه من انتخاب خديجة ورغبتها في الزواج من محمد (صلي الله عليه وآله)، رغم أنها خطبت من قبل صنديد وتجار قريش، وقد

بدلوا الأموال لها إلا أنها اختارت ما يحب لنفسها ويأنس لها قلبها وتسعد به في دنياها وآخرتها.

ثانياً: لا زال المنهج التوحيدي الإبراهيمي معمولاً في الجاهلية، وذلك من خلال مراحل التزويج، وهذا ما رأيناه من إرسال خديجة إلي عمها عمرو بن أسد لحضور الخطبة، وكذا من إبلاغ رسول الله (صلي الله عليه وآله) عمومته في ذلك.

ثالثاً: وإن رغبة خديجة (رضوان الله تعالى عليها) من الزواج برسول الله (صلي الله عليه وآله) يُبطل المزاعم التي تقولت علي رسول الله (صلي الله عليه وآله) بأن زواجه منها كان طمعاً في مالها؛ لأن خديجة - كما تري من خلال ذلك - هي التي عرضت نفسها علي النبي (صلي الله عليه وآله)، ولم يتقدم هو بطلب يدها ليقال إنه إنما فعل ذلك طمعاً في مالها، وكما أن رسول الله (صلي الله عليه وآله) من خلال تجارته أضاف مالا مضاعفاً أو قريباً من ذلك، حتى أن خديجة نفسها تعجبت واندعشت وقالت: «فما ربحت ربحاً أغنم من هذه السفرة»⁽¹⁾، وكذا ميسرة قال: «ما ربحنا ربحاً قط أكثر من هذا الربح علي وجهك»⁽²⁾؛ لذا كانت الدوافع معنوية صرفة لا مادية حقّة؛ لأن حياة النبي (صلي الله عليه وآله) من بدايتها إلي نهايتها لخير شاهد علي أنه ما كان يقيم للمال أي وزن، وقد أنفقت خديجة أموالها برغبتها في سبيل الله والدعوة إلي دينه، وليس علي النبي (صلي الله عليه وآله) وملذاته.

رابعاً: لقد كان هدف خديجة الوصول إلي الخلق والمثل العليا والمحسن الكريمة؛ لكي يوصلها إلي ذلك النعيم الأزلي الذي جاء به الأنبياء، فلم يكن همها الدنيا ورُخرفها، لذا اختارت النبي (صلي الله عليه وآله)؛ لأنها أدركت من حقيقة الدين ما يدركه عامة قريش؛ لأن الدين لا يعدو أن يكون كهانة وبدعاً عند قريش، فعلمت أن لهذا الرجل فضيلة تناسب فضائل الأنبياء لدعوتهم التوحيد.

ص: 347

1- . بحار الأنوار: ج 16 ص 52.

2- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 219.

خامساً: وإنّ لخديجة بُعد نظر للمستقبل، فهي بعين قريش نابغة لبيبة حازمة وشخصية شامخة قوية، وهذا البعد ليس فقط من خلال إدارتها التجارية وخبرتها في الشؤون الاقتصادية، بل أدركت بعقلها عظمة شخصية رسول الله (صلي الله عليه وآله) وسمو أخلاقه ومستقبله الزاهر قبل تكليفه رسالة السماء، فاخترته زوجاً لها من دون الرجال والشخصيات المرموقة الذين تقدّموا لخطبتها بنفس ما يحملونه من الغني والجاه، ولكن نجد أنّها اختارت ما هو معنوي أحرّوي ينهض بها إلى علو درجات الجتة وقدسيتها النبوة الخالدة.

خطوبتها

لما رأت خديجة تلك المؤهلات الأخلاقية المتميزة، وذلك الزهو النفسي المتعالي فوق كلّ ما هو مادّي مغري، يُضاف إلى تلك المعنويات والكرامات الباهرة الإلهية لها فكانت له بعون الله تعالي رغبته في الزواج منه، لقد بقي في خاطرها هل يليّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما في مخيلتها؟ وهل له رغبة وهوي فيها أم لا؟

كلّ ذلك انكشف حينما أرسلت له نفيسة (1) دسيساً لهذا الأمر، وحينما استطلعتها برغبة رسول الله (صلي الله عليه وآله) للزواج منها، أباحت خديجة بسرورها ورغبتها، فكانت الخطوبة؛ وهي خطوة موفقة مباركة تتجلّي فيها معاني الحياة التربوي الديني

للتقارب ما بين الزوجين علي سنة التوحيد الإبراهيمي من خلال أهليهما.

عندما اطمأنت خديجة بعلائم الرضا فيها، أخبرت عمّها عمرو بن أسد بإقدام

ص: 348

1- . روي في تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 20، بأنّ هالة أخت خديجة قالت لعمّار بن ياسر: «ما لصاحبك حاجة في خديجة؟ قلتُ: واللّه ما أدري. فرجعت فذكرت ذلك له، فقال: ارجع فواضعها وعدّها يوماً تأتيها فيه، ففعلت»، وفي الطبقات الكبرى: ج 1 ص 132: «إنّ خديجة قالت لأختها: انطلقني إلي محمّد فاذكّرني له... وإنّ أختها جاءت، فأجابها بما شاء الله»، وفي تاريخ الطبري: ج 2 ص 205: «قال الواقدي: ويقولون أيضاً أنّ خديجة أرسلت إلي النبي تدعوه إلي نفسها - تعني التزويج -»، وفي تاريخ الطبري: ج 2 ص 36: «وكان الذي مشت في ذلك مولاة مولدة من مولدات مكة... قال الواقدي: فكلّ هذا غلط... إنّ خديجة أرسلت إلي النبي تدعوه إلي نفسها - تعني التزويج -»، وفي السيرة الحلبية: ج 1 ص 226: «وكان السفير بينهما غلامها، وقيل: مولاة مولدة. وقد يقال: لا منافاة الجواز أن يكون كلّ ممّن ذكر كان سفيراً».

عمومة محمّد (صلي الله عليه وآله) لطلب يدها منه لمحمّد، كما أخبر محمّد أعمامه وخاصة عمّه أبا طالب رغبة خديجة بنت خويلد فيه، فأيدوه علي ذلك وفرحوا.

ذهب أبو طالب في أهل بيته ونفر من قريش إلي وليّ خديجة وهو عمّها عمرو بن أسد(1)، وهو يومئذٍ شيخ كبير لم يبق لأسد لصلبه يومئذٍ غيره، ولم يلد عمرو بن أسد شيئاً(2)؛ لأنّ أباهما خويلد توفي يوم حرب الفِجَار(3)، وقيل بعد الفِجَار بخمس سنين [وقيل: قبل الفِجَار]، وبعضهم قال: إنّه قُتل في الفِجَار(4)، وفي المعارف أنّه قُتل في الجاهلية(5)؛ كلّ ذلك ذكرناه آنفاً.

أمّا ما ذُكر في تاريخ ابن خلدون(6)، والسيرّة النبوية لابن كثير(7)، والسيرّة النبوية لابن هشام(8)، وخلاصة سير سيّد البشر(9)، وأسد الغابة(10)، والبداية والنهاية(11)، وتاريخ الإسلام(12)، والمستدرك علي الصحيحين(13)، والذريّة الطاهرة(14)، والثقات(15)؛ كلّهم

ذكروا بأنّ أبا طالب أو بالأحرى حمزة خطبها من أبيها خويلد، فإنّه غير صحيح وما ذكرناه أقرب لواقع الحال كما صرّح به الواقدي: «إنّ الذي زوّجها عمّها عمرو بن أسد،

ص: 349

- 1- . انظر: بحار الأنوار: ج 16 ص 12 عن كشف الغمّة: ج 2 ص 139، ومجمع الزوائد: ج 9 ص 219.
- 2- . الطبقات الكبرى: ج 1 ص 105.
- 3- . انظر: الطبقات الكبرى: ج 1 ص 13.
- 4- . تاريخ يعقوبي: ج 1 ص 341، وما بين المعقوفتين من البداية والنهاية: ج 2 ص 362.
- 5- . المعارف: ص 219.
- 6- . تاريخ ابن خلدون: ج 2 ص 5.
- 7- . السيرّة النبوية لابن كثير: ج 1 ص 263.
- 8- . السيرّة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 190.
- 9- . خلاصة سير سيّد البشر: ص 37.
- 10- . أسد الغابة: ج 7 ص 80.
- 11- . البداية والنهاية: ج 2 ص 294.
- 12- . تاريخ الإسلام: ج 1 ص 65.
- 13- . المستدرك علي الصحيحين: ج 3 ص 182.
- 14- . الذريّة الطاهرة: ص 48.
- 15- . الثقات لابن حيّان: ج 1 ص 46.

وهو الصحيح؛ لأنَّ أباهما توفِّي قبل الفجر»(1).

وفي بعض الروايات بأنَّ أبا طالب خطبها من عمِّها ورقة بن نوفل(2)، والمشهور أنَّ ورقة بن نوفل بن أسد ابن عمِّ خديجة(3)؛ لأنَّ أبا خديجة خويلد بن أسد ما هو المشهور، وإنَّ سبب الاشتباه ناشئ من تناقل الخبر أجيالاً علي الألسنة بغير تدوين أو ضبط أو تحقيق، وعندما دَوَّن ما يعتمد عليه في التأليف كان السقط من قبل النساخ فصل الاشتباه.

وفي بعض الروايات ذكروا أنَّ أبا طالب خطبها من عمِّها دون ذكر اسمه، كما في من لا يحضره الفقيه(4) ومكارم الأخلاق(5).

وذكر ابن إسحاق بأنَّ أخاها عمرو بن خويلد هو الذي تزوج خديجة من محمَّد(صلي الله عليه وآله)(6).

روي: «لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ(صلي الله عليه وآله) أَنْ يَتَزَوَّجَ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ، أَقْبَلَ أَبُو طَالِبٍ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ حَتَّى دَخَلَ عَلِيَّ وَرَقَةَ بْنَ نُوْفَلٍ [ابن] عَمِّ خَدِيجَةَ، فَابْتَدَأَ أَبُو طَالِبٍ بِالْكَلَامِ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ (7) الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ زُرْعِ إِبْرَاهِيمَ،

وَذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ، [وَضُئِضِي (8) مَعَدًّا، وَعَنْصَرَ مَضْرًا] (9)، وَأَنْزَلَنَا حَرَمًا آمِنًا، [وَجَعَلَنَا حَضَنَةَ بَيْتِهِ وَسُوَاسَ (10) حَرَمِهِ، وَجَعَلَ لَنَا بَيْتًا مَحْجُوجًا] (11) (12)، وَجَعَلَنَا الْحَكَّامَ عَلِي النَّاسِ، وَبَارَكَ لَنَا فِي بَلَدِنَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، (ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أَخِي هَذَا - يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ(صلي الله عليه وآله) - مَمَّنْ لَا يُوْزَنُ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ

ص: 350

1- . انظر: الكامل في التاريخ: ج 2 ص 40، وبحار الأنوار: ج 16 ص 19.

2- . انظر: الكافي: ج 5 ص 379 ح 9، والمهذب البارع: ج 3 ص 176.

3- . انظر: المعارف: ص 59، وجمهرة النسب للكليبي: ص 74، والقاموس المحيط: ج 3 ص 298.

4- . من لا يحضره الفقيه: ج 3 ص 260 ضمن ح 4398.

5- . مكارم الأخلاق: ص 215.

6- . انظر: فتح الباري: ج 7 ص 167.

7- . من شرح نهج البلاغة: ج 14 ص 70، وفي الكافي والمهذب والعدد والفقيه وربيع الأبرار وصفة الصفوة: «الحمد لربِّ هذا البيت».

8- . أي الأصل.

9- . ما بين المعقوفتين من صفة الصفوة: ج 1 ص 74، والعدد القوية: ص 143 ح 57، وتاريخ ابن خلدون: ج 2 ص 5.

10- . سواس جمع السائس: المدير والمتولِّي لأمر القوم.

11- . أي يحجَّ الناس إليه ويقصدونه.

12- . ما بين المعقوفتين من صفة الصفوة: ج 1 ص 74، وربيع الأبرار: ج 4 ص 299.

إلا رجح به، ولا يقاس به رجل إلا عظم عنه، ولا عدل له في الخلق (1)، وإن كان مقلداً في المال، [فإن المال رزق حائل (2) وظلّ زائل] (3)، وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، وقد جئناك لنخطبها إليك برضاها وأمرها، والمهر عليّ في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله، وله وربّ هذا البيت حظّ عظيم (4) ودين شائع ورأي كامل.

ثمّ سكت أبو طالب، وتكلّم [ابن] عمّها وتلجلج وقصر عن جواب (5) أبي طالب، وأدركه القطع والبهر (6)، وكان رجلاً من القسيسين.

[لمّا أتم أبو طالب خطبته تكلّم ورقة بن نوفل، فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفصّلنا علي ما عدّدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كلّ، لا

تنكر العشيرة فضلكم، ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبتنا بالاتّصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأنّي قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبد الله (7).

فقال خديجة مبتدئة: يا [ابن] عمّاه إنك وإن كنت أولي بنفسي منّي في الشهود، فلست أولي بي من نفسي، قد زوّجتك يا محمّد نفسي، والمهر عليّ في مالي، فأمر عمّك فلينحر ناقة فليولم بها، وادخل عليّ أهلك. قال أبو طالب: أشهدوا عليها بقبولها محمّداً وضمانها المهر في مالها.

فقال بعض قريش: يا عجباه! المهر علي النساء للرجال؟ فغضب أبو طالب غضباً

ص: 351

1- ما بين القوسين في ربيع الأبرار: ج4 ص299، وشرح نهج البلاغة: ج14 ص70: «ثمّ إنّ محمّد بن عبد الله ابن أخي من لا يوزن به فتي من قريش إلا رجح به برّاً وفضلاً وكرماً - في شرح نهج البلاغة: وحزماً - وعقلاً ورأياً ونبلاً».

2- أي متغيّر.

3- ما بين المعقوفتين في الكافي: «فإنّ المال رفق جارٍ وظلّ زائل، ومعناه: أي يجريه الله علي عباده بقدر الضرورة والمصلحة». وما أثبتناه من الفقيه: ج3 ص260، ومكارم الأخلاق: ص215، وريبع الأبرار: ج4 ص299.

4- في العدد القوية: ص143: «نبا عظيم وخطب جليل»، وفي شرح نهج البلاغة: ج14 ص70: «نبا شائع»، وفي تاريخ ابن خلدون: ج2 ص5: «وهو والله بعد هذا له نبا عظيم وخطر جليل».

5- كانت قريش تستحبّ للخاطب أن يطيل وللمخطوب إليه أن يوجز (ريبع الأبرار: ج4 ص303).

6- أي انقطاع النفس من الإعياء.

7- ما بين المعقوفتين من بحار الأنوار: ج16 ص19.

شديداً وقام علي قدميه، وكان ممّن يهابه الرجال ويكره غضبه، فقال: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأغلا الأثمان وأعظم المهر، وإذا كانوا أمثالكم لم يُزوّجوا إلا بالمهر الغالي. ونحر أبو طالب ناقه»(1).

وقال رجل من قريش يقال له عبد الله بن غنم:

هنيناً مريئاً يا خديجة قد

جرت

لك الطير فيما كان منك

بأسعد

تزوّجته خير البرية كلّها

ومن

ذا الذي في الناس مثل محمّد

وبشّر به المرءان(2) عيسي بن مريم

وموسي بن عمران فيا قرب(3) موعد

أقرت به الكتاب قدماً

بأنه

رسول من البطحاء هادٍ ومهتد(4)

وفي البحار عن النهاية في حديث خطبة النبي (صلي الله عليه وآله) خديجة: «قال

ورقة بن نوفل: هو الفحل لا يُقرع أنفه؛ أي أنه كفاء كريم لا يُردّ»(5). ويُروي بالبدال: «لا يُقدّع أنفه»(6).

وفي أسد الغابة قال عمّها عمرو بن أسد: «محمّد بن عبد الله يخطب خديجة بنت خويلد هذا الفحل لا يُقدّع أنفه»(7).

ولمّا تمّ العقد بينهما قالت خديجة: «إنّ مالي وعبيدي وجميع ما أملك وما هو تحت يدي، فقد وهبته لمحمّد؛ إجلالاً وإعظاماً له»(8).

وفي رواية: «والله يا محمّد، إن كان مالك قليلاً فمالي كثير... وأنا ومالي وجواري

- 1- . الكافي: ج3 ص379 ح9، المهذب البارع: ج3 ص176.
- 2- . في الكافي: ج5 ص380: «البران».
- 3- . في الكافي: ج5 ص380: «أقرب».
- 4- . العدد القوية: ص144 ح58. أقول: إذا صحَّ هذا الشعر فهو يدلُّ عليَّ أنَّ نبوَّة الرسول كانت شائعة بين الناس.
- 5- . النهاية: ج4 ص43، وفي الطبقات الكبرى: ج1 ص132: «فقال عمرو بن أسد: هذا البضع لا يُقرع أنفه».
- 6- . ذكر في النهاية: ج4 ص24: «ومنه حديث زواجه بخديجة، قال ورقة بن نوفل: محمّد يخطب خديجة؟ هو الفحل لا يُقدع أنفه. يقال: قدعت الفحل وهو أن يكون غير كريم، فإذا أراد ركوب الناقة الكريمة ضرب أنفه بالرمح أو غيره حتّى يرتدع وينكف».
- 7- . أسد الغابة: ج7 ص80.
- 8- . بحار الأنوار: ج16 ص71.

وجميع ما أملك بين يديك وفي حكمك، لا أمنعك منه شيئاً»(1).

وفي فتح الباري قالت خديجة: «بأبي وأمي، والله ما أفعل هذا لشيءٍ، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي ستبعث، فإن تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي... فقال لها النبي (صلي الله عليه وآله): والله لئن كنت أنا هو، قد اصطنعت عندي ما لا أضيّعه أبداً، وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيّعك أبداً»(2).

وإن من أملاكها كانت لها دار واسعة تسع أهل مكة جميعاً، وكان لها من الأموال والمواشي لا يحصي، وإن لها أزيد من ثمانين ألف جمل متفرقة في كل مكان، وكان لها في كل ناحية تجارة، وفي كل بلد مال، مثل مصر والحبشة وغيرها(3). ناهيك عن

العبيد والجواري وما هو من ذهب وياقوت وأحجار كريمة.

ومما يُستفاد من خطبة أبي طالب ما يلي:

أولاً: أنه من المؤمنين والأوصياء الموحدين، وعلي شريعة ملة إبراهيم وزرع إسماعيل؛ وذلك من خلال قوله: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل».

وقال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل مضر، واصطفى من مضر كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش هاشماً، واصطفاني من بني هاشم... فما مسني عرق سفاح قط، وما زلت أنقل من الأصلاب السليمة من الوصوم(4) والأرحام البريئة من العيوب»(5). وفي رواية: «نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلي الأرحام الزكية»(6).

فإن أبا طالب من رفقاء النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك

ص: 353

1- . بحار الأنوار: ج 16 ص 55.

2- . فتح الباري: ج 7 ص 167.

3- . بحار الأنوار: ج 16 ص 22.

4- . أي العيوب.

5- . شرح نهج البلاغة: ج 11 ص 67 و70.

6- . شرح نهج البلاغة: ج 14 ص 67.

رفيقاً، كما قال الإمام الصادق (1).

وكان أمير المؤمنين يعجبه أن يروي شعر أبي طالب، وأن يُدَوّن، وقال: «تعلّموه وعلموه أولادكم؛ فإنه كان علي دين الله وفيه علم كثير» (2).

وعن الأصمغ بن نباتة، قال: «سمعتُ أمير المؤمنين يقول: والله ما عبد أبي ولا جدّي عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قطّ. قيل: وما كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلّون إلي البيت علي دين إبراهيم متمسكين به» (3). وهذا ما يتّضح من خطبة

أبي طالب: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل».

ثانياً: ومن خلال خطبته أيضاً يظهر قدسية ومكنة محمّد (صلي الله عليه وآله)، وتبيان بعض العلامات الدالة علي نبوته، حيث يتوقّعون أن يكون هو الذي بشّر به عيسى وموسى؛ لقوله: «فإنّه ممّن لا يوزن برجل من قريش إلّا رجح به، ولا يُقاس به رجل إلّا عظم عنه، ولا عدل له في الخلق»، وهذه من صفات النبوة المتمثلة بشخصية محمّد (صلي الله عليه وآله) إذا تمعّنا بها.

ثالثاً: ممّا يلاحظ من خطبته بأنّه عالم بمستقبل ابن أخيه محمّد (صلي الله عليه وآله)، وذلك من خلال قوله: «حظّ عظيم، ودين شائع، وخطب جليل...» (4).

وهذا يدلّ علي أنّ أبا طالب من الأوصياء، وله باع بالأديان ومطالعة الكتب السماوية، وله أخبار عمّا يكون، قال أبو طالب لفاطمة بنت أسد: «إنّك ستلدين غلاماً يكون وصيّ هذا المولود [محمّد]» (5).

وقد روي أنّ عبد المطلب كان حجّة وأبو طالب كان وصيّّه (6). فكيف يا تري يعانده ويكذّبه ولا يؤمن به حينما دعاه للإسلام؟!

ص: 354

1- . كنز الفوائد: ص 80.

2- . بحار الأنوار: ج 35 ص 115 ح 54.

3- . كمال الدين: ج 1 ص 174 ح 32.

4- . كما أنّه قال حينما وُلد علي: «سيكون له شأن ونبأ» (أمالي الطوسي: ج 2 ص 319).

5- . بحار الأنوار: ج 15 ص 295 ح 30 عن الكافي: ج 8 ص 302 ح 460.

6- . بحار الأنوار: ج 15 ص 117 ح 63.

وقد روي في العدد القوية: «وأسلم من أعمام النبي (صلي الله عليه وآله) أبو طالب وحمزة والعباس، ومن عمّاته صفية وأروي وعاتكة»(1).

لقد حقّ الدليل بأنّه استترّ الإيمان وأظهر منه ما كان يمكنه علي وجه الاستصلاح؛ ليصل بذلك إلي بناء الإسلام وقوام الدعوة واستقامة أمر رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فكان مثله كمثل أصحاب الكهف حين أسروا الإيمان وأظهروا عكس ذلك،

فأتاهم الله أجرهم مرتين، وإنّ أبا طالب أسرّ الإيمان وأظهر عكس ذلك، فأتاه الله أجره مرتين(2).

ومن يشكّك في إيمان أبي طالب فإنّ مصيره النار؛ قال أبان بن محمّد: «كتبت إلي الإمام علي بن موسى: جُعِلت فداك، إني شككت في إيمان أبي طالب! قال: (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصِّهِ لَهُ جَهَنَّمَ)(3)، أما أنّك إن لم تقرّ بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلي النار»(4).

فكيف يزعمون بأنّه كافر وهو القائل:

ألم تعلموا أنّا وجدنا

محمّداً

نبياً كموسي خُطّ في أوّل

الكتب

وقوله أيضاً:

لقد علموا أنّ ابننا لا

مُكذّب

لدينا ولا يعبأ بقول الأباطل

وأبيض يستسقي الغمام

بوجهه

ثمّال اليتامي عصمة

للأرامل(5)

وقوله أيضاً:

والله لا أخذل النبي ولا يخذله من بنيّ ذو حسب(6)

فاعترف بنبوّة النبي (صلي الله عليه و آله) اعترافاً صريحاً ولا فصل بين أن يصف رسول الله بالنبوّة في

ص: 355

-
- 1- . العدد القوية: ص 137.
 - 2- . انظر: شرح نهج البلاغة: ج 14 ص 70.
 - 3- . النساء: 115.
 - 4- . بحار الأنوار: ج 35 ص 110 ح 40 عن كنز الفوائد: ص 80.
 - 5- . الكافي: ج 1 ص 448 ح 29.
 - 6- . الفصول المختارة: ج 2 ص 283.

نظمه، وبين أن يقرّ بذلك في نثر كلامه، فكلّ أبياته تدلّ علي أنّه كان مسلماً مؤمناً برسالة محمّد (صلي الله عليه وآله).

أفلا يكفي قول جبرئيل للنبي (صلي الله عليه وآله) لمّا مات أبو طالب: «اخرج منها فقد مات ناصرك»⁽¹⁾، وقول الإمام علي: «والذي بعث محمّداً بالحقّ نبياً لو شفع أبي في كلّ مذنب علي وجه الأرض لشفّعه الله فيهم»⁽²⁾.

فلو أمعن المعاندون فقط في حلف أبي طالب لاستشّموا منه رائحة التوحيد، وذلك حينما دخلوا شعب أبي طالب مناصرةً لمحمّد (صلي الله عليه وآله)، «حلف أبو طالب بالكعبة والحرم والركن والمقام، لئن شاكت محمّداً شوكة لأثبن عليكم يا بني هاشم»⁽³⁾، لم يحلف بالآلات والعزّي وهبل كما هو ديدن كفّار قريش ومن هو علي خطّ الوثنية.

فلم يزل أبو طالب ثابتاً صابراً مستمراً علي نصر رسول الله (صلي الله عليه وآله) حتّي مات، فلولا أبو طالب وابنه علي لم يكن للإسلام شيء يُذكر.

رابعاً: وأمّا ما يخصّ المهر الذي قالت به خديجة: «والمهر عليّ في مالي»، سوف نتطرّق إن شاء الله تعالي حينما يكون الكلام علي مهرها.

خامساً: يذهب البعض إلي أنّ زواج نبيّنا من خديجة كان علي الديانة المسيحية؛ بدليل أنّ العاقد لها ابن عمّها كان نصرانياً، وأنّ خديجة تنتمي إلي بني أسد جلّ قومها من المسيح، وبما أنّ المسيحية آخر الشرائع السماوية، فكان محمّد (صلي الله عليه وآله) نصرانياً.

الذي يطالع خطبة أبي طالب يامعان وتفحص، لا يجد للوثنية آية إشارة، ولا هويّ في المسيحية أيّ حرف، وأنّ آباء النبي (صلي الله عليه وآله) كلّهم مسلمون موحدون إلي آدم، فهم علي الإيمان بالله والطهارة من الرجس والدنس، ويشهد علي ذلك قوله: (وَ تَقَلُّبِكَ فِي السَّ - جِدِينَ)⁽⁴⁾؛ يريد به تنقله في أصلاب الموحّدين، قال النبي (صلي الله عليه وآله): «ما زلتُ أتقلّ من أصلاب الطاهرين إلي

ص: 356

1- . شرح نهج البلاغة: ج14 ص70، الكافي: ج1 ص449 ح31.

2- . بحار الأنوار: ج35 ص110 ح3 عن كنز الفوائد: ص15.

3- . إعلام الوري: ص59.

4- . الشعراء: 219.

أرحام المطهّرات، حتّى أخرجني الله في عالمكم هذا»(1).

وإنّ سلسلة نسب نبيّ الإسلام تنفي الوثنية عن جدوده، بدءاً من اسم أبيه عبد الله الذي لا يُعقل أن يتسمّى به وثني، وانتهاءً إلي إسماعيل بن إبراهيم صاحب الشريعة الحنيفية السمحاء.

ويؤيّد ذلك أنّه لو كان محمّد(صلي الله عليه وآله) وآبؤه علي الديانة المسيحية السائدة آنذاك - أعني المحرّفة - لماذا أهلك الله أبرهة في حين أنّه جاء لهدم الكعبة لنصر دين النصاري وتحويل العرب إلي ذلك الدين؟

فلاشك أنّ إهلاك أبرهة كان فاتحة خير علي العرب عامّة وقريش خاصّة، فقد مهّدت السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها؛ لأنّها تدعو إلي دين إبراهيم دين التوحيد دين الحنيفية أو المسيحية الصحيحة، ومن خلال عمل أبرهة تدمّرت مكّة من المسيحية المحرّفة الظالمة التي أرادت هدم الكعبة. لذا عندما أخبر الله نبيّه: (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)(2)، هذا تأكيد علي أنّ النبي(صلي الله عليه وآله) كان من ملّة إبراهيم هو الذي سمّانا مسلمين قبل الدعوة المحمّدية، وفريضة الحجّ المعروفة منذ عهد إبراهيم، ولا علاقة للمسيحية بها، خاصّة إذا علمنا أنّ المسيحية التي ينسبون النبي(صلي الله عليه وآله) إليها، هي مسيحية محرّفة تقول بالثلث - كما ذكر القرآن - ويستحيل علي المصطفى للنبوة أن يعتقد بالشرك.

والذي يقرأ ما قاله ورقة بن نوفل في خطبته: «الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت

- أي من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل - ... وقد رغبتنا بالاتّصال بجلّكم وشرفكم...»(3)؛

وهذا يعني لا خلاف بين بني هاشم وبني أسد في المعتقد الديني الذي ينتمون إليه، وهو ملّة إبراهيم .

ص: 357

1- . شرح عقائد الصدوق: ص 117.

2- . البقرة: 120.

3- . انظر: بحار الأنوار: ج 16 ص 19.

وإن ورقة بن نوفل أصبح نصرانياً؛ لأنّ الإنجيل والكتب التي قرأها ورقة يوافق عقيدة المسلمين في عيسى الذي بشر بالنبى الموعود الذي اسمه أحمد.

مهرها

علي ما يبدو من خلال الروايات أنّ النبي (صلي الله عليه وآله) عيّن لها مقدار المهر، إلا أنّ أبا طالب قد ضمن المهر في ماله كما هو في صريح خطبته، ولما رأت خديجة بأنّ أبا طالب قد ضمن لمحمّد (صلي الله عليه وآله) المهر، سخت نفسها بضمائها المهر كلّ من مالها كهبة له. وروي أنّ عليّاً هو الذي ضمن المهر، وهذا غير صحيح؛ لأنّ عليّاً لم يكن وُلد(1).

وفي بعض الروايات تفيد أنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) نفسه قد أمهرها عشرين بكرة(2)، كما في السيرة النبوية لابن هشام(3)، وابن كثير(4)، وتاريخ الخميس(5)، والسيرة الحلبية(6)، والبداية والنهاية(7)، وإمتاع الأسماع(8)، والمختصر في أخبار البشر(9)، وتاريخ الإسلام(10).

وفي السيرة الحلبية ذكر من خطبة أبي طالب زيادة وتوضيحاً للمهر المعلوم الذي عيّنه النبي (صلي الله عليه وآله)، قال: «وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتي عشرة أوقية ونشاً».

ثمّ ذكر مؤلّف السيرة الحلبية بأنّ النشّ يساوي عشرون درهماً، والأوقية: أربعون

ص: 358

- 1- . انظر: السيرة الحلبية: ج 1 ص 226. وروي أيضاً أنّ أبا هلال العسكري ذكر أنّه لمّا قيل: «من يضمن المهر؟ قال علي وهو صغير: أبي، فلمّا بلغ الخبر أبا طالب جعل يقول: بأبي أنت وأُمّي» (الأوائل لأبي هلال العسكري: ج 1 ص 161).
- 2- . البكر: الفتى من الإبل، والأثني بكرة (النهاية: ج 1 ص 149).
- 3- . السيرة لابن هشام: ج 1 ص 201.
- 4- . السيرة لابن كثير: ج 1 ص 263.
- 5- . تاريخ الخميس: ج 1 ص 265.
- 6- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 225.
- 7- . البداية والنهاية: ج 2 ص 359.
- 8- . إمتاع الأسماع: ج 6 ص 28.
- 9- . المختصر في أخبار البشر: ج 1 ص 114.
- 10- . تاريخ الإسلام: ج 2 ص 65.

درهماً، وكانت الأوقية والنش من ذهب كما قيل، فيكون جملة الصداق خمسمائة درهم شرعي(1).

وفي إمتاع الأسماع وتاريخ مدينة دمشق والذرية الطاهرة، ذكروا بأن رسول الله(صلي الله عليه وآله) أمهرها باثنتي عشر أوقية ذهباً(2).

ومما يُستفاد من مهرها ما يلي:

أولاً: لزوم تعيين المهر عند العرب في مكة وهو نظام ثابت مستوحى من الشريعة الإبراهيمية السمحة، وكما رأينا بأنه لا يتم الزواج إلا بولي، وهذه أيضاً سنة من سنن التشريع الإلهي المسنون في شريعة إبراهيم .

ثانياً: ومن خلق خديجة رضوان الله تعالى عليها ومثلها الديني السليم حينما وهبت له من المهر لم تشترط عليه شرطاً كما فعلته سلمى بنت عمرو، كانت لا تنكح الرجال؛ لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن مهرها بيدها إذا كرهت رجلاً فارقتة(3).

ثالثاً: نجد أن المهر الذي قدّمه النبي(صلي الله عليه وآله) إلي خديجة هو مهر السنة، وقال الصادق: «كان صداق النبي(صلي الله عليه وآله) و آله) اثنتي عشرة أوقية ونشاً،

والنش نصف الأوقية، والأوقية أربعون درهماً، فذلك خمسمائة درهم»(4).

رابعاً: وأما ما قالته خديجة لأبي طالب حينما أتم خطبته وقال: «المهر عليّ في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله... فقالت خديجة رضوان الله تعالى عليها: قد زوجتك يا محمد نفسي والمهر عليّ في مالي، فأمر عمك فلينحر ناقة فليولم بها، وادخل علي أهلك»(5).

فليس بغريب علي المرأة الفاضلة كخديجة أن تطلب لنفسها محمد بن عبد الله(صلي الله عليه وآله)

ص: 359

1- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 226.

2- . إمتاع الأسماع: ج 6 ص 28، تاريخ مدينة دمشق: ج 3 ص 193، الذرية الطاهرة: ص 52.

3- . الروض الأنف: ج 1 ص 251، نهاية الأرب: ج 16 ص 36، السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 158.

4- . الكافي: ج 5 ص 384 ح 1.

5- . المهذب البارع: ج 3 ص 176.

والمهر عليها؛ لما يمتلك من الصفات الجمالية والخُلُقِيَّة المتكاملة. قال الباقر: «كان نبي الله أبيض الوجه مشرباً بحمرة، أَدْعَج العينين... (1)».

ويُضَافُ إلي خُلُقِهِ المَتمَيِّز لَدِي قَوْمِهِ مِنَ الأَمَانَةِ وَصِدْقِ الحَدِيثِ وَحُسْنِ الخُلُقِ وَالشَّرْفِ وَطَهَارَةِ النِّسْبِ، حَتَّى أَنَّ أَبَا طَالِبٍ بَرَّرَ هَبَةَ المَهْرِ مِنْ خَدِيجَةَ عَلِيٍّ أَنَّهُ رَجُلٌ مَتمَيِّزٌ مِنْ بَيْنِ الرِّجَالِ: «فَإِذَا كَانُوا مِثْلَ مُحَمَّدٍ هَذَا طُلبَتِ الرِّجَالُ بِأَعْلِي الأَثْمَانِ وَأَعظَمِ المَهْرِ، وَإِذَا كَانُوا أَمْثَالِكُمْ لَمْ يُزَوِّجُوا إِلَّا بِالمَهْرِ الغَالِي» (2).

وَسَدَّ لِلصَّادِقِ عَنِ المَرَأَةِ الَّتِي تَهَبُ نَفْسَهَا لِلرَّجُلِ يَنكِحُهَا بِغَيْرِ مَهْرٍ؟ قَالَ الصَّادِقُ: «إِنَّمَا كَانَ هَذَا لِلنَّبِيِّ، فَأَمَّا لِغَيْرِهِ فَلَا يَصْلِحُ هَذَا حَتَّى يَعْوِضَهَا شَيْئاً يَقدِّمُ إِلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ، وَلَوْ ثَوْبٌ أَوْ دَرَاهِمٌ» (3).

خَامِساً: مِنْ خِلَالِ مَراسِمِ الخَطُوبَةِ نَسْتَدَلُّ عَلِيَّ قَدْسِيَّتِهَا وَطَهَارَتِهَا وَتَوَاضُعِهَا وَخِضُوعِهَا لِمَراسِمِ السُّنَّةِ الإِلَهِيَّةِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلِيَّ صِدْقِ نَبِيِّتِهَا وَسَلَامَةِ قَلْبِهَا وَالتَّزَامِهَا

الديني، وإنها حقاً علي خطّ المذهب التوحيدي.

وَكَمَا أَنَّ تَعاطُفَهَا وَتَقَرُّبَهَا وَبِذَلَ المَسَاعِي لِمُحَمَّدٍ (صَلِيَ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) عَلِيَّ أُسَاسِ المَتمَيِّبَاتِ الأَخْلَاقِيَّةِ المَتَوَاجِدَةِ فِيهِ، كَصِدْقِ الحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَنِزَاهَةِ النِّسْبِ، كَلَّ ذَلِكَ مِنْ مَسْتَلْزَمَاتِ طَلَبِ الآخِرَةِ لَا الدُّنْيَا وَزَخْرَفَهَا.

لَقَدْ وَضَعْتَ كُلَّ مَا تَمَلَّكَ بَيْنَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ (صَلِيَ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ) وَفِي حِكْمِهِ وَتَصَرُّفِهِ؛ لِذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلِيَ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ): «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مِثْلَ مَا نَفَعَنِي مَالُ خَدِيجَةَ» (4)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) (5)؛ أَي بِمَالِ خَدِيجَةَ (6).

ص: 360

1- . انظر: الكافي: ج 1 ص 443.

2- . بحار الأنوار: ج 16 ص 6 عن العدد القوية، ص 144.

3- . المرأة ريحانة أم قهرمانة، ص 37 عن الكافي: ج 5 ص 384 ح 1.

4- . حلية الأبرار لهاشم البحراني: ج 1 ص 148، وانظر: بحار الأنوار: ج 19 ص 63.

5- . الضحى: 8.

6- . المناقب: ج 3 ص 120

روي أن أبا عبيدة قال: «فقلت لعبيد الله - يعني ابن أبي رافع - وكان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يجد ما ينفعه هكذا؟ فقال: إني سألت أبي عمًا سألتني وكان يحدث بهذا الحديث. فقال: فأين يذهب بك عن مال خديجة... وكان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يفكّ من مالها الغارم (1) والعاني (2)، ويحمل الكّل (3)، ويعطي في النائبة (4)، ويرفد (5) فقراء أصحابه إذ كان بمكة، ويحمل من أراد منهم الهجرة، وكانت قريش إذا رحلت غيرها في الرحلتين - يعني رحلة الشتاء والصيف - كانت طائفة من العير لخديجة، وكانت أكثر قريش مالاً، وكان ينفق منه ما شاء في حياتها، ثم ورثها هو وولدها بعد مماتها» (6).

عمرها يوم زواجها

روي أن رسول الله (صلي الله عليه وآله) خرج إلي الشام في تجارة لخديجة وله خمس وعشرون سنة، وتزوجها بعد ذلك بشهرين وعشرة أيام (7)، وقيل: خمسة عشر يوماً (8)، وقيل: أربعة وعشرون يوماً (9)، وهي يومئذ بنت أربعين سنة (10)، وهو الذي عليه أغلب الباحثين والمؤرخين.

وحيثما تزوجها أعتق رسول الله (صلي الله عليه وآله) حاضنته أم أيمن، وعندما أعتقت تزوجها عبيد بن زيد (11).

ص: 361

- 1- . الغارم: الذي يلتزم ما ضمنه وتكفل به ويؤديه (النهاية: ج 3 ص 363).
- 2- . العاني: الأسير، توكل من ذل واستكان وخضع (النهاية: ج 3 ص 363).
- 3- . الكّل: العيال والثقل (النهاية: ج 4 ص 198).
- 4- . النائبة: المصيبة والنازلة وما يقع علي القوم من الديات وغيرها.
- 5- . أي يعطي ويعين (انظر: المصباح المنير: ج 1 ص 232).
- 6- . أمالي الطوسي: ج 2 ص 82.
- 7- . العدد القوية، ص 143، المعارف: ص 150، خلاصة سير سيّد البشر: ص 38.
- 8- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 227.
- 9- . مروج الذهب: ج 2 ص 271.
- 10- . أنساب الأشراف: ج 1 ص 108، الطبقات الكبرى: ج 1 ص 105، صفة الصفوة: ج 2 ص 74، الكامل في التاريخ: ج 2 ص 39، أسد الغابة: ج 7 ص 80، المواهب اللدنية: ج 1 ص 403، المختصر في أخبار البشر: ج 1 ص 114.
- 11- . انظر: وفاء الوفا: ص 22 عن الطبقات الكبرى: ج 8 ص 223، والإصابة: ج 4 ص 433.

وقد رجّح كثير من الباحثين بأن عمرها كان يوم زواجها ثماني وعشرون سنة(1)، وهذا يقرب احتمال أنها كانت باكرًا(2). وهذا ممّا ينسجم مع حجم ما ولدته خديجة من الأولاد وتلائمها مع أجواء المرأة في حياة مكة آنذاك.

ومنهم من يقول: كان عمر رسول الله(صلي الله عليه وآله) حين زواجه بخديجة إحدى وعشرين سنة(3)، وقيل: ثلاثين سنة(4).

وقد روي أيضاً بأن عمرها يوم تزوجها رسول الله(صلي الله عليه وآله) خمس

وعشرين سنة(5)، وقيل: ثلاثين(6)، وقيل: خمس وثلاثين(7)، وقال بعضهم: أربع وأربعين(8)، أو خمس وأربعين(9)، أو ست وأربعين سنة(10).

وذكر في البحار عن إقبال الأعمال عند ذكر ربيع الأول اليوم العاشر منه تزوج النبي(صلي الله عليه وآله) خديجة بنت خويلد أم المؤمنين (رضي الله عنها) ولها أربعون سنة، وله خمس وعشرون سنة، ويستحب صيامه شكراً لله تعالى علي توفيقه بين رسوله والصالحة الرضية التقية(11).

أولادها

عن أبي عبد الله قال: «وُلد لرسول الله(صلي الله عليه وآله) من خديجة القاسم والطاهر - وهو عبد الله - وأمّ

ص: 362

- 1- . بحار الأنوار: ج 12، ص 16، كشف الغمّة: ج 1 ص 510، الذرية الطاهرة: ص 52، المستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 82، سير أعلام النبلاء: ج 2 ص 111، تهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 303، خلاصة سير سيّد البشر: ص 38، تهذيب الأسماء: ج 2 ص 342، تاريخ الخميس: ج 1 ص 264، تاريخ مدينة دمشق: ج 3 ص 193.
- 2- . انظر: بحار الأنوار: ج 22، ص 191، ضمن ح 5 عن المناقب: ج 1 ص 159، والاستغاثة: ج 1 ص 68.
- 3- . أسد الغابة: ج 7 ص 80، المواهب اللدنية: ج 1 ص 403.
- 4- . تاريخ يعقوبي: ج 2 ص 20.
- 5- . البداية والنهاية: ج 2 ص 295، السيرة النبوية: ج 1 ص 265، السيرة الحلبية: ج 1 ص 229.
- 6- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 229، تاريخ مدينة دمشق: ج 3 ص 191، تهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 303.
- 7- . البداية والنهاية: ج 2 ص 295، السيرة الحلبية: ج 1 ص 229.
- 8- . تهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 303، تاريخ مدينة دمشق: ج 3 ص 190.
- 9- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 229.
- 10- . الصحيح من سيرة النبي: ج 2 ص 116 عن أنساب الأشراف قسم حياة النبي، ص 98.
- 11- . بحار الأنوار: ج 98، ص 357 ح 1 عن إقبال الأعمال، ص 599.

كلثوم ورقية وزينب وفاطمة(عليها السلام)«(1).

ثم وُلد لرسول الله(صلي الله عليه وآله) من مارية القبطية(2) إبراهيم(3). والناس

يغلطون(4) فيقولون: وُلد له منها أربع بنين: القاسم وعبد الله والطيب والطاهر(5)، وسبب هذا الاشتباه أنهم يعدّون اللقب الذي هو عليه عبد الله بالطيب والطاهر ثلاثة أسماء. ولقب عبد الله بالطاهر والطيب؛ لأنه وُلد في الإسلام، وكذا ولدت فاطمة وإبراهيم(6).

روي أن أكبر أولاده: القاسم، ثم زينب، ثم رقية، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم إبراهيم، وهذا هو الأصح؛ لما عليه من تقارب الروايات(7). وُلد القاسم في مكة وبه كان يُكنّى، وعاش حتّى مشي(8)، وقيل: بلغ القاسم أن يركب الدابة ويسير علي النجيب(9). وقيل: مات وهو رضيع.

قال رسول الله(صلي الله عليه وآله): «إنّ له مرضعاً في الجنة يستكمل رضاعه»، والمعروف أنّ هذا في

ص: 363

- 1- . الخصال، ص 404 ح 115.
- 2- . لَمَّا رجع رسول الله من الحديدية بعث حاطب بن أبي بلتعة إلي المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية، وكتب كتاباً يدعوه فيه إلي الإسلام، فلمّا قرأ الكتاب قال خيراً... وكتب إلي النبي جواب كتابه ولم يسلم، وأهدي إلي النبي مارية القبطية وأختها سيرين وحمارة يعفور وبغلته دُلْدُل، وكانت بيضاء ولم يك في العرب يومئذٍ غيرها، وكان رسول الله يعجب بمارية القبطية، وكانت بيضاء جعدة جميلة... فعرض عليهما الإسلام فأسلمتا، فوطأ مارية... وكانت حسنة الدين، ووهب أختها سيرين لحسان بن ثابت الشاعر، فولدت عبد الرحمن، وولدت مارية لرسول الله غلاماً، فسّمَاه إبراهيم، وعق عنه رسول الله بشاة يوم سابعه، وحلق رأسه، فتصدّق بزنة شعره فضّعة علي المساكين، وأمر بشعره فدُفِن في الأرض... وغار نساء رسول الله واشتدّ عليهم حين رُزق منها الولد... وعن أبي جعفر: أنّ رسول الله حجب مارية - وكانت قد ثقلت - علي نساء النبي، وغرن عليها، ولا مثل عائشة» (الطبقات الكبرى: ج 1 ص 107).
- 3- . انظر: قرب الإسناد، ص 6.
- 4- . ذكر الطبري في تاريخه: ج 2 ص 411: «فولدت لرسول الله ثمانية: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب ورقية وأمّ كلثوم وفاطمة».
- 5- . انظر: أعلام الوري: ص 146.
- 6- . انظر: مروج الذهب: ج 2 ص 291.
- 7- . انظر: تنمّة جامع الأصول: ج 1 ص 107 (طبعة دار الفكر)، وتاريخ اليعقوبي: ج 1 ص 340 (طبعة الأعلمي).
- 8- . انظر: أسد الغابة: ج 7 ص 81.
- 9- . النجيب: عتاق الإبل التي يُسابق عليها.

حق إبراهيم(1)، وإن القاسم أول ميّت مات من ولده بمكّة(2).

ولمّا توفّي القاسم قال رسول الله(صلي الله عليه وآله) وهو في جنازته ونظر إلي جبل من جبال مكّة: «يا جبل، لو أنّ ما بي بك لهدّك»، وكان للقاسم يوم مات أربع

سنين(3)، وهو أكبر ولده(4).

ومن أولاده الذكور أيضاً عبد الله، وُلد في الإسلام(5) وفي مكّة، وكان يُلقب بالطيّب والظاهر، وتوفّي في مكّة صغيراً(6) بعد القاسم بشهر، ولم يُفطم، فقالت خديجة: «يا رسول الله، لو بقي حتّي أفطمه! قال: فإنّ فطامه في الجنّة»(7).

وعن الباقر قال: «لمّا توفّي الطاهر نهى رسول الله خديجة عن البكاء، فقالت: بلي يا رسول الله، ولكن درت عليه الدريرة فبكيت. فقال: أما ترضين أن تجديه قائماً لك علي باب الجنّة، فإذا رأيك أخذ بيدك فأدخلك الجنّة أطهرها مكاناً وأطيبها؟ قالت: فإنّ ذلك كذلك! قال: الله أعزّ وأكرم من أن يسلب عبداً ثمرة فؤاده فيصبر ويحتسب ويحمد الله ثمّ يعذّبه»(8).

ولمّا توفّي عبد الله، قال العاص بن وائل السهمي: «قد انقطع نسله فهو أتر، فأنزل الله: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)(9)، وفي التفسير الكبير قال: «إنّ العاص بن وائل كان يقول: إنّ محمّداً أتر لا ابن له يقوم مقامه بعده، فإذا مات انقطع ذكره واسترحم منه، وكان قد مات ابنه عبد الله من خديجة. وهذا قول ابن عباس وعامة أهل التفسير»(10). وكان يُكنّي رسول الله(صلي الله عليه وآله) بأبي الطاهر والطيّب والقاسم(11).

ص: 364

- 1- . البداية والنهاية: ج 1 ص 394.
- 2- . الاستيعاب: ج 4 ص 380.
- 3- . تاريخ يعقوبي: ج 1 ص 351، وفي الطبقات الكبرى: ج 1 ص 133: «مات القاسم وهو ابن سنتين».
- 4- . السيرة النبوية لابن كثير: ج 1 ص 264.
- 5- . أسد الغابة: ج 7 ص 81.
- 6- . انظر: الاستيعاب: ج 4 ص 380.
- 7- . تاريخ يعقوبي: ج 1 ص 351.
- 8- . مشكاة الأنوار، ص 23.
- 9- . تفسير الميزان: ج 20 ص 374، وانظر: الطبقات الكبرى: ج 1 ص 133، والآية في سورة الكوثر: 3.
- 10- . التفسير الكبير للفخر الرازي: ج 32 ص 132.
- 11- . انظر: المناقب: ج 1 ص 154.

وقيل: لأبي عَدَّة لم يبقَ لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ولد؟ قال الصادق: «لأنَّ الله خلق محمداً نبياً وعلياً وصياً، فلو كان لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ولد من

بعده لكان أولي برسول الله (صلي الله عليه وآله) من أمير المؤمنين، فكانت لا تثبت وصية أمير المؤمنين» (1).

ولم يولد له ولد من غيرها إلا إبراهيم أمه مارية (2)، وُلد في المدينة في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، وتوفي ابن ستة عشر شهراً، وقيل: ثمانية عشر شهراً، ودُفن بالبقيع (3).

وفي روايات نادرة: ولدت له في الجاهلية عبد مناف وولدت له في الإسلام غلامين: القاسم وعبد الله، وفي رواية: القاسم والطاهر ومطهر (4).

وكانت سلمى مولاة صفية تقبل خديجة ولادتها، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين، وعن كل جارية بشاة، وكانت بين كل ولدين لها سنة، وكانت تسترضع لولدها وتعد ذلك قبل أن تلد، وعندما وضعت فاطمة لم يرضعها أحد غيرها (5).

وله من البنات أربع، أكبرهن زينب، وقيل رقية ثم أم كلثوم، وأصغرهن وأكرمهن وخير ولده فاطمة (عليها السلام) المولودة في الإسلام (6).

وكل بناته من خديجة - وقيل: بعضهن (7) - أدركن الإسلام وهاجرن مع رسول الله (صلي الله عليه وآله) وأتبعنه وآمن به وتزوجن، وبعضهن أعقبن (8).

وولدت خديجة لرسول الله (صلي الله عليه وآله) الأولي زينب، وكانت أكبر بناته، تزوجها أبو العاص بن الربيع، وهو ابن خالتها، أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة، وكانت خديجة أشارت

ص: 365

1- . علل الشرائع، ص 131 ح 1.

2- . الكامل في التاريخ: ج 2 ص 307.

3- . بحار الأنوار: ج 22 ص 152، صفة الصفوة: ج 1 ص 148.

4- . انظر: الذرية الطاهرة، ص 66 و 69.

5- . التتمة في حياة أم الأئمة، ص 128 عن الطبقات الكبرى: ج 1 ص 133، والإصابة: ج 4 ص 282، وأمالى الصدوق، ص 475 ح 1.

6- . انظر: بحار الأنوار: ج 22 ص 166، ومروج الذهب: ج 2 ص 291، والسيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 190

7- . في المناقب: ج 1 ص 162: «أن زينب ورقية كانتا ربيتيه من جحش»، عنه بحار الأنوار: ج 22 ص 152، ضمن ح 4.

8- . انظر: دلائل النبوة: ج 1 ص 339، وأسد الغابة: ج 7 ص 81، والاستيعاب: ج 4 ص 380، والكامل في التاريخ: ج 2 ص 307.

علي النبي (صلي الله عليه وآله) بزواجها منه، وكان لا يخالفها، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي، وكان من رجال مكّة المعدودين في المال والتجارة والأمانة.

فلَمَّا أكرم الله نبيّه بالرسالة آمنت به خديجة وبناته وصدّقته، وثبت أبو العاص علي دين قريش، فمشت إليه وجوه قريش فقالوا: أردد علي محمّد ابنته، ونحن نزوّجك أئمة امرأة أحببت من قريش، فقال: لا أفارق صاحبتني، فإنّها خير صاحبة.

ولمّا سارت قريش إلي بدر كان معهم، فأسر في المعركة، فلَمَّا بعث أهل مكّة في فداء أسرائهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمالٍ وبعثت معه بقلادة لها كانت خديجة وهبتها لها حين أدخلتها علي أبي العاص. فلَمَّا رآها رسول الله (صلي الله عليه وآله) عرفها، فرق لها وقال للمسلمين: «إن رأيتم أن تردّوا قلادة زينب ومالها عليها وتطلقوا أسيرها فافعلوا»، فقالوا: نعم. فأطلقه رسول الله (صلي الله عليه وآله) بعد أن اشترط عليه أن يبعث بزینب إليه (1)، فوفي بذلك وبعث زينب إليه.

وروي أن هباراً أهوي إليها بالرمح فأفزعها وكانت حاملاً، فألقت ما في بطنها (2) بعد أيام... فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): «إن لقيتم هباراً فاقطعوا يده ورجله...».

وروي أنّ لأبي العاص في زينب شعر عنها:

ذكرتُ زينب لما جاوزت إرما

فقلت

سقياً لشخص يسكن الحرما

بنت الأمين جزاها الله

صالحة

وكلُّ بعل سيثني بالذي علما

وأسلم أبو العاص فردّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) إليه زينب بنكاح جديد، ويقال: بل ردّها بالنكاح الأول... وكان لأبي العاص من زينب علي وأمامة، فأما علي

فمات وهو غلام، وأمّا أمامة فتزوّجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة (عليها السلام).

ص: 366

1- . وكان الإسلام قد فرّق بين زينب وبين أبي العاص حين أسلمت زينب، إلا أنّ رسول الله كان لا يقدر أن يفرّق بينهما، وكان رسول الله مغلوباً بمكّة لا يُحلّ ولا يُحرّم» (الذرية الطاهرة: ص 75 ح 55).

2- . قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ج 17 ص 168، وج 14 ص 193: «إذا كان رسول الله أباح دم هبار، لأنّه روع زينب فألقت ذا

بطنها، وظاهر الحال أنه لو كان حياً لأباح دم من روع فاطمة (عليها السلام) حتّى ألقّت ذا بطنها»، وانظر أيضاً: التّمّة في حياة الأئمّة: ص80.

وتوفيت زينب (1) في سنة ثمان من الهجرة بالمدينة، فغسلتها أم أيمن وسودة بنت زمعة وأم سلمة، وصلي عليها رسول الله (صلي الله عليه و آله)، ونزل في قبرها (2)، ودعا الله أن يخفف عنها ضمة القبر (3).

والثانية من بناته: رقيّة، وُلدت سنة ثلاث و ثلاثين من مولد النبي (صلي الله عليه و آله)، تزوّجها عتبة بن أبي لهب قبل النبوة، فلما نزلت: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) (4)، قالت أمّه أم جميل بنت حرب حمالة الحطب: قد هجانا محمد، وعزمت علي ابنها عتبة أن يطلق رقيّة، وقال له أبوه أبو لهب: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته، ففارقها ولم يدخل بها، وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت رسول الله (صلي الله عليه و آله) هي وأخواتها حين بايعته النساء، وتزوّجها عثمان وهاجرت معه إلي أرض الحبشة الهجرتين معاً.

وكانت في الهجرة الأولى قد أسقطت من عثمان سقطاً، ثم ولدت له بعد ذلك ابناً فسماه عبد الله... وبلغ سنتين، فنقره ديك في وجهه فظمر وجهه فمات (5)، ولم تلد له شيئاً بعد ذلك.

وهاجرت إلي المدينة بعد زوجها عثمان حين هاجر رسول الله (صلي الله عليه و آله)، ومرضت (6) ورسول الله (صلي الله عليه و آله) يتجهز إلي بدر، فخلف عليها رسول

الله (صلي الله عليه و آله) عثمان وأسامه بن زيد، فتوفيت ورسول الله (صلي الله عليه و آله) ببدر في شهر رمضان علي رأس سبعة عشر شهراً من مهاجر رسول الله (صلي الله عليه و آله) (7)، ودُفنت بالبقيع (8).

ص: 367

- 1- . وكان سبب موتها بأنّها سقطت علي صخرة - وذلك حينما أدركها هبار ابن الأسود ورجل آخر فدفعها - فأسقطت حملها إذ كانت حاملة، فأهراقت الدم، فلم يزل بها وجعها حتّي ماتت» (انظر: المستدرك علي الصحيحين: ج 4 ص 48، والاستيعاب: ج 4 ص 410).
- 2- . انظر: أنساب الأشراف: ج 2 ص 23، و خلاصة سير سيّد البشر، ص 138.
- 3- . انظر: المستدرك علي الصحيحين: ج 4 ص 50.
- 4- . المسد: 1.
- 5- . وفي المعارف: ص 142: «وهلك صبيّاً لم يجاوز ستّ سنين، وكان نقره ديك علي عينه فمرض ومات».
- 6- . وفي المستدرك علي الصحيحين: ج 4 ص 53: «وأصابتها حصبة».
- 7- . وفي المعارف، ص 142: «ومات بها بعد مقدمه المدينة بسنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً».
- 8- . انظر: الطبقات الكبرى: ج 8 ص 29، وأنساب الأشراف: ج 2 ص 28.

الأولي: روي عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: «كنت أحمل الطعام إلي أبي وهو مع رسول الله (صلي الله عليه وآله) بالغار، فاستأذنه عثمان في الهجرة فأذن له في الهجرة إلي الحبشة، فحملت الطعام، فقال لي: ما فعل عثمان ورقية؟ قلت: قد سارا. فالتفت إلي أبي بكر فقال: والذي نفسي بيده إنه أول من هاجر بعد إبراهيم ولوط».

قال ابن حجر العسقلاني: «وفي هذا السياق من النكارة أن هجرة عثمان إلي الحبشة كانت حين هجرة النبي (صلي الله عليه وآله)، وهذا باطل» (1).

ولمّا كان بداية الحديث منكر، فما قاله النبي (صلي الله عليه وآله) في حق هجرته فيه وضع؛ لأنّه لا ينسجم موقف هجرته مع هجرة إبراهيم ولوط، وكما أنّ التاريخ يحدّثنا بأنهم ركبوا سفينة بأجمعهم مع عبد الله بن جعفر وأزواجهم إلي الحبشة، فلم ينفرد فيها عثمان وحده.

الثانية: عن أنس قال: «لمّا ماتت رقية قال رسول الله (صلي الله عليه وآله): لا يدخل القبر رجل قارف، فلم يدخل عثمان. قال أبو عمر: هذا خطأ من حمّاد، إنّما كان ذلك في أمّ كلثوم» (2).

للتنبية: علي أنّه لم يحضر رسول الله (صلي الله عليه وآله) دفن رقية؛ كان مشغولاً

في معركة بدر كما ذكرنا آنفاً، وقد خلف النبي (صلي الله عليه وآله) عثمان وأسامة بن زيد علي رقية في مرضها، وخرج إلي بدر وهي وجعة، فجاء زيد بن حارثة علي العضباء بالبشارة وقد ماتت رقية (3).

الثالثة: عن ابن عباس قال: «لمّا ماتت رقية قال النبي (صلي الله عليه وآله): الحقي بسلفنا عثمان بن مظعون، فبكت النساء علي رقية، فجاء عمر بن الخطاب فجعل يضربهنّ بسوطه، فأخذ النبي صلي الله عليه وسلم بيده ثمّ قال: دعهنّ يا عمر يبكين. ثمّ قال ابكين وإياكن ونعيق الشيطان، فإنّه مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان. فقعدت فاطمة علي شفير القبر إلي جنب النبي (صلي الله عليه وآله)، فجعلت

ص: 368

1- . الإصابة: ج 8 ص 138.

2- . الإصابة: ج 8 ص 139.

3- . انظر: المستدرک علي الصحيحين: ج 4 ص 50.

تبكي ورسول الله يمسح الدمع عن عينيها بطرف ثوبه.

الثبت عندنا من جميع الرواية أنّ رقية توفيت ورسول الله ببدر ولم يشهد دفنها، ولعلّ هذا الحديث في غيرها من بنات النبي صلّي الله عليه وسلّم اللّاتي شهد دفنهنّ، فإن كان في رقية وكان ثبتاً فلعله أتى قبرها بعد قدومه المدينة وبكاء النساء عليها بعد ذلك (1).

الثالثة من بناتها: أمّ كلثوم، روي أنّها أكبر من رقية، والصحيح أنّها أصغر من رقية؛ لأنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) زوج رقية قبل أمّ كلثوم، وما كان ليزوج الصغرى ويترك الكبرى (2).

تزوجها معتب بن أبي لهب، ويقال عتيبة (3)، وقالت أمّه حمالة الحطب: إن أمّ كلثوم صبأت فطلّقها. فطلّقها قبل الدخول (4).

ولمّا أنزل الله: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ)، قال له أبوه أبو لهب: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته (5)... «فطلق عتيبة أمّ كلثوم، وجاء إلي النبي (صلي الله عليه وآله) حين فارق أمّ كلثوم فقال: كفرت بديناك وفارقت ابنتك، لا- تحبيني ولا- أحبّك. ثمّ سطا عليه فشق قميص النبي (صلي الله عليه وآله) وهو خارج نحو الشام تاجراً، فقال النبي: أما إنّي أسأل الله أن يسلط عليك كلبه.

فخرج في تجارة من قريش حتّى نزلوا مكاناً من الشام يقال له: الزرقاء - ليلاً - فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أمّي هو [و] الله آكلي كما دعا محمّد عليّ، أقاتلي ابن أبي كبشة وهو بمكّة وأنا بالشام؟! فعدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فضغمه (6) ضغمة فدغه» (7).

لقد أسلمت أمّ كلثوم حين أسلمت أمّتها، وبايعت رسول الله (صلي الله عليه وآله) مع إخوتها حين بايعته النساء، وهاجرت إلي المدينة حين هاجر رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وخرجت مع عيال رسول الله (صلي الله عليه وآله) إلي

ص: 369

1- . انظر: الطبقات الكبرى: ج 8 ص 30.

2- . أسد الغابة: ج 7 ص 384.

3- . أنساب الأشراف: ج 2 ص 29.

4- . انظر: الإصابة: ج 8 ص 461.

5- . الطبقات الكبرى: ج 8 ص 30.

6- . الضغم: العَصّ الشديد، وبه سُمّي الأسد ضيغماً.

7- . الذرّية الطاهرة: ص 84. ومعني «فدغه»: أي شقّه.

المدينة فلم تزل بها.

فلما توفيت رقية خلف عثمان علي أم كلثوم في شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة، وأدخلت عليه في هذه السنة في جمادي الآخرة، فلم تزل عنده إلي أن ماتت ولم تلد له شيئاً، وماتت في شعبان سنة تسع من الهجرة.

وعن أسماء بنت عميس، قالت: «أنا غسلت أم كلثوم وصفية بنت عبد المطلب... وقيل: غسلتها نساء من الأنصار، فيهن أم عطية، ونزل في حفرتها علي والفضل وأسامة وصلّي عليها رسول الله (صلي الله عليه وآله)» (1).

ومما يُستفاد من ذكر بنات خديجة الثالث الأنفة الذكر ما يلي:

أولاً: إسلامهن وإيمانهن وثبوتهن علي النهج القويم، وهجرتهن لله ورسوله وترك أزواجهن وما يعتنقون في سبيل إعلاء كلمة التوحيد ورفض الوثنية والشرك واعتبارها نجس ورجس، يدلّ دلالة واضحة علي حسن سلوك وسيرة أمهنّ خديجة في النهج التوحيدي السليم منذ نعومة أظفارهنّ، فلما كانت الدعوة استقبلنها بقلوبهنّ، لذا كانت كلماتهنّ واحدة تبعاً لذلك التوجيه التربوي والتوحيد الإبراهيمي من قبل أمهنّ وأبيهنّ.

ثانياً: حبها وشفقتها ورقنتها علي أولادها وبناتها نابع من سلامة أمومتها الفيّاضة بمعالي الدين، فانعكس ذلك عليهنّ، فكان الحبّ والوئام للإسلام مصداقاً لتلك التربية.

للاطلاع: ذكر في الاستغاثة أن زينب ورقية منسوبتان إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وأن أمهما هالة أخت خديجة وكذا أم كلثوم (2). وتتبع هذا الرأي أيضاً السيّد جعفر مرتضي العاملي في كتابه بنات النبي (صلي الله عليه وآله) أم ربائبه؟ فراجع.

الرابعة من بناتها: ريحانة رسول الله (صلي الله عليه وآله)، الطاهرة والمنصورة، الزهراء البتول، المحدّثة الشهيدة، الصديقة الكبرى، صفوة الله (3)، الحورية الإنسية، سيّدة نساء العالمين، فاطمة أم أيها (عليها السلام).

ص: 370

1- . الطبقات الكبرى: ج 8 ص 31.

2- . انظر: الاستغاثة: ج 1 ص 68.

3- . في الفضائل لابن شاذان: ص 83: «قال رسول الله : لما عُرج بي رأيت علي باب الجنة مكتوباً: فاطمة صفوة الله».

وُلدت فاطمة(عليها السلام) بعد مبعث النبي(صلي الله عليه وآله) بخمس سنين(1)، يوم الجمعة(2) في العشرين من جمادى الآخرة بمكّة(3) في ملك يزيدجر(4)، وروي غير ذلك(5)، ولم يولد لرسول الله(صلي الله عليه وآله) من خديجة علي فطرة الإسلام إلا فاطمة(عليها السلام) وعبد الله(6)، ومن مارية القبطية إبراهيم(7).

وكانت خديجة إذا ولدت ولدًا دفعته إلي من يرضعه، فلما ولدت فاطمة(عليها السلام) لم يرضعها أحد غيرها(8)، ويقال إنّ فاطمة توأم لعبد الله المولود في الإسلام(9).

وروي أنّ أسماء قالت: «يا رسول الله، إنّ فاطمة ولدت فلم تر لها دمًا! قال: إنّ فاطمة خلقت حورية إنسية»(10).

وروي أنّ مريم(عليها السلام) وآسية وسارة وكلثم أخت موسى اللواتي أولدن خديجة... فوضعت فاطمة طاهرة مطهرة... ثم استنظفتها فنظقت فاطمة بالشهادتين... وقالت النسوة: خديجا يا خديجة طاهرة زكية ميمونة، بورك فيها وفي نسلها(11).

أمّا ما رواه ابن سعد في الطبقات والدولابي في الذرية الطاهرة بخصوص ولادتها قبل النبوة بخمس سنين(12) مرفوض؛ لسببين:

أولاً: لأنّ سورة الكوثر التي نزلت في العاص بن وائل حينما رمي رسول الله(صلي الله عليه وآله) بالأبتر، وذلك بعدما مات ابنه عبد الله المولود في الإسلام(13)، وأنّ المراد بالكوثر

ص: 371

- 1- . الكافي: ج 1 ص 457 ح 10.
- 2- . مصباح الكفعمي: ص 522.
- 3- . دلائل الإمامة: ص 10، المناقب: ج 3 ص 357.
- 4- . إقبال الأعمال: ص 623، مصباح الكفعمي: ص 10.
- 5- . وروي: «سنة إحدى وأربعين» (المستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 161، الإصابة: ج 4 ص 377)، و«سنة اثنتين من المبعث» (الإقبال: ص 623)، وقيل: «بعد الإسراء بثلاث سنين» (روضه الواعظين: ص 173، تاج المواليد: ص 21).
- 6- . انظر: الكافي: ج 8 ص 340 ضمن ح 536، والاستيعاب: ج 4 ص 281.
- 7- . انظر: الطبقات الكبرى: ج 1 ص 107، وقرب الإسناد: ص 6.
- 8- . البداية والنهاية: ج 5 ص 307، مختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 264.
- 9- . انظر: البداية والنهاية: ج 6 ص 336.
- 10- . دلائل الإمامة: ص 53، وإنّ جميع المطالب المذكورة أنفأ تجدها في كتاب التتمّة في حياة أمّ الأئمّة: ص 17.
- 11- . عوالم فاطمة: ص 17 ح 1.
- 12- . الطبقات الكبرى: ج 8 ص 19، الذرية الطاهرة: ص 152 ح 201.
- 13- . البداية والنهاية: ج 5 ص 267، مختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 264.

المبشّر به هو فاطمة(عليها السلام)؛ لانقطاع نسل رسول الله من غيرها وانتشاره منها(1).

وأغلب الروايات تذكر بأن فاطمة(عليها السلام) أصغر بنات النبي(صلي الله عليه و

آله) (2). يقول ابن عبد البر: «والذي تسكن إليه النفس - علي ما تواترت به الأخبار- ترتيب بنات رسول الله(صلي الله عليه وآله) أن زينب الأُولي ثم الثانية رقية ثم الثالثة أم كلثوم ثم الرابعة فاطمة»(3).

وفي مروج الذهب: «وولد بعدما بُعث: عبد الله وهو الطيّب والطاهر(4) الثلاثة أسماء له؛ لأنه وُلد في الإسلام، وفاطمة وإبراهيم»(5).

ثانياً: أن أبا بكر وعمر خطبا إلي النبي(صلي الله عليه وآله) فاطمة(عليها السلام)، فقال: إنها صغيرة(6)، فعلي حسابهما كما روي في تهذيب التهذيب: «وكان سنّها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر»(7).

وقد بالغ أبو الفرج الإصفهاني: «كان تزويجها ثماني عشرة سنة»(8)، فهل تكون الفتاة وهي ابنة خمس عشرة وثمانية عشر سنة صغيرة؟!

وقد ذكر في أسد الغابة: «وابتني(9) بها بعد تزويجها إياها بسبعة أشهر ونصف»(10)، فعلام هذا التأخير؟ إلا لكي يتم لها تسع سنين علي ما ترويه الشيعة عن أهل بيتها(11).

ومن العجيب أنهم يرفضون أنها تزوّجت وعمرها تسع سنين، ولا ينكرون من تزويج رسول الله(صلي الله عليه وآله) بعائشة وعمرها تسع سنين(12)!

ص: 372

- 1- . انظر: مجمع البيان: ج5 ص549.
- 2- . انظر: الإصابة: ج4 ص377، البدء والتاريخ: ج5 ص20، الفصول المهمة: ص173.
- 3- . الاستيعاب: ج4 ص373.
- 4- . وفي الفصول المهمة: ص171: «القاسم وعبد الله وهما الملقّبين بالطيّب والطاهر».
- 5- . مروج الذهب: ج2 ص291.
- 6- . انظر: المناقب: ج3 ص345، والطرائف: ص76، ضمن ح98.
- 7- . تهذيب التهذيب: ج12 ص441.
- 8- . مقاتل الطالبين: ص30.
- 9- . أي دخل عليها.
- 10- . أسد الغابة: ج7 ص220.
- 11- . انظر: الكافي: ج8 ص340، وإعلام الوري: ص81، والعدد القوية: ص260، وتاريخ الأئمة: ص98 (مجموعة نفيسة).
- 12- . انظر: مروج الذهب: ج2 ص287، والاستيعاب: ج4 ص356، والإصابة: ج4 ص359، وانظر: جميع المطالب الأنفة الذكر في كتاب التتمة في حياة الأئمة: ص19.

لِمَ هذا الاختلاف في ولادتها؟

لقد تصفّحتُ كتب التاريخ والسيرة والروايات الخاصّة بولادتها علي جهدنا المقدر عليه، وجدتُ أنّ منبع الاختلاف ناجم عن مطامع دنيوية أو أحقاد قبلية أو افتراءات يهودية تبتغي من وراء ذلك هدم معنوية الإسلام عند محبّي آل البيت وتقوية النزاع عند النواصب؛ لذا لم يقرّوا بأنّها ولدت في الإسلام وأنّها من ثمار الجنّة.

واستدلّوا بأنّ المؤرّخين اختلفوا في وقت الإسراء والمعراج، ف قيل كان قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: بسنة واحدة(1)، وفي مروج الذهب: «كان الإسراء به إلي بيت المقدس سنة إحدى وخمسين»(2)، وفي البحار عن العدد: «في ليلة إحدى وعشرين من رمضان قبل الهجرة بسنة أشهر، وقيل: في السابع عشر من شهر رمضان ليلة السبت»(3). وفي التذكرة: «ليلة السابع والعشرين من رجب السنة الثانية من الهجرة»(4).

علي ضوء هذه الروايات نجد أعداء فاطمة(عليها السلام) استدلّوا بأنّها ولدت قبل المبعث حتّي يشكّكوا برواية أنّها حوراء إنسية، وأنّها لا تنسجم مع ما روي عن الإسراء والمعراج.

غير أنّنا وجدنا في كتاب الخصائص الكبرى للسيوطي قد ذكر: «ذهب كثيرون إلي أنّ الإسراء وقع مرّتين... وذهب أبو شامة إلي وقوع المعراج مراراً، واستند إلي حديث أنس الذي أخرجه البزار»(5).

قال رسول الله(صلي الله عليه وآله): «بيننا أنا نائم إذ جاء جبريل فوكز بين كتفي، فقامت إلي شجرة فيها كوكري الطائر، فقعدت في أحدهما وقعدت في الآخر، فسمتُ وارتفعتُ حتّي سدتُ الخافقين، وأنا أقلّب طرفي، ولو شئتُ أن أمسّ السماء لمسست»(6).

بينما المشهور في الروايات: «أسري به بالبراق وهو - أي البراق - أصغر من البغل أو

ص: 373

- 1- . الكامل في التاريخ: ج2 ص51.
- 2- . مروج الذهب: ج2 ص278.
- 3- . بحار الأنوار: ج18 ص319 ح33 عن العدد القوية: ص234 ح6.
- 4- . عنه في العدد القوية: ص344.
- 5- . الخصائص الكبرى: ج1 ص298.
- 6- . كنز العمال: ج12 ص16 ح35406، الخصائص الكبرى: ص26.

أكبر من الحمار، مضطرب الأذنين، خطوه مدّ بصره، له جناحان يحفّزانه من خلفه، عليه سرج ياقوت...» (1).

وعن ابن عباس قال: «هي ليلة الاثنين من شهر ربيع الأول بعد النبوة بسنتين؛ فالأول: معراج العجائب، والثاني: معراج الكرامة» (2).

وفي إثبات الوصية: «بعد مبعثه بخمس سنين» (3)، وفي البحار: «بعد ثلاث سنين من مبعثه» (4).

وسأل

أبو بصير الصادق فقال: «جُعِلْتُ فداك، كم عرج برسول الله؟ فقال: مرتين» (5). وفي الخصال: «قال الصادق: عُرِجَ بالنبي (صلي الله عليه و آله) إلى السماء مائة وعشرين مرّة» (6).

والثابت يقيناً رغم ما ذكره السيوطي وابن عباس والمسعودي في إثبات الوصية أنّ رواية «فاطمة حوراء إنسيّة» صحيحة؛ فعن ابن عباس قال: «دخلت عائشة علي رسول الله وهو يقبل فاطمة، فقالت له: أتحبّها يا رسول الله؟ قال: أما والله لو علمت حبي لها لآزددت لها حباً، إنّه لمّا عُرِجَ بي... أخذ جبرئيل بيدي فأدخلني الجنة... فإذا أنا برطب ألين من الزبد وأطيب رائحة من المسك وأحلي من العسل، فأخذت رطبة فأكلتها، فتحوّلت الرطبة نطفة في صلبِي، فلمّا أن هبطتُ إلي الأرض واقعتُ خديجة بفاطمة، ففاطمة حوراء إنسيّة، فإذا اشتقتُ إلي الجنة شممتُ رائحة فاطمة» (7).

وفي رواية: «إنّ جبريل أتاني بتفّاحة (8) من تفّاح الجنة، فأكلتها فتحوّلت ماءً في صلبِي» (9).

ص: 374

- 1- . تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 26.
- 2- . المناقب: ج 1 ص 177.
- 3- . إثبات الوصية: ص 130.
- 4- . بحار الأنوار: ج 18 ص 379 ضمن ح 85.
- 5- . الكافي: ج 1 ص 442 ح 13.
- 6- . الخصال: ص 601 ح 3.
- 7- . علل الشرائع: ص 183 ح 2، وانظر: تفسير فرات: ص 10، والتوحيد: ص 118، وعيون أخبار الرضا: ج 1 ص 115.
- 8- . وروي: «بسفرجلة» (انظر: فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج 3 ص 152).
- 9- . المناقب: ج 3 ص 325، وانظر: المستدرک علي الصحيحين: ج 3 ص 169، وذخائر العقبى: ص 36، ومجمع الزوائد: ج 9 ص 102، وينايع المودّة: ج 1 ص 233.

وروي أيضاً: «فأدناني جبريل من شجرة طوبى، وناولني من ثمارها، فأكلت، فحوّل الله ذلك ماءً في ظهري»(1).

وروي: «أن رسول الله(صلي الله عليه وآله) اعتزل خديجة أربعين صباحاً... فلما كان في كمال الأربعين هبط جبريل... وميكائيل ومعه طبق مغطى... فكشف الطبق فإذا عذق من رطب وعنقود من عنب، فأكل النبي(صلي الله عليه وآله) منه شيئاً... ثم ذهب إلي خديجة... حتى أحسّت بثقل فاطمة في بطنها»(2).

وعن عائشة قالت: «أطعم رسول الله(صلي الله عليه وآله) خديجة من عنب الجنة»(3).

زواجها: عن أنس قال: «جاء أبو بكر إلي النبي(صلي الله عليه وآله) فقعد بين يديه فقال: يا رسول الله، قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام، وإني... قال رسول الله(صلي الله عليه وآله): وما ذاك؟ قال: تزوّجني فاطمة. فسكت عنه... وأعرض عنه، أو قال: إني أنتظر أمر الله فيها... وخطبها بعد أبي بكر عمر، فقال له كمقالته لأبي بكر... وخطبها عبد الرحمن بن عوف، فلم يجبه»(4).

فنزل جبرئيل علي رسول الله(صلي الله عليه وآله) وقال: «إن الله يأمرك أن تزوّج فاطمة من علي، وإن الله قد رضيها له ورضيه لها»(5).

لقد عوتب النبي(صلي الله عليه وآله) في أمر تزويج فاطمة، فقال: «لو لم يخلق

الله علياً ما كان لفاطمة كفو»(6)، وما تزوّجت فاطمة إلا لما أمرني الله بتزويجها»(7).

وقد روي عن الرضا: «إن الله سبحانه لم يتولّ من التزويج بنفسه إلا ثلاثة: تزويج آدم من حواء، وتزويج محمد من زينب - وهي زوجة زيد - ، وتزويج علي من فاطمة»(8).

ص: 375

1- . تفسير القمّي: ج 1 ص 365.

2- . العدد القوية: ص 220 و 221.

3- . مجمع الزوائد: ج 9 ص 225.

4- . انظر: كنز العمال: ج 13 ص 684، والعمدة لابن بطريق: ص 389، والمناقب للخوارزمي: ص 343.

5- . انظر: المناقب: ج 3 ص 350، وأمالى الطوسي: ج 1 ص 38.

6- . المناقب: ج 2 ص 290، وانظر: أمالي الصدوق: ص 474 ح 18.

7- . عيون أخبار الرضا: ج 2 ص 59 ح 226.

8- . التّمّة في تواريخ الأئمّة: ص 42 عن عيون أخبار الرضا: ج 1 ص 195.

وكان تزويجها في أول يوم من ذي الحجة السنة الثانية من الهجرة(1). وروي غير ذلك(2).

وقد حرّم الله علي علي النساء ما دامت فاطمة حيّة؛ لأنّها طاهرة لا تحيض(3).

وقال عمر بن الخطّاب: «كان لعلي ثلاث، لو كان لي واحدة منهنّ كانت أحبّ إليّ من حُمر النعم(4): تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوي(5).

ويستحبّ في يوم زواجها صومه شكراً لله لما وفق من جمع حجّته وصفوته(6).

عبادتها: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة(عليها السلام)، كانت تقوم حتّي تورّمت

قدماها(7).

وفي أمالي الصدوق: «يقول الله: يا ملائكتي، انظروا إلي أمّتي فاطمة سيّدة إمائي قائمة بين يديّ ترتعد فرائصها من خيفتي، وقد أقبلت بقلبها علي عبادتي(8).

«وكانت فاطمة(عليها السلام) لا تدع أحداً من أهلها ينام في ليلة القدر، وتتأهّب لها من النهار وتقول: محروم من حُرْم خيرها(9).

وعن الحسن قال: «رأيت أمّتي فاطمة قامت في محرابها ليلة جمعتها، فلم تزل راکعة ساجدة حتّي اتّضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات،

ص: 376

1- . مسار الشيعة: ص 53 (مجموعة نفيسة).

2- . في أمالي الطوسي: ج 1 ص 42: «يوم الثلاثاء لستّ خلون من ذي الحجة»، وروي بعد وفاة أختها رقيّة بستّة عشر يوماً بعد رجوعه من بدر لأيام خلت من شوال، وفي الطرائف: ص 44: «خمسة وعشرين من ذي الحجة»، وفي صفة الصفوة: ج 2 ص 9: «في رجب»، وفي سير أعلام النبلاء: ج 2 ص 119: «في ذي القعدة»، وفي الإصابة: ج 4 ص 377: «في أوائل المحرم بعد عائشة بأربعة أشهر»، وفي الإقبال: ص 584: «ليلة إحدوي وعشرين من المحرم سنة ثلاث من الهجرة ليلة الخميس»، وفي الكافي: ج 8 ص 340: «بعد الهجرة بسنة»، وفي مقاتل الطالبين: ص 30: «في صفر لليال بقين منه».

3- . انظر: أمالي الطوسي: ج 1 ص 42.

4- . حمر النعم: الإبل، وهي أنفس أموال النعم وأقواها، فجعلت كناية عن خير الدنيا كلّها (مجمع البحرين: ج 3 ص 276).

5- . المناقب: ج 2 ص 73.

6- . الإقبال: ص 584.

7- . المناقب: ج 3 ص 341.

8- . أمالي الصدوق: ص 100.

9- . دعائم الإسلام: ج 1 ص 281.

وتسميهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء»(1).

وخير قول قالته فاطمة(عليها السلام) في العبادة: «من أصدق إلي الله خالص عبادته، أهبط الله إليه(2) أفضل مصلحته»(3).

عصمتها: والذي يدل علي عصمتها قوله: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)(4)، فإن هذه الآية تناولت جماعة منهم فاطمة(عليها السلام)، وذلك بما تواترت الأخبار في ذلك، وإنها تدل علي عصمة من تناولته وطهارته، وإن الإرادة هاهنا دلالة علي وقوع الفعل المراد.

ويدل أيضاً علي عصمتها قوله: «فاطمة بضعة مني، فمن آذي فاطمة فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذي الله»، وهذا يدل علي عصمتها؛ لأنها لو كانت ممن تقارف

الذنوب لم يكن من يؤذيها مؤذياً له، بل كان فعل المستحق من ذمها وإقامة الحد عليها - إن كان الفعل يقتضيه - ساراً له ومطيعاً(5).

لِمَ فَاطِمَةُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) أَفْضَلُ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ)؟

سأل بزل الهروي الحسين بن روح - رضي الله عنه - فقال: «كم بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: أربع، فقال: أيتها أفضل؟ فقال: فاطمة، قال: ولم صارت أفضل وكانت أصغرهن سنّاً وأقلهن صحبة لرسول الله؟ قال: لخصلتين خصّها الله بهما: إنها ورثت رسول الله ونسل رسول الله منها، ولم يخصّها بذلك إلا بفضل إخلاص عرفه من نبيّها»(6).

وقال المرتضي رضي الله عنه: «التفضيل هو كثرة الثواب بأن يقع إخلاص و يقين ونية صافية، ولا يمتنع من أن تكون قد فصلت علي أخواتها بذلك، ويعتمد علي أنها

ص: 377

1- . علل الشرائع: ص 181 ح 1.

2- . في تنبيه الخواطر: ج 2 ص 108: «له».

3- . تفسير العسكري: ص 327 ح 177، عدّة الداعي: ص 218.

4- . الأحزاب: 33.

5- . الشافي: ج 4 ص 95، وانظر: شرح نهج البلاغة: ج 16 ص 273.

6- . المناقب: ج 3 ص 323، وانظر: الغيبة للطوسي: ص 388.

أفضل نساء العالمين بإجماع الإمامية، علي أنه قد ظهر من تعظيم الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم لشأن فاطمة (عليها السلام) وتخصيصها من بين سائرهنّ ما ربّما لا يحتاج إلي الاستدلال عليه»(1).

وعندي أنّه شيء مربوط بذاتها المقدّسة أكثر ممّا هو الظاهر من أفعالها؛ لما روي عن جابر الأنصاري، عن رسول الله (صلي الله عليه وآله) عن الله، أنّه قال: «يا أحمد، لولاك لما خلقتُ الأفلاك، ولولا عليّ لما خلقتُك، ولولا فاطمة لما خلقتكما»(2).

وأما ما يرويه النواصب بأنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) قال عن زينب: «هي أفضل بناتي، أُصيّبت في...»، قيل في آخر هذه اللفظة: «أفضل بناتي»؛ معناه: أي من

أفضل بناتي؛ لأنّ الأخبار ثابتة صحيحة عن النبي (صلي الله عليه وآله) أنّ فاطمة (عليها السلام) سيّدة نساء هذه الأُمَّة.

[وحيثما قالت فاطمة (عليها السلام): يا أبة، فأين مريم ابنة عمران؟ قال: تلك سيّدة نساء عالمها، وإنّك سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، فابشري فإنّ الله اصطفاك علي نساء الإسلام وهو خير دين].

وإذا صحّت الرواية - زينب هي أفضل بناتي - يمكن أن يقال: إنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) أراد بقوله: «أفضل»؛ أي أكبر وأقدم أولادي(3)، وإلا يتعارض مع أنّ فاطمة (عليها السلام) سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

ما بعد السقيفة: تركوا نبي الرحمة مسجّي تبكيه القلّة الطاهرة، وظلّت الجموع الغفيرة في سقيفة بني ساعدة تبكي الرئاسة، فاستقرّت عنوة بجهود عمر لأبي بكر، فلم يعطِ للأنصار والمهاجرين فرصة للتفكّر في وصيّة رسول الله (صلي الله عليه وآله) يوم غدِير خم(4).

ص: 378

1- . عوالم فاطمة: ص 51، ذيل ح 16، بحار الأنوار: ج 43 ص 37، ضمن ح 4 عن المناقب: ج 3 ص 324.

2- . مستدرک سفينة البحار: ج 8 ص 243، وانظر: الجتّة العاصمة: ص 148.

3- . انظر: المستدرک علي الصحيحين: ج 4 ص 45، وما بين المعقوفتين من حلية الأولياء: ج 2 ص 42، ومعاني الأخبار: ص 107 ح 1، والمناقب: ج 3 ص 323.

4- . قالت فاطمة (عليها السلام): «أنسيتم قول رسول الله يوم غدِير خم: من كنت مولاه فعليّ مولاه؟ وهل ترك أبي يوم غدِير خم لأحد عذراً؟» (انظر: أسني المطالب: ص 50، والخصال: ص 173).

كما أنه استغلَّ اشتغال علي وبنِي هاشم بتغسيل ودفن رسول الله (صلي الله عليه وآله)، لذا روي عن عروة: «أنَّ أبا بكر وعمر لم يشهدا دفن النبي وكانا في الأنصار، فُدفن قبل أن يرجعا»(1).

ولم يكتفوا بغضب الخلافة، بل استحوذ علي قلوبهم الشيطان فأنساهم من في الدار، حينما وضعوا الحطب لإحراقه، وفي دارها كتاب الله وآثار النبي (صلي الله عليه

وآله) وبقية أصحاب الكساء، وخيرة أصحاب الرسول.

روي أن عمر قال: «والذي نفس عمر بيده، لتخرجنَّ أو لأحرقنَّها علي من فيها، فقيل له: يا عمر، إنَّ فيها فاطمة! فقال: وإن... فقالت فاطمة: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله (صلي الله عليه وآله) جنازة بين أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم لم تستأمرونا ولم تردوا لنا حقاً...»

فنادي عمر خالد بن الوليد وقنفذاً فأمرهما أن يحملا حطباً وناراً، ثم أقبل حتَّى انتهى إلي باب علي وفاطمة، ثم نادى: يا ابن أبي طالب افتح الباب، فقالت فاطمة (عليها السلام): ويحك يا عمر! ما هذه الجرأة علي الله ورسوله؟ تريد أن تقطع نسله من الدنيا وتقنيه وتطفئ نور الله؟ فقال عمر: افتحي الباب وإلا أحرقناه عليكم، فقالت: يا عمر، أما تتقي الله؟

فأدخل قنفذ يده يروم(2) فتح الباب، ودخلوا علي فاطمة بغير إذن وما عليها خمار، فنادت: يا أبتاه، يا رسول الله، فلبس ما خلَّفك أبو بكر وعمر(3).

فضربها عمر بالسوط(4) وضغطوا سيِّدة النساء بالباب حتَّى أسقطت محسناً وكُسِرَ ضلعها من جنبها(5).

وفي الوافي بالوفيات، قال النِّظام المعتزلي: «إنَّ عمر ضرب بطن فاطمة حتَّى ألقت

ص: 379

1- . كنز العمال: ج5 ص652 ح14139 عن المصنّف: ج8 ص572.

2- . أي يطلب ويحاول.

3- . انظر: الإمامة والسياسة: ص12، وكتاب سليم: ص208، وبحار الأنوار: ج53 ص18 و19.

4- . انظر: شرح نهج البلاغة: ج16 ص271.

5- . انظر: إثبات الوصية: ص155، وكتاب سليم: ص40.

المحسن من بطنها»(1).

وذكر ابن دأب: «أنها ماتت عاتبة علي أبي بكر وعمر»(2). وكان عمرها لما ماتت ثمان

عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً(3)... عندها قال أبو بكر: «وددت أنني لم أكشف عن بيت فاطمة ولو كان أغلق علي حرب»، فقال ابن أبي الحديد: «والندم لا يكون إلا عن ذنب»(4).

ومن مثلها ورسول الله(صلي الله عليه وآله) يقبل يدها ويقول لها: «فداك أبي وأمي»(5)؟ وكانت إذا دخلت عليه رحب بها وقبل يديها(6) وأجلسها في مجلسه(7).

ومن مثلها والمهدي [من ولدها؟ روي: «أن المهدي حق وهو من ولد فاطمة»(8)، وفي رواية: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»(9).

ومن مثل فاطمة(عليها السلام) في الصدق، فعن عائشة قالت: «ما رأيت أحداً أصدق لهجةً من فاطمة»(10).

ومن مثلها زوجة؟ قال علي: «كانت ابنة رسول الله(صلي الله عليه وآله) أكرم أهله عليه... فجرت بالرحي حتى أثرت الرحي بيدها، واستقت بالقربة حتى أثرت بنحرها، وقمت(11) البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها وأصابها من ذلك ضرر... وإثها لتعجن وإن قصتها(12) تكاد تضرب الجفنة، وإثها كانت حاملاً فإذا خبزت أصاب

ص: 380

1- الوافي بالوفيات: ج6 ص17، وانظر: الملل والنحل: ج1 ص77.

2- البدء والتاريخ: ج5 ص20.

3- الكافي: ج1 ص457 ح10، ذخائر العقبى: ص52، تاريخ الأئمة: ص6 (مجموعة نفيسة).

4- شرح نهج البلاغة: ج2 ص240، وانظر: تاريخ الطبري: ج4 ص249.

5- المستدرک علي الصحيحين: ج3 ص156

6- في المناقب: ج2 ص113: «رأسها».

7- أمالي الطوسي: ج2 ص14.

8- التاريخ الكبير: ج2 ص346 (القسم الأول).

9- ميزان الاعتدال: ج2 ص87.

10- مجمع الزوائد: ج9 ص201.

11- أي: كنست.

12- القصّة شعر الناصية أو كلّ خصلة من الشعر.

حرق التتور بطنها، وهي سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين»(1).

لقد ماتت مظلومة مغضوب حقّها(2) شهيدة، لم يعرف قبرها ودُفنت ليلاً؛ لأنّها كانت ساخطة علي قوم كرهت حضورهم جنازتها(3). وقال الصادق: «لأنّها أوصت أن لا يصلّي عليها الرجال»(4).

ومما يُستفاد من ذكر فاطمة(عليها السلام) ما يلي:

أولاً: لكي تجد المرأة المسلمة القدوة الحسنة، والمثل الرائع في المبدأ والعقيدة في الخلق والسلوك لم تنجسها الجاهلية، بل أضافت إلي نور الإسلام نوراً تهدي المرأة إلي ضالّتها، وذلك من خلال سيرة مولانا فاطمة(عليها السلام).

ثانياً: إنّ مطالبة فاطمة(عليها السلام) بفدك هو استرجاع حقّها المغضوب، وهذا أمر إسلامي

لكلّ من غُصِبَ حقّه أن يطالب به (وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ)(5)، فليست المطالبة بفدك من أجل

ص: 381

- 1- . انظر: صفة الصفوة: ج 1 ص 13 و 14، وحلية الأولياء: ج 2 ص 41، ومعاني الأخبار: ص 107، وبشارة المصطفى: ص 198.
- 2- . أخذوا منها فدكاً... لما أنزل الله علي النبي: { فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ } قال: «هذه فدك، هي ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وهي لي خاصّة دون المسلمين، وقد جعلتها لك لما أمرني الله به، فخذها لك» (انظر: أمالي الصدوق: ص 424 ح 1، وعميون أخبار الرضا: ج 1 ص 233 ح 1). «ولمّا قبض رسول الله وجلس أبو بكر مجلسه، بعث إلي وكيل فاطمة(عليها السلام) فأخرجه من فدك، فأنته فاطمة(عليها السلام) فسألته أن يردها عليها» (انظر: الاختصاص: ص 183). فقال: «سمعت رسول الله قال: إنّنا معاشر الأنبياء لا نورث...» (انظر: شرح نهج البلاغة: ج 16 ص 214). فقالت فاطمة(عليها السلام): «قد ورث سليمان داود، وقال زكريا: { فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا } *يَرْتِي وَيَرْتُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ }، فنحن أقرب إلي النبي من زكريا إلي يعقوب» (كشف الغمّة: ج 2 ص 37). «فلمّا سمع أبو بكر مقالتها دعا بدواة ليكتب به لها، دخل عمر فقال: لا- تكتب لها حتّي تقيم البيّنة بما تدعي!» (انظر: كتاب سُلَيْمِ بْنِ قَيْسٍ: ص 211). فقد كان يجب علي من علم أنّ فاطمة(عليها السلام) لا تقول إلّا حقّاً إلّا يستظهر عليها بطلب شهادة أو بيّنة، وأنّها كانت معصومة من الغلط، مأموناً منها فعل القبيح، ومن هذه صفته لا يحتاج فيما يدّعيه إلي شهادة وبيّنة (انظر: الشافي: ج 4 ص 94). فلما منع ميراثها وبخس حقّها، ووجدت مسّ الضعف وقلة الناصر، قالت: «والله لأدعون الله عليك، والله لا أكلمك أبداً» (انظر: الشافي: ج 4 ص 85).

3- . أمالي الصدوق: ص 523 ح 9.

4- . علل الشرائع: ص 185 ح 1.

5- . الأحزاب: 53.

عيشهم الهنيء في الدنيا، بل لأجل قيادة الأمة علي نهج ما أمر الله به، وهذا ما صرّح به مولي المتّقين علي : «وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مظانّها(1) في غدٍ حدث(2)»(3).

ثالثاً: من الأمومة الطاهرة أمّ المؤمنين الكبرى خديجة، والأب ذو الخلق العظيم الذي سمّته قريش أيام جاهليتها بالصادق الأمين، وبنور النبوة ولدت فاطمة(عليها السلام) طاهرة مطهّرة ميمونة مباركة، أتمّت لطهارة أمّها ونبوة أبيها سرّ الإمامة وعدالة الأمة بابنها المهدي، أفلا تستحقّ أن تكون أمّها كبنّتها سيّدة أهل الجنّة وبعوار نبينا محمّد(صلي الله عليه وآله)؛ لطهارتها من الرجس والوثنية ونطق بفضلها الرسول الأمين؟

رابعاً: وما أعظمها رزية ومظلومية حينما تُضرب بالسوط ويُكسر ضلعها ويسقط جنينها ويُغتصب حقّها وهي سيّدة نساء العالمين في ظلّ نهج الإسلام بغياب أبيها، حقّاً ما قاله رسول الله(صلي الله عليه وآله): «ضغائن في صدور قوم لا يبدها لكم حتّي يفقدوني»(4).

إيمان خديجة وإسلامها

لما كان الإيمان هو التصديق المطلق بوجود الخالق وبرسوله فيما أخبروا به عن الله، وبالبعث من القبور، وبالجنّة والنار، والامثال لأوامره، والانتهاه عمّا نهى عنه، كلّ ذلك كان مهيناً بل وراسخاً في سويداء قلب خديجة، وذلك من خلال بحثها بالحثيث، وترقّبها النبي الموعود الذي سوف يظهر في مكّة.

ونتيجة ذلك الهدي والإيمان الثابت في قلبها كان سلوك خديجة في التعامل الاجتماعي والأخلاقي منسجماً مع تلك الشرائع السماوية الحقّة في الأرض؛ لأنّ الإيمان فيها معرفة كنه هذه الأمور حلالها وحرامها؛ لذا فهي الطاهرة التي تميّزت عن نساء قومها في التعامل مع الرجال في تجارتها؛ لأنّ الدين لازال قيماً عليها رغم تردي الأوضاع الاجتماعية بسبب اتّخاذها الوثنية باباً في التعبّد تاركة وراءها التوحيد الإبراهيمي المهذب للنفوس.

ص: 382

1- . أي: مكانها.

2- . الحدث: القبر.

3- . نهج البلاغة: ص 417 كتاب 45.

4- . انظر: الطرائف: ص 428.

ولمّا تقارب أمر رسول الله (صلي الله عليه وآله) وحضر زمان مبعثه الشريف، وتجلّل روح الأمين أمام شخصه يتلو عليه من هدي القرآن علي قلبه فاطمأنت جوانحه، فراح يبتّ بشره لمن كانت تنتظر صدي نبوته، فاستقبلته بتصديق القلب قائلة: «أبشر، فإنّ الله لا يصنع بك إلاّ خيراً»⁽¹⁾.

وعند مؤازرتها له تلاً قلب النبي (صلي الله عليه وآله) أملاً، وتسارع التاريخ يخطّ علي جبينه أحرفاً من ذهب أول امرأة أسلمت.

ومن خصائصها التي نالت بها أعلي مراتب الشرف والكمال - إضافة إلي ما ذكرناه من طهارتها وسخاوتها وترقيتها للنبوة وتربيتها الإيمانية لأبنائها - فإنّها أول من آمن به من النساء والرجال، فصدّته وآزرتة وأعانتة وثبتته.

فكان لا يسمع شيئاً من زمرة الإلحاد من تكذيب وجحود وعناد ويرجع إلي خديجة، إلاّ ويجد عندها كلّ هدي وسداد، فتهوّن عليه الرزايا وتواسيه وتبعث الطمأنينة إلي نفسه وتمنحه العطف وتبشّره بما سوف تراه فيه.

لقد خفف الله بسبب إسلامها عن نبيّه كلّ همّ، وفرّج عنه ما أصابه في الدعوة من تعب وغمّ، أفلا تستحقّ هذه المرأة الطاهرة المتفانية في نفسها ومالها وإيمانها وإسلامها أن تكون قرينة وزوجة لرسول الله (صلي الله عليه وآله) في الجنّة؟

وقد ثبت أنّها صلّت معه وتشرفت بمنقبة الوضوء⁽²⁾، فعن أبي رافع: «صلّي النبي (صلي الله عليه وآله) أول يوم الاثنين، وصلّت خديجة آخر يوم الاثنين، وصلّي علي يوم الثلاثاء من الغد»⁽³⁾.

ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وعلي، وذلك من خبر عفيف الكندي⁽⁴⁾، قال: «كنت امرأة تاجراً، فقدمت الحجّ فأتيت العباس لأبتاع

ص: 383

1- . الذرية الطاهرة: ص 55.

2- . عندما توضّأ جبرئيل وتطهّر الرسول ثمّ صلّي الظهر وهي أول صلاة فرضها الله... ورجع رسول الله من يومه إلي خديجة فأخبرها، فتوضّأت وصلّت العصر من ذلك اليوم» (انظر: بحار الأنوار: ج 18 ص 196). وفي تاريخ يعقوبي: ج 1 ص 343: «أتاه جبرئيل فأراه الوضوء، فتوضّأ رسول الله كما توضّأ جبرئيل، ثمّ صلّي ليريه كيف يصلّي، فصلّي رسول الله... ثمّ أتني خديجة فأخبرها فتوضّأت وصلّت، ثمّ رآه علي بن أبي طالب ففعل كما رآه يفعل».

3- . كشف الغمّة: ج 1 ص 81، المناقب: ج 2 ص 15.

4- . وروي مثل هذه القصة عن عبد الله بن مسعود (انظر: بحار الأنوار: ج 38 ص 280 و 243).

منه بعض التجارة - وكان امرأً تاجراً - فوالله إني لعنده بمنّي إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلي الشمس، فلما رآها قد مالت قام يصلي، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام من ذلك الخباء فقام معه يصلي، فقلت للعبّاس: ما هذا؟ قال: هذا محمّد بن عبد الله ابن أخي، قلت: من هذه المرأة؟ قال: امرأته خديجة بنت خويلد، قلت: من هذا الفتى؟ قال: علي بن أبي طالب ابن عمّه.

فكان عفيف الكندي يقول - وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ كنت أكون ثانياً مع علي (1).

ثم توسّعت تلك الرقعة الإيمانية فشملت مولاه زيد وزوجته أم أيمن (2)، ثم جعفر؛ دخل أبو طالب إلي النبي وهو يصلي وعلي بجانبه، وكان مع أبي طالب جعفر، فقال له

أبو طالب: صل جناح ابن عمك، فوقف جعفر علي يسار رسول الله (صلي الله عليه وآله) فبدر رسول الله (صلي الله عليه وآله) من بينها فكان يصلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) وعلي وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة (3).

وبات أبو طالب يكتنم إيمانه كمؤمن آل فرعون؛ لكي يحافظ علي مصالح وبناء الإسلام وقوام الدعوة واستقامة أمر رسول الله (صلي الله عليه وآله) و آله) وكان في ذلك كمؤمني أهل الكهف الذين أبطنوا الإيمان وأظهروا ضده؛ للتقية والاستصلاح، فاتاهم الله أجره وأجرهم مرتين.

ومن خلال عمله حافظ أيضاً علي حياة النبي (صلي الله عليه وآله) وعلي منزلته وهيئته في قريش؛ لأن قريشاً لم تكن تتحمّل وجود مسلم بينها.

فلم يزل أبو طالب ثابتاً صابراً مستمراً علي نصره ابن أخيه وحمايته والقيام دونه، حتّي مات مسلماً مؤمناً برسالة محمّد (صلي الله عليه وآله) ودعوته.

ص: 384

1- . بحار الأنوار: ج 18 ص 208، شرح نهج البلاغة: ج 4 ص 119.

2- . في الصواعق المحرقة: ص 76، وتاريخ الخلفاء: ص 34: «الظاهر أنّ أهل بيته آمنوا قبل كلّ أحد: زوجته خديجة وعلي ومولاه زيد وزوجته أم أيمن وورقة».

3- . بحار الأنوار: ج 18 ص 179 ح 10 عن تفسير القمّي: ج 1 ص 378.

1. إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب ، المنسوب إلى أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت346هـ)، بيروت: دار الأضواء، الطبعة الثانية، 1409هـ .
2. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات،
3. محمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت1104هـ)، تحقيق: أبو طالب تجليل التبريزي، هاشم رسولي المحلّاتي، قم: المطبعة العلمية، الطبعة الثانية.
4. الاختصاص، المنسوب إلى أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد (ت413هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الرابعة، 1414هـ .
5. الاستغاثة، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت352هـ)، طهران: مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى، 1373ش.
6. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبرّ النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ .
7. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عزّالدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجَزَري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
8. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
9. إعلام الوري بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت:، قم: مؤسسة آل البيت:، الطبعة الأولى، 1417هـ .

2. الأغاني، أبو الفرج الإصفيهاني (ت356هـ)، تحقيق: عبد علي مهنا، وسمير جابر، بيروت: دار الكتب العلمية.
3. إقبال الأعمال، السيّد علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحلّي (ت664هـ)، تحقيق: جواد القيومي الإصفيهاني، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، 1414هـ.
4. إكمال الكمال، الأمير الحافظ ابن ماكولا (ت475هـ)، تحقيق ونشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
5. الأمالي، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه، المعروف بالشيخ الصدوق (ت381هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأولى، 1417هـ.
6. الأمالي، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت460هـ)، تحقيق ونشر: مؤسّسة البعثة، الطبعة الأولى، 1414هـ.
7. الإمامة والسياسة، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، تحقيق: طه محمّد الزيني، القاهرة: مؤسّسة الحلبي وشركاء.
8. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت279هـ)، إعداد: محمّد باقر المحمودي، بيروت: دار المعارف، الطبعة الثالثة.
9. الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت395هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1407هـ.
10. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار: محمّد باقر بن محمّد تقي المجلسي (ت1110هـ)، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1412هـ.
11. البدء والتاريخ، أحمد بن سهل البلخي (ت507هـ)، مكّة: مكتبة الثقافة الدينية.
12. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت774هـ)، تحقيق: مكتبة المعارف بيروت: مكتبة المعارف الطبعة الثالثة، 1408هـ.
13. بشارة المصطفى لشريعة المرتضى، أبو جعفر محمّد بن أبي القاسم الطبري (ت525هـ)، تحقيق: جواد القيومي الإصفيهاني، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1420هـ.
1. بنات النبي أم ربائبه، جعفر مرتضى العاملي، قم، 1413هـ.

2. تاج العروس من جواهر القاموس، السيّد محمّد المرتضى بن محمّد الحسيني الزبيدي (ت1205هـ)، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1414هـ .
 3. تاج الموالي (طبع ضمن «مجموعة نفيسة»)، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، قم: مكتبة بصيرتي، الطبعة الأولى، 1406هـ .
 4. تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون الحضرمي (ت808هـ)، بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1408هـ .
 5. تاريخ الأئمّة (طبع ضمن «مجموعة نفيسة»)، محمّد بن أحمد البغدادي (أبو الثلج) (ت325هـ)، قم: مكتبة بصيرتي، الطبعة الأولى، 1406هـ .
 6. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، محمّد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1409هـ .
 7. تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبدالحميد، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1408هـ .
 8. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الحسين بن محمّد الديار بكري (معاصر)، بيروت: مؤسّسة شعبان.
 9. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م .
 10. التاريخ الكبير، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: المعلمي اليماني، بيروت: دار الفكر، 1407هـ .
 11. تاريخ يعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المعروف باليعقوبي (ت284هـ)، بيروت: دار صادر.
- تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت571هـ)، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى،
1. 1415هـ .

2. تتمّة جامع الأصول في أحاديث الرسول، مبارك بن محمّد، ابن الأثير الجزري (ت606)، تحقيق: بشير محمّد عيون، بيروت: دار الفكر.
 3. تفسير القمّي، أبو الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم القمّي (ت307هـ)، إعداد: السيّد الطيّب الموسوي الجزائري، قم: دار الكتاب للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة: 1404هـ، مطبعة النجف الأشرف، 1386هـ .
 4. التفسير الكبير و مفاتيح الغيب (تفسير الفخر الرازي)، أبو عبد الله محمّد بن عمر، المعروف بفخر الدين الرازي (ت604هـ)، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1410هـ .
 5. التفسير المنسوب إلي الإمام العسكري، تحقيق: مؤسّسة الإمام المهدي، قم: مؤسّسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، 1409هـ .
 6. تفسير فرات الكوفي، أبو القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي (ق4هـ)، إعداد: محمّد كاظم المحمودي، طهران: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى، 1410هـ .
 7. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة وّام)، وّام بن أبي فراس الحمدان (ت605هـ)، بيروت: دار التعارف ودار صعب.
 8. التوحيد، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، المعروف بالشيخ الصدوق (ت381هـ)، تحقيق: هاشم الحسيني الطهراني، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1398هـ .
 9. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت671هـ)، بيروت: دار الفكر، 1416هـ .
 10. تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ابن حجر) (ت852هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، عمر السلامي، علي بن مسعود، بيروت: دار المعرفة، ودار الفكر، الطبعة الأولى، 1404هـ، الطبعة الأولى، 1417هـ .
- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، عبدالقادر بدران (ت1346هـ)، بيروت: دار إحياء التراث
1. العربي، الطبعة الثالثة، 1407هـ .

2. الثقات، أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ابن حبان) (ت354هـ)، تحقيق: عبد المعيد، حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، 1393هـ .
3. جمهرة النسب، هشام بن محمد الكلبي (ت204هـ)، تحقيق: ناجي حسن، بيروت: عالم الكتب، 1413هـ .
4. الجئة العاصمة، محمد حسين ميرجهاني طباطبائي (ت1371)، طهران: مكتبة صدر، 1398هـ .
5. حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار:، السيد هاشم بن سليمان البحراني (ت1107هـ)، تحقيق: غلام رضا مولانا البروجردي، قم: مؤسسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، 1411هـ .
6. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت430هـ)، بيروت القاهرة: دار الكتاب العربي ودار الريان للتراث، الطبعة الخامسة، 1407هـ .
7. الخرائج والجرائح، أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي (قطب الدين الراوندي) (ت573هـ)، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي، قم: مؤسسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، 1409هـ .
8. الخصائص الكبرى، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1405هـ .
9. دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، السيد حسن الأمين، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الخامسة، 1415هـ .
10. دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، النعمان بن محمد التميمي المغربي (ت363هـ)، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، مصر: دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1389هـ .
11. دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الإمامي (القرن الخامس الهجري)، تحقيق: مؤسسة البعثة، قم: مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، 1413هـ .
1. دلائل النبوة، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت430هـ)، تحقيق: محمد رؤاس قلعجي، وعبدالبر عبّاس، بيروت: دار النفائس، الطبعة الثانية، 1406هـ .

2. ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، أبو العباس أحمد بن محمد الطبري (ت694هـ)، تحقيق: أكرم البوشي، جدّة: مكتبة الصحابة، الطبعة الأولى، 1415هـ .
 3. الذرية الطاهرة النبوية، أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي (ت310هـ)، تحقيق: سعد المبارك الحسن، الكويت: الدار السلفية، الطبعة الأولى، 1407هـ .
 4. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، تحقيق: سليم النعيمي، قم: منشورات الرضي، الطبعة الأولى، 1415هـ .
 5. الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي (ت581هـ)، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ .
 6. روضة الواعظين، محمد بن الحسن بن علي الفتال النيسابوري (ت508هـ)، تحقيق: حسين الأعلمي، بيروت: مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى، 1406هـ .
 7. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت942هـ)، تحقيق: أحمد عبد الموجود ومحمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1414هـ .
 8. سعد السعود، أبو القاسم علي بن موسى الحلّي (ابن طاووس) (ت664هـ)، قم: منشورات الرضي، الطبعة الأولى، 1363ش .
 9. سير أعلام النبلاء، أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، 1414هـ .
 10. السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ .
- الشافعي في الإمامة، أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي، المعروف السيّد المرتضي (ت436هـ)، تحقيق: عبدالزهراء الحسيني الخطيب، طهران: مؤسسة الإمام الصادق ،
1. الطبعة الثانية، 1410هـ .
 2. شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن محمد المعتزلي (ابن أبي الحديد) (ت656هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الثانية، 1387هـ .

3. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1410هـ .
4. الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي (معاصر)، بيروت: دار الهادي، الطبعة الرابعة، 1415هـ .
5. صفة الصفوة، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي (ابن الجوزي) (ت597هـ)، تحقيق: محمود فاخوري و محمد قلعة جي، حلب: دار الوعي، الطبعة الأولى، 1389هـ .
6. الصواعق المحرقة في الردّ علي أهل البدع والزندقة، أحمد بن حجر الهيثمي الكوفي (ابن حجر) (ت974هـ)، إعداد: عبدالوهاب بن عبداللطيف، مصر: مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، 1385هـ .
7. الطبقات الكبرى (الطبعة الخامسة من الصحابة)، محمد بن سعد الزهري (كاتب الواقدي) (ت230هـ)، تحقيق: محمد بن صامل السلمي، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ .
8. الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، السيّد علي بن موسى بن طاووس الحلّي (ت664هـ)، تحقيق ونشر: مطبعة الخيام، قم، الطبعة الأولى، 1399هـ .
9. عدّة الداعي و نجاة الساعي، أبو العبّاس أحمد بن محمد بن فهد الحلّي الأسدي (ت841هـ)، تحقيق: أحمد موحدّي، طهران: مكتبة وجداني.
- العدد القوية لدفع المخاوف اليومية، أبو منصور الحسن بن يوسف بن علي المطهر الحلّي (العلامة الحلّي) (ت726هـ)، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، قم: مكتبة آية الله
1. المرعشي، الطبعة الأولى، 1408هـ .
2. علل الشرائع، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، النجف: مكتبة الحيدرية، 1385هـ ، النجف: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1385هـ .

3. العمدة (عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار)، يحيى بن الحسن الأسدي الحلبي (ابن البطريق) (ت600هـ)، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1407هـ.

4. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، أحمد بن علي الحسيني، المعروف بابن عنبة (ت828هـ)، تحقيق: محمّد بن آل الطالقاني، النجف الأشرف: منشورات المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، 1380هـ.

5. عمدة القاري، أبو محمّد محمود بن أحمد العيني (ت855هـ)، تحقيق ونشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

6. عوالم العلوم والمعارف والأحوال من الآيات والأخبار والأقوال، عبدالله بن نور الله البحراني الإصفهاني (من أعلام ق 12هـ)، تحقيق: مؤسّسة الإمام المهدي، قم: مؤسّسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، 1408هـ.

7. عيون أخبار الرضا، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: حسين الأعلمي، بيروت: مؤسّسة الأعلمي، 1404هـ. السيّد مهدي الحسيني اللّاجوردي، طهران: منشورات جهان.

8. الغيبة، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (الشيخ الطوسي) (ت460هـ)، تحقيق: عباد الله الطهراني وعلي أحمد ناصح، قم: مؤسّسة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، 1411هـ.

9. الفائق في غريب الحديث، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت583هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1399، والثالثة، 1417هـ.

فتح الباري (شرح صحيح البخاري)، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

1. (ت852هـ)، تحقيق: فؤاد عبد الباقي عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1379هـ.

2. الفصول المختارة، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان، المعروف بالشيخ المفيد (ت413هـ)، بيروت: دار المفيد، الطبعة الثانية، 1414هـ.

3. الفصول المهمّة في أصول الأئمّة، الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي

(ت1104هـ)، تحقيق: محمد بن محمد الحسين القائني، مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا، الطبعة الأولى، 1418هـ .

4. فضائل الخمسة من الصحاح الستة، السيد مرتضي الحسيني الفيروزآبادي (معاصر)، طهران: دار الكتب الإسلامية.

5. الفضائل، أبو الفضل سديد الدين شاذان بن جبرئيل القمي (ت660هـ)، النجف: المطبعة الحيدرية، الطبعة الأولى، 1338هـ .

6. القاموس المحيط، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت814هـ)، تحقيق: نصر الهوريني، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1403هـ .

7. قرب الإسناد، أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري القمي (ت بعد 304هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت، قم: مؤسسة آل البيت، الطبعة الأولى، 1413هـ .

8. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني الموصلي (ابن الأثير) (ت630هـ)، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار صادر، 1385هـ، الطبعة الأولى، 1408 و1409هـ .

9. كتاب سليم بن قيس، سليم بن قيس الهلالي العامري (ت حوالي 90هـ)، تحقيق: محمد باقر الأنصاري، قم: نشر الهادي، الطبعة الأولى، 1415هـ .

كتاب من لا يحضره الفقيه، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم: مؤسسة النشر

1. الإسلامي، الطبعة الثانية، 1404هـ .

2. كشف الغمّة، علي بن عيسى الإبلي (ت687هـ)، تصحيح: السيد هاشم الرسولي، بيروت: دار الكتاب، 1401هـ .

3. كمال الدين وتمام النعمة، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، المعروف بالشيخ الصدوق (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1405هـ .

4. كنز العُمال، علي بن حسام الدين المتقي الهندي (ت975هـ)، تصحيح: صفوة السقا، بيروت: مكتبة التراث الإسلامي، 1397هـ .
5. كنز الفوائد، أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي (ت449هـ)، تحقيق: عبد الله نعمة، قم: مكتب المصطفوي، الطبعة الثانية، 1369ش، دار الذخائر، الطبعة الأولى، 1410هـ .
6. لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم المصري (ابن منظور) (ت711هـ)، قم: أدب الحوزة، 1405هـ، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، 1410هـ .
7. مجمع البحرين: الطريحي (ت1085هـ)، تحقيق: أحمد حسيني، مكتب النشر الثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية، 1408هـ .
8. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي والسيد فضل الله اليزدي الطباطبائي، بيروت: الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، 1415هـ، ودار المعرفة، الطبعة الثانية، 1408هـ .
9. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي (ت807هـ)، تحقيق: عبد الله محمد درويش، بيروت: دار الكتب العلمية، 1408هـ .
10. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، حسين بن محمد الراغب الإصفهاني (ت502هـ)، مصر: المكتبة العامرة، الطبعة الأولى، 1326هـ .
11. المُحَبَّر، أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي (ت245هـ)، تحقيق: ايلزه ليختن شتير، بيروت: المكتبة التجاري للطباعة والنشر، مطبعة الدائرة، 1361هـ .
1. مختصر تاريخ دمشق، محمد بن مُكرّم المصري الأنصاري (ابن منظور) (ت711هـ)، دمشق: دار الفكر الطبعة الأولى، 1404 و1408هـ .
2. المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء)، عماد الدين إسماعيل بن أبي الفداء (ت732هـ)، القاهرة: مكتبة المتنبّي .
3. مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت346هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الرابعة، 1384هـ .

4. مسأّر الشيعة في مختصر تواريخ الشريعة، محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري (الشيخ المفيد) (ت413هـ)، تحقيق: مهدي نجف، قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة الأولى، 1413هـ .
5. مستدرک سفينة البحار، الشيخ علي النمازي الشاهرودي (ت1405هـ)، تحقيق: نجل المؤلف، مؤسسة النشر الإسلامي، 1418هـ .
6. المستدرک علي الصحيحين، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411هـ .
7. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، أبو الفضل علي الطبرسي (القرن السابع الهجري)، تحقيق: مهدي هوشمند، قم: دار الحديث، الطبعة الأولى، 1418هـ .
8. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أبو العباس أحمد بن محمّد بن علي الفيومي (ت770هـ)، قم: مؤسسة دار الهجرة، الطبعة الثانية، 1414هـ .
9. المصباح للكفعمي (جذّة الأمان الواقية وجذّة الايمان الباقية)، إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي (ت900هـ)، تصحيح: الشيخ حسين الأعلمي، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثالثة، 1403هـ .
10. المصنّف، ابن أبي شيبة الكوفي (ت235هـ)، تحقيق: سعيد اللّحام، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1409هـ .
1. معاني الأخبار، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1361ش.
2. معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1399هـ .
3. معجم ما استعجم، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت487هـ)، تحقيق: مصطفى السقّا، بيروت: عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1403هـ .

4. معجم مقاييس اللغة، أبو حسين أحمد بن فارس الرازي (ت395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. مصر: شركة مكتبة مصطفى البابي وأولاده، الطبعة الثانية، 1389 و1392.
5. مقاتل الطالبين، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي الإصبهاني (ت356هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى، 1414هـ.
6. مكارم الأخلاق، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق: علاء آل جعفر، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1414هـ.
7. الملل و النحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة.
8. المناقب (المناقب للخوارزمي)، الحافظ الموفق ابن أحمد البكري المكي الحنفي الخوارزمي (ت568هـ)، تحقيق: مالك المحمودي، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، 1414هـ.
9. مناقب آل أبي طالب (المناقب لابن شهر آشوب)، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ابن شهر آشوب) (ت588هـ) تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، قم: منشورات علامة.
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد القسطلاني (ت923)، تحقيق:
1. صالح أحمد الشامي، بيروت: المكتب الإسلامي، 1412هـ.
2. موسوعة حياة الصحابييات، محمد سعيد مبيض، سورية: مكتبة الغزالي، 1410هـ.
3. المهذب البارع، أحمد بن محمد بن فهد الحلبي، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، 1413هـ.
4. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الأولى، 1382هـ.
5. الميزان في تفسير القرآن (تفسير الميزان)، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

(1402هـ)، قم: منشورات جماعة المدّرسين، طبع: مؤسّسة إسماعيليان، الطبعة الثانية، 1394هـ .

6. النوادر (النوادر للراوندي)، أبو الرضا السيّد فضل الله بن علي الحسني الراوندي (ت بعد 571هـ)، تحقيق: سعيدرضا عسكري، قم: مؤسّسة دار الحديث، الطبعة الأولى، 1377ش.

7. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهّاب النويري (ت733هـ)، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الطبعة الأولى، 1395 و 1396.

8. نهج البلاغة، ما اختاره أبو الحسن محمّد بن الحسين بن موسى الموسوي (الشريف الرضي) (ت406هـ)، تحقيق: صبحي صالح، قم: منشورات هجرت، الطبعة الأولى، 1395هـ .

9. الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصّفّدي (ت764)، اشتوتغارت: دار النشر، الطبعة الأولى، 1411هـ .

10. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، نور الدين علي بن أحمد السمهودي (ت911هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، 1401هـ .

1. ينابيع المودّة لذوي القربي، سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت1294هـ)، تحقيق: سيّد علي جمال أشرف الحسيني، طهران: دار الأسوة، الطبعة الأولى، 1416هـ .

19- أم المؤمنين خديجة الكبرى

إشارة

* أم المؤمنين خديجة الكبرى (1)

محمد سلمان

ملخص البحث:

ينتهج هذا البحث المنهج المكتبي التوثيقي، ويتقل بطريقة السرد التاريخي مقتطفات ممّا جاء في كتب التاريخ والسيرة حول حياة أم المؤمنين الأُولي، وأول امرأة آمنت بالإسلام. فذكر نسبها من جهة الأب والأم، وعمرها، مبيّناً بإسهاب الأقوال المختلفة في مسألة عمرها؛ حيث ذهب جلال مظهر في كتابه: محمد رسول الله، سيرته وأثره في الحضارة، إلي «أنّها كانت ابنة 25 سنة»، دون أن يذكر سبباً مرجحاً لذلك. في حين اعتمدت بنت الشاطئ في كتابها نساء النبي رواية الأربيعين، التي اعتمدها الطبري والواقدي، ورواها حكيم بن مزاحم. وهيكّل هو الآخر اعتمد في كتابه حياة محمد ما اعتمده الطبري والواقدي، وغير ذلك من الأقوال الأخرى. وقد اتّبع طريقة الاستدلال لتفنيد الكثير من تلك الأقوال، ونقل ما جاء من الأخبار في زواجها، وأنّها قد أنجبت له كلّ أولاده إلا إبراهيم، فهو من مارية القبطية؛ وهم: القاسم وبه كان يُكنّى، والطيب والظاهر - علي قول - وقد ماتوا صغاراً رضّاً عما قبل بعثته المباركة، ورقية وزينب - علي قول - وأمّ كلثوم وفاطمة الزهراء التي تزوّجها الإمام علي. يقول ابن هشام في سيرته: «وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدّقت بما جاءه من الله، ووازرته علي أمره...». كانت كثيراً ما

ص: 399

تخفّف عنه الآلام التي يواجهها من المجتمع. ومن أقوالها المشهورة له: «أبشر، فوالله لا يُخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدّي الأمانة، وتحمل الكلّ، وتُقري الضيف، وتعين علي نواب الدهر». رحلت هذه السيّدة الجليلة وغابت عن دنياه، ولكنها لم ترحل عن قلبه.

في بيت من البيوت العريقة وذات السمعة الطيّبة والمكانة العالية في الحجاز، وُلدت سيّدتنا خديجة لأبوين قرشيين؛ فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر من كنانة... من قريش، فهو من بني أسد، وقد مات في حرب الفجار التي قامت في الجاهلية في الأشهر الحرم بين قريش وقيس عيلان، ويومذاك كان عمر خديجة - إذا ما أخذنا برواية أنّ عمرها حين زواجها من الرسول أربعون سنة - ثلاثين سنة.

وأما أمّها فهي فاطمة بنت زائدة ابن الأصمّ بن فهر بن لؤي بن غالب، فهي تجتمع مع زوجها خويلد في لؤي بن غالب... من كنانة من قريش.

خديجة القرشية الأسدية تلتقي نسباً مع النسب الكريم لرسول الله (صلي الله عليه وآله) في جدّه الرابع «قصيّ»، فهو محمّد بن عبد الله بن عبد المطلّب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ... وهي بالتالي أقرب نسائه إليه .

كانت تُدعي في الجاهلية بالطاهرة، وسيّدة نساء قريش، وسيّدة قريش.

وهي يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظهنّ شرفاً، وأكثرهنّ مالاً وأحسنهنّ جمالاً... وفي لفظ كان يقال لها سيّدة قريش؛ لأنّ الوسط في ذكر النسب من أوصاف المدح والتفضيل، يقال: فلان أوسط القبيلة أعرفها في نفسها... (1).

عمر خديجة

الاهتمام بعمرها أمر طبيعي جدّاً؛ لأنّه جزء من دراسة حياتها المباركة بعد أن اقتربت برسول الله (صلي الله عليه وآله)، وصارت حياتها جزءاً من حياته الشخصية والدينية

بكلّ أبعادها.

ص: 400

1- . انظر: السيرة الحلبية: ج 1 ص 137، «باب تزوّجه خديجة بنت خويلد (عليها السلام)».

ولكنّ هذا الاهتمام بدلاً من أن يولد لدينا القطع بعمرها، عمق الاختلاف فيه تبعاً لاختلاف الروايات والأخبار، وبالتالي الآراء عن ولادتها وعن عمرها وحياتها حين اقترانها بالرسول الكريم، وراحت - اعتماداً علي تلك الروايات - أقوال قدماء المؤرّخين بالذات، وأقوال من جاراتهم من الكتّاب المحدثين توسّع ذلك الاختلاف وتثبته ولم تستطع حسمه بما تقدّمه من أدلّة. وابتداءً نشير إلي بعض روايات سنّها ومصادرّها.

فعن ابن عبّاس: «كانت خديجة يوم تزوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله) ابنة ثمان وعشرين سنة»⁽¹⁾.

وعن حكيم بن مزاحم (ابن أخيها): «تزوّج رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة وهي ابنة أربعين سنة، ورسول الله (صلي الله عليه وآله) ابن خمس وعشرين سنة».

ويقول ابن مزاحم: «وكانت أسنّ منّي بستين، ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة، وولدت أنا قبل الفيل بثلاث عشرة سنة»⁽²⁾ (فقد وُلد بعد وقعة الفيل بخمسين يوماً...)»⁽³⁾.

وذكر الواقدي: «إنّها كانت لما تزوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله) بنت خمس وأربعين سنة».

وعن البيهقي والحاكم: «... وأنّ عمره كان خمساً وعشرين، وعمرها خمساً وثلاثين».

كما أنّ هناك من يقول: إنّها ابنة 25 سنة، أو 30 سنة... .

يقول صاحب كتاب إتحاف الوري بأخبار أمّ القري: «... خطب النبي (صلي الله عليه وآله) إلي خديجة نفسها، وكانت ابنة أربعين سنة. ويقال: ابنة خمس وأربعين».

ويقال: ... ثمان وأربعين سنة. ويقال: ... ستّ وأربعين. وقيل: ... ثلاثين. ويقال: ... ثمان وعشرين...».

فالأقوال إذن في مسألة عمرها مختلفة، وقد ذهب جلال مظهر في كتابه: محمّد رسول الله سيرته وأثره في الحضارة، إلي «أنّها كانت ابنة 25 سنة» دون أن يذكر سبباً مرجحاً لذلك.

في حين اعتمدت بنت الشاطي في كتابها نساء النبي رواية الأربعين، التي اعتمدها

ص: 401

1- . مختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 275.

2- . مختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 275.

3- . انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 100، وأنساب الأشراف للبلاذري: ص 92.

الطبري والواقدي ورواها حكيم بن مزاحم. وهيكل هو الآخر اعتمد في كتابه حياة محمد ما اعتمده الطبري والواقدي.

وقد ذكر كل من الدكتور عبد الصبور شاهين وإصلاح عبد السلام في أمّهات المؤمنين: «وقد أجمعت كتب التاريخ والسيرة إلا رواية واحدة في الطبقات علي أنّ السيّد خديجة كانت في الأربعين من عمرها عند زواجها...».

إنّ ما ذكره بعيد عن الدقّة، فأين هو الإجماع؟ وهذه المصادر وكتب التاريخ بين أيدينا قد ذكرت روايات متعدّدة، وكلّها تشير إلى الاختلاف في سنّها.

وذهب إسحاق - كما في مستدرک الحاكم - إلى أنّ خديجة كانت في الثامنة والعشرين من العمر (1).

في حين ذهب العقّاد في كتابه فاطمة الزهراء والفاطميون إلى اعتماد رواية 25، 28 سنة، حيث يري أنّ المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النّمّ ويبكر فيها الهرم، فلا تتصدّي للزواج بعد الأربعين.

وهذا ردّ صريح علي من أخذ برواية الأربعين الذين أخذوا في اعتبارهم أنّ السيّد خديجة قد تزوّجت قبل رسول الله (صلي الله عليه وآله) من عتيق بن عائذ ومن بعده من أبي هالة زُرارة، وأنجبت لهما أولاداً، ثمّ مكثت بعد وفاة زوجها الثاني مدّة ليست قصيرة،

راغبةً في تنمية ثروتها وأموالها التي ورثتها من أبيها الذي كان ثرياً ومن قبيلة ذات مال وفير ومن زوجها، عازفةً عن الزواج الثالث؛ لأنّ كلّ من تقدّم لزواجها - كما زعم - إنّما كان تدفعه الرغبة في ثروتها، ولأنّها لم تجد فيهم من الشرف والأمانة والصدق، هذه الصفات التي كانت تنشدها حتّي تستطيع أن تأمنه علي أموالها وتجارته... حتّي قدر لرسول الله (صلي الله عليه وآله) أن يضارب بتجارته، وقد قبلت به؛ لمعرفتها بأنّه الصادق الأمين، وهو الذي عُرف بهذا بينهم، وفعلاً سافر إلي الشام ببضاعتها وعاد ببضاعة أخرى وفيرة وأرباح عالية لم تعهدها من قبل، مع ما حدّثها عنه غلامها ميسرة الذي كان برفقة محمد وخدمته، فزادت معرفتها به، وعظم تعلّقها

ص: 402

1- . مستدرک الحاكم: ج3 ص182، وقد كان كلام ابن إسحاق بلا إسناد.

به، ورأت فيه ما كانت تتمني، فتزوجته.

وقد استعان أصحاب رواية الأربعين بذيل الرواية نفسها عن حكيم بن مزاحم علي تأييد ما ذهبوا إليه، وذيلها يقول: «إنها توفيت في شهر رمضان سنة عشر من النبوة وهي يومئذ ابنة خمس وستين سنة...»⁽¹⁾.

وأخذ علي هذا الرأي: أنها كيف أنجبت في هذه السن المتأخرة؟

وأجيب عن ذلك بأنه من المشاهد وجود نساء وقد أنجن بعد الأربعين، بل بعد الخمسين أيضاً، وهذا الأمر يتوقف علي توفر عوامله، التي منها صحة المرأة واستعدادها وقابليتها وبيئتها، وما تعيشه المرأة من رفاهية في حياتها واستقرار وراحة... وهو ما توفر للسيدة خديجة. علماً بأن هناك من يقول: إن آخر ما أنجبت خديجة فاطمة الزهراء، وهي في الخمسين إن لم تكن أقل من ذلك من عمرها المبارك، ومعني هذا أنها لم تنجب بعد الخمسين سنة وكانت هذه الفترة 15 سنة.

فالمداني قال: «وُلدت فاطمة قبل النبوة بخمس سنين». وفي رواية جعفر بن سليمان: «وُلدت فاطمة سنة إحدى وأربعين من مولد النبي (صلي الله عليه وآله)».

وعن أبي جعفر: «...أما أنت يا فاطمة فولدتِ وقريش تبني الكعبة والنبي (صلي الله عليه وآله) ابن خمس وثلاثين سنة».

فهذه الروايات تبين أن فاطمة - وهي آخر مولود لخديجة - وُلدت وخديجة بعد لم تتجاوز الخمسين من عمرها، وعلي رواية الأربعين كانت البعثة وخديجة في الخامسة والخمسين من عمرها.

وقد ترد بعض الملاحظات علي مسألة التمسك برواية الأربعين، وأنها قد تزوجت مرتين.

1. لماذا هذا الإصرار علي التمسك برواية الأربعين وعدّها هي المشهورة، وهي رواية من عدة روايات (45 سنة، 28 سنة، 25 سنة، 30 سنة...)? أليس هذا ترجيحاً بلا مرجح؟

ص: 403

1- . مختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 271.

2. امرأة بهذا العمر (40، 45 سنة) وفي أجواء كأجواء الحجاز الحارة جداً التي يسرع الكبر فيها إلي الإنسان، وقد تقدّم لخطبتها - كما تقول الأخبار - أعظم قريش نسباً ومالاً - ورفضتهم، بل وتمناها وتهالك عليها كل شريف وعظيم، فقد كان ممن خطبها عقبه بن أبي معيط، والصلت بن أبي يهاب، وكان لكل واحد منهما أربعمائة عبد وأمة، وخطبها أبو جهل بن هشام، وأبو سفيان (1)، فهل كل هذا يكون من أجل امرأة بهذه السن المتأخرة، ومن أجل امرأة عاشت بيتين (بيت عتيق، وبيت أبي هالة)، وأنجبت واحداً علي رواية، واثنين علي رواية أخرى، وثلاثة علي رواية ثالثة، وهم «هند والحارث و بنت اسمها زينب (2)، وترملت بعدهما وعاشت سنين أخرى؟! أو يصحّ هذا وهم قادرون بما عندهم من شرف ومال وجاه أن يتزوجوا بما يحلو لهم من النساء من بيوتات عربية أخرى ذات شرف وعفة ومال وجمال؟!!

ثم إن زوجيها السابقين لم يكونا بدرجة عالية من المكانة، ومع هذا قبلت بهما

وهي في شبابها، فكيف وقد تقدّم بها العمر ترفض زعماء قريش وأشرفها؟! وإن قيل إنَّها قرّرت تنمية ثروتها، فإنّ هذا ادّعاء سطرته أقلام الكتّاب، ولا يصلح أن يكون مبرراً يفرض عليها مادامت لم تصرّح به، علماً بأنّ في قبال هذا الادّعاء يقول: إنَّها إنّما رفضتهم جميعاً؛ لعدم توفّر الصفات التي تريدها فيمن تقدّم لخطبتها، وهو ادّعاء أقوى من ادّعاء الكتّاب؛ لأنّه من أقرب الناس لها.

قال أبو القاسم الكوفي: «إنّ الإجماع من الخاصّ والعامّ من أهل الأنام ونقلة الأخبار، علي أنّه لم يبق من أشرف قريش ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم، إلّا من خطب خديجة ورام تزويجها، فامتنعت علي جميعهم من ذلك، فلمّا تزوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله) غضب عليها نساء قريش وهجرنها وقلن لها: خطبك أشرف قريش وأمراؤهم فلم تتزوّج أحداً منهم، وتزوّجتي محمّداً يتيم أبي طالب فقيراً لا مال له؟! فكيف يجوز في نظر أهل الفهم أن

ص: 404

1- . انظر: بحار الأنوار: ج 16 ص 22.

2- . جوامع السيرة النبوية لابن حزم الأندلسي (ت 456هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية.

تكون خديجة يتزوجها أعرابي من تميم وتمتتع من سادات قريش وأشرفها علي ما وصفناه؟ ألا يعلم ذوو التمييز والنظر أنه من أئبن المحال وأفزع المقال؟! (1)

3. وفي الاستغاثة ذكر بعض أنه كانت لخديجة أخت اسمها هالة (2) تزوجها رجل مخزومي، فولدت له بنتاً اسمها هالة، ثم خلف عليها رجل تميمي يقال له أبو هند، فأولدها ولداً اسمه هند، وكان لهذا التميمي امرأة أخرى قد ولدت له زينب ورقية، فماتت ومات التميمي، فلحق ولده هند بقومه وبقيت هالة أخت خديجة والطفلتان اللتان من التميمي وزوجته الأخرى، فضمّتهم خديجة إليها، وبعد أن تزوجت بالرسول ماتت هالة، فبقيت الطفلتان في حجر خديجة والرسول، وكان العرب يزعمون أن الربيبة بنت، ونُسبتا إليه، مع أنّهما ابنتا أبي هالة زوج أختها، وكذلك كان الحال

بالنسبة لهند نفسه (3).

أريد من هذا كله أن أقول: إن ما يناسب صفات هذه السيدة وما يلائم كلّ ما قيل بحقّها ورغبة الآخرين فيها وما يبعدنا عن مسألة كلّ ما يرد من إشكالات حول عمرها وقدرتها علي الإنجاب، ومادامت الروايات كلّها قد تكون بمستوي واحد وليس لواحدة علي الأخرى ترجيح، أري أن الأخذ برواية 25، أو 28 كما ذهب إليه العقّاد أولي؛ لأنّ هاتين الروايتين تناسبان واقع حياة هذه المرأة لا غير.

أمّا زواجها السابق لمّرتين فهو أيضاً محلّ تأمل وتوقف، وقد وردت أدلّة وأقوال علي أنّها باكرٌ كما ذهب إلي ذلك كلّ من أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضي في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: «أنّ النبي تزوّج بها وكانت عذراء، هذا ما نقله ابن شهر آشوب في المناقب في ترتيب أزواجه، حيث يقول: «تزوّج بمكّة أولاً خديجة بنت خويلد، قالوا: وكانت عند عتيق بن عايد المخزومي ومن ثمّ عند أبي

ص: 405

1- . لها ذكر في كتب الأنساب، فراجع علي سبيل المثال: نسب قريش لمصعب الزبيري: ص 157 - 158.

2- . الاستغاثة: ج 1 ص 70.

3- . انظر: الصحيح في سيرة النبي، والاستغاثة: ج 1 ص 68 - 69، ورسالة مطبوعة طبعة حجرية في آخر مكارم الأخلاق: ص 6.

وروي أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما والمرتضي في الشافي وأبو جعفر في التلخيص: «أن النبي تزوج بها وكانت عذراء، يؤكد ذلك ما ذكر في كتابي الأنوار والبدع: أن رقية وزينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة» (1).

الزواج المبارك

استجمعت أحاسيسها وراحت تستمتع فرحةً مسرورةً لحديث غلامها ميسرة، الذي صحب النبي (صلي الله عليه وآله) وهو يضارب في تجارة لخديجة في الشام، وراح يحدثها عن سيرة محمد معه وعن أخلاقه وطباعه وصفاته الجميلة، وعمّا كان يراه من كراماته التي لم ير ميسرة مثيلاً لها من قبل علي كثرة سفراته مع آخرين، فأعجبت به،

وقد أسر كلّ مشاعرها، وامتلك كلّ عواطفها، وتحركت في قلبها أسراره، وكأنّها تريد لهذا الحديث ألا يتوقف أو ينتهي، ثمّ راحت تحدّق في مستقبل فتى بني هاشم الصادق الأمين، الذي غدا صدقه يملأ الآفاق، وأمانته يلهج بها كلّ لسان، ماذا يخبئ المستقبل لهذا اليتيم الهاشمي، وما هو ذاك الشأن العظيم الذي ينتظره؟

لقد تمثّلت أمام عينيها شخصيته بكلّ ما فيها من نبل صفاته ورقّة شمائله، وعظيم وكرم أخلاقه، وجمال روحه وشرفه وفضله علي الجميع.

لاحت من ميسرة نظرة إلي سيّدته، فردّت طرفها وعلتها العفة وهي أنبل نساء عصرها حياءً وأعظمهنّ خلقاً. فانقلبت غبطتها تلك وفرحتها إلي حبّ لم تحسّ به من قبل، وإلي ودّ ما لامس مثله أحاسيسها أبداً، وإلي إكبار وتكريم ولجا قلبها، ملأ كلّ منهما عليها حياتها، وهي التي تمرّدت علي واقع نساء قومها، وامتنعت أمام أعظم قريش شرفاً ونسباً وثراءً ومكانةً.

فالتفتت بعد حين إلي أختها - علي قول، وإلي صديقتها نفيسة بنت منبّه علي قول

ص: 406

آخر - لتسرّها بأنّ ما قاله ميسرة عن محمّد قد نفذ إلي روحها، وأنها وجدت فيه ما كانت تتمنّاه ولم تجده فيمن تقدّم لخطبتها، فما كان من نفيسة - وقد سرّت بما سمعته - إلا أن بادرت إليه - علي رواية - فقالت له: ما يمنعك أن تتزوّج؟

قال: ما بيدي ما أتزوّج به.

قالت: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلي الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

قال: فمن هي؟

قالت: خديجة.

قال: كيف لي بذلك؟

فقالت نفيسة وقد علت ملامح وجهها الفرحة: عليّ ذلك. وسارعت لتبلغ خديجة بما سمعته من محمّد.

وفي رواية: «... وكانت لبيبةً حازماً، فبعثن إليه تقول: يا ابن عمّ، إنّي قد رغبتُ فيك؛ لقربتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك» (1).

لقد خصّها الله بكرامةٍ ادّخرها لها، وكانت له من الشاكرين، واختارها لمكانتها وصفاتها لتكون امرأة خاتم رسله وسيّد الأولين والآخرين محمّد بن عبد الله.

لم يتأخّر محمّد في إبلاغ عمّه «أبو طالب» وعشيرته بذلك، كما لم تتأخّر خديجة، فقد أبلغت عمّها عمرو بن أسد الذي حضر ودخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) عليه في عمومته ومعه بنو هاشم وسائر رؤساء مُضَرَ، فخطب أبو طالب فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وسؤاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكّام علي الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يُوزن به رجل من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، فإن كان في المال فلا، فإنّ المال ظلّ زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة، ومحمّد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة وبذل لها من الصداق ما آجله

ص: 407

وعاجله من مالي هذا، وهو مع هذا والله له نبأ عظيم وخطر جليل، أو له والله خطب عظيم، وخطر جليل أو «له والله خطب عظيم ونبأ شائع».

فتزوَّجها وأصدقها عشرين بكرة، وقيل اثنتي عشرة (اثنتين وعشرين) أوقية ذهباً ونشاً (نصف أوقية)؛ والأوقية أربعون درهماً، والنش عشرون درهماً، فذلك خمسمائة درهم.

وفي رواية: «فقال لأعمامه... فجاء معه حمزة عمّه حتّي دخل علي خويلد [خويلد بن أسد، وقيل: بل عمرو بن خويلد بن أسد، وقيل: بل عمرو بن أمية عمّها، وكان شيخاً كبيراً، وهو الصحيح علي ما في نهاية الأرب (ج16 ص98)، وعن ابن سعد في الطبقات (ج1 ص132)، عن جمهرة النسب للكليبي (ص74) وهو عمرو بن أسد بن

عبد العزّي، وهو يومئذٍ شيخ كبير لم يبق لأسد لصلبه يومئذٍ غيره، ولم يلد عمرو بن أسد شيئاً»⁽¹⁾.

إذاً، فقد اشتهر أنّ عمّها عمرو بن أسد هو الذي تزوّجها، وإن قيل: إنّ الذي تزوّجها أخوها عمرو بن خويلد؛ لأنّ أباهما مات قبل حرب الفجّار، وهذا كلّه يكذب المزاعم التي رويت من أنّ أباهما تزوّجها بعد أن سقته خمرًا... لتحصل بذلك علي موافقته؛ لأنّه لا يوافق من تزويجها من فقير يتيم.

ففي رواية أحمد في مسنده: «حدّثنا أبو كامل، ثنا حمّاد عن عمّار بن أبي عمّار، عن ابن عبّاس - فيما يحسب حمّاد - أنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) ذكر خديجة وكان أبوها يرغب عن أن يزوّجه، صنعت هي طعاماً وشراباً، فدعت أباهما وزُمرّاً من قريش فطعموا وشربوا ثمّ ثملوا، فقالت لأبيها: إنّ محمّداً يخطبني فزوّجني إيّاه، فزوّجها إيّاه، فخلّقته (طبيّته، وفي المسند: فجملته)، وألبسته حلّة كعادتهم، فلمّا صحا نظر فإذا هو مخلّق فقال: ما شأنني؟ فقالت: زوّجتني محمّداً، فقال: وأنا أزوّج يتيم أبي طالب! لا لعمري، فقالت: أما تستحي؟ تريد أن تسفّه نفسك معي عند قريش بأنك كنت سكران؟ فلم ترل به حتّي رضي».

ص: 408

وقد روي طرفاً من الأعمش عن أبي خالد الوالبي، عن جابر بن سُمرة أو غيره.

كما ذكر مختصر تاريخ دمشق رواية نُسبت إلي عمّار بن ياسر تشبه هذه الرواية. وهذا ما نفاه الواقدي بعد نقله بقوله: «وهذا غلط، والثبت عندنا المحفوظ من حديث محمّد بن عبد الله بن مسلم عن أبيه، عن محمّد بن جبير بن مطعم، ومن حديث ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة. ومن حديث ابن أبي حبيبة عن داود بن الحُصين، عن عكرمة، عن ابن عبّاس، أنّ عمّها عمرو بن أسد زوّجها رسولاً

اللّه (صلي الله عليه وآله)، وأنّ أباهما مات قبل الفِجَار» (1).

وقد بلغت تلك الرواية من الضعف والسخف درجة كبيرة، فهي إضافة إلي منافاتها لأخلاق هذه السيّدّة المباركة حتّي قبل زواجها برسول الله (صلي الله عليه وآله)، فقد شهد - في الجاهلية - بسموّ الخلق والنجابة والشرف وبرجاجة عقلها وقوة شخصيتها، مع ما لها من المكانة الكبيرة عند أهلها وعشيرتها، ممّا جعلها موضع فخر واعتزاز وممّا يؤهلها لإقناع أبيها - علي فرض حياته - بهذا الزواج. يقول صاحب السيرة الحلبيّة عنها: «امرأة حازمة؛ أي ضابطة جلدة؛ أي قوية شريفة؛ أي مع ما أراد الله تعالى لها من الكرامة ومن الخير... فامرأة تحمل هذه الصفات لا أظنّها بحاجة إلي أن تستعين بأسلوب يتنافي مع كلّ ما منّ الله تعالى عليها من صفات كريمة، وقد وصفت خديجة نفسها هذا الأسلوب - حسب الرواية - بقولها إلي أبيها: تريد أن تسفّه نفسك معي عند قريش بأنك كنت سكران»؟

فهو إذن أمر معيب عندهم، فكيف ترتكبه؟ وإضافة إلي هذا فإنّ الرواية تتنافي مع الرواية الأخرى التي نالت إجماع أكثر المؤرّخين من أنّ أباهما توفي من قبل وأنّ عمّها هو الذي زوّجها، وعلي رواية ضعيفة أنّ أخاهما زوّجها.

وتّم هذا الزواج المبارك، بعد رجوع النبي (صلي الله عليه وآله) من سفره إلي الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً، وقبل بعثته نبياً بخمس عشرة سنة، وبعد أن أكمل خمساً وعشرين سنة

ص: 409

1- . انظر: تاريخ الطبري: ج 1 ص 522.

وأخذت هذه السيّدة مكانها الذي اختارته السماء لها لتكون بجانبه وهو يستعدّ لتحملّ مهامّ أعظم رسالة سماوية إلي الناس كافة، فكانت للرسول نعم الزوجة ونعم

السكن ونعم النصير، وكان لها أحسن حظّ طالما انتظرتّه وتمنّته، ولم ينحُ هذا الاقتران من حسد وبغض وغضب، فقد أحدث هزة بين الرجال الذين سبق لهم أن توافدوا علي عتبة بابها وهم يحملون معهم كلّ المغريات ليخطبوا يدها، إلا أنّهم عادوا من حيث أتوا خائبين بعد أن رفضتهم، ولم تعبأ بما حملوه معهم من مال، ولم يجد شرفهم وزعاماتهم أيّ أثر في نفسها، فلاذ بعضهم بالسكوت والبغض والحسد يأكلان قلبه، في حين لم يتمالك بعض آخر أحاسيسه ولسانه، فقال: ما هذا إلا سحر، مسكينة خديجة، فقد سحرها اليتيم فشغفت به.

كما غضب عليها نساء قريش ونهرنها وقلن لها: «خطبك أشرف قريش وأمرأؤهم فلم تتزوّجي أحداً منهم، وتزوّجتي محمّداً يتيماً أبي طالب، فقيراً لا مال له!؟»

فما كان من خديجة - بعدما سمعت بذلك كلّ - إلا أن صنعت طعاماً ودعت نساء قريش وكان بينهنّ نساء المبغضين، فلما اجتمعن وأكلن قالت لهنّ: معاشر النساء، بلغني أن بعولتكنّ عابوا عليّ فيما فعلته من أنّي تزوّجت محمّداً، وأنا أسألكم هل فيكم مثله؟ أو في بطن مكّة شكله من جماله وكماله وفضله وأخلاقه الرضيّة؟ وأنا قد أخذته لأجل ما قد رأيتُ منه وسمعت منه أشياء ما أحد رآها، فلا يتكلّم أحد فيما لا يعنيه. فكفّ كلّ منهنّ ومنهم عن الكلام»(2).

وقد تابع الزوجان حياتهما المباركة هذه، وجهادهما الدؤوب، وقدّر لخديجة أن تكون في قلب الأحداث الجسام المملوءة بالآلام والشدائد المضنية، ووهبت كلّ ما تملكه من ثروة وهو كثير ووضعت بين يدي رسول الله(صلي الله عليه وآله) ليضمّه إلي سيف علي .

ص: 410

1- . إتحاف الوري بأخبار أمّ القري: السنة 26.

2- . بحار الأنوار: ج 19 ص 71.

أنجبت له كل أولاده إلا إبراهيم، فهو من مارية القبطية؛ وهم: القاسم، وبه كان

يُكنّى، والطيب والطاهر - علي قول - وقد ماتوا صغاراً رضى عما قبل بعثته المباركة، ورقية وزينب - علي قول - وأم كلثوم وفاطمة الزهراء التي تزوجها الإمام علي .

ولم يتزوج رسول الله (صلي الله عليه وآله) غيرها طيلة حياتها المباركة معه، التي دامت قرابة خمس وعشرين سنة.

إسلامها

من بركات الله تعالى الخاصّة بهذه المرأة أن منّ عليها بأن اختارها لتكون أوّل نساء العالمين إسلاماً وأسبقيهنّ تصديقاً برسول الله ودعوته، وأخلص نسائه جهاداً، وأعظمهنّ وفاءً وطاعةً له، وأصبرهنّ تحملاً لما لاقاه رسول الله من ضروب الأذى والتضييق، وأكثرهنّ بذلاً وعطاءً في سبيل الله ورسوله، فعن عبد الله بن مسعود: «إنّ أوّل شيء علمت من أمر رسول الله (صلي الله عليه وآله) قدمت مكة مع عمومة لي أو ناسٍ من قومي نبتاع منها متاعاً، فكان في بغيتنا شراء عطر، فأرشدنا إلي العباس بن عبد المطلب، فانتبهينا إليه وهو جالس إلي زمزم، فجلسنا إليه، فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصفا أبيض... كأنه القمر ليلة البدر، يمشي علي يمينه غلام حسن الوجه... تفقوهم امرأة قد سترت محاسنها، حتّي قصد نحو الحجر، فاستلمه ثم استلمه الغلام واستلمته المرأة، ثم طاف بالبيت سبعاً والغلام والمرأة يطوفان معه، ثم استقبل الركن، فرفع يديه وكبّر، وقامت المرأة خلفهما، فرفعت يديها وكبّرت، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع رأسه من الركوع، فقنت ملياً، ثم سجد وسجد الغلام معه والمرأة، يتبعونه يصنعون مثلما يصنع، فرأينا شيئاً أنكرناه، لم نكن نعرفه بمكة، فأقبلنا علي العباس فقلنا: يا أبا الفضل، إنّ هذا الدين حدث فيكم أو أمر لم نكن نعرفه فيكم؟ قال: أجل والله، ما تعرفون هذا؟ قال: قلنا: لا والله ما نعرفه. قال: هذا ابن أخي محمّد بن عبد الله والغلام علي بن أبي طالب والمرأة خديجة بنت خويلد امرأته، أما والله ما علي وجه الأرض أحد نعلمه يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة».

ص: 411

لقد آمنت برسول الله ولم يسبقها إلي ذلك إلا الإمام علي ، كيف لا يكون كذلك وقد قرأت - بما ألهمها الله تعالى وبما منحها من قدرة وحكمة وبصيرة ونظرة ثاقبة لمستقبل الصادق الأمين - مستقبله وأنه ذو شأن كبير ومقام كريم ومنزلة محمودة؟

لقد واكبت مسيرته المباركة وهو في غار حراء بخدمتها الصادقة وكلماتها الطيبة التي تدل علي مدي إخلاصها ونباهتها وصفائها: «وهيات خديجة لزوجها ما يناسبه من حياة، فلما لجأ للتحنث في غار حراء كانت تعد له ما يحتاجه من طعام وشراب خلال الفترة التي اعتكف فيها بالغار، فلما جاءه الوحي كانت أول من صدقه وعانت معه صراع قريش ضده، وكانت البلسم الشافي لجراحه من هؤلاء المعتدين، ودخلت معه الشعب عندما قرّر سادة قريش أن يقاطعوا المسلمين...»(1).

كانت تسمعه كلمات رقيقة هادئة كلما دخل بيتها عائداً من غار حراء، كلمات ملؤها الحنان والحب، تدعوه أن يطمئن وتدعوه أحياناً أن يهدأ وينام، فكان يقول لها: مضي عهد النوم يا خديجة، لقد كانت كلماتها تلاحقه وهو في بيته، وهو خارج منه، وهو في الغار، وهو يدعو عشيرته للإيمان، وهو في دار الأرقم يدعو الناس سرّاً، وهو في كل مكان في مكة يقارع قريشاً وشركها جهراً، وهو يري أعداءه والمتربصين به، والمبغضين له، فكانت تخفف عنه كل معاناته وكل ما يلقاه من أذى وتكذيب وعنت من قومه.

وكان يصرّح ويفضي لها بكل شيء. يقول ابن هشام في سيرته: «وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته علي أمره... فخفف الله بذلك عن نبيه، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، وتصدقه وتهون عليه أمر الله، رحمها الله تعالى»(2).

ومن كلماتها له أيضاً: «أبشر، فوالله لا يُخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين علي نوائب الدهر».

ص: 412

1- . سير أعلام النبلاء: ج 1 ص 81.

2- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 240.

ما انفكت قريش تصعد عداءها لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ودعوته الجديدة، ولم يتوقف عملها في تجذير ذلك العداء في نفوس أبنائها قولاً وعملاً، وكلما ازداد رسول الله (صلي الله عليه وآله) وصحبه التزاماً بموقفهم وثباتاً علي مبادئهم ازداد عداء قريش لهم وأذاها، وقد رأت أن أهله وعشيرته قد وفروا له الرعاية والحماية، فعزمت علي شن حملتها علي هذه الأسرة، وارتأت أن تتخذ وسيلة غير الحرب في أول أمرها، فلعلها تصل إلي أهدافها دون قتال وما يجره هذا القتال من ويلات وانقسامات بين قبائلها، فاجتمع زعمائها وكتبوا الصحيفة التي قرروا فيها: مقاطعة بني هاشم علي المستويات الاجتماعية والاقتصادية، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم، ولا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يكلمونهم، ولا يزورون مرضاهم، ولا يشيعون موتاهم، وأكروههم أن يلزموا الشعب؛ وهو طريق بين جبلين.

أما نتائج هذه المقاطعة - التي استمرت حوالي ثلاث سنوات - فقد كانت قاسية جداً علي بني هاشم، ومسهم بسببها الضرر، بل الجوع والحرمان... ولم تنقض إلا بعد أن أشفق بعض القرشيين علي بني هاشم؛ بسبب ما نالهم من أذى وعذاب، فخرقوا هذه الوثيقة وعادوا إلي الاتصال بهم (1).

وهناك رواية: أن الأرضة أتت علي كل شيء في الصحيفة، ولم تدع إلا اسم الله جلّ وعلا، وقد أوصي الله لمحمد بذلك، فنقل ذلك إلي عمه أبي طالب، فتحدثي أبو طالب جماعة المشركين، وأحضروا الصحيفة فظهر صدق محمد.

هذه خلاصة المقاطعة التي كانت خديجة ضحية من ضحاياها، فقد أصابها الضرر أيما إصابة، وعانت معاناة عظيمة من آثار هذه المحاصرة الظالمة، ولكنها لاذت بالصبر ووقفت

إلي جانب رسول الله (صلي الله عليه وآله) موقفاً يندر أن تقف مثله امرأة، وكان لشخصيتها ومكاتها وهيبتها في النفوس الأثر الكبير إلي درجة أنها صارت من أسباب قيام خلاف ونزاع أدّي إلي انهيار موقف قريش وترك العمل بالصحيفة وفشل المقاطعة.

ص: 413

ففي السيرة النبوية(1): إنَّ أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً إلي خديجة بنت خويلد زوجة الرسول وعمّه حكيم، فتعلّق به أبو جهل وقال: أتذهب بالطعام إلي بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتّى أفضحك بمكّة، فجاءه أبو البخترى وقال له: ما لك وله؟ إنّه طعام كان لعمته رغبت إليه فيه، فكيف تمنعه؟ فأبى أبو جهل وقام نزاع كان من أسباب إغفال الصحيفة ونهاية المقاطعة.

وكما كان لهشام بن عمرو بن الحارث العاملي الذي كان من أقرباء خديجة دور آخر في بذر الخلاف بين زعماء المقاطعة، فقد كان أكثر الناس إقداماً علي مساعدة المحصورين المقاطعين، فكان يدخل أحمال الطعام إلي بني هاشم في الشّعب... وأرادت قريش معاقبته، فانبري أبو سفيان وقال: دعوه، رجل وصل رحمه، أما والله إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن(2).

مكانتها في قلب الرسول

لم تتحمّل أمّ المؤمنين عائشة وهي تري رسول الله(صلي الله عليه وآله) يذكر خديجة، فقالت: ما زلت تذكر بحسرة وألم عجوزاً من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت من عدّة سنين، وقد أبدلك الله خيراً منها.

فما كان من رسول الله بعد أن تغيّر وجهه الكريم إلّا وزجرها غاضباً، وقال: «والله ما أبدلني الله خيراً منها»، ولم يكتف بهذا، بل راح يذكر مناقبها التي ما فتئ يعيشتها في

حياته المباركة: «أمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء... فقالت عائشة في نفسها: والله لا أذكرها بعدها أبداً»(3).

وقبل ذلك لم تتوقّف غيرة أمّ المؤمنين عائشة من أمّ المؤمنين خديجة، التي احتلّت

ص: 414

1- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 2 ص 5.

2- . تاريخ قريش للدكتور حسن مؤنس: ص 313.

3- . الاستيعاب: ج 4 ص 1824.

تلك المكانة العظيمة من قلب رسول الله (صلي الله عليه وآله) وظهر ذلك كله في مواقف عملية للرسول الكريم، حتى بعد وفاتها سلام الله عليها.

رأته عائشة يوماً وقد ذبح شاةً يقول: أرسلوا إلي أصدقاء خديجة منها، وهنا لم تتوقف عائشة عن أن تسمعه شيئاً، فقال: «إني لأحب حبيبها» (1).

وظلت الغيرة لا تنفك عن قلبها من سيدتنا خديجة، لا لشيء - فالأمر كله بعد موتها - إلا لأنها سبقتها إلي نفس رسول الله (صلي الله عليه وآله) وإلى قلبه فاحتلته بما امتلكته من خلق عال وشرف رفيع وإيمان صادق وجهاد خالص وذكر طيب، وبما قدمته من حياتها التي استرخصتها وثورتها وأموالها، كل ذلك وضعته بين يديه المباركتين؛ لنيل مرضاة الله ولتعيينه وهو يحمل أعظم رسالة وأخطر مسؤولية تبليغية تغييرية عرضتها السماء وعرفتها الإنسانية.

وحينما نصره الله تعالي وفتحت أبواب مكة له - وكان وقتها قد مرّ علي وفاتها أكثر من عشر سنوات، وكانت كل تلك السنين مليئة بالأحداث والشؤون المريرة، ولكنّها مع كل ذلك لم تشغله عن ذكره لخديجة، أقام في قبة ضربت له هناك إلي جوار قبرها، حيث روحها التي تخفق حوله فتريحه وتونسه وترافقه وهو يشرف علي فتح مكة، ويطوف بالكعبة ويحطم رموز الكفر والشرك، وهو بين لحظة وأخري يرمق دارها حيث نبع الحبّ وحب السكينة والمودة والحنان والتضحية.

وفيما قالته أم المؤمنين عائشة: «كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) إذا ذكر خديجة لم يكذب يسأم من ثناء عليها واستغفار، فذكرها ذات يوم فاحتملني الغيرة، فقلت: لقد عوّضك الله من كبيرة السنّ. قالت: فرأيت رسول الله (صلي الله عليه وآله) غضب غضباً أسقطت في جلدي، وقلت في نفسي: اللهم إنك إن أذهبت غضب رسول الله عني، لم أعد أذكرها بسوء ما بقيت. فلما رأى النبي ما لقيت قال: كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وآوتني إذ

ص: 415

رفضني الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، ورزقت مني الولد إذ حرمتموه مني.

قالت: فعدا وراح عليّ بها شهراً».

أما ما ورد فيها عن رسول الله (صلي الله عليه وآله):

- فعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهما: «إن رسول الله (صلي الله عليه وآله) قال: أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

قال ابن هشام: «القصب هاهنا: اللؤلؤ المجوّف» (1).

- وعن عائشة قالت: «ما غرتُ من أحد ما غرتُ علي خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني رسول الله (صلي الله عليه وآله) بثلاث سنين، ولقد أمر أن يبشرها ببيت من قصب في الجثة» (2).

- وقال ابن هشام: «وحدّثني من أتق به، أنّ جبرئيل أتى رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فقال: اقري خديجة السلام من ربّها، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): يا خديجة، هذا جبرئيل يُقرئك السلام من ربك، فقالت خديجة: الله السلام، ومنه السلام، وعلي جبرئيل السلام».

عام الحزن

شاءت السماء أن تمتحن هذا القلب الكبير، وقد امتحنته مرّات ومرّات، ولكن هذه المرّة في زوجته التي أبت إلا أن تعيش كبيرة وتموت كبيرة، والتي كانت له وزير صدق علي الإسلام (3)، وكانت شريكته في حياته كلّها، في دعوته، وفي تبليغه لها، وفي جهاده وتضحياته.

لقد رحلت عنه في السنة العاشرة من البعثة النبوية، ودُفنت في مقبرة الحجون بمكّة بعد أن رحل قبلها - بشهور علي قول، وبأيام علي قول آخر - عمّه أبو طالب الذي كان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعاً وناصراً علي قومه (4).

ص: 416

1- . الروض الأنف، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 241.

2- . الروض الأنف، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 241.

3- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 2 ص 416.

4- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 2 ص 416.

لقد رحلت هذه المرأة العظيمة لتنتهي برحيلها ورحيل أبي طالب العمّ المدافع والمحامي القوي أُولي مراحل رسالة السماء التي شكّلت الفترة المكيّة الأُولي بكلّ آلامها وأحداثها، كما كانت الفترة التأسيسية لهذه الرسالة المباركة، ولكن لوجوديهما المباركين الأثر العظيم في تشكيل تلك المرحلة التي دامت قرابة عشر سنوات، وفي بقائها واستمرارها وثباتها.

لقد رحلت هذه السيّدة المباركة بعد أن وصل نداء الإسلام الحبشة، وتجاوز صدهاء بقاع الحجاز، وبعد أن تحمّلتها قلوب صادقة ونفوس مضحية وأيادٍ قوية.

رحلت هذه السيّدة الجليلة وغابت عن دنياه، ولكنها لم ترحل عن قلبه.

ص: 417

1. إتحاف الوري بأخبار أمّ القري، عمر بن فهد (ت885هـ)، تحقيق: فهيم محمّد شلتوت، القاهرة: مكتبة الخانجي.
2. الاستغاثة، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت352هـ)، طهران: مؤسّسة الأعلمي، الطبعة الأولى، 1373ش.
3. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ.
4. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت279هـ)، إعداد: محمّد باقر المحمودي، بيروت: دار المعارف، الطبعة الثالثة.
5. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار:، محمّد باقر بن محمّد تقي المجلسي (ت1110هـ)، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1412هـ.
6. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م.
7. جوامع السيرة النبوية، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت456هـ)، تحقيق: نايف العبّاس، دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ.
8. الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبدالرحمن بن عبد الله السهيلي (ت581هـ)، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ.
1. سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: شعيب

الأرنؤوط، بيروت: مؤسّسة الرسالة، الطبعة العاشرة، 1414هـ .

2. السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ .

3. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفي، الطبعة الأولى، 1355هـ .

4. الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضي العاملي (معاصر)، بيروت: دار الهادي، الطبعة الرابعة، 1415هـ .

5. الطبقات الكبرى (الطبعة الخامسة من الصحابة)، محمّد بن سعد الزهري (كاتب الواقدي) (ت230هـ)، تحقيق: محمّد بن صامل السلمي، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ .

6. مختصر تاريخ دمشق، محمّد بن مكرم المصري الأنصاري (ابن منظور) (ت711هـ)، دمشق: دار الفكر الطبعة الأولى، 1404 و1408هـ .

7. المستدرک علي الصحيحين، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411هـ .

8. مكارم الأخلاق، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق: علاء آل جعفر، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1414هـ .

9. مناقب آل أبي طالب (المناقب لابن شهر آشوب)، أبو جعفر محمّد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ابن شهر آشوب) (ت588هـ) تحقيق: هاشم الرسولي المحلّاتي، قم: منشورات علامّة.

1. نسب قريش، مصعب بن عبد الله الزبيري (ت236هـ)، تحقيق: بروفنسل، القاهرة: دار المعارف.

* السيدة خديجة (عليها السلام) (1)

حمزة النشرتي

الخفيف فرغلي

عبد الحميد مصطفى

ملخص البحث:

بحث تاريخي يسرد بين سطورهِ سيرة خديجة زوج النبي (صلي الله عليه وآله)، ونسبها وعملها بالتجارة، وسبب العلاقة التي نشأت بينها وبين النبي من خلال عمل التجارة، وكيفية خطبتها وزواجها. وكانت خديجة أول من آمن بالنبي (صلي الله عليه وآله) حين جاءته الرسالة، ولا عجب، فقد آمنت به قبلها حين أحست بصادق شعورها وإلهامها الصادق أنه هو نبي آخر الزمان. ووقفت خلف النبي تؤازره وتشد من عضده. ووقفت خديجة خلف النبي (صلي الله عليه وآله) تؤيده في سنوات المقاطعة بكل ما أوتيت من قوة وجهد، وقد تركت دارها الفسيحة لتقيم مع زوجها في ركن من أركان هذا الشعب، تقاسي مع من فيه ضروب الأذى وألوان العناء وصنوف الاضطهاد وضراوة الجوع، في الوقت الذي كانت فيه قد كبرت وضعفت؛ بسبب فقد أولادها الذكور من حبيبها المصطفى. مات أبو طالب، ومن بعده بقليل ودعت خديجة الحياة، ولفظت أنفاسها الأخيرة بين يدي زوجها الذي أحبته ملء فؤادها، وآمنت به وصدقته وأزرتة، فواراها النبي في قبرها بالحجون قبل الهجرة بثلاث سنين. وحزن النبي

ص: 421

لفراقها حزناً شديداً، حتّى سمّي هذا العام بعام الحزن. لقد فقد النبي (صلي الله عليه وآله) بفراقهما ساعدين قويين كانا ينصرانه. لقد وردت الأخبار الشريفة تشير إلي فضل هذه الزوجة الكريمة الصادقة، حيث روي أنس أن النبي قال: «خير نساء العالمين مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد». لقد استحقّت خديجة ذلك عن جدارة، فقد كانت أول من صلّي مع رسول الله سرّاً وجهراً. فقد ذكر ابن سعد في طبقاته عن الزهري، قال: «مكث رسول الله وخديجة يصلّيان سرّاً ما شاء الله».

نسبها

هي أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزّي بن قصي القرشية الأسدية.

وأُمّها: فاطمة بنت زائدة ابن الأصمّ ابن الهرم ابن رواحة. يجتمع أبوها وأُمّها في لؤي بن غالب، كما يجتمع نسبها مع النبي (صلي الله عليه وآله) وأمه (آله) في قصي. وكانت تُدعى في الجاهلية: الطاهرة.

زواجها من النبي (صلي الله عليه وآله)

روي سعيد بن جبير عن ابن عباس 2 قال: «إن نساء أهل مكّة احتفلن في عيدٍ كان لهنّ في رجب، فلم يتركن شيئاً من إكبار هذا العيد إلاّ أتيتهنّ، فبينما هنّ عكوف عند آلهتهنّ، سمعن رجلاً قريباً منهنّ ينادي بأعلي صوته: يا نساء تيماء، إنّه سيكون في بلدكن نبيّ يُقال له أحمد، يُبعث برسالة الله، فأيّما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فلتفعل. فحصبته النساء وقبحته وأغلظن له القول، وأغضت خديجة علي قوله، ولم تعرض له فيما عرض فيه النساء».

ويبدو أنّ هذا الكلام قد وقع في قلبها موقِعاً، وأدركت منه جلال النبوة المرتقبة وسعادة من يحالفها القدر لتكون زوجة هذا النبي المنتظر.

وظلّ هذا الكلام مرقوماً في قلبها لا يبارحه... حتّى جاء الوقت المعلوم لتكون هي صاحبة الحظّ الأوفر بين نساء العالمين فتزوّج من خاتم الأنبياء والمرسلين.

أمّا كيف تمّ هذا الزواج فله أسبابه التي يحكيها لنا الرواة فيما يأتي:

ص: 422

كانت خديجة ذات شرف وسيادة في قومها، وكان لها مال وفير تتاجر فيه، وكانت تستأجر الرجال الأكفأ ذوي الخبرة ليتاجروا لها في مالها، تضاربهم إياه بشيء تجعله لهم.

والمضاربة نوع من أنواع المعاملة التجارية، يعطي فيه صاحب المال غيره قسطاً من المال يتجر له فيه علي أن يكون له من الربح سهم معلوم... .

وبلغها عن النبي (صلي الله عليه وآله) صفاته الكريمة التي اشتهر بها قبل البعثة؛ من صدق وأمانة وطالع ميمون، فأحبت أن تستأجره وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار. وكان النبي (صلي الله عليه وآله) في شبابه يعمل بالتجارة، فأرسلت إليه ليقوم بهذه المهمة التي أرادت، مع غلام لها اسمه ميسرة، وعرضت عليه العمل في تجارتها، فقبل.

وخرج النبي (صلي الله عليه وآله) ومعه ميسرة. ورأى ميسرة في مصاحبه ما لم يره من أحدٍ غيره أبداً، لقد رأى دماثة الخلق، وحسن الأدب، وكرم العشرة، وصدق الحديث، وجمال الصحبة، ولين الجانب، وجلال التواضع، فامتلاً قلب ميسرة إعجاباً بالنبي (صلي الله عليه وآله) وتعلقاً به، وأضمر في نفسه أن يخبر سيّده عند رجوعه بكل ما رآه من عظمة هذا الرجل وكماله.

ومما زاد جلاله في نظره ما رآه من راهب شاميّ حين نزل النبي (صلي الله عليه وآله) ومعه ميسرة تحت شجرة قريبة من صومعة هذا الراهب، فاطلع الراهب إلي ميسرة وقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟

قال ميسره: هذا رجل من قريش من أهل الحرم.

فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلا نبيّ... (1).

لقد ملأت هذه الكلمة قلب ميسرة روعة، وأيقن في نفسه أنّ هذه الأخلاق التي

لمسها في رفيق رحلته لا يمكن أن تكون لإنسان عادي، لقد طالما صاحب رفاقاً قبل محمّد في مثل هذه الرحلة، فلم يرَ ما رآه من محمّد، لقد تعود أن يري الأثرة والخذاع، وحبّ السيطرة والتعالي والغشّ، وغير ذلك ممّا تنطوي عليه غالباً أخلاق كثير من التجار، فلا بدّ أن يكون كلام هذا الراهب صادقاً.

ص: 423

1- انظر: أسد الغابة: ج 7 ص 80، والسيرة الحلبية: ج 1 ص 217.

وباع النبي (صلي الله عليه وآله) سلعته التي خرج بها، واشتري ما أراد، وقفل عائداً.

وذكر بعض الرواة أنّ ميسرة رأى ظلاً يظلل النبي (صلي الله عليه وآله) من الشمس وقت الهاجرة... وعند مرّ الظهران قريباً من مكة، قال ميسرة للنبي (صلي الله عليه وآله): هل لك أن تسبقني إلي خديجة فتخبرها بالذي جري في سفرتك هذه وما صنعه الله لها علي وجهك الميمون؟

فركب النبي (صلي الله عليه وآله) وتقدم حتّى دخل مكة في ساعة الظهر، و خديجة في بيت مرتفع لها ومعها نساء من قومها، فرأت النبي (صلي الله عليه وآله) قادماً علي بعيره وفوقه ظلّ يظلله، فعجبت من ذلك كما عجبت النساء معها.

ودخل النبي (صلي الله عليه وآله) فأخبرها بما ربح، وهو ضعف ما كانت تريح، فسرت بذلك، وسألته عن ميسرة، فقال: خلفته بالبادية.

وجاء ميسرة فصدّق ما قاله النبي (صلي الله عليه وآله)، وأخبرها بما رآه منه في حال سفره، وبما أخبره الراهب حين نزلاً تحت الشجرة. فاستيقنت أنّه هو النبي الذي أخبرت به الكتب السابقة، فعزمت علي أن تفوز به زوجاً.

وأسرت خديجة إلي نفيسة بنت منية برغبتها... قالت نفيسة: كانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة، وهي يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهنّ مالاً وأحسنهنّ جمالاً، وكانت تُدعي في الجاهلية بالطاهرة، وكان يقال لها: سيّدة قريش، وكلّ رجال قومها كان حريصاً علي أن يتزوجها لو قدر علي ذلك، وقد طلبوها وذكروا

لها الأموال فلم تقبل.

وتضيف صديقتها قائلة - كما ذكر الرواة - : فأرسلتني خديجة إلي محمّد (صلي الله عليه وآله) بعد أن رجع عيرها من الشام، فقلت: يا محمّد، ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به. قلت: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلي المال والجمال والشرف والكفاية، ألا تُجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة. قال: وكيف لي بذلك؟ قلت: بلي، وأنا أفعل.

قالت: فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن انت... فأرسلت إلي عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها... .

وفي رواية أن خديجة(عليها السلام) هي التي عرضت بنفسها علي النبي(صلي الله عليه وآله) أن تتزوجه، فقد بعثت إليه - فيما يرويه ابن الأثير في أسد الغابة - فقالت له: إنِّي اخترتك لقرابتك منِّي وشرفك في

قومك وأمانتك عندهم وحسن خُلقك وصدق حديثك.

فلَمَّا قالت لرسول الله(صلي الله عليه وآله) ما قالت، ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة بن عبدالمطلب، حتَّى دخل علي خويلد بن أسد، فخطبها إليه، فتزوّجها رسول الله(صلي الله عليه وآله)(1).

ولكنّ المشهور أنّ الذي خطبها للنبي(صلي الله عليه وآله) هو عمّه أبو طالب، وأنّه خطبها إلي عمّها عمرو بن أسد. وخطب أبوطالب خطبة قال فيها: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ونسل معد وعنصر مضر، وجعلنا حصنة بيته وسؤاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس؛ ثم إن ابن أخي محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان

في المال قُلٌّ، فإنّ المال ظلّ زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله اثنتي عشرة أوقية ونشاً(2).

وخطب ورقة بن نوفل وهو ابن عمّ خديجة فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا علي ما عدّدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كلّه، لا ينكر العرب فضلكم، ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم، ورغبتنا في الاتّصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ معاشر قريش أنّي قد تزوّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله.

وذكر المهر. قال أبوطالب: قد أحببت أن يشركك عمّها. فقال عمّها: اشهدوا عليّ معاشر قريش أنّي قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد.

وأولم فنحر جزوراً - وقيل: جزورين - وأطعم الناس. وأمرت خديجة جواريتها أن

ص: 425

1- . انظر: أسد الغابة: ج7 ص80.

2- . الأوقية قيمتها أربعون درهماً، والنش قيمته عشرون درهماً. قالوا: وقيمة الصداق: خمسمائة درهم.

يرقصن ويضربن بالدفوف. وفرح أبو طالب فرحاً شديداً، وقال: الحمد لله الذي أكرمنا، ووفّقنا إلى الخير.

وكانت هذه أول وليمة أولمها النبي (صلي الله عليه وآله).

وكان خبر هذا الزواج قد شاع قبل تمامه، فوصل إلي بادية بني سعد، فأسرعت حليلة بنت أبي ذؤيب، وهي أم النبي (صلي الله عليه وآله) من الرضاعة؛ لتشهد زفاف ابنها، وكان الله قد أراد أن يعوض النبي (صلي الله عليه وآله) شيئاً من فرح الأمّ بابنها ليلة زفافه، فأرسل أمّه من الرضاعة لتتوب عن آمنة بنت وهب التي فقدها ابنها وهو طفل.

وفرحت خديجة بحليمة، وأهدتها أربعين شاةً عادت بها إلي باديتها، وكانت هذه لمسة رقيقة من خديجة تشير إلي ما سوف يجده النبي (صلي الله عليه وآله) في

جوارها من سكن ومودة وحنان. ولم تنقطع زيارة حليلة لابنها وزوجه بعد ذلك.

ووجد النبي (صلي الله عليه وآله) في ظلّ هذه الزوجة البرّة كلّ ما ينشده الرجل من أمن واستقرار، وتفرّغ لما يستقبله في حياته من عظام الأمور وجلائل الأعمال.

وأنجبت خديجة من النبي (صلي الله عليه وآله) أولاده كلّهم ما عدا إبراهيم الذي ولدته مارية القبطية.

وأولاده منها هم: زينب، وأمّ كلثوم، ورقية، وفاطمة، والقاسم، وبه كان يُكْتَبَى، والطاهر والطيب... وقد توفي هؤلاء الأولاد الذكور قبل البعثة، أمّا البنات فقد أدركن الإسلام وأسلمن وهاجرن.

ويقال: إنّها ولدت ذكراً فقط، هما القاسم وعبدالله، وأمّا الطاهر والطيب فهما لقبان لعبدالله.

وترتيب أولاده كما جاء في أسد الغابة: القاسم وهو أكبر ولده، ثمّ زينب.

وقال الكلبي: زينب، والقاسم - ثمّ أمّ كلثوم، ثمّ فاطمة، ثمّ رقية، ثمّ عبدالله، وكان يقال له الطيب والطاهر، وولد عبدالله في الإسلام، ومات بمكّة، وكان قد سبقه أخوه القاسم.

إسلام خديجة

لقد وقفت خديجة خلف النبي (صلي الله عليه وآله) تسانده في حياته، وكانت تتوسّم فيه - كما قلنا - أنّه

سوف يكون نبي هذه الأمة المنتظر، فلماذا لا تعينه علي الاستعداد لهذا اليوم؟ فكانت تتركه لعبادة ربه حيث كان يذهب إلي غار حراء بعيداً عنها يتسلق قمته، ويخلو إلي الله في تفكير عميق بعيداً عنها، ليالٍ قد تطول.

وكانت تحمل له زاده أحياناً متجشمة في سبيل ذلك مشقة صعود الجبل والهبوط منه. وربما أرسلت خلفه من يحرسه ويرد عنه الغوائل من وحش أو غيره.

وكانت تراود النبي (صلي الله عليه وآله) إرهصات النبوة في صورة أحلام صادقة فلا يري رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح أو في صورة إلهام صائب، أو حديث يوجه، أو تحية تُرف إليه، أو بشري تخبره أنه رسول رب العالمين.

حتي جاء اليوم المنتظر، حيث كان في غار حراء، وهناك جاءه جبرئيل يقول له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، ثم يقول له: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} (1)، ويرتاع النبي (صلي الله عليه وآله) لما رأى وسمع... ويرجع إلي خديجة مسرعاً يرجف فؤاده وترتعد أوصاله، قائلاً لها: زمّلوني و زمّلوني، وتزملّه خديجة وتضمّه إلي صدرها حتي يذهب عنه الروح، ثم تستمع إلي ما يخبرها به، قائلاً لها: لقد خشيت علي نفسي... ولكنّ خديجة تقول له: كلاً، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل (2)، وتكسب المعدوم (3)، وتقري الضيف، وتعين علي نوائب الحق (4).

وتطمئنه وتبشّره قائلة: أبشر يا بن عمّ واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة المنتظر.

وتركته خديجة يستريح في فراشه، حتي إذا رأت النوم قد تسلل إلي جفونه، انطلقت إلي ابن عمّها ورقة بن نوفل لتخبره بما حدث لزوجها، وينتفض ورقة في حماسةً ويقول: قدّوس قدّوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاء الناموس

ص: 427

1- . العلق: 1-3.

2- . الكلّ: الثقل.

3- . المعدوم: أي تعطي الناس الشيء المعدوم عندهم.

4- . أسد الغابة: ج 7 ص 83.

الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت. (1)

وعادت خديجة مسرورة بما سمعت، لقد ظفرت بما كانت تتوق إليه، وهي أن

تكون زوجة خير البرية.

وروت السيدة عائشة أن خديجة انطلقت بالنبي (صلي الله عليه وآله) حتى بيت ورقة، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك، فأخبره النبي (صلي الله عليه وآله) بخبر ما رأى وسمع، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل علي موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): أو مُخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. (2)

وطابت نفسه بما سمع، وعاد إلي بيته مطمئناً مع زوجته أم المؤمنين الأولى، لبيداً جهاده من أجل رسالته، وليلقى في سبيلها أشق ما وعي التاريخ من أذى واضطهاد.

وكانت خديجة أول من آمن بالنبي (صلي الله عليه وآله) حين جاءته الرسالة، ولا عجب، فقد آمنت به قبلها حين أحسّت بصادق شعورها وإلهامها الصادق أنه هو نبي آخر الزمان. ووقفت خلف النبي (صلي الله عليه وآله) تؤازره وتشدّد من عضده، وكان لا يسمع من قومه شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه، إلا فرج الله بها عنه ما يكرهه ويحزنه، كانت تثبته وتخفف عنه وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس.

ولقد قالت له يوماً حين بدأه الوحي تريد أن تثبته وتثبت من أمر الوحي: يا ابن عمّ، هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم.

فبينما رسول الله (صلي الله عليه وآله) عندها إذ جاءه جبرئيل، فأخبرها أنه جاء، فقالت: أترأه الآن؟ قال: نعم. فتحسّرت وألقت خمارها، ثم قالت: هل ترأه الآن؟ قال: لا، قالت: ما هذا شيطان، إن هذا الملك يا ابن عمّ، أثبت وأبشر (3) وزادها هذه بصيرة في أمرها.

ص: 428

1- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 206.

2- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 206.

3- . أسد الغابة: ج 7 ص 83، سيرة ابن هشام: ج 1 ص 238.

وظلّت خديجة خلف النبي (صلي الله عليه وآله) وقد وضعت كلّ ما تملك من جهد ومال في خدمة النبي (صلي الله عليه وآله) وتبليغ الرسالة، فكانت بالنسبة له وزير صدق، ورفيق جهاد، وواحة أمان وملاذ أمن.

مع النبي (صلي الله عليه وآله) في شعب أبي طالب

واجتمعت كلمة الكفر علي محاصرة بني هاشم الذين يعضدون النبي (صلي الله عليه وآله) في شعب أبي طالب، وأعلنت قريش عليهم حرباً ضارية قوامها التجويع والمقاطعة، وقد سجّلت هذا الإعلان في صحيفة قاطعة ظالمة أودعت جوف الكعبة.

ووقفت خديجة خلف النبي (صلي الله عليه وآله) تؤيّده في سنوات المقاطعة بكلّ ما أُوتيت من قوّة وجهد، وقد تركت دارها الفسيحة الأنيقة لتقيم مع زوجها في ركن من أركان هذا الشّعب تقاسي مع من فيه ضروب الأذى وألوان العناء وصنوف الاضطهاد وضراوة الجوع، في الوقت الذي كانت فيه قد كبرت وضعفت بسبب فقد أولادها الذكور من حبيبها المصطفى .

ثلاث سنوات قضتها مع بني هاشم وبني عبدالمطلب في هذا الشّعب القاسي، لا تبوح بشكوي، ولا تصرّح بألم، حتّي قيّض الله من قيّض لنبذ هذه المقاطعة وفكّ هذا الحصار العنيف. وانجابت المحنة، وخرج النبي (صلي الله عليه وآله) من الشّعب، وعاد إلي بيته مع زوجته البرّة المؤمنة الصادقة.

ولم يمض وقت طويل بعد انتهاء هذه الأزمة حتّي مات أبو طالب، ومن بعده بقليل ودّعت خديجة الحياة، ولفظت أنفاسها الأخيرة بين يدي زوجها الذي أحبّته ملء فؤادها وآمنت به وصدّفته وآزرتة، فواراها النبي (صلي الله عليه وآله) في قبرها بالحجون قبل الهجرة بثلاث سنين. وحزن النبي (صلي الله عليه وآله) لفراقها حزناً شديداً.

بل سمّي هذا العام الذي ذهب فيه أبو طالب ومن بعده خديجة بقليل: عام الحزن.

لقد فقد النبي (صلي الله عليه وآله) بفراقهما ساعدين قويين كانا يدبّان عنه ما ينوشه من سهام قريش وأذاها. ويكفيان عنه ذناب الوثنية والشرك.

لقد تلقّت النبي (صلي الله عليه وآله) حوله، فإذا الدار بعد خديجة موحشة، وإذا مكة تنبو به بعد رحيلها، فليس له علي أرضها مكان.

قال ابن إسحاق: «فتتبع علي رسول الله (صلي الله عليه وآله) الشدائد بموت خديجة، وكانت له وزير صدق علي الإسلام.

قال عبد الله بن ثعلبة: لما توفي أبو طالب وخديجة بنت خويلد - وكان بينهما شهر وخمسة أيام - اجتمعت علي رسول الله (صلي الله عليه وآله) وآله شدتان، فلزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به» (1).

الله يرعاه

وظنت قريش أن الدعوة قد خُذلت، ولم يصبح في طوق محمد أن يمضي بها إلي الأمام، ولكن ظنّها كان واهماً، وأملها كان خائباً، فعين الله ساهرة، وأشدّ الساعات حلقة أقربها إلي طلوع الفجر، فلئن كان أبو طالب مات فالله حي لا يموت، ولئن كانت خديجة قد مضت فقد (عليها السلام) وأرضهاها، وذهبت إلي بيت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب، ولقد تركت بعدها السابقين الأولين من المسلمين يحيطون بالرسول ويبدلون أرواحهم فداءً له.

وأذن الله لدعوته أن تمضي في طريقها، فقيض لها من عنده من يؤمن بها ويتفاني في سبيلها، لقد تلقّف الدعوة رجال من الأنصار بعيداً عن مكة، أقبلوا في الموسم يحجّون، فبايعوا النبي (صلي الله عليه وآله) علي الإيمان والنصر، وما زالوا يتوافدون

في الموسم حتّى هاجر النبي (صلي الله عليه وآله) إلي المدينة، وقد سبقه أصحابه إليها، فوجدوا هناك النصر والتأييد والحبّ والإيثار والبطولة والاستشهاد.

فضل خديجة

لقد وردت الأخبار الشريفة تشير إلي فضل هذه الزوجة الكريمة الصادقة. روي أن النبي (صلي الله عليه وآله) قال: «خير نساء العالمين مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة

ص: 430

1- . نساء النبي، لبنت الشاطي: ص 51.

وروي ابن عباس 2، قال: «خَطَّ رسول الله(صلي الله عليه وآله) في الأرض أربعة خطوط، ثم قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله(صلي الله عليه وآله): أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»(2).

لقد استحققت خديجة ذلك عن جدارة، فقد كانت أول من صلَّى مع رسول الله(صلي الله عليه وآله) سرّاً وجهراً. ذكر ابن سعد في طبقاته عن الزهري، قال: «مكث رسول الله(صلي الله عليه وآله) وخديجة يصلَّيان سرّاً ما شاء الله».

وذكر ما أخبر به عفيف الكندي قال: «جنت في الجاهلية إلي مكة وأنا أبتاع لأهلي من ثيابها وعطرها، فنزلت علي العباس بن عبدالمطلب. قال: فأنا عنده وأنا أنظر إلي الكعبة وقد حلقت الشمس فارتفعت، إذ أقبل شاب حَتِّي دنا من الكعبة فرفع رأسه إلي السماء فنظر، ثم استقبل الكعبة، ثم جاء غلام حَتِّي قام عن يمينه، ثم لم يلبث إلّا يسيراً حَتِّي جاءت امرأة فقامت خلفهما، ثم ركع الشاب فركع الغلام وركعت المرأة، ثم

رفع الشاب رأسه ورفع الغلام رأسه ورفعت المرأة رأسها، ثم خرّ الشاب ساجداً وخرّ الغلام ساجداً وخرّت المرأة ساجدة.

قال: فقلت: يا عباس، إني أرى أمراً عظيماً، فقال العباس: أمر عظيم، هل تدري من هذا الشاب؟ قلت: لا، ما أدري، قال: هذا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ابن أخي... هل تدري من هذا الغلام؟ قلت: لا، ما أدري، قال: علي بن أبي طالب ابن أخي. هل تدري من هذه المرأة؟ قلت: لا ما أدري. قال: هذه خديجة بنت خويلد، زوجة ابن أخي هذا.

إنّ ابن أخي هذا الذي تري قد حدّثنا أنّ ربّه ربّ السموات والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، ولا والله ما علمت علي ظهر الأرض كلّها علي هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

ص: 431

1- أخرجه ابن مردويه عن طريق أبي جعفر الرازي، وذكره ابن كثير في التفسير: سورة آل عمران: 42.

2- مسند أحمد: ج1 ص316.

قال عفيف: فتمنيت أنني كنت رابعهم»(1).

قال: «أتاني جبريل فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك ومعها إناء فيه إدام، فإذا أتتك فأقرأ (عليها السلام) من ربها ومني، وبشرها بيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»(2).

وكان النبي (صلي الله عليه وآله) يعرف لها حقها وفضلها، وكان لا يكف عن الثناء عليها. وقد ورد أن الرسول أكثر مرة من الثناء علي خديجة بمسح من عائشة، فأحسّت بالغيرة، فقالت: قد أبدلك الله خيراً منها. فتغيّر وجهه وزجر عائشة غاضباً... وقال: «والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ أمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس».

وزاد الطبري في هذه الرواية: «قالت: قلت: يا رسول الله، اعف عني، ولا تسمعني

أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشيء تكرهه»(3).

إنّ هذا الخبر يشير إلي معرفة النبي (صلي الله عليه وآله) فضل خديجة، وثنائه عليها بما هي أهل له. ومما يدلّ علي أنّه كان وفيّاً لذكرها، ما ذكرته عائشة بقولها: «ما غرت علي أحدٍ من نساء النبي (صلي الله عليه وآله)، ما غرت علي خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي (صلي الله عليه وآله) يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثمّ قطعها أعضاءً ثمّ يبعثها إلي صديقات خديجة، فربّما قلتُ له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلاّ خديجة؟ فيقول: إنّها كانت وكانت، ويثني عليها».

وربّما كان من وفائه لها حرصه علي تتبّع أثرها، فقد اختار مكاناً إلي جوار قبرها الذي دُفنت فيه ليشرف منه علي فتح مكة حين فتحها، وضرب فيه قبّة، وكان يلتفت بين أونة وأخري إلي بيتها الحبيب، حيث أخذ من نبع الحبّ والحنان ما تزوّد به لذلك الكفاح المضني الطويل(4).

ويذكر المؤرّخون أنّ دار خديجة في مكة اشتراها معاوية بن أبي سفيان في خلافته،

ص: 432

- 1- . الطبقات الكبرى، ج 8 ص 10.
- 2- . مسند أحمد: ج 6 ص 58، صحيح البخاري: ج 7 ص 47، صحيح مسلم «فضائل خديجة»: ج 7 ص 133.
- 3- . نساء النبي: ص 54.
- 4- . نساء النبي: ص 55.

وجعلها مسجداً(1).

لقد تركت خديجة من بعدها للنبي (صلي الله عليه وآله) إلي جانب ما تركته من معاني خالدة آثاراً مشهودة وذكريات محسوسة ممثلة في بناتها الأربع: زينب ورقية أم كلثوم وفاطمة، ولكنهن صورة من أمهن العظيمة المباركة، وبخاصة فاطمة (عليها السلام) التي بقيت بعد النبي (صلي الله عليه وآله) وحفظت نسله الشريف الطاهر، مصداقاً لقول النبي (صلي الله عليه وآله): «كلّ بني أنثي فإنّ عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولد

فاطمة فأنا عصبتهم أبوهم»(2).

وفي رواية: «كلّ بني آدم ينتمون إليّ عصبته، إلاّ ولد فاطمة فأنا وليّهم وأنا عصبتهم».

ص: 433

1- . الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور لزينب بنت علي: ص 181.

2- . المعجم الكبير للطبراني: ج 3 الرقم 2631، جمع الجوامع: ج 3 ص 172.

1. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمّد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجَزَري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ.
2. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م.
3. جمع الجوامع او الجامع الكبير، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)، مصر: الهيئة المصرية العامّة للكتاب.
4. الدرّ المنثور في التفسير المأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)، تحقيق: دار الفكر، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1403هـ.
5. السيرة الحلبيّة، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار الإحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ.
6. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفي، الطبعة الأولى، 1355هـ.
7. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1410هـ.
8. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ)، تحقيق: محمّد فؤاد عبدالباقي، القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولى، 1412هـ.

1. الطبقات الكبرى (الطبقة الخامسة من الصحابة)، محمّد بن سعد الزهري (كاتب

الواقدي) (ت230هـ)، تحقيق: محمّد بن صامل السلمي، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ .

2. مسند أحمد، أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني (ت241هـ)، تحقيق: عبد الله محمّد الدرويش، بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1414هـ .

3. المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت360هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

4. نساء النبي، عائشه عبدالرحمن (بنت الشاطي)، بيروت: دار الكتب العلمية، 1406هـ .

ص: 435

* السيدة خديجة: جهاد وتضحيات (1)

إبراهيم السباعي

ملخص البحث:

بعد مقدّمة، يسجّل هذا البحث نبذة عن السيدة خديجة، ويذكر ولادتها وظروف نشأتها، حيث إنّها نشأت في بيت من بيوتات قريش الشريفة، ونمت علي الأخلاق الحميدة، واتّصفت بالحزم والعقل، حتّي عُرفت في قومها بالطاهرة؛ وذلك لشدة حرصها علي التخلّق بالخلق الكريم والأدب العظيم. وذكر اسمها وكنيتها وألقابها وخصائصها، وأسماء أولادها، وهم: القاسم، وعبدالله «الطيب، والطاهر»، وفاطمة. وقيل: زينب، ورقية، وأمّ كلثوم. وأنّها أوّل امرأة آمنت وصدّقت برسول الله، وأوّل من حملت لقب أمّ المؤمنين، وأوّل من آزرت النبي (صلي الله عليه وآله) في صدر الإسلام ودعوته، وأوّل من أعانت علي تثبيت ركائز الدين ونشر الدعوة. ومحصّص ما جاء في الأخبار عن تاريخ ولادتها وعمرها في وقت زواجها بالنبي (صلي الله عليه وآله)، وكيفية انتدابه لعملها التجاري. لقد دعمت الإسلام وأعطت كلّ ما لديها بتفانٍ وإيثار، وضحت بكلّ ما عندها، حتّي استطاع الإسلام أن ينهض بمال خديجة وبحماية علي، حيث لا ينكر ذلك إلا متعصّب معاند أعمي قلبه الحقد والضغينة. فقد كان لمواقف السيدة خديجة في صدر الإسلام إلي يوم وفاتها، كلّ الدعم والتأييد للنبي والإسلام، ولنشر الدعوة بإخلاص تامّ.

ص: 437

قد أعطي الإسلام الحنيف للأسرة غاية في الأهمية، لذا فقد جاءت أحاديث النبي (صلي الله عليه وآله) وآله الأطهار: بتفصيلات تجتمع جميعها لتولد لنا بتطبيقها سعادة أبدية للأسرة هنية.

من الواضح أنّ لكلّ أسري مبادئ وقيماً؛ تقوم علي أساس العدل وفهم كلّ واحد منهما الآخر، والرحمة والمودّة والاحترام وطلب المزيد في التعمّق في شخصية كلّ واحد للآخر.

ولا تتكامل الأسرة إلا بهذه المبادئ والأمر التي تمثّل روح الأسرة، ويعتبر الهدوء والتفاهم وحبّ كلّ واحد منهما الآخر: هو أساس بناء هذا المجتمع المصغّر الذي قامت أواصره علي أساس الرضا وكتمان السرّ في هذه المملكة الصغيرة والإخلاص والوفاء المتقابل.

هذه ليست محض نظريات ومثاليات، بل هي أمثلة حيّة لعدد من الناس، وأصدق مثال علي ذلك نبينا الكريم محمّد (صلي الله عليه وآله) والسيدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام)؛ حيث كانت المرأة الصالحة والصديقة المخلصة النصوحة والداعمة لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ولرسالته في حياتها، حتّي أنّها ضحّت بكلّ ما عندها من أجل الدعوة الإسلامية. لذا حزن النبي (صلي الله عليه وآله) علي وفاتها جدّاً، وسمّي ذلك العام «عام الحزن»، أعلنها مناسبة عامّة؛ لأنّها أعطت ما عندها للإسلام وليس من أجل مصلحة خاصّة، فسلام عليها يوم وُلدت ويوم ماتت ويوم تُبعث حيّة.

السيدة خديجة (عليها السلام) في سطور

اسمها: خديجة. اسم أبيها: خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصي. اسم أمّها: فاطمة بنت زائدة ابن الأصمّ، وهو جندب بن هرم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن

عامر بن لؤي بن غالب بن فهر.

كنيتها وألقابها: الطاهرة، سيّدة قريش، القريشية الأسيديّة، أمّ المؤمنين، أمّ القاسم، ولقّبها رسول الله (صلي الله عليه وآله): بسيّدة نساء أهل زمانها. وقيل: كان لقبها في الجاهلية أمّ هند.

خصائصها: أول امرأة آمنت وصدقت برسول الله (صلي الله عليه وآله)، وأول من حملت لقب أم المؤمنين، وأول من آزرت النبي (صلي الله عليه وآله) في صدر الإسلام ودعوته، وأول من أعانت علي تثبيت ركائز الدين ونشر الدعوة.

أولادها: القاسم، وعبدالله «الطيب، والطاهر»، وفاطمة (عليها السلام). وقيل: زينب، ورقية، وأم كلثوم.

ولادتها وظروف نشأتها

عند الحديث عن ولادتها يعجز الباحث عن وضع اليد علي معلومة يقينية تثبت ذلك، حيث لم تترك يد السياسة والتزوير حادثة تاريخية سليمة إلا وتلاعبت بأطرافها، حتى باتت ولادة نبي الإسلام محمد (صلي الله عليه وآله) نحتفل بمناسبة مرتين؛ لعدم علمنا وقطعنا باليوم المعين تحديداً، فكيف بمن ليس بمنزلته .

وعليه لم نستطع الوصول إلي وقت محدد يعين ولادة السيدة خديجة (عليها السلام)، إنما ولدت في بيت مجد وسؤدد ورئاسة في قريش، حيث إن أباه كان زعيماً من زعماء قريش.

وأما أمها، فلا تقل أهمية بالمنزلة والرفعة، لذا فلا يسع السيدة خديجة إلا أن تكتسب من ذي وذا عناصر الوراثة، حتى أصبحت السيدة الفاضلة التي يُشار إليها بالبنان؛ لفضلها وعلو شأنها من بين نساء قريش، حيث لم يكن لها قرين.

وقد نشأت في بيت من بيوتات قريش الشريفة، ونمت علي الأخلاق الحميدة، واتصفت بالحزم والعقل، حتى عُرفت في قومها بالطاهرة؛ وذلك لشدة حرصها علي التخلُّق بالخلق الكريم والأدب العظيم.

مات أبوها في حرب الفجار، فانتقلت ولايتها إلي عمها عمرو بن أسد، فأشرف علي إدارة شؤونها وأمورها الأخرى.

وأما بالنسبة إلي عمرها المبارك، فإن العام الذي وُلدت فيه غير معلوم كما ذكرت، لكن يمكننا تناول أطراف الحديث عن عمرها وتحديد عمرها عند زواجها من رسول الله (صلي الله عليه وآله).

فقد وردت طوائف من الروايات تتحدّث عن عمرها، وهي: 25 سنة (وصحّحه البيهقي)(1) - 28 سنة (ورجّحه كثيرون)(2) - 20 سنة(3) - 40 سنة(4) - 45 سنة(5).

وذكر غير ذلك من الأرقام كثير، إلا أنّي لم أذكرها؛ لعدم جدواها، ولم أجد لها أدنى فائدة والمعول علي هذه الروايات.

عزيزي القارئ، طوائف الروايات بين يديك، لا ترجيح لأحدها علي غيرها، إلا اللّهم استحسنأ أو استنسأ، وعليه فلا نسلم بما يقال إنّها بلغت الأربعين عند زواجها من رسول الله(صلي الله عليه وآله)، أو الخامسة والأربعين، بل ولا نعطي أدنى اهتمام لما هو مشهور ومعروف إن كانت هذه أدلته، بل ويستحيل حملها علي الأربعين أو الخامسة والأربعين، بالأخص إن رجّحنا ولادة السيّدة فاطمة الزهراء بعد البعثة بخمس سنين. هذا أولاً.

وثانياً: من غير المعلوم أنّها كانت تكبر النبي(صلي الله عليه وآله)، بل كما هو

الثابت أنّ النبي كان كبرها بخمس سنين علي حدّ أقلّ، وكان عمر النبي(صلي الله عليه وآله) كما جاءت به الأخبار: أنّه تزوّج خديجة وهو ابن ثلاثين سنة؛ أي قبل البعثة بعشر سنوات. وهناك قول آخر ورد: أنّه تزوّج خديجة وهو ابن سبع وثلاثين سنة(6)؛ أي قبل البعثة بسنين.

رَبِّ صَدَقَةَ خَيْرٍ مِنْ مِيعَادِ

يروى أنّ السيّدة خديجة كانت صاحبة مال وجاه، وكانت تتمتع بحلّة الذكاء والسماحة والسخاء، وقد أحسنت إشرافها علي أموالها فزادت بمرور الأيام، واتّسعت تجارتها إلي الشام. وفي مكّة كان قد شاع خبر الرجل الصادق الأمين صاحب الأخلاق والحسب والنسب، فبدأت الناس تتحدّث عنه وعن توقّعه الدائم في التجارة،

ص: 440

- 1- . دلائل النبوّة: ج2 ص71، السيرة لابن كثير: ج1 ص265.
- 2- . شذرات الذهب: ج1 ص14، سير أعلام النبلاء: ج2 ص111.
- 3- . السيرة النبوية: ج1 ص140، تاريخ الخميس: ج1 ص264.
- 4- . المواهب اللدنية: ج1 ص38، شذرات الذهب: ج1 ص14.
- 5- . مختصر تاريخ دمشق: ج2 ص275.
- 6- . مجمع الزوائد: ج9 ص219، تاريخ اليعقوبي: ج2 ص20.

التي كانت آنذاك مهنة معظم شباب مكة المكرمة. فكانوا يتاجرون بأموالهم أو يضاربون بأموال الغير ولهم نسبة محددة من الأرباح.

كانت السيِّدة خديجة ممَّن سمع عن صدقه وأمانته، وهي بالتالي كانت وما تزال تفتش عن رجل أمين يُحسن إدارة أموالها وتجارته أو تنمية أموالها بالمضاربة بها.

رغبت بتوكيله لهذه المهمة، فأخبرته أنّ الدافع من وراء اختياره وتفضيله علي غيره من شباب مكة؛ ما بلغها من صدق حديثه وأمانته وكرم أخلاقه. لم تكنف بما سمعت عنه، فأرسلت معه في تجارته إلي الشام غلامها ميسرة؛ لتراقب حركاته وسكناته، وجميع تصرفاته عن كثب من خلال ما يراه ميسرة.

ولا يخفي هنا رجاحة عقلها في إرسال غلامها معه ليلاحظ تصرفاته ومعاملاته، حيث إنّ معاشرته المسافر تكشف عن خلقه الأصيل، و تكشف عمّا يخفيه الإنسان، بل وتظهر شخصيته علي حقيقتها، فهو يراه عند نومه وقيامه وبيعه وشرائه ومشيه ومعاملته وجميع تصرفاته مع الناس.

سافر النبي (صلي الله عليه وآله) في تجارته إلي الشام، فكان موقفاً جداً. وفي أحد الأيام دخل ميسرة مسرعاً علي سيِّدته ليزفّ البشري بصدق ظنّها، وقصّ عليها كلّ ما رآه من مميّزات لشخصيته، بدءاً من صدقه وأمانته، مروراً بأخلاقه مع الناس وما قالت الناس عنه، انتهاءً بالعمامة التي كانت تظلّله من الشمس ساعة الهاجرة.

الأنوار تتحد وتلاحم

بلغت خديجة مبلغ النساء، وبدأت تعرف بفطنتها ورجاحة عقلها وفضلها في المجتمع، وقد تقدّم لخطبتها عظماء قريش؛ لشرفها وحسبها ونسبها وعظيم أدبها، حيث كانت من خيرة نساء قريش شرفاً وأكثرهن مالاً وأحسنهن جمالاً، وقد بذلوا لها الأموال. وممَّن خطبها عقبه بن أبي معيط، والصلت بن أبي يهاب، وأبو جهل، وأبو سفيان(1)، بل وكلّ قومها كان حريصاً علي الاقتران بها لو يقدر عليه(2).

ص: 441

1- . بحار الأنوار: ج16 ص22.

2- . السيرة النبوية لابن هشام: ج1 ص201.

وتقدّم النبي (صلي الله عليه وآله) فيمن تقدّم لخطبتها يرافقه عمّه أبو طالب ورجال من أهل بيته ونفر من قريش إلي وليّها؛ وهو عمّها عمرو بن أسد، حيث كان قد قُتل أبوها في حرب الفِجَار (1).

وكما يُروى أنّ أبا طالب قال في خطبتها: «الحمد لربّ هذا البيت، الذي جعلنا من زرع إبراهيم، وذرية إسماعيل، وأنزلنا حرماً آمناً، وجعلنا الحكّام علي الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه»، ثمّ أضاف: «إنّ ابن أخي هذا ممّن لا يُوزن برجل من قريش إلا رجح به، ولا يُقاس به رجل إلا عظم عنه، وله في خديجة رغبة، وقد جنّناك لخطبتها

إليه برضاها وأمرها، والمهر عليّ في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله» (2).

وروي أنّ النبي (صلي الله عليه وآله) نفسه قد أمهرها عشرين بكرة (3).

السيدة خديجة الزوجة المخلصة والمجاهدة

انصرفت السيدة خديجة لإدارة بيتها والقيام بأعباء المنزل، وهي سعيدة فرحة أنّها في خدمة محمّد (صلي الله عليه وآله)، مكلّلة بالحبّ والإخلاص، ابتداءً من الإشراف علي تربية الأولاد، انتهاءً إلي توفير كافة أمور الراحة للزوج المخلص، وجعل مستقرّه مكاناً آمناً هادئاً مناسباً للتفكّر والتأمّل الذي كان يقوم به قبل البعثة.

وعندما بُعث النبي (صلي الله عليه وآله) بالرسالة والدعوة، كانت أوّل من آمنت به وصدقته، فباتت أوّل مسلمة دخلت في الإسلام. لذا في يوم من أيّام زيارة السيدة خديجة لرسول الله في فترات اعتكافه في غار حراء، نزل الأمين جبريل علي رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فقال النبي (صلي الله عليه وآله): «يا خديجة، إنّ جبريل يقرأ عليك السلام من الله ربّ العالمين، فقالت خديجة: الله السلام ومنه السلام وإليه يعود السلام، وعلي جبريل السلام».

منذ ذلك اليوم الذي بُعث به والسيدة خديجة تقف إلي جواره تسانده وتوازره وتعاونه، وتخفّف عنه ما يلاقيه من أذى قريش.

ص: 442

1- . كتاب الأوائل: ج 1 ص 160.

2- . فروع الكافي: ج 5 ص 374.

3- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 201.

مشاركتها في الدعوة

أخذت (عليها السلام) تدعو إلى الله بقولها وعملها، وتدفع الناس إلى الدخول في الإسلام، وكانت تلقي قبولاً مهماً لدى النساء. وتحملت مع النبي (صلي الله عليه و

آله) في أوقات الشدة والمحنة، وفي الحصار الذي فرض علي المسلمين في شعب أبي طالب، كانت المرأة الصابرة المحتسبة قوية العزيمة والشكيمة، كنت تري ذلك من خلال مواقفها كلها المليئة بالحنان والرفق، والعزم والقوة.

لقد استحقت بجدارة لقبها من رسول الله (صلي الله عليه و آله)، أنها سيّدة نساء أهل زمانها. وكذلك إخبارها النبي (صلي الله عليه و آله) في حياتها: «إنَّ الله يُشْرِكُ ببيت في الجنَّة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

لم تترك النبي (صلي الله عليه و آله) لحظة طيلة فترة حياتها، فكانت تقدّر الأمور حقّ قدرها، وتبذل جهدها بما أُوتيت من العطاء، وكانت تقف إلى جنب زوجها داعمة ومؤيّدة بالمال والكلمة والنفس.

سنوات الجهاد والتضحيات

عايشت (عليها السلام) الفترات العصبية التي عاناها النبي (صلي الله عليه و آله) والمسلمون في صدر الإسلام، حيث كانت فترات مملوءة بالإيثار والتضحيات والكفاح حتّى آخر رمق، فقد رأت أول شهيدة في الإسلام الشهيدة سمية زوجة الشهيد الأول ياسر (أمّ عمّار)، وشاهدت المسلمين المجاهدين والمسلمات المجاهدات وهم يهاجرون الهجرة الأولى إلى الحبشة.

تجدها في هذه المنعطفات وتلك المواقف متضرّعة إلى الله أن يفرّج الكرب عن المسلمين، ويثبت أقدامهم، وأن يؤيّد رسول الله (صلي الله عليه و آله) ويقوّيه علي مواصلة دعوته؛ دعوة الحقّ والصمود في مواجهة ومقاومة الكفّار والطغاة.

كانت تستمدّ أعظم سلوي وأروع آيات الثبّت الإيمانية من زوجها الحبيب رسول الله (صلي الله عليه و آله)، ومن آيات القرآن البيّنات التي كانت تتابع في النزول، فيزداد المؤمنون إيماناً وهدىً وتصديقاً.

لقد دعمت الإسلام وأعطت كل ما لديها بتفانٍ وإيثار، وضحت بكل ما عندها،

حتى استطاع الإسلام أن ينهض بمال خديجة وبحماية علي، حيث لا ينكر ذلك إلا متعصب معاند أعمى قلبه الحقد والضغينة.

فقد كان لمواقف السيِّدة خديجة (عليها السلام) في صدر الإسلام إلى يوم وفاتها، كل الدعم والتأييد للنبي (صلي الله عليه وآله) والإسلام ولنشر الدعوة بإخلاص تام.

لذا عندما توفيت أعلن النبي (صلي الله عليه وآله) الحداد العام، وسمي ذلك العام وفاءً منه لها وتعظيماً وتخليداً لذكراها: «بعام الحزن». أراد النبي (صلي الله عليه وآله) أن يقول: إنَّ السيِّدة خديجة لم تعد تمثل زوج النبي (صلي الله عليه وآله)، بل أصبحت رمزاً إسلامياً عالمياً مهماً.

أحست السيِّدة خديجة بمقدمات المرض تتجمّع، فلازمت الفراش، اجتمع النبي (صلي الله عليه وآله) وابنته السيِّدة فاطمة (عليها السلام) حولها، نظرت إلى زوجها وابنتها النظرة الأخيرة، مليئة بالأسى علي الفراق، لكنَّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) بشرها باللقاء معها في الجنَّة، لحظات جدَّ مؤثِّرة، هطلت خلالها دموع الرحمة من النبي (صلي الله عليه وآله)، وفاض قلبه بالحزن، وبكت السيِّدة فاطمة (عليها السلام) وبكاها المسلمون، حيث فقدت مكَّة سيِّدة نساء أهل زمانها، ورجعت النفس مطمئنة إلى ربِّها راضية مرضية.

وقد توفيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنوات. فسلامٌ عليها يوم وُلدت ويوم ماتت ويوم تُبعث حيَّة.

1. الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت395هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1407هـ .
2. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار:، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت1110هـ)، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1412هـ .
3. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الحسين بن محمد الديار بكري (معاصر)، بيروت: مؤسسة شعبان.
4. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المعروف باليعقوبي (ت284هـ)، بيروت: دار صادر.
5. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت458هـ) تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1405هـ .
6. سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: شبيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، 1414هـ .
7. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفي، الطبعة الأولى، 1355هـ .

شذرات الذهب في أبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن عماد الحنبلي الدمشقي (ابن

1. عماد) (ت1083هـ) تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ .

2. فروع الكافي، أبو جعفر ثقة الإسلام محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت328هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري محمد الآخوندي، بيروت وطهران: دار صعب ودار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة والخامسة.

3. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي (ت807هـ)، تحقيق: عبد الله محمد درويش، بيروت: دار الكتب العلمية 1408هـ.

4. مختصر تاريخ دمشق، محمد بن مكرم المصري الأنصاري (ابن منظور) (ت711هـ)، دمشق: دار الفكر الطبعة الأولى، 1404 و1408هـ.

5. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد القسطلاني (ت923هـ)، تحقيق: صالح أحمد الشامي، بيروت: المكتب الإسلامي، 1412هـ.

ص: 446

* السفر الثاني إلى الشام (1)

السيد جعفر مرتضي العاملي

ملخص البحث:

أكثر ما يركّز هذا البحث علي جزئية السفر الثاني للنبي (صلي الله عليه وآله) إلى الشام في تجارة خديجة، وما ظهر لها من أمانته، وإبداء رغبته في الزواج منه، وهي السيّدة الثرية ذات الحسب والنسب، والتي كان أشرف قومها يودّون الزواج منها. كما يتناول فيه أيضاً قضية خطبة خديجة وكيفيتها، وعمرها في ذلك الوقت. وهو يشكّك في صحّة الأخبار القائلة بأنّ خديجة كانت قد تزوّجت قبله برجلين. غير أنّ الطابع الذي يميّز هذا البحث عن سواه من البحوث الأخرى هو الطابع النقدي الذي يتبناه في تعاطيه مع الأخبار والنصوص التاريخية التي تناولت هذا الموضوع؛ فهو كثيراً ما يتردّد في قبولها ويمحصها ويستجلي ما يعتورها من ثغرات في السند أو في النصّ، مع إجراء مقارنة بين النصوص المتباينة. هذا إضافة إلى تحليل محتوى ومضامين تلك النصوص التاريخية وبيان ما تنطوي عليه من أمور تعكس واقع الحياة والمجتمع في ذلك العصر. فكان أسلوب البحث هو الأسلوب المكتبي التوثيقي المقرون بنظرة تحليلية وناقدة. ومن الخصائص الأخرى لهذا البحث تركيزه علي النظر في الدلالة اللغوية للألفاظ وبيان مديات معانيها.

ص: 447

ويقولون: إنّه قد سافر سفره الثاني إلي الشام، وهو في الخامسة والعشرين من عمره(1).

ويقولون: إنّ سفره هذا كان في تجارة لخديجة، وإنّ أبا طالب هو الذي اقترح عليه ذلك، حينما اشتدّ الزمان، وألحت عليهم سنون منكرة، فلم يقبل أن يعرض نفسه علي خديجة، فبلغ خديجة ما جري بينه وبين أبي طالب، فبادرت هي، وبذلت للرسول ضعف ما كانت تبذله لغيره؛ لما تعرفه من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه.

ويروي بعضهم: أنّ أبا طالب نفسه قد كلّم خديجة في ذلك، فأظهرت سرورها ورغبتها، وبذلت له ما شاء من الأجر.

فسافر إلي الشام، وربح في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره، وظهرت له في سفره بعض الكرامات الباهرة، فلما عادت القافلة إلي مكّة أخبر ميسرة غلام خديجة سيّدته بذلك، فذكرت ذلك. بالإضافة إلي ما ظهر لها هي منه لورقة بن نوفل ابن عمّها كما يقولون وإن كنّا نحن نشكّ في ذلك(2) فقال لها: «إن كان ذلك حقّاً، فهو نبيّ هذه الأمة»(3). ثمّ اهتمّت خديجة بالعمل علي الاقتران به كما سنري.

هكذا يقولون، ولكننا نشكّ في بعض ما تقدّم، لا سيّما وأنّ ورقة لم يسلم حتّي بعد أن بعث رسول الله(صلي الله عليه وآله). كما أنّ قولهم: إنّ خديجة قد استأجرتة في تجارته، لا يمكن المساعدة عليه؛ وذلك لأننا نجد المؤرّخ الأقدم الثبت ابن واضح المعروف باليعقوبي، يقول: «وإنّه ما كان ممّا يقول الناس: إنّها استأجرتة بشيء، ولا كان أجيراً لأحدٍ قطّ»(4).

ولعلّ في عزّة نفس النبي(صلي الله عليه وآله) وإبانها، وأيضاً في تسديد الله تعالي

له، وأيضاً في شرف

ص: 448

- 1- . وفي بحار الأنوار: ج16 ص9 عن بعضهم: «أنّ سفره كان إلي سوق حُباشة بتهامة»، وكذا في كشف الغمّة: ج2 ص135 عن الجنابذي في معالم العترة.
- 2- . سيّأتي إن شاء الله بعض الكلام حول بعض ما يقال عن ورقة بن نوفل ودوره في بدء الوحي.
- 3- . راجع: البداية والنهاية: ج2 ص296، والسيرة الحلبية: ج1 ص136.
- 4- . تاريخ اليعقوبي: ج2 ص21، ونقل عن سفر السعادة: «أنّه بعد البعثة، وقبل الهجرة كان يشتري أكثر ممّا يبيع، وبعد الهجرة لم يبع إلاّ ثلاث مرّات، أمّا شراؤه فكثير... وأمّا شراوته مع غيره ففيها كثير من الاضطراب، وليس لنا مجال لتحقيق ذلك».

أبي طالب وسؤدده، ما يبعد كثيراً أن يكون قد صدر شيء مما نُسب إلي أبي طالب منه.

وعلي هذا، فقد يكون سفره إلي الشام، لا لكونه كان أجيراً لخديجة، وإنما لأنه كان يضارب بأموالها أو شريكاً لها، ويدلّ علي ذلك تصريح رواية الجنابذي بالمضاربة(1)، فراجع.

ويؤيّد ما رواه المجلسي من أنّ أبا طالب قد ذكر له اتّجار الناس بأموال خديجة، وحثّه علي أن يبادر إلي ذلك، ففعل وسافر إلي الشام(2).

زواجه بخديجة

ولقد كانت خديجة(عليها السلام) من خيرة نساء قريش شرفاً، وأكثرهنّ مالاً وأحسنهنّ جمالاً وكانت تُدعي في الجاهلية بـ«الطاهرة»،(3) ويُقال لها: «سيّدة قريش»، وكلّ قومها كان حريصاً علي الاقتران بها لو يقدر عليه(4).

وقد خطبها عظماء قريش، وبذلوا لها الأموال، وممّن خطبها عقبة بن أبي معيط،

والصلت بن أبي يهاب، وأبو جهل، وأبو سفيان(5). فرفضتهم جميعاً واختارت النبي(صلي الله عليه وآله)؛ لما عرفته فيه من كرم الأخلاق، وشرف النفس، والسجيا الكريمة العالية. ونكاد نقطع بسبب تضافر النصوص بأنّها هي التي قد أبدت أولاً رغبتها في الاقتران به .

ص: 449

- 1- . بحار الأنوار: ج16، ص9، كشف الغمّة: ج2 ص134 عن معالم العترة للجنابذي.
- 2- . بحار الأنوار: ج16 ص22 عن البكري وص3 عن الخرائج والجرائح: ص186 و187.
- 3- . راجع: الإصابة: ج4 ص281 - 282، والبداية والنهاية: ج2 ص294، وتاريخ الإسلام للذهبي: ج2 «الترجمة النبوية» ص152، و«قسم السيرة النبوية» ص237، وتهذيب الأسماء: ج2 ص342، والاستيعاب (بهاشم الإصابة): ج4 ص279، والإصابة: ج4 ص281، وسيرة مغلطاي: ص12، وسير أعلام النبلاء: ج2 ص111، والمواهب اللدنية: ج1 ص38 و200، والروض الأنف: ج1 ص215، وتاريخ الخميس: ج1 ص264، وأسد الغابة: ج7 ص78 ط دار الشعب، والسيرة الحلبية: ج1 ص137، والسيرة النبوية لدحلان: ج1 ص55، والثقات: ج1 ص46.
- 4- . انظر: البداية والنهاية: ج2 ص294، وبهجة المحافل: ج1 ص7، والسيرة النبوية لابن هشام: ج1 ص201، وتاريخ الخميس: ج1 ص263، وطبقات ابن سعد: ج1 ص131 ط دار صادر، والسيرة الحلبية: ج1 ص137، والسيرة النبوية لدحلان: ج1 ص55.
- 5- . بحار الأنوار: ج16 ص22.

فذهب أبو طالب في أهل بيته ونفر من قريش إلي وليها، وهو عمها عمرو بن أسد؛ لأن أباهما كان قد قُتل قبل ذلك في حرب الفجار أو قبلها(1).

وأما أنه خطبها إلي ورقة بن نوفل وعمها معاً، أو إلي ورقة وحده(2)، فمردود بأنه قد ادّعي الإجماع علي الأول(3).

وأما أنا فلا أدري ما أقول في ورقة هذا، وفي كلِّ وإثر من ثعلبة، فهو يُحشر في كلِّ كبيرة وصغيرة، فيما يتعلّق بالرسول الأعظم، وإن ذلك ليدعوني إلي الشكّ في كونه شخصية حقيقية أو أسطورية.

ويلاحظ: أنّ نفس الدور الذي يُعطي لأبيها تارةً ولعمها أخرى، يُعطي لورقة بن نوفل ثالثةً حتّي الجمل والكلمات، فضلاً عن المواقف والحركات، فلتراجع الروايات التي تحكي هذه القضية وليُقارن بينها(4)، وسيأتي إن شاء الله مزيد من الكلام حول ورقة هذا.

نعود إلي القول: إنّ أبا طالب قد ذهب لخطبة خديجة، وليس حمزة الذي اقتصر عليه ابن هشام في سيرته(5)؛ لأنّ ذلك لا ينسجم مع ما كان لأبي طالب من المكانة والسؤدد في قريش من جهة، ولأنّ حمزة كان يكبر النبي(صلي الله عليه وآله) بستين أو بأربع(6) كما قيل من جهة أخرى، هذا بالإضافة إلي مخالفة ذلك لما يذكره عامّة المؤرّخين في المقام.

وقد اعتذر البعض عن ذلك: بأنّ من الممكن أن يكون حمزة قد حضر مع أبي طالب فنُسب ذلك إليه(7)، وهو اعتذار واه؛ إذ لماذا لم ينسب ذلك إلي غير حمزة ممّن حضر مع أبي

ص: 450

1- . كشف الغمّة: ج2 ص139، بحار الأنوار: ج16 ص12 عنه وص19 عن الواقدي، وانظر: الأوائل لأبي هلال: ج1 ص160، وفي السيرة الحلبية: ج1 ص138: «إنّ المحفوظ عن أهل العلم أنّه مات قبل الفجار»، وتاريخ الخميس: ج1 ص264، وتهذيب تاريخ دمشق: ج1 ص303 عن الواقدي، والإصابة: ج4 ص282، والبداية والنهاية: ج2 ص296.

2- . بحار الأنوار: ج16 ص19 عن الواقدي، السيرة الحلبية: ج1 ص129، الكافي: ج5 ص374 - 375، وفيه أنّ ورقة كان عمّ خديجة، وكذا في بحار الأنوار: ج16 ص14 و21 عنه وعن البكري، وهو غير صحيح؛ لأنّ ورقة هو ابن نوفل بن أسد، وخديجة هي بنت خويلد بن أسد.

3- . السيرة الحلبية: ج1 ص137.

4- . انظر: المصادر المتقدمة والآتية.

5- . انظر: سيرة ابن هشام: ج1 ص201، والسيرة الحلبية: ج1 ص138، ونقل أيضاً عن المحبّ الطبري.

6- . تقدّمت مصادر ذلك حين الحديث حول إرضاع ثوية لرسول الله .

7- . السيرة الحلبية: ج1 ص139.

طالب من بني هاشم وغيرهم من القرشيين؟!.

ويظهر: أنّ ثمة من يهتمّ بسلب هذه المكرمة عن أبي طالب، وإعطائها لأيّ كان من الناس سواه، سواء لحمزة أو لغيره، ولا ضير في ذلك عنده ما دام أنّه قد استشهد في وقت مبكرّ.

خطبة أبي طالب

وعلي كلّ حال، فقد خطبها أبو طالب له قبل بعثته بخمس عشرة سنة علي المشهور.

وقال في خطبته - كما يروي المؤرّخون - : «الحمد لربّ هذا البيت، الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذريّة إسماعيل، وأنزلنا حرماً آمناً، وجعلنا الحكّام علي الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه. ثمّ إنّ ابن أخي هذا - يعني رسول الله (صلي الله عليه وآله) - ممّن لا يُوزن برجل من قريش إلّا رجح به، ولا يُقاس به رجل إلّا عظم عنه، ولا عدل له في الخلق، وإن كان مقلّاً في المال؛ فإنّ المال رقد جار وظلّ زائل، وله في خديجة رغبة، وقد جنناك لنخطبها إليك برضاها وأمرها، والمهر عليّ في مالي الذي سألتموه،

عاجله وآجله. وله وربّ هذا البيت حظّ عظيم، ودين شائع، ورأي كامل» (1).

نظرة في كلمات أبي طالب

وخطبة أبي طالب المتقدّمة تظهر مكانة الرسول الفضلي في قلوب الناس، وهي صريحة في أنّ الناس كانوا يجدون في الرسول علامات النبوة ونور الهداية، ويتوقّعون أن يكون هو الذي بشرّ به عيسى وموسي، وأنّه كان لا يُوزن به أحد إلّا رجح به، ولا يُقاس به رجل إلّا عظم عنه.

ص: 451

1- . الكافي: ج 5 ص 374 - 375، بحار الأنوار: ج 16 ص 14 عنه وص 16 عن من لا يحضره الفقيه: ص 413، وفي ص 5 عن شرف المصطفي والكشاف وبيع الأبرار والإبانة لابن بطة والسيرة للجويني عن الحسن والواقدي وأبي صالح والعتبي، والمناقب: ج 1 ص 42، والسيرة الحلبيّة: ج 1 ص 139، وتاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 20، والأوائل لأبي هلال: ج 1 ص 162، وتاريخ الخميس: ج 1 ص 264، والمواهب اللدنية: ج 1 ص 39، وبهجة المحافل: ج 1 ص 48، والسيرة النبويّة لدحلان: ج 1 ص 55.

ثم إن كلمات أبي طالب تدلّ دلالة واضحة علي ما كان يتمتع به بنو هاشم، من شرف وسؤدد، حتّى ليقول: «وجعلنا الحكّام علي الناس».

وتدلّ أيضاً علي أنّ العرب كانت تعتبر الحرم موضع أمن للقاصي والداني، وقد تقدّم ما يدلّ علي ذلك أيضاً. ثمّ إنّ حديثه عن فقر النبي (صلي الله عليه وآله)، وإعطاء الضابطة للتفضيل بين الرجال، يدلّ علي واقعية أبي طالب، وأنّه ينظر إلي الإنسان بمنظار سام ونبيل، كما أنّه يتعامل مع الواقع بحنكة ووعي وأناة.

وبعد، فإنّ كلماته تلك تدلّ أيضاً علي أنّ قريشاً كانت تعتبر انتسابها إلي إبراهيم وإسماعيل وسدانتها للبيت، كلّ شيء بالنسبة لها، وقد أشرنا إلي هذا الأمر في الفصل الأوّل.

ولتراجع خطبة أبي طالب حين موته، والتي يخاطب بها قريشاً؛ فإنّها خطبة جليلة لا تبتعد عن هذه الخطبة في مراميها وأهدافها.

ودين شائع

ويتساءل بعض المحقّقين هنا: أنّه كيف يمكن الجمع بين قوله: «ودين شائع»، وبين قوله تعالي: (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ) (1)، وقوله: (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ) (2).

وجوابه:

أولاً: قد يقال: إنّ الآيات ربّما تكون ناظرة إلي المراحل الأولى من حياة النبي الأعظم، فهو لم يكن يعلم ثمّ علم، وأمّا متي علم، فالآيات لا تحدّد لنا ذلك؛ فلربّما يكون قد علم حينما كان في سنّ العشرين مثلاً، أو قبل ذلك أو بعده.

بل لعلّه علمه منذ صغره، فقد دلّت الروايات علي أنّه كان نبياً منذ ذلك الحين، بل في الروايات: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»، أو نحو ذلك.

وثانياً: إنّ السيّد الطباطبائي يقول: إنّ الآيات ناظرة إلي نفي العلم التفصيلي، أمّا العلم الإجمالي فقد كان موجوداً؛ لأنّ عبد المطلب وأبا طالب وغيرهما كانوا مؤمنين

ص: 452

1- . الشوري: 52.

2- . القصص: 86.

بالله وكتبه إجمالاً، والنبي أيضاً كذلك(1)، لا- سيّما إذا قرّينا أنّه كان نبياً منذ صغره كما ذهب إليه البعض ولسوف يأتي ذلك إن شاء الله تعالى في فصل بحوث تسبق السيرة.

وثالثاً: إنّ من معاني الدين: «السيرة، والتدبير، والورع، والعادة، والشأن»، فلعلّ القصد في هذه العبارة كان إلي أحد هذه المعاني.

ورابعاً: إنّ هذه الآيات بمثابة قضية شرطية مفادها: أنّه لولا لطف الله به لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان؛ لأنّك أنت بنفسك وبما لديك من قدرات ذاتية لست قادراً علي شيء، وكذلك هو لم يكن يرجو ذلك لولا الله سبحانه.

وخامساً: لماذا لا يكون المقصود بالدين الشائع هو دين إبراهيم؟

وسادساً: قد يكون المقصود هو التنبؤ بما سيكون له في المستقبل من حيث إنّ أبا طالب أدرك ممّا يراه له من معجزات أنّه نبي، وأنّه سيكون خاتم الرسل والأنبياء.

مهر خديجة (عليها السلام)

وعلي كلّ حال، فإنّ أبا طالب قد ضمن المهر في ماله، كما هو صريح خطبته، ولكنّ خديجة رضوان الله تعالى عليها عادت فضمنت المهر في مالها، فقال البعض: يا عجباً! المهر علي النساء للرجال؟! فغضب أبو طالب وقال: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأغلي الأثمان وأعظم المهر، وإن كانوا أمثالكم لم يُزوّجوا إلا بالمهر الغالي.

ولكن يبقى أنّ بعض الروايات تفيد: أنّ رسول الله(صلي الله عليه وآله) نفسه قد أمهرها عشرين بكرة(2)، وذلك ينافي أن يكون أبو طالب قد ضمن المهر، أو هي ضمنته دونه، أو هي لأبي طالب، إلا أن يكون المراد أنّه قد أمهرها بواسطة أبي طالب.

وقيل: إنّ عليّاً هو الذي ضمن المهر، قالوا: «وهو غلط؛ لأنّ عليّاً لم يكن وُلد علي جميع الأقوال في مقدار عمره»(3).

ص: 453

- 1- . انظر: تفسير الميزان: ج 18 ص 77.
- 2- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 138، وانظر: تاريخ الخميس: ج 1 ص 265، والسيرة النبويّة لابن هشام: ج 1 ص 201، والسيرة النبويّة لابن كثير: ج 1 ص 263، والسيرة النبويّة لدحلان: ج 1 ص 107.
- 3- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 139 عن الفسوي في كتاب: «ما روي أهل الكوفة مخالفاً لأهل المدينة»، سيرة مغلطاي: ص 12، الأوائل: ج 1 ص 161.

وَيُرَدُّ عَلَيْهِ: أَنْ تَمَّةَ أَقْوَالاً وَإِنْ كُنَّا نَقْطَعُ بَعْدَ صِحَّتِهَا تَقِيدُ أَنَّهُ قَدْ وُلِدَ قَبْلَ الْبَعْتَةِ بِعَشْرِينَ، أَوْ بِثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً، وَلِذَا قَالَ مَغْلَطَايَ: «وَهُوَ غَلَطٌ، كَانَ عَلِيٌّ إِذْ ذَاكَ صَغِيرًا لَمْ يَبْلُغْ سَبْعَ سِنِينَ» (1).

وَنَحْنُ نَغْلَطُ هَذِهِ الْأَقْوَالَ وَنَسْتَعْرِبُهَا؛ إِذْ إِنَّ ذَلِكَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ اسْتَشْهَدَ وَعَمَرَهُ سِتٌّ وَسَبْعُونَ سَنَةً، وَهُوَ مَا لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ. فَنَحْنُ لَا نَقْبَلُ قَوْلَ مَغْلَطَايَ، وَلَا نَقْبَلُ قَوْلَ أَوْلَادِكَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ قَدْ ضَمِنَ الْمَهْرُ؛ وَذَلِكَ لِمَا سَيَأْتِي فِي تَارِيخِ مِيلَادِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثُمَّ نَقُولُ: إِنَّ أَبَا هَلَالٍ الْعَسْكَرِيَّ ذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: مَنْ يَضْمِنُ الْمَهْرُ؟ قَالَ عَلِيٌّ وَهُوَ صَغِيرٌ: «أَبِي. فَلَمَّا بَلَغَ الْخَبَرَ أَبَا طَالِبٍ جَعَلَ يَقُولُ: أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي» (2).

وَلَرَبَّمَا يُمْكِنُ تَقْرِيْبُ هَذَا إِذَا أَخَذْنَا بَعَيْنَ الْاِعْتِبَارِ مَا يُقَالُ: مَنْ أَنْ عَلِيًّا قَدْ وُلِدَ قَبْلَ الْبَعْتَةِ بِعَشْرٍ أَوْ بِخَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ أَوْ سِتِّ عَشْرَةِ سَنَةٍ، بَلْ بِثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً، حَسَبَ بَعْضِ الْأَقْوَالِ النَّادِرَةِ. ثُمَّ قَارَنَّا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي تَقَرَّرَ: أَنَّهُ قَدْ تَزَوَّجَ خَدِيْجَةَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً؛ أَيْ قَبْلَ الْبَعْتَةِ بِعَشْرِ سَنَاتٍ، سَنَةَ وِلَادَةِ عَلِيٍّ، أَوْ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، كَمَا عَنِ ابْنِ جَرِيْجٍ (3)؛ أَيْ قَبْلَ الْبَعْتَةِ بِثَلَاثِ سَنَاتٍ. وَقِيلَ: تَزَوَّجَهَا قَبْلَ الْبَعْتَةِ بِخَمْسِ سِنِينَ (4)، فَلَعَلَّهُ قَدْ قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، فَاسْتَحْسَنَ ذَلِكَ مِنْهُ أَبُو طَالِبٍ.

وَعَنْ مَقْدَارِ الْمَهْرِ، قِيلَ: إِنَّهُ عَشْرُونَ بَكْرَةً، وَقِيلَ: اثْنَا عَشْرَ أُوقِيَّةٍ وَنَسْ؛ أَيْ مَا يَعَادِلُ

ص: 454

- 1- . سيرة مغلطاي: ص 12.
- 2- . الأوائل لأبي هلال العسكري: ج 1 ص 161.
- 3- . انظر: تاريخ الخميس: ج 1 ص 264، وانظر: مجمع الزوائد: ج 9 ص 219. وذكرت بعض الأقوال في التبيين في أنساب القرشيين: ص 62، وتاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 20، ومختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 275: قيل: تزوجها وهو ابن ثلاثين سنة، وكذا في الاستيعاب (بهامش الإصابة): ج 4 ص 288، وسيرة مغلطاي: ص 12، ومثله في المواهب اللدنية: ج 1 ص 38 و 202، والروض الأنف: ج 1 ص 216.
- 4- . الأوائل: ج 1 ص 161.

خمس مئة درهم، وقيل غير ذلك(1).

عمر خديجة حين الزواج

ويلاحظ هنا مدى الاختلاف والتفاوت في عمر خديجة حين اقترانها بالرسول الأكرم، وهي تتراوح ما بين ال 25 سنة إلي ال 46 سنة، وهي علي النحو الآتي:

ألف . 25 سنة، وصححه البيهقي(2).

ب . 28 سنة هو ما رجّحه كثيرون(3).

ج . 30 سنة(4).

د . 35 سنة(5).

هـ . 40 سنة(6).

و . 44 سنة(7).

ص: 455

- 1- . انظر: السيرة الحلبية: ج 1 ص 138 و 139.
- 2- . دلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية: ج 2 ص 71، البداية والنهاية: ج 2 ص 294 - 295، محمّد رسول الله «سيرته وأثره في الحضارة»: ص 45، وانظر: السيرة النبوية لابن كثير: ج 1 ص 265، والسيرة الحلبية: ج 1 ص 140.
- 3- . شذرات الذهب: ج 1 ص 14، واقتصر عليه في بهجة المحافل: ج 1 ص 8، ورواه عن ابن عباس كلّ من: أنساب الأشراف «قسم حياة النبي»: ص 98، وتهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 303، وسير أعلام النبلاء: ج 2 ص 111، ومختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 275، وبحار الأنوار: ج 16 ص 12 عن الجنابذي، كلّهم عن ابن عباس. ورواه في مستدرک الحاكم: ج 3 ص 182 عن ابن إسحاق دون أن يذكر له قولاً آخر، وانظر: سيرة مغلطاي: ص 12، والمحبّر: ص 79، وتهذيب الأسماء: ج 2 ص 342، وتاريخ الخميس: ج 1 ص 264، والسيرة الحلبية: ج 1 ص 140.
- 4- . انظر: السيرة الحلبية: ج 1 ص 140، وتاريخ الخميس: ج 1 ص 264، وسيرة مغلطاي: ص 12، وتهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 303.
- 5- . البداية والنهاية: ج 2 ص 295، السيرة النبوية لابن كثير: ج 1 ص 265، وانظر: السيرة الحلبية: ج 1 ص 140.
- 6- . أنساب الأشراف «قسم حياة النبي»: ص 98، سيرة مغلطاي: ص 12، المحبّر: ص 49، المواهب اللدنية: ج 1 ص 38 و 202، شذرات الذهب: ج 1 ص 14، تاريخ الخميس: ج 1 ص 264، أسد الغابة «دار الشعب»: ج 7 ص 80، السيرة الحلبية: ج 1 ص 140، السيرة النبوية لدحلان: ج 1 ص 55 ط دار المعرفة، وانظر: تاريخ الإسلام للذهبي: ج 2 ص 152، مختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 275، وتهذيب الأسماء: ج 2 ص 342، والطبقات الكبرى لابن سعد ط صادر: ج 1 ص 132، وبحار الأنوار: ج 16 ص 12 - 19، وتهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 303 عن حكيم بن حزام.
- 7- . تهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 303 عن الواقدي.

ز . 45 سنة (1).

ح . 46 سنة (2).

وقد تقدّم أنّ الكثيرين قد رجّحوا القول الثاني، كما ذكره ابن العماد، أمّا البيهقي فقد صحّح القول الأول، حيث قال: «بلغت خديجة خمساً وستين سنة، ويُقال:

خمسين سنة، وهو أصحّ» (3).

فإذا كانت «رحمها الله» قد تزوّجت برسول الله قبل البعثة بخمس عشرة سنة كما جزم به البيهقي نفسه (4)، فإنّ ذلك معناه: أنّ عمرها حين زواجها كان خمساً وعشرين سنة، ورجّح هذا القول غير البيهقي أيضاً (5).

أمّا الحاكم، الذي روي لنا القول الثاني المتقدّم عن ابن إسحاق، فإنّه لم يوضّح لنا حقيقة ما يذهب إليه، غير أنّه حين روي عن هشام بن عروة قوله: «إنّ خديجة قد توفّيت وعمرها خمس وستون سنة»، قال: «هذا قول شاذّ، فإنّ الذي عندي: أنّها لم تبلغ ستين سنة» (6).

فكلامه هذا يدلّ عليّ أنّه يعتبر القول بأنّها قد تزوّجت بالنبي وعمرها أربعون سنة، شاذّ، ويرى أنّ عمرها كان أقلّ من خمس وثلاثين حينئذٍ، ولكنّه لم يبين القول الذي يذهب إليه، هل هو ثلاثون؟ أو ثمان وعشرون؟ أو خمس وعشرون؟

يتيم قريش، أكذوبة مفضوحة

وعن ابن إسحاق: «أنّ خديجة قالت له: يا محمّد، ألاّ تزوّج؟ قال: ومن؟ قالت: أنا، قال: ومن لي بك؟ أنت أيم قريش وأنا يتيم قريش. قالت: اخطب...» إلخ (7).

ص: 456

- 1- . تهذيب الأسماء: ج 2 ص 342، مختصر تاريخ دمشق: ج 2 ص 275 عن الواقدي، السيرة الحلبية: ج 1 ص 140، وانظر: سيرة مغلطاي: ص 12، وتاريخ الخميس: ج 1 ص 301.
- 2- . انظر: أنساب الأشراف «قسم حياة النبي»: ص 98.
- 3- . دلائل النبوة: ج 2 ص 71.
- 4- . دلائل النبوة: ج 2 ص 72 ط دار الكتب العلمية، البداية والنهاية: ج 2 ص 295، وغير ذلك كثير.
- 5- . محمّد رسول الله، سيرته وأثره في الحضارة: ص 45.
- 6- . مستدرک الحاكم: ج 3 ص 182.
- 7- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 138.

بل يذكر البعض: أن أبا طالب قال للنبي (صلي الله عليه وآله): «أخاف ألا يفعلوا، أئيم قريش وأنت يتيم قريش،

ثم إن أبا طالب أرسل بدلاً عنه حمزة؛ لأنه خاف إن ذهب بنفسه أن يردّوه فتكون الفضيحة»(1).

وفي نص آخر: «أن خديجة حين طلبت من أبي طالب أن يخطبها لمحمد من عمّها، قال أبو طالب لها: يا خديجة، لا تستهزئي»(2).

ونحن لا نشكّ في كذب كلّ ذلك؛ إذ كيف يمكن أن يصدر ذلك من رجل يزيد عمره علي الخمس وعشرين عاماً أن يصف نفسه بأنه يتيم، هذا مع العلم بأنه قد نشأ وتربّي في أعرق بيت في العرب، فكيف لم يكن يعرف أن اليتيم لا يُطلق في لغة العرب إلا علي غير البالغ؟

وأيضاً، فإنّ صدور ذلك من رجل هو في عقل وإدراك، وشخصية النبي (صلي الله عليه وآله)، والذي هو من أعرق عائلة عربية وأشرفها، والذي كان في إبنائه وسموّ نفسه يفوق كلّ وصف ويتجاوز كلّ حدّ إنّ صدور ذلك منه يكاد يلحق بالمستحيات والممتنعات.

ثمّ إنّه لماذا اتّصف محمد (صلي الله عليه وآله) فقط باليتيم؟ مع أنّ عبد المطلب قد مات وإبنه العباس وحمزة صغيران لم يبلغا الحلم؟! (3)

والظاهر هو أنّ هذا من مجعولات أعداء الدين، أو من أهل الكتاب، أو من أذئاب بني أميّة الذين كانوا يحاولون الحطّ من شأن رسول الله (صلي الله عليه وآله) كما قدّمناه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وهكذا يُقال تماماً بالنسبة لما يُنسب لأبي طالب، لا سيّما وأنّه هو نفسه يُقرّض النبي بذلك التقريض العظيم المتقدّم. ولعلّ الأصحّ هو أنّ القائل لذلك هو نساء قريش، كما سيأتي حين الحديث عن عدم صحّة ما يُقال من زواجها من رجلين قبله.

ص: 457

1- . الأوائل لأبي هلال العسكري: ج 1 ص 160 - 161.

2- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 138.

3- . هذا ما ذكره المحقّق الباحثة السيّد مهدي الروحاني حفظه الله.

وهكذا يُقال تماماً بالنسبة لما يُقال: من أن عمّها كان يأنف من أن يزوّجها من

محمد يتيم أبي طالب(1)، فاحتالت هي عليه حتّى سقته الخمر، فرّجها في حال سكره؛ فلما أفاق ووجد نفسه أمام الأمر الواقع، لم يجد بداً من القبول، وكذا قولهم: إنّه قد دخل علي خديجة قبل التزويج، فأخذت بيده فضمّتها إلي صدرها(2). إلي غير ذلك من كلام عجيب وغريب، يتناقض تماماً مع كلّ أخلاق وسجايا النبي(صلي الله عليه وآله) وسيرته، فإنّ كلّ ذلك كذب، ليس الهدف منه إلاّ الحطّ من كرامة النبي(صلي الله عليه وآله) وتنقصه من قبل أعداء الإسلام ومصائد الشيطان، نعوذ بالله من الخذلان.

هل تزوّج خديجة طمعاً في مالها؟

هذا وقد جاء في كلمات بعض المتّهمين علي الإسلام كلام باطل، تكذّبه كلّ الشواهد التاريخية، وهو أنّه إنّما تزوّج خديجة طمعاً في مالها(3)، ولسنا نريد الإسهاب في الإجابة علي هذا الهذيان؛ فإنّ حياة النبي(صلي الله عليه وآله) من بدايتها إلي نهايتها لخير شاهدٍ علي أنّه ما كان يقيم للمال وزناً.

وقد أنفقت خديجة سلام الله عليها كلّ أموالها طائفة رغبة، ليس علي النبي(صلي الله عليه وآله) وملذّاته، وإنّما علي الدعوة إلي الإسلام، وفي سبيل هذا الدين. وأيضاً فإنّ خديجة هي التي عرضت نفسها علي النبي(صلي الله عليه وآله)(4) ولم يتقدّم هو بطلب يدها، ليُقال: إنّها إنّما فعل ذلك طمعاً في مالها.

ويري الشيخ محمد حسن آل ياسين أنّ حبّه وتقديره لها في أيام حياتها بل وبعد مماتها، حتّى لقد كان ذلك منه يثير بعض زوجاته اللواتي ما رأين ولا عشن مع

ص: 458

1- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 138، تاريخ الإسلام (السيرة النبويّة): ص 65 ط دار الكتاب العربي، مسند أحمد: ج 1 ص 312، مجمع الزوائد: ج 9 ص 220.

2- . السيرة الحلبية: ج 1 ص 140.

3- . النبوة للشيخ محمد حسن آل ياسين: ص 63.

4- . البداية والنهاية: ج 2 ص 294، السيرة الحلبية: ج 1 ص 137، السيرة النبويّة لابن هشام: ج 1 ص 200 - 201، تاريخ الخميس: ج 1 ص 264.

خديجة، دليل واضح علي بطلان هذا الزعم(1).

خديجة مثل أعلي

وبالنسبة لعرض خديجة نفسها عليه نقول: هكذا تفعل الحرّة العاقلة اللببية، فلا تعرّها زبارج الدنيا وبها رجها، ولا تبحث عن اللذة لأجل اللذة، ولا عن المال والشهرة، وإنّما تبحث عمّا يخدم هدفها الأسمى في الحياة، فتفعل كما فعلت خديجة تردّ زعماء قريش أصحاب المال والجاه والقدرة والسلطان، وتبحث عن رجل فقير لا مال له، تبادر هي لعرض نفسها عليه؛ لأنّ كلّ ذلك لا يملأ عينها؛ لأنّه كلّ ربّما يكون سبباً في تدمير الحياة والإنسان، وحتّى الإنسانية جمعاء، وإنّما هي تنظر فقط إلي الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة، وإلي الواقعية في التعامل والسموّ في الهدف؛ لأنّ كلّ ذلك هو الذي يسخر المال والجاه والقوّة، وكلّ شيء لخدمة الإنسان والإنسانية وتكاملها في الدرجات العلي.

خديجة بين نساء قريش

وتجدر الإشارة هنا إلي أنّ عامّة المؤرّخين علي اختلاف أذواقهم ومشاربهم ونحلهم يقولون: إنّ خديجة كانت أجمل نساء قريش، كما أنّه لا ريب في أنّها أفضل نسائه صلوات الله وسلامه عليها، ولعلّ ذلك يفسّر لنا السبب في غيرة بعض نساء النبي (صلي الله عليه وآله) منها حتّى بعد وفاتها، بحيث كنّ يحاولن تنقّصها والإزراء عليها باستمرار، مع أنّهنّ لم يدركنها في بيت الزوجية أصلاً.

هذا، ولعلّ أم سلمة تأتي في المرتبة الثانية بين أزواجه بعد خديجة، فضلاً وإخلاصاً وولاءً، وحتّى جمالاً، كما يظهر من كلام للإمام الباقر . وعلي كلّ حال، فقد كانت ذوات الجمال والإخلاص من أزواجه يواجهن الغيرة القاتلة، والتأمر المستمرّ من قبل البعض الآخر من نسائه ممّن لم يكن لهنّ نصيب من جمال ولا من

ص: 459

التزام تامّ بالأدب النبويّ الكريم، بل كنّ يؤذينه بمواقفهنّ وتصرفاتهنّ (1).

هل تزوّجت خديجة بأحد قبل النبي (صلي الله عليه وآله)؟

ثمّ إنّه قد قيل: إنّه لم يتزوّج بكرة غير عائشة، وأمّا خديجة فيقولون: إنّها قد تزوّجت قبله برجلين، ولها منهما بعض الأولاد، وهما: عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي، وأبو هالة التميمي.

أمّا نحن فنقول: إنّنا نشكّ في دعواهم تلك، ونحتمل جدّاً أن يكون كثير ممّا يُقال في هذا الموضوع قد صنّعه يد السياسة، ولا نريد أن نسهب في الكلام عن اختلافهم في اسم أبي هالة، هل هو النباش بن زرارة أو عكسه، أو هند أو مالك؟ وهل هو صحابي أو لا؟ وهل تزوّجته قبل عتيق، أو تزوّجت عتيقاً قبله؟ (2)

ولا في كون هند الذي ولدته خديجة هو ابن هذا الزوج أو ذلك، فإن كان ابن عتيق فهو أنثي (3)، وإلّا فهو ذكر، وإنّه هل قُتل مع علي في حرب الجمل، أو مات بالطاعون بالبصرة (4).

لا، لا نريد أن نطيل بذلك، وإنّما نكتفي بتسجيل الملاحظات التالية:

أولاً: قال ابن شهر آشوب: «وروي أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضي في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: «أنّ النبي (صلي الله عليه و

آله) تزوّج بها، وكانت عذراء».

يؤكد ذلك ما ذكر في كتابي الأنوار والبدع: «أنّ رقية وزينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة» (5).

ثانياً: قال أبو القاسم الكوفي: «إنّ الإجماع من الخاصّ والعامّ، من أهل الأنال

ص: 460

1- . سيأتي لذلك مزيد توضيح في فصل: «حتّي بيعة العقبة» من هذا الكتاب.

2- . انظر: الأوائل: ج 1 هامش ص 159.

3- . انظر: المصدر نفسه. وقال: «إنّ هنداً هذه قد تزوّجت من صيفي بن عائذ، فولدت محمّد بن صيفي».

4- . للاطلاع علي هذه الاختلافات وغيرها راجع المصادر التالية وقارن بينها: الإصابة: ج 3 ص 611 - 612، ونسب قريش لمصعب الزبيري: ص 22، والسيرة الحلبية: ج 1 ص 140، وقاموس الرجال: ج 10 ص 431، ونقل عن البلاذري وأسد الغابة: ج 5 ص 12 و 13 و 71، وغير ذلك.

5- . مناقب آل أبي طالب: ج 1 ص 159، وبحار الأنوار، ورجال المامقاني، وقاموس الرجال، كلّهم عن المناقب.

[الأثار ظ] ونقله الأخبار، علي أنه لم يبق من أشرف قريش ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم، إلا من خطب خديجة ورام تزويجها، فامتنت علي جميعهم من ذلك، فلمّا تزوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله) غضب عليها نساء قريش وهجرنها، وقلن لها: خطبك أشرف قريش وأمرأؤهم فلم تزوّجي أحداً منهم، وتزوّجتي محمداً يتيم أبي طالب، فقيراً لا مال له؟!]

فكيف يجوز في نظر أهل الفهم أن تكون خديجة يتزوّجها أعرابي من تميم، وتمتنت من سادات قريش وأشرفها علي ما وصفناه؟! ألا يعلم ذوو التمييز والنظر أنه من أبين المحال وأفظع المقال؟! (1).

وأما الردّ علي ذلك بأنه لا يمكن أن تبقي امرأة شريفة وجميلة هذه المدّة الطويلة بلا زواج، فليس علي ما يرام؛ لأنّ ذلك لا يبزر رفضها لعظماء قريش وقبولها بأعرابي من بني تميم.

وأما كيف يتركها أبوها أو وليها بلا تزويج؟ فقد قلنا: إنّ أباهما قد قُتل في حرب الفجار، وأما وليها فلم يكن له سلطة الأب ليحبها علي الزواج ممّن أراد. وبقاء المرأة الشريفة والجميلة مدّة بلا زواج ليس بعزيز، إذا كانت تصبر إلي أن تجد الرجل الفاضل الكامل، الذي كان يعزّ وجوده في تلك الفترة.

نعم، قد يكون من المستغرب أن لا يتقدّم لخطبتها أحد، خصوصاً من هي مثل خديجة في موقعها وفي ميزاتها، ولكنّ الأمر بالنسبة لخديجة ليس كذلك، فقد خطبها

عظماء قريش كما هو معلوم.

ثالثاً: كيف لم يعيّرها زعماء قريش الذين خطبوا فرّدتهم بزواجها من أعرابي بوال علي عقبه؟!]

رابعاً: قد ذكروا أنّ أول شهيد في الإسلام ابن لخديجة «رحمها الله»، اسمه الحارث

ص: 461

1- . الاستغاثة: ج 1 ص 70.

بن أبي هالة، استشهد حينما جهر رسول الله (صلي الله عليه وآله) بالدعوة (1).

ونقول: إن ذلك لا يمكن قبوله، حيث قد روي بسند صحيح عندهم عن قتادة: أن أول شهيد في الإسلام هو سميّة والدة عمّار (2)، وكذا روي عن مجاهد (3).

وعن ابن عباس: «قتل أبو عمّار وأمّ عمّار، وهما أول قتيلين قُتلا من المسلمين» (4).

إلا أن يدعي: أن سميّة كانت أول من استشهد من النساء، والحارث كان أول من استشهد من الرجال. ولكنّه احتمال بعيد ومخالف لظاهر كلماتهم، لا سيّما وأن كلمة شهيد تُطلق على الذكر والأنثى بلفظ واحد، مثل قتيل وجريح.

فإن معني كلمة «شهيد» شخص أو ذات ثبتت لها صفة الشهادة؛ لأن المشتقات تدلّ على ذات ثبت لها وصف ما، فكلمة تقي معناها: شخص له التقوي، وقائم أيضاً كذلك.

وكلمة شخص أو ذات أو نحوها، تصدق على الرجل علي حدة، وعلي المرأة كذلك، وعلي كليهما معاً. وعلي هذا الأساس نفسّر كلمة: «طلب العلم فريضة علي كلّ مسلم»، بحيث يشمل الرجل والمرأة معاً.

أمّا إذا كان المشتقّ فيه «أل» الموصولة، مثل القائم والمنتقي، فإن الأمر يصبح أوضح وأجلي؛ وذلك لأن «أل» بمنزلة «الذي»، فالقائم معناه الشخص الذي له القيام، فيصحّ أن يُراد بها الرجل والمرأة، وهما معاً أيضاً.

وعلي هذا الأساس جرت التعابير القرآنية، مثل: المنتقين، المؤمنين، الشاكرين... إلخ، فإنّها تشمل الرجل والمرأة علي حدّ سواء.

ولكن قد يُحتاج إلي التنصيص علي كلا الجنسين، فيصرّح بما يدلّ علي مراده، فيقول: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) (5)، و (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ

ص: 462

1- . الأوائل لأبي هلال العسكري: ج 1 ص 311 - 312، الإصابة: ج 1 ص 293 عنه وعن ابن الكلبي وابن حزم، محاضرة الأوائل: ص 46.

2- . الإصابة: ج 4 ص 335، طبقات ابن سعد: ج 8 ص 193 ط ليدن.

3- . الاستيعاب (هامش الإصابة): ج 4 ص 331.

4- . صفين للمنقري: ص 325.

5- . النور: 30.

أَبْصَارِهِنَّ (1)، ونحو ذلك، وذلك واضح لا يخفي.

فتلخص مما تقدم: أن هذا النص لا يدل على وجود ابن لخديجة، ما دام أنه قد ثبت حصول الكذب في جزء منه، ولعل هذا الكذب قد جاء لأجل الإيحاء بطريق غير مباشر بأن لخديجة ولداً من النبي (صلي الله عليه وآله)، وأن ذلك غير قابل للنقاش، ولكن قد قيل: لا حافظة لكذوب.

خامساً: لقد روي أنه كانت لخديجة أخت اسمها هالة (2)، تزوجها رجل مخزومي، فولدت له بنتاً اسمها هالة، ثم خلف عليها - أي علي هالة الأولى - رجل تميمي يقال له: أبو هند، فأولدها ولداً اسمه هند.

وكان لهذا التميمي امرأة أخرى قد ولدت له زينب ورقية، فماتت ومات التميمي، فلحق ولده هند بقومه، وبقيت هالة أخت خديجة والطفلتان اللتان من التميمي وزوجته الأخرى، فضمتهم خديجة إليها، وبعد أن تزوجت بالرسول ماتت هالة، فبقيت الطفلتان في حجر خديجة والرسول.

وكان العرب يزعمون أن الربيبة بنت، ولأجل ذلك نسبتا إليه، مع أنهما ابنتا أبي هند زوج أختها، وكذلك كان الحال بالنسبة لهند نفسه (3).

ولربما يمكن تأييد هذه الروايات بما ورد من الاختلاف في اسم والد هند، فلترجع

المصادر التي ذكرناها ثمة.

زوجتا عثمان، هل هما بنات النبي (صلي الله عليه وآله)؟!

إننا بالإضافة إلي ما قدّمناه آنفاً عن الاستغاثة نذكر:

أولاً: إن مما يدل على عدم كون زوجتي عثمان بناتاً له عدا عن كون بعض الأقوال تنافي ذلك، ما ذكره المقدسي عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، قال: «ولدت خديجة

ص: 463

1- .النور: 31.

2- . لها ذكر في كتب الأنساب، فراجع علي سبيل المثال: نسب قريش لمصعب الزبيري.

3- . انظر: الاستغاثة: ج 1 ص 68 - 69، ورسالة حول بنات النبي مطبوعة ط حجرية في آخر مكارم الأخلاق: ص 6.

لرسول الله (صلي الله عليه وآله): عبد مناف في الجاهلية، وولدت له في الإسلام غلامين وأربع بنات؛ القاسم، وبه كان يُكنّى: أبا القاسم، فعاش حتّى مشي ثمّ مات، وعبد الله، مات صغيراً، وأمّ كلثوم، وزينب، ورقية، وفاطمة» (1).

وقال القسطلاني بعد كلام له: «وقيل: وُلد له ولد قبل المبعث، يُقال له: عبد مناف، فيكونون علي هذا اثني عشر، وكلّهم سوي هذا وُلد في الإسلام بعد المبعث» (2).

كما أنّ بعضهم ينصّ علي أنّه قد صحّ عنده أنّ رقية كانت أصغر من الكلّ حتّى من فاطمة (عليها السلام) (3). وبعد هذا، فكيف نصّدق قول من يقول: إنهما تزوّجتا في الجاهلية من ابني أبي لهب، ثمّ جاء الإسلام ففارقاهما؟

يقول المقدسي: «فزوج رسول الله رقية عثمان بن عفّان، وهاجرت معه في الهجرتين إلي الحبشة، وأسقطت في الهجرة الأولى علقه في السفينة» (4).

نعم، كيف نصّدق هذا ونحن نعلم أنّ الهجرة الأولى إلي الحبشة كانت بعد البعثة

بخمس سنين؟ فكيف تكون رقية قد تزوّجت قبل البعثة بابن أبي لهب ثمّ فارقتها ليتزوّجها عثمان ثمّ تحمل منه قبل الهجرة إلي الحبشة، وهي إنّما وُلدت بعد البعثة؟!

إنّ ذلك لعجيب! وعجيب حقاً!

ثانياً: لقد ذكرت بعض الروايات أنّ أبا لهب قد أمر ولديه بطلاق رقية وأمّ كلثوم بعد نزول سورة: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) (5). (6) مع أنّهم يقولون: إنّ هذه السورة قد نزلت حينما كان

ص: 464

1- . البدء والتاريخ: ج 5 ص 16 وج 4 ص 139.

2- . المواهب اللدنية: ج 1 ص 196.

3- . انظر: الإصابة: ج 4 ص 304 عن الجرجاني، والاستيعاب (بهامش الإصابة): ج 4 ص 282 - 299، وفي ص 281 عن الزبير بن بكار: «إنّ عبد الله، ثمّ أمّ كلثوم، ثمّ فاطمة، ثمّ رقية، كلّهم وُلدوا بعد الإسلام»، وكذا في البداية والنهاية: ج 2 ص 294، ونسب قريش: ص 21.

4- . البدء والتاريخ: ج 5 ص 17، تهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 298.

5- . المسد: 1.

6- . نسب قريش لمصعب الزبيري: ص 22، تهذيب تاريخ دمشق: ج 1 ص 293 و 298، أسد الغابة: ج 5 ص 456، الاستيعاب (بهامش الإصابة): ج 4 ص 299، الدرّ المنثور: ج 6 ص 409 عن الطبراني.

النبي والمسلمون محصورين في الشَّعب(1)، وقد كان ذلك بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة.

ثالثاً: لقد روي أنّ خديجة ولدت للنبي عبد الله، ثمّ أبطأ عليها الولد، فبينما رسول الله(صلي الله عليه وآله) يكلم رجلاً والعاص بن وائل ينظر إليه، إذ مرّ رجل فسأل العاص عن النبي(صلي الله عليه وآله)، وقال: من هذا؟ قال: هذا الأبتَر! فأُنزل الله: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)(2). (3)

فظاهر الرواية: أنّها حين ولدت عبد الله لم تكن قد ولدت غيره، أو أنّ من ولدتهم ماتوا جميعاً حتّى لم يعد للنبي أولاد أصلاً، مع أنّ رقيّة كانت عند عثمان قبل ولادة فاطمة، فلا يصحّ وصف العاص للنبي(صلي الله عليه وآله) بالأبتَر فتنزّل الآية، إلّا أن يُقال: إنّ العرب لم تكن تهتمّ بالبنات، بل الميزان عندهم هو خصوص الذكور، ولأجل ذلك وصفه العاص بالأبتَر.

رابعاً: قد تقدّم أنّ هناك من يقول: إنّ خديجة إنّما تزوّجت رسول الله(صلي الله عليه وآله) قبل البعثة بعشر أو بثلاث، أو بخمس سنوات، فكيف تكون رقيّة وزينب قد ولدتا من خديجة وتزوّجتا قبل البعثة؟!

وخامساً: إنّ الدولابي يقول: «إنّ عثمان كان قد تزوّج رقيّة في الجاهلية»(4).

وذلك كلّه يؤكّد ويؤيّد أنّ رقيّة التي تزوّجها عثمان هي غير رقيّة التي يدّعي أنّها بنت الرسول، والتي يُقال: إنّها ولدت بعد البعثة، وأنّ التي تزوّجها عثمان هي ربيبة النبي(صلي الله عليه وآله) لا ابنته.

وقد كانت العرب تطلق علي ربيبة الرجل أنّها ابنته كما قلنا. وكذلك يُقال بالنسبة لأمّ كلثوم؛ لأنّ الفرض أنّها قد ولدت بعد البعثة أيضاً.

هل زينب بنت الرسول أم ربيته؟

ص: 465

1- الدرّ المنثور: ج6 ص408 عن أبي نعيم في الدلائل.

2- الكوثر: 3.

3- . انظر: تهذيب تاريخ دمشق: ج1 ص294، والدرّ المنثور: ج6 ص404.

4- . انظر: المواهب اللدنية: ج1 ص197.

وأما عن زينب، فلا نستطيع أن نطمئن إلي أنها كانت بنت رسول الله (صلي الله عليه وآله) أيضاً؛ لأننا بالإضافة إلي أن ما قدمناه آنفاً حول زوجتي عثمان، كله بعينه جارٍ هنا إذا كان أبو العاص بن الربيع قد تزوّجها قبل البعثة. نشير إلي ما يلي:

1. قال مغلطي عن خديجة: «ثم خلف عليها أبو هالة النباش بن زرارة، فولدت له هنداً، والحرث، وزينب، وكانت تُكَنَّى أمَّ هند، وتُدعى الطاهرة»(1).

2. وعن عمرو بن دينار: «إنَّ حسن بن محمّد بن علي أخبره: أنَّ أبا العاص بن الربيع بن عبد العزّي بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان زوجاً لبنت خديجة، فجيء به للنبي (صلي الله عليه وآله) في قدّ، فحلّته زينب بنت النبي (صلي الله عليه وآله) ... إلخ»(2).

فالتعبير أولاً ببنت خديجة يشير أنّها لم تكن ابنته، وإن كان عاد فذكر أنّها بنت

النبي، فلا يبعد أنه يريد بنوّتها له بالتربية، وإلا فلماذا خصّها أولاً بأنّها بنت خديجة؟ فنسبتها إلي خديجة أولاً يكون قرينة علي إرادة بنوّتها للنبي (صلي الله عليه وآله) بالتربية.

3. ويذكر الشيخ محمّد حسن آل ياسين عن زينب: «إنَّ بعض المصادر تقول: إنّها ولدت وعمره ثلاثون سنة(3)، وتزوّجها أبو العاص بن الربيع قبل البعثة، وولدت له عليّاً، مات صغيراً، وأمّامة، أسلمت حين أسلمت أمّها أول البعثة النبويّة»(4).

وذلك غير معقول، فإنّه لا يمكن لبنت في العاشرة أن تتزوّج ويولد لها بنت وتكبر تلك البنت حتّي تسلم مع أمّها في أول البعثة؛ وهذا حيث لا تزال أمّها في العاشرة من عمرها(5).

ولكن كلام هذا الباحث غير متين؛ لأنّ المقصود بالتي أسلمت هي وأمّها، هو: زينب وخديجة، وليس المقصود هو أمّامة وزينب، وذلك ظاهر لا يخفي.

وبالنسبة لأمّ كلثوم، فإنّ الروايات تذكر أنّ عليّاً حين هاجر اصطحب معه خصوص الفواطم

ص: 466

1- سيرة مغلطي: ص 12.

2- المصنّف للحافظ عبد الرزّاق: ج 5 ص 224.

3- أسد الغابة: ج 5 ص 467، نهاية الإرب: ج 18 ص 211، الاستيعاب (هامش الإصابة): ج 4 ص 311.

4- انظر: كتاب النبوة، هامش ص 65.

5- انظر: هامش كتاب النبوة للشيخ محمّد حسن آل ياسين: ص 65.

وأمّ أيمن وجماعة من ضعفاء المؤمنين(1)، وليست أمّ كلثوم بينهم، فهل هاجرت قبل ذلك أو بعده وحدها؟ وكيف لم يصطحبها علي معه ليحميها من كيد قريش؟ ولماذا؟ ولماذا؟!

وبعد ما تقدّم نستطيع أن نقول: إنّنا لا يمكن أن نطمئنّ بشكل نهائي إلي ما يُقال من أنّ عثمان قد تزوّج ابنتي رسول الله(صلي الله عليه و آله)؛ للاحتمال القويّ بأن تكونا ربيتيه، وكذا بالنسبة لزينب زوجة أبي العاص.

وعلي هذا، فيصحّ أن يُقال لمن تزوّج ربيبة لشخصٍ: أنّ ذلك الشخص قد صاهره ونال درجة من القرب منه، وعلي هذا فلا منافاة بين ما ذكرنا، وبين قول أمير المؤمنين

لعثمان: «وقد نلت من صهره ما لم ينال»(2).

لكن يبقى أنّ ذلك الصهر هل قام بواجباته تجاه ذلك الذي أكرمه بتزويج ربيتيه له؟ فهذا بحث آخر، وله مجال آخر، وستأتي بعض الإشارات لما كان من عثمان في حقّ زوجته ربيتي النبي الأكرم .

ومهما يكن من أمر، فقد صدر لنا كتاب باسم «بنات النبي(صلي الله عليه و آله) أمّ ربابه»، وكتاب «القول الصائب في إثبات الرئائب»، فليرجع إليهما من أراد التفصيل.

منافسون لعلي

ولعلّ إصرار الآخرين علي بنوتهنّ له وإرسالهم له إرسال المسلّمات، يهدف إلي إيجاد منافسين لعلي في فضائله الخارجية، ولذلك أطلقوا علي عثمان لقب «ذي النورين»! هذا مع العلم بأن سيرته لم تكن مع هاتين البنيتين علي ما يرام، كما سوف نشير إليه حين الحديث عن وفاتهما في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ويُلاحظ أيضاً: روايتهم الموضوعة حول زواج علي ببنت أبي جهل، والتي مدح

ص: 467

1- . سيرة المصطفي: ص 259، السيرة الحلبية: ج 2 ص 53.

2- نهج البلاغة: ج 2 ص 85، أنساب الأشراف: ج 5 ص 60، العقد الفريد: ج 3 ص 376، الجمل: ص 100 عن المدائني، الغدير: ج 9 ص 74 عن بعض من تقدّم وعن تاريخ الأمم والملوك: ج 5 ص 96 وعن الكامل في التاريخ: ج 3 ص 63 وعن البداية والنهاية: ج 7 ص 168.

فيها رسول الله (صلي الله عليه وآله) مصاهرة أبي العاص له ؛ تعريضاً بعلي حيث كان في مقام تحذيره والإزاء عليه.

وسياتي أيضاً في الكتاب بعض الكلام عن هذا الموضوع إن شاء الله تعالى.

خُولة هند بن أبي هالة للإمام الحسن

وقبل أن نترك الحديث حول هذا الموضوع إلي غيره، نسجل هنا تحفظاً علي ما يُقال

من أنّ الإمام الحسن قال: «سألت خالي هنداً بن أبي هالة عن حلية رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وكان وصافاً وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به، قال: كان رسول الله (صلي الله عليه وآله) فخماً مفخماً...» إلخ.

قال الحسن: فكتمها الحسين بن علي زماناً، ثمّ حدّثته فوجدته قد سبقني إليه، فسأل أباه عن مدخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) ومخرجه ومجلسه وشكله، فلم يدع منه شيئاً. قال الحسين: سألت أبي... إلخ (1).

أقول:

أولاً: سند هذا الحديث هو جميع العجلي، عن رجل من بني تميم من ولد أبي هالة، زوج خديجة أمّ المؤمنين (عليها السلام)، يُكْتَبُ أبا عبد الله، عن ابن لأبي هالة، عن الحسن بن علي... إلخ (2).

ونحن في غني عن التكلّم حول هذا السند؛ فإنّ الأمر فيه بيّن.

ثانياً: قد تقدّم الاختلاف في كون هند المتولّد من خديجة، هل هو ذكر أم أنثى، وأشرنا إلي اختلافهم في أبيه من هو فيما تقدّم؟

ثالثاً: إنّ الإمام الحسن نفسه قد رأي النبي (صلي الله عليه وآله) بنفسه وعاش معه عدّة سنوات، وقد بايعه وشهد له علي بعض عهوده، وخرج معه إلي مباهلة النجرانيين و... إلخ، فلماذا

ص: 468

1- انظر: التراتيب الإدارية: ج2 ص448 - 449 فما بعدها، ودلائل النبوة: ج2 ص286 ط دار الكتب العلمية.

2- التراتيب الإدارية: ص447.

يشتهي أن يصف هند من رسول الله شيئاً يتعلّق به؟ فهل هو قد نسي جدّه يا تري؟ وإذا كان قد نسي حقّاً، فلماذا لا يسأل أباه وهو أفصح العرب وأعلم الأُمّة، الذي ربّاه النبي (صلي الله عليه وآله) في حجره، وكان يعرف عنه كلّ شيء ممّا دقّ وجلّ؟ أم يعقل أن يكون هند مطلعاً علي أحوال النبي (صلي الله عليه وآله) أكثر من علي أمير

المؤمنين؟

علي أنّنا لم نجد فيما بين أيدينا من نصوص حتّي المكذوب منها ما يشير إلي أن هنداً كان يعيش مع رسول الله (صلي الله عليه وآله)، أو بالقرب منه، أو أنّه كان يحضر مجالسه أو نحو ذلك، رغم أنّنا نسمع الكثير عن غيره ممّن كانوا يأتون إلي مجلس النبي (صلي الله عليه وآله) بين حين وآخر.

رابعاً: لا ندري لماذا كتم الحسن أخاه هذا الأمر؟ مع أنّنا لا نعرف عنه أنّه كان يستأثر لنفسه علي أخيه في أمور كهذه.

خامساً: إنّ ما تقدّم كلّ يدفع هذا الحديث ويلقي عليه ظلالاً من الريبة والشكّ.

وسادساً: لا ندري، من هو ابن أبي هالة الراوي عن الإمام الحسن، فهل هو من أبناء خديجة أيضاً؟ فإن كان الجواب بالإيجاب، فلماذا لم يحدّثنا عنه التاريخ؟

وإن كان هو ابن لأبي هالة من امرأة أخرى غير خديجة، فهذا ما لم يذكره التاريخ لنا أيضاً، ولا أشارت إليه كتب الأنساب، ولا ذكر في عداد الرواة، ولا في كتب الرجال.

ص: 469

1. الإبانة عن أصول الديانة: أبو الحسن الأشعري (ت324هـ)، تحقيق: بشير محمد عيون، بيروت: مكتبة دار البيان، الطبعة الخامسة، 1424هـ .
2. الاستغاثة، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت352هـ)، طهران: مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى، 1373ش.
3. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبرّ النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ .
4. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجَزَري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
5. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن الحجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
6. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت279هـ)، إعداد: محمد باقر المحمودي، بيروت: دار المعارف، الطبعة الثالثة.
7. الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت395هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1407هـ .
8. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار:، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت1110هـ)، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1412هـ .

1. البدء والتاريخ، أحمد بن سهل البلخي (ت507هـ)، مكة: مكتبة الثقافة الدينية.
2. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت774هـ)، تحقيق: مكتبة المعارف، بيروت: مكتبة المعارف الطبعة الثالثة، 1408هـ.
3. بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الحضرمي (ت893هـ)، تحقيق: زكريا عمرات، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ.
4. تاريخ الإسلام للذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، 1409هـ.
5. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الحسين بن محمد الديار بكري (معاصر)، بيروت: مؤسسة شعبان.
6. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م.
7. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب العبّاسي، المعروف باليعقوبي (ت284هـ)، تحقيق ونشر: دار صادر، بيروت.
8. التبيين في أنساب القرشيين، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة (ت620هـ)، تحقيق: محمد نايف الدليمي، بيروت: عالم الكتب، 1408هـ.
9. التراتيب الإدارية، محمد عبد الحي الكناني الإدريسي الحسيني الفاسي، بيروت: شركة دار الأرقم.
10. تنقيح المقال في علم الرجال (رجال المامقاني)، عبد الله بن محمد حسن المامقاني (ت1351هـ)، قم: آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى، 1423هـ.
11. تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت671هـ)، بيروت: دار الفكر، 1416هـ.
12. تهذيب تاريخ دمشق الكبير، عبدالقادر بدران (ت1346هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، 1407هـ.

1. الثقات. أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ابن حبان) (ت354هـ)، تحقيق: عبد المعيد، حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، 1393هـ .
 2. الجمل والنصرة لسيد العترة في حرب البصرة، أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (الشيخ المفيد) (ت413هـ)، تحقيق: علي مير شريف، قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة الأولى، 1413هـ .
 3. الخرائج والجرائح، أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي (قطب الدين الراوندي) (ت573هـ)، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي، قم: مؤسسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، 1409هـ .
 4. الدرّ المنثور في التفسير المأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)، تحقيق: دار الفكر، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى، 1403هـ .
 5. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت458هـ) تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1405هـ .
 6. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، تحقيق: سليم النعيمي، قم: منشورات الرضي، الطبعة الأولى، 1415هـ .
 7. رجال المامقاني = تنقيح المقال في علم الرجال.
 8. الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي (ت581هـ)، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ .
 9. سير أعلام النبلاء، أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، 1414هـ .
 10. السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ .
- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفى، الطبعة الأولى، 1355هـ .

2. شذرات الذهب في أبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن عماد الحنبلي الدمشقي (ابن عماد) (ت1083هـ) تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ .
3. الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضي العاملي (معاصر)، بيروت: دار الهادي، الطبعة الرابعة، 1415هـ .
4. الطبقات الكبرى (الطبعة الخامسة من الصحابة)، محمد بن سعد الزهري (كاتب الواقدي) (ت230هـ)، تحقيق: محمد بن صامل السلمي، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ .
5. العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت328هـ)، تحقيق: أحمد أمين أحمد الزين وإبراهيم الأبياري، بيروت: دار الأندلس، الطبعة الأولى، 1408هـ .
6. قاموس الرجال، الشيخ محمد نقي بن كاظم التستري (ت1320هـ)، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1419هـ .
7. الكافي، أبو جعفر ثقة الإسلام محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت328هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري محمد الآخوندي، بيروت و طهران: دار صعب ودار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة والخامسة.
8. كتاب من لا يحضره الفقيه، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، 1404هـ .
9. الكشاف عن حقائق التنزيل: الزمخشيري (ت538هـ)، مصر، مطبعة البايي، 1385هـ .
10. كشف الغمّة، علي بن عيسى الإربلي (ت687هـ)، تصحيح: السيّد هاشم الرسولي، بيروت: دار الكتاب، 1401هـ .
11. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي (ت807هـ)، تحقيق: عبد الله محمد درويش، بيروت: دار الكتب العلمية، 1408هـ .
- المُحَبَّر، أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي (ت245هـ)، تحقيق: ايلزه
1. ليختن شتيتير، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، مطبعة الدائرة، 1361هـ .

2. مختصر تاريخ دمشق، محمد بن مكرم المصري الأنصاري (ابن منظور) (ت711هـ)، دمشق: دار الفكر الطبعة الأولى، 1404 و1408.
3. المستدرک علي الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت405هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411هـ.
4. مسند أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت241هـ)، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1414هـ.
5. مكارم الأخلاق، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق: علاء آل جعفر، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1414هـ.
6. مناقب آل أبي طالب (المناقب لابن شهر آشوب)، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ابن شهر آشوب) (ت588هـ) تحقيق: هاشم الرسولي المحلّاتي، قم: منشورات علامة.
7. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد القسطلاني (ت923هـ)، تحقيق: صالح أحمد الشامي، بيروت: المكتب الإسلامي، 1412هـ.
8. الميزان في تفسير القرآن (تفسير الميزان)، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت1402هـ)، قم: منشورات جماعة المدرّسين، طبع: مؤسسة إسماعيليان، الطبعة الثانية، 1394هـ.
9. نسب قريش، مصعب بن عبد الله الزبيري (ت236هـ)، تحقيق: بروفنسل، القاهرة: دار المعارف.
10. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت733هـ)، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الطبعة الأولى، 1395 و1396هـ.
11. نهج البلاغة، ما اختاره أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي (الشريف الرضي) (ت406هـ)، تحقيق: صبحي صالح، قم: منشورات هجرت، الطبعة الأولى، 1395هـ.
1. وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري (ت212هـ)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، قم: مكتبة آية الله المرعشي، الطبعة الثانية، 1382هـ.

* السفر الثاني للنبي إلى الشام وزواجه بخديجة (1)

محمد هادي اليوسفي الغروي

ملخص البحث:

يركز البحث الذي بين أيدينا علي موضوع السفر الثاني لرسول الله (صلي الله عليه وآله) إلى الشام لأجل التجارة بأموال خديجة، ويهتم ببيان طبيعة اتفاه التجاري مع هذه السيدة، وهل كان أجيراً لها؟ أم شريكاً؟ أم مُضارباً؟ ويستخلص من وراء ذلك كلاً من خلال التحليل التاريخي واللغوي أنّ النبي خرج إلى الشام في سفره الثاني لا بعنوان الأجير لها، بل كان مضارباً بأموالها، فالنبي لم يكن أجيراً لأحدٍ قط، وأمّا رعي الغنم فهو إن كان قد رعي الغنم لأحد من المكّيين كما ادّعي عن أبي هريرة؛ فهذا العمل لا يتنافي مع العبقريات والنبوّات، ولا يضع من شأن الإنسان مهما كان، بل هو من أفضل الطاعات إذا كان في سبيل العيال والأولاد. ولا يتردّد كاتب هذا البحث عن تكذيب مجموعة من النصوص التاريخية التي لا تخلو من إساءة إلى النبي (صلي الله عليه وآله) أو انتقاصٍ من شخصية أمّ المؤمنين السيدة خديجة. كما يطعن أيضاً في صحّة الكثير من الأخبار التي ذكرت عمر خديجة يوم زواج النبي بها، مؤكداً صحّة الأخبار التي نصّت علي أنّ عمرها كان ثمانية وثلاثين سنة. منهج هذا البحث مكتبي توثيقي، يسرد فيه الأخبار التاريخية ويضعها علي بساط النقد والتحليل.

ص: 475

روي القطب الراوندي في كتابه الخرائج والجرائح، عن جابر(1) أنه قال: «كان سبب تزويج خديجة محمّداً أنّ أبا طالب قال: يا محمّد: إنّي أريد أن أزوّجك، ولا مال لي أساعدك به، وإنّ خديجة قرابتنا، وتخرج كلّ سنة قريباً في مالها مع غلمانها، يتجر الرجل لها ويأخذ وقر بعير ممّا أتى به، فهل لك أن تخرج؟ قال: نعم. فخرج أبو طالب إليها وقال لها ذلك، ففرحت وقالت لغلامها ميسرة: أنت وهذا المال كلّه بحكم محمّد(صلي الله عليه وآله).

وربحا في ذلك السفر ربحاً كثيراً. فلمّا انصرفا قال ميسرة: لو تقدّمت يا محمّد إليّ مكّة وبشّرت خديجة بما قد ربحنا لكان أنفع لك. فتقدّم محمّد عليّ راحلته، وكانت خديجة في ذلك اليوم جالسة في غرفة لها مع نسوة، فظهر لها محمّد راكباً، ونظرت خديجة إليّ غمامة عالية عليّ رأسه تسير بسيره! فقالت: إنّ لهذا الراكب لشأناً عظيماً، ليته جاء إليّ داري! فإذا هو محمّد قاصد إليّ دارها، فنزلت حافية إليّ باب الدار، فلمّا رجع ميسرة حدّثت: أنّه ما مرّ بشجرة ولا مدرّة إلّا قالت: السلام عليك يا رسول الله، ولمّا رأيّ بغيرا الراهب الغمامة تسير عليّ رأسه حيثما سار تظّلّه النهار، خدمنا(2).

فقالت: يا محمّد، اخرج واحضرنى عمّك أبا طالب الساعة. ثمّ بعثت إليّ (ابن)(3) عمّها ورقة بن نوفل بن أسد: أن زوّجني من محمّد إذا دخل عليك. فلمّا حضر أبو طالب قالت: اخرج إليّ (ابن) عمّي ليزوّجني من محمّد، فقد قلت له في ذلك. فقاما ودخلا عليّ (ابن) عمّها، وخطبها أبو طالب منه(4).

الخطاب أبو طالب

وروي الكليني في فروع الكافي بسنده عن أبي عبد الله الصادق أنّه قال: «لمّا أراد رسول الله(صلي الله عليه وآله) أن يتزوّج خديجة بنت خويلد، أقبل أبو طالب في أهل بيته ومعه نفر من

ص: 476

- 1- . جابر الخزرجي من أنصار المدينة، فلم يكن حاضراً يومئذٍ، ولم يُسند خبره إليّ أحدٍ قبله، فهو مرسل.
- 2- . كذا، فهل كان بغيرا في السفرتين وبينهما 15 عاماً؟ وكذلك الغمام.
- 3- . فيه، وفي الكافي: ج 5 ص 375، والسيرة الحلبيّة: ج 1 ص 129 أنّ ورقة كان عمّ خديجة، وهو غير صحيح، لأنّ ورقة هو ابن نوفل بن أسد، وخديجة هي بنت خويلد بن أسد، فهما ابنا عمّ.
- 4- . الخرائج والجرائح: ج 1 ص 140 الحديث 227 بتصرّف، وعنه في بحار الأنوار: ج 16 ص 3 و 4.

قريش، حتّى دخل علي ورقة بن نوفل (ابن) عمّ خديجة، فابتدأ أبو طالب بالكلام فقال: الحمد لربّ هذا البيت، الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل، وأنزلنا حرماً آمناً، وجعلنا الحكّام علي الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه. ثمّ إنّ ابن أخي هذا يعني رسول الله لا يُوزن برجل من قريش إلا رجح، ولا يُقاس بأحد منهم إلا عظم عنه، ولا عدل له في الخلق، وإن كان مقلّاً في المال، فإنّ المال رُفد جار وظلّ زائل، وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، وقد جنّناك لنخطبها إليك برضاها وأمرها، والمهر عليّ في مالي الذي سألتموه، عاجله وآجله، وله وربّ هذا البيت حظّ عظيم ودين شائع ورأي كامل.

ثمّ سكت أبو طالب، فتكلّم ابن عمّها وتلجلج، وقصر عن جواب أبي طالب، وأدركه القطع والبهر، وكان رجلاً من القسّيسين (1)، فقالت خديجة مبتدئة: يا (ابن)

عمّاه، إنّك وإن كنت أولي بنفسي منّي في (الغياب)، فلست أولي بي من نفسي في الشهود. قد زوّجتك يا محمّد نفسي، والمهر عليّ في مالي، فأمر عمّك فلينحر ناقة فليولم بها، وادخل علي أهلك.

فقال أبو طالب: اشهدوا عليها بقبولها محمّداً وضمانها المهر في مالها. فقال بعض قريش: وا عجباه! المهر علي النساء للرجال؟! فغضب أبو طالب غضباً شديداً، وقام علي قدميه وقال: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأغلي الأثمان وأعظم

ص: 477

1- . وعليه، فلا يصحّ ما رواه في بحار الأنوار: ج16: ص19 عن الكازروني في كتابه المنتقي عن الواقدي، قال: «فلما أتمّ أبو طالب خطبته، تكلم ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضّنا علي ما عدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كلّ، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يردّ أحدٌ من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبتنا بالاتّصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأنّي قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبد الله علي أربعمئة دينار. ثمّ سكت ورقة، وتكلّم أبو طالب وقال: قد أحببتُ أن يُشركك عمّها، فقال عمّها: اشهدوا عليّ يا معاشر قريش أنّي قد أنكحتُ محمّد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد عليّ بذلك صناديد قريش. فأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويضربن بالدفوف، وقالت: يا محمّد، مر عمّك أبا طالب ينحر بكرة من بكراتك، وأطعم الناس علي الباب، وهلمّ فتم القيلولة مع أهلك».

المهر، وإذا كانوا أمثالكم لم يُزوّجوا إلا بالمهر الغالي!

ونحر أبو طالب ناقة، ودخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) بأهله» (1).

من تولي تزويج خديجة؟

وروي الصدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه مرسلًا: «أنه لما تزوّج النبي خديجة بنت خويلد، خطبها أبو طالب إلي أبيها ومن الناس من يقول إلي عمّها ثم روي الخطبة، ثم قال: فتزوّجها ودخل بها من الغد، فكان أول ما حملت ولدت عبد الله بن محمّد (صلي الله عليه وآله)» (2).

وروي ابن إسحاق في سيرته: «إنّ خديجة بنت خويلد عرضت علي رسول الله أن يخرج في مالها إلي الشام تاجرًا مع غلامها ميسرة، فقبل رسول الله، وخرج حتّي قدم الشام، فباع سلعته واشترى ما أراد، ثم أقبل قافلًا إلي مكّة ومعه ميسرة، فلما قدم مكّة علي خديجة، حدّثها ميسرة عن قول الراهب وعمّا كان يري من إضلال الملكين إيّاه.

فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به، بعثت إلي رسول الله فقالت له: يا بن عمّ، إنّي قد رغبت فيك؛ لقرابتك وسطّتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك. ثم عرضت عليه نفسها. فلما قالت ذلك لرسول الله، ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمّه حمزة بن عبد المطلب حتّي دخل علي خويلد بن أسد، فخطبها إليه، فتزوّجها» (3).

بل مرّ أنّ الذي نهض معه هو أبو طالب، وهو الذي خطب خطبة النكاح، وكان

ص: 478

1- . بحار الأنوار: ج 16: ص 13 و 14، عن فروع الكافي: ج 5 ص 374.

2- . بحار الأنوار عن كتاب من لا يحضره الفقيه: ج 3 ص 397 ح 4389، وروي الخطبة الطبرسي في إعلام الوري: ص 140، وابن شهر آشوب في المناقب: ج 1 ص 41 و 42 عن الجويني في السيرة عن الحسن والواقدي وأبي صالح والعتبي، وعن ابن بطّة في الإبانة، وعن الزمخشري في ربيع الأبرار وفي تفسيره، وعن الخرگوشي في شرف المصطفى، وروي الخطبة اليعقوبي في تاريخه عن عمّار بن ياسر: ج 2 ص 20، والأوائل: ج 1 ص 162، والسيرة الحلبية: ج 1 ص 139.

3- . سيرة ابن إسحاق: ج 1 ص 199 و 201، وليس في سيرة ابن هشام ما رواه الحلبي في سيرته: ج 1 ص 138 عن ابن إسحاق: «إنّ خديجة قالت له: يا محمّد، ألا- تزوّج؟ قال: من؟ قالت: أنا! قال: ومن لي بك؟ أنت أيم قريش وأنا يتيم قريش»، وتردّه الأخبار المعتمدة في الباب، سيّما ما في خطبة أبي طالب من نعت النبي وبني هاشم.

أسنّ من حمزة، وهو الذي كفل محمّداً، فلم يكن حمزة ليتزعم الأمر دون أبي طالب، وأبو طالب هو أخو عبد الله لأُمّه دون سائر إخوانه أبناء عبد المطلب، وحمزة لا يكبر النبي إلا بسنتين أو أربع.

وانفرد ابن إسحاق بأن خويلاً أبرم هذا الزواج، أما غير ابن إسحاق، فقد ذكروا أنّ خويلاً كان قد قُتل في حرب الفِجَار، أو مات في عامه (1)، وأنّ الذي زوّج خديجة ابن عمّها ورقة بن نوفل بن أسد كما مرّ، أو عمّها عمرو بن أسد (2)، أو أخوها عمرو بن خويلد بن أسد، كما في الروض الأنف وشرح المواهب.

خديجة تعرض نفسها علي النبي (صلي الله عليه و آله)

وجاء في رواية اليعقوبي عن عمّار بن ياسر ما يفيد أنّ خبر سفر النبي بأموال خديجة إلي الشام، وأنّ خديجة أحبّته، حيث حدّثها غلامها ميسرة بأخباره، وأنها بعثت إلي النبي (صلي الله عليه و آله) فعرضت نفسها عليه... كان هذا قد شاع في الناس يومذاك، فكانوا يقولون: إنّها استأجرته بشيء من أموالها، وكان عمّار بن ياسر يقول: «أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله خديجة بنت خويلد... أنّه ما كان ممّا يقول الناس أنّها استأجرته بشيء، ولا كان أجيراً لأحد قطّ... بل كنّا نمشي يوماً بين الصفا والمروة، إذ بخديجة بنت خويلد وأختها هالة، فلمّا رأته رسول الله جاءني هالة أختها فقالت: يا عمّار، ما لصاحبك حاجة في خديجة؟ قلت: والله ما أدري. فرجعتُ فذكرتُ ذلك له، فقال: ارجع فواضعها وعدّها يوماً نأيتها فيه، ففعلت.

ص: 479

1- . الخبر في طبقات ابن سعد: ج 1 ص 132 و 133 عن الواقدي، قال: «الثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم من حديث عروة بن الزبير عن عائشة، وعن عكرمة عن ابن عباس: أنّ عمّها عمرو بن أسد زوّجها رسول الله صلّي الله عليه [وآله] وسلّم، وأنّ أباه مات قبل الفِجَار». وذكره تاريخ الطبري: ج 2 ص 282، والكامل: ج 1 ص 25، ونقل أصل خبر وفاته في عام الفِجَار المجلسي في بحار الأنوار: ج 16 ص 19 عن الكازروني في المنتقى عن الواقدي أيضاً، وذكر الخبر اليعقوبي: ج 2 ص 20، وتاريخ الخميس: ج 1 ص 264، والسيرة الحلبية: ج 1 ص 38، وكشف الغمّة: ج 2 ص 139 عن كتاب معالم العترة النبوية للجنابذي الحنبلي عن ابن عباس أيضاً، وذكر الطبرسي مثل ابن إسحاق في إعلام الوري: ج 1 ص 274، ثمّ قال: «وقيل: زوّجها عمّها عمرو بن أسد...».

2- . المصادر السابقة.

فلَمَّا كان ذلك اليوم أرسلت إلي عمرو بن أسد (عمّها)، وطرحت عليه حبراً ودهنت لحيته بدهن أصفر... ثم جاء رسول الله في نفر من أعمامه، يتقدّمهم أبو طالب، فخطب أبو طالب فقال... ثم روي الخطبة المذكورة ثم قال: فتزوّجها وانصرف»(1).

هذا، ولم يرد لفظ الاستيجار فيما نعلم من الأخبار إلا في أخبار ثلاثة:

الأول: ما رواه الصدوق في إكمال الدين بسنده إلي بكر بن عبد الله الأشجعي عن آبائه: «أن رفاق رسول الله في سفره إلي الشام قالوا لأبي المويهب الراهب عنه: أنّه يتيم أبي طالب أجير خديجة»(2).

ورواه ابن شهر آشوب في المناقب(3).

الثاني: ما ساقه ابن شهر آشوب في المناقب أيضاً، قال: «كانت خديجة قد استأجرت النبي (صلي الله عليه وآله) علي أن تعطيه بكرين ويسير مع غلامها ميسرة إلي الشام»(4).

الثالث: ما رواه الدولابي الحنفي في الذرية الطاهرة بسنده عن الزهري، قال: «لَمَّا استوي رسول الله وبلغ أشده وليس له كثير مال استأجرته خديجة بنت خويلد إلي سوق حباشة؛ وهو سوق بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش. فقال رسول الله: ما رأيت من صاحبة لأجير خيراً من خديجة»(5). ورواه الطبري في تاريخه عن ابن سعد صاحب الطبقات بسنده عن الزهري أيضاً، لكنّه عقبه يقول: «قال محمّد بن سعد: قال الواقدي: فكلّ هذا مخلط»(6).

ص: 480

- 1- . تاريخ يعقوبي: ج 2 ص 20، البداية والنهاية: ص 29. ونقل الخبر محقق البحار المرحوم الرّبّاني الشيرازي بهامش البحار: ج 16 ص 19، وعلّق عليه يقول: «قلت: فيها غرابة وشذوذ، ولم يرد ذلك من طرق الإمامية، بل ورد من طريق لا يُعتمد عليه»؛ وذلك لأنّه يشتمل علي أنّ خديجة سقته ذلك اليوم، أي الخمر، فلَمَّا أصبح أنكر ثم أمضاه!
- 2- . كمال الدين: ص 186.
- 3- . مناقب آل أبي طالب: ج 1 ص 40.
- 4- . مناقب آل أبي طالب: ج 1 ص 41.
- 5- . الذرية الطاهرة: ص 49، ورواه الأربلي في كشف الغمّة: ج 2 ص 135 و 136 عن كتاب معالم العترة النبوية للجنازدي الحنبلي بسنده عن الزهري أيضاً، وذكر مثله الطبرسي في إعلام الوري: ج 1 ص 274.
- 6- . تاريخ الطبري: ج 3 ص 281 و 282.

هل كان النبي (صلي الله عليه وآله) أجيراً لخديجة أو مضارباً؟

ولئن كان ما افتتحنا به الفصل من خبر الخرائج عن جابر لا يعين نوع المعاملة وإنما يقول: «يتجر الرجل لها ويأخذ وقر بغير ممّا أتى به»، ممّا هو أعمّ من الإجارة والوكالة والمضاربة، فإنّ ما جاء في التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عن أبيه الهادي يصرّح بذلك، فيقول: «إنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) كان يسافر إلى الشام مضارباً لخديجة بنت خويلد»⁽¹⁾، وكذلك ابن إسحاق، يقول: «كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات مال وشرف، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه»⁽²⁾.

وعلي هذا، فقد يكون سفره إلى الشام لا لكونه أجيراً لخديجة، بل مضارباً بأموالها.

ومجمل القول: إنّ رواية اليعقوبي عن عمّار بن ياسر تنفي أن يكون النبي أجيراً لأحد حتّى خديجة، كما تنفي أن يكون قد رعي الغنم لأحد من المكّيين كما ادّعي عن أبي هريرة. والعمل لا- يتنافي مع العقرات والنبوّات، ولا يضع من شأن الإنسان مهما كان، بل هو من أفضل الطاعات إذا كان في سبيل العيال والأولاد وخير الناس، ولكن تاريخ محمّد منذ ولادته إلى أن بلغ سنّ الرجولة وأصبح زوجاً لخير امرأة عرفها تاريخ المرأة، ومواقف جدّه ثمّ عمّه

والمراحل التي عاش فيها معهما عزيزاً موفوراً الكرامة، لا يفارقهما في ليل أو نهار، يبذلان في سبيل راحته واطمئنانه الغالي والنفس، من تتبّع ذلك وأدرك أنّهما منذ طفولته كانا يترقّبان له مستقبلاً يهزّ العالم من أقصاه إلى أقصاه ويحدث تحوّلاً في تاريخ البشرية، وأنّهما كانا يخافان عليه دعاة الأديان وطواغيت العرب، لا بدّ وأن يقف علي أقلّ التقادير موقف المشكّك من تلك المرويّات التي تنصّ علي أنّه كان يرعي

ص: 481

- 1- . التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ص 16 كما في بحار الأنوار: ج 17 ص 308.
- 2- . سيرة ابن إسحاق: ج 1 ص 199، ورواه عنه الطبري: ج 2 ص 280، وعنه الجنازدي الحنبلي في معالم العترة النبوية كما في كشف الغمّة: ج 2 ص 134، وعدّّق المحقّق في سيرة ابن هشام يقول: «المضاربة المقارضة»، وقال الإمام الخميني في تحرير الوسيلة: ج 1 ص 608: «وتُسَمَّى المضاربة قراضاً، وهي عقد واقع بين شخصين علي أن يكون رأس المال في التجارة لأحدهما والعمل من الآخر، ولو حصل ربح يكون بينهما»، ولعلّ الأمر قد التبس علي المحقّق.

الغنم للمكّيين بالقراريط، ويذهب بعد ذلك أجيراً إلى الشام في تجارة خديجة بقسم من الأرباح، سيّما بعد رواية اليعقوبي عن عمّار بن ياسر أنّه لم يكن أجيراً لأحد من الناس، وأنّ زواجه من خديجة لم يكن مسبقاً بمعاملة بينهما، بل كان بناءً علي رغبتها بعد أن وجدت فيه الرجل الذي يمكن أن ترتاح إليه، وقد بلغت الأربعين وأشرف قريش يطمعون في زواجها بالطمع في ثرائها، أمّا محمّد بن عبد الله (صلي الله عليه وآله) فقد وجدت فيه حسب المعلومات التي توفّرت لديها عنه ضرباً آخر من الرجال لا تستغويه متعة الدنيا، فطلبتة إلى نفسها وأرسلت إليه من يشجّعه علي خطبتها من عمّها

أو ابن عمّها.

وليس بغريب علي المرأة الفاضلة كخديجة أن تطلب لنفسها محمّد بن عبد الله (صلي الله عليه وآله) وتفصّله علي سادة مكّة وأشرفها، فلقد كان في القمّة في صفاته التي لم يعرف العرب لها مثيلاً ماضيهم وحاضرهم. واجتهد خصومه أن يجدوا في حياته ولو نزوة تخدم تاريخه المجيد، أو مغمزة منه لنيل جاه أو اصطياذ ثروة أو انحراف، مع غرائز الشباب التي تثور وتتمرد أحياناً علي العقل والخلق والحكمة، فلم يجدوا شيئاً من ذلك. وكان قد جمع إلي ذلك من صباحة الوجه وجمال التركيب ما لم يتوفّر في أحد سواه كما وصفوه، فقد جاء في رواية عمرو بن شمر عن جابر أنّه قال: «قلت لأبي جعفر محمّد بن علي الباقر: صف لي رسول الله، قال: كان نبي الله أبيض الوجه مشرباً بحمرة، أدعج العينين، مقرون الحاجبين، شثن الأطراف كأنّ الذهب فرغ علي برائته، عظيم مشاشة المنكبين. إذا التفت التفت جميعاً من شدة استرساله. سرّبه سائلة من لبّته إلي سرّته كأنّها وسط الفضة المصفاة، وكأنّ عنقه إلي كاهله إبريق فضّة، يكاد أنفه إذا شرب الماء أن يردّ الماء، وإذا مشي تكفّ كأنّه ينزل من صيب، لم ير مثل نبي الله قبله ولا بعده» (1).

إذن، فليس بغريب إذا خطبته خديجة لنفسها، وظلّت تشاطره آلامه وتناصره بقلبها وعقلها ومالها، حتّي لحقت برّبها قبل هجرته إلي المدينة بسنة أو سنتين، عن خمسة وستين عاماً (2).

ص: 482

1- . الكافي: ج 1 ص 443.

2- . انظر: سيرة المصطفي: ص 62 و 63.

ولكن ليس معني هذا أن نصدّق ما نقله الحلبي في سيرته: «أنه دخل علي خديجة قبل

التزويج، فأخذت يده فضمّته إلي صدرها»(1) كما لا- نشكّ في كذب ما نقله: «أن عمّها كان يأنف من أن يزوّجها من محمّد يتيم أبي طالب فاحتالت عليه هي حتّي سقته الخمر، فزوّجها في حال سكره، فلمّا أفاق ووجد نفسه أمام الأمر الواقع لم يجد بداً من القبول»(2)، ممّا يتناقض وأخلاق الرسول الكريم وخديجة أمّ المؤمنين، ولا نراه إلّا كذباً موضوعاً لم يقصد به سوي الحطّ والوضع من كرامة النبي الكريم، وتنقيصه من قبل أعداء الإسلام أو الحمقي والمغفلين، ونعوذ باللّٰه من هذا الهراء(3).

وإنّ كون خديجة هي التي عرضت نفسها علي النبي، وإنّ لم يكن هو الذي تقدّم بطلب يدها، لخير جواب لما جاء في كلمات بعض المستشرقين من اتّهام باطل بأنّه إنّما تزوّج خديجة طمعاً في مالها.

ولم يبق هذا التقدير والحبّ من خديجة للنبي من طرف واحد، بل قابله النبي بالحبّ والتقدير لها في أيام حياتها وبعد مماتها، حتّي لقد كان ذلك يثير بعض أزواجه. ويرى الشيخ آل ياسين هذا دليلاً آخر علي بطلان هذه الدعوي الواهية(4).

بل إنّ حياة النبي من بدايتها إلي نهايتها لخير شاهد علي أنّه ما كان يقيم للمال أيّ وزن، وقد أنفقت خديجة أموالها برغبتها في سبيل اللّٰه والدعوة إلي دينه، وليس علي النبي وملذّاته، وهكذا تفعل الحرّة العاقلة اللبيرة كما فعلت خديجة، فلا تغرّها بهرجة الدنيا وزخرفها وزبرجها، ولا تبحث عن المال والشهرة، ولا عن اللذّة والشهوة، وإنّما يكون نظرها إلي الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة؛ لأنّها هي التي تسخر المال والجاه والقوّة في سبيل الإنسانيّة(5).

ص: 483

1- . السيرة الحلبيّة: ج 1 ص 140.

2- . السيرة الحلبيّة: ص 138 - 140.

3- . انظر: الصحيح من سيرة النبي للسيد المرتضي: ج 1 ص 117 - 119.

4- . كتاب النبوة: ص 63.

5- . انظر: الصحيح من سيرة النبي للسيد المرتضي: ج 1 ص 119 و 120.

دوافع زواج النبي (صلي الله عليه وآله)

والمادّيون الذين ينظرون إلي كلّ شيء من ناحية المال والمادّة، يزعمون أنّ خديجة بما أنّها كانت ذات مال تتاجر به، كانت أحوج ما تكون إلي رجل أمين لإدارة أمور تجارتها، لذلك اندفعت للزواج بمحمّد الصادق الأمين، وكان النبي (صلي الله عليه وآله) يعلم بوضعها المالي وحياتها الكريمة، لذلك قبل خطوبتها مع ما بينهما من تفاوت العمر! إلا أنّ الذي نراه في التاريخ هو أنّ دوافع خديجة للزواج بالصادق الأمين كانت دوافع معنوية لا مادّية، والشاهد لذلك:

1. ما رواه ابن إسحاق، قال: «وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد ابن عمّها ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان يري منه إذ كان الملكان يظّلانه، وكان ورقة نصرانياً قد تتبّع الكتب وعلم من علم الناس، فقال لها: لئن كان هذا حقّاً يا خديجة، فإنّ محمّداً لنبيّ هذه الأمة، وقد عرفت أنّه كائن لهذه الأمة نبيّ يُنتظر، هذا زمانه» (1).

2. إنّ سبقها إلي الإيمان بالإسلام ورسالة رسول الله (صلي الله عليه وآله) بحيث كانت أول امرأة آمنت به، لما يشهد في صفحات التاريخ بأنّ زواجها كان منبعثاً من إيمانها وبطهارة الصادق الأمين، وأنّ حياة خديجة وما ورد بشأنها من الروايات والأحاديث، لما يوضّح هذا الموضوع بما لا يدع فيه أيّ شبهة، علي من أراد التفصيل في ذلك أن يراجع الروايات الواردة في فضلها وفضيلتها.

عمر خديجة ومهرها

روي الدولابي في كتابه: الذرّيّة الطاهرة بسنده عن عمّار بن أبي عمّار، عن ابن عبّاس: «... ثمّ قال: وبلغني أنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) تزوّج خديجة علي اثنتي عشرة أوقية ذهباً، وهي يومئذٍ ابنة ثمان وعشرين سنة» (2).

ص: 484

- 1- . سيرة ابن إسحاق: ج 1 ص 203.
- 2- . الذرّيّة الطاهرة: ص 52 وعنه في كشف الغمّة: ج 2 ص 139. وروي الصّفّار عن حمّاد بن عيسى، قال: «سمعت أبا عبد الله يقول:» قال أبي: ما تزوّج رسول الله شيئاً من بناته، ولا تزوّج شيئاً من نسائه علي أكثر من اثنتي عشرة $\tilde{N} \emptyset$ أوقية ونشّ؛ يعني نصف أوقية» (بحار الأنوار: ج 22: ص 197 و 198 عن قرب الإسناد: ص 10). وروي الخبر الكليني بسنده عنه، قال: «سمعت يقول: قال أبي: ما تزوّج رسول الله سائر بناته ولا تزوّج شيئاً من نسائه علي أكثر من اثنتي عشرة أوقية ونشّ، والأوقية: أربعون درهماً، والنشّ: عشرون درهماً، وهو نصف الأوقية». وروي بسنده عن معاوية بن وهب، قال: «سمعت أبا عبد الله يقول: ساق رسول الله إلي أزواجه اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، والأوقية: أربعون درهماً، والنشّ: نصف الأوقية: عشرون درهماً، فكان ذلك خمسمائة درهم. قلت: بوزننا؟ قال: نعم». وروي بسنده عن أبي العبّاس، قال: «سألت أبا عبد الله عن الصّدّاق: هل له وقت (يعني الحدّ للمهر)؟ قال: لا. ثمّ قال: كان صدّاق النبي اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، والنشّ: نصف الأوقية، والأوقية: أربعون درهماً، فذلك خمسمائة درهم» (بحار الأنوار: ج 22: ص 205 و 206 عن فروع الكافي: ج 2 ص 20). وروي الصّدوق بسنده عن الصادق، قال: «ما تزوّج رسول الله شيئاً من نسائه ولا تزوّج شيئاً من بناته، علي أكثر من اثنتي عشرة أوقية ونشّ، والأوقية: أربعون درهماً، والنشّ: عشرون درهماً» (بحار الأنوار: ج 22 ص 198 عن معاني الأخبار: ص 64 و 65). وكذلك ذكر المهر الطبرسي في إعلام الوري: ص 140 مرسلًا، وابن شهر آشوب في المناقب: ج 1 ص 161 عن تاج التراجم. ويبدو من لحن هذه الأخبار أنّها ناظرة إلي ردّ ما كان يُروي بغير هذا المعني في مبلغ صدّاق أزواج النبي، ولا سيّما خديجة (عليها السلام).

ونقل ذلك عنه الإربلي في كشف الغمّة بواسطة كتاب الجنابذي(1)، ثمّ نقل عن الجنابذي قوله: «عن ابن عبّاس: أنّه تزوّجها وهي ابنة ثمان وعشرين سنة»(2)، ولم يسنده إليّ أيّ سند، وما في كتاب الدولابي ليس كذلك، بل روي خبراً عن عمّار بن أبي عمّار، عن ابن عبّاس فيما يحسب ابن حمّاد (كما في الكتاب) في تزويج خديجة بمباشرة أبيها ووليّمتها لذلك. ثمّ قال: «وبلغني...» وذكر مهرها وعمرها كما مرّ. والظاهر أنّ القائل: «وبلغني» هو ابن حمّاد الدولابي كما فهم كذلك الأربلي ولا ابن عبّاس، ولكن خلط ابن الخشّاب الجنابذي، فنبذ الفهم والنقل الصحيح، فنسب ذلك إليّ ابن عبّاس عليّ غير أساس، واللّه هو العاصم من الخطأ في القياس والمقياس، ومن وساوس الخنّاس في صدور الناس.

وعليّ هذا، فينحصر الخبر بكون عمر خديجة عند زواجها بالرسول في الثامنة والعشرين، في مرفوعة الدولابي فحسب، ومن دون أن تصحّ نسبة ذلك إليّ ابن عبّاس.

ص: 485

1- . كشف الغمّة: ج2 ص 137.

2- . كشف الغمّة: ج2 ص 139.

أمّا الخبير المشتهر عن كونها في الأربعين من عمرها، فاليعقوبي لم يصرّح بذلك، ولكنّه ذكر في وفاتها أنّها توفّيت «ولها خمس وستون سنة»(1)، وهذا يقتضي أن يكون عمرها حين زواجها حسب المشهور أربعين سنة. أمّا الطبري فقد نقل عن الكلبي قوله: «وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة»(2)، والمسعودي في مروج الذهب قال: «وهي يومئذ بنت أربعين»، وفي التنبيه والإشراف: «أنّها توفّيت ولها خمس وستون سنة»(3). ونقل سبط ابن الجوزي عن الواقدي قوله: «توفّيت وهي بنت خمس وستين سنة»(4) والأربلي في كشف الغمّة نقل عن معالم العترة النبوية للجنازدي عن ابن سعد صاحب الطبقات، يرفعه إلى حكيم بن حزام، قال: «توفّيت خديجة في شهر رمضان سنة عشر من النبوة، وهي ابنة خمس وستين»(5)، فيكون عمرها في زواجها أربعين سنة. والكاذروني قال: «فتزوّجها وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة»(6).

ومعني كلّ هذا أنّ المؤرّخين القدامى كالكلبي والواقدي وكاتبه ابن سعد واليعقوبي متفقون على المشهور في سنّ خديجة في زواجها؛ أي الأربعين، وإن كان الإسناد الوحيد ينحصر في حكيم بن حزام، إذ يذكر تاريخ وفاتها(عليها السلام)، وهي عمّته، إذ هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، فهو أعلم بها، ولا يعارضه شيء اللهمّ إلا ما انفرد به ابن حمّاد الدولابي بقوله: «وبلغني...» من غير إسناد، فلا يصحّ اعتماده.

هل كانت خديجة متزوّجة؟

قال ابن هشام: «وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك... فولدت له هند بن أبي هالة، وزينب بنت أبي هالة. وكانت قبل أبي هالة عند عتيق ابن عابد المنخزومي، فولدت له

ص: 486

1- . تاريخ اليعقوبي: ج2 ص35.

2- . تاريخ الطبري: ج3 ص280.

3- . مروج الذهب: ج2 ص287، التنبيه والإشراف: ص199 - 200.

4- . تذكرة الخواصّ: ص304.

5- . كشف الغمّة: ج2 ص139.

6- . بحار الأنوار: ج16 ص19.

عبد الله، وجارية تزوجها صيفي بن أبي رفاعة»(1).

أما الطبري فقد روي عن الكلبي عن أبيه قال: «وكانت قبله عند عتيق بن عابد المخزومي... فولدت لعتيق جارية، ثم توفي عنها، وخلف عليها أبو هالة بن زرارة بن تباش... ثم توفي عنها فخلف عليها رسول الله وعندها هند بن أبي هالة»(2).

وروي الدولابي في الذرية الطاهرة بذلك أخباراً ثلاثة عن الزهري ومحمد بن إسحاق وقتادة بن دعامة، وروي رابعاً عن الليث بن سعد، فعكس فذكر أبا هالة ثم عتيق(3) فهو مردود، وخبر قتادة نقله الأربلي في كتابه(4).

وقال ابن شهر آشوب في كتابه المناقب في ترتيب أزواجه: «تزوج بمكة أولاً خديجة بنت خويلد. قالوا: وكانت عند عتيق بن عائذ المخزومي، ثم عند أبي هالة زرارة بن تباش الأسدي»(5).

وروي أحمد البلاذري وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضي في الشافي وأبو جعفر في تلخيص الشافي: «أن النبي تزوج بها وكانت عذراء. يؤكد ذلك ما ذكر في كتابي الأنوار والبدع: أن رقية وزينب كانتا ابنتي هالة أخت خديجة»(6)!

ص: 487

- 1- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 4 ص 293.
- 2- . تاريخ الطبري: ج 3 ص 161، أعلام الوري: ج 1 ص 274.
- 3- . الذرية الطاهرة: ص 45 - 47.
- 4- . كشف الغمة: ج 2 ص 138 - 139.
- 5- . مناقب آل أبي طالب: ج 1 ص 159.
- 6- . المناقب: ج 1 ص 159. والظاهر أنه يقصد بكتاب الأنوار: كتاب الأنوار ومفتاح السرور والأفكار لأبي الحسن البكري المتقدم الذكر سابقاً، وهو مخطوط سرد عنه المجلسي قصة زواجه من صفحة 20 إلى 77 ج 16، ثم قال: «إنما أوردت تلك الحكاية لاشتمالها علي بعض المعجزات والغرائب، وإن لم نثق بجميع ما اشتملت عليه؛ لعدم الاعتماد علي سندها كما أوامنا إليه، وإن كان مؤلفه من الأفاضل والأماثل». يقول ذلك لأنه التبس عليه ببكري آخر هو من مشايخ الشيخ الشهيد، كما قال قبل هذا، وعلق عليه المحقق الرباني الشيرازي بأن هذا البكري ليس هو البكري من مشايخ الشيخ الشهيد، بل هو متقدم عليه وعلي ابن تيمية المتوفي 728هـ، ومعروف بالكذب. وقد حكي هو أيضاً: أنها كانت قد تزوجت قبله برجلين، أحدهما عمرو الكندي، والثاني عتيق بن عائذ (بحار الأنوار: ج 16 ص 22). وكتاب البدع هو كتاب أبي القاسم الكوفي المذكور قبل ذلك، وهو الاستغاثة في بدع الثلاثة، وقال فيه: $\tilde{\emptyset}$ «إن الإجماع من الخاص والعام من أهل الآثار ونقله الأخبار، علي أنه لم يبق من أشرف قريش ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم إلا من خطب خديجة ورام تزويجها، فامتنعت علي جميعهم من ذلك، فكيف يجوز في نظر أهل الفهم أن تكون خديجة يتزوجها أعرابي من تميم، وتمتتع من سادات قريش وأشرفها؟! ألا يعلم ذوو التمييز والنظر أنه من أئين المحال وأقطع المقال؟» (ص 70). ولإجماع فيما نعلم من أهل الآثار ونقله الأخبار من الخاص والعام علي خطبة خديجة من قبل جميع أشرف قريش، اللهم إلا ما انفرد بحكايته البكري المذكور آنفاً فيما حكاها مما هو أشبه بقصص العامة من التاريخ المسند والخبر المعبر، قال: «فلما ماتا خطبها عقبة بن أبي معيط والصلت بن أبي مهاب، ولكل منهما أربعمائة عبد وأمة، وخطبها أبو جهل بن هشام وأبو سفيان، وخديجة لا ترغب في واحد منهم» (بحار الأنوار: ج 1 ص 22). وأما تلخيص الشافي، فلا يبقى إلا هو، والظاهر أنه أخذه من كتاب أبي القاسم الكوفي، وقد عرفت حاله ومستنده.

أما الطبرسي فقد ذكر الخبر بلا خلاف فيه(1)، ونقله عنه المجلسي في البحار كذلك أيضاً(2).

أولاد خديجة من النبي(صلي الله عليه وآله)

روي الصفار بسنده عن الإمام الباقر، قال: «وُلد لرسول الله(صلي الله عليه وآله) من خديجة: القاسم، والظاهر، وأم كلثوم، ورقية، وزينب، وفاطمة»(3).

وروي الصدوق بسنده عن الصادق، قال: «وُلد لرسول الله(صلي الله عليه وآله) من خديجة: القاسم،

ص: 488

- 1- . إعلام الوري: ج 1 ص 274.
- 2- . بحار الأنوار: ج 22 ص 220، وعكس في الاستيعاب وفي شرح المواهب، فقالوا: كانت تحت أبي هالة بن زرارة التميمي (لا التيمي)، ومات أبو هالة في الجاهلية، وقد ولدت له هنداً، فهو أخو فاطمة بنت خديجة، وكان هند فصيحاً بليغاً وصافاً، فروي عنه الحسن حديث صفة النبي، قال: حدّثني خالي هند بن أبي هالة(*) . وقد شهد بدرًا، وقيل: أحداً، وقُتل مع علي يوم الجمل. وولدت خديجة لأبي هالة أيضاً هالة بن أبي هالة، وبعد تزوّجها عتيق بن عابد (كذا) المخزومي، فولدت له هنداً بنت عتيق، وقد أسلمت وصحبت (راجع ترجمة خديجة في الاستيعاب). -----* . روي الحديث الشيخ الصدوق في معاني الأخبار: ص 79 الحيدري، والشيخ الطبرسي في مكارم الأخلاق: ص 7، وابن الأثير في أسد الغابة: ج 5 ص 72 ط إسماعيليان، وراجع: نسب قريش لمصعب الزبيري: ص 22، وأسّد الغابة: ج 5 ص 12 و 13 و 71، والإصابة: ج 3 ص 611 - 612، والسيرة الحلبية: ج 1 ص 140. فمن الصعب جدّاً دعوي ابن شهر آشوب بكارتها وإنكار زوجها السابقين وأولادها منهم بما يتضمّن ذلك من خبر الحسن المجتبي عن خاله هند في صفة النبي، ثمّ ما الداعي إلي ذلك؟
- 3- . قرب الإسناد: ص 27. والصواب تقديم زينب علي فاطمة طبقاً للخبر التالي (انظر وقارن: خاتمة قاموس الرجال: ج 12 ص 76 - 77).

والطاهر وهو عبد الله وأمّ كلثوم، ورقية، وزينب، وفاطمة»(1).

وقال الكليني: «وُلد له منها قبل مبعثه: القاسم، ورقية، وزينب وأمّ كلثوم، ووُلد له بعد المبعث: الطيّب، والطاهر، وفاطمة». وروي أيضاً: «أنّه لم يولد بعد المبعث إلا فاطمة(عليها السلام)، وأنّ الطيّب والطاهر وُلدا قبل مبعثه»(2).

وقال الشيخ الطبرسي: «فأول ما حملت ولدت عبد الله بن محمّد وهو الطيّب (الطاهر)، والناس يغلطون فيقولون: ولد له منها أربعة بنين: القاسم، وعبد الله، والطيّب، والطاهر، وإثما وُلد له منها ابنان، الثاني: القاسم، وقيل: إنّ القاسم أكبر، وهو بكره، وبه كان يُكنى. وأربع بنات: زينب، ورقية وأمّ كلثوم، وفاطمة»(3).

وقال ابن شهر آشوب: «أولاده: وله من خديجة: القاسم وعبد الله، وهما الطاهر والطيّب، وأربع بنات: زينب، ورقية وأمّ كلثوم، وفاطمة... وفي الأنوار والكشف و

اللمع وكتاب البلاذري: أنّ زينب ورقية كانتا ربيبتيه من جحش، فأما القاسم والطيّب فماتا بمكة صغيرين، مكث القاسم سبع ليال»(4).

وروي المجلسي عن الكازروني عن ابن عباس، قال: «أول من وُلد لرسول الله بمكة قبل النبوة القاسم، وبه كان يُكنى، ثم وُلد له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أمّ كلثوم، ثم وُلد له في الإسلام عبد الله، فسُمّي الطيّب والطاهر. وأمّهم جميعاً خديجة بنت خويلد. وكان أول من مات من وُلده القاسم ثم مات عبد الله بمكة، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده، فهو أتر، فأنزل الله تعالى: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)»(5).

وقيل: «إنّ الذكور من أولاده ثلاثة، والبنات أربع، أولهنّ زينب، ثمّ القاسم، ثمّ أمّ

ص: 489

- 1- المصدر عن الخصال: ص 404 الحديث 115، وروي فيه الحديث 116 بسنده عن الصادق عن رسول الله، في خبر قال: «وإنّ خديجة رحمها الله ولدت منّي طاهراً وهو عبد الله وهو المطهر، وولدت منّي القاسم وفاطمة ورقية وأمّ كلثوم وزينب».
- 2- أصول الكافي: ج 1 ص 439 - 440.
- 3- إعلام الوري: ج 1 ص 275.
- 4- مناقب آل أبي طالب: ج 1 ص 161 - 162.
- 5- الكوثر: 4. والخبر في بحار الأنوار: ج 22 ص 166 عن المنتقى للكازروني.

كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، ثم عبد الله وهو الطيب والطاهر»(1). وقال ابن إسحاق: «ولدت لرسول الله ولده: القاسم وبه كان يُكنّى والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة؛ فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن».

وقال ابن هشام: «أكبر بنيه القاسم، ثم الطيب، ثم الطاهر، وأكبر بناته رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة»(2). وقال اليعقوبي: «ولدت له قبل أن يُبعث: القاسم، ورقية، وزينب، وأم كلثوم، وبعدهما بُعث: عبد الله وهو الطيب والطاهر؛ لأنه وُلد في الإسلام، وفاطمة»(3).

روي الطبري عن هشام الكلبي عن أبيه، قال: «فولدت لرسول الله ثمانية: القاسم

والطيب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة»(4).

وقال المسعودي: «وُلد له من خديجة القاسم، وبه كان يُكنّى وكان أكبر بنيه سنّاً، ورقية، وأم كلثوم، ووُلد له بعد ما بُعث: عبد الله، وهو الطيب والطاهر؛ لأنه وُلد في الإسلام، وفاطمة»(5).

وعلق المحقق علي قول ابن إسحاق بموت القاسم قبل الإسلام، يقول: «في موت القاسم في الجاهلية خلاف، فقد ذكر السهيلي في الروض الأنف عن الزبير: إن القاسم مات رضيعاً، وإن رسول الله صَلَّى الله عليه [وآله] وسلّم دخل علي خديجة بعد موت القاسم وهي تبكي، فقالت: يا رسول الله، لقد دَرَّتْ لُبَيْنة القاسم، فلو كان عاش حتّي يستكمل رضاعه لهوّن عليّ! فقال: إن شئتِ أسمعك صوتَه في الجنة؟ فقالت: بل أُصدّق

ص: 490

- 1- . بحار الأنوار: ج 22 ص 166 (عن المنتقي في مولد المصطفى)، الباب الثامن، فيما كان سنة خمس وعشرين من مولده.
- 2- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 202.
- 3- . تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 20.
- 4- . تاريخ الطبري: ج 3 ص 161.
- 5- . مروج الذهب: ج 2 ص 291.

اللّه ورسوله. ثم قال: وفي هذا دليل علي أنّ القاسم لم يهلك في الجاهلية»(1).

وروي الكليني في فروع الكافي بسنده عن عمرو بن شمر عن جابر عن الإمام الباقر، قال: «دخل رسول الله علي خديجة حين مات القاسم ابنها وهي تبكي، فقال لها: ما يُبكيك؟ فقالت: درّت دُريرةً فبكيت، فقال: يا خديجة، أما ترضين إذا كان يوم القيامة أن تجيئي إلي باب الجنّة وهو قائم فيأخذ بيدك فيدخلك الجنّة ويُنزلك أفضلها؟ وذلك لكلّ مؤمن، إنّ الله أحكم وأكرم أن يسلب المؤمن ثمرة فؤاده ثمّ يُعذّبه بعدها أبداً»(2).

وقد روي الكليني في فروع الكافي بسندٍ آخر عن عمرو بن شمر عن جابر عن الإمام الباقر أيضاً، قال: «توفي طاهر ابن رسول الله(صلي الله عليه وآله)، فنهى رسول الله خديجة عن البكاء، فدخل عليها وهي تبكي، فقال لها: ما يُبكيك؟ ألم أتّهِك؟!

فقالت: بلي يا رسول الله، ولكن درّت عليه الدريرة فبكيت، فقال لها: أما ترضين أن تجديه قائماً علي باب الجنّة، فإذا رأيك أخذ بيدك فأدخلك أطهرها مكاناً وأطيبها؟ قالت: وإنّ ذلك كذلك؟ قال: فإنّ الله أعزّ وأكرم من أن يسلب عبداً ثمرة فؤاده فيصبر ويحتسب ويحمد الله ثمّ يُعذّبه»(3).

فهذا هو الصحيح الراجح وأحتمل أنّه وقع سهو من أحد الرواة للخبر في الطريق السابق، فأخطأ اسم الطاهر والتبس عليه بالقاسم. وأمّا خبر «الروض...» عن الزبير، فهي مرسلّة لا أظنّها إلاّ مسروقة عن خبر عمرو بن شمر عن جابر بالطريق الذي وقع فيه الخطأ والالتباس.

وعليه، فالذي كانت تبكيه خديجة ويدرّ عليه درّها هو عبد الله الطيّب الطاهر، وليس القاسم، ذلك لما يأتي في نزول سورة الكوثر عن الحسن والباقر والصادق: أنّ القاسم كان قد درج يمشي بل كان يركب الإبل، فلعلّه كان موتهما كليهما بعد البعثة،

ص: 491

1- . هامش السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 202 عن الروض الأنف.

2- . بحار الأنوار: ج 16 ص 16 - 19 عن فروع الكافي: ج 1 ص 59.

3- . بحار الأنوار: ج 16 ص 16، عن فروع الكافي: ج 1 ص 60.

1 - . خلافاً لهيكل في كتابه، إذ قال: «أما القاسم وعبد الله، فلم يُعرف عنهما إلا أنّهما ماتا طفلين في الجاهلية لم يتركا أثراً يبقى أو يُذكر، لكنّهما من غير شكّ قد ترك موتهما في نفس أبيهما ما يتركه موت الابن من أثر عميق، وترك موتهما من غير شكّ في نفس خديجة ما جرح أُمومتها جرحين دامين، وهي لا ريب وقد اتّجهت عند موت كلّ واحد منهما في الجاهلية إلى آلهتها الأصنام تسألها: ما بالها لم تشملها برحمتها وبرّها» (حياة محمّد: ص128). ولا ريب في بطلان ظنونه، فلا مستند لزعمه هذا، وليس إلاّ حدساً ناشئاً من قياس خديجة بسائر نساء قريش. ونحن إذ تبيّنا أنّ دوافع زواجها برسول الله إنّما كانت دوافع معنوية؛ وذلك لأنّها كانت قد سمعت من ابن عمّها ورقة بن نوفل النصراني وغلماها ميسرة عن الراهب النصراني أنّ محمّداً نبيّ آخر الزمان، فتزوّجت به لذلك، وأضفنا إلى ذلك كراهته للأصنام، حتّى أنّه حينما أقسم عليه بـبحيرا الراهب بالأوثان، قال: إنّها أبغض خلق الله إليه... فلا يمكنّا مع ذلك أن نقول: إنّها كانت تلجأ في موت أولادها إلى الأصنام وهنّ أبغض خلق الله إليّ حبيها محمّد. ولا يفوتنا هنا أن ننوّه إلى أنّ القسطلاني قال: «قيل: وُلد له ولد قبل المبعث يقال له عبد مناف، ومع هذا يكون أولاده اثني عشر كلّهم وُلدوا في الإسلام سوي هذا» (المواهب اللدنية: ج1 196). والظاهر أنّ مستنده ما نقله المقدسي عن قتادة، قال: «ولدت خديجة لرسول الله عبد مناف في الجاهلية، وولدت له في الإسلام غلامين وأربع بنات: القاسم، وبه كان يُكنّى: أبا القاسم، فعاش حتّى مشي ثمّ مات، وعبد الله مات صغيراً، وأمّ كلثوم، وزينب، ورقية، وفاطمة» (البدء والتاريخ: ج4 ص139 وج5 ص16). وقول قتادة هذا شاذّ يتنافي مع كلّ ما تقدّم عن غيره، وهو كثير مستفيض مشهور، كما مرّ، ويشبه هذا في الشذوذ ما ذهب إليه أبو القاسم الكوفي، إذ قال: «كانت لخديجة أخت اسمها هالة، تزوّجها رجل مخزومي فولدت له بنتاً اسمها هالة، ثمّ خلف عليها رجل تميمي يقال له أبو هند، فأولدها ولداً اسمه هند، وكان لهذا التميمي امرأة أُخري قد ولدت له زينب ورقية، فماتت ومات التميمي، فلحق ولده هند بقومه، وبقيت هالة أخت خديجة والطفلتان من التميمي وزوجته الأُخري، فضمّتهم خديجة إليها. وبعد أن تزوّجت بالرسول ماتت هالة فبقيت الطفلتان في حجر خديجة والرسول، وكان العرب يزعمون أنّ الربيبة بنت فنسبتها إليه، مع أنّهما ابنتا أبي هند زوج أختها» (الاستغاثة: ص68). وروي الحافظ عبد الرزّاق في مصنّفه عن عمر بن دينار عن الحسن بن محمّد بن علي، قال: «إنّ أبا العاص بن الربيع كان زوجاً لبنت خديجة» (المصنّف: ج5 ص224). وقال مغلطي في سيرته: «وخلف عليها (خديجة) أبو هالة النباش بن زرارة، فولدت له هنداً والحرث وزينب» (سيرة مغلطي: ص12). فعليّ الأوّل تكون زينب ورقية من ضرّة هالة أخت خديجة، وعليّ الثاني والثالث تكون زينب بنت خديجة من زوجها السابق أو الأسبق. ولكن لا مجال لهذه الأقوال بعد تصريح نصّ الخبرين المعترين للصفّار والصدوق المسندين إلى الإمامين الباقر والصادق: «وُلد لرسول الله من خديجة»، وفيهم رقية وزينب، وليست العبارة نسبة الأبوة أو البنوة لتُحمل عليّ عادة العرب في نسبة الرائب، فنحتمل صدق مقال صاحب الاستغاثة: «كان العرب يزعمون أنّ الربيبة بنت، فنُسبتا إليه».

1. الإبانة عن أصول الديانة: أبو الحسن الأشعري (ت324هـ)، تحقيق: بشير محمد عيون، بيروت: مكتبة دار البيان، الطبعة الخامسة، 1424هـ.
2. الاستغائة، أبو القاسم علي بن أحمد الكوفي (ت352هـ)، طهران: مؤسسه الأعلمي، الطبعة الأولى، 1373ش.
3. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمد الجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ.
4. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ.
5. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن الحجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ.
6. أصول الكافي، أبو جعفر ثقة الإسلام محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت328هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري محمد الآخوندي، بيروت و طهران: دار صعب ودار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة والخامسة.
7. إعلام الوري بأعلام الهدي، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق: مؤسسه آل البيت، قم: مؤسسه آل البيت، الطبعة الأولى، 1417هـ.
8. الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت395هـ)، بيروت: دار الكتب

1. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار:، محمّد باقر بن محمّد تقي المجلسي (ت1110هـ)، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1412 هـ .
2. البدء والتاريخ، أحمد بن سهل البلخي (ت507هـ)، مكة: مكتبة الثقافة الدينية.
3. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت774هـ)، تحقيق: مكتبة المعارف بيروت: مكتبة المعارف الطبعة الثالثة، 1408 هـ .
4. البدع، أبو عبدالله محمّد بن وضّاح القرطبي (ت287هـ)، تحقيق: عمرو بن عبدالمنعم سليم، الرياض: مكتبة ابن تيمية، 1423 هـ .
5. تاج التراجم، أبو الفداء قاسم بن قطلوبغا (ت879هـ)، تحقيق: محمّد خير رمضان يوسف، دمشق: دار القلم، 1413 هـ .
6. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الحسين بن محمّد الديار بكرى (معاصر)، بيروت: مؤسّسة شعبان.
7. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968 م .
8. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المعروف باليعقوبي (ت284هـ)، بيروت: دار صادر.
9. تحرير الوسيلة، السيّد روح الله الموسوي الخميني (ت1406هـ)، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، 1405 هـ .
10. تذكرة الخواصّ (تذكرة خواصّ الأئمة في خصائص الأئمة:)، يوسف بن فرغلي بن عبدالله، المعروف بسبط ابن الجوزي (ت654هـ)، تقديم: السيّد محمّد صادق بحر العلوم، طهران: مكتبة نينوي الحديثة.
11. التفسير المنسوب إلي الإمام العسكري، تحقيق: مؤسّسة الإمام المهدي، قم: مؤسّسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، 1409 هـ .

تلخيص الشافي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (الشيخ الطوسي) (ت460هـ)،

1. تحقيق: السيد حسين بحر العلوم، قم: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة، 1394هـ .

2. التنبيه والإشراف، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت345هـ)، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، بيروت: دار الصعب، القاهرة: دار الصاوي، 1357هـ .

3. حياة محمد، محمد حسين هيكل (معاصر)، القاهرة: مطبعة مصر، الطبعة الأولى، 1354هـ .

4. خاتمة قاموس الرجال، الشيخ محمد تقي بن كاظم التستري (ت1320هـ)، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1419هـ .

5. الخرائج والجرائح، أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي (قطب الدين الراوندي) (ت573هـ)، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي، قم: مؤسسة الإمام المهدي، الطبعة الأولى، 1409هـ .

6. الخصال، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، بيروت: مكتبة الصدوق، الطبعة الأولى، 1389هـ .

7. الذرية الطاهرة النبوية، أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي (ت310هـ)، تحقيق: سعد المبارك الحسن، الكويت: الدار السلفية، الطبعة الأولى، 1407هـ .

8. ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ)، تحقيق: سليم النعيمي، قم: منشورات الرضي، الطبعة الأولى، 1415هـ .

9. الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي (ت581هـ)، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ .

10. سيرة ابن إسحاق، أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت151هـ)، تحقيق: محمد حميد الله، المغرب: معهد الدراسات و الأبحاث للتعريب، الطبعة الأولى، 1369هـ .

1. السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار الإحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ .
2. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفى، الطبعة الأولى، 1355هـ .
3. الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي (معاصر)، بيروت: دار الهادي، الطبعة الرابعة، 1415هـ .
4. الطبقات الكبرى، ابن سعد، محمّد بن سعد الزهري (كاتب الواقدي) (ت230هـ)، تحقيق: محمّد بن صامل السلمي، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ .
5. فروع الكافي، أبو جعفر ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت328هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري محمّد الآخوندي، بيروت و طهران: دار صعب ودار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة والخامسة.
6. قرب الإسناد، أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري القميّ (ت بعد 304هـ)، تحقيق: مؤسّسة آل البيت: قم: مؤسّسة آل البيت:، الطبعة الأولى، 1413هـ .
7. الكافي، أبو جعفر ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت329هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية، 1389هـ .
8. الكامل، أبو العباس محمّد بن يزيد الأزدي (المبرّد) (ت285هـ)، تحقيق: محمّد أحمد الدالي، بيروت: مؤسّسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1413هـ .
9. كتاب من لا يحضره الفقيه، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، 1404هـ .
10. كشف الغمّة، علي بن عيسى الإربلي (ت687هـ)، تصحيح: السيّد هاشم الرسولي، بيروت: دار الكتاب، 1401هـ .

1. كمال الدين وتمام النعمة، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، المعروف بالشيخ الصدوق (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1405هـ .
2. مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت346هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الرابعة، 1384هـ .
3. المصنّف، عبد الرزّاق بن همّام الصنعاني (ت211هـ)، تحقيق: حبيب الرحمان الأعظمي، بيروت: منشورات المجلس العلمي.
4. معالم العترة الطاهرة النبوية، عبد العزيز بن أبي نصر مبارك الأخضر الجُنّابدي (ت611هـ)، تصحيح: سامي الغريري، بيروت، الطبعة الأولى، 1407هـ .
5. معاني الأخبار، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (الشيخ الصدوق) (ت381هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفّاري، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1361ش.
6. مكارم الأخلاق، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق: علاء آل جعفر، قم: مؤسّسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1414هـ .
7. مناقب آل أبي طالب (المناقب لابن شهر آشوب)، أبو جعفر محمّد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ابن شهر آشوب) (ت588هـ) تحقيق: هاشم الرسولي المحلّاتي، قم: منشورات علامّة.
8. المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية، أحمد بن محمّد القسطلاني (ت923)، تحقيق: صالح أحمد الشامي، بيروت: المكتب الإسلامي، 1412هـ .
9. نسب قريش، مصعب بن عبد الله الزبيري (ت236هـ)، تحقيق: بروفنسل، القاهرة: دار المعارف.

* الوضع المالي للسيدة خديجة (1)

حسين علي الشراهاني

ملخص البحث:

أكثر ما يركّز هذا البحث - الذي جاء علي منهج الاستدلال بالنصوص التاريخية وإخضاعها للتحليل والنقاش - علي أنّ الطابع المميّز لسيرة السيدة خديجة قبل تعرّفها برسول الله (صلي الله عليه وآله)، هو عملها بالتجارة، حتّي كانت هذه الميزة الموضوع الرئيس الذي نقلته لنا الروايات في حياتها السابقة للرسول، لذلك فإنّ دراسة حياة السيدة خديجة تتطلّب متّاً أن نبحت هذا الجانب من حياتها؛ لأنّه يرتبط بتاريخ حياة الرسول والمسلمين؛ لما وفره مالها من خدمات كبيرة للإسلام. الخطوة المهمّة في الحياة الاقتصادية لمكّة هو ما قام به هاشم بن عبد مناف وإخوانه من عقد المعاهدات التجارية التي تُسمّى الإيلاف، فاستطاعوا أن يؤمّنوا تجارة قريش من أخطار الطريق من خلال هذه المعاهدات، فتطوّرت تجارتها من تجارة داخلية إلي تجارة خارجية. فأصبح لقريش صلات مع العراق والشام واليمن والحبشة علي السواء، وأخذت رحلات الإيلاف تتوالي في كلّ سنة، فكوّنت جماعات من التجار تتقاسم ما يعود عليها من الربح. ويستعرض البحث معظم الأخبار والآراء التي قيلت حول مصدر ثراء خديجة، ويفنّد بالأدلة الكثير منها، مؤكّداً أنّه لا يمكن أن نتصوّر أنّ السيدة خديجة ورثت أموالها من هؤلاء الأزواج الذين لا نعرف عنهم شيئاً سوي أسماءهم، وحتّي لو افترضنا جدلاً ورثت هذا المال من الأزواج، فإنّ

ص: 499

أولادها لهم حصّة في هذه الأموال، ولا يحقّ لها أن تستأثر بالأموال دونهم، فضلاً عن أن تعمل بها ما تشاء أو تعطّيها للرسول وتنفقها علي الدعوة الإسلامية وهي ليست أموالها ولأبناءها فيها حصّة. الافتراض الذي يؤكّده البحث هو أنّها ورثت هذا المال من عائلتها. يعزّز هذا الافتراض أنّ السيّدة خديجة قامت بنفسها علي إدارة هذه الأموال، فلو كان عندها من يديرها لما باشرت هذا العمل بنفسها، ممّا يدلّ علي عدم وجود أشخاص في العائلة يساعدها في تجارتها، ولكن لم تبين حجم هذه التجارة وكميّة الأموال التي تمتلكها، بل اكتفت بالقول إنّها من التجّار الذين يمتلكون الأموال.

إنّ الطابع المميّز لسيرة السيّدة خديجة (عليها السلام) قبل تعرّفها بالرسول هو عملها بالتجارة، حتّي كانت هذه الميزة الموضوع الرئيس الذي نقلته لنا الروايات في حياتها السابقة للرسول، لذلك فإنّ دراسة حياة السيّدة خديجة تتطلّب منّا أن نبحث هذا الجانب من حياتها؛ لأنّه يرتبط بتاريخ حياة الرسول والمسلمين؛ لما وفرّه مالها من خدمات كبيرة للإسلام.

لم يكن نشاط السيّدة خديجة التجاري بعيداً عن الطابع العامّ للحياة الاقتصادية في مكّة، حيث تمثّل التجارة العمود الفقري لها، التي ابتدأت منذ فترة طويلة مترامنة مع جمع قصي قريشاً وإسكانها في مكّة قرب الكعبة واضعاً لهم كياناً سياسياً، فحافظ أولاده من بعده علي هذا الكيان فزادوا في خدمة الكعبة الوافدين عليها، وألوههم عناية كبيرة، ممّا رفع من نجم قريش عند بقيّة قبائل الجزيرة العربية.

والخطوة المهمّة في الحياة الاقتصادية لمكّة هو ما قام به هاشم بن عبد مناف وإخوانه من عقد المعاهدات التجارية التي تُسمّي الإيلاف، فاستطاعوا أن يؤمّنوا تجارة قريش من أخطار الطريق من خلال هذه المعاهدات، فتطوّرت تجارتها من تجارة داخلية إلي تجارة خارجية.

فأصبح لقريش صلات مع العراق الشام واليمن والحبشة علي السواء، وأخذت رحلات الإيلاف تتوالي في كلّ سنة، فكوّنت جماعات من التجّار تتقاسم ما يعود

عليها من الربح⁽¹⁾، فكان الإيلاف خيراً ونمّاءً لكلّ القريشيين، حتّي من يملك مالاً قليلاً

ص: 500

1- . الإسلام ألفريد جيوم، ترجمة مصطفى هذارة: ص 60.

بإمكانه أن يرسل به مع القوافل الذاهبة للتجارة، حتّى بلغت تجارة قريش الذروة، فعمل القريشيون كتجار أو وسطاء أو كناقلين للتجارة، فازداد ثراؤها، وتبع هذا النشاط استقرار في مجتمع مكة، وحُمِل إليه أنواعاً متعدّدة من الثقافات التي كانت تقد مع التجار الأجانب، فنشأ تبعاً لذلك مجتمع متحصّـر يختلف اختلافاً كلياً عن مجتمعات الجزيرة العربية، وتبعاً لذلك تطوّرت مكانة المرأة في هذا المجتمع، فاشتركت النساء في كثير من نشاطاته، وأهمّ هذه النشاطات هي التجارة التي لم تبق حكراً علي الرجال؛ لأنّ القوافل مشتركة يقودها وكلاء وبإمكان أيّ شخص أن يشترك بها.

وقد ذكرت الروايات أسماء بعض النساء اللواتي عملن بالتجارة، فكانت أسماء بنت مخربة «أمّ أبي جهل»⁽¹⁾ تعمل ببيع العطور التي يجلبها لها ابنها عبد الله بن أبي ربيعة من اليمن⁽²⁾، وكانت قيلة أمّ أنمار تعمل بالتجارة⁽³⁾، وهالة بنت خويلد أخت السيّدة خديجة كانت تبيع الأدم في أسواق مكة⁽⁴⁾.

وهذه الحالات التي ذكرناها وإن كانت قليلة، لكنّها تعني أنّ النساء عملن بالتجارة، ولا أدلّ علي ذلك من عمل السيّدة خديجة فيها، حيث ذكرت الروايات أنّها كانت تمتلك كمّية من الأموال وترسل الرجال ليتاجروا لها في مالها، فتجعل لهم حصصاً من الأرباح، وهذه الأموال والتجارة تثير تساؤلات كثيرة نلخصها بما يلي:

من أين جاءت هذه الأموال؟ كيف تمكّنت من إدارتها؟ ومن ساعدها في ذلك؟ كيف عمل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في تجارتها، هل اختارته هي، أم هو طلب ذلك؟ هل كان له عمل تجاري قبل أن يعمل معها جعلها تختاره ليعمل في تجارتها؟

ص: 501

- 1- . وهي أمّ جهل (عمرو بن هشام)، وكانت عند هشام بن المغيرة، ثمّ طلّقها فتزوّجها أخوه أبو ربيعة، فأنجبت له عبد الله وعياشاً أخوان أبي جهل لأُمّه، وقد أسلموا في عام فتح مكة سنة ثمان هجرية.
- 2- . المغازي للواقدي: ج 1 ص 79، الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 8 ص 300 - 301، نسب قريش لمصعب الزبيري: ص 317 - 308.
- 3- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 317.
- 4- . المنتخب لابن بكار: ص 39، مجمع الزوائد للهيثمى: ج 9 ص 212.

لم نحصل علي رواية تبيِّن لنا مصادر هذه الأموال؛ لأنَّ الروايات اهتمت بحياتها عند ارتباطها بالرسول ، دون أن تتعرَّض لحياتها قبله بتفاصيل تجعلنا نعرف المصدر الذي حصلت منه علي هذه الأموال.

لقد حاول بعض الباحثين تحديد هذا المصدر، فافترضوا أنَّها حصلت عليها من أزواجها قبل الرسول ، يقول «دور منغم» مثلاً: «وكانت خديجة الأُسدية القرشية الأيم ذات الثراء بعد أن تزوجت مرَّتين في بني مخزوم الأغنياء»⁽¹⁾، ويقول «بودلي»: «وقد مات عن خديجة زوجان ترك كلَّ منهما ثروة»⁽²⁾.

ولا يخفي أنَّ قول «دور منغم» فيه خطأ، وهو ظنُّه أنَّها تزوجت مرَّتين في بني مخزوم، بينما لم تتزوج إلا مرَّة واحدة فقط، وهذا الافتراض لا تؤيِّده الروايات؛ لأننا لم نحصل علي رواية واحدة تذكر أنَّ أزواجها كانوا يمتلكون أموالاً، أو كانوا تجَّاراً، أو أنَّ السيِّدة خديجة ورثت منهم، وإذا كان أحدهم من بني مخزوم، هذا لا يعني أنَّه كان غنياً لأنَّ بني مخزوم كانوا أثرياء، ففي رواية الواقدي عن أسري بدر أنَّ «صيفي بن أبي رفاعة (أميَّة) بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، لم يكن له مال، فمكث عند الذي أسره ثمَّ أطلقه»⁽³⁾، وصيفي هذا زوج هند بنت عتيق، وهذا يدلُّ علي مدي فقر هذه العائلة.

أمَّا كون أبي جهل والوليد بن المغيرة أغنياء، لا يعني أنَّ يكون كلَّ بني مخزوم

يملكون أموالاً فيكون عتيق بن عابد غنياً.

ولو عدنا لقوانين الوراثة في تلك الفترة، لوجدنا أنَّ الزوجة كانت لا ترث، حيث يأخذ أهل الزوج المال الذي تركه زوجها، وقد روي أنَّ امرأة عبد الرحمن بن ثابت أخو حسان بن ثابت الشاعر عندما توفي زوجها أخذ أبناء عمِّه ميراثه ولم يتركها لامرأته شيئاً، وكانوا لا يورثون النساء ولا الصغير، فجاءت زوجته «أم كحة» إلي النبي (صلي الله عليه وآله)

ص: 502

1- . حياة محمَّد لأميل دورمنغم، ترجمة محمَّد عادل زعيتر: ص 41.

2- . الرسول لبودلي: ص 41.

3- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 302.

واشتكت الأمر، فطلب من الورثة أن ينتظروا، فانصرفوا، وفي ذلك نزلت آيات الموارث بقوله تعالى: (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا)(1)، ونزلت بعدها آيات أخر تفصل في الإرث، ثم نزلت: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ)(2).

ونزول آيات الموارث دلالة علي أنهم كان لا يعطون المرأة شيء من ميراث زوجها، بل كانت الحالة أسوأ من ذلك، فإذا كان الرجل له أبناء من غيرها ملكا زوجة أبيهم، فكان للابن الأكبر الحق في أن يتزوج امرأة أبيه(3)، أو تفتدي نفسها منه بأن تعطيه كمية من الأموال، فقد ورد عن ابن عباس رواية نصّها: «كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوّجها، وإن شاؤوا زوّجوها، وإن شاؤوا لم يزوّجوها، فهم أحقّ بها من أهلها، فنزلت الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُوهُنَّ لِيَتَّخِذْنَ مِمَّا بَيْعْتُمْ مَأْتِيَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ)(4).

إذن لا يمكن أن نتصوّر أنّ السيّدة خديجة ورثت أموالها من هؤلاء الأزواج الذين لا نعرف عنهم شيئاً سوى أسماءهم، وحتى لو افترضنا جدلاً ورثت هذا المال من

الأزواج، فإنّ أولادها لهم حصّة في هذه الأموال، ولا يحقّ لها أن تستأثر بالأموال دونهم، فضلاً عن أن تعمل بها ما تشاء أو تعطيتها للرسول وتنفقها علي الدعوة الإسلامية وهي ليست أموالها ولأبناءها فيها حصّة، وكيف نتصوّر أنّ النبي (صلي الله عليه وآله) قبل هذه الأموال منها وهي ليست لها، وإن كانت قد أعطت لهؤلاء الأبناء حصصهم لكان بإمكان هند بنت عتيق إرسال فداء زوجها عندما أسر في معركة بدر بدلاً من بقاءه في الأسر؛ لأنّه لا يمتلك ما يفدي به نفسه.

نحن بدورنا نفترض أنّ السيّدة خديجة ورثت هذا المال من عائلتها، حيث إنّ أبها

ص: 503

1- . النساء: 7.

2- . النساء: 11

3- . المحبّر لابن حبيب: ص 226 - 327، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للآلوسي: ج 4 ص 242.

4- . النساء: 19.

واثنين من إخوانها قُتلوا في حرب الفِجَار، فنالت جزءاً من هذه الأموال مع بقيّة الورثة، وهذا الأمر يؤيّد أنّ الروايات لم تذكر لنا أنّ أحد إخوانها أو أخواتها كان موجوداً عند زواج الرسول بها سوي هالة؛ أي أنّ خويلد عندما توفّي لم يبق له أحد يرثه سوي السيّدة خديجة ونوفل بن خويلد، والحالة الاقتصادية لحكيم بن خزام تفسّر لنا هذا الأمر، فقد كان من التّجار المعروفين في المجتمع المكي (1)، وهذا الافتراض الذي قدّمناه أقرب للمنطق والواقع من أيّ افتراض آخر؛ لأنّه لا يوجد لدينا دلائل أُخري تؤيّد أنّ مصدر الأموال جاء من أيّ طريق آخر.

يعرّز هذا الافتراض أنّ السيّدة خديجة قامت بنفسها علي إدارة هذه الأموال، فلو كان عندها من يديرها لما باشرت هذا العمل بنفسها، ممّا يدلّ علي عدم وجود أشخاص في العائلة يساعدها في هذه التجارة.

أدارة السيّدة خديجة (عليها السلام) للتجارة

ذكرت الروايات أنّ السيّدة خديجة كانت ترسل الأمان في تجارتها (2)، لكنّها لم تبيّن لنا

أسماء من عمل معها في هذه التجارة سوي حكيم من حزام ابن أخيها، حيث ذكرت الروايات أنّه اشترى زيد بن حارثة لعمته خديجة بأربعمائة درهم من سوق عكاظ (3)، وربّما كان يعمل معها في تجارة منظمّة ومستمرّة، لاسيّما أنّه كان يذهب إلي سوق تهامة القريب من مكّة ليشتري لها بعض السلع (4).

ويبدو أنّ السيّدة خديجة كانت تعتمد علي عدّة رجال في إدارة هذه الأموال، ومن هؤلاء الذين ذكرتهم الروايات ميسرة غلامها (5)، الذي كان يذهب مع القوافل التجارية، لكنّه لم يكن وكيلاً علي تجارة السيّدة، بل كان يذهب لخدمة أموالها، ودليل ذلك أنّه

ص: 504

- 1- . جمهرة نسب قريش لابن بكار: ج 1 ص 371.
- 2- . السير والمغازي لابن إسحاق: ص 81، السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 170، الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 16.
- 3- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 465.
- 4- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 3 ص 41، الأخبار الموقّيات لابن بكار: ص 318.
- 5- . لم تذكر الروايات عنه أيّ شيء، فقط جاء ذكره في الرحلة التجارية التي خرج بها مع الرسول إلي سوق حُباشة وبُصري.

ذهب مع الرسول في الرحلة التجارية إلى الشام(1)، وهناك شخص آخر ذكرته الروايات هو خزيمة بن حكيم البهزي(2)، وهو قريب لها، لكن الروايات لم تذكر هذه القرابة واكتفت بذكر اسمه فقط، الأمر الذي يقودنا إلى القول إنه صهر السيدة خديجة من إحدى أخواتها أو من أقارب أمها، وعلي كل حال فإن ذكر اسمه في تجارتها دليل على أنها كانت تستخدم كثير من الرجال في هذه الأموال.

ومهما كانت الحال فإن السيدة خديجة وجدت بين يديها ثروة ومال بحاجة إلى عمل وتنمية، فكان بنضوجها العقلي وقوة شخصيتها مكانتها الاجتماعية وانفتاحها على الناس، إن حفّزها ودفعها لتحريك هذا المال في المجال الاقتصادي الذي عُرف عن قريش، وهو التجارة، ولكنها بحكم أنوثتها لا تستطيع أن تباشر ذلك بنفسها(3)، فاستعانت ببعض الأشخاص للعمل في هذه التجارة، فساعدتها في ذلك خروج قوافل

مشتركة من مكة إلى الأسواق التجارية تسير مجتمعة وكل شخص يستطيع أن يضع أمواله فيها ويتاجر مع الآخرين، وقد يدير هذه القافلة، كما هو حال قافلة أبي سفيان التي اعترضها المسلمون وكانت سبباً في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، حيث تذكر الروايات أنها قافلة كبيرة كان لجميع القريشيين أموال فيها(4).

عمل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في تجارة السيدة خديجة

وردت عدّة روايات تتحدّث عن عمل الرسول في هذه التجارة، وأولها رواية عن الزهري: «أن رسول الله (صلي الله عليه وآله) لما استوي وبلغ أشده وليس له كثير مال، استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حُباشة(5) واستأجرت معه رجلاً من قريش، فقال رسول الله (صلي الله عليه وآله): ما رأيت صاحبة خير من

ص: 505

- 1- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 172.
- 2- . أسد الغابة لابن الأثير: ج 2 ص 134.
- 3- . خديجة بنت خويلد لمحمد علي قطب: ص 18.
- 4- . المغازي للواقدي: ج 1 ص 27، السيرة النبوية لابن هشام: ج 2 ص 182، تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 36.
- 5- . حُباشة - بضم أوله وبالشين المعجمة علي وزن فُعالة، ويقال حُباشة دون ألف ولام - : سوق للعرب معروف بناحية مكة، وهي أكبر أسواق تهامة، كانت تقوم ثمانية أيام في السنة (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري: ج 2 ص 418).

خديجة، ما كنّا لنرجع أنا وصاحبي إلا وعندها تحفة من طعام تخبئه لنا.

واستأجرته بسقب (1) يدفعه إليه غلامها ميسرة، فرأى ميسرة إذا رجع من سفره من يمينه وخلفه البركة في سفره والزيادة في الربح وما رآه من رسول الله (صلي الله عليه وآله)، قالت: فأرنيه، فلمّا أقبلت العير أشار إليه، وإذا سحابة تظّله وتسير معه، فأمرت له بسقب آخر (2).

وردت رواية ثانية عن الزهري نصّها: «كان خزيمة بن حكيم يأتي خديجة في كلّ عام، وكان بينهما قرابة، فأتاها فبعثته مع النبي (صلي الله عليه وآله) إلي الشام» (3).

الرواية الأخرى جاءت عن محمد بن إسحاق: «كانت خديجة بنت خويلد امرأة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوم تجّار، فلمّا بلغها عن رسول الله (صلي الله عليه وآله) ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلي الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجّار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله (صلي الله عليه وآله) منها، وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة حتّى قدم الشام» (4).

أورد الزبير بن بكار رواية عن الواقدي عن بعض ولد حكيم بن حزام تشبه رواية الزهري في ذهابه إلي سوق حُباشة: «كان حكيم بن حزام رجلاً تاجراً لا يدع سوقاً بمكّة ولا تهامة إلا حضره، وكان يقول: كان بتهامة أسواق أعظمها سوق حُباشة، وكنت أحضره، وقال: رأيت رسول الله (صلي الله عليه وآله) حضر، فاشترت منه بزّاً من بز تهامة (ثياب)، وقدمت به مكّة، فذلك حين

ص: 506

1- . السقب: ولد الناقة ساعة يولد (لسان العرب لابن منظور: ج2 ص162، مادة: «سقب»).

2- . تاريخ الطبري: ج2 ص421.

3- . المصنّف للصنعاني: ج5 ص320، المنتخب لابن بكار: ص36، تاريخ الطبري: ج2 ص282، دلائل النبوة للبيهقي: ج1 ص90، أعلام الوري بأعلام الهدي للطبرسي: ص39، معجم البلدان لياقوت الحموي: ج2 ص210، عيون الأثر لابن سيّد الناس: ج1 ص50، كشف الغمّة للأربلي: ج2 ص132، السمط الثمين لمحّب الدين الطبري: ص4 - 15، السيرة لمغلطاي: ص12، أمتاع الأسماع للمقريزي، المواهب اللدنية للقسطلاني: ج1 ص38، بحار الأنوار للمجلسي: ج16 ص9 - 10.

4- . أسد الغابة لابن الأثير: ج4 ص134، الإصابة لابن حجر: ج1 ص427، تاريخ الخميس للبكري: ج1 ص362، بحار الأنوار للمجلسي: ج16 ص17.

أرسلت خديجة إلي رسول الله (صلي الله عليه وآله) تدعوه إلي أن يخرج لها في تجارة إلي سوق حُباشة، وبعثت معه غلامها ميسرة، فخرجا فابتاع بَرًّا من بَرِّ الجند وغيره ممَّا فيه من التجارة، ورجع إلي مكَّة فربحاً ربحاً حسناً، وكانت تقوم ثمانية أيَّام» (1).

أورد ابن سعد رواية عن الواقدي بسنده عن نفيسة بنت منية (2): «لَمَّا بلغ رسول الله (صلي الله عليه وآله) خمساً وعشرين سنة وليس له بمكَّة اسم إلا الأمين؛ لما تكامل فيه من خصال الخير، فقال له أبو طالب: يابن أخي، أنا رجل لا مال لي وقد اشتدَّ الزمان علينا وألحَّت علينا سنون منكرة وليست لنا مادَّة ولا تجارة، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلي الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في غيرها، فلو تعرَّضت لها. وبلغ خديجة ذلك، فأرسلت إليه وأضعفت له ما كانت تعطي غيره، فخرج مع غلامها ميسرة حتَّى قدم بُصري من الشام» (3).

وفي رواية ثانية عن الواقدي بسنده عن نفيسة بنت منية: «كانت خديجة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلي الشام، فيكون غيرها كعامَّة غير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربةً، فلَمَّا بلغ رسول الله (صلي الله عليه وآله) خمساً وعشرين سنة وليس له اسم بمكَّة إلا الأمين، أرسلت إليه خديجة بنت خويلد تسأله الخرج إلي الشام في تجارتها

ص: 507

- 1- . السير والمغازي لابن إسحاق: ص 81، السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 178، تاريخ الطبري: ج 2 ص 280، الكامل لابن الأثير: ج 2 ص 39، السمط الثمين لمحَبِّ الدين الطبري: ص 12 - 13، كشف الغمَّة للأربلي: ج 2 ص 132، الاكتفاء للكلاعي: ج 1 ص 196، تاريخ الإسلام للذهبي: ج 1 ص 41، البداية والنهاية لابن كثير: ج 2 ص 293 - 294، الخصائص الكبرى للسيوطي: ج 1 ص 26.
- 2- . هي نفيسة بنت أمية بن أبي عبيدة بن همام بن الحرث التميمي، أخت يعلي بن أمية حليف قريش، ومنية هو اسم أمها منية بنت الحرث المازنية، التي تزوجت بعد ذلك خويلد بن أسد والد السيِّدة خديجة، وأنجبت له العوامَّ وعدي وحزام ورقيقة (انظر: أسد الغابة: ج 7 ص 283، الإصابة لابن حجر: ج 3 ص 668). لكنَّ ابن حزم ذكر أنَّ أمها هي منية بنت جابر، عمَّة عتبة بن غزوان بن جابر من بني مازن بن منصور، وهم حلفاء بني نوفل بن عبد مناف، ولم يشر إلي أنَّها هي التي تزوجها خويلد أو هي أمَّ العوام وإخوانه (جمهرة أنساب العرب: ص 329). لكنَّ الرواية التي أوردها ابن الأثير ربمَّا تكون هي الصحيحة، وذلك تبعاً للصلة الوثيقة بين نفيسة والسيِّدة خديجة، ذكرت المصادر أنَّ نفيسة أسلمت وروت أحاديث عن الرسول (انظر: أسد الغابة لابن الأثير: ج 7 ص 283).
- 3- . نسب قريش لابن بكار: ج 1 ص 371.

مع غلامها ميسرة، وقالت: أنا أعطيك ضعف ما أعطي قومك، ففعل رسول الله (صلي الله عليه وآله) وخرج إلي سوق بُصري، فباع سلعته التي خرج بها واشترى غيرها وقدم بها، فربحت ضعف ما كانت تربح، أضعفت لرسول الله (صلي الله عليه وآله) ضعف ما سمّت»(1).

وفي رواية أوردها ابن سعد عن عبد الله بن محمد بن عقيل، قال: «وقال أبو طالب: يا بن أخي، قد بلغني أنّ خديجة استأجرت فلاناً ببيكرين،(2) ولسنا نرضي لك بمثل ما أعطت، فهل لك أن تكلمها؟ قال: ما أحببت. فخرج إليها فقال: هل لك أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنّك استأجرت فلاناً ببيكرين، ولسنا نرضي لمحمد دون أربع أبكار. قال: فقالت خديجة: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب؟»(3).

وأوردت بعض المصادر المتأخرة أنّ السيّدة خديجة بعثت الرسول في تجارة لها إلي سوق جُرش(4).

إنّ هذه الروايات بمجملها تتحدّث عن ذهاب الرسول بتجارة السيّدة خديجة، إلي سوق بُصري في الشام، عدا رواية الزهري ورواية الزبير بن بكار عن الواقدي، التي ذكرت ذهابه إلي سوق حُباشة، والرواية التي أوردتها المصادر المتأخرة عن ذهابه إلي سوق جُرش، ورواية الزهري لم تحدّد لنا عمر النبي (صلي الله عليه وآله) عندما ذهب بتجارة السيّدة، علي عكس الروايات التي ذكرت أنّ عمره كان خمساً وعشرين سنة عندما ذهب إلي

ص: 508

1- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 129، أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 97، البدء والتاريخ للمقدسي: ج 4 ص 137 - 138، دلائل النبوة للأصبهاني: ج 1 ص 221، تاريخ ابن عساكر: ج 3 ص 14 - 15، الوفاء لابن الجوزي: ج 1 ص 143: صفة الصفوة: ج 1 ص 71 - 72، الاكتفاء للكلاعي: ج 1 ص 195 - 196، حياة الحيوان للدميري: ج 2 ص 257، تاريخ الخميس للديار بكري: ج 1 ص 363، السيرة الحلبية: ج 1 ص 147، سمط النجوم لمكي: ج 1 ص 365.

2- . البكر: ولد الناقة، وهو في الإبل بمنزلة الفتى في الناس، والبكرة بمنزلة الفتاة (لسان العرب لابن منظور: ج 1 ص 250، مادة «بكر»).

3- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 8 ص 16.

4- . جُرش - بضمّ أوّله وفتح ثانيه وبالشين المعجمة - : موضع باليمن (معجم ما استعجم للبكري: ج 2 ص 376، معجم البلدان لياقوت الحموي: ج 2 ص 126، انظر حول الرواية: حياة الحيوان للدميري: ج 2 ص 257، البداية والنهاية لابن كثير: ج 2 ص 295، إمتاع الأسماع للمقريزي: ج 1 ص 9، السيرة الحلبية للحلي: ج 1 ص 151).

ربّما كان عمر الرسول إحدَي وعشرين سنة عندما ذهب إلى سوق حُباشة؛ وذلك لأنّ الزهري ذكر أنّه تزوّجها وهو بهذا العمر بعدما عاد من تجارتها(1)، وذكرت روايات أُخري أنّ عمر الرسول كان ثلاث وعشرين سنة عندما تزوّج من السيّدة(عليها السلام)(2)، وذكر غيرها أنّ عمره كان خمساً وعشرين(3)، وجاء الاختلاف في عمر الرسول عند الزواج؛ نتيجة لأنّه تزوّج منها بعد عودته من إحدى سفراته التجارية بمالها، لذلك حسب الزهري أنّ عمره كان إحدَي وعشرون سنة، والسفرتان اللتان ذكرتهما المصادر إلى سوق جُرش، إمّا قبل هذه السفرة أو بعدها، وعلي كلّ حال فهي قبل سفرة الشام.

إنّ ذهاب رسول الله بتجارة السيّدة خديجة تدعونا إلى التساؤل عن السبب الذي دفعها إلى أن تعرض علي الرسول الخروج بتجارتها؟ وهل عمل بالتجارة قبل عمله معها؟ أي هل كانت لديه خبرة تجارية؟

من الأمور المعروفة أنّ الرسول بعد وفاة جدّه عبد المطلب اختار عمّه أبو طالب ليعيش معه؛ لما رأى عطفه عليه ورحمته(4)، وتولّى أبو طالب المهمّة وقام بها خير قيام، فأحبّه حبّاً شديداً لم يحبّه لأولاده(5)، وكان أبو طالب تاجراً كما هو شأن قومه، فكان يبيع البُرّ والعطور(6)، علاوة علي قيامه بمهامّ السقاية والرفادة التي ورثها عن أبيه بعد وفاته(7).

ص: 509

-
- 1- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 130، حياة الحيوان للدميري: ج 2 ص 257، تاريخ الخميس للديار بكري: ج 1 ص 361، سمط النجوم: ج 1 ص 365.
 - 2- . الاستيعاب لابن عبد البرّ: ج 4 ص 208، الروض الأنف للسهيلي: ج 1 ص 216، عيون الأثر لابن سيّد الناس، ج 1 ص 47، السيرة لمغلطاي: ص 12، البداية والنهاية لابن كثير: ج 1 ص 293.
 - 3- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 98.
 - 4- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 8 ص 17.
 - 5- . السير والمغازي لابن إسحاق: ص 69، المصنّف للصنعاني: ج 5 ص 318، الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 119.
 - 6- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 120، دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني: ج 1 ص 290، الوفاء لابن الجوزي: ج 1 ص 130.
 - 7- . المعارف لابن قتيبة: ص 575، الإعلاق النفيسة لابن رسته: ج 7 ص 215.

وذكرت بعض الروايات التاريخية أنّ أبا طالب كان فقيراً لا يمتلك أموالاً كثيرة(1)، لكن يجب أن لا- نتصوّر أنّه كان مملقاً لا يمتلك أيّ شيء، ففي رواية عن الواقدي: «أنّ أبا طالب كان مقلّاً بالمال، وكان له قطعة من الإبل يستطيع أن يعيش منها»، وبقاء وظيفة الرفاة مع كثرة مؤونها بيده حتّى مجيء الإسلام دليل كافٍ علي هذا الأمر(2).

وعندما بلغ رسول الله(صلي الله عليه و آله) الثانية عشرة من عمره، هيأت له الظروف أن يخرج في إحدى السفرات التجارية إلي الشام برفقة عمّه(3)، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الرحلة في نفس الرسول، حيث شاهد مناطق مختلفة في رحلته، وتعرّف علي الحياة التجارية في مكّة وخارجها منذ فترة مبكّرة، ومع ما ذكرناه من قلّة مال أبي طالب، كان لا بدّ أن يجد عملاً يعيش منه، والعمل الرئيسي في مكّة كانت التجارة، فلا بدّ من أن يعمل بها.

وبالرغم من أنّنا لا- نعرف عن الوضع المالي للرسول الشيء الكثير، سوي الرواية التي تقول إنّه ورث عن أبيه جارية تدعي أمّ أيمن «بركة الحبشية» وخمسة جمال وقطعة من الغنم(4)، وهذا المال رغم قلّته لكن من الممكن أن يزداد بمرور الأيام، حيث إنّ الجمال والغنم تتوالد وتكثر، وربّما كانت الغنم التي كان يرعاها لأهله كان جزء منها له، فقد روي عن الرسول أنّه قال: «بُعث موسي وهو راعي غنم، وبُعث داود وهو راعي غنم، وأنا أروي غنم أهلي بأجساد»(5).

وهذا المال القليل ابتدأ به رسول الله(صلي الله عليه و آله) تجارةً بسيطة تتناسب مع ما يملكه، ويؤيّد ذلك أنّه كان يُلقّب بالأمين قبل عمله بتجارة السيّد خديجة،

وهذا اللقب يناسب مع العمل التجاري، كذلك الرواية التي تذكر لقاءه بقس بن ساعدة الأيادي في سوق عكاظ وسماعه لكلامه «وهو ممّن كانوا يدينون بالحنفية ديانة إبراهيم الخليل»، وسؤال

ص: 510

1- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 2 ص 23.

2- . تاريخ يعقوبي: ج 2 ص 11.

3- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 2 ص 23، الغرام للفاسي: ج 2 ص 90.

4- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 121.

5- . المعارف لابن قتيبة: ص 144، دلائل النبوة: ج 1 ص 206.

وفد قبيلة أباد عنه عندما قدموا إلي المدينة علي رسول الله (صلي الله عليه وآله)؛ لكي يسلموا(1)، يدلّ علي مداومته الذهاب إلي الأسواق التجارية.

وبقي رسول الله (صلي الله عليه وآله) مع عائلة عمّه كأحد أفرادها، لكنّه كان لابدّ أن يستقلّ بعمله عن هذه العائلة في يوم من الأيام، وربّما ابتداءً بعمله عندما بلغ الخامسة عشر من عمره كما يتّضح من الرواية التي أوردها ابن عبد البرّ في الاستيعاب: «فصار في حجر عمّه حتّي بلغ خمس عشرة سنة، وكان أبو طالب يحبّه، ثمّ انفرد بنفسه»(2).

ويبدو أنّه كان يذهب إلي الأسواق القريبة من مكّة ليشتري بعض السلع، كما يؤيّد ذلك رواية الواقدي عن بعض ولد حكيم بن حزام في أنّه التقى بالرسول في سوق حُباشة واشتري منه نوع من أنواع الأقمشة(3)، وفي رواية أنّ النبي (صلي الله عليه وآله) أجر هالة بنت خويلد إبلاً تحمل عليها بضائعها «فكان في الإبل هو والشريك له، أكريا أخت خديجة، فلما قضى السفر بقي لهم عليها شيء، فجعل شريكه يأتيها فيتقاضى ويقول لمحمّد: انطلق، فيقول: اذهب أنت، فإني أستحي»(4)، وهذا النصّ يدلّ علي أنّ الرسول يعمل بالتجارة قبل لقائه بالسيدة، وعلي امتلاكه للإبل، أمّا شريكه فقد ذكرت الروايات أنّه من بني مخزوم ولم تتفق علي اسمه، حيث دخل عليه عند فتح

مكّة فقال له الرسول: «كنت شريكي لنعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري»(5).

وذكرت بعض الروايات أنّ اسمه عبد الله بن السائب المخزومي(6)، وربّما كان هو

ص: 511

- 1- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 126.
- 2- . الأغاني لأبي فرج الأصبهاني: ج 15 ص 5570، مروج الذهب للمسعودي: ج 1 ص 82.
- 3- . انظر: مروج الذهب: ج 1 ص 34.
- 4- . جمهرة نسب قريش لابن بكار: ج 1 ص 371، معجم ما استعجم للبكري: ج 2 ص 418، إمتاع الأسماع للمقرئزي: ج 1 ص 8، السيرة الحلبية: ج 1 ص 152.
- 5- . مجمع الزوائد للهيثمى: ج 9 ص 222.
- 6- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 5 ص 445، التاريخ الكبير للبخاري، ج 5 ص 8 - 9، سنن الترمذي: ج 2 ص 343، جمهرة أنساب العرب لابن حزم: ص 143، دلائل النبوة لأبي نعم الأصبهاني: ج 1 ص 124، أسد الغابة لابن الأثير: ج 3 ص 254، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج 18 ص 308، الإصابة لابن حجر: ج 2 ص 314، الخصائص الكبرى للسيوطي: ج 1 ص 225. $\tilde{\text{N}} \emptyset$ وذكرت مصادر أخرى أنّ اسمه السائب بن أبي السائب وعبد الله ابنه، وروي عنه: سنن أبي داود: ج 4 ص 260، الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البرّ: ص 118، أسد الغابة لابن الأثير: ج 2 ص 315. وذهبت مصادر أخرى إلي أنّ اسمه السائب بن صيفي بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: الوفاء لابن الجوزي: ج 1 ص 142، إمتاع الأسماع للمقرئزي: ج 1 ص 8 - 9، السيرة الحلبية: ج 1 ص 151. وذكر الذهبي أنّه صيفي بن عائذ، ويكّتي بأبي عبد الله: معرفة القراء الكبار علي الطبقات والأعصار: ج 1 ص 40 - 41. وذكرت مصادر أخرى أنّه السائب بن عبد الله: مسند ابن حنبل: ج 3 ص 425، أسد الغابة لابن الأثير: ج 2 ص 316.

نفسه الذي أرسلته السيّدة معه إلى سوق حُباشة.

وهذا العمل التجاري البسيط كان الخطوة الأولى في حياة النبي الاقتصادية، حيث أخذ يعمل في النشاط الذي كان يمارسه مجتمعه آنذاك وهو التجارة، فأصبح عنده رأس مال يستطيع أن يواصل به العمل التجاري، ويؤيد هذا ما جاء في رواية الزهري التي قدّمناها ورواية الواقدي عن ولد حكيم بن حزام أنّه التقى به في سوق حُباشة واشتري منه بعض السلع، فأخبر عمّته بذلك فرغبت بالعمل معه، فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى سوق حُباشة ومعه شريكه الذي كان يعمل معه.

وإرسال النبي (صلي الله عليه وآله) إلى ذلك السوق يعني أنّها أرادت أن تتعامل معه في تجارة بسيطة، خصوصاً أنّ هذه السوق كانت قريبة من مكة، وهي من الأسواق الموسمية، حيث لا تستمرّ إلا ثمانية أيام⁽¹⁾، وهذا معقول جداً؛ لأنّ تعاملها معه أوّل أمره

يحتاج إلى أن تجرّبه في تجارة بسيطة وقريبة؛ حتّى تختبر مواهبه التجارية، ومن ثمّ تتعامل معه في تجارة أكبر.

ويدلّ علي ذلك مسألة الحصّة من الأرباح وهي «سقب»، ولمّا رأّت النجاح في عمله معها وكثرة الربح، ضاعفت له الحصّة وأعطته «سقباً آخر»، وهذا الربح كان عاملاً مهماً في أن يستمرّ التعامل بينهما، وساعدت مميّزات الرسول الذاتية من أمانة وسموّ أخلاق أن تزداد ثقة السيّدة خديجة به وترسله مرّة أخرى إلى الأسواق القريبة، فذهب بتجارها إلى سوق جُرش مرّة أو مرتين⁽²⁾، وفي كلّ سفر كانت تعطيه قلوّص⁽³⁾.

ص: 512

1- . ذكر الفاسي أنّها لم تكن من الأسواق الكبيرة، حيث لا تُقام في مواسم الحجّ، بل كانت تقوم في شهر رجب (شفاء الغرام: ج2 ص283).

2- . حياة الحيوان للدميري: ج2 ص257.

3- . القلوّص: هي الشاة من الإبل بمنزلة الجارية الفتاة من النساء (لسان العرب: ج2 ص160، مادّة «قلص»).

وهذا يدلّ علي أنّ عمله التجاري معها كان منذ فترة مبكّرة قبل ذهابه إلي الشام، ويعزّز هذا الرأي ما ورد في رواية الزهري: «ما رأيت من صاحبة خير من خديجة، ما كنّا نرجع أنا وصاحبي إلّا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبّته لنا»⁽¹⁾.

فربّما يكون قد سافر بتجارتها مرّات متعدّدة لكنّ الروايات لم تشر إلي ذلك، علي أنّ هذه السفرات كانت إلي الأسواق القريبة وليست إلي الشام، وقد حاول الباحثون أن يستدلّوا برواية الزهري علي عمل الرسول معها قبل فترة طويلة من ذهابه إلي الشام، لكنّهم ذكروا أنّ رواية الزهري لم ترد إلّا في مصادر متأخّرة⁽²⁾، مع ورود هذه الرواية في المصادر المتقدّمة، كالمصنّف للصنعاني وغيره⁽³⁾.

أمّا رحلة الرسول التجارية إلي الشام، فقد وردت عنها خمس روايات، رواية الزهري التي ذكرت خروج خزيمة بن حكيم البهزي مع الرسول إلي الشام «ربّما أنّ هذا الشخص خرج بمالها أيضاً ورافق الرسول في القافلة الذاهبة إلي الشام، خصوصاً أنّ هذه الرحلة

كانت من الرحلات التجارية الكبيرة لأهل مكّة». ورواية ابن إسحاق، وروايتي الواقدي عن نفيسة بنت منية، ورواية ابن سعد عن عبد الله بن محمّد بن عقيل.

إنّ موضوع الروايات واحد، لكنّ الاختلاف بينهما ناتج عن أمور كثيرة يمكن أن نستدلّ عليها من خلال استقراء هذه الروايات:

رواية ابن إسحاق هي استنتاج لما حدث وليست رواية مسندة إلي أحد الصحابة أو السيّد خديجة أو الذين كانوا في الرحلة، كما هو شأن روايتي الواقدي وابن سعد، فقد تحدّث في روايته عن مميّزات السيّد خديجة التجارية: «كانت خديجة بن خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال...»، ثمّ عن الطريقة التي تعطي بها حصص الذين يعملون معها: «تستأجر رجال في مالها وتضاربهم إيّاه بشيء تجعله لهم»، وهذا يعني

ص: 513

1- . المنتخب لابن بكار: ص 36.

2- . الوسيط في السيرة النبوية للملاح: ص 92.

3- . المنتخب لابن بكار: ص 36، تاريخ الطبري: ج 2 ص 382.

أنّها كانت تعطي مالها مضاربةً، وقد ورد في الروايات أنّها استأجرتَه وأرسلته، أنّه كان أجيراً في عمله معها، وقد أشار ابن قَيِّم الجوزية إلى هذا المعني حيث قال: «إنّما يحفظ عنه أنّه أجر نفسه قبل النبوّة في رعاية الغنم، وأجر نفسه من خديجة في سفره بمالها إلى الشام، وإن كان العقد مضاربةً، فالمضارب أمين أجير ووكيل وشريك، فأمين إذا قبض المال، ووكيل إذا تصرّف به، وأجير فيما يباشره من العمل، وشريك إذا ظهر الربح»(1).

إنّ هذا الرأي غير دقيق؛ لأنّ قضيّة رعاية الغنم لم تكن أجرة، بل كان يرعي غنم أهله، أمّا استئجاره للعمل في تجارة السيّدة خديجة، فإنّ عمله لم يكن إجارة، بل شراكة، والدليل علي ذلك أنّها كانت تعطي المال مضاربةً، كما جاء في رواية إسحاق المتقدّمة، والمضاربة هي أن تعطي المال لغيرك يتّجر به، فيكون له سهم معلوم من الربح(2)، وقد يكون الربح مشتركاً(3)، أمّا قوله إنّ العمل إجارة لأنّه يباشره بنفسه، فهو رأي

ضعيف؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما بعثت غلامها ميسرة معه ليقوم بأعمال خدمة القافلة، وربّما أرسلت غيره، إضافة إلى أنّ رواية ابن إسحاق التي استند عليها ابن القَيِّم والتي وردت فيها كلمة تستأجر، أوردها الطبري بصيغة أُخري، وهي: «كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي بن قصيّ امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها...»(4)، والفرق بين تستأجر وتستأجر كبير؛ لأنّ الثانية تأتي من التجارة؛ أي البيع والشراء، وليس من الاستئجار(5).

ويؤيّد ذلك الرواية التي وردت عن عمّار بن ياسر، فقد أوردت المصادر عنه

ص: 514

- 1- . المعاد في هدي خير العباد لابن قَيِّم الجوزية: ج 1 ص 57.
- 2- . لسان العرب: ج 2 ص 520، مادّة «ضرب».
- 3- . نزهة المجالس ومنتخب النفائس للصفوري الشافعي: ج 2 ص 167.
- 4- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 280.
- 5- . تجر يتّجر تجراً وتجارةً: باع واشتري، وكذلك اتّجر، وهو افتعل، وقد غلب علي الخمار (لسان العرب: ج 1 ص 312، مادّة «تجر»).

رواية في زواج رسول الله (صلي الله عليه وآله) من السيدة، وهي: «ويغضب إذا قيل له استأجرته وأرسلته»⁽¹⁾، وفي رواية عنه أيضاً: «وأنه ما كان ممّا يقول الناس أنّها استأجرته بشيء ولا كان أجيراً لأحد قط»⁽²⁾، وقد يبدو من هذه الرواية أنّها تعارض ذهاب الرسول في تجارة السيدة، لكننا نرى أنّها تزيد الصورة وضوحاً، حيث إنّها تبين طبيعة عمل رسول الله (صلي الله عليه وآله) معها، حيث إنّ هذا العمل لم يكن استتجاراً، بل كان شراكة.

ثم تذكر رواية ابن إسحاق عرض السيدة علي الرسول: «فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلي الشام تاجراً...»، وهذا العرض يعني أنّها لم تتعامل قبل ذلك، علي عكس ما قدّمناه في رواية الزهري والرواية التي تذكر ذهابه إلي سوق جرش، لكن إذا عرفنا أنّ رواية ابن إسحاق هي استنتاج خاصّ به وليس تعبيراً عن الواقع الذي يمثله

ذهابه بتجارته إلي الشام، فأجمل عمله معها بهذه الرواية وجمعه فيها وربطه بذهابه إلي سوق بصرى في الشام.

أمّا رواية الواقدي الأوّلي عن نفيسة بنت منية التي كانت وثيقة الصلة بالسيدة خديجة؛ لأنّها أخت العوامّ بن خويلد لأُمّه، وربّما كانت تعيش عندها، فهي قريبة من الحدث وشاهدة عليه، فتكون روايتها أخبار عن الواقع وليس استنتاج لما حدث، فهي تنقل حديث أبي طالب مع الرسول وحثّه علي الذهاب بتجارة السيدة خديجة وقوله له: «فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك»، وهذا يعني أنّها كانت قد تعاملت معه قبل ذلك وعرفت مواهبه التجارية وعلاوة علي معرفتها بصفاته الذاتية كالصدق والأمانة، وربّما كان حديث أبي طالب معه قبل مدّة من خروج القوافل حتّي يتهيأ النبي للعمل معها، أمّا الذي أبلغها بقول أبي طالب، فهو أبو طالب نفسه، وهذا الأمر ذكره البلاذري عندما نقل رواية الواقدي عن نفيسة: «فكلّمها أبو طالب في

ص: 515

1- . المنتخب لابن بكار: ص 41.

2- . تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 16.

رسول الله (صلي الله عليه وآله) فوجّهته إلى الشام» (1). كذلك رواية ابن سعد عن عبد الله بن محمّد بن عقيل والتي تعتبر مكتملة لرواية الواقدي الأولي، حيث إنّ أبو طالب عندما كلّم الرسول في الخروج بتجارتها وافق علي الأمر، فذهب أبو طالب إلى السيّدة خديجة وطلب منها أن تعطي محمّداً مالاً يتّجر به واشترط عليها أن تعطيه أربعة أبقار، الأمر الذي يتناسب وكفائه التي تعرفها السيّدة (عليها السلام)؛ لأنّها تعاملت معه سابقاً.

أمّا ردّها علي أبي طالب: «لو سألت لبغيض بعيد فعلنا، فكيف وقد سألت لقريب حبيب»؟ يعني أنّها علي معرفة وثيقة بالرسول، والتي قد تكوّنت من خلال صلة القرية التي تربطها بالرسول وعمله معها لفترة طويلة، علاوة علي أنّ بني هاشم الذين ينتسب لهم رسول الله (صلي الله عليه وآله) وبني أسد بن عبد العزّي الذين تنتسب إليهم

السيّدة خديجة، كانوا معاً في حلف الفضول الذي كان من مبادئه: «التأسي في المعاش» (2).

وبعد أن كلّمها أبو طالب بالأمر واشترط عليها أن تعطيه ضعف ما تعطي رجل من قومه، قبلت بالأمر وبعثت الرسول في تجارتها، وهذا ما تبيّنه رواية الواقدي الأولي (3). أمّا روايته الثانية التي نقلها عن نفيسة بنت منية، فهي تشبه رواية ابن إسحاق في كونها استنتاج لما حدث، حيث أعطي صورة عامّة من عمل رسول الله (صلي الله عليه وآله) معها، فيبيّن صفات السيّدة خديجة أولاً ثمّ انتقل إلى نوع العمل التجاري وهو المضاربة ثمّ عرضها علي الرسول أن يعمل معها وتعطيه حصّة الأرباح، وهذا إجمال لما حدث. وسؤالها له أن يخرج بمالها هو بناءً علي طلب أبي طالب منها الذي ذكرناه في رواية الواقدي الأولي، ويبيّن هذا قولها له: «أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك» (4).

والشيء الذي نستخلصه من هذه الروايات هو أنّ الطرفين انتفع من هذا العمل، فقد انتفعت السيّدة (عليها السلام) من أمانته للحفاظ علي أموالها ومن خبرته في تنمية هذه الأموال،

ص: 516

- 1- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 98.
- 2- . البداية والنهاية لابن كثير: ج 2 ص 292.
- 3- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 129 - 156.
- 4- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 8 ص 16.

وانتفع الرسول من الرزق الذي ساقه الله له والذي يفوق أرباح تجارته البسيطة قبل أن يعمل معها.

لذلك فإنها كانت بحاجة إلى شخص مثله يتمتع بالأمانة والصدق والأخلاق الرفيعة، علاوة على الخبرة التجارية، فأقبلت عليه لكي يعمل معها من أجل المحافظة على مالها، لاسيما أنها كانت لا تباشر هذا العمل بنفسها خارج مكة، وإنما تسنده لوكلاء يعملون معها، فكان عمله حفاظاً على مالها من الضياع، فأرسلته إلى أسواق

قرية أول الأمر، فرأت الربح وزيادة البركة في مالها.

وهذا ردّ عليّ كلّ من يحاول أن يلمّح إليّ أن زواج رسول الله (صلي الله عليه وآله) منها كان بدافع مادي، هذه الآراء التي تجد لها مبرراً عندما تلتقي بالرواية التي تذكر أنّ عمرها كان أربعين سنة عندما تزوّج منها الرسول، فافترضوا أنّ الذي جعله يقدم عليّ هذه الخطوة هو إغراء المال؛ لأنّهم لم يدر بخلداهم أنّ شاباً في الخامسة والعشرين من عمره يقدم عليّ الزواج من امرأة أسنّ منه بخمسة عشر عاماً وقد تكون بعمر أمّه، إلا إذا كان هناك سبب قويّ يدفعه لذلك.

ونأخذ مثلاً عليّ هذا الأمر المستشرق بودلي الذي لمّح لذلك بقوله: «دخل محمّد في خدمة خديجة، فوضع قدمه عليّ الدرج الأوّل الذي سيوصله يوماً إلى بلاد العرب جميعاً»⁽¹⁾، فجعل مال السيّدة خديجة الشيء الأساس في انتصار الإسلام، ونحن وإن كنّا مع هذا الرأي من حيث أنّه كان من الأركان الرئيسة التي ساعدت في انتصار الإسلام ووفّرت للرسول حياة هانئة هادئة مستقرّة مكنته من التفرّغ إليّ التفكّر والعبادة، لكننا في نفس الوقت نقف ضدّ الرأي الذي ألمح إليه ولم يفصح عنه بصراحة، فيما أفصح عنه غيره في أنّ الرسول لو لم يحصل عليّ هذا المال لم يكتب له ولدعوته هذا الانتصار الذي حقّقه؛ لأنّ أمر الله تعالى كان سيتمّ بمال السيّدة خديجة أو بدونه، ومكانتها تأتي من حيث إنّها أعطت هذا المال طائفة مختارة راضية غير أبهة به.

ص: 517

إنَّ الروايات التي ذكرناها عن تجارة السيِّدة خديجة وما يتعلَّق بها، لم تبيِّن لنا حجم هذه التجارة وكمِّيَّة الأموال التي تمتلكها، بل اكتفت بالقول إنَّها من التجَّار الذين يمتلكون الأموال.

وبالرغم من ذلك فإنَّنا نستطيع أن نعطي تصوُّراً عامّاً عن حجم هذه الأموال من خلال الروايات، ففي رواية الواقدي الثانية عن نفيسة بنت منية: «كانت خديجة ذات شرف ومال كثير، وتارة تبعث إلي الشام، فيكون غيرها كعامَّة عير قريش...»، يمكن أن نستخلص من هذا النصِّ أنَّها كانت تمتلك أموال كثيرة، والإشارة الثانية: «أنَّ غيرها كان كعامَّة عير قريش»؛ تعني غيرها كان مثل عير تجَّار قريش لا يختلف عنه؛ أي أنَّ شأنها شأن بقية تجَّار مكَّة.

وفي رواية أوردتها الذهبي عن ابن إسحاق أنَّها كانت «متموِّلة، فعرضت علي الرسول أن يخرج في مالها إلي الشام...» (1)، والمتموِّلة تعني كثيرة المال؛ لأنَّ العرب تقول: «رجل ملل؛ إذا كان كثير المال» (2).

ومسألة الحصَّة التي أخذها رسول الله (صلي الله عليه وآله) من أرباح تجارة الشام والتي اشترطها أبو طالب عليها هي أربعة أبكار، وضاعفت للرسول عندما رأت كثرة الأرباح حتَّى صارت ثمان أبكار، فإنَّها تبيِّن لنا حجم هذه التجارة التي ذهب بها الرسول، والثمان أبكار هي نسبة من الربح فقط، ومن الطبيعي أن يكون الربح أكثر من ذلك، وعليه يكون رأس المال ضعف ذلك بمرات متعدِّدة، كذلك فإنَّ هذه التجارة لم تكن كلَّ أموال السيِّدة خديجة. إذن، يكون حجم المال كبيراً علي اعتبار هذه النسب.

ويمكن أن نعرف نوع المال الذي كانت تمتلكه وهو نقد وحيوانات وعبيد وغير

ص: 518

-
- 1- . سير أعلام النبلاء للذهبي: ج2 ص84.
 - 2- . مال الرجل: إذا صار ذا مال، وتموِّل: كثر ماله، ويقال: رجال مال، أي كثير المال، وكأنَّه جعل نفسه مالاً، وما أموله: أي ما أكثر ماله (لسان العرب: ج2 ص550، مادَّة «مول»).

ذلك، فأما النقد فكان ضرورياً للتعامل التجاري، والحيوانات ضرورية لنقل البضائع، كما أنّ الحصاص كانت تُعطي بها وليس بالنقد كما رأينا من الروايات السابقة، وقد يكون ذلك ناتجاً عن قلة النقد في تلك الفترة.

وتذكر الروايات أنّها كانت تمتلك بيوتاً في مكة، أولها البيت الذي تسكنه وكانت

مستقلة فيه عن عائلتها، والذي انتقل إليه الرسول بعد زواجه منها(1)، والبيت الذي أعطته إلي أبي العاص ابن الربيع ابن أختها هالة بعد زواجه من ابنتها زينب(2). أمّا العبيد فقد كانت تمتلك ميسرة وربما امتلكت غيره، لكن لم تصلنا أسماؤهم.

وعلي

الرغم من عدم وجود تعيين لحجم هذا المال، لكن بقاءه لفترة طويلة يتصرّف به الرسول، يدلّ علي أنّه كان كبيراً. والسؤال الملحّ هنا: أين ذهبت هذه الأموال؟

لقد تساءل المستشرق لامنس وهو يتحدث عن زواج فاطمة الزهراء: «كيف لم يكن باستطاعته أن يخصّ فاطمة بهديّة سنّية تحملها إلي بيت عريسها؟» ثمّ تساءل: أين ذهبت أموال خديجة وهي شيء كبير؟(3)

ردّ أحد الباحثين عن هذا التساؤل: بأنّ هذه الأموال ليست شيئاً كبيراً، وصُرفت في الدعوة الإسلامية، ثمّ انتقل بعد ذلك إلي القول إنّ بقاء رسول الله(صلي الله عليه وآله) وزوجته خمساً وعشرين سنة بدون عمل أدّى إلي نفاذ هذا المال(4).

إنّ هذا التساؤل يحتاج إلي تتبّع موارد إنفاق هذا المال طيلة الدعوة الإسلامية، أمّا رأي الباحث الذي قدّمناه فبالرغم من أنّنا نتفق معه في أنّه أنف في الدعوة الإسلامية، لكن لا نتفق معه في كونه قليلاً وفي بقاء رسول الله(صلي الله عليه وآله) وزوجته بدون عمل ممّا أدّى إلي نفاذه.

بعد أن تزوّج النبي(صلي الله عليه وآله) من السيّدة خديجة أصبح لديه رأس مال كافٍ ليبتدئ به تجارة

ص: 519

1- . أخبار مكة للأزرقي: ج 2 ص 199، تاريخ الطبري: ج 2 ص 282.

2- . أخبار مكة للأزرقي: ج 2 ص 234.

3- . فاطمة بنت رسول الله لعمر، نقلاً عن أبي نصر: ص 71 - 72.

4- . فاطمة بنت رسول الله لعمر، نقلاً عن أبي نصر: ص 72.

تشبه تجارة أهل مكة وقتذاك، وبالرغم من عدم معرفتنا الشيء الكثير عن تجارة

الرسول بعد الزواج، لكن هذا لا يمنع أنه بقي يعمل في التجارة⁽¹⁾، حيث لا نستطيع أن نتصور بقاءه دون عمل؛ لأن هذا الأمر لا يتلاءم وسيرته، فراه يؤكد بصورة مستمرة علي العمل يحث عليه، وقد حصلنا علي بعض الروايات التي تؤيد ذلك وتشير إلي نشاطه التجاري، ففي رواية أنه بايع أحد التجار سلعة ووعدته في مكان معين، لكنّ التاجر نسي الأمر، وبعد أن تذكره أنه بعد ثلاثة أيام، فوجد الرسول ينتظره، فقال له: «يا فتى، لقد شققت عليّ أنا هاهنا مذ ثلاثة أيام أنتظرُك»⁽²⁾.

وبعد البعثة وردت رواية عن أبي سفيان أنه كان خارجاً إلي اليمن في تجارة، ثم عاد إلي مكة، فجاءه أهل مكة يسألون عن بضائعهم، ثم جاء النبي (صلي الله عليه وآله) فسلم عليه ولم يسأله عن بضاعته، ثم قام، فقال أبو سفيان لزوجته: «إنّ هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها، وما سألني هذا عن بضاعته، فقالت لي هند: أو ما علمت شأنه؟ فقلت وأنا فزع: ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله»⁽³⁾.

ويبدو أنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) كان مختصاً في بيع الأقمشة، فعندما التقاه حكيم بن حزام في سوق حباشة اشترى منه نوع من أنواع الأقمشة، وبعد البعثة حصلنا علي روايتين تشيران إلي شراء رسول الله (صلي الله عليه وآله) هذا القماش من تجار قدموا إلي مكة⁽⁴⁾.

وفي رواية أنّ أحد تجار قبيلة زبيد اليمنية قدم مكة بتجارة فأراد بيعها إلي أبي جهل بن هشام، لكنّه ظلمه بثمانها، فأخذ الرجل يقول: «يا معشر قريش، كيف تدخل عليكم مادة أو جلب وأنتم تظلمون من دخل إليكم. وجعل يقف علي الحلق، حتّي انتهى إلي

رسول الله (صلي الله عليه وآله) وهو في أصحابه، فقال له رسول الله (صلي الله عليه وآله): من ظلمك؟ قال: أبو الحكم، طلب

ص: 520

1- . محمّد في مكة لواط: ص 76.

2- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 7 ص 59، عيون الأثر لابن سيّد الناس: ج 2 ص 332 - 333، تاريخ الإسلام للذهبي: ج 1 ص 51.

3- . البداية والنهاية، لابن كثير: ج 3 ص 223.

4- . سنن الترمذي: ج 3 ص 568، أخلاق النبي لأبي الشيخ: ص 120، أسد الغابة لابن الأثير: ج 2 ص 493.

منّي ثلاثة أجمال، هي خيار إبلي، فلم أبعه إياها بالوكس، فليس يبتاعها أحد منّي أتباعاً لمرضاته، فقد أكسد سلعتي وظلمني. فقال رسول الله(صلي الله عليه وآله): وأين أجمالك؟ قال: هي هذه بالحزّورة. فابتاعها رسول الله(صلي الله عليه وآله) منه، فباع جملين منها بالثمن الذي التمسّه، وباع البعير الثالث وأعطني ثمنه أرا ممل بني عبد المطلب»(1).

قد يتصوّر البعض أنّ انشغال رسول الله(صلي الله عليه وآله) بالتفكّر والتعبّد أبعده عن دائرة الأعمال؛ لأنّه الجزء الغالب علي مرويّات السيرة، وبالرغم من أنّ هذا الرأي قريب من الواقع، لكن في نفس الوقت نقول: إنّ التفكّر والتعبّد لم يأخذ كلّ وقت رسول الله(صلي الله عليه وآله)؛ لأنّه كما تذكر الروايات كان في أوقات معيّنة من السنة، وهذه الروايات التي قدّمناها تشير بوضوح إلي أنّه استمرّ في العمل التجاري، لكن ليس فيها ما يدلّ علي أنّه خرج إلي خارج مكّة للتجارة.

ولا يستبعد أن تبقى السيّدة خديجة تباشر إدارة أموالها وتجارته، وإذا رجّحنا هذا الاحتمال فهذا يعني أنّ زوجها رسول الله(صلي الله عليه وآله) لم يمنعه من ممارسة العمل التجاري والتصرّف الحرّ بمالها باسم القوامة الزوجية أو السلطة الدينية وهو صاحب التشريع؛ أي أنّ الإسلام لم يحرم المرأة من حقّها في العمل(2)، كما أنّنا ذكرنا أنّ القوافل المشتركة التي كانت تبعث بها قريش هيأت لها إرسال أموالها معها دون أن تخرج هي والرسول إلي التجارة بأنفسهما، وهذا ما تشير إليه رواية أبي سفيان.

لكن بالرغم من هذا العمل التجاري، فإنّ هذه الأموال أخذت تتناقص؛ لأن نسبة

الصرف كانت أعلي من نسبة التجارة. منذ أن تزوّج الرسول بالسيّدة خديجة وضعت أموالها تحت تصرّفه، وأورد أحد المصادر المتأخّرة رواية تؤيد هذا المعني: «أنّ النبي(صلي الله عليه وآله) عندما تزوّج خديجة كثر كلام الحسّاد فيها، فقالوا: إنّ محمّداً فقير وقد تزوّج بأغني النساء، فكيف رضيت خديجة بفقره؟ فلمّا بلغها ذلك أخذتها الغيرة علي محمّد(صلي الله عليه وآله) أن

ص: 521

1- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 130.

2- . التحرّر يبدأ في عقول الرجال والنساء لأمانة طيارة، مجلّة العربية، العدد 59، إبريل 2001م: ص 69 - 70.

يُعيَّر بالفقر، فدعت رؤساء الحرم وأشهدتهم أن جميع ما تملكه لمحمد، فإن رضي بفقره فذلك من كرم أصله، فتعجب الناس منها، وانقلب القول، فقالوا: إن محمداً أُمسي من أغني أهل مكة وخديجة أُمست من أفقر أهل مكة، فأعجبها ذلك»(1).

وهذه الرواية وإن لم يرد لها ذكر في المصادر المتقدمة وقد تكون تصوّراً أو استنتاجاً لما حدث، لكنّها تعبّر عن الواقع تماماً، فأموال السيِّدة خديجة أصبحت ملكاً لرسول الله (صلي الله عليه وآله) يتصرّف بها كيفما يشاء، وقد أشار القرآن الكريم إلي هذا المعني بقوله تعالى: (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنِي)(2)؛ أي وجدك فقيراً فأغناك بمال السيِّدة خديجة(3).

وعلاوة علي وضعها الأموال تحت تصرّفه، فإنّها كانت تتبع الناس الذين لهم علاقة بالرسول وتخصّهم بالصلاة، وهذه الصلاة كانت كبيرة، فمثلاً زيد بن حارثة ذكرنا أن حكيم بن حزام اشتراه لعمته خديجة من سوق عكاظ، وذكرت روايات أخرى أنّ الرسول رآه في أحد الأسواق، فأخبر السيِّدة خديجة فطلبت منه أن يشتريه، فاشتراه وأعتقه وتبّاه(4).

وأكرمت السيِّدة خديجة ثوية مولاة أبي لهب التي أرضعت الرسول عند ولادته بلبن ابنها مسروح، فكانت تأتي الرسول عند زواجه من السيِّدة فيكرمها وتكرمها هي، وبقيت هذه الصلات طيلة حياة السيِّدة خديجة، وطلبت من أبي لهب أن تشتريها منه، لكنّه رفض ذلك(5).

وفي رواية عن الواقدي أنّ حليلة بنت عبد الله بن الحارث السعدية مرضعة

ص: 522

1- . نزهة المجالس للصفوي الشافعي: ج 2 ص 168.

2- . الضحى: 9.

3- . مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي: ج 10 ص 506.

4- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 467، البدء والتاريخ للمقدسي: ج 5 ص 21، أسد الغابة لابن الأثير: ج 2 ص 281، سير أعلام النبلاء للذهبي: ج 1 ص 162، السيرة الحلبية: ج 1 ص 297.

5- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 108 - 109، أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 96، الاستيعاب لابن عبد البر: ج 1 ص 28، الوفا لابن الجوزي: ج 1 ص 107، نهاية الأرب للنويري: ج 16 ص 80 - 81.

الرسول قدمت عليه بعد زواجه من السيِّدة؛ تشكو إليه الفقر، فكلم رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة فأعطتها أربعين شاةً وبعيراً(1).

والتفت السيِّدة خديجة إلي عائلة أبي طالب، فأخذت ترسل لهم الصلوات والعطايا(2). ثم أخذ رسول الله (صلي الله عليه وآله) ابن عمه علي بن أبي طالب ورباه في حجره وفي بيت السيِّدة خديجة(3)، وعندما رأت تعلق الرسول به اهتمت به وكأنه ابنها، فأخذت تلبسه فاخر الثياب، وبالغت في إكرامه(4). وكل هذه العطايا والصلوات قبل أن يبعث رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وهي شيء كبير استمر خمس عشرة سنة من الزواج حتّى البعثة مع قلّة النشاط التجاري، وهذا يؤدّي إلي تناقص هذه الأموال، لكن بالرغم من هذا الاتّفاق بقيت هذه الأموال إلي البعثة ولعبت دوراً كبيراً كما سنري، ممّا يقودنا إلي القول إنّ حجم هذه الأموال كان كبيراً.

وعندما بعث رسول الله (صلي الله عليه وآله) ركّز كلّ جهوده علي الدعوة، فكانت أموال السيِّدة خديجة خير عون للإسلام والمسلمين، ومن المؤكّد أنّ المسلمين الذين فقدوا أموالهم وامتيازاتهم التجارية نتيجة اعتناقهم الإسلام، حصلوا علي مساعدات من هذا المال.

ولقد اتّبع المشركون أساليب متعدّدة في حربهم مع الرسول في مكّة، وكان يقف علي رأس هذه الأساليب العمل الاقتصادي، وقد رأينا أنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) لم يخرج في تجارة خارج مكّة، وهذا يعني أنّه اعتمد علي ما يرد إلي مكّة من سلع، سواء من تجار مكّة أو التجار القادمين إليها، فكان المشركون في هذه المرحلة يجبرون من يفد إلي مكّة أن لا يبيع المسلمين ومحمّد (صلي الله عليه وآله) خاصّة، ويخوفوهم بأنّ كلامه فيه سحر وغير ذلك؛

ص: 523

- 1- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 114، أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 95، الروض الأنف للسهيلى: ج 1 ص 192: صفة الصفوة لابن الجوزي: ج 1 ص 61 - 62 و 114، أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 95، المختصر لأبي الفداء: ج 1 ص 113.
- 2- . إثبات الوصية للمسعودي: ص 159.
- 3- . السيرة النبوية لابن هشام: ج 1 ص 228.
- 4- . إثبات الوصية للمسعودي: ص 159.

حتي لا يشتري منه ولا يبيعه أحد(1).

وكان أبو جهل «عمرو بن هشام» يشن حرباً اقتصادية علي من أسلم، فكان يأتي الرجل المسلم فيقول له إذا أسلم: «أترك دين أبيك وهو خير منك وتقبل شرفه؟ وإن كان تاجراً قال: ستكسد تجارتك ويهلك مالك، وإن كان ضعيفاً أغري به حتي يُعذب»(2).

وهذا يعني أن التجار لا يستطيعون أن يبيعوا محمداً وأتباعه؛ خوفاً من وجهاء قريش، كما أن المسلمين عندما يأتون بتجارة إلي مكة لن يجدوا من يشتريها منهم، خصوصاً وأن أكثر التجار كانوا مشركين.

هذا فضلاً عن أن الهجرة إلي الحبشة التي أمر بها الرسول أصحابه بعد أن أصابهم العذاب الشديد من المشركين، كانت تحتاج إلي أموال، وليس من المعقول أن يترك رسول الله(صلي الله عليه وآله) المحتاجين من أصحابه دون مساعدة، وليس كل

المهاجرين كانوا يمتلكون الأموال، فلو اطلعنا علي قائمة المهاجرين إلي الحبشة لوجدنا من بينهم فقراء، مثل عمارة بن ياسر وعبد الله بن مسعود؟ رضهما؟ وغيرهما(3)، لاسيما وأن المسلمين خرجوا من مكة هاربين وقد تركوا أموالهم وما يملكون، وكانوا بحاجة إلي نفقات الطعام والسفر.

ويؤيد هذا الرأي الرواية التي أوردتها المصادر عن أبي موسى الأشعري: «دخل عمر بن الخطاب علي حفصة وأسماء بنت عميس عندها، فقال حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت أسماء وقالت: كآء والله، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ويعط جاهلكم، وكنا في دار البعداء والبغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسول الله، وإيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتي

ص: 524

1- . البداية والنهاية لابن كثير: ج 3 ص 61.

2- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 198، البداية والنهاية لابن كثير: ج 3 ص 59.

3- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 204، وانظر أيضاً قائمة المهاجرين عنده: ج 1 ص 198 - 229.

أذكر ما قلت للنبي وأسأله، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا. قالت: قال: فما قلت له؟ قالت: كذا وكذا، قال: ليس بأحق بي منكم، له ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم هجرتان»(1).

والمكان الرئيس الذي أنفقت فيه أموال السيِّدة خديجة كان شِعْب أَبِي طَالِب، حيث إنَّ المشركين بعد أن يأسوا من ردِّ رسول الله(صلي الله عليه وآله) والمسلمين عن الدعوة الإسلامية، أخذوا يذهبون إلي أبي طالب في محاولة للتأثير فيه كي يتخلَّى عن ابن أخيه، لكنَّه رفض هذا الأمر وخرج به إلي الشَّعب، وخرجت معه بنو هاشم وبنو المظَّلِب، وقالوا: «نموت عن آخرنا قبل أن يوصل إلي رسول الله(صلي الله عليه وآله)»، فدخلوا إلي الشَّعب مسلمهم ومشرِكهم، المسلم لدينه والمشرِك حميَّةً»(2).

فلما رأت قريش ذلك كتبوا بينهم صحيفة تعاهدوا فيها علي أن «لا يبايعوا بني هاشم ولا يناكحوهم ولا يعاملوهم حتَّى يدفعوا إليهم محمَّد فيقتلوه»(3).

ويُتَّضح من بنود الصحيفة أنَّها فرضت مقاطعة اقتصادية واجتماعية علي رسول الله(صلي الله عليه وآله) ومن معه، وكان وقع هذه المقاطعة شديداً، حيث إنَّ التجارة هي المورد الرئيس للحياة في مكَّة، فعمل المشركون علي قطع هذا المورد علي المسلمين، فلم يكتفوا بأن لا يبايعوهم، بل ذهبوا أبعد من ذلك، حيث أجبروهم علي ألا يخرجوا إلي الأسواق إلَّا في مواسم الحجِّ ليشترى ما يحتاجون إليه(4)، لكن هذه الخطوة كانت محفوفة بالصعوبات؛ لأنَّ المشركين من كبار قريش كانوا يعملون علي زيادة أسعار السلع التي تقد إلي مكَّة، فالتاجر الذي يأتي مكَّة يدفعون إليه أعلى سعر مقابل سلعته؛ حتَّى لا يبيعها إلي بني هاشم، وكان الوليد بن المغيرة المخزومي ينادي: «فمن رأيتموه عنده طعام يشتره فزيدوا عليه وحولوا بينهم وبينه، ومن لم يكن عنده

ص: 525

- 1- . الجامع الصحيح للنيسابوري: ج 7 ص 172، الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 8 ص 281، مسند ابن حنبل: ج 4 ص 395، البداية والنهاية لابن كثير: ج 4 ص 205 - 206.
- 2- . أنساب الأشراف للبلاذري: ج 1 ص 230.
- 3- . حذف من نسب قريش، مؤرِّخ: ص 25، الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 208 - 209، تاريخ يعقوبي: ج 2 ص 25.
- 4- . الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 208، إمتاع الأسماع للمقريزي: ج 1 ص 25.

وكذلك كان حال أبي جهل وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث، فقد مارسوا شتي أنواع العروض والضغوط علي التجار؛ لئلا يبيعوا لبني هاشم شيئاً ثم يعودوا إليهم ليربحوهم علي سلعهم، حتّي أن بني هاشم وصلوا إلي درجة كبيرة من الجهد والبلاء «حتّي كان يُسمع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشّعب من الجوع»(2).

وكان عدد المحصورين في الشّعب كبيراً، وهذا العدد كان يحتاج إلي طعام ومؤونة، فكان مال السيّدة خديجة خير عون لهم في هذه الأزمة التي استمرّت ثلاث

سنوات، لكنّ صعوبة هذا الحصار أدّت إلي نفاد هذا المال، حيث ذكرت الروايات أن السيّدة خديجة كان لها مال كثير أنفقته في الشّعب، وكذلك فعل أبو طالب والرسول حتّي وصلوا إلي حدّ الفقر والفاقة(3).

وبعد أن خرج رسول الله(صلي الله عليه وآله) وبني هاشم من الشّعب الذي حوصروا فيه، كانت هذه الأموال قد شارفت علي الفناء، لكن بقي منها ما مكّن الرسول من إدامة حياته حتّي الهجرة إلي المدينة، ففي رواية أن رسول الله(صلي الله عليه وآله) عندما أراد الهجرة اشترى أبو بكر 2 بعيرين، فقدّم أحدهما إلي الرسول، فقال له الرسول: «لا، ولكن بالثمن الذي ابتعتها به. قال: أخذتها بكذا وكذا، قال: قد أخذتها بذلك، قال: هي لك. والحكمة في أنّه أحبّ أن لا تكون هجرته إلّا من مال نفسه»(4).

ص: 526

1- . السير والمغازي لابن إسحاق: ص 159.

2- . السير والمغازي لابن إسحاق: ص 150، الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 209، النزاع والتخاصم للمقريزي: ص 24.

3- . تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 25، أعلام الوري للطبرسي: ص 60، مناقب ابن شهر آشوب: ج 1 ص 58.

4- . تاريخ الطبري: ج 2 ص 375، مروج الذهب للمسعودي: ج 2 ص 279.

1. إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب ، المنسوب إلي أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت346هـ)، بيروت: دار الأضواء، الطبعة الثانية، 1409هـ .
 2. الأخبار الموقّيات، أبو عبد الله الزبير بن بكار القرشي (ت256هـ)، تحقيق: سامي مكّي العاني، قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى، 1416هـ .
 3. أخبار مكّة، أبو الوليد محمّد بن عبد الله بن أحمد الأزرق (ت بعد 223هـ)، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى، 1411هـ .
 4. الاستيعاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ النمري (ت463هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاوي، بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412هـ .
 5. أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن عزّالدين علي بن أبي الكرم محمّد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجَزري (ت630هـ)، تحقيق: علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
 6. الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن الحجر العسقلاني (ت852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415هـ .
 7. الأعلام النفيسة، أحمد بن عمر بن رسته (ابن رسته) (ق4هـ)، ترجمة وتعليق: حسينقرچانلو، طهران: أمير كبير، 1365ش.
- إعلام الوري بأعلام الهدي، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق:
1. مؤسّسة آل البيت، قم: مؤسّسة آل البيت، الطبعة الأولى، 1417هـ .

2. الأغاني، أبو الفرج الإصفهاني (ت356هـ)، تحقيق: عبد علي مهنا، وسمير جابر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1407هـ .
3. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت279هـ)، إعداد: محمد باقر المحمودي، بيروت: دار المعارف، الطبعة الثالثة.
4. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار:، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت1110هـ)، تحقيق: دار إحياء التراث، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الأولى، 1412هـ .
5. البدء والتاريخ، أحمد بن سهل البلخي (ت507هـ)، مكة: مكتبة الثقافة الدينية.
6. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت774هـ)، تحقيق: مكتبة المعارف بيروت: مكتبة المعارف الطبعة الثالثة، 1408هـ .
7. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1409هـ .
8. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الحسين بن محمد الديار بكري (معاصر)، بيروت: مؤسسة شعبان.
9. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، 1968م .
10. التاريخ الكبير، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، تحقيق: المعلمي اليماني، بيروت: دار الفكر، 1407هـ .
11. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المعروف باليعقوبي (ت284هـ)، بيروت: دار صادر.
1. تاريخ دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله (ابن عساكر الدمشقي) (ت571هـ)، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار الفكر، 1415هـ، الطبعة الأولى.

2. تفسير الألووسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع من المثاني)، أبو الفضل شهاب الدين محمود الألووسي البغدادي (ت1270هـ) تحقيق: محمود الشكري، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الرابعة، 1405هـ .
 3. جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ .
 4. حياة الحيوان الكبرى، محمد بن موسى الدميري (ت808هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
 5. حياة محمد، محمد حسين هيكل (ت1956م)، تعليق: عبدالرحيم الموسوي، قم: المجمع العالمي لأهل البيت، 1386.
 6. خديجة بنت خويلد، السيد نبيل الحسني، كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة، 1432هـ .
 7. الخصائص الكبرى، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1405هـ .
 8. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت458هـ) تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1405هـ .
 9. الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام، عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي (ت581هـ)، تحقيق: عبدالرحمن الوكيل، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ .
 10. السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري (ت694هـ)، تحقيق: محمد علي قطب، القاهرة: دار الحديث، 1408هـ .
- سنن أبي داود، سليمان بن أشعث السجستاني الأزدي (ت275هـ)، تحقيق: سعيد
1. محمد اللحام، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، الأولى، 1410هـ .
 2. سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت279هـ)، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الفكر، دار إحياء التراث، 1357هـ .

3. سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، 1414هـ .
4. السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي (ت1044هـ)، بيروت: دار الإحياء التراث العربي، دار المعرفة، 1400هـ .
5. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري (ابن هشام) (ت218هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، قم: مكتبة المصطفى، الطبعة الأولى، 1355هـ .
6. شرح نهج البلاغة، عبد الحميد بن محمد المعتزلي (ابن أبي الحديد) (ت656هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار إحياء التراث، الطبعة الثانية، 1387هـ .
7. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، أبو الطيب محمد بن أحمد الفاسي المكي (ت832هـ)، تحقيق: لجنة من كبار العلماء والأدباء، بيروت: دار الكتب العلمية.
8. صحيح مسلم (الجامع الصحيح)، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت261هـ)، تحقيق ونشر: دار الفكر، بيروت.
9. صفة الصفوة، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي (ابن الجوزي) (ت597هـ)، تحقيق: محمود فاخوري و محمد قلعة جي، حلب: دار الوعي، الطبعة الأولى، 1389هـ .
10. الطبقات الكبرى (الطبقة الخامسة من الصحابة)، ابن سعد، محمد بن سعد الزهري (كاتب واقدى) (ت1414هـ)، تحقيق: محمد بن صامل سلمى، بيروت: دار صادر، والطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى، 1414هـ .
11. عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير (السيرة النبوية لابن سيد الناس)، محمد عبد الله بن يحيى بن سيد الناس (ت734هـ)، بيروت: مؤسسة عز الدين، 1406هـ .

الكامل في التاريخ، علي بن محمد الشيباني الموصلي (ت630هـ)، تحقيق: علي

1. شيري، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ .

2. كشف الغمّة، علي بن عيسى الإربلي (ت687هـ)، تصحيح: السيد هاشم الرسولي، بيروت: دار الكتاب، 1401هـ .

3. لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم المصري (ابن منظور) (ت711هـ)، قم: أدب الحوزة، 1405هـ، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى، 1410هـ .

4. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت548هـ)، تحقيق: السيّد هاشم الرسولي المحلّاتي والسيّد فضل الله اليزدي الطباطبائي، بيروت: الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، 1415هـ، ودار المعرفة، الطبعة الثانية، 1408هـ .
5. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي (ت807هـ)، تحقيق: عبد الله محمّد درويش، بيروت: دار الكتب العلمية، 1408هـ .
6. المُحجّر، أبو جعفر محمّد بن حبيب الهاشمي البغدادي (ت245هـ)، تحقيق: ايلزه ليختن شتير، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، مطبعة الدائرة، 1361هـ .
7. المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء)، عماد الدين إسماعيل بن أبي الفداء (ت732هـ)، القاهرة: مكتبة المتنبّي.
8. مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت346هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الرابعة، 1384هـ .
9. مسند ابن حنبل، أحمد بن محمّد الشيباني (ابن حنبل) (ت241هـ)، تحقيق: عبد الله محمّد الدرويش، بيروت: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1414هـ .
10. المصنّف، أبو بكر عبد الرزّاق بن همّام الصنعاني (ت211هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: المجلس العلمي، 1390هـ .
11. المعارف، ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة دينوري (ت276هـ)، تحقيق: ثروت عكاشة، القاهرة: دار المعارف.
1. معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت626هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1399هـ .
2. معجم ما استعجم، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت487هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، بيروت: عالم الكتب، الطبعة الثالثة، 1403هـ .
3. معرفة القراء الكبار علي الطبقات والأعصار، شمس الدين محمّد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، تحقيق: بشّار عواد معروف، شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسّسة الرسالة.

4. المغازي، محمّد بن عمر بن واقد (الواقدي) (ت207هـ)، تحقيق: مارسدن جونز، بيروت: عالم الكتب، 1404هـ، الطبعة الثالثة.
5. مناقب آل أبي طالب (المناقب لابن شهر آشوب)، أبو جعفر محمّد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ابن شهر آشوب) (ت588هـ)، تحقيق: هاشم الرسولي المحلّاتي، قم: منشورات علامّة.
6. المنتخب في المراثي والخطب، فخر الدين الطريحي (ت1085هـ)، بيروت: دار الأعلمي للمطبوعات، 1412هـ.
7. المواهب اللدنية بالمنح المحمّدية، أحمد بن محمّد القسطلاني (ت923هـ)، تحقيق: صالح أحمد الشامي، بيروت: المكتب الإسلامي، 1412هـ.
8. النزاع والتخاصم فيما بين بني أميّة وبني هاشم، تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي (ت845هـ)، تحقيق: حسين مونس، قم: الشريف الرضي، 1412هـ.
9. نزهة المجالس ومنتخب النفائس، عبدالرحمن الصفوري الشافعي، دمشق: دار الإيمان.
10. نسب قريش، مصعب بن عبدالله الزبيري (ت236هـ)، تحقيق: بروفنسل، القاهرة: دار المعارف.
11. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهّاب النويري (ت733هـ)، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الطبعة الأولى، 1395 و1396.
1. الوسيط في السيرة النبوية، هاشم يحيي ملاح، بغداد: مطبعة جامعة الموصل، 1370هـ.
2. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، نور الدين علي بن أحمد السمهودي (ت911هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، 1401هـ.

إشارة

* عناوين هامة في ترجمة السيدة خديجة (عليها السلام) ومصادرها (1)

التحرير مجلة علوم الحديث

ملخص البحث:

يستعرض هذا البحث كنية السيدة خديجة بنت خويلد، وألقابها وصفاتها، وعمرها، وقصة زواجها من النبي (صلي الله عليه وآله)، ومقدار مهرها، وعمرها يوم زواجها بالنبي. ويبيّن جوانب من فضائلها، مؤكداً أن لها بيتاً في الجنة. المنهج الذي اعتمده هذا البحث منهج مكثبي توثيقي؛ حيث يتقصّي فيه الكتب والمصادر التي أرخت حياة وسيرة أم المؤمنين السيدة خديجة، كما يشير فيه أيضاً إلى أنّها كانت قبل زواجها بالنبي، قد تزوّجت شخصاً آخر وأنجبت منه ذكراً أو إناثاً (حسب اختلاف الأقوال)، ويقدم نبذة عن كلّ منهم، ويذكر أسبابها، ولكن هناك من المؤرّخين من ينكر زواجها بأحدٍ قبل النبي (صلي الله عليه وآله)، وأنّ رسول الله لم يتزوّج عليها إلى أن توفيت، ويتحدّث عن تاريخ وفاتها، وما ورثه النبي منها. ويتطرّق إلى ذكر نسبها واسم ونسب أبيها وأُمّها وجدّتها، وأختها هالة بنت خويلد، وابن أختها أبي العاص، صهر رسول الله، وأخيها، وغيرهم من أقاربها. ويختتم هذا البحث بذكر وفاتها مع بيان اختلاف الأقوال في ذلك. ويسرد ما كُتب حولها من الكتب والمؤلفات.

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة على سيّد الأنبياء والمرسلين محمّد وعلي آله الأئمّة المعصومين. وبعد؛ فإنّ الحديث عن أمّ المؤمنين الطاهرة خديجة بنت خويلد عقيلة رسول

ص: 533

اللّه (صلي الله عليه وآله) ذو شجون، فيكفي أنّها كانت في بدء الإسلام من أقوي المؤازرين له والمناصرين إلي جانب سيّد البطحاء أبي طالب لتملأ الصحف عن دورها هذا وأهمّيته وأثره.

ومن واضح القول إنّ موقفها تكفّل لنصف الإسلام بالحياة، حتّى قيل: «ما قام الإسلام إلا بسيف عليّ وأمّوال خديجة». ولكنّ الأهمّ من ذلك الدعم النفسي والمعنوي الذي أدّته هذه المرأة المؤمنة في ذلك الظرف الحرج الحساس، والذي يمثّل وجود العنصر النسوي نصف المجتمع البشري، والذي يؤكّد في نفس الوقت علي أهمّية هذا العنصر ومساواته للرجل في أداء الدور الصحيح في النظام الإسلامي، وفي أخطر مراحلها وأهمّها حساسيّة. وقد تقدّم في المقال السابق بعض ما جمعه كاتبه عن هذه السيّدة العظيمة من حديث، وكان لنا جهد مجموع سابقاً، بشكل «قصاصات» تحتوي علي «عناوين» حول السيّدة الطاهرة، مع ذكر مصادرها، أحببنا أن نقدّمها هنا كما هي؛ لتعمّ فائدتها، وليتمّ بها ما ربّما فات ذلك المقال من عنوان أو مصدر. وباللّه التوفيق فهو خير معين.

كنيتها: تُكنّي أمّ هند. المنتخب من ذيل المذيل علي الطبري: ص2، وبحار الأنوار للمجلسي: ج16 ص12.

لقبها: كانت تُدعي في الجاهليّة الطاهرة بنت أسد. المعجم الكبير للطبراني: ج22 ص448.

المتفرّسة: عن أنس: سمعت عليّ بن أبي طالب يقول: المتفرّسون في الناس أربعة؛ امرأتان ورجلان. وعدّ: صفرا بنت شعيب، وخديجة بنت خويلد. الخطيب في تاريخه: ج10 ص357، والغدير للأميني: ج5 ص318.

المباركة: التعبير عن خديجة بالمباركة في الوحي إلي المسيح في وصف النبي (صلي الله عليه وآله): نسله من مباركة، وهي ضرة أمّك في الجنة... الخبر. بحار

الأنوار: ج21 ص352.

صفتها: كانت مشرقة الرباعيّة، كما في دلائل الإمامة لابن جرير الطبري الشيعي: ص151. قال: كان جعفر بن محمّد مشرق الرباعيّة، كانت خديجة بنت خويلد مشرقة

ص: 534

عمرها: في شرح أصول الكافي للمولي المازندراني: ج 7 ص 143: تزوجها النبي (صلي الله عليه وآله) وهي بنت أربعين سنة، وأقامت معه أربعاً وعشرين سنة، وتوفيت وهي بنت أربع وستين سنة وستة أشهر، وسن رسول الله (صلي الله عليه وآله) حين تزوجها إحدى وعشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة، وقيل ثلاثة وثلاثون سنة.

تزوجها: عن عمّار بن ياسر أنه قال: أنا أعلم الناس بتزويج رسول الله خديجة بنت خويلد؛ كنتُ صديقاً له. تاريخ يعقوبي: ج 2 ص 20. مهرها: في مقدارها روايات:

1. أصدقها رسول الله (صلي الله عليه وآله) عشرين بكرة. سيرة ابن هشام الحميري: ج 4 ص 1058.
 2. وعن ابن عباس أنه تزوجها وهي ابنة ثمانين سنة، ومهرها اثنتي عشرة أوقية، وكذلك كانت مهور نسائه. بحار الأنوار: ج 16، 12.
 3. وعن الشيخ أبي الحسن البكري في الأنوار، في خبر طويل في تزويج خديجة، قال: مهرها المعجل دون المؤجل أربعة آلاف دينار ذهباً، ومائة ناقة سود الحدق حمر الوبر، وعشر حلل، وثمانية وعشرون عبداً وأمةً. رواه النوري في المستدرک الرقم 16511.
- عام النكاح: وقت نكاحه بعد السنة التي نكحها فيها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، هدمت قريش الكعبة بعشر سنين، ثم بنتها، وذلك في قول ابن إسحاق في سنة

خمس وثلاثين من مولد رسول الله (صلي الله عليه وآله). تاريخ الطبري: ج 2 ص 36 - 37.

يوم زواجها: في شهر ربيع الأول يوم العاشر منه، تزوج النبي (صلي الله عليه وآله) بخديجة بنت خويلد، وله يومئذ خمس وعشرون سنة. مصباح المتهجد للشيخ الطوسي: ص 791. وقال السيد ابن طاووس الحلبي في إقبال الأعمال: ج 3 ص 115: ويستحب صيامه شكراً لله تعالى علي توفيقه بين رسوله والصالحة الرضية المرضية. عنه بحار الأنوار: ج 98 ص 357.

خطبة أبي طالب : وردت في مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج 1 ص 39، والطرائف للسيد ابن طاووس: ص 307 - 397، وذكره الفقيه ابن المغازلي في المناقب، وإعجاز القرآن للباقلاني: ص 153، وصبح الأعشى: ج 1 ص 213، والغدير للشيخ الأميني: ج 7 ص 274، وراجع طبقات ابن سعد: ج 1 ص 113، وتاريخ الطبري: ج 1 ص 227، وأعلام الماوردي: ص 114، وصفوة الصفوة لابن الجوزي: ج 1 ص 25، والكامل لابن الأثير: ج 2 ص 15، وتاريخ ابن كثير: ج 2 ص 294، وتاريخ الخميس: ج 1 ص 299، وعيون الأثر: ج 1 ص 49، وأسد الغابة: ج 5 ص 435، والروض الأنتف: ج 1 ص 122، وتاريخ ابن خلدون: ج 2 ص 172، والمواهب اللدنية: ج 1 ص 50، والسيرة الحلبية: ج 1 ص 149 - 501، وشرح المواهب للزرقاني، وسيرة زيني دحلان هامش الحلبية: ج 1 ص 114، وفي الدرجات الرفيعة لابن معصوم: ص 51: قالت الإمامية: ومما يدلّ علي إيمان أبي طالب خطبة النكاح التي خطبها عند نكاح رسول الله (صلي الله عليه وآله) خديجة بنت خويلد . ورواها الكليني في الكافي: ج 5 ص 374، الشيخ الصدوق في من لا يحضره الفقيه: ج 3 ص 25 ح 1198 وج 3 ص 397 ح 4398، ورواه الشيخ المفيد في المسح علي الرجلين: ص 29، وابن فهد الحلبي في المهذب البارع: ج 3 ص 177، ومراة العقول: ج 20 ص 98 - 99، وعوالي اللالئ لابن أبي جمهور الأحسائي:

ج 3 ص 298 ح 78، عن الكافي في الفروع كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، والمجلسي في بحار الأنوار: ج 16 ص 13 - 14 وج 16 ص 19، والنوري في مستدرک الوسائل: ج 14 ص 202، وقال: وروي هذه الخطبة ابن شهر آشوب في مناقبه عن جماعة كثيرة. ورواها العامة: في المجموع للنووي: ج 16 ص 129 - 130، وفي جواهر العقود للمنهاجي الأسيوطي: ج 2 ص 3، وتاريخ ابن خلدون: ق 2 ج 2 ص 50.

نحر أبي طالب ناقة: في المهذب البارع لابن فهد الحلبي: ج 1 ص 177.

تهمة تزويجها من أبيها وهو سكران، من الزهري

نقل ابن سعد في الطبقات الكبرى: ج 1 ص 132 - 133: إنّ خديجة سقت أبها الخمر

ص: 536

حتّى ثمل، ونحرت بقرّة، وخلّفته بخلوق وألبسته حلّة حبرة، فلمّا صحا قال: ما هذا العقير؟ وما هذا العبير؟ وما هذا الحبير؟ قالت: زوّجتني محمّداً. قال: ما فعلت، أنا أفعلُ هذا وقد خطبتك أكابرُ قريشٍ؟ فلم أفعل!

وهذا ما ذكره الزهري في سيرته.

لكنّ العلماء أجمعوا علي بطلانه، قال محمّد بن عمر: فهذا كلّه عندنا غلطٌ ووهل، والثبّت عندنا المحفوظ عن أهل العلم: أنّ أباهما خويلد بن أسد مات قبل الفجّار، وأنّ عمّهما عمرو بن أسد زوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله). قال في الطبقات الكبرى: ج 1 ص 132: عن محمّد بن جبير بن مطعم، وعن عائشة، وعن ابن عبّاس، قالوا: إنّ عمّهما عمرو بن أسد زوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وإنّ أباهما مات قبل الفجّار. ونقله المجلسي في بحار الأنوار: ج 16 ص 12 و 19.

وقال في الطبقات الكبرى: ج 8 ص 14: وهذا المجمع عليه عند أصحابنا ليس بينهم فيه اختلاف. وقال في ج 1 ص 132 عن ابن عبّاس: زوّج عمرو بن أسد بن عبد العزّي بن قصيّ، خديجة بنت خويلد النبي (صلي الله عليه وآله)، وهو يومئذ شيخٌ

كبيرٌ لم يبق لأسد لصلبه يومئذٍ غيره، ولم يلد عمرو بن أسد شيئاً.

وتاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 20، وتاريخ الطبري: ج 2 ص 35، والبداية والنهاية لابن كثير: ج 2 ص 361، ونقله في عيون الأثر لابن سيّد الناس: ج 1 ص 72 عن الواقدي، ثمّ قال: ورأيت ذلك عن غير الواقدي. وقد قيل: إنّ أخاه عمرو بن خويلد هو الذي أنكحها منه، والله أعلم.

وقال الصالحي في سُبُل الهدى: ج 2 ص 165 - 166: إنّ عمّهما هو الذي زوّجها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، ذكره أكثر علماء أهل السير. قال السهيلي: وهو الصحيح، لما رواه الطبري عن جبير بن مطعم وابن عبّاس وعائشة كلّهم. ورّجّحه الواقدي وغلّط من قال بخلافه.

وقال عمر المؤملي: المجمع عليه أنّ عمّهما عمرو بن أسد هو الذي زوّجها منه.

وهذا هو الذي رجّحه السهيلي، وحكاه عن ابن عبّاس وعائشة، وكان خويلد مات قبل الفجّار.

ص: 537

ومن هذا الباب ذكرهم تعدد أزواجها

كتاب المحبّر لابن حبيب البغدادي: ص 452: وتزوجت خديجة بنت خويلد (عليها السلام) أبا هالة، هند بن النباش الأسيدي، فولدت له ابناً يقال له: هند. ثم خَلَفَ عليها عتيق بن عابد، فولدت له جاريةً يقال لها هند. ثم خَلَفَ عليها رسول الله (صلي الله عليه وآله).

وكذا في أسد الغابة: ج 6 ص 78 الرقم 6867، وشرح أصول الكافي للمازندراني: ج 7 ص 143، وشرح الأخبار للمغربي: ج 3 ص 15. ونقله في البداية والنهاية لابن كثير: ج 5 ص 314 عن الزُّهري.

لكن في تاريخ الطبري: ج 2 ص 410 - 411: كانت قبله عند عتيق بن عابد، فولدت

لعتيق جاريةً، ثم توفّي عنها، وخَلَفَ عليها أبو هالة بن زرارة بن نَبَاش، وهو في بني عبد الدار بن قصي، فولدت لأبي هالة هند بنت أبي هالة، ثم توفّي عنها، فخَلَفَ عليها رسول الله وعندها ابن أبي هالة. ولم يتزوج رسول الله (صلي الله عليه وآله) علي خديجة حتّى مضت لسبيلها. وجاء ذكر الأزواج في شرح الأخبار للمغربي: ج 1 ص 183، ومروج الذهب: ج 2 ص 275، والأنوار للبكري: ص 278، ومحمد وعليّ وبنوه الأوصياء للشيخ العسكري: ج 1 ص 134، ومناقب ابن شهر آشوب: ج 1 ص 41.

ومنهم من ينكر زواجها قبل النبي، ويقول: إنّ البنات ربائب النبي (صلي الله عليه وآله)، كالخصيبي في الهداية الكبرى: ص 39. ولم يصحّ خبر زواجها من أحد غير رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وبه قال أبو القاسم الكوفي في الاستغاثة: ص 68، ولاحظ: التعجب للكراچكي: ص 35.

ويدلّ علي ذلك القول بأنّها كانت عذراء، في مناقب ابن شهر آشوب: ج 1 ص 137.

إسلامها: مسند أحمد بن حنبل: ج 1 ص 209، وخصائص أمير المؤمنين للنسائي: ص 45، وتاريخ الطبري: ج 2 ص 21، والرياض النضرة: ج 2 ص 158، والاستيعاب: ج 2 ص 459، وعيون الأثر: ج 2 ص 93، والكامل لابن الأثير: ج 2 ص 22، والسيرة الحلبيّة: ج 1 ص 288، والإصابة: ج 2 ص 487، والغدير: ج 3 ص 226، والمناقب للخوارزمي: ص 20، ومسند أبي يعلي الموصلي: ج 3 ص 118، والغدير للأميني: ج 3 ص 227، وتاريخ الطبري: ج 2 ص 21، والسيرة الحلبيّة: ج 1 ص 288، والمناقب

للخوارزمي: ص 56، وشواهد التنزيل للحسكاني: ج 2 ص 222 ح 937، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج 13 ص 225، وخصائص النسائي: ص 36 عن عفيف الكندي، وتاريخ الطبري: ج 2 ص 56، والمعجم الكبير للطبراني: ج 10 ص 183/10397 وج 18 ص 101 و102، وشرح نهج البلاغة: ج 4 ص 120، وضعفاء العقيلي: ج 1 ص 27، والكامل لابن عدي: ج 1 ص 399 - 400، والمجبر لابن حبيب: ص 9 و408، وتاريخ يعقوبي: ج 2 ص 23.

وهي أول من أسلم: الفصول المختارة للشيخ المفيد: ص 258، والإرشاد له: ج 1 ص 29، وبحار الأنوار للمجلسي: ج 18 ص 208، وذخائر العقبي للطبري: ص 59، وتاريخ الطبري: ج 1 ص 53 و61.

موقف الرسول منها وموقفها من الرسول

وكانت خديجة وزيرة صدقٍ علي الإسلام، وكان رسول الله (صلي الله عليه وآله) يسكنُ إليها. في أسد الغابة: ج 6 ص 78 الرقم 6867، بحار الأنوار للمجلسي: ج 16 ص 10.

إرث النبي (صلي الله عليه وآله) منها: الإفصاح للشيخ المفيد: ص 212.

مآلها: الإفصاح للشيخ المفيد: ص 217، ومسند أحمد بن حنبل: ج 6 ص 117، وسير أعلام النبلاء: ج 2 ص 117، وكنز العمّال: ج 1 ص 2، قال الشوكاني في فتح القدير (ج 5 ص 458) في تفسير قوله تعالى: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا): قيل: بمال خديجة بنت خويلد.

شعرها: في الغدير للأميني: ج 2 ص 17: في تمرغ البعير وجهه علي قدمي النبي ونطقه بفضله، قولها:

نطقَ البعيرُ بفضل أحمدٍ مخبرا

هذا الذي شرفت به أمّ القرى

هذا محمّد خير مبعوثٍ أتى

فهو الشفيع وخير من وطئ الثرى

يا حاسديه تمزّقوا من غيضكم

فهو الحبيب ولا سواه في الوري

حديثها: مسند أبي يعلي الموصلي: ج 12 ص 504.

تألّفها لعلّي: جواهر المطالب في مناقب الإمام علي

لابن الدمشقي: ج 1 ص 39 - 40.

كان المجلس عندها يوم الدار: قرب الإسناد للحميري القمّي: ص 325. راجع عن يوم الدار: تاريخ الطبري: ج 2 ص 311، كنز الفوائد: ج 1 ص 262، مصباح الأنوار: ص 75، كفاية الطالب: ص 128، مناقب الخوارزمي: ص 21، وباختلاف يسير في مسند أحمد بن حنبل: ج 1 ص 209، الضعفاء الكبير للعقيلي: ج 1 ص 27 وهامشه،

المستدرک للحاکم: ج 3 ص 183، الإصابة: ج 2 ص 487، الاستيعاب: ج 3 ص 32، مناقب ابن شهر آشوب: ج 2 ص 18، الكامل لابن الأثير: ج 2 ص 57، إعلام الوري: ص 49، ونقله المجلسي في البحار: ج 38 ص 244 ح 40.

وهي مع بني هاشم في الشعب: تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 31، تاريخ الطبري: ج 2 ص 74.

فضائلها

لها بيت في الجنة: المصنّف لعبد الرزّاق الصنعاني: ج 1 ص 430، وشرح الأخبار للمغربي: ج 3 ص 18، والعمدة لابن البطريق: ص 393، وصحيح مسلم: ج 7 ص 133، ورواه البخاري في 63 كتاب مناقب الأنصار، باب 20، ومسلم في 44 كتاب فضائل الصحابة، باب 12 ح 71 ص 1887. قال السهيلي: وإتما يعني قصب اللؤلؤ؛ لأنّها حازت قَصَبَ السبق إلي الإيمان، لا صخب فيه ولا نصب؛ لأنّها لم ترفع صوتها علي النبي (صلي الله عليه وآله)، ولم تُتعبه يوماً من الدهر، فلم تصخب عليه يوماً ولا آذته أبداً. فتح الباري: ج 7 ص 133، ومسند أحمد: ج 6 ص 58.

أفضل نساء أهل الجنة: مسند أحمد بن حنبل: ج 1 ص 293 و 322، الاستيعاب لابن عبد البرّ بهامش الإصابة: ج 4 ص 284، والمستدرک للحاکم: ج 3 ص 160 و ج 2 ص 497، تلخيص المستدرک للذهبي بذيّل المستدرک: ج 3 ص 160 وصحّحه، ذخائر العقبي للطبري: ص 42، أسد الغابة لابن الأثير: ج ص 437/5، الإصابة لابن حجر: ج 4 ص 378، ينابيع المودّة للقندوزي: ص 172 و 173 و 246 و 198 ط إسلامبول و ص 202 و 204 و 234 ط الحيدرية، ونقله في إحقاق الحقّ: ج 10 ص 52 عن مشكل الآثار للطحاوي: ج 8 ص 14، الاعتقاد للبيهقي: ص 165، تاريخ الإسلام

ص: 540

للذهبي: ج2 ص92، تذهيب التهذيب للذهبي: ص134، البداية والنهاية لابن كثير:

ج2 ص59، تهذيب التهذيب لابن حجر: ج12 ص441، كنز العمال: ج13 ص26 ط2 حيدر آباد، منتخب الكنز بهامش مسند أحمد: ج5 ص284، الخصائص للسيوطي: ج2 ص295 ط عبد اللطيف بمصر، الجامع الصغير للسيوطي: ج1 ص168، طرح التثريب: ص169، إرشاد الساري: ج6 ص168، البيان والتعريف للحمزاوي: ج1 ص123، وسيلة المآل للحضرمي: ص80، حسن الأسوة: ص31، الفتح الكبير للنبهاني: ج1 ص214، أرجح المطالب: ص24 و240، ذخائر العقبي للطبري: ص42، وأخرجه الحاكم في مستدركه: ج3 ص185، ورواه أيضاً أبو يعلي الموصلي في مسنده والطبراني وأحمد.

وانظر: تفسير الدرّ المنثور: ج6 ص246. وقد رواه ابن حجر في ترجمة فاطمة بنت رسول الله (صلي الله عليه وآله) من كتاب تهذيب التهذيب: ج12 ص441، ورواه عبد بن حميد الكسي في مسنده، ورواه ابن حبان تحت الرقم 2222 من كتاب موارد الظمان، ورواه كل من الترمذي والسنن الكبرى للنسائي، مع ذيل طويل، وانظر: مناقب أمير المؤمنين لمحمد بن سليمان الكوفي: ج2 ص187.

سيّدات نساء أهل الجنة أربع: المستدرک للحاكم: ج3 ص185 وج3 ص235.

اشتأقت الجنة إلي أربع من النساء: بحار الأنوار للمجلسي: ج43 ص53، ومن كتاب مولد فاطمة لابن بابويه: بحار الأنوار: ج49 ص208 وج75 ص446.

خير نسائه: مسند أبي يعلي الموصلي: ج1 ص522/399).

سيّدة نساء العالمين: ابن أبي شيبة في فضائل فاطمة من كتاب الفضائل تحت الرقم 13323 من كتاب المصنّف: ج12 ص127، وقريباً منه الحاكم، وصحّحه هو والذهبي في المستدرک: ج3 ص156، مناقب محمد بن سليمان الكوفي: ج2 ص197.

أفضل نساء العالمين: المستدرک للحاكم: ج2 ص594.

ص: 541

خير نساء العالمين أربع: يوجد في المصنّف لعبد الرزّاق الصنعاني: ج 7 ص 492:493، والآحاد والمثاني للضحّاك: ج 5 ص 2961/364، والسنن الكبرى للبيهقي: ج 6 ص 367، ومجمع الزوائد للهيتمي: ج 9 ص 218، والاستيعاب لابن عبد البرّ بهامش الإصابة: ج 4 ص 377 وص 284 وص 285، والإصابة لابن حجر العسقلاني: ج 4 ص 378، وأسد الغابة لابن الأثير: ج 5 ص 437، وذخائر العقبي للطبري: ص 44، وينايع المودّة للقندوزي: ص 204 وص 218 ط الحيدرية وص 173 ط إسلامبول، وشرح الأخبار للمغربي: ج 3 ص 525، والعمدة لابن البطريق: ص 58، وبحار الأنوار للمجلسي: ج 43 ص 51، وكشف الغمّة للأربلي عن كتاب معالم العترة لعبد العزيز ابن الأخضر الجنازدي، وصحيح مسلم: ج 7 ص 132، وسنن الترمذي: ج 5 ص 366 الرقم 3980، وصحيح ابن حبان: ج 15 ص 402، والمعجم الكبير للطبراني: ج 22 ص 402 وج 23 ص 11 - 16، ورياض الصالحين للنووي: ص 209 الرقم 44، وتفسير القرطبي: ج 4 ص 83، والدرّ المنثور للسيوطي: ج 2 ص 23 عن ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه، وفتح القدير للشوكاني: ج 1 ص 339، تاريخ بغداد للخطيب: ج 7 ص 194 وج 9 ص 411، وتاريخ مدينة دمشق: ج 70 ص 106 وص 111 وص 112.

اختار الله أربعة: كتاب النوادر للراوندي: ص 260، ومناقب ابن شهر آشوب: ج 3 ص 104، عن كتاب أبي بكر الشيرازي، وبحار الأنوار للمجلسي: ج 29 ص 345 وج 43 ص 936 عن الشيرازي وعن مقاتل، وأبو نعيم في الحلية وابن البيع في المسند والخطيب في التاريخ وابن بطة في الإبانة والسمعاني في الفضائل بأسانيدهم عن أنس، وروي الثعلبي في تفسيره والسلامي في تاريخ خراسان وأبو صالح المؤدّن في الأربعين بأسانيدهم عن أبي هريرة.

في رواية مقاتل والضحّاك وعكرمة عن ابن عباس: وأفضلهنّ فاطمة.

حسبك من نساء العالمين: يوجد في المصنّف للصنعاني: ج 11 ص 430،

ص: 542

والمصنّف لابن أبي شيبة: ج 7 ص 530، ومسند أبي يعلى الموصلي: ج 5 ص 380 الرقم 3039، وصحيح الترمذي: ج 5 ص 367 ح 3981، والمستدرک للحاکم: ج 3 ص 157 وص 158، وتلخیص المستدرک للذهبي: ج 3 ص 158، والاستيعاب لابن عبد البر مطبوع بهامش الإصابة: ج 4 ص 285 وص 377، والإصابة لابن حجر: ج 4 ص 378، وذخائر العقبي للطبري: ص 43، وينايع المودّة للقندوزي: ص 172 وص 183 وص 198 ط إسلامبول وص 199 وصحّحه وص 202 وص 234 ط الحيدرية، ومناقب علي بن أبي طالب لابن المغازلي: ص 363 ح 409، والفصول المهمّة لابن الصبّاغ: ص 129، ومصابيح السنّة للبغوي: ج 2 ص 283، وإحقاق الحقّ: ج 10 ص 59، ومشکل الآثار للطحاوي: ج 1 ص 48، ومعالم التنزيل للبغوي: ج 1 ص 291، وتفسير الخازن: ج 1 ص 291، ومشكاة المصابيح: ج 3 ص 268، وكنز العمال: ج 13 ص 127 ط 2 حيدر آباد، وتذهيب التهذيب للذهبي: ص 134، والبداية والنهاية لابن كثير: ج 2 ص 61، وتهذيب التهذيب لابن حجر: ج 4 ص 41، وطرح التثريب: ج 1 ص 149، والكشف والبيان للثعلبي مخطوط، والخصائص للسيوطي: ج 2 ص 265، والجامع الصغير للسيوطي: ج 1 ص 505، والثغور الباسمة في مناقب سيّدتنا فاطمة للسيوطي: ص 13، وجمع الوسائل للهروي: ج 1 ص 270، وأرجح المطالب: ص 243، وشرح ثلاثيات مسند أحمد بن حنبل: ج 2 ص 511، ووسيلة المآل: ص 80، وجمع الفوائد من جامع الأصول للفاسي: ج 2 ص 233، والفتح الكبير للنبهاني: ج 2 ص 72، ومفتاح النجا للبدخشي مخطوط، والسيف اليماني المسلول: ص 20، وفرائد السمطين: ج 2 ص 44.

والعمدة لابن البطريق: ص 387 عن صحيح الترمذي، والعمدة: ص 392 عن صحيح مسلم، وبحار الأنوار للمجلسي: ج 14 ص 195 عن الثعلبي، وبحار الأنوار: ج 14 ص 200 - 201 عن الخصال: ج 1 ص 96 وص 164 من الطبعة الجديدة، وبحار الأنوار: ج 16 ص 2 وص 7 وج 29 ص 344 وج 68 ص 37، وجامع الأصول: ج 9

ص 125 ح 6670 وفي طبعة: ج 9 ص 81 ح 6658، وفي مسند أحمد بن حنبل: ج 3

ص: 543

ص 135 وج 4 ص 222 وج 5 ص 362، والمستدرک للحاکم: ج 3 ص 157 وج 4 ص 158، وصحیح الترمذی: ج 5 ص 703 ح 93878، ومنتخب مسند عبد بن حمید الکسی: ص 205/597، والمعجم الأوسط للطبرانی: ج 7 ص 254، والمعجم الكبير للطبرانی: ج 22 ص 402.

خط رسول الله (صلي الله عليه وآله) أربع خطط في الأرض: مسند أبي يعلى: ج 5 ص 110 ح 2722، والخصال للشيخ الصدوق: ص 22، بحار الأنوار: ج 13 ص 161 - 162، وتفسير العسكري: ص 143 - 144، والاحتجاج: ص 206، والخصال: ج 1 ص 82، وبحار الأنوار: ج 14 ص 168، وتفسير فرات: ص 113، ومسند أحمد بن حنبل: ج 1 ص 293 وص 316 وص 322، والمستدرک للحاکم: ج 3 ص 160، والمعجم الكبير للطبرانی: ج 11 ص 266 وج 23 ص 7، وتهذيب الكمال للمزني: ج 35 ص 249.

تفضيلها: قال الحافظ في الفتح: قال السبكي الكبير: الذي ندين الله به أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة، والخلاف شهير، ولكن الحق أحق أن يتبع. وقال ابن القيم: إن أريد بالتفضيل كثرة الثواب عند الله، فذاك أمر لا يُطلع عليه؛ فإن عمل القلوب أفضل من عمل الجوارح، وإن أريد كثرة العلم فعائشة لا محالة! وإن أريد شرف الأصل ففاطمة لا محالة، وهي فضيلة لا يشاركها فيها غير إختها، وإن أريد شرع السيادة فقد ثبت النص لفاطمة وحدها. قال الحافظ: امتازت فاطمة عن أخواتها بأنهن متن في حياة النبي (صلي الله عليه وآله)، وأما ما امتازت به عائشة من فضل العلم فإن لخديجة ما يقابله، وهي أنها أول من أجاب إلي الإسلام ودعا إليه، وأعان علي ثبوته بالنفس والمال والتوجه التام؛ فلها مثل أجر من جاء بعدها، ولا يقدر قدر ذلك إلا الله. وقيل: انعقد الإجماع علي أفضلية فاطمة، وبقي الخلاف بين عائشة وخديجة. انتهى.

وفي فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي: ج 3 ص 574 ح 3882: خديجة

بنت خويلد القرشية الأزديّة، ذات الشرف الظاهر والحسب الفاخر، أفضل أمّهات المؤمنين. قال الحافظ العراقي: علي الصحيح المختار. وذكر نحوه ابن العماد، وسبقهما السبكي.

ص: 544

فتح الباري لابن حجر: ج 6 ص 321 وج 7 ص 105 - 106، وراجع: التعجب للكراچكي: ص 36، ولاحظ: المراجعات للسيد شرف الدين: ص 315، والنص والاجتهاد له: ص 420، ولاحظ: البداية والنهاية لابن كثير: ج 8 ص 100.

حسد عائشة لأُم المؤمنين: الذرية الطاهرة النبوية للدولابي: ص 31 ذكرها النبي (صلي الله عليه وآله)، فقالت عائشة: «عجوز»، فانتهرها الرسول. في شرح الأخبار للمغربي: ج 3 ص 21، تحفة الأحوزي للمباركفوري: ج 10 ص 263 - 264.

وقول عائشة: «ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة»: «ما» الأولى نافية والثانية مصدرية؛ أي: ما حسدت مثل حسدي خديجة، والمراد من الحسد هنا الغيرة. «وما تزوجني رسول الله (صلي الله عليه وآله) إلا بعدما ماتت»، أشارت عائشة بذلك إلى أن خديجة لو كانت حية في زمانها لكانت غيرتها منها أشد وأكثر، وذلك أن رسول الله (صلي الله عليه وآله) بشرها.

فكان لغيرة عائشة علي خديجة أمران: الأول: كثرة ذكر رسول الله (صلي الله عليه وآله) لها، كما في الحديث السابق. والثاني: هذه البشارة؛ لأن اختصاص خديجة بهذه البشارة مشعرٌ بمزيد محبة من النبي (صلي الله عليه وآله) فيها. وأم ثلث: أن النبي (صلي الله عليه وآله) لم يتزوج علي خديجة بالرغم مما يزعمونه من كونها أكثر عمراً منه، وهو قد تزوج علي عائشة بالرغم من كونها صغيرة!

مقت عائشة لها: كتاب الجمل للشيخ المفيد: ص 219، وكانت عائشة تمقت خديجة بنت خويلد: وتشننها شنآن الضرائر، وكانت تعرف مكانها من رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فيثقل ذلك عليها، وتعدّي مقتها إلي ابنتها فاطمة، فتمقت فاطمة وخديجة، وهذا معروف في الضرائر.

أقرباؤها

حفيدة الحسين: في يوم عاشوراء وثب الحسين متوكئاً علي سيفه، فنادي بأعلي صوته، قال: أنشدكم الله، هل تعرفوني؟ قالوا: نعم أنت ابن رسول الله (صلي الله عليه وآله) وأحد سبطيه.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن جدّي رسول الله (صلي الله عليه وآله)؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن أمّي فاطمة بنت محمد (صلي الله عليه وآله)؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن أبي علي بن أبي طالب؟ قالوا: اللهم نعم.

ص: 545

قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن جدتي خديجة بنت خويلد، أول نساء هذه الأمة إسلاماً؟ قالوا: اللهم نعم.

الأمالي للصدوق: ص 222، واللهوف للسيد ابن طاوس الحسني: ص 53.

حفيدتها أمانة: الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 8 ص 39.

خير جدّة: الأمالي للصدوق ص 522: فنادي منادي رسول الله (صلي الله عليه وآله) في المدينة، فاجتمع الناس عند رسول الله (صلي الله عليه وآله) في المسجد، فقام علي قدميه، فقال: يا معشر الناس، ألا أدلكم علي خير الناس جدّاً وجدّة؟ قالوا: بلي يا رسول الله، قال: الحسن والحسين، فإن جدّهما محمّد، وجدّتهما خديجة بنت خويلد.

أولادها: لاحظ ذخائر العقبي للطبري: ص 151، وشرح الأخبار للمغربي: ج 3 ص 15، وكتاب المنمّق لابن حبيب: ص 247.

ولادة فاطمة: في الثاقب في المناقب لابن حمزة: ص 285، والأمالي للصدوق: ص 475، والمناقب لابن شهر آشوب: ج 4 ص 340، وروضة الواعظين: ص 143، والخرائج والجرائح: ج 2 ص 524، ودلائل الإمامة: ص 8، وينايع المودّة: 198، وملحقات إحقاق الحقّ: ج 4 ص 19، ومعالم الزلفي: ص 390.

القاسم: بحار الأنوار للمجلسي: ج 15 ص 16.

الطاهر: بحار الأنوار: ج 16 ص 16، وفي أسد الغابة لابن الأثير: ج 3 ص 50: طاهر ابن هالة أخو هند بن أبي هالة الأسدي التميمي، واسم أبي هالة النباش.

زينب وأمّ كلثوم: نصب الراية للزيلعي: ج 2 ص 307، كتاب الصحابة لابن الأثير، قال: زينب بنت رسول الله (صلي الله عليه وآله) أكبر بناته، وأمّها خديجة بنت خويلد، توفيت في السنة الثامنة، ونزل في قبرها، وأختها أمّ كلثوم شقيقتها، توفيت سنة تسع، وصلي عليها رسول الله (صلي الله عليه وآله).

رقية بنت رسول الله (صلي الله عليه وآله): أمّها خديجة بنت خويلد رضي الله عنهما، روي مصعب بن

عبد الله أن خديجة ولدت لرسول الله (صلي الله عليه وآله) فاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم. تهذيب الكمال للمزي: ج 23 ص 34.

ابنها هند: البداية والنهاية لابن كثير: ج 6 ص 35. وهند هذا هو ربيب رسول الله (صلي الله عليه وآله)، أمه خديجة، وكان يقول: أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً: أبي رسول الله - لأنه زوج أمه - وأمي خديجة، وأخي القاسم، وأختي فاطمة. قُتل هند مع علي يوم الجمل. المنتخب من ذيل المذيل علي الطبري: ص 40.

سبطها محمد بن صيفي: وهو سبط خديجة، أمه هند بنت عتيق بن عامر بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وأمها خديجة. الإصابة لابن حجر: ج 6 ص 14: 7794.

سبطها محمد الأوسط: ابن أمير المؤمنين أمه أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمها

زينب بنت رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وأمها خديجة. الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 3 ص 20.

جدّها لأُمّها: عمرو بن خنثر من أبطال الجاهلية، هو جدّ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد لأُمّها (عليها السلام). تاج العروس للزبيدي: ج 3 ص 190.

أبوها خويلد أبي الخسف: وهو الذي نازع تبعاً حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن، فقام في ذلك خويلد، وقام معه جماعة من قريش، ثم رأي تبع في منامه ما رّوعه، فنزع عن ذلك وترك الحجر الأسود مكانه. في سبل الهدى للصالحى: ج 1 ص 11، وفي تاج العروس: ج 6 ص 10 وص 86: وأبي الخسف لقب خويلد والد خديجة زوج النبي (صلي الله عليه وآله)، وفيه يقول يحيى بن عروة بن الزبير:

أب لي أبي الخسف قد تعلمونه

وفارس معروف رئيس الكتائب

جدّها لها: نُهيّة - كَسْمِيّة - ابنة سعيد بن سهم، أم ولد أسد بن عبد العزّي بن قصي، وهي أم خويلد، جدّة السيّدّة خديجة: تاج العروس: ج 10 ص 382.

والدة الأئمّة: وعن صفوان الجمال، قال: قلت يوماً لأبي عبد الله جعفر بن محمد وأنا عنده: يا بن رسول الله، أمنكم السفّاح؟ فأطرق إلي الأرض ملياً، ثم قال: يا ثابت، منّا السفّاح... ورسول الله أبونا الأكبر، وعليّ أبونا الأصغر، وفاطمة أمّنا، وخديجة بنت

ص: 547

خويلد والدتنا. شرح الأخبار للمغربي: ج3 ص64.

ابن عمّها: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّي، وهو ابن عمّ أمّ المؤمنين وجدة أهل البيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي (عليها السلام).

قال ابن مندّة: اختُلف في إسلامه، والأظهر أنّه مات قبل الرسالة. تاج العروس للزبيدي: ج7 ص86، وقال في شرح الأخبار للمغربي: ج3 ص15: كان علي دين النصرانيّة، قد قرأ الكتب، وكان يذكر أنّ نبياً إن بُعث يُبعث من قريش، فيقول: هو والله

النبي المنتظر، وله في ذلك أشعار كثير قالها، ومات قبل أن يبعث الله نبيّه محمّداً. وفي شرح الأخبار للمغربي: ج1 ص183: من شعره يقول:

لججت وكنْتُ في الذكرى لجوجا

ل-ه-م ط-ال ماب-ع-ث ال-نش-ي-ج-ا

وهذه

الأبيات في الإصابة لابن حجر: ج3 ص634:

هذي خديجة تأتيني لأخبرها

وما لنا بخفيّ الغيب من خبر

بأنّ محمّداً سيسود قوماً

ويخصم من يكون له حجيجا

في البداية والنهاية لابن كثير (ج2 ص362): وقال ورقة:

أتبكر أم أنت العشية رانح

وفي الصدر من

إضمارك الحزن قادح

لقد نصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم

أنا النذيرُ فلا يغركم أحد

وله وصيّة لخديجة بنت خويلد: في الأمالي للمفيد: ج1 ص185، الأمالي للطوسي: ص302/598 ط حديثه، البداية والنهاية لابن كثير:

أختها هالة بنت خويلد بن أسد: أخت خديجة أم المؤمنين، صحابية، وهي أم أبي العاص بن الربيع. تاج العروس: ج 8 ص 176، الشفا للقاضي عياض: ج 1 ص 127، المنتخب من ذيل المذيل للطبري: ص 41.

ابن أختها أبو العاص صهر رسول الله (صلي الله عليه وآله): لقيط بن الربيع بن عبد العزّي بن عبد شمس العبشمي، صهر رسول الله (صلي الله عليه وآله)، أسر يوم بدر، وهو ابن أخت خديجة بنت خويلد، وكنيته

أبو العاص مشهور بها، وقيل: بل اسمه مهشم، وقيل: هشيم، وقيل: قاسم، ولقيط أصح. تاج العروس للزبيدي: ج5 ص217.

أخوها وابن أخيها: حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد القرشي، الصحابي، كان من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه، هو صحابي بالاتفاق، وأما أبوه حزام بن خويلد فهو

أخو خديجة بنت خويلد، وغلط من عدّه صحابياً. سيرة ابن هشام الحميري: ج1 ص236، تاج العروس: ج8 ص246.

أختها رقيقة وبنتها أميمة: رقيقة بنت خويلد بن أسد، أخت خديجة بنت خويلد، فأميمة ابنة خالة أولاد رسول الله (صلي الله عليه وآله) من خديجة. أسد الغابة لابن الأثير: ج5 ص403، وفي شرح سنن النسائي للسيوطي: ج1 ص31: قال الحافظ جمال الدين المزي في التهذيب: رقيقة بنت خويلد أخت خديجة أم المؤمنين:.

حفيدة أختها: حكيم بنت أميمة بنت رقيقة، ورقيقة أخت خديجة بنت خويلد، وأبو أميمة عبد الله بن بجاد التميمي، تابعة. تاج العروس: ج8 ص254.

ابن أخيها الزبير: الفائق في غريب الحديث للزمخشري: ج1 ص291، قال: خديجة عمّة الزبير؛ لأنّ خويلد بن أسد أبو العوّام وخديجة، فجعلها عمّة لعبد الله كما يجعل الجدّ أباً. وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج4 ص62.

مصاهرتها لرسول الله (صلي الله عليه وآله): المنتخب من ذيل المذيل للطبري: ص6، وفي المجموع للنووي: ج19 ص381: ويقدم عبد العزّي علي عبد الدار؛ لأنّ فيهم أصهار رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فإنّ خديجة بنت خويلد منهم. وفي روضة الطالبين للنووي: ج5 ص321: فيقدم بني هاشم، وبني المطلب علي سائر قريش، ثمّ بني عبد شمس وبني نوفل أخوي هاشم، ويقدم منهما بني عبد شمس؛ لأنّه أخو هاشم لأبويه، ونوفل أخوه لأبيه، ثمّ بني عبد العزّي وبني عبد الدار ابني قصي، يُقدم منهما بني عبد العزّي؛ لأنّهم أصهار رسول الله (صلي الله عليه وآله)، فإنّ خديجة (عليها السلام) بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّي.

قابلتها سلمى مولاة صفية: الإصابة لابن حجر: ج8 ص99 الرقم 11092.

صديقة خديجة: المستدرك للحاكم: ج4 ص175.

نفسية: هي التي سعت في ما بين رسول الله(صلي الله عليه وآله) وخديجة بنت

خويلد حتى تزوجها. الطبقات الكبرى لابن سعد: ج8 ص244.

أم زفر ماشطتها: إنَّ أمَّ زفر هذه كانت ماشطة لخديجة بنت خويلد، وأنها عمّرت حتى رآها عطاء بن أبي رباح. البداية والنهاية لابن كثير: ج6 ص177 وج6 ص325، وابن الأثير في أسد الغابة، والشفاء للقاضي عياض: ج1 ص131.

من آل خديجة: الاستغاثة لأبي القاسم الكوفي: ج1 ص70: قال: وقع بيني وبين من نسب إلي هند من ولده مجادلات ومناظرات في ما ينتسبون إليه من خديجة وما يجهلون من جدّتهم هالة أخت خديجة، ولما عرفتهم الصحيح من ذلك اشتدّ عليهم وجادلوني أشدّ مجادلة في أنّهم من ولد خديجة، فأعلمتهم أنّ ذلك جهل منهم بنسبهم، وأنّ خديجة لم تتزوج بغير رسول الله(صلي الله عليه وآله).

يزيد بن عمر أبو عبد الله التميمي: وفي أسد الغابة لابن الأثير: ج5 ص456/7470: من ولد أبي هالة النّبّاش بن زرارة، زوج خديجة بنت خويلد، روي عن ابن لأبي هالة عن الحسن بن علي، قال: سألتُ خالي هند بن أبي هالة - وكان وصافاً - عن حلية رسول الله(صلي الله عليه وآله)... الحديث بطوله. وفيه حديث عن أخيه الحسين بن عليّ، عن أبيه عليّ بن أبي طالب .

الخديجيّ: رجال النجاشي: ص266 الرقم 692: عليّ بن عبد الله بن محمّد بن عاصم بن زيد بن عمرو بن عوف بن الحارث بن هالة بن أبي هالة النّبّاش بن زرارة بن وقدان بن أسيد بن عمرو بن تميم، أبو الحسن المعروف بالخديجي، وهو الأصغر. ولنا الخديجي الأكبر علي بن عبد المنعم بن هارون، وإنّما قيل له الخديجي؛ لأنّ أمّ هالة بن أبي هالة خديجة بنت خويلد(عليها السلام). له كتاب خديجة وعقبها وأزواجها. الفهرست للطوسي: ص87.

دارها: في فتوح البلدان للبلاذري: ج1 ص57: واحتقر عبد شمس بئرين وسَمّاهما «خُمّ ورُمّ» علي ما سمّي كلاب بن مرّة بئريه. فأما «خُمّ» فهي عند الردم، وأما «رُمّ» فعند دار

ص: 550

خديجة بنت خويلد. في معجم ما استعجم للبكري: ج2 ص510 عن أبي عبيدة: «خَمَّ» بئر احتفرها عبد شمس بالبطحاء بعد بئر العجول. قال: ومن حفائره أيضا «رُمَّ»، وبعضهم يقول: «رُمَّ» بالراء المهملة، والأوّل أثبت، وهي التي عند دار خديجة بنت خويلد.

وفي تاريخ الطبري: ج3 ص36: كان منزل خديجة يومئذٍ المنزل الذي يُعرف بها اليوم فيقال: منزل خديجة، فاشترته معاوية - في ما ذكر - فجعله مسجداً يصلّي فيه الناس، وبناه علي الذي هو عليه اليوم لم يُغيّر. وأمّا الحجر الذي علي باب البيت عن يسار من يدخل البيت، فإنّ رسول الله (صلي الله عليه وآله) كان يجلس تحته ويستتر به من الرمي إذا جاءه من دار أبي لهب ودار عدي بن حمراء الثقفي خلف دار ابن علقمة، والحجر ذراع وشبر في ذراع.

وفي مناقب خديجة الكبرى لمحمد بن علوي المالكي: ص2: دار خديجة بنت خويلد زوجة النبي (صلي الله عليه وآله) التي نصرت الإسلام بأموالها حتّى قيل: «ما قام الإسلام إلا بسيف عليّ وأموال خديجة»، تقع في سوق الصاغة المتفرّج من سوق الطويل خلف المسعي، وكانت هذه الدار مهبط الوحي والتنزيل ومولد فاطمة الزهراء.

وفي كلمة التقوي للشيخ زين الدين: ج3 ص499: ينبغي أن يزور منزل الرسول، وهو منزل زوجته خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين، وقد سكنه الرسول معها في أيام حياتها، وسكنه بعد وفاتها إلي أن هاجر إلي المدينة، وفيه ولدت أولادها، وهو الآن مسجد يقع في زقاق يُسمّى زقاق الحجر، ويقال لهذه الدار: مولد فاطمة الزهراء.

وفاتها: بحار الأنوار: ج5 ص19 عن مسازّ الشيعة للمفيد: ص6: في يوم العاشر من شهر رمضان سنة عشر من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنين، توفّيت أمّ المؤمنين خديجة. الحدائق الناضرة للبحراني: ج17 ص423: عام الحزن.

بحار الأنوار

للمجلسي: ج16 ص13: توفّيت وهي ابنة خمس وستين سنة، فخرجنا بها من منزلها حتّى دفناها بالحجون، فنزل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في حفرتها، ولم يكن

يومئذٍ صلاة علي الجنّازة، قبل الهجرة بسنوات ثلاث أو نحوها، وبعد خروج بني هاشم من الشعب بيسير.

وفي التنبيه والإشراف للمسعودي: ص199: وتوفّي عمّه أبو طالب وله بضع

ص: 551

وثمانون سنة، وزوجه خديجة بنت خويلد ولها خمس وستون سنة، في السنة العاشرة من مبعثه، بينهما ثلاثة أيام، وقيل: أكثر من ذلك، وذلك بعد إبطال الصحيفة وخروج بني هاشم بن عبد المطلب من الحصار في الشعب بسنة وستة أشهر.

وقال البلاذري في الأنساب: ص 186 ح 1: وقال بعضهم: ماتت قبل الهجرة بخمس سنين. قال البلاذري: وهو غلط.

وفي مستدرك الحاكم: ج 3 ص 182: دُفنت خديجة بالحجون، ونزل في قبرها رسول الله (صلي الله عليه وآله)، وكان لها يوم تزوجها ثمان وعشرون سنة. وأم خديجة فاطمة بنت زائدة بن الأصم، وأمها هالة بنت عبد مناف.

عن هشام بن عروة، قال: توفيت خديجة بنت خويلد (عليها السلام) وهي ابنة خمس وستين سنة، هذا قول شاذ، فإن الذي عندي أنها لم تبلغ ستين سنة.

المنتخب من ذيل المذيّل علي الطبري: ص 86: ودُفنت بالحجون، ونزل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في حفرتها.

وفاتها وموقف الرسول وفاطمة

قال اليعقوبي: دخل عليها رسول الله وهي تجود بنفسها - في مرضها الذي توفيت فيه - فقال: «بالكره مني ما أرى، ولعلّ الله أن يجعل في الكره خيراً كثيراً». ولما توفيت خديجة جعلت فاطمة تتعلّق برسول الله (صلي الله عليه وآله) وهي تبكي وتقول: أين أمي؟ أين أمي؟ فنزل جبرئيل فقال: قل لفاطمة: إنّ الله تعالي بني لأُمك بيتاً في الجنة من قصب، لا نصب فيه ولا صخب.

وتوفي أبو طالب بعد خديجة بثلاثة أيام، وله ست وثمانون سنة، وقيل: تسعون سنة. ولمّا قيل لرسول الله: إنّ أبا طالب قد مات، عظّم ذلك في قلبه واشتدّ له جزعه، ثم دخل عليه فمسح جبينه الأيمن أربع مرّات، وجبينه الأيسر ثلاث مرّات، ثم قال: «يا عمّ، ربّيت صغيراً وكفّلت يتيماً ونصرت كبيراً، فجزاك الله عنّي خيراً». ومشى بين يدي سريره، وجعل يعرض له ويقول: «وصلتكَ رحمٌ وجزيت خيراً». وقال: «اجتمعت علي هذه الأمة في

هذه الأيَّام مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشدَّ جزعاً؛ يعني مصيبة خديجة وأبي طالب.

وروي عنه أنه قال: «إنَّ الله وعدني في أربعة: في أبي وأمي وعمِّي وأخٍ كان لي في الجاهليَّة». البداية والنهاية لابن كثير: ص 74 ح 2، رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: ص 218 ح 9، والإصابة لابن حجر: ج 8 ص 101، وكنز العمال الرقم 34345، والطبقات الكبرى لابن سعد: ج 1 ص 210، وتاريخ الطبري: ج 2 ص 413، والبداية والنهاية لابن كثير: ص 321 ح 5، وإعلام الوري للطبرسي: ص 53 ح 1.

وفي سيرة ابن هشام الحميري: ص 273 - 282 ح 2: قال ابن إسحاق: إنَّ خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتبع علي رسول الله (صلي الله عليه وآله) المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزيرة صدق علي الإسلام، يسكن إليها، وبهلك عمُّه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصرأ علي قومه، وذلك قبل مهاجره إلي المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله (صلي الله عليه وآله) من الأذي ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتَّى اعترضه سفيهٌ من سفهاء قريش، فنثر علي رأسه التراب، ودخل رسول الله (صلي الله عليه وآله) بيته والتراب علي رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله (صلي الله عليه وآله) يقول لها: «لا تبكي يا بنيَّة، فإنَّ الله مانعٌ أبك». قال: ويقول بين ذلك: «ما نالت منِّي قريشٌ شيئاً أكرهه حتَّى مات أبو طالب».

قبرها: في المنتخب من ذيل المذيَّل علي الطبري: ص 86: دُفنت بالحجون، ونزل رسول الله (صلي الله عليه وآله) في حفرتها.

وفي أسد الغابة: ص 78 ح 6 الرقم 6867: دُفنت بالحجون.

وفي كلمة التقوي للشيخ زين الدين: ج 3 ص 499: يستحبُّ أن يُزار قبر السيِّدة خديجة بنت خويلد أمَّ المؤمنين، وقبرها معروف في مقبرة الحجون، ويقع في سفح الجبل، وأن يُزار قبر أبي طالب مع الإمكان، وقبور الهاشميين وغيرهم.

المؤلَّفات حولها

1. كتاب خديجة وعقبها وأزواجها، لأبي الحسن علي بن عبد الله بن محمَّد التميمي الخديجي

الأصغر؛ سُمِّي بالخديجي لأنَّ أمَّ جدِّه الثامن الذي اسمه هالة بن أبي هالة

ص: 553

بنت خديجة من زوجها الأول، فهو من أسباط خديجة بنت خويلد، وألف كتابه هذا ليكون ذكري لأسلافه، ورواه النجاشي عنه بثلاث وسائط. الذريعة لآقا بزرك الطهراني: ج7 ص 143/789 وج 15 ص 346/53.

2. مناقب السيِّدة خديجة بنت خويلد، لأحمد بن محمد بن علوي الحسيني العلوي آل المحضار: ص 1304-1217. الأعلام للزركلي: ج 2 ص 2.

3. رسالة في قصّة زواج النبي (صلي الله عليه وآله) بالسيِّدة خديجة، لأحمد المحضار المذكور.

4. خديجة أمّ المؤمنين، لعبد الحميد الزهراوي. الأعلام للزركلي: ج 2 ص 302.

5. خديجة أمّ المؤمنين، لبثينة توفيق. معجم المؤلفين لعمر كحالة: ص 128 ح 3.

6. البشري في مناقب السيِّدة خديجة الكبرى (عليها السلام)، بقلم السيّد محمد ابن علوي المالكي الحسيني، من علماء المسجد الحرام، طبع بمكّة المكرّمة.

7. هذا الكتاب.

8. هذا المستدرک عليه.

9. الأنوار الساطعة من الغراء الطاهرة، للشيخ غالب السيلوي، صدر حديثاً في قم.

من مصادر ترجمتها

الطبقات الكبرى لابن سعد: ج 8 ص 14، والاستيعاب: ج 4 ص 279، والإصابة: ج 4 ص 281، وقسم النساء، الترجمة: ص 333، وأسد الغابة: ص 95 ح 434، وبحار الأنوار: ج 1 ص 16 وص 385، وقاموس الرجال: ج 10 ص 430، والدرّ المنثور للسيوطي: ص 229 ح 8، وفضائل الصحابة لابن حنبل: ص 73، وطبقات ابن سعد: ج 11 ص 8 ح 7، والمحجّر: ص 11 وص 77 وص 452، وصفة الصفوة: ج 2 ص 2، وسير النبلاء المجلّد الثاني، وتاريخ الخميس: ج 1 ص 301، وذيل المذيّل: ص 65، والسمط الثمين: ص 17.

ص: 554

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: 9

عنوان المكتب المركزي
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

